

نوال السباعي

مورا في مدريد



مورا
في مدريد

نوال السباعي

مورا في مدريد



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ملتزم الطباعة والنشر والتوزيع

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع



Airport Old Road - Near
Al Mostapha School - Bdeir Bldg
Beirut - Lebanon

طريق المطار - خلف مستشفى
الساحل قرب مدرسة المصطفى
بناية بدير بيروت - لبنان

+961 3 703 701

+961 1 556 976

f daralkalam

darkalam

www.alkalam.com

info@alkalam.com

جميع حقوق الملكية الادبية و الفنية محفوظة © للمؤلف/ة و يحظر طبع او تصوير
او ترجمة او اعادة تنضيد الكتاب كاملا او مجزأ او تسجيله على اشرطة كاسيت او
ادخاله على الكمبيوتر او برمجته على اسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطيا.

Exclusive rights by © To author No part of this publication may be translated,
reproduced, distributed in any form or by any means, or stored in a data
base or retrieval system, without a prior written permission of the publisher.

تنويه: هذا الكتاب ليس رواية، إنه «شهادة» على
حُقبَة من حياتنا بين القرنين 20 و21، يحكي - من
وجهة نظر باحثه وصحفية - بأسلوب أدبي «سيرة
جماعية»، لشريحة ضخمة من المغتربين من
المنطقة العربية في إسبانيا - وأوروبا -، لم يتحدّث
أحد عنهم من قبل.

الشخصيات التي جاء ذكرها في الكتاب، هي
شخصيات مُركّبة منحوّنة من واقع مجموعات
من الناس في مجتمعاتنا وفي إسبانيا، ولا تُوجد
في الكتاب أيّ شخصيّة حقيقية، ما عدا تلك التي
ذُكرت في الكتاب بالاسم.

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى الأحرار.. في مُحاولاتهم الأسطورية
المُسَمَّية لِإِسْتِرْدَادِ «الهُيَّة» و«الإرادة» من بين
أنيابِ الغيلان والغربة .

فَجَرُوا ثورة الكرامة والحرية والخلاص، ثلاثين
عامًا بعد تاريخ الأحداث التي يحكي بعضها هذا
الكتاب..

«مورا».. يا لها من كلمة؟! جعلتني، بسني عمري الثماني والعشرين، وذكرياتي الكثيرة التي حملتها معي من حياتي «العريضة» التي عشتها في دمشق، غريبة حتى نخاع عظامي. غريبة بآمالي وآلامي، وآمال زوجي وأطفالي وآلامهم، وأوراقِي وأقلامي، وقلبي وروحي.

«مورا».. مُجرد كلمة، كلمة واحدة فحسب، جعلتني مع كل هؤلاء، من أشخاص وذكريات ومشاعر وصور، أنكمشُ إليها، أنحسر فيها، أكاد أختنق، أصارع سجنها، أحاول أن أمزق بأظفاري جدران قهرها وجبروتها، ولا أستطيع الخلاص، فلقد بدأت - للأسف أو لحسن الحظ! - بعد ذلك بسنين طويلة أتعايش معها كما أتعايش مع مدريد نفسها، تمامًا - كما يتعايش المرء مع مَرَضِ القلب، والروماتزم.. لا علاج ولا حل.

بدأت أقبل الدور الذي أرغمتني مدريد أن أعيشه.

«مورا».. دور أسندته مدريد إليّ، وأجد نفسي مُرغمَة على القبول به، لم أستطع وبعد مُرور السنين في مدريد أن أنفك عنه.

الطوفان.

● **كانت** غرناطة كأنها دِمَشق، حُويراتها القديمة الضيقة المنسيّة، رائحة هوائها، نُسيمات سحرها، عبّق التاريخ الذي تحمله أطراف غيماتها، قطرات مطرّها، حفيف أشجارها، قرقة الأقدام في أزقتها العتيقة، وهدير حركة المرور الصّاخب في شوارعها الحديثة.. «المنثور الأصفر» الذي ينتشر على جنبات هاتيك الطُّرق أينما ذهب، وحيثما تَلَقَّتْ، والوردُ الغرناطي ابن عمِّ الوردِ الدِّمشقيّ الذي يكبره حجمًا ويمتاز عليه بتعدد ألوانه اللَّافِتة، ولكن لا طيِّب ولا عيِّير.

الأقواسُ التَّاريخيّة، ساحة «كولون»⁽¹⁾، ساحة «الرملة»⁽²⁾،

(1) الساحة الرئيسية في كل المدن الإسبانية والأمريكية اللاتينية، تدعى ساحة «كولون»، نسبة لكريستوفال كولومب – Cristóbal Colón — كما يلفظ بالإسبانية، الذي يُنسب إليه «إكتشاف» القارة الأمريكية. وذلك قبل أن تتم إزاحة تماثيله في الأعوام الأخيرة من معظم المدن الأمريكية والأمريكية اللاتينية، باعتباره من جلب الاستعمار والولايات والإبادة الجماعيّة لتلك البلاد.

(2) ساحة – الرملة، أو كما يدعوها الإسبان «الرميلة» أو «بيب رملة»، وهي نواة الحياة الاجتماعية والتجارية في غرناطة، الشاهدة على فضاء تاريخ محاكم التفتيش فيها، من حرق للبشر وللكتب، ظلت الساحة الرئيسية في غرناطة على مرّ القرون، مشهدًا وشاهدًا صامتًا، لوجود المسلمين القديم في إسبانيا، ومبارزات العصور الوسطى، ومصارعة الثيران، والإعدامات العلنية، والاحتفالات الشعبية، ومواكب تقديس الصليب. في الوقت الحاضر، تتوسطها نافورة العمالقة، وفيها سوق دائم للزهور، ومجموعة واسعة من المطاعم والكافيتريات، وتشكل قلب غرناطة السياحي.

اللتان لم أستطع المُكوثَ فيهما قط، كنت أُمّرُ فيهما لبعض شأني،
مسرعة مطأطئة الرأس، أشعر بالاختناق في حُصرة الأرواح
المُعذّبة التي تَسْكُنُهما.

قَصُرُ الحمراء وجنّات العَريف المُحيطة به، وريحٌ مِسْكِيها
وعَبَقُ رِياحِينِها.. وبِضْعَة أعوام من المعاناة، والوحدة المريرة،
حملُها جميعاً في قلبي عندما قَرَرنا الهجرة إلى مدريد، بحثاً عن
مدارس عربية يمكننا أن نُلحِق بها أولادنا.. الشَّيء الذي لم يحدث
إلا بعد عشرة أعوام من تاريخ وصولنا إليها!

في هذه الأيام الربيعية الباردة التي تَنُشِرُ شذاها في أرجاء
المدينة، وَصَلْنَا مدريد للعِيش فيها، بعد سبعة عشر عاماً قَضَاها أبو
الأولاد في غرناطة، خمسة منها في صُحبتنا.. الأولاد وأنا.

خرجنا من غرناطة مُحَمَّلِينَ بالذكريات والحسرات،
وسَيَارَتِي أَجْرَة غَصَّتَا بمتاعنا، خرجنا منها كمن إقْتُلِعَ من حديقة
أزهار، كل وردة وياسمينية في غرناطة كانت تُسْكِنُ أَلَمَ البُعد عن
دِمَشق، أحيائها، حدائقها، رِياحِينِها، هوائها، ونسماتها.

وبقيت بناتي، على صغر سنّهن يندبن غرناطة، وبيتهم في
غرناطة، وألعابهن التي اضطررنا إلى رمي ثلاثة أرباعها بسبب
السفر.

ولولا إحترامي ألام الزوج وطفولة الصغيرات لقضيت
الرحلة في البكاء، ولكن - وكما يقول تشيخوف - نحيب الرُّوح
الصامت أشدّ أَلَمًا وأكثر وقارًا واحترامًا.

لم يعد في استطاعتي أن أرصد ذكرياتي من خلال المكان.
إنني أنخلع منه مرة بعد مرة، وتُصبح المُدن أرواحًا وأشباحًا

= المصدر : موقع barcelo / تحت عنوان: الرميلة مرآة لألف عام من تاريخ
غرناطة.

تجوب قلوبنا ولا تبارح، نَتَلَمَّس في الصَّخر والأسفلت حياةً تتسلق جُدران الزَّمن، تغطيها بأوراقها، تتبدل ألوانها بتغير الفصول الأربعة، خصوصاً عندما تَتَصَحَّر قلوب النَّاس الذين يَسْكُنون هذه المدن، ويصبح الجبل والربوة والأشجار، هُم الأحبة الذين يَحِنُّ إليهم المرء، وهو ماضٍ في رحلة غربته التي تبدو في كثير من الأحيان وكأنَّها لا نهاية لها.

ما عاد لديَّ رُقعة من جغرافيا أرسم فيها حكاياتي عن الزمان.. وعني، عن جُذوري وأحلامي. هنا.. كنا نلعب، نَتَسَلَق الخزانة على أكتاف بعضنا حتى نَصِل إلى عُلبة الشوكولاته التي تحاول أمِّي إخفاءها لتُكْرِم بها ضيوفها، هنا.. كَسَرْتُ ذلك التَّمثال القبيح الذي كان أول شيءٍ اشترته أمِّي من «مَعايشها» الأول بعد أن عُيِّنَت مُعَلِّمة في حوران⁽¹⁾ وهي في الثامنة عشرة من عمرها، وهنا.. أحرَقْتُ ذات مساء كلَّ أوراقي ودَفَاتِرِ مُذكراتي، في أول حريقٍ «أشعلته» في حياتي، في حديقة بيت جدِّي بعد أن حَمَلَنِي الجميع على أن أفعلهُ خوف الإعتقال والتعذيب، وفي المرة الثانية كان الحريقُ الكبير الذي شَبَّ في القلب والأوراق والكلمات، في غرناطة، وكان ثمرة الغربة والخيبة، ومنذ ذلك الحين تَكَرَّرَت الحرائق، وتَكَرَّرَت الولادات من رَماد تلك الكلمات وهاتيك الأوراق.

هنا.. كنت أقفُ كلَّ صباح أرقبُ خُروج الشَّمس حتى

(1) ورد في معجم البلدان «حوران بالفتح كورة واسعة من أعمال دمشق من جهة القبلة، ذات قرى ومزارع وحرّات». تعد حوران تاريخياً جزءاً أساسياً من بلاد الشام، وتقع ما بين سوريا والأردن. ومن الناحية الإدارية، محافظة درعا الحالية، هي وريثة حوران التاريخية. وقد اشتهرت حوران ودرعا بشكل كبير أثناء نشوب ثورة 2011 في المنطقة.

المصدر - بتصرف - : موسوعة الآثار في سورية/ الموسوعة العربية.

تَسْتَوِي فوق حارتنا الدِمَشْقِيَّة الحُبْلَى بحكايات الجيران تَمُورُ
 بِحَادِثَاتِ الأَيَّامِ، وهنا.. كان جَدِّي يَعْقِدُ حلقةَ عِلْمٍ، يَأْتِيهِ فِيهَا
 بَعْضُ مُسَنِّي دِمَشقٍ مِنْ أَكْبَارِ القَوْمِ، يَقْرَءُونَ فِي تِلْكَ الكُتُبِ
 الصِّفْرَاءِ المَرْصُوصَةِ عَلَى الرُّفُوفِ الَّتِي تَحْمِلُهَا كُلُّ جِدْرَانِ البَيْتِ،
 فَلَا تَتْرَكُ فِيهَا مَسَاحَةً فارِغَةً يُمْكِنُ أَنْ يَشْغُلَهَا أَيُّ شَيْءٍ آخَرَ غَيْرِ
 الكُتُبِ، يَزْدَرِدُونَ الكَعْكَ وَيَشْرَبُونَ الشَّاي، يُطْرِقُ بَعْضُهُمْ غَافِيًا،
 بَيْنَمَا نَتَسَلَّلُ، أَنَا وَإِخْوَتِي وَأَبْنَاؤُ عَمِّي، زَحْفًا مِنْ تَحْتِ الكِرَاسِيِّ،
 نَخْتَلِسُ شَيْئًا مِنَ الكَعْكَ المُتَبَقِّي، وَنَحْنُ نَضْحَكُ مِنْ شَخِيرِ القَوْمِ
 وَانْتِبَاهَاتِهِمْ.

هنا.. كان زِفَافُ عَمِّي، وَفِي تِلْكَ الغُرْفَةِ مَاتَتْ جَدَّتِي وَحِيدَةً
 بَيْنَ أَهْلِهَا وَنَاسِهَا، غَرِيبَةً فِي بَيْتِهَا وَوُطْنِهَا، كَانَتْ غُرْبَتُهَا أَشَدَّ مِنْ
 غُرْبَتِي فِي الطَّرَفِ الْآخَرِ مِنَ الأَبْيَضِ المُتَوَسِّطِ، بَعِيدَةً نَائِيَةً، غُرْبَتُهَا
 كَانَتْ مِنْ نَوْعٍ آخَرَ وَمِنْ طَعْمٍ آخَرَ، غُرْبَةً - الْإِنْسَانِ عِنْدَمَا لَا يَجِدُ
 مَكَانَهُ فِي أَسْرَتِهِ وَوُطْنِهِ وَفِي هَذَا الْعَالَمِ، كَانَتْ «الْحِمَاصِيَّة» بِنْتُ
 الْحَسَبِ وَالنَّسَبِ وَالْأَكَابِرِ، فِي بَيْتِ زَوْجٍ كُلِّ هَمٍّ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا
 رَضِيَ اللهُ وَطَلَبَ الْعِلْمَ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ «رَضَى اللهُ» فِي مَوْسُوعَتِهِ
 الْعِلْمِيَّةِ الضَّخْمَةِ الْهَائِلَةِ أَنْ يُحَسِّنَ لِهَذِهِ الزَّوْجَةِ، وَلَا حَتَّى بِكَلِمَةٍ،
 عَاشَتْ مَعَهُ رَحْلَةً عَذَابٍ وَغُرْبَةً مُسْتَمِرَّةً، كَادَتْ أحيانًا تَهْزُ مِنْ
 قَنَاعَتِي بِجَدْوَى عِلْمِهِ الْهَائِلِ، الَّذِي كُنْتُ الْمُسْتَفِيدَةَ الْأُولَى مِنْهُ
 فِي هَذِهِ الْعَائِلَةِ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ تَنْمُو مَدَارِكِي لِأَفْهَمِ مُلَابَسَاتِ
 النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ بِخَيْرِهَا وَشَرِّهَا، وَنُقَاطِ عَجْزِهَا وَقُوَّتِهَا، وَقُدْرَاتِهَا
 الْمُتَفَاوِتَةِ عَلَى الْكَرَاهِيَّةِ وَالْحُبِّ.

قَرِيبًا مِنْ مِثْرَيْنِ مِنْ رَجُلٍ اسْتِثْنَائِي بِكُلِّ مَعَانِي الْإِسْتِثْنَائِيَّةِ،
 لِحْيَةٌ بِيضَاءُ كَثَّةٌ جَمِيلَةٌ مُعْطَرَّةٌ دَائِمًا بِالْمِسْكِ وَالْعَنْبَرِ، رَأْسٌ أَصْلَعُ
 يُشَبِّهُ رَأْسَ «دَافَنشِي» صَاحِبِ المُونَالِيزَا، يُقَدِّمُ البُرْهَانَ عَلَى صَحَّةِ
 نَظَرِيَّتِهِ الْخَاصَةِ بِالْوَفَرَةِ فِي الْإِنْتِاجِ وَالسُّوءِ فِي التَّوْزِيعِ.

عينان زرقاوان نافذتان مُخيفتان، لا يمكن التحديق فيهما
خشيةً واحترامًا، وأحيانًا تحسُّبًا ووجلًا، في تلكما العينين شيءٌ
مُخيف، أهو الغضب الحاضر الدائم؟ أهو القدرة على تقييـمك
وأنت صامت من دون أن تنبس ببنت شفة؟ ظهرَ أحتته الهموم،
كتيفان مُتهذَّلتان أكلت السنون لحمهما، ويدان كبيرتان نظيفتان
باردتان دائمًا.. يأخذُك بينهما فيمسح على رأسك، ليُزيل الخوف
الذي تُشيعه تلكما العينين في نفسك، واللّتان ما تفتان تغروران
بالدموع شفقةً ولهفةً وحُبًا.

أدخل باب غرفته، آتيةً من الجامعة، مُحَمَّلة بِهُمومي، وقبل
أن أتجاوز العتبة يُبادرني بترنيمة الصوفيّة الجميلة:
«رجال الله.. كرام الخلق، أغثونا بعون الله».

غاضبةً مُقاطعةً أبادرُه بقولي: يا جدو أيجوز الاستغاثة بغير
الله؟

يضحك - إذا كان في مزاج طيّب - ويستطرد: الغوث منهم
هو تذكيرهم المرء بذكر الله ليَجْلُو الذِّكْر قلبه.
ثم يَسْتَمِر في ترنيمة: «لا تُكثِر لِهَمَّكَ ما قُدِّرَ يكون».
كأنه يقرأ صفحات الأنفُس، وكَدَرَ القلوب.

لا تُقْنِعني الإجابة، وأمتعض.. أنا من أنا في حَضْرَةِ عالِمٍ
مثله؟ وهو من هو في ميزان الحق؟

حدّثته عن الجامعة، وعمّا فعلته بنا الغيلان، وكيف أُغْتِيل
أحد الأساتذة في الحرم الجامعي، غلبني الدَّمع وأنا أقصُّ ما
حدث:

- فوجئنا بعشراتٍ من رجال الأمن يَتَجَمَّعون علينا كُليّة
الشرية، كنْتُ هناك أَحْضَر بعض الدُّروس كما اعتدْتُ أن أفعل

بين الحين والحين، أهرب من كُليّة العلوم مُلتَجِئَةً إلى هذه الكُليّة القريبة لأجد نفسي فيها.

هَجَمَتِ الضَّبَاعُ عَلَيْنَا مِنْ كُلِّ حَذَبٍ وَصَوَّبَ عَلَى حِينِ غِرَّةٍ،
وسَادَ الْمَكَانَ هَرَجٌ فَطِيعٌ، وَقَبَلَ أَنْ نَفْهَمَ مَا الَّذِي كَانَ قَدْ حَدَثَ،
بَدَأَ الشَّبَابُ بِالْفِرَارِ مِنْ كُلِّ مَنْفَذٍ مُمَكِّنٍ، رَأَيْتُهُمْ يَتَسَلَّقُونَ نَوَافِذَ
الْكُليّةِ الطَوِيلَةِ الْعَالِيَةِ، بَحْثًا عَنْ مَخْرَجٍ بَيْنَ حَدِيدِهَا الْمُشَبَّكَ
وَالسَّقْفِ، يُدْخِلُونَ أَجْسَادَهُمْ فِيهِ ثُمَّ يُلْقُونَ بِأَنْفُسِهِمْ مِنْهُ مَسَافَةً
ثَلَاثَةِ أَمْتَارٍ فَوْقَ الْعُشْبِ الَّذِي فِي الْفِنَاءِ الْخَلْفِيِّ لِكُليّةِ الطَّبِّ
الْمَجَاوِرَةِ. اخْتَفَى مُعْظَمُ مَنْ كَانَ فِي الْكُليّةِ، وَبَقِيَ قَرِيبًا مِنْ
ثَلَاثِينَ طَالِبَةً وَشَابِئِينَ فَقَطْ، وَأَسْتَاذٌ وَاحِدٌ، وَكُنْتُ أَجِدُّ عَلَيْهِ فِي
نَفْسِي بِسَبَبِ شَيْءٍ بَدَرَ مِنْهُ بِحَقِّ طَالِبٍ فِي الْكُليّةِ، لَكِنِّي فِي تِلْكَ
اللَّحْظَاتِ الرَّهِيبةِ رَأَيْتُ فِيهِ عَيْنَ الشَّهَامَةِ، سَارَعَ الشَّابَّانِ وَسَطَ بُكَاءٍ
بَعْضُ الطَّالِبَاتِ وَالرُّعْبِ الَّذِي سَيَطِرُ عَلَى الْجَمِيعِ، إِلَى الْأَبْوَابِ
الْخَشَبِيَّةِ الطَوِيلَةِ الْعَرِيضَةِ الضَّخْمَةِ لِكُليّةِ الشَّرِيعَةِ، فَأَغْلَقُوهَا مِنْ
كِلَا الْمَدْخَلَيْنِ، وَجَمَعَ الشَّيْخُ الطَّالِبَاتِ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ، وَصَارَ
بُلَاطِفُهُنَّ وَيُهَدِّئُ مَنْ رَوَّعِهِنَّ، وَبَقَيْنَا ثَلَاثَةَ طُلُوبَةٍ فَقَطْ أَمَامَ الْبَابِ،
إِذْ بَدَأَتِ الْغِيلَانُ بِالرَّكْضِ نَحْوَ الْكُليّةِ كَوْحُوشٍ مُسْتَنْفِرَةٍ جَاءَتْهَا
تُهُرُولٌ، وَبَدَأَ الْهُجُومُ بِدَفْعِ الْبَابِ وَضَرْبِهِ بِالْأَقْدَامِ، مُحَاوِلِينَ خَلْعَهُ
أَوْ كَسْرَهُ مَعَ الصَّيَاحِ عَلَيْنَا وَالهْتَفِ بِأَنَّ «الْمَوْتَ لِلْخَوَّانِ»⁽¹⁾!

فَتَحَ أَحَدُ الشَّابِّينَ النَّافِذَةَ الْخَشَبِيَّةَ الصَّغِيرَةَ فِي وَسْطِ الْبَابِ
قَرِيبًا مِنَ الْقُفْلِ الضَّخْمِ، وَأَخَذَ يَتَحَدَّثُ إِلَيْهِمْ فِي هُدُوءٍ لَافِتٍ، كَانَ
إِبْنُ أَحَدِ كِبَارِ عُلَمَاءِ مَدِينَةِ حِمَاةٍ⁽²⁾، وَقَفَ فِي ثَبَاتٍ وَتَكَلَّمَ مَعَهُمْ

(1) «الْمَوْتُ لِلْخَوَّانِ»: شِعَارٌ كَانَ يَسْتَخْدِمُهُ النِّظَامُ السُّورِيُّ فِي الْمَدَارِسِ
وَوَسَائِلِ الْإِعْلَامِ فِي حَرْبِهِ الْمَعْلَنَةِ عَلَى جَمَاعَةِ الْإِخْوَانِ الْمُسْلِمِينَ الَّتِي
كَانَ يَتَّهَمُهَا بِتَحْرِيكِ ثَوْرَةٍ مُسَلَّحَةٍ فِي سُورِيَا السَّعِيدِيَّاتِ.

(2) لَمْ أَذْكُرْ اسْمَهُ بِسَبَبِ عَدَمِ وَجُودِ إِمْكَانِيَةِ لِلْحَصُولِ عَلَى إِذْنٍ بِتَسْجِيلِ
إِسْمِهِ.

في سَكِينَةٍ وَلِينٍ، قال لهم: ماذا تُريدون من كُليَّة الشريعة؟ هنا لا يوجد إلا بناتٌ خائِفات، لقد أغلَقْنَا الأبوابَ لِمَا رَأَيْنَاهُ مِنْ هُجُومٍ غيرِ معقولٍ.

وكان الضَّابِطُ الْمُخَابِرَاتِي واقِفًا هناك يُصِرُّ على فتح الأبواب، فتَدَخَّلَ الشاب الثاني وقال له: ما عَلاقة كُليَّة الشريعة بِعَمَلِيَةِ الإِغْتِيالِ يا أخي؟ وما عَلاقَتها بالإِخوان؟ هذا خَلَطٌ في غير مكانه، وإِعْتِداءٌ على الأبرياء، هذه كُليَّة جامعيَّة لها حُرْمَتُها، فَصاح الضَّابِطُ في وَجْهِهِ وعيناه تَتَقَدَّانِ شَرًّا: قُلْ هذا لِلْقَتْلَةِ الذين إِغْتالوا الأُسْتاذ هنا!

ثم تَدَخَّلَ الأُسْتاذ، وإِتَّفَقَ معهم بعد ساعة من الأَحْزِ والِرَدِّ، على فَتْحِ أَحَدِ البايِسِينَ لِتَبْدَأَ الطالِبَاتُ بالخروجِ واحِدَةً واحِدَةً بعد أن تَعْرِضَ بِطاقَتِها الجامعيَّة، وعندما يَخْرُجُ الجميعُ يَدْخُلُ الأَمْنُ لِلتَفْتِيشِ.

قُلْتُ لِجَدِّي: - سبحان الله - تلك الساعة لم يكن عميد الكُليَّة الدكتور البوطي ⁽¹⁾ مَوْجُودًا، ولو كان هناك لأَقامَ القِيامَةَ على رُؤُوسِ رجالِ الأَمْنِ، بسببِ هذا الهُجُومِ الوَحْشِيِّ على كُليَّة الشريعة فورَ وَقُوعِ عَمَلِيَةِ الإِغْتِيالِ تلكِ.

وَجَمَ جَدِّي، والغَضَبُ والأَلَمُ بادِيانِ على قَسَماتِ وَجْهِهِ، ثم قال: حَمَلُ السِّلَاحِ لا يَأْتِي أَبَدًا بخير!.. أنا لَسْتُ راضِيًا عَمَّنْ يَحْمِلُ السِّلَاحَ وَيَقُومُ بِهذه الإِغْتِيالاتِ.. وفي الحَرَمِ الجامعيِّ؟! لا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلا بالله!

قُلْتُ وأنا أَحْتَقِّقُ بِقَهْرِي: أَتَبْقَى سائِكَيْنِ إلى أَبَدِ الأَبْدينَ وَهُم يَعتَدُونَ علينا؟ أنظر يا جَدِّي كيف يَتعاملونَ مع كُليَّة الشريعة كأنها هي وطلابُها المَسْؤُولونَ عن كُلِّ ما يَحْدُثُ في البلد! إنهم يقولون

(1) الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي.

لنا: كُلُّكُمْ إِخْوَانٌ، وَكُلُّ الإِخْوَانِ قَتْلَةٌ، كُلُّكُمْ مُجْرِمُونَ لِمَجْرَدِ أَنْتُمْ
فِي كُلِّيةِ الشَّرِيعَةِ!

قال: إِذَا التَّرَمَّنَا الْهَدُوءَ وَلَمْ نَحْمِلِ السِّلَاحَ الْأَهْوَاجَ أَقْمَنَّا
عَلَيْهِمُ الْحُجَّةَ، حَمَلَ السِّلَاحَ يَحْتَاجُ إِلَى عِلْمٍ وَفَقْهِ وَتَدَبُّرٍ، وَلَا
يُمْكِنُ أَنْ يَحْمِلَهُ كُلُّ مَنْ هَبَّ وَدَبَّ، يُثِيرُ هَذِهِ الزَّنَابِيرَ لِتَتَهَجَّمَ عَلَيْنَا
بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ.

قلت: وَدِمَاؤُنَا يَا جَدِّي، وَدِمَاؤُنَا الَّتِي تُسْفِكُ فِي كُلِّ يَوْمٍ؟ ثُمَّ
مَا أَدْرَانَا مِنَ الَّذِي قَتَلَ ذَلِكَ الْأُسْتَاذَ؟ وَلِمَاذَا؟

هَذِهِ الزَّنَابِيرُ يَا جَدِّي مُثَارَةٌ مُسْتَثَارَةٌ عَلَيْنَا، تَلْدَغُنَا كَمَا يَحْلُو
لَهَا، وَنَحْنُ جُلُوسٌ نَتَخَطَّفُ وَيَخْتَفِي شَبَابُنَا فِي السَّجُونِ وَيُعَذِّبُونَ
وَيُقْتَلُونَ، وَنَحْنُ لَا نَحْرُكُ سَاكِنًا.

قال جَدِّي: جُنُونُ الشَّبَابِ يُهَيِّئُ لَهُمْ أَنْ الْأَمْرَ «نُزْهَةً»، فِي
حِينَ أَنَّهُ حَرْبٌ، وَلَا حَرْبَ دُونَ إِعْدَادٍ وَإِسْتِعْدَادٍ وَوُقُوفِ الشَّعْبِ
كُلِّهِ لِمُوَاجَهَةِ الْأَعْدَاءِ، وَقَبْلَ ذَلِكَ تَطْهِيرِ النُّفُوسِ الْمَرِيضَةِ
الْمُنْخَوْرَةِ، نِصْفُ الشَّعْبِ لَا يَعْرِفُ رَبَّهُ، وَالنِّصْفُ الْآخَرُ جَاهِلٌ
بِأَبْسَاطِ شَعَائِرِ دِينِهِ! أَتُرِيدُونَ أَنْ تُقَاتِلُوا بِهَكَذَا شَعْبٌ؟ هَلْ تَعْلَمِينَ
أَنْ لِحَمَلِ السِّلَاحِ فَقْهُهُ وَشُرُوطُهُ وَآدَابُهُ؟ وَأَنْ لِلْمَعَارِكِ وَالْحُرُوبِ
قَوَانِينَهَا وَأَخْلَاقُهَا؟ وَأَنْ النَّاسَ هُنَا وَالْيَوْمَ فِي الشَّامِ لَا يَعْرِفُونَ لَا
هَذَا وَلَا ذَاكَ؟

قاطعتُهُ: وَكَمْ مِنَ الْعُقُودِ سَنَحْتَاجُ لَكِي نُعَدَّ وَنَسْتَعِدَّ؟! .. مِنْ
حَقَّنَا أَنْ نَحْمِلَ السِّلَاحَ لِنُدَافِعَ عَنْ أَنْفُسِنَا وَأَعْرَاضِنَا.

أَجَابَنِي وَقَدْ إِشْتَدَّ غَضْبُهُ: يَنْبَغِي لِمَنْ يَمْتَلِكُ سِلَاحًا أَوْ أَنْ
الْفِتَنِ أَنْ يَدْفِنَهُ أَوْ يَكْبِسِرَهُ، وَلَا يُعَرِّضُ نَفْسَهُ وَغَيْرَهُ لِلْمِخْنَةِ، فَإِذَا
جَاءَتْهُ صَبْرٌ وَاحْتِسَابٌ!

قلت: بل ينبغي لنا أن نُذَفَنَ جميعًا ونحن أحياء حتى لا
نَتَعَرَّضَ لَأَذَاهُمْ وَذُلَّهُم وَالْعَذَابِ الْمَرِيرِ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ!
بُهِتَ جَدِّي مِمَّا سَمَّاهُ «فَجُورًا» غير مَسْبُوقٍ مِنْ طَرَفِي!..

كنت حَفِيدَتَهُ الأَثِيرَةِ، وَصَدِيقَتَهُ، وَعَيْنَهُ وَأَذَنَهُ فِي دِمَشْقَ، وَمَا
يَجْرِي فِي دِمَشْقَ، مَا كَانَ يَنْتَظِرُ أَنْ أَتَجَاوِزَ حُدُودَ اللَّيَاقَةِ أَمَامَهُ بِهَذَا
الشَّكْلِ - كَمَا قَالَ - لَكِنَّهُ خَمَّنَ أَنَّنِي قَضَيْتُ يَوْمًا رَهِيًّا فِي الْجَامِعَةِ،
وَأَنَّ مَا حَدَثَ هُنَاكَ كَانَ فَظِيعًا.. فَسَكَتَ.

كَانَتْ تِلْكَ الْمَرَّةُ الْوَحِيدَةُ الَّتِي تَجَرَّأْتُ فِيهَا عَلَى جَدِّي بِهَذِهِ
الطَّرِيقَةِ، لَمْ يَحْدِثْ قَطُّ أَنْ تَكَلَّمْتُ فِي حَضْرَتِهِ بِمِثْلِ هَذَا الْغَضَبِ
وَالْحُزَنِ وَالْأَلَمِ.

سَكَتَ وَهُوَ يُحَوِّقِلُ، وَسَكَتُ مُخْتَنِقَةً بِدُمُوعِي، مُطْرِقَةً إِلَى
الْأَرْضِ أَتَأَمَّلُ تَصْمِيمَ رُسُومِ السَّجَادَةِ الَّتِي أَعْرِفُهَا مِنْذُ وُلِدْتُ فِي
ذَلِكَ الْبَيْتِ فِي الْجَادَّةِ الْخَامِسَةِ مِنْ حَيِّ الْمُهَاجِرِينَ عَلَى سَفْحِ
قَاسِيُونَ.

بَعْدَ قَلِيلٍ طَلَبَ إِلَيَّ فِي هَدُوءٍ أَنْ آتِيَهُ بِشَيْءٍ يَتِمِّمُ بِهِ لِيُصَلِّيَ،
أَقَامَ الصَّلَاةَ وَصَلَّيْنَا، دُونَ أَنْ نَعُودَ لِلْحَدِيثِ فِي هَذَا الْأَمْرِ بَعْدَ
ذَلِكَ.

كَانَ جَدِّي يُرَاهِنُ عَلَى هَلَاكِ الطَّاغِيَةِ، وَالصَّبْرِ وَالْمُصَابَرَةِ فِي
إِنْتَظَارِ خِلَاصِ الْبَلَدِ مِنْهُ وَمِنْ زَبَانِيَّتِهِ وَشُرُورِهِمْ، هَذَا مَا قَالَهُ، وَهَذَا
مَا كَانَ يَظُنُّهُ، وَهُوَ الْمُقْعَدُ فِي سَرِيرِهِ مِنْذُ عِدَّةِ أَعْوَامٍ، بَعِيدًا عَمَّا
نُعَانِيهِ يَوْمًا فَيَوْمٍ مِنْ ذُلٍّ وَقَهَرٍ وَضِيَاعٍ.

أَنَا مَنْ أَنَا أَمَامَ فَقِيهِ عَارِفٍ بِمِثْلِ قَامَةِ جَدِّي؟ وَجَدِّي مَنْ هُوَ
فِي مِيزَانِ الْوَاقِعِ وَالْقِسْطِ وَالْحَقِيقَةِ؟

قَضَيْتُ السَّنَاتِ الْعَشَرَ اللَّاحِقَاتِ أَفْكَرَ فِيمَا كَانَ يَقُولُهُ فِي
تِلْكَ الْأَيَّامِ الْعَصِيْبَةِ، وَأَتَسَاءَلُ: هَلْ كَانَ أَوْلَئِكَ الشَّبَابِ حَقًّا مِنْ

المُتَهَوِّرينَ المجانين؟ ألم يكن من حَقِّهم حمل سلاحٍ يُدافعون به عن أنفسهم، وهم المُعَرَّضُونَ لِلإِعْتِقَالِ بسببِ ومن دون سبب؟ هل أخطأوا في حمل السلاح لمواجهة كلِّ هذا الحَجم من الإِسْتِبداد الطَّائفي المُتَوَحَّش الذي كان يَزْحَفُ على سوريا غُولاً أَسْوَدَ شَبَحِيًّا، يَلْتَحِفُ البَعَثَ، وَيَشْتَمِلُ التَّقْدُمِيَّةَ، وَيُنَادِي بِالإِسْتِرَاكِيةِ، وَيَجْعَعُ بِالقَوْمِيَّةِ العَرَبِيَّةِ؟

لم يكن تفكير جَدِّي والشَّيخ البوطي، في هذه المحنة من وجهة نظري ونظر الآلاف من شباب دِمَشق، غير انْفِصامٍ صَارِخٍ عن الواقع، الثَّورة تتفجر في عُروق النَّاسِ غَضَبًا لِحَقُوقِهِمُ الْمُتَهَكَّةِ، بينما كان «الشيوخ» والكبار يَتَحَدَّثُونَ عن الإِعداد والاستعداد وتَهْذِيبِ النُّفُوسِ، وَالتِّزَامِ الهدوءِ، والسُّكُوتِ عن الوحوش ريثما تَمُرَّ العاصِفَةُ.

لَمَّا ذَهَبْنَا في اليوم التَّالِي إلى الدكتور «البوطي» عَميدِ كَلِيَّةِ الشَّريعةِ، كان يَسْتَشِيطُ غَضَبًا كما عَهْدَنَاهُ دَائِمًا، وَحَتَّى لَأَتَفَّهُ الأسبابَ، فَمَا بَالُنَا والأمرُ جِدُّ جَلَلٍ؟ كان قد اسْتَدْعَانَا ثَلَاثَتَنَا الَّذِينَ كُنَّا هُنَاكَ في ذَلِكَ المَوْقِفِ وفي مُوَاجَهَةِ الغِيلَانِ على أَبْوَابِ الكَلِيَّةِ، وَحَدَّثَنَا بِأَنَّهُ تَكَلَّمَ مع «الرَّئيس»، وقد وَعَدَهُ خَيْرًا كَثِيرًا، وَاعْتَذَرَ عَمَّا جَرَى على أَبْوَابِ كَلِيَّةِ الشَّريعةِ، وقال لَنَا هَامِسًا: الرَّئيسُ مُتَفَهِّمٌ وَنَبِيلٌ وَهُوَ يُحِبُّ الإِسْلَامَ ويعملُ جَاهِدًا لِتَغْيِيرِ المُجْتَمَعِ وإِعَادَةِ بَنَائِهِ من جَدِيدٍ، وَأَنَّهُ يُكِنُّ لَهُ - للبوطي - الإِحْتِرَامَ والمَدَّةَ، وَهُوَ - أيُّ البوطي - يُصَدِّقُ تَوَجُّهَاتِهِ لِخَيْرِ الشَّعْبِ السُّورِيِّ والأُمَّةِ.

ثم أَضَافَ: هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مَجَانِينُ، هَؤُلَاءِ القَتَلَةُ الَّذِينَ نَفَّذُوا عَمَلِيَّةَ الإِغْتِيَالِ البَارِحَةِ وفي الجامعة! مُصَابُونَ بِلَوْتَةٍ في عُقُولِهِمْ.. هذا «خروج»!

خَرَجْنَا من عِنْدِ أَسْتَاذِنَا البوطي، وَاجِمِينَ صَامِتِينَ، لم ننظر

في وجوه بَعْضِنَا، كان الأمر بِشَعًا جَدًّا، أن يُخَدَعَ رجل كالبوطي العالم النحرير! وَلَمَن سَأَشْكُو البوطي؟ هل أَشْكُوهُ إِلَى جَدِّي؟ الذي يُفَكِّر بِطَرِيقَةٍ مُمَاطِلَةٍ غَيْر أَنَّهُ لَا يَثِقُ بِهَذَا الرَّئِيس وَلَا بِحِزْبِهِ وَلَا بِحُكُومَتِهِ، لَا يُصَدِّقُهُمْ، وَلَا يُكِنُّ لَهُمْ أَدْنَى قَدْرٍ مِنْ إِحْتِرَامٍ، يُسَمِّيهِمْ: الْإِنْقِلَابِيِّونَ، مُعْتَصِبُوا السُّلْطَةِ! إِنَّهُ يُعِدُّهُمْ أَعْدَاءَ أَلْدَاءِ، وَعَلَيْنَا - كَمَا يُرَدِّدُ - أَنْ نَصْبِر وَنَحْتَسِبَ حَتَّى يَخْلُصَنَا اللَّهُ مِنْهُمْ!

- أَلَا تَرَى يَا جَدُّو مَا يَفْعَلُونَ مِنْ تَغْيِيرَاتٍ بِالْغَةِ الْخَطُورَةِ فِي تَرْكِيبَةِ حَيَاتِنَا؟

- نَحْنُ مَأْمُورُونَ بِالصَّبْرِ.

- يَا جَدُّو.. نَصْبِرُ نَصْبِرَ، وَلَكِنْ رِيثْمَا يَهْلِكُ هَذَا الرَّئِيسُ، سَوْفَ تَكُونُ الْبَلَدُ قَدْ أَهْلِكَتَ مَعَهُ وَتَبَدَّلَتْ هُويَّتُهَا وَمَعَالِمُهَا.

- أَنَا لَا أَفْتِي أَحَدًا بِحَمْلِ السَّلَاحِ.

- يَا جَدُّو أَلَمْ تَرَ مَا حَصَلَ فِي مَدْرَسَةِ الْمَدْفَعِيَّةِ قَبْلَ عَامَيْنِ؟ وَمَاذَا كَشَفَتْ تِلْكَ الْعَمَلِيَّةُ الرَّهِيْبَةُ.

- ذَلِكَ عَمَلٌ «رَهِيْبٌ»، كَمَا وَصَفْتِهِ أَنْتَ بِلِسَانِكَ، وَمَا كَانَ يَجِبُ أَنْ يَقُومَ بِهِ مَنْ قَامُوا بِهِ، نَكِلْ نِيَاتِهِمْ إِلَى اللَّهِ، وَنَعْتَقِدْ أَنَّهُمْ اجْتَهَدُوا فَأَخْطَئُوا.. ذَلِكَ إِثْخَانٌ فِي الْقَتْلِ فِي غَيْرِ مَكَانِهِ.

- أَتَفْقُ مَعَكَ يَا جَدِّي فِي هَذِهِ النِّقْطَةِ، لَكِنَّ النَّاسَ يُعَدُّونَهَا عَمَلِيَّةً بَطُولِيَّةً، وَلَا يَجْرَؤُ أَحَدٌ عَلَى الْمَجَاهَرَةِ بِرَأْيِهِ.

- وَأَيْنَ هِيَ الْبَطُولَةُ فِي قَتْلِ شَبَابٍ مُحَاصِرِينَ بِهَذَا الشَّكْلِ، وَإِحْدَاثِ مَجْزَرَةٍ؟.. الْمَجَازَرُ لَيْسَ لَهَا إِلَّا اسْمٌ وَاحِدٌ فَقَطْ: مَجَازَرُ.

- كَانَ ذَلِكَ مُحَاوَلَةً لَوْضَعِ حَدٍّ لِتَطْيِيفِ الْجَيْشِ يَا جَدِّي، شَيْءٌ مُخِيفٌ جَدًّا هَذَا الَّذِي حَدَثَ، وَشَيْءٌ مُخِيفٌ أَكْثَرَ كَانَ الَّذِي يَحْدُثُ مِنْ دُونِ عِلْمِ النَّاسِ، تَسْرِيعُ مِائَاتٍ مِنَ الضُّبَابِ الَّذِينَ

يَتَمَوْنَ إِلَى أَغْلِيَةِ الشَّعْبِ، وَجَعَلَ الْجَيْشَ مُقْتَصِرًا عَلَى أَقْلِيَّةٍ لَا تُشَكِّلُ اثْنَيْنِ فِي الْمِائَةِ مِنْ تَعْدَادِ الشَّعْبِ، لَا بَدَّ مِنْ أَنْ النَّقِيبَ «إِبْرَاهِيمَ الْيُوسُفَ» الَّذِي قَامَ بِهَذِهِ الْعَمَلِيَّةِ، قَدْ لَاقَى الْوَيَالَاتِ مِنَ الضَّبَاطِ الطَّائِفِينَ فِي مَدْرَسَةِ الْمَدْفَعِيَّةِ الَّتِي جَرَتْ فِيهَا الْحَادِثَةُ.

- قَصْدُكَ.. الْمَجْزَرَةُ! مَا هَكَذَا يَتِمُّ التَّغْيِيرُ، وَلَا هَكَذَا يُمَكَّنُ مُوَاجَهَةُ الْحُكَّامِ الظَّالِمَةِ.

- يَا جَدُّو هَؤُلَاءِ لَيْسُوا حُكَّامًا ظَالِمًا، هَؤُلَاءِ حُكَّامٌ يَرِيدُونَ الْقَضَاءَ عَلَى هَذَا الشَّعْبِ.

- لَا يُمْكِنُ الْقَضَاءُ عَلَى الشُّعُوبِ.

- بَلَى يَا جَدُّو.. بِتَغْيِيرِ هُويَّتِهَا.

- لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ.. لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، أَنْتِ يَا ابْنَتِي تُرِيدِينَ أَنْ تُلْقِي بِنَفْسِكَ إِلَى التَّهْلُكَةِ.

- يَا جَدُّو.. أَنَا لَمْ أَفْهَمْ مَا حَدَّثَ فِي مَدْرَسَةِ الْمَدْفَعِيَّةِ فِي ذَلِكَ الْحِينِ إِلَّا مِنْ إِذَاعَةِ لَنْدُنْ! نَحْنُ فِي بِلَادِنَا وَلَا نَعْرِفُ حَقِيقَةَ مَا يَجْرِي فِيهَا! كَيْفَ عَرَفَتْ إِذَاعَةُ لَنْدُنْ بِكُلِّ هَذِهِ التَّفَاصِيلِ، وَالشَّعْبُ لَمْ يَعْرِفِ الْحَقِيقَةَ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ -إِسْتِعْرَاضِ الضَّحَايَا فِي التِّلْفِزِيُونِ السُّورِيِّ؟-

هَذِهِ الْحُكُومَةُ لَيْسَ فِي نِيَّتِهَا فِعْلُ الْخَيْرَاتِ، وَمَا يَفْعَلُونَهُ فِي السِّرِّ، تُقَابِلُهُ عَمَلِيَّاتُ الْمُقَاوِمَةِ السَّرِّيَّةِ هَذِهِ، وَنَحْنُ.. أَيُّ عَامَّةِ الشَّعْبِ «آخِرُ مَنْ يَعْلَمُ».

غَضِبَ جَدِّي، وَقَالَ: هَلْ تَفْهَمِينَ أَنْ فِي دَارِنَا هَذِهِ مَيْكَرُوفُونَاتٌ لِلتَّنَصُّتِ، وَأَنْهُمْ قَدْ يَطْرُقُونَ الْبَابَ فِي أَيِّ لَحْظَةٍ يَجْرُونَكَ إِلَى عَذَابٍ مُهِينٍ.. هَلْ يُمَكِّنُكَ إِحْتِمَالُ الْعَذَابِ

والإغْتِصَاب؟! لماذا لا تُريدُن أن تُفْهَمي؟ نحن لا نريد لِبِنَاتِنَا هذا المَصِير، إنني أُمْنَعُكَ من العودة إلى الخوض في هذا الحديث بعد اليوم.

نحن مأمورون بالصَّبْر والدُّعاء.. حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولاً.

تَرَكَني جَدِّي في حالة قهر وحزن عميق، وما عُدْتُ أتجرأ على الخوض في هذا الحديث معه من جديد.. أنا لا أستطيع مُجَرَّدَ تَصَوُّرِ الإعتقال فضلاً عن الأشياء الفظيعة التي يُخَوِّفُنَا بها الجميع.. ماذا نفعل إذن؟؟ وكيف نَحُلُّ معادلة الخوف والغضب في آن واحد؟؟ إلى من نلجأ نحن الشباب؟ وكيف يمكن لِسوريا الخروج من هذه المَخَاصِة التي إِمْتَلَأَتْ بالدماء؟!.. هل كانت وُجْهة نَظَرِ جَدِّي والبوطي هي الصَّواب؟ وكيف يمكن لهذا الشَّعب أن يَسْتَفِيق من غَفْلَتِهِ ما لم تهزه زلزلة تُوقِظه من أحلامِهِ الصغيرة النافهة، وتضعه على الطريق الصحيح؟!

أُحِبُّ جَدِّي كَثِيرًا، وأحترمه إلى أبعد درجات الاحترام والتقدير، كما أُحِبُّ البوطي أستاذنا⁽¹⁾، أحترم فيه أنه الوحيد - على ما أعلم - من علماء سوريا المعروفين في تلك الأيام، الذي تحدث إلى الرئيس، وتصدَّر لمعالجة الوضع، وتهدئة الأمور - كما قال - وحاول بكل ما يستطيع أن يوجه النَّاس ويأخذ بأيديهم إلى ما كان يظنه طريق الخلاص.

لكنني كنت أكره فيهما كِلَيْهِمَا هذه الطريقة الغريبة لما كنت أسميه - أظنه - إذعائًا واستكانة للْبُغَاة المُسْتَبِدِّين.

أَنْتَظِرُ أن يأتوا علينا جميعًا ونحن جُلُوسٌ نَتَفَرَّج؟ أَيْسَتَقِيمُ أن نَسْكُتُ وَهُمْ يَعْتَقِلُونَ حتى الأطفال من مُرتادي بعض المساجد

(1) في كلية الشريعة في دمشق.

أو المنتديات، لأن رجلاً مُعارِضاً كان يَرتادُ ذلك المسجد؟ أو لأنَّ أحدهم ألقى تحيةً ذات يوم على أحدهم الذي كتب شيئاً في مجلةٍ وراءَ الحدود؟.. بل لقد قاموا بِاعْتِقَالِ عَائِلَةِ العُلوانِي في حماة بِأكْمَلِها، ثلاثمائة إنسان، رجالاً ونساءً، كباراً وصغاراً ورُضْعاً، لِيَضْغُطُوا على «مَهدي العُلوانِي»⁽¹⁾ فَيُسَلِّمَ نفسه، كانوا يَتَهَمُونَهُ بِالْوُقُوفِ وراءَ بعضِ تلكِ الاِغْتِيالاتِ التي شَهِدَتْها البلاد.

شابٌ في العِشرين من عُمره.. يُخِيفُ دَوْلَةَ الخَوْفِ، وَيَقْلِبُ المِنْصَدَةَ على رُؤُوسِ رُؤُوسِها.

مع الطُّغاةِ المجرِمين لا يَنْفَعُ الجِوارِ الهادئ! مع القَتَلَةِ الأوباش كيف تستقيم المُهادنة؟

أعوام عُمرِي القليلة لا تَسْعِفُنِي في فَهْمِ هذه المواقِفِ إلا على أنها خنوعٌ وخضوعٌ وذَلَّةٌ واسْتِسْلام! شيءٌ ما يَسِيرُ في اتِّجاءِ خاطِئ، البلدُ تَتَجَهَّ نحو كارثةٍ مُحَقَّقَةٍ، و«الكبار» ما زالوا يَتَحَدَّثُونَ عن تَهوُّرِ الشَّبَابِ، وتجاوُزِهِمِ الحدود.. إنه سِجَالُ «العِشرين» و«السَّبعين» المؤيَّد، سِجَالُ العاطِفَةِ والعَقْلِ، سِجَالُ الإِصْلاحِ والتَّغْيِيرِ، سِجَالُ الثُّورَةِ والتَّائِي.. سِجَالُ الإِعْصَارِ والإِمْهَالِ.

الواقع، أَنَّهُ لم يَكُنْ في حِياتِنَا شيءٌ واحدٌ فقط يَسِيرُ في الاتِّجاءِ الخَطَأَ، كانت هُناكَ مَجْمُوعَاتٌ مِنَ الأُمُورِ تُنبِئُ بِالْعَارِضِ المُسْتَقْبَلِ أَوْ دَيْتِنَا.. زُورٌ، بُهْتَانٌ، تَعَسُّفٌ، جَوْرٌ، تَنَابُذٌ، تَخَلُّفٌ، تَكَبُّرٌ، إِرْتِكَاسٌ، إِنْكَارٌ، إِنْسِلَاخٌ تَدْرِيجِيٌّ مُخِيفٌ عَنِ «الهُويَّةِ».. «هُويَّتِنَا».

(1) الشَهِيد مَهدي العُلوانِي: أَحَدُ مَشاهِيرِ الشُوارِ السُورِيِّينَ الحُمُويِّينَ، المَحسُوبِينَ عَلى تَنْظِيمِ «الطَّلِيعَةِ المَقاتِلَةِ»، شَنُوا عَلى النِظامِ السُورِي حَرْبَ عِصَابَاتٍ، ما بَيْنَ السَّبْعِينِ وَالثَّمانِينِ، وَقَدْ تَمَكَّنَ النِظامُ السُورِي مِنَ إِعْتِقَالِهِ، وَقَامَتِ مَحْكَمَةٌ عَسْكَرِيَّةٌ بِمَحاکَمَتِهِ، وَنُفِذَ فِيهِ الحُكْمُ بِالْإِعْدَامِ شَنْقاً وَهُوَ فِي العِشرينَ مِنْ عُمُرِهِ، انْتَهَتْ ثُورَةُ الطَّلِيعَةِ المَقاتِلَةِ تِلْكَ فِي سُورِيَةِ بِمَجزَرَةِ مَدِينَةِ حِمَاةِ الرَهيبَةِ 1982.

لم يتمكن كشباب من التفاهم مع مشايخنا وأساتذتنا، كانوا في غالبيتهم قد أغلقوا عقولهم على محاربة حمل السلاح والتّمرّد على الحاكم ومُبادأته بالثّورة، أو إيجاد طريق أخرى للخروج من عنق هذه الرّجاجة التي امتلأت بالدمّ والغضب، وكان الكبار من القيادات الشيوعيّة والقوميّة في البلد أعجز من أن يُحركوا الشارع الذي يغلي، وأبعد ما يكونون عن التّحقّق بإرادة وتطلّعات الجماهير السّوريّة، على الرغم من تنظيمهم أنفُسهم واجتهادهم في وضع تصوّر عن خُطة للتّغيير الشّامل.

وبدأ النزيف.. نزيفُ العقول والقيادات، وكلّ من كان يتوسّم النّاس فيه خيرًا، ليكون في مكان التّوجيه والريادة، كذلك بدأ مشايخنا في الشّام وأساتذتنا في كلّية الشريعة بالرحيل، واحدًا إثر آخر، قال بعضهم إنهم أرغموا على مُغادرة البلاد، وإن السّلطات منحتهم ثماني وأربعين ساعة لحزم أمّعتهم والسّفر الفوري.. كانت سوريا تشهد عمليّة «تطهير هويّاتي صامت»، واستبدال مدرّسين دُوبّ خبيث لتركيب الطّبقة الثقافيّة والسّياسيّة والفكريّة والرؤوس الدّينيّة، يُجرّد الشّعب تمامًا من القيادات الكبيرة القادرة على رسم طريق يمكن للجمهور أن يتحرك من ورائها فيه.

سألت الدكتور البوطي، وكان يقفُ معه الدكتور عجاج الخطيب، أحد أحبّ أساتذة كلّية الشريعة إلى قلوب الطلبة، وأكثرهم قربًا منهم: هل يجوز لفتاة أن تفسّخ خطبتها وعقد زواجها لتبقى في سوريا ولا تُغادرها إلى حيث يُقيم زوجها للدراسة خارجًا؟

نظر إليّ الشّيخ البوطي، وقال: وهل هذه الفتاة مُكلّفة شرعًا وعقلًا بإنقاذ البلد وقيادة الجيش مثلاً؟

قلت: لا طبعًا، لكنها لا تستطيع أن تُتمّ زواجها وتلحق بزوجها والبلد غارقة في الدّم.

فتدخل الدكتور عجاج قائلاً: هذه فتاة شجاعة، لكنها تكون أشجع إن هي أتمت زواجها والتحقت بزوجها وأسست أسرة كريمة يفهم أفرادها معنى الحق ويلتزمونه، ثم يعودون إلى بلادهم لخدمتها.

قلت: لمن سترك البلد يا أساتدتنا الكرام؟ لمن يترك هؤلاء المغادرون من المشايخ والعلماء والأساتذة والشباب، البلد والناس في هذه المحنة؟

قال البوطي حينذاك كلمات، صدق فيهن والتزم: «أنا لن أغادر الشام بإذن الله».



أحببت جدّي كما يحب أي حفيد جدّه، واحترمته كما يحترم كل طالب علم شيخه وأستاذَه العالم الفقيه الفذّ، لم أسمع ولم أر أفقه منه في حياتي إلا النُدرة، ونفرتُ من قسوته وشِدّته، وقد عانيتُ من قسوة كثيرين وشِدّتهم، ولم يكن أيُّ منهم أو منهنّ يتمتع بعشر معشار حنان جدّي ورقّته وصدّقه ورُجوعه إلى الحقّ على الرّغم من تلكم القسوة والشّدّة.

لكن هذه المودّة والثّقة الكبيرة لجدّي لم تُعْني - كما علّمني جدّي نفسه - عن رؤية الوجه الآخر للقمر، حيث تثوي صراعات جدّي وجدّتي التي وُلدنا وترعرعنا ونحن نعيش في ظلّها.. هُما لم يُخفياها قط، ولم يُنكراها كما يفعل كثير من أهل الشّام، ولم يشعرا بالخزي والعار من ذكرها، كانت جزءاً لا يتجزأ من حياتهما وحياتنا.. وكذلك كانت حياة معظم النّاس في الشّام.. حيث كانت المعارك في بيوت أهل الشّام، بعضهم مع بعض، تُوازي في قسوتها وحقيقة وجودها، معارك هذا الشعب مع النّظام الحاكم.

نحنُ بشرٌ، وتألّق الواحد منا لا يعني أنّه ملاكٌ مُنزّل، ولا نبيٌّ

مُرْسَل، نحن بَشَرٌ.. واعتَرافنا بِبَشَرِيَّتِنَا يُوفِّرُ عَلَيْنَا الْبَحْثَ عَنْ نِصْفِ
الْحَقَائِقِ الضَّائِعَةِ فِي طَرِيقَةِ فَهْمِنَا لِلْحَيَاةِ.

أُولَئِكَ الَّذِينَ يُزَيِّنُونَ لَكَ طَوَالَ الْوَقْتِ أَنْ وَجْهِي الْقَمَرُ مُنِيرَانِ
عَلَى الدَّوَامِ، وَأَنَّ الْحَيَاةَ وَرَدِيَّةٌ مَلَائِكِيَّةٌ.. هُمْ أَنَاسٌ مُنْقَصِمُونَ عَنْ
وَاقِعِ الْحَيَاةِ، أَوْ وَبِكُلِّ بَسَاطَةِ الْوَصْفِ.. كَاذِبُونَ.

أَحْبَبْتُهُمَا - جَدِّي وَجَدَّتِي - كُلٌّ مِنْهُمَا عَلَى انْفِرَادٍ، وَكَرِهْتُ
تِلْكَ الْعَلَاقَةَ الْغَرِيبَةَ الْمُؤَلِّمَةَ الَّتِي جَمَعَتْ بَيْنَهُمَا سِتِّينَ عَامًا وَلَا
مَخْرَجَ وَلَا خَلَاصَ، هَكَذَا هِيَ الْأُمُورُ فِي الشَّامِ.. رَجُلٌ طَبِيبٌ
عَالِمٌ فَقِيهٌ رَبَّانِيٌّ مِنْ دَارِ عِلْمٍ وَأَدَبٍ وَدِينٍ، وَشَابَةٌ بَارِعَةُ الْجَمَالِ
مِنْ دَارِ جَاهٍ وَمَالٍ وَحَسَبٍ وَنَسَبٍ، وَبَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ مِنْ عَشْرِينَ عَامًا،
لَا تُجَارِيهِ فِي عِلْمِهِ، وَلَا تَفْهَمُ عَنْهُ، وَلَا تُحْسِنُ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا، وَلَا
يُدَارِيهَا فِي أُثُوئِهَا، وَذَلَالِهَا، وَاعْتِرَازِهَا بِمَنْبَتِهَا وَطِيبِ أَصْلِهَا، وَلَا
يُحْسِنُ شَيْئًا مِنْ فَنُونِ مُعَاشَرَةِ أَهْلِهَا، طَبِيبٌ فَقِيهٌ أَدِيبٌ عَلَامَةٌ مُتَبَحَّرٌ
فِي عُلُومِ الشَّرِيعَةِ وَاللُّغَةِ، لَمْ يَسْتَطِعْ إِشْرَاكَ زَوْجَتِهِ فِي هُمُومِ حَيَاتِهِ
الْعِلْمِيَّةِ، وَلَا فِي ثَلَابَسَاتِ أَيَّامِهِ الْحَافِلَةِ وَلَيَالِيهِ الْمَلِيَّةِ بِالْعِبَادَةِ
وَالذِّكْرِ وَالْقِرَاءَةِ وَالْفِكْرِ.

سُتُونَ عَامًا، مِنَ الْحَيَاةِ الزَّائِرَةِ بِالسَّلَامِ وَالْحَرْبِ، وَالثَّوَرَاتِ
وَانْهِيَارِ الدُّوَلِ، وَتَقْسِيمِ الْمَنْطِقَةِ وَاسْتِعْمَارِ الْبِلَادِ، وَتَفَكُّكِ الْهُوَيَّةِ
وَتَفْسُّخِ الْمُجْتَمَعِ، وَتَضَعُّعِ الْقَنَاعَاتِ، وَارْتِفَاعِ الْجُدُرِ الْعَازِلَةِ،
وَمَحَاوَلَاتِ تَدْمِيرِ الْوُجُودِ، سِتَّةَ عُقُودٍ مِنَ الزَّمَانِ تَشَارَكَ فِيهَا
الْهُمُومُ وَالْأَعْبَاءُ وَالْآلَامُ وَأَيَّامُ الْفَقْرِ وَالْغِنَى، كَمَا تَعَاوَنَّا عَلَى الْقِيَامِ
بِبَعْضِ الْمُهَيَّمَاتِ السِّيَاسِيَّةِ، كَانَتْ تُسَافِرُ وَحَدَّهَا مَعَ خَادِمَتَيْهَا،
مُبْتَعَثَةٌ مِنْ قِبَلِ «الشَّيْخِ بَدْرِ الدِّينِ الْحَسَنِيِّ» بَيْنَ الْمَحَافِظَاتِ، مُتَنَقِّلَةٌ
مِنْ حِمَصٍ إِلَى جِبَالِ الْعُلُوَيْنِ، وَمِنْ دِمَشْقٍ إِلَى مَنَاطِقِ الدُّرُوزِ،
لِإِيصَالِ رِسَالَةٍ، أَوْ تَبْلِيغِ أَمْرٍ جَلَلٍ، كَانَتْ تَعْمَلُ لَيْلًا نَهَارًا لَخْدَمَةِ
الضُّيُوفِ كِبَارِهِمْ وَصِغَارِهِمْ، قَرِيبِهِمْ وَبَعِيدِهِمْ، كَانَتْ أَمِينَةً سِرِّهِ

وسِرُّ شَيْخِهِ الْكَبِيرِ الَّذِي كَانَ يُعْبَرُ لَهَا دَائِمًا عَنْ إِمْتِنَانِهِ وَتَقْدِيرِهِ،
كَانَتْ الْمَلْجَأَ فِي سَاعَاتِ الْعُسْرَةِ وَالضِّيقِ.

تَشَارَكَ كُلُّ شَيْءٍ... إِلَّا الْحُبَّ وَالْمَوَدَّةَ.

كَانَا قَلْبَيْنِ مُتَنَافِرَيْنِ غَرِيبَيْنِ عَنْ بَعْضِهِمَا تَقَاسِمَا رَحْلَةَ الْحَيَاةِ،
كُلٌّ فِي مَقْعَدِهِ مِنْ تِلْكَ الْعَرَبَةِ الَّتِي تَنْهَبُ الْأَرْضَ، دُونَ أَنْ يَتَبَادَلَا
نَظْرَةً تَشْفِي الْقَلْبَ مِنْ غُرْبَتِهِ، أَوْ حَدِيثًا يُخَفِّفُ عَنْهُمَا عَنَاءَ وَغُورَةِ
الطَّرِيقِ.

مَا زَالَتْ عَجَلَةٌ مِثْلُ هَذِهِ الزَّيْجَاتِ دَائِرَةً مِنْذُ مِئْتَيْ عَامٍ، فِي
بُيُوتٍ كَثِيرَةٍ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ، دُونَ أَنْ يُوقِفَ شَيْءٌ كَرَّهَا وَسَحَقَهَا
لِلْأَمْنِ وَالْمَوَدَّةِ وَالرَّحْمَةِ.

يَا «تَيْتَةَ»⁽¹⁾.. لَوْ رَأَيْتَنِي يَوْمَ كُنْتُ عَرُوسًا، كُنْتُ فِي غَايَةِ الْبَهَاءِ
وَالْجَمَالِ، لَمْ يَرِ أَحَدٌ عَرُوسًا مِثْلِي! لَا يَغْرُنُكَ تَعْبِي وَشَكْلِي الْآنَ،
جَدَّكَ هَدَنِي هَذَا، لَقَدْ رَأَيْتُ مَعَهُ النُّجُومَ فِي «عِزِّ الظُّهْرِ»⁽²⁾!

يَأْتِينِي صَوْتُهَا وَشَكَاوَاهَا عِبرَ الزَّمَنِ، تُرَدِّدُ هَذِهِ الْعِبَارَاتِ،
دُونَ كَلَّلٍ وَلَا مَلَلٍ، وَدُونَ أَنْ يُثْنِيَهَا كَرَّ السِّنِينَ أَنْ تَحْيَا عَلَى أَمَلِ
الْخِلَاصِ، وَدُونَ أَنْ تُدْرِكَ أَنَّ تِلْكَ الشَّكَايَ لَنْ تُغَيِّرَ مِنْ حَالِهَا
شَيْئًا!

تَشْكُو، وَكَأَنَّ الشَّكَايَ تُخَفِّفُ الْأَلَمَ.. وَكَأَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ
سَمِعُوا شَكَاوَاهَا يُمَكِّنُهُمْ أَنْ يَفْعَلُوا لَهَا شَيْئًا غَيْرَ الْإِسْتِمَاعِ الْمُتَمَلِّمِ
الْبَائِسِ الْعَاجِزِ.

(1) «يَا تَيْتَةَ»: كَلِمَةٌ مِنْ أَصْلِ فَرَنْسِي بِمَعْنَى الْمَرْضِعِ أَوْ أَصْلُ الرِّضَاعِ،
تُسْتَعْمَلُ فِي الشَّامِ تَعْبِيرًا عَنِ الْمَوَدَّةِ فِي مَخَاطَبَةِ الْجَدَّةِ، أَوْ الْحَفِيدِ بِمَعْنَى
«أَنْتِ عَيْنُ جَدَّتِكَ».

(2) «رَأَيْتُ النُّجُومَ فِي عِزِّ الظُّهْرِ».. مِثْلُ شَامِي يَدُلُّ عَلَى الْإِسْتِحَالَةِ أَوْ بَالِغِ
الْمَعَانَاةِ وَالصَّعُوبَةِ.

أَنْ تُشَارِكَ غَيْرَكَ هَذَا الْهَمُّ الَّذِي يُثْقِلُ كَاهِلَكَ.. يبدو
لِلْمَكْلُومِينَ وَكَأَنَّهُ بَعْضُ الْحَلِّ، لَكِنَّهُ دَائِمًا يَنْتَهِي لِیُصْبِحَ بَعْضُ
الْمُشْكِلَةِ، عِنْدَمَا يَنْقَلِبُ عَلَيْكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَوْدَعَتْهُمْ أَلَمُكَ
لِیَفْضَحُوا، أَوْ یَسْتَصْغِرُوا، أَوْ لِيُؤْنَبُوا، كَأَنَّكَ أَنْتَ وَحْدَكَ
الْمَسْئُولُ عَنْ عَذَابَاتِكَ، فِي حَالَةِ الْإِخْفَاقِ فِي التَّغْيِيرِ، النَّاسُ لَا
يُخَفُّونَ عَنْ صَاحِبِ الْمَعَانَا، لَكِنَّهُمْ يَنْقَلِبُونَ عَلَيْهِ، يَرْمُونَ عَيْهَهم
عَلَى خِيْبَتِهِ، وَيُسَلِّمُونَ لِلرَّيْحِ أَقْدَامَهُمْ فَارِّينَ مِنَ الْمَسْئُولِيَةِ!

كَانَتْ هَذِهِ حَالُ الْجَدَّةِ مَعَ الْجَمِيعِ، حَتَّى أَنَا.. كُنَّا نَحِبُ الْجَدَّةَ
إِلَى دَرَجَةِ الْعَمَى عَمَّا يُسَبِّبُهُ لَهَا مِنْ أَدَى وَأَلَمِ دَائِبِينَ، كَانَتْ قَسْوَةً
مُعَامَلَتُهُ لَهَا، وَمَا يَبْدُو وَكَأَنَّهُ شِدَّةُ كُرْهِهِ لِعِزَّةِ نَفْسِهَا وَصَلَابَتِهَا،
تَسْتَلِبُ مِنْهَا الْحَيَاةَ، كَيْعَسُوبِ نَحْلٍ يَمْتَصُّ بِوَحْشِيَّةِ رَحِيقِ زَهْرَةٍ لَا
يَنْتَمِي إِلَى دَوْرَةِ حَيَاتِهَا الْبَيْئَةِ، كَانَ الْوَجَعُ يَرْتَشِفُ مَقُومَاتِ الْبَقَاءِ
وَالِاسْتِمْرَارِ لَدَيْهَا، وَكَانَتْ الشَّكْوَى وَسِيلَتِهَا الْوَحِيدَةَ لِلتَّشَبُّثِ
بِالْآخَرِينَ، يَمْنَحُونَهَا بَعْضَ الشَّفَقَةِ وَبَعْضَ التَّفَهُّمِ، وَبَعْضَ سَاعِدِ
تَتَكَّى عَلَيْهِ كُلَّمَا شَارَفَتْ عَلَى السُّقُوطِ.. هَكَذَا كَانَتْ شَكْوَى
جَدَّتِي، مِرْسَاةٌ تُلْقِيهَا فِي مِيَاهِ الْآخَرِينَ، مِنْ أَبْنَائِهَا وَأَحْفَادِهَا
وَأَخَوَاتِهَا وَأَبْنَاءِ أَخَوَاتِهَا، تَحَاوَلَ بِهَا نَشْرُ أَشْرِعَتِهَا، فَلَا هِيَ تُبْجِرُ،
وَلَا هِيَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَأْوِي إِلَى مَرَاثِيهِمْ.. وَلَا هُمْ يَسْمَحُونَ لَهَا بِأَكْثَرِ
مِنَ الشَّكْوَى.

لَمْ يُفَكِّرْ أَحَدٌ مِنَّا فِي حَلِّ، فِي أَنْ يَمُدَّ يَدَ الْمُسَاعَدَةِ الْحَقِيقِيَّةِ،
فِي أَنْ يُغَيِّرَ فِعْلًا تِلْكَ الْحَالِ الْمَأْسُويَّةَ.. الْكُلُّ يُلْقُونَ بِالتَّبِعَةِ عَلَيْهَا
هِيَ، نَلُومُ الطَّرْفَ الْمَظْلُومَ وَنَتَّهَمُهُ، الْكُلُّ يَصْطَفِّ مَعَ الطَّرْفِ
الظَّالِمِ وَيُبْرِئُهُ، لِأَنَّهُ صَاحِبُ الْفَضْلِ وَالْقُوَّةِ وَالسُّلْطَةِ وَالرَّئَاسَةِ وَالْيَدِ
الطُّوْلَى وَالْقُدْرَةِ عَلَى الْبَيَانِ وَالْحُجَّةِ، وَلَيْسَ مَعَ الْمَظْلُومِ الضَّعِيفِ
الْمَسْحُوقِ الْمُهْمَّشِ الَّذِي يَعِيشُ أَمَامَ أَنْظَارِ الْجَمِيعِ.. كَمَا يَعِيشُ

صِرْصَارُ أَبِيضٍ صَغِيرٍ يَحْتَمِي بِزَوَايا الْجُدْرانِ تَوَجُّسًا مِنَ الْأَقْدَامِ
الْقَادِرَةِ عَلَى سَحْقِهِ فِي كُلِّ حِينٍ . -

غُرْبَةٌ غَرِيبَةٌ .. ذَاتَ طَعْمٍ غَرِيبٍ، كُنْتُ أَتَذَوَّقُهَا كُلَّمَا انْتَقَتَ
عَيْنِي بَعَيْنِي جَدَّتِي الْمُرْهَقَتَيْنِ الْمَكْلُومَتَيْنِ، نَحْكِيانِ حِكَايَاتِ الْأَلَمِ
وَالْوَحْدَةِ وَخَيَّةَ الْعُمَرِ الَّذِي انْقَضَى، وَكُلَّمَا جَلَسْتُ إِلَى جَدِّي
أُجَاذِبُهُ أَطْرَافَ الْحَدِيثِ وَأَهَابُ التَّحْدِيقِ فِي عَيْنِهِ تَلْتَمِعَانِ بِبَرِيقِ
نَشْوَةِ الْعِلْمِ.

غَرِيبٌ وَسَطُ النَّاسِ، يَعْلَمُهُ الْوَاسِعُ، وَفَقْهَهُ الْمُذْهَلُ،
وِعِصَامِيَّتُهُ النَّادِرَةُ، وَرَبَانِيَّتُهُ السَّابِغَةُ، وَصَفَائِهِ الرَّائِقُ، وَطُهره
وِعِطْرُهُ، لَكِنَّهُ كَانَ غَرِيبًا كَذَلِكَ بِبَعْضِ أَخْلَاقِهِ غَيْرِ الْحَمِيدَةِ، شِدَّتُهُ
الْبَالِغَةُ، قَسَوْتُهُ عَلَى زَوْجِهِ وَأَوْلَادِهِ، كَانَ يَرِيدُ مِنْ أَهْلِهِ أَنْ يَفْهَمُوا
عَنْهُ بِسُرْعَةٍ فَهَمَ دَارُوِينَ وَنِيُوتَنَ، وَيَتَصَرَّفُ وَكَأَنَّهُ مَا زَالَ يَعِيشُ فِي
عَصْرِ «ابن قَيْمٍ الْجَوْزِيَّةِ»، مَعَ تَطَوُّرِ هَائِلٍ فِي التَّفَكُّيرِ يَجْعَلُهُ مُتَقَدِّمًا
حَتَّى عَلَى أَكْبَرِ الْمُعَاصِرِينَ مِنْ فَلَاسِفَةٍ وَفُقَهَاءٍ وَمُفَكِّرِينَ .. وَهُوَ
يَعِيشُ فِي أَوَاخِرِ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ وَسَطِ دِمَشْقِ الْبَعْثِ وَالِاشْتِرَاكِيَّةِ
وَحُكْمِ الْعَسْكَرِ!

- أَنْتَ لَا تَفْهَمِينَ، قُلْتُ لَكَ أَنْ تُزِيلِي الدُّهْنَ مِنَ الطَّعَامِ، هَذَا
مُؤْذٍ جَدًّا، لَا أَظُنُّ أَنَّ مِنَ الصَّعْبِ أَنْ تَقُومِي بِإِزَالَةِ الدُّهْنِ عَنْ وَجْهِ
الطَّعَامِ، إِمَّا أَنْ تُسَخِّنِيهِ وَتُزِيلِيهِ، وَإِمَّا أَنْ تُبَرِّدِيهِ وَتُزِيلِيهِ! أَيُّ جُزْءٍ مِنْ
هَذَيْنِ الْأُمْرَيْنِ يَحْتَاجُ إِلَى الشَّرْحِ الْمُسَهِّبِ؟ هَلْ أَحْتَاجُ أَنْ أُكْرِّرَ
هَذَا الْكَلَامَ كُلَّ سَاعَةٍ، وَكُلَّ يَوْمٍ؟ لَا أُرِيدُ هَذَا الطَّعَامَ بِهَذَا الدُّهْنِ!

يَصْرُخُ فِي وَجْهِ الْجَدَّةِ، وَيَرْتَفِعُ صَوْتُهُ دُونَ أَيِّ مُبَرَّرٍ حَقِيقِيٍّ.

هَذَا الْغَضَبُ الشَّدِيدُ مِنْهَا وَلِأَسْبَابٍ لَا يُؤْبَهُ لَهَا، لَا يَحْمِلُ إِلَّا
تَفْسِيرًا يَتَعَلَّقُ بِهِ هُوَ، وَلَيْسَ بِهَا هِيَ! يَتَعَلَّقُ بِأَسْبَابٍ يُخْفِيهَا الرِّجَالُ
فِي الْأَنْفُسِ، وَلَا يَتَجَرَّؤُونَ عَلَى الْبُوحِ بِهَا - تَحْتَ ضَغْطِ الْعَادَاتِ
وَالْتَقَالِيدِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ .. لِتَخْرُجَ كَانِفَجَارَاتِ الْبَرَائِكِينَ بَيْنَ الْحِينِ

والحِينَ، تبدو مَزِيحًا مِنَ الْعَضْبِ وَاللُّؤْمِ وَالظُّلْمِ وَنُكْرَانِ الْعِشْرَةِ،
لكنها في حقيقة الأمر لَا تَتَعَدَّى كَوْنَهَا تَعْبِيرًا عَنِ السَّأَمِ وَالْخَبَةِ
وَالْخَوْفِ الْمُرْعَبِ مِنَ الشَّيْخُوخَةِ وَالْعَجْزِ وَالنَّهَائَةِ.

غريبةٌ بَيْنَ أَهْلِهَا وَنَاسِهَا وَفِي بَيْتِ زَوْجِهَا، هكذا كانت
جَدَّتِي، غريبةٌ أَنَا فِي هَذِهِ الْأُسْرَةِ الْحِمَصِيَّةِ - الدَّمَشْقِيَّةِ، الَّتِي
جَمَعَتِ الْحَسَبَ وَالنَّسَبَ الْمُغْرَقَيْنِ فِي ادِّعَاءِ شَرَفِ ضَائِعٍ، يَوْمَ
ضَاعَتْ كُلُّ مَكَاسِبِ الْإِقْطَاعِ فِي سُورِيَا، إِلَى شَرَفٍ حَقِيقِيٍّ تَعَلَّقَ
بِـ «دَارِ عُلُومِ الْحَدِيثِ» الْقَائِمَةِ إِلَى جَانِبِ الْمَسْجِدِ الْأُمَوِيِّ، وَقَبْرِي
نُورِ الدِّينِ وَصَلَاحِ الدِّينِ، كَانَ جَدِّي أَحَدَ أَعْمَدَةِ «دَارِ الْحَدِيثِ»⁽¹⁾

(1) * [دار الحديث الأشرفية]: بناها الملك موسى الأشرف ابن الملك
العاقل الأيوبي عام 630 هجرية، وتولّى إدارتها العالم المُحَدِّثُ أَبُو عَمْرٍو
بْنُ الصَّلَاحِ، وَقَدْ تَوَالَى عَلَى هَذِهِ الدَّارِ مَشَاهِيرُ عُلَمَاءِ الْحَدِيثِ الَّذِينَ
أَلْفَوْا الْكُتُبَ الْعُمْدَةَ فِي عِلْمِ الْحَدِيثِ. وَمِنْ أَهَمِّ مَا تَمَيَّزَ بِهِ نِظَامُهَا الْوَقْفِيُّ،
الشَّرْطُ أَنْ يَتَوَلَّاهَا أَعْلَمُ رَجُلٍ بِالْحَدِيثِ.
فِي الْأَشْرَفِيَّةِ صُنِّفَتْ أَمَهَاتُ الْكُتُبِ فِي الْحَدِيثِ وَغَيْرِهِ، فَكَانَتْ مَرَاجِعَ
أَسَاسِيَّةٍ، اشتهرت شهرة فائقة مثل (علوم الحديث) لابن الصلاح،
و (تهذيب الكمال) لِلْمِزِّي، وَ (تلخيص المتشابه) لابن ناصر الدين.
بَقِيَتِ الْمَدْرَسَةُ كَذَلِكَ حَتَّى الْقَرْنَ الْحَادِي عَشَرَ الْهَجْرِي حَيْثُ بَدَأَ
الضَّعْفُ يَدُبُّ إِلَيْهَا، فَهِيَ اللَّهُ لَهَا عَالَمِينَ جَلِيلِينَ عَادَا بِالْمَدْرَسَةِ إِلَى سَابِقِ
عَهْدِهَا، فَاسْتَوْنَفَتْ فِيهَا حُلُقَاتُ الْعِلْمِ، وَقِرَاءَةُ الْحَدِيثِ وَرَوَايَتُهُ مِنْذُ عَامِ
(1272هـ)، وَهُمَا الْعَالَمُ الْمُحَدَّثُ يَوْسُفُ الْمَغْرِبِيِّ، ثُمَّ دَعَمَ الْأَمِيرُ عَبْدُ
الْقَادِرِ الْجَزَائِرِيِّ، وَكَانَ عَمَلُهُمَا هَذَا تَمْهِيدًا لِبُرُوزِ مَجْدِ الْقَرْنِ الرَّابِعِ عَشَرَ
الْهَجْرِي الْمُحَدَّثِ الْأَكْبَرِ الشَّيْخِ مُحَمَّدٍ - بِدْرِ الدِّينِ الْحُسَيْنِيِّ الَّذِي تَسَلَّمَ
مَشِيخَتَهَا، فَعَادَتِ الْمَدْرَسَةُ دَارًا لِلْحَدِيثِ بِكُلِّ مَا تَعْنِي هَذِهِ الْكَلِمَةُ مِنْ
مَعْنَى].

المصدر: دار الحديث الأشرفية بدمشق - دراسة تاريخية توثيقية / محمد
مطيع الحافظ / دار الفكر / 2001.

* [دار الحديث الأشرفية شاهد عدل من الشهود الكثيرين على عصر زاهر
في دمشق افتتحه الملك العادل نور الدين زنكي رحمه الله تعالى بدخوله
دمشق سنة 549 وبناؤه كثيراً من المدارس، ومن أهمها دار الحديث - =

ورجالاتها في زمنٍ لم يعد فيه لِلْعِلْمِ ولمثل «دار الحديث» هذه في دمشق أيَّ قِيَمَةٍ، بين شعبٍ يَعْبُدُ المال والصَّوت⁽¹⁾ وسفاهاتٍ وسخافاتٍ وقشورِ الحياة، في مرحلةٍ ما بعد الاستقلال، والتي وقفت فيها البلاد والعباد عن التَّطوُّر والنُّمو والقُدرة على صُنْع التاريخ، وبقينا هناك في مُرَبَّعِ التَّفَاخُرِ بِأَسْمَاءِ العائِلاتِ الكبيرة المعروفة، عاجزين عن أن نَتَقَدَّمَ قِيدَ أُنْمَلَةٍ نحو المستقبل والحياة والعالم من حَوْلنا، مَحْصُورِينَ في أنسابنا التي نُعَظِّمُها، وشهاداتِ أبنائنا الجامعيَّة التي اقْتَصَرَتْ بِشَكْلِ رِئِيسِيٍّ على الطَّبِّ والصَّيدلة والهندسة، وكأنه لا عِلْم ولا عُلُوم في الدُّنيا إلا هذه، تَتَخَبَّطُ في عَفْنٍ إجتماعيٍّ خانق، لا يكاد يَفْلِتُ منه إلا القويُّ الشديد! حتى جاءنا «حزبُ البعث» بِانْقِلَابَاتِهِ ودَبَابَاتِهِ ووُحُوشِهِ الطائفية المُتَمَنِّطَةِ بِمَظْلُومِيَّاتِها التاريخيَّة المُدَّعاة، فَسَلَبَ من النَّاسِ شَرَفَ أنسابهم التي يعبدونها، وشَرَفَ انتماءاتهم، وشَرَفَ وُجُودهم أحرارًا كرامًا! وبقيت القُشُور يتعلَّق بها النَّاسُ، يُقِنِّعون أنفسهم من خلالها أنهم «بخير».. وسيطر «البعث» على كلِّ ما عدا ذلك في حياتنا.

تلك غُرْبَة عِشَّتْها، لَامَسَتْها، اسْتَشَقَّتْ عِبَقَها الساحر المُوَجِّع، وعَرَفَتْ باكِراً طَعْمَ التَّميِّزِ بِالانتماء إليها، بَقِيَتْ تلك

= النورية بناها لشيخه الإمام الحافظ ابن عساكر مؤرخ دمشق، وهي أقدم دار حديث في العالم الإسلامي، واستن بسنته الملوك الأيوبيون من بعده، وكان من أشدهم حباً للعلم وأهله الملك الأشرف مظفر الدين ابن الملك العادل شقيق الناصر صلاح الدين ابن أيوب. وهي ثاني دار تبنى للحديث في العالم، وتم البناء في سنتين، واحتفل الملك الأشرف بافتتاح دار الحديث في ليلة النصف من شعبان سنة 630، وعهد بتدريسها للإمام الحافظ الحجة أبي عمرو ابن الصلاح الشهرزوري].
المصدر: دار الحديث الأشرفية/ محمد مجير الخطيب/ موقع نسيم الشام/ 15.1.2011.

(1) الصوت: الصيت والسمعة.

الْعُرْبَةُ رَوْحًا وَحَيَاةً تَنْبُضُ فِي عُرُوقِي خِلَالَ الثَّلَاثَةِ وَالْعِشْرِينَ عَامًا
الَّتِي عِشْتُهَا فِي دِمَشْقَ، كَانَ جَدِّي هُوَ صَدِيقِي الصَّدُوقَ، وَالَّذِي
لَمْ أُسْتَطِعْ نُصْرَتَهُ بِمَنْعِهِ عَنِ ظُلْمِ جَدَّتِي إِلَّا نَادِرًا، كُنْتُ.. كُنَّا - كُلُّ
الْأُسْرَةِ - مُقْتَنِعِينَ تَمَامًا بِأَنَّهَا هِيَ السَّبَبُ فِي غَضَبِهِ الدَّائِبِ، وَحَقِّقَهُ
الَّذِي لَا يَنْطَفِئُ، وَعَدَمَ رِضَاهِ وَنُفُورِهِ الْمُتَوَاصِلِ مِنْهَا، كَانَ لَدِينَا
الْتِبَاسُ حَقِيقِي فِي إِدْرَاكِنَا لِلْعَلَاقَةِ بَيْنَ الظَّالِمِ الْقَادِرِ عَلَى الْفِعْلِ،
وَالْمُظْلُومِ الْعَاجِزِ عَنِ رَدِّ الظُّلْمِ عَنْ نَفْسِهِ.

كَانَتْ مَسْأَلَةُ ظُلْمٍ بَسِيطٍ غَيْرِ مُرَكَّبٍ، وَلَا مُعَقَّدٍ تَعَقَّدَ الْعَلَاقَةُ
الَّتِي تَجْمَعُهُمَا، ظُلْمٌ تَوَلَّدَ عَنْ إِسْتِحَالَةِ إِيجَادِ حَلٍّ لِحَيَاةٍ مُشْتَرَكَةٍ
لِشَخْصَيْنِ غَيْرِ مُتَفَاهِمَيْنِ الْبَتَّةَ.. بِهَذِهِ الْبَسَاطَةِ، تَوَلَّدَ كُلُّ ذَلِكَ
الْحِجْمِ مِنَ الْأَلَمِ.

لَمْ نَفْهَمْ - كُلُّ أَفْرَادِ الْعَائِلَةِ - حِجْمَ الْمَعَانَاةِ الَّتِي كَانَتْ تَعِيشُهَا
جَدَّتِي إِلَّا بَعْدَ أَنْ رَحَلَتْ.

وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ هَذِهِ الْآصِرَةِ الْبَالِغَةِ التَّعْقِيدِ الَّتِي كَانَتْ قَائِمَةً
فِيمَا بَيْنَهُمَا، وَالَّتِي كُنَّا نَرُصُّدُهَا وَكَأَنَّهَا شَيْءٌ طَبِيعِيٌّ فِي سِيَاقِ
الْعَلَاقَاتِ الْعَامَةِ بَيْنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ ضَمَّنَ مُعْظَمَ الْأُسْرِ مِنْ حَوْلِنَا،
فَلَقَدْ كُنْتُ أَكُنُّ لَجَدَّتِي الشَّيْءَ الْكَثِيرَ الْكَثِيرَ، مِنَ الْمَوَدَّةِ وَالرَّحْمَةِ،
وَكَانَ جَدِّي بِالنِّسْبَةِ إِلَيَّ، الْأَبَ قَبْلَ أَبِي، وَكَانَ الْأُمُّ بَعْدَ أُمِّي!
كَانَ الثَّقَّةُ الْوَحِيدُ فِي حَيَاتِي، شُعَاعُ النُّورِ الْإِسْتِثْنَائِيِّ فِي عَالَمِي
الدَّمَشَقِيِّ الْكُتَيْبِ ذَاكَ.

بَيْتُ جَدِّي.. كَانَ وَاحِدَةً حَيَاةً وَضِيَاءً فِي خُضْمِ ظُلُمَاتِ
فَتْرَةِ الصَّرَاعَاتِ السِّيَاسِيَّةِ وَالْفِكْرِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْرِصُ بِسُورِيَا،
وَبِهَامِشِهَا حَرَكَةَ مَقَاوِمَةِ إِسْلَامِيَّةٍ مُسَلَّحَةٍ مُبْهَمَةً لَدَى النَّاسِ،
لَكِنُّهَا، وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ، إِمْتَدَّتْ كَالنَّارِ فِي الْهَشِيمِ لِتَنْعَمَ
مُعْظَمُ الْمَنَاطِقِ السُّورِيَّةِ، قَابِلُهَا النِّظَامُ بِمَجَازِرِ مُسْتَبْرَةٍ، وَإِعْتِقَالَاتٍ
تَعَسُفِيَّةٍ شَامِلَةٍ، وَقَمْعٍ وَبَطْشٍ فَظِيْعَيْنِ بِالنَّاسِ، وَسَطَ تَلَاطُمِ أَمْوَاجِ

عَفْنِ إجتماعي يُنذِر بالطوفان، الذي ما لبث أن عمّ البلد بما فيها
ومن فيها، طوفانٌ مهْدٌ لسقوط حضاريٍّ مُدوّ، تلبّس به شعبٌ كان
يحمل مشعل الحضارة الإنسانية في العالم أكثر من مرة خلال
دورات التاريخ.

أعظم ما في ذلك الطوفان وأشدّه ترويعاً، أن أهله لا يرون
موجه الطّاعي، ولا يسمعون هديره العاني، ولا يعترفون بتلبّسهم
به!

بيتٌ جدّي وجدّتي ذاك.. كان جتّي في قلب جهنّم.



تلك الدّار الكبيرة الواسعة المترامية ذات الطبقتين والسقف
القرميدي، بشرفتيها الكبيرتين الممتدتين، وعُرفها المصطفّة
بالتوازي معهما، المفتوحة فيما بينها بأبواب خشبية ضخمة، تعزف
كلّما أُغلقت أو فُتحت موسيقاها الخاصة، تُنبئ بأن في ذلك
البيت حياة.

بمكتبتها الثّرة الضخمة المتنوعة، الحافلة بالكتب الكبيرة
والصغيرة والمتوسطة، القديم منها والحديث، الموسوعيّ
والمختصر، مُضمّخة كلّها بعطر جدّي ورائحته الأنيقة.. ما زال
مسكٌ عطره عاليّاً في روحي، مكثت تلك الرائحة معي أعواماً
مديدة، أتخسّس بقايا مسكه ذاك بأناملي في رسائله القليلة إلَيّ،
وأبحث عنها بين صفحات كُتبه التي «استعرتها» من مكتبته، أملأ
بأريجها جنبات نفسي في عُربتها.

لم يضاه أثر مكتبة جدي في حياتي، إلا مكتبة دارنا التي
كانت تُعطي معظم جدرانها كُتب، تُصرّ أُمّي كلّ عام على تجديد
تغليفها كلّها بورق «التّجليد» الأزرق الأنيق الذي كان يستعمله
تلاميذ المدارس في هاتيك الأيام، ومكتبة المركز الثقافي العربي

في حيّ أبي رمانة الدّمشقي قريباً من حيّ العفيف حيث نسينا،
كنت أتردد عليها يومياً لاستعارة الكتب وقراءتها.

تلك ثلاث مكتبات، أولها زاخرة بكتب جدّي الدينيّة العتيقة،
تخزن أمهات العلم والأدب والمعرفة بالإسلام وتاريخه، والثانية
مكتبة أبي وأمي الحافلة بكلّ ما أنتجه الفكر الإنساني بالعربيّة وكلّ
ما تمّت ترجمته منه إلى العربيّة، خصوصاً من الإنتاج الفكري
والأدبي الروسي، والثالثة مكتبة المركز الثقافي، والتي كانت تزدان
بكلّ جديد وقديم من إصدارات وزارة ثقافة إهتمت إهتماماً هائلاً
بتروسيخ «القوميّة العربيّة» ديناً ماله ثاب! في بلد كانت المعرفة فيه
من آخر إهتمامات عامة النّاس السّاعين ما بين «صفا» تدّين صوفي
من ذلك التّوع البعيد عن القدرة على التّهوض بالمُجمّع، و«مروّة»
مجتمع يرسف في أغلاله وعفنه!

تلك المكتبات الثلاث شكّلت حدود وطن المعرفة الأول
الذي أنتسب إليه، فيه ابتليت بـ «فرويد» ولمّا أتجاوز الثّانية
عشرة من العمر، والتّهمت روائع «تولستوي»، كما «نجيب
محفوظ» و«توفيق الحكيم»، وتعرفت فيه على «نابليون» و«ماري
انطوانيت».. رافقتها إلى المقصّلة، قبل أن تقتحم عليّ أمي الغرفة،
فتأخذ الكتاب وتمزقه ألف قطعة وتّرمي به من النافذة ليتناثر ندفاً
من كلمات! كانت تلك هي المرة الأولى والوحيدة في حياتها التي
مزّقت فيها كتاباً، بعد أن حاولت أربع مرات منع إبتتها من قراءته
ليلة أحد امتحانات شهادة الإعدادية! مزّقه بعد أن أعيتها الحيل
في حملي على الدراسة.. لكنني على الرّغم من ذلك، نجحتُ
في ذلك العام وانتقلتُ إلى المرحلة الثّانوية، لا أحد يعرف كيف
نجحتُ، ولا حتى أنا! لم أفتح كتاباً من الكتب المدرسية، ولم
أدرس شيئاً يُذكر، كانت تلك المرحلة من حياتي، بداية النهاية
لعلاقتي الغريبة بالدراسة المتّظمة والمناهج الرسمية.

كلّ من حولنا.. مُصِرٌّ على أنني نجحت «بالواسطة» في امتحانات الشهادة المتوسطة، التي يدعوها الناس بشهادة «الكفاءة»، وكانت شهادة رسمية مُعتبرة ومُهمّة في ذلك الحين، اتَّهَمْنَا الجميع بأنني نجحت بمساعدة آخرين! وأنا التي حَبَسْتَنِي المُرَاقِبَات في قاعة الإمتحان عندما هممتُ بتسليم ورقتي، طَلَبَنِي أن أبقى لأساعد مجموعة من الطالبات كبيرات السّن القادِمَات من القرى البعيدة لتقديم الإمتحان، لم أخرج من تلك القاعة إلا بعد أن ساعدتُهنَّ جميعهنَّ في كتابة موضوع الإنشاء، كتبتُ خمسة موضوعات إنشاء في ذلك الضحى في قاعة الإمتحان!

إتهاماتٌ شاميّةٌ بامتياز، رافقتني في كلّ مراحل دراستي التي فشلتُ في إنهاؤها رسمياً، بل رافقتني إلى مدريد ومع أولادي في مدارسهم الإسبانية والعربيّة! خُلِقَ شاميٌّ بامتياز، وربما هو حالة إنسانيّة عامّة.. فحتى لو حازَ أحدُهم الدُّنيا بحذافيرها، تَضَيَّقُ عينه عليك، ويقوم بجميع المحاولات اللاّزمة والضّروريّة لنزع البساط من تحت أقدام كلّ من يَتَمَيّز عنه في أي شيء يتمتع به غيره ولا يملكه هو، أو لا يستطيع تحقيقه، حتى لو لم يكن من إختصاصه أصلاً، ولا ممّا عُرِفَ عنه من إهتمامات.

أن تكون متميّزاً بأي شيء بين أهل الشّام، ولا تُصعّر به خَدَّكَ.. فهذا يعني أنك أصبحت عُرضة للأذى المجانيّ غير المُبرر من الجميع، وفي جميع المناسبات.. أن تكون في الشّام صاحبَ مَوْهبةٍ، فهذا يَقْتَضِي أنكَ مُخْتَلِفٌ، وأنكَ من «ذوي الإحتياجات الخاصّة جدّاً»! - مع كامل وبالغ الإحترام لكلّ ذوي الإحتياجات الخاصّة -، وهذا بدوره يعني أن من حَقَّ الجميع إعلان الحرب عليك، وإِتِّخاذكَ عدوّاً لهم، وإعتباركَ تهديداً حقيقياً لوجودهم مُدْفِعَ الفقر بحدوده المعرفيّة والثّقافيّة والاجتماعيّة والأخلاقيّة.

بيت جدِّي ذاك، الأثريُّ بأثاثه العتيق شديد التَّواضع، كان مَثار الشَّجارات العنيفة بين جدِّي وجدَّتِي، كانت تريد أن يكون لها دارٌ مثل دُورِ مُعظَمِ علماء دمشق، حديثة زاهية مُتأنِّقة، تزدانُ بالأثاث والطنافس والسَّتائر التي تتحرك بِمُحرك آليٍّ عن بُعد، وأحدث الأدوات الكهربائية، وكلُّ ما يمكن أن يَدُلَّ على أن هذا بيت طبيبٍ من أوائل الأطباء الذين عرفتهم سوريا في تاريخها الحديث، رجلٌ كبير وعالمٌ مرموق وأستاذٌ في «دار الحديث»، يعرفه القاصي والدَّاني، كانت تعتقد أن بيته يجب أن يكون دارًا حديثةً، تستطيع أن تستقبل فيها نساءً وُجَّهَاء القوم، ولا تشعر بالخجل وهنَّ يَجُلْنَ بنظراتهن المُتفحِّصة المُتحرِّشة المُتَّهِّمة، في جدران الدَّار المرصوفة بالكتب الصفراء، وسُقُف عُرفها التي تصطف فيها عُمَد الخشب غير المُعالَج، طبعِيٍّ وحشيٍّ مُذهل، وألوان زجاج شبابيكها العجيبة الرائعة الجمال المتداخلة بالخشب المنقوش كأنها أعشاش عصافير مُتناهية في الصَّغر هاربة من حكاية صينية قديمة.

جدَّتِي، بسنوات عمرها التي تجاوزت الخامسة والستين، وقامتِها المُتناسقة، ووجهها ذي القَسَمات اللطيفة المليحة النَّاعمة، ونظافَتِها وترتيبها، وعينها العسليتين الصَّغِيرَتَيْن اللَّتَيْنِ أَرْهَقَهُمَا البُكاء والقهر وعذابات روحها القلقة، كانت تعرف أنها جميلة جدًّا، وأن أحدًا لا يُدغدغ عواطفها ويُرضي حاجتها إلى إِمْتِداح جمالها، كَسَرَتْها الأيام، وتركتها لوحة بهيَّة ذابلة الألوان، ما كان يُضِرُّ الجدَّ لو أكرمها بكلمتين تشعر معهما بالرَّضى والسعادة؟ لكنه لم يكن يستطيع ذلك، كان عاجزًا عن الإحتفاء بِامْرَأته، ولم يكن جمالها الفاتِن يعني له أي شيء.

ومتى كان الجَمال وحده يكفي؟؟ إنه يُمثِّل فعل جذبٍ

ناقص، لا يعني كثيراً للرجال ولا للنساء، ما لم تُتَمِّمَهُ أشياء أخرى
تجمع بين الزوجين، تساعد على وضع أسس العِمارَةِ بينهما.

حفاوة الرجل بامرأته، ليست إلا مهارة خاصة بالرجل نفسه،
وبطبيعة نشأته وحياته وتجاربه، لا تتعلق دائماً بصفات المرأة
وملكاتها ومواهبها...

حياتهما معاً شبه مُعاقَة، والطلاق مُمتنع التَّحَقُّق قطعاً، هكذا
هي الأحوال في الشَّام، استنسخنا الفلسفة الكنسيَّة الغربيَّة عن
بناء الأسرة: «زواجٌ مؤبَّد، طلاقٌ مستحيل»! لكن التزامنا بديننا
وبالقواعد الاجتماعيَّة الصَّارمة، التي خلفها لنا الاستعمار الفرنسي
والتزمتها الطبقات الاجتماعيَّة التي تظن نفسها «رفيعة المستوى»..
- جعل أهل بلاد الشَّام يأنفون مما يأتيه الفرنسيون أنفُسهم في
مجتمعهم بحثاً عن السَّعادة، تهرباً من قواعد الزواج الكنسي نفسه
الذي نلتزمه بحذافيره في حواضرنا!

بقيت الحياة الزوجيَّة في كثير من بيوت الشَّاميِّين حبيسة
العُرف والعادات والعيب وماذا سيقوله عَنَّا النَّاس، على الرَّغم من
أنَّا أهل ﴿وَإِنْ يَفْرَقَا يَغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ﴾⁽¹⁾.

الحديث عن جَمال جدتي، ومُقارنته الدَّائمة بما تدَّعوه
«قُبْح» كَنائِهَا الثَّلاث المُعلَّمات، كَوْنُهُنَّ «مُشَوَّهات» من
أصول ألبانيَّة وإفريقيَّة - كما كانت تقول! - كان شُغلها الشَّاغل،
وكان السَّبب الرئيس في بعض نُفُورنا منها، وَعَدَمَ تَعاطُفنا مع
مُعاناتها.. ولطالما سَمِعْتُها تُرَدِّد: «يا حسرتي عليكم يا تِيتة طلعوا
كأُمَّهَاتِكُمْ»! لو وُلِدْتُمْ مثلي لكان خيراً لكم!

- وهل أفادكِ شَيْئاً يا تِيتة كَوْنِكَ فائِقة الجَمال؟ الجَمال بِحدِّ
ذاته لا يَجْلِبُ السَّعادة لا لِلرَّجُل ولا لِلْمَرْأَة!

(1) سورة النساء: الآية 130.

- أَنْتِ مِثْلُ أُمِّكَ.. لِسَانُكَ طَوِيلٌ!

- يَا تَيْتَةَ.. الْجَمَالَ لَا يَعْنِي أَيُّ شَيْءٍ لِلْمَرْأَةِ فِي الْوَاقِعِ، إِنَّهُ يُسَاعِدُ عَلَى إِزْعَاجِ الْآخَرِينَ لَهَا، وَقَدْ يَجْمَعُ الذُّبَابُ مِنْ حَوْلِهَا فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ.

- يَا لَطِيفَ عَلَى هَذَا الْكَلَامِ؟ الْجَمَالَ أَهْمُ شَيْءٍ، وَامْرَأَةٌ غَيْرُ جَمِيلَةٍ، هِيَ امْرَأَةٌ مُشْحَرَّةٌ!

- يَا تَيْتَةَ.. أَعْرِفُ امْرَأَةً جَمِيلَةً جِدًّا، لَمْ يُسْغِفْهَا جَمَالُهَا فِي إِزَالَةِ الْهَبَابِ⁽¹⁾ عَنْ حَيَاتِهَا.

تَدْمَعُ عَيْنَاهَا وَتُرَدِّدُ بِمِشَاعِرِ تَفِيضٍ مَظْلُومِيَّةٍ: أَنَا حَظِّي مُشْحَرٌ
يَا تَيْتَةَ.. أَنَا حَظِّي مُشْحَرٌ.

ثُمَّ تَسْتَدْرِكُ فَتَقُولُ: أُمُّكَ حَظُّهَا مِثْلُ الثَّلَجِ، شَوْفِي⁽²⁾ شَوْ
بَشِيعَةً، وَشَوْفِي أَبُولُ كَمْ يُحِبُّهَا؟

- يَا تَيْتَةَ أُمِّي بَشِيعَةٌ؟؟ اللَّهُ يَسَامَحُكَ يَا تَيْتَةَ، إِنْ لَدَيْهَا مِنَ الصِّفَاتِ الرَّائِعَةِ مَا يَجْعَلُهَا شَمْسًا فِي حَيَاتِنَا، عَدَا عَنْ أَنَّنِي أَعْدُهَا أَجْمَلَ امْرَأَةٍ رَأَيْتُهَا فِي حَيَاتِي - مِنْ بَعْدِكَ طَبْعًا! - إِنَّهَا تُشَبِّهُ شَادِيَّةَ⁽³⁾.

تَشْهَقُ الْجَدَّةُ، وَتَضْرِبُ صَدْرَهَا بِيَدِهَا، وَتَقُولُ وَهِيَ فِي حَالَةٍ
ذُعُرٍ وَاسْتِهْجَانٍ:

- أَعُوذُ بِاللَّهِ.. مَاذَا تَقُولِينَ؟ تُشَبِّهُ شَادِيَّةَ؟ أُمُّكَ قَصِيرَةٌ، وَأَنْفُهَا
كَبِيرٌ!

(1) الهباب: جزيئات سوداء متبقية من الإحراق غير التام للفحم أو النفط أو الخشب/ معجم اللغة العربية المعاصر.

(2) شوفي: انظري - باللهجة الشامية..

(3) «شادية» ممثلة ومغنية مصرية كانت مشهورة جدًا في أواسط القرن العشرين.

- يا تيتة.. وشادية قصيرة، ثم أَلَسْتُ أَنْتِ التي خَطَبَتْهَا لأبي؟
- خَطَبَتْهَا وَانْعَمَى عَلَى قَلْبِي لأنها دارسة، وكان أبوك يُريد مُعلِّمة مثله.

- يا تيتة أنت جميلة، وأمِّي جميلة.. ولا توجد امرأة قبيحة،
لكن بعض الرِّجال عُميان.

تَسَكَّتْ عَلَى مَضَضٍ، وَتَمَسَحَ عَلَى رَأْسِي، وَهِيَ تَسْكُبُ لِي
الحليب، وتملأ الفنجان الكبير بِقِطْعِ الكَعْكَ الجاف الذي تُحبه
كثيرًا، وكان أبي يَأْتِيهَا به بين الحين والحين، وكانت تُخْصِنِي بهذه
الأكْلة المُمْتَزَّة عندها، وتقول: هذه أَكْلَةٌ تُرْكِيَّة يَأْكُلُهَا الأُمراءُ فِي
فُطُورِهِمْ وَعَصْرُونِيَّتِهِمْ!

وأضحكُ وأمازحها، وأقول لها: والله يا تيتة أراها أَكْلة
فرنسية، تركها الاستعمار لنا ذكرى...

وتتأفف من إقحامي للأُمُور ببعضها، وتقول لي: كُلِّي كُلِّي،
الله يعين ذاك الذي ستزوجه!

ثم تستطرد: ولكن لا بأس، يجب أن تقولي لي ما الهدية التي
تريدونها مني في عُرْسِك، لقد ادخرت مبلغًا خاصًا من أجل ذلك؟
- يا تيتة.. أي عرس هذا، والعريس لم يأت بعد!

- لا عليك سيأتي.. أنت بنت عائلة كبيرة، من جهتي ومن
جهة جدك!

- يا تيتة.. وأين ذهبت أمي؟

- لا.. لا، هذه أمك شامية تركية لا دخل لها بنا.. نحن
الحماصنة أهل الحسب والنسب.

- يا تيتة.. أنا نصفني شامي، ونصفني حمصي!

- لا.. أنت ابنة أبيك فقط!

- يا تيتة.. أنت تنسينني إليك في هذه المقارنة؟ ما هذا الظلم؟

- اسكُتي وكُلي، هل تقارنين دار أبي وعائلتنا بأهل الشام؟
كُلي كُلي واشربي الحليب لعلك تزدادين طولاً، فحالتك صعبة
مثل أمك!.. سأعطيك من تشوكولا «ديانا»، أحضر لي عمك علبه
من بيروت، وخبأت لك حصتك، أنت حبة عيني.. بس يا لطيف
كم تحبين المشاكل والكلام الطالع النازل؟

وأضحك، واكل.. وأسكت، خوف أن أضيع تشوكولا ديانا
الرائعة المذاق، والتي تصرّ جدتي أنها تركيّة سلطانيّة!

كانت كلّ المدن السوريّة، وأهل الشّام بأفطارها الأربعة، ما
يزالون يُعانون آلام الإنسلاخ عن الإمبراطوريّة العُثمانيّة، يَحْمِلُون
في خلایاهم وعروقهم بصمات أمجادها، ويَتَمَسَّحُونَ بما خلفته
في حياتهم من أدوات ثقافية ومعيشية.. كانوا لا يُريدون إفلات
يَدّها من أيديهم.. كانوا يَخْشَوْنَ الضَّياع.. كَأَنَّ كُلَّ ما يَقْصُونَهُ علينا
ليلاً ونهاراً في إذاعة لندن وكافة الإذاعات والتلفزيونات العربيّة،
وفي كُتُبِ التَّاريخ المَدْرَسيّة، عن الثَّورة العربيّة الكُبرى، وعن
جَمال السَّفاح ومَشائِقِهِ التي كان يَنْصِبُها «للأحرار» في ساحة
المَرْجَة الدَّمَشَقِيّة، وتَصوِيرِ الأمر وكأنّه «إِسْتِعْمَارٌ تُرْكِيٌّ» لبلاد
العرب.. كان ذلك كُلّه كأنّه حكايات لا تَخُصُّ أحداً من هذا
الشَّعب، الذي ما زال يَأْكُل نفس الطَّعام التُّرْكِيّ، وَيُسَمِّي أبناءه
وبناته بأَسْماءِ الأُميرات والفاتحين والسُّلاطين العُثمانيين، وَيَتَفَاخَرُ
بأنسابِهِ المُمتدَّة إليهم، وَيَتَكَلَّمُ لَهُجَّةً نِصْفُ مُفْرَدَاتِهَا تُرْكِيّة!!

كُنّا نعيشُ انفصاماً هائلاً، بين ما يُريدُهُ الشَّعب المُغَيَّبُ تماماً
عن صُنْعِ القرارات الخاصّة بحياته، وما تُريده الطبقات السَّيَاسِيّة
والثقافيّة.

بين ما يَعِيشُهُ الشَّعب واقِعاً، وما يُصَوِّرُهُ الإعلامُ عن حياة هذا

الشَّعب، بين هُويَّة عامَّة الشَّعب، والهُويَّة التي كانت تُطَبِّخ وتُعَدُّ له
في مطابخ المُستعمرين.
كان الوضع فظيماً...

جدّتي تريد بيتاً يحوي أسباب الرّاحة والدّفء والطّمانينة،
وتعتقد أن ذلك من حقّها.. وكان في استطاعة زوجها أن يفعل،
لكنه لم يفعل، فهو يكره تلك الدُّور الحديثة ويلفّظها، ويقول إنه
لا يرى فيها دُور الشّام، ولا دُور أهل العِلْم، بل دُور الفرَنْجة، ودُور
السُّمعة والرياء! أراد أن يعيش زاهداً، يُخالف النّاس ويختلف
عنهم، يملك الدُّنيا في يده وليس في قلبه.. وقد فعل.

أراد بزُهدِهِ أن يعيش حُرّاً، أن يعيش كما يشاء، ويفعل ما
يشاء، مُتَحَقِّقاً بهُويّته وبشريّته، ولم يدع أحداً يتدخّل في طريقة
حياته، كان صقراً يخلّق في الأعالي، لا يتحرّج من السُّقوط بعض
المرات في مياه آسنه، إذ ما يلبث أن ينهض فيستوي قائماً، يخرج
من المُستنقع نافضاً عن كتفيه ما علّق بهما، يستأنف مسيره، لا
يهمُّه النّاس، لا وجودهم، ولا رأيهم، إنه حرّ.. غريب، حتى عن
أقرب المُقرّبين إليه.

لم يخطب ودّ أحد، ولم يكن في حاجة إلى ذلك.. لم يستجد
أحداً، وبذل كلّ جهدٍ ممكّن ليكون ذلك الصّقر، الذي يموت
وحيداً، كما عاش دائماً وحيداً، على الرّغم من تدافّع النّاس لدى
باب بيته يخطبون ودّه.

عندما وقع ذات فجر وهو يتوضّأ، قبل سنواتٍ من مُغادرتي
دمشق، إنكسر حوضه، وأصبح عاجزاً عن المشي، أرسل إليه

مُفتي البلاد «أحمد كفتارو»⁽¹⁾ سريراً طيباً من أحدث ما يُستعمل
للمُقعدين، جَلَبَهُ خصيصاً له!

نَصَبَ الشَّبابَ السَّرِيرَ تَحْتَ مُرَاقِبَتِهِ، اسْتَعْرِقُوا يوماً في تَرْكِيبِهِ
وإِعْدَادِهِ، رَاحَ يَتَأَمَّلُهُ طويلاً.. ثم سَمَحَ لَهُمْ بِنَقْلِهِ إِلَيْهِ، حَمَلُوهُ حَتَّى
اضْطَجَعَ فِيهِ، وَصَارَ يَتَمَلَّمَلْ، قَالَ لِي بَعْدَ أَنْ خَرَجُوا: كَأَنِّي أَرَقُّدُ
عَلَى الشُّوكِ يَا جَدُو.

فِي الْيَوْمِ التَّالِي، اتَّصَلَ بِكَفْتَارُو، وَشَكَرَهُ.. ثُمَّ قَالَ لَهُ: أَرْسِلْ
تَلَامِيذَكَ لِأَخِذِ السَّرِيرَ.. وَهَكَذَا كَانَ.

تَصِلُ الْمُشَاجَرَاتُ بَيْنَ جَدِّي وَجَدَّتِي أَحْيَانًا حَافَةَ الطَّلَاقِ
«الْمُسْتَحِيلِ»، فِي كُلِّ مَرَّةٍ يُفْتَحُ فِيهَا مَلَفُ الدَّارِ وَأَوَاضَاعُهَا، هُوَ
حَانِقٌ غَاضِبٌ، وَهِيَ عَزِيزَةُ النَّفْسِ لَا تَسْتَطِيعُ الْإِسْتِكَانَةَ، هُوَ عَنِيدٌ

(1) أحمد كفتارو: ولد في دمشق/ 1912 ميلادية، أحد شيوخ الطريقة
النقشبندية، تلقى علومه الدينية على أيدي علماء دمشق الذين أجازوه
في التعليم والتربية، وهو أحد كبار «رجال العمل الإسلامي الدعوي»
في سورية، شغل منصب مفتي الجمهورية العربية السورية 1964 وحتى
2004/ حيث توفي عن 92 عاماً، قضاها مُهادناً نظام حافظ الأسد،
لتمريض عمله الدعوي في سوريا، افتتح وأسس العديد من أهم المدارس
والروابط والمنتديات والمعاهد التعليمية والتربوية الدينية في سوريا،
وشارك في مختلف المناسبات الدعوية - الدبلوماسية خارجها.
أهم الأفكار التي اشتهل عليها: الأخذ بمنهج الوسطية دون تفريط،
وإحياء روح الاجتهاد بضوابطه، وعمل على إعادة قواعد التصوف إلى
القرآن والسنة، وقدم في هذا المجال ميثاق العمل الصوفي.
أهم قواعده السياسية: التعاون مع الحكومات «الوطنية» لخدمة قضايا
الدعوة والأمة، ترسيخ الوحدة الوطنية، حرمة التطبيع مع إسرائيل، دعم
الكفاح التحرري ومشروعية «المقاومة».

لم يُحَصِّلَ الرَّجُلُ أَيَّ مِنَ الدَّرَجَاتِ الْعِلْمِيَةِ خَارِجَ حَلَقَاتِ الْعِلْمِ فِي
المساجد، ولم يترك أي إنتاج فكري أو علمي أو أدبي أو فقهي، ولكن
تخرج على يديه العديد من مشاهير طلبة العلم والدعوة في سورية.
المعلومات من عدة مصادر، ومن معرفة شخصية بالموضوع.

صَعْبُ الْمِرَاسِ، وَهِيَ لَا تَقْنَعُ بِوَاقِعِهَا وَلَا تُرِيدُ أَنْ تَرْضَى.. يَمْنَحُ
الظُّلْمَ الْمَظْلُومِينَ، قُدْرَةً عَلَى التَّحَدِّي، وَأَمَلًا بِالنَّجَاةِ..

- أَرَأَيْتَ أَحَدًا فِي كُلِّ دِمَشْقٍ يَطْبُخُ فِي مَطْبَخِ حَجَرِي فِي أَيَّامِنَا
هَذِهِ؟

- نَحْنُ لَا نُقَلِّدُ النَّاسَ!

- أَنَا لَا أَقُولُ لَكَ أَنْ نُقَلِّدَ النَّاسَ، أَرِيدُ أَنْ أُرَتِّحَ فَحَسَبُ.

- عَقُودٌ وَأَنْتِ تَعْمَلِينَ فِي هَذَا الْمَطْبَخِ أَلَمْ تَتَعَوَّدِي عَلَيْهِ؟
لَنْ أَغَيِّرَ الْمَطْبَخَ! وَلَنْ أَتَفِقَ قَرَشًا وَاحِدًا عَلَى تَغْيِيرِ شَيْءٍ فِي هَذَا
الْبَيْتِ.. أَنَا أَحْبَبُهُ هَكَذَا، وَأَرِيدُهُ هَكَذَا!

- لَكِنَّكَ لَا تَعِيشُ فِيهِ وَحَدَّكَ، وَلَا تَضْطَرُّ إِلَى إِحْتِمَالِ نَظَرَاتِ
نِسَاءِ الْمَشَايخِ، وَاحْتِقَارِهِنَّ بَيْتِنَا وَطَرِيقَةَ حَيَاتِنَا.

- سَبِّحَانَ اللَّهِ.. نِسَاءُ الْمَشَايخِ؟! مَنْ يَحْتَقِرُ النَّاسَ بِسَبَبِ
الْبَيْتِ الَّذِي يَسْكُنُونَهُ، هُوَ الْمُحْتَقَرُ الرَّخِيسُ، سَيُسْأَلْنَ وَمَشَايِخِهِنَّ
عَنْ هَذِهِ الْأَخْلَاقِ الدَّنِيَّةِ!

وَتَقُولُ كَسِيرَةً: كُلُّ النَّاسِ يُقَيِّمُونَ بَعْضَهُمْ بَعْضًا بِوَضْعِ الْبَيْتِ
الَّذِي يَسْكُنُونَهُ.

يُتِمَّتْ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ هَذِهِ الْخِسَّةِ.. أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ قَوْمِ هُمُّهُمْ
الْحَيْطَانُ وَالسَّجَادُ وَالسَّتَائِرُ.. عَلَيْنَا نَحْنُ أَنْ نَنْتَهِيَهُمْ وَنَسْأَلَهُمْ مِنْ
أَيْنَ لَهُمْ هَذَا؟ وَمَنْ أَيْنَ جَاءُوا بِكُلِّ هَذِهِ الْأَمْوَالِ لِيَعِيشُوا تِلْكَ
الْحَيَاةَ الْغَرِيبَةَ الْغَرِيبَةَ الْآسِنَةَ!

تَرْضَى جَدَّتِي بِهَذِهِ الْأَوْصَافِ الَّتِي تَنْطَبِقُ تَمَامًا عَلَى أَوْلَئِكَ
الْقَوْمِ الَّذِينَ يَتَرَفَّعُونَ عَلَى النَّاسِ بِالْأَسْمَالِ، وَتَشْعُرُ بِشَوَّةِ الْإِعْزَازِ
بِالْكَفَافِ وَالْعَفَافِ، وَتَنْتَهِزُ الْفُرْصَةَ، فَتَسْتَأْنِفُ الْجَوْلَةَ:

- أَنَا مَا عُدْتُ أَسْتَطِيعُ الْعَمَلَ فِي هَكَذَا مَطْبَخٍ.

- ولذلك جئناكِ بخادمتين .

تُغْمِغُمُ الجَدَّةُ، وَكُلُّنَا نَسْمَعُهَا، إِلَّا الجَدَّ.. أَوْ لَعَلَّهُ لَا يَرِيدُ أَنْ يُنْصِتَ: جِئْتُ بِهِمَا لِتَقُومَا بِخِدْمَتِكَ وَتَسْتَعْنِي عَنْ خَدَمَاتِي تَمَامًا، تَتَسَلَّى بِصُحْبَتِهِمَا والحديث إليهما والشَّجَارَاتِ مَعَهُمَا والاستماع مِنْهُمَا عن حكاياتِ الضَّيَعَاتِ وأخبارِ أَهْلِهَا وما يجري فيها!

تتسلل «مُنَى» و«حُورِيَّة» من المجلس خَارِجَتَيْن، اتِّقَاءً لِنُشُوبِ المعركة الخاصة بهما، بينما نَنْظُرُ إِلَى الجَدَّةِ مُتَوَسِّلِينَ إِلَيْهَا الشُّكُوتِ، فِحكاياتِ الشَّغَالَاتِ فِي خِدْمَةِ الْبَيْتِ، وَاللَّوَاتِي فَهَمْنَ أَنَّ الْأَمْرَ النَّاهِي فِيهِ هُوَ الْجَدُّ وَلَيْسَتْ الْجَدَّةُ.. هِيَ حكاياتُ ذَاتُ شُجُونٍ وَذِكْرِيَّاتٍ لَا تَقِلُّ إِسْتِثْنَائِيَّةً عَنْ حكاياتِ زُورَارِهِ مِنْ «كِبَارِ» الْقَوْمِ، كَمَا حكاياتِ الْجُدْرَانِ وَالْمَجْلَى وَالْأَذْرَاجِ الْخَشَبِيَّةِ وَأَشْجَارِ السَّرُورِ وَالْيَاسَمِينَةِ الْمُتَوَحَّشَةِ الْعَشَوَائِيَّةِ الَّتِي تَسْتَقْبِلُكَ لَدَى دُخُولِكَ هَذَا الْعَالَمِ «الدَّاخِلِي» السَّحْرِي السَّحْرِي الْمُنبَتِّ عَنْ «دِمَشْقِ الْخَارِجِ»، الْغَارِقَةِ فِي دَوَّامَاتِ السِّيَاسَةِ وَالْفِكْرِ، وَالثَّوْرَةِ وَالْإِسْتِكَانَةِ، وَالْإِنْقِلَابَاتِ وَالْوَجَاهَاتِ وَالصَّرَاعَاتِ مَا بَيْنَ «كِبَارِ» الْقَوْمِ وَ«صِغَارِهِمْ».. وَمَا بَيْنَ «دَوَاخِلِهِمْ» وَ«مَظَاهِرِهِمْ» الْخَارِجِيَّةِ.

تَسْكُتُ جَدَّتِي عَلَى أَمَلٍ إِسْتِثْنَائِيٍّ مَعَارِكِهَا لِاحِقًا، لَمْ تُفَارِقْهَا الرَّغْبَةُ فِي خَوْضِهَا، مِنْذُ عَرَفْتُهَا إِلَى أَنْ مَاتَتْ قَبْلَ مَوْتِ جَدِّي بِعَشْرَةِ أَعْوَامٍ. مَاتَتْ وَحِيدَةً فِي تِلْكَ الدَّارِ.. الَّتِي بَقِيَتْ عَلَى حَالِهَا، بِمُطَبَّخِهَا الْحَجَرِيِّينَ، بِحَمَامَاتِهَا الْغَارِقَةِ بِرَائِحَةِ صَابُونِ الْغَارِ الْحَلَبِيِّ التُّرْكِيِّ الْأَصِيلِ، بِكُلِّ تَفَاصِيلِهَا الْمُخِيفَةِ الرَّائِعَةِ الْخِلَابَةِ الصَّعْبَةِ الْمُنْهَكَةِ، بِجُدْرَانِهَا الْإِسْمَئِيلِيَّةِ الَّتِي كَانَ جَدِّي يَرْفُضُ طِلَاءَهَا، بِأَسْقُفِهَا الْخَشَبِيَّةِ الْعَالِيَةِ التَّنْسِيقِ الْمُغْرِقَةِ فِي الْقَدَمِ، كَانَ يُرِيدُهَا أَنْ تَبْقَى عَلَى تِلْكَ الْحَالِ لَا زُخْرَفَةٍ وَلَا تَزْيِيفٍ، بِفُسُفَسَاءِ زُجَاجِهَا الْمُلَوَّنِ، تَتَرَاقَصُ مَعَ أَلْوَانِهِ أَشْعَةُ الضَّوْءِ صُبْحًا وَعَشِيَّةً، مُشْكَلَةً سِيمْفُونِيَّةً سَحْرِيَّةً تَسْكُبُ أَلْحَانَهَا الصَّامِتَةَ فِي تِلْكَ السَّكِينَةِ

نُحْيِي الأرواح، مُنْذُ أزمان لم تَبَدَّل، وما كان جدي يُريد.. وما
كنتُ أريد لها، أن تَبَدَّل!

خيانة عظمى.. كانت رَغْبَتِي الدَّفِينَةَ تلك، لم أَبْحَ بها قط،
خيانة لآلامِ جَدَّتِي وتَطَلُّعاتِها نحو التَّغْيِيرِ الذي ماتت قبل أن يَأْتِيَ!

ذلك البيت كان وطني.. في زمنٍ كان لِمَعْنَى الوطنِ فيه رُوحٌ
تَسْرِي في فراغِ ضياعِ التَّصَوُّرِ الحَقِيقِيِّ عن «البلد» التي تُعْطِي
وتمنح وتحمي وتُخْذِم وتُكْرِم وتُضْم وتُلْم أبناءها، كان الوطن
في أذهاننا محصوراً بين نشيد «حماة الديار»، والدَّبَابَات التي
كانت تجوب شوارع دمشق بين الحين والحين مُعلنة الانقلاب
العسكري بعد الانقلاب العسكري، وبين الشُّقَاقِ العنيف الذي
كان يَتَمَثَّق في لحمية مجتمع يَتَمَزَّق، بين عاداته وتقاليدهِ البالية
التي تُجْهِضُ البلد وتَخْنُقُ الإنسان، وآخرين من أبنائه يُريدون
أن يَنْفُضُوا عن أنفسهم غُبار الماضي، بالإنطلاق نحو كلِّ ما
هو أجنبي وغريب، شرقياً كان أم غربياً، أصبح كلُّ ما يَأْتِي من
«الخارج» محلَّ تطلُّع وإنْ بهار وإعْجاب، حتى لو جاء من البيرو
ونيكاراغوا اللَّتان تُعانيان - مثل بلادنا - من التَّخلف وسوء التَّنمية،
أما مع الحالة الأوروبية فهو يَصِل حَدَّ «الشُّك»!

تقول أم خلدون في جلسة نسائية وهي تَبَاهِي بِمِعْطِهَا
وفروة قَبِيَّة الضخمة: إنه من فرنسا!

وتُجِيب جارتنا فهمية خانم: إني أَرَادُ أن يشتري لي واحداً
عندما أخذني لزيارته في فرنسا، لكنني منعتهُ، يكفيه تَعْبُهُ في عملية
أصابع قَدَمَيَّ!

وتَبْئِرُ ثالثة: والله إِبْنَتِي المتزوجة في ألمانيا أرسلت لي

هدية في رأس السَّنة هي هذا الطقم الصوفي الذي ألبسه، يا جماعة
غير غير.. ألمانيا غير!

تَلَفْتُ أم محمد الفِلَسْطِينِيَّةَ السُّورِيَّةَ لِتُحَدِّثَنَا هِيَ الأُخْرَى عَنْ
تَجَرِبَتِهَا فِي التَّفَاخُرِ بِشَيْءٍ تَنْتَسِبُ فِيهِ إِلَى الْغَرْبِ فَتَقُولُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ
أَوْلَادِي تَخْرَجُوا وَأَنْهَوْا دِرَاسَتَهُمْ وَزَوْجَانَهُمْ مِنْ أَرْفَعِ الْعَائِلَاتِ،
الْكَبِيرِ مِنْ دَارِ «الْفَرَا» مِنْ وَسْطِ الْقُدْسِ، وَالثَّانِي تَزُوجُ قَرِيبَةَ الْمُفْتِي
«الْحُسَيْنِي»، وَالثَّالِثَ مَا شَاءَ اللَّهُ عَلَيْهِ تَزُوجُ بِشَابَةِ رُوسِيَّةٍ!

كثيرون كانوا يعيشون في الشَّامِ هُلُوسَاتِ الاسْتِيقَاضِ بِتَبَعِيَّةِ
لِلْمُسْتَعْمِرِ مَرَضِيَّةٍ، يُوْهَمُونَ أَنْفُسَهُمْ بِأَنَّهُمْ مِثْلُهُ، اسْتَبَاؤُهُ⁽¹⁾ وَهُوَ
لَهُمْ مُنْكَرٌ وَمِنْهُمْ نَافِرٌ، يُحَاكُونَهُ فِي ظَاهِرٍ مَا يَعْرِفُونَهُ عَنْهُ، كَلَّمَا
إِزْدَادُوا عِبُودِيَّةً لَهُ إِزْدَادُوا إِنْفِصَالًا عَنْ وَاقِعِهِمُ الَّذِي يَعِيشُونَهُ،
مَفْهُومُهُمْ عَنِ التَّحَضُّرِ وَالتَّمَدُّنِ مُحْصُورٌ فِي مَظَاهِرٍ يَتَشَبَّهُونَ فِيهَا
بِالْأَسْيَادِ، مَلَابِسُهُمْ، طَرِيقَةُ تَصْفِيفِ شَعْرِ رُؤُوسِهِمْ، تَبَرُّجُ نِسَائِهِمْ،
مُجُونُ رِجَالِهِمْ، أَسْلُوبُ طَعَامِهِمْ، تَقَعُّرُ أَلْسِنَتِهِمْ بِمُفْرَدَاتٍ لُغَاتٍ لَا
يُحْسِنُونَ الْكَلَامَ بِهَا وَلَا فَهْمَهَا، وَلَا شَيْءٍ غَيْرَ التَّقَعُّرِ بِهَا!

لَمْ يَأْخُذُوا عَنْهُ عَشْقَهُ لِلْحُرِّيَّةِ، وَلَا حَيَاتِهِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ،
وَلَا تَقْدَمَهُ وَتَفَانِيَهُ فِي تَنْمِيَةِ عُلُومِهِ وَفَنُونِهِ، لَمْ يَتَعَلَّمُوا مِنْهُ تَنْظِيمَ
مَجْتَمَعَاتِهِ، وَلَا إِكْرَامِ إِنْسَانِهِ، لَمْ تَشْغَفْهُمْ قِرَاءَةُ إِنْتَاجِهِ الْأَدْبِيِّ
وَالْفِكْرِيِّ، لَمْ يَسْعَوْا إِلَى إِحْدَاثِ أَيِّ تَغْيِيرٍ حَقِيقِيِّ فِي حَيَاتِهِمْ
يَنْهَضُ بِهِمْ كَنْهَضَتِهِ.. لَمْ يَتَسَبَّوْا إِلَيْهِ إِلَّا بِالْقَشُورِ!

شَرِيعَةٌ أُخْرَى مِنَ الشَّعْبِ السُّورِيِّ كَانَتْ تَعِيشُ وَهِيَ تَحْلُمُ
بِعُودَةِ «الْخِلَافَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ»! أَوْ حُكْمِ صِلَاحِ الدِّينِ الْأَيُّوبِيِّ!
وَاسْتِعَادَةِ الْأَمْجَادِ التَّارِيخِيَّةِ، بِأَعْمَالٍ مُضْطَرَّةٍ خَطِيرَةٍ هُوَ جَاءَ،
لَا تُعِيدُ خِلَافَةً وَلَا تُصْنَعُ صِلَاحًا لِلدِّينِ وَلَا تُبْنِي أَمْجَادًا، فِي مِثْلِهَا

(1) اسْتَبَاؤُ فُلَانًا: اتَّخَذَهُ أَبًا، وَانْتَسَبَ إِلَيْهِ/ الْمَعْجَمُ الْوَسِيطُ.

تَمُور بالصِّراعات السياسيَّة والظلم والاستبداد، بينما كانت الفئة التي استولت على البلاد عن طريق آخر الانقلابات العسكرية فيها، تَمْضي في خُططها في صَمِتٍ ودَهاءٍ وخُبث، مُختطفةً البلد بما فيها ومن فيها، لإرغامها على الدخول في عبوديَّة طائفية رهيبة مُموَّهة بِادِّعاءات القوميَّة والوحدة العربيَّة وركوب موجات الدفاع عن القضية الفلسطينيَّة.

لم يستوعب النَّاس - إلا القِلَّة منهم - في حينه هذا الوضع المؤلم الذي فُرض عليهم، في غيبة منهم بينما كانوا مُنهمكين بخوض معاركهم الفكريَّة والثقافيَّة والاجتماعيَّة.. بين اليمين واليسار، بين الحداثة والأصوليَّة، بين دعوات الإصلاح التدريجي ودعوات القتال المسلح، لم يَقم السوريون بواجبهم في التَّجمع والتَّكتل ونسيان خلافاتهم لإيقاف إحداث المزيد من التَّقذير في وجودهم الوطني والجغرافي، ولا بذلوا الجهود اللاَّزمة الجادَّة للخلاص من تلك الوحوش التي كانت تَتربص بهم الدَّوائر، لم يتمكنوا من النُّمو وتجاوز أنفسهم وأمراضها.

لم يصنعوا طبقة سياسية قادرة على قيادة البلاد، لم يسمحوا هُم أنفُسهم لأنفُسهم بولادة هذه القيادة.. كلُّهم قيادات وزعماء، يستكبرون على الحقِّ، ويسحبون البساط من تحت أقدام كلِّ من تُسَوِّل له نفسه أن يبدأ المسير.

بدا أمرًا مقضيًّا.. أن تعيش سوريا كلَّ هذا القَدْر من الإجحاف والعسف، يتماشى مع إرتكاس النَّاس إلى الأرض، وإنسلاخهم من إنسانيتهم شيئًا فشيئًا، وتركهم الغيلان تتمدد في وجودهم، دون أن يَتَمَكَّنوا من الإرتفاع إلى مُستوى الكارثة الوافدة.

هكذا كانت بداية السقوط الكبير.

وإذا كان بإمكان «آل الأسد» الذين سيطروا على مقاليد

الأُمُور، ابتلاع سوريا بأكملها، فلم يرضون بمنطقة ساحلية صغيرة فيها؟.. ربما كان هذا هو الوعد «الروسي - الفرنسي» التالي لتقسيمات «سايكس - بيكوت» التي كسرت الوحدة الجغرافية لبلاد الشام، فَبَرَّتْهَا عُضُوءًا عُضُوءًا، وتركتها جميعها مرمية في مستنقعات التبعية للعديد من المُستعمرين، تعيش واقع التجزئة والتقطيع وتكريس حدود الأوطان القُطريّة الصغيرة العاجزة المُنبَتّة عن هويتها الأصلية وجغرافيتها الحقيقية .

وبدلاً من أن تُقسّم سوريا إلى خمس دويلات كما كانت تقترح فرنسا على أقليّاتها، حوّلتها روسيا برُمّتتها وبكلّ جغرافيتها وبجميع سُكّانها، إلى مزرعة خاصة لآل الأسد.

ها هي الشام تغلي، وتصرفات المجرم الأرعن «رفعت الأسد» أخى الرئيس السوري، قد بلغت حدّاً جعل النَّاس يتطلعون إلى الخلاص، فلما اندلعت ثورة إسلاميّة - مُسلّحة ضدّ «حكم البعث» وطغيان مُخْتَطِفيه، في جسر الشغور وحلب وحماة وإدلب، تطلعت إليها قلوب الشباب، في حين أن الكبار نأوا بأنفسهم عما يجري، انصقوا بحيطان الجُبْن، يَدْعُونَ بالسَّتر وأن يكفيهم الله شرّ الفتن، وتركوا حوارات الثائرين مع قوى الأمن تدور بالدم والنار والرصاص.

لم يدفع ذلك رجال الحلّ والعقد للإجماع ومحاولة الإمساك بزمام الأمور، بعد أن أخرج النظام معظم الشخصيات الإسلاميّة خارج القُطر، وأودّع من تبقى من إسلاميين ثائرين، وشيوعيين مُعارضين، وغيرهم من مختلف الانتماءات السياسيّة والفكريّة والدينيّة سجونَه الجهنميّة، يُذيقهم فيها طعم العذاب الذي يُراد لهم من خلاله أن يتخلّوا عن مواقع قيادة المُجتمَع والتفكير في تغيير نظام الحكم.

لا الشباب كانوا يثقون بأحدٍ أو يستمعون إليه، ولا الكبار

عرفوا كيف يتواصلون مع الشباب ويُخلصون لهم النصيحة والعون.

بدأ الناس يتعاون الأسلحة للدفاع عن أنفسهم، وانتشرت بين الشباب قناعات بأننا يجب ألا نُسلمهم أنفسنا أحياء، كانت حكايات الرُّعب تستولي على الجميع، وفظاعات الإغتصاب أصبحت هاجسًا مُزلاً في كل البيوت.

ما زال صوت الرصاص يَئزُّ ويَنُ في أذنيّ بعد كل هذه الأعوام.. ما زلت أسمع ضجيج معركة «أيمن» جارنا، ستُّ ساعاتٍ بقيَ يدافع فيها عن نفسه ضدّ المصفحات وكتائب القتل التي كانت تُحاصر الحيّ، استشهد أيمن ولم يُسلمهم نفسه، استشهد بعد أن دُكَّ البناء دُكًا بالرصاص.. الجيران يقولون إنه قُتل، وأنا أُصر على أنه استشهد، قتال هذه الوحوش الضاريّة كان عملاً بطوليًّا خارقًا من وجهة نظر الشباب الغضّ.. أُمي مريضة بالخوف، تبكي وتبتهل وتناجي ربها دون توقُّفٍ، منذ بدأت المعركة ضُحى ذلك اليوم، أبي بأعوامه التي ناهزت الستين مُصمّمٌ على أن حمل السلاح جريمة، ومخالفة للدين والعقل والمنطق، وأن ما يفعله هؤلاء الشباب جنونٌ مُطبّق، وأنا.. بعقلية العشرين لا أفهم هذا «الخوف» وهذا «الجبن» وهذا السكوت على الظلم والاستبداد، وعلى استعبادنا بهذه الطريقة الفظيعة من قبل حزب البعث ومن رَكِبَه من الطائفين المجرمين.

هل أخطأ الثوار في تلك الأيام في حمل السلاح؟ هل كانت ثورتهم خارج الزمان والمكان؟ هل كان عليهم أن يصمّتوا إلى الأبد؟ هل قصّروا في الإعداد والاستعداد؟ أكانوا مُنسلخين من واقعهم ومجتمعهم ولم يفهموا ما يجري حولهم؟

كلّ شيء يبدو ضبابيًّا، غامضًا، غريبًا، بعيدًا، على الرّغم من أنه أقرب إلينا من جبل الوريد الذي ينبض ترقبًا ودُعرًا، رائحة

البارود والتَّوَجُّس والموت، تَتَمَدَّد في كُلِّ حَيٍّ ومدينة وقرية في أرجاء هذا الوطن المكروب.

اِسْتَشْهَدَ أَيْمَنُ جَارِنَا، اِنْتَهَتْ «المعركة» بين جيش من الفَجْرة مُدْجَجِينَ بِأَسْلِحَتِهِمْ، ورجل واحد لا يتجاوز عمره اِثْنِينَ وعشرين عامًا، شَحَطُوا⁽¹⁾ جَسَدَهُ خَارِجَ البِنَاءِ، رَمَوْهُ فِي إِحْدَى سِيَارَاتِهِمْ ومضوا به.. وبقيت آثار المعركة في كُلِّ مكان.

لم يساعد أَيْمَنُ أَحَدًا، لم يقف معه أَحَدٌ، لم يتدخل أَحَدٌ، لم ينس أَحَدٌ بِنْتَ شَفَةِ، لم يذهب أَحَدٌ لِتَفْقِدَ أُمَّهُ بعد مرور أكثر من اِثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَاعَةً عَلَى «الحادثة».. الْحَارَةَ تَبْدُو مُقْفَرَةً يَصْفُرُ فِيهَا الصَّمْتُ وَالْهَوَانُ وَالْخِذْلَانُ وَالرُّعْبُ وَالضِّيَاعُ وَالْأَنَانِيَّةُ وَالذُّلُّ وَفَوْحُ الدَّمِّ.. كَأَنَّ أَهْلَهَا قَدْ مَاتُوا جَمِيعًا مَعَ أَيْمَنَ..

لقد ماتوا!

ذَهَبْتُ حَامِلَةً مَعِيَ قَنِينَةَ حَلِيبٍ وَخَبِزَ وَثَلَاثَ إِجَاصَاتٍ صَفْرَاءَ وَعَلَبَةَ جَبْنَةٍ «البقرة الضاحكة».. كُنْتُ أُرِيدُ أَنْ أَذْهَبَ لِأَسْأَلَ عَنْ أُمِّ أَيْمَنَ، كَانَ ذَلِكَ أَقْلَ الْوَاجِبِ فِي أَعْنَاقِنَا وَفَاءً لِدَمِّ الشَّهِيدِ.. أَعَدَدْتُ الْجَوَابَ فِي حَالِ الْإِسْتِجَابِ: «أَتَيْتُ لَجَارَتِي الثَّكَلَى هَذِهِ بِيَعُضِ الطَّعَامِ»!

رَبَّمَا مُطْمَئِنَّةً إِلَى إِسْتِجَابَةِ اللَّهِ لِتَضَرُّعِ أُمِّي أَنْ يَحْمِنَنَا مِنَ الْفُجَّارِ وَالْكَفَّارِ وَالْحُكَّامِ وَالظُّلَامِ وَأَوْلَادِ الْحَرَامِ، وَمِنْ دُونِ مَزِيدٍ مِنَ التَّفَكِيرِ بِالْأَمْرِ.. ذَهَبْتُ.

كَانَ بَابُ الْبِنَاءِ مَفْتُوحًا، كُلُّ شَيْءٍ فِيهِ سَاكِنٌ سَاكِتٌ، لَا حَيَاةَ وَلَا حَرَكَةَ، إِلَّا الْخَوْفُ، صَعَدَتْ ذَلِكَ الدَّرَجُ الْمُسَوَّدَةُ جِدْرَانَهُ الْمَرْشُوشَةُ بِآثَارِ الرِّصَاصِ وَالْقَنَابِلِ.. حَازَرْتُ أَنْ أَدُوسَ بُقْعَ الدَّمَاءِ

(1) شَحَطَ الْقَتِيلَ فِي دَمِهِ: جَعَلَهُ يَضْطَرِبُ فِيهِ وَيَتَخَبَّطُ/ معجم المعاني الجامع الإلكتروني.

التي تصبغ المكان، تفوح فيه رائحة عطريّة عجيبة، رائحة المسك كانت تعبق في الجو، كانت رائحة مسك حقيقية.. لم تكن اختراعاً ذهانياً، ولم تكن حالة من الهستيريا.. كما قال أبي!

كان باب البيت مفتوحاً، وكانت أم أيمن جالسة في الصالة الكبيرة المزروعة كلّ أركانها وجدرانها بالرّصاص، وكأنها ثقب سقف سوق الحميدية⁽¹⁾ التي تتمدد عبرها حُزم الصّوء كالأنجم.. لا أدري كيف صمّدت «الثريا» المعلقة في السقف فلم تقع، على الرّغم من تكسّر كلّ أجزاء بلورها التي لا تقل عن مئة قطعة.

شعرُ أم أيمن الذي غزاه الشيب منكوش منقوش، مَلُوم بعضه بحجاب صغير أبيض منقوش بخطوط زرقاء، بدا وكأنه مُحاولَة لِكَبْحِ جماحه وهو يريد أن يُعبّر عما يجيش في صدر تلك المرأة.

عينها تكاد أن تخرجا من محجريهما، تبدوان جمرتي نار من وراء عدستي نظارتها التي توقفت في منتصف الطريق وهي ماضية نحو أرنبه أنفها الأحمر المتورم، إنكأت بجسدها الضخم كلّه وببذ واحدة فقط إلى طرف كرسي وضعت أمامها، بدت متأهبة لاسْتِثْنا ف معركة.. جالسة كتور ذبيح لم تُغادر روحه جسده بعد، تتردد أنفاسها مُحشّرة في صدرها، تنظر إلى الباب المفتوح منذ ساعات، منذ أن سحبوا جسد ابنها خارج البيت.. لم تتحرك من مكانها، ولم تنظر إليّ، وضعت كيس الطعام أرضاً، وجلست جانباً دون أن أنبس بكلمة، نسيْتُ إن كنتُ في تلك الساعة أبكي، أم كنتُ من رهبة الموقف قد أُصِبتُ بالتَّوحْد!

بعد وقت بدا لي دهرًا.. التفتت إليّ وقالت في سخط شديد: ما الذي أتى بك؟ ألسنت خيفة؟ ما كلّ الناس خافين؟ ليش إنتي

(1) * سوق الحميدية في دمشق: [من أهم وأشهر أسواق العاصمة السوري

لست خائفة؟ كل الجيران مرعوبين؟ ألا ترين أن البناء خاوٍ، وأن الجميع قد غادروا؟

قلت لها: جئتك ببعض الطعام يا خالة.

نظرت إليّ نظرة فارغة، وقالت: أنت شيخة كمان مثله؟
«شَقفة شيخة»! مشايخ مجانيين أغبياء، لك تضربوا أنتو والمشايخ تبعكم!

صَمَتَتْ طويلاً وهي تنظر إلى الباب المفتوح كأنها تنتظر عودة ابنها.. ومن دون أن تلتفت إليّ، قالت: لقد قتلوه.. قتلوه ولم يُنجد أحد!

لكنها استطردت: قاتلهم!! لم يلتفت لِعويلي ورجائي وأنا مخبئة تحت طاولة المطبخ! من أين أتى ابني بالقنابل والمسدسات؟! ابني دكتور الأسنان، كان مُسلحاً وأنا لا أدري؟! أنا معه في البيت ولا أدري!

وفي تحيدٍ وحُنى وسخرية أضافت: حملتم السلاح لقتال الحيوانات التي تحكّمنا، أتظنون أن في مقدوركم هزيمتهم، «أسلمت يا فارة، لا زادوا المسلمين، ولا نقصوا النصارى»⁽¹⁾..
هذه «آخِرَةُ» ذهابه ورواحه إلى المساجد لصلاة الصبح والعشاء! تَعَلَّم هناك أن يَقْتُل وَيُقْتَل!!

تمتت مُوشوشة: تَعَلَّم ألا يسكت على الضيم، لم يتركوا لنا خياراً آخر يا خالة، ذبحونا وحرقوا أنفاسنا.. لم يَقْتُل ابنك أحداً، لم يفعل إلا أن دافع عن نفسه، ولم يَسمح لهم بإعتقاله حيّاً، كان يدافع عن نفسه يا خالة.

(1) مثل شامي مُفاده أن لا فائدة من خياراتك.

نشجت⁽¹⁾ وهي تختنق بالألم.. ولكن لم يرف لها جفن،
وكانها لم تسمع ما قلت، بقيت هناك على حالها تهدر أنفاسها
في صدرها كنهر يتأهب للانكسار عبر شاهق يتدفق شلالاً، وهي
تردد: قتلوه.. ولم ينجده أحد! لم ينجده أحد!



«بعنا دار جدك»! جاءتني رسالة من دمشق بذلك الخبر الذي
كان مُفجِعاً، بالضبط كما كان خبر موت جدِّي قبل ذلك بعام، في
تلك الرسالة كان الإعلان عن القطيعة بيني وبين ذلك «الوطن»،
لم يعد لي في دمشق - بعد أمي وأبي - أي شيء يستحق أن أفكر
في زيارة دمشق من أجله! لم يكن الأمر، أنني لا «أستطيع»، وأنه
لا يمكنني مجرد التفكير في زيارة دمشق.. لكنني زينت الأمر بيني
وبين نفسي وكأنني لا «أريد»! كأنه.. كأنه قرار انتقامي شخصي
اتخذته من عند نفسي! كأنني أنا صاحبة القرارات فيما يتعلق بكل
تفاصيل حياتي! وكأن امرأة دمشقية يمكنها أن تُقرر وتُعزم، في
زمن بدا فيه كل شعبها عاجزاً عن اتخاذ أي قرار أو خيار يدفع نحو
الاتجاه الصحيح للأمر!.. كأن أمي لم تكتب لي ألفي رسالة تُصرُّ
فيها على عدم عودتي إلى دمشق، وعشرة آلاف أخرى تطلب إلي
فيها مُستعطفة أن أتوقف عن الكتابة إكراماً لخاطرها المكسور،
ولأنها - كما قالت - لا هي ولا أبي يحتملان لا الاعتقال ولا
التعذيب ولا البهدة!

اختلطت حكايات أمي في رأسي، ما عُدت أعرف أيها كان
حقيقاً وأيها كان اختراعاً لمنعي من زيارة دمشق خوفاً عليّ.
الأم الخائفة يمكنها أن تفعل أي شيء لحماية أبنائها..

(1) نشج الباكي: غصّ بالبكاء من غير انتخاب/ القاموس المحيط.

قالتُ إن «الوحوش» قد زاروهم في البيت يسألون عني،
وأنهم أكدوا لهم، أنهم سيفرّمون يدي بفَرّامة اللحم، بسبب أشياء
كنت قد كتبتها حين كنت في سَنَتِي الجامعية الأولى في كَلِيَّة
العلوم.

ما كنتُ أريد المغادرة، ولا ترك سوريا وهي تختنق في الدماء
والآلام.. لكن أهلي أرغموني على المغادرة، كما أرغموني على
عدم التفكير في العودة.

كانت أُمِّي تُذكّرني في كلّ رسالة بما جرى لجيراننا دار «أم
عربي»، وأمام عينيّ.

اِقْتَحَمَتْ مُصَفَّحَتَانِ مدخل الحارّة، ومنعتا الدّخول
والخروج منها وإليها، وانتشر عناصر الأمن، بأشكالهم القميئة،
ورشاشاتهم المٌخيفة، في أرجاء الحيّ، صَعَدَ بعضهم الأبنية،
وتمتّرسوا خلف نوافذ الأدراج، انبطح أحدهم تحت شُرْفَةِ بيتنا،
كان يرتدي قميصًا ضيقًا أحمر مفتوحة أزراره، نَصَبَ الرشاش
أمامه وركز إحدى عينيه على منظره، وهو يمضغ العلكة، وقد
تدلى سِلْسَالُ ذهبيّ من عنقه وارتَمَى على الأرض إلى جانب
الرشاش، باعد بين رجله وهو مُنبطح أرضًا حتى كادَ سِرُواله
الضيق المخطط بالأبيض والأسود أن يتمزّق عن قفاه.. ومع هذا
الإنهماك التّهريجي كلّّه، بادر جارتنا أم ياسين عندما وضعت
منشفة على رأسها وخرجت إلى شرفتها تستطلع الخبر، عاويًا
بِلَهْجَتِهِ الغربية عن أهل الشّام: «ادخلي لبيتك يا بنت الكلب أحسن
ما قوصك يا حيوانة»!

كان ذلك بعد حادثة إستشهاد جارتنا أيمن بوقتٍ يسير،
انتشرت الضّباع في كلّ مكان من الحارّة التي كانت تقع إلى يسار
السفارة الفرنسيّة وأنت نازل من حيّ المهاجرين باتجاه منطقة
الجسر الأبيض.. كانوا يتوّجسون معركة مشابهة لمعركتهم مع

أيمن، وقد جاؤوا لإعتقال كل رجال تلك العائلة الكبيرة التي كانت تسكن بناءً واحدًا في الطرف الآخر من حارتنا، مُكونة من خمسة أُسرٍ صغيرة فتيّة شابة وأمّهم.

كُنّا أمي وأنا ننظر من وراء باب الشُّباك الخشبي المثقب، نحس أنفاسنا، ونحن نسمع أنفاس الوحش الأحمر الأرعن المتمدّد تحت الشرفة مباشرة، نراقب مجريات الحدث.

بعد ساعات دخلوا البناء دون أيّ مقاومة، وأخرجوا منه النساء والأطفال، ولم يجدوا هنالك أي رجل، وخرجت أم محمود وبعض نساء الحيّ إلى الشرفات، غير عابئات بعواء الضّباع إذ اطمأنّين أن لا معركة مسلحة تُلوح في الأفق، لم تعنِ الإهانة لها الكثير، اعتاد الجميع تبادل الشتائم مع رجال الأمن، واستساغوا أن يُعاملوا بهذه الطريقة.. انتصرت أم محمود لكرامتها، وصارت تردد: «الله يَعدّمني إياك يا صرصور».

وقفت «أمّ عربي» المُسنّة في وجههم، والنور يتلأّأ في جبينها وقفة تحدّ يعجز عن مثلها الرجال الأشداء في تلك الساعة، ثبّتها الله وكفّ أيديهم القذرة عنها، في حين أن الجيران من الحارة الخلفية كانوا قد نصبوا السّلاّلم والحبّال وساعدوا الشباب الخمسة على التّسلّل من عمارتهم عبر السطح والفرار من الحيّ، ومن هناك إلى خارج البلد، حيث لحقت بهم نساؤهم وأطفالهم... فرغت الدّار من أهلها الذين طالما عمّرت بهم، بالحبور والعبادة والطهر والجمعات وضحكات الأهل والأصدقاء وصخب الحياة.

ربما أراد الجيران أن يُكفّروا عن خذلانهم أيمن، ربما استطاعوا هذه المرة أن يُنجدوا هؤلاء الشباب المطلوبين العزل، منعّتهم قعقة السلاح أن يفعلوه في تلك المرة، ربما كان وضع البناء مُلتصقًا بالبيوت القديمة الواسعة مُتعددة الأسطح والشرفات

والسَّلاَم هو الذي سمح لهم بالمساعدة، ربما وربما.. المهم
في الأمر أنهم استطاعوا إنقاذ أبناء «أم عربي» وصهرها من براثن
الغيلان.

النَّاس يخافون السَّلاح، ولا يريدون التَّورط مع من يحمله.

ربما ظنوا أن شاباً يحمل القنابل، ويدافع عن نفسه ببندقية، لا
يحتاج إلى المساعدة! وربما هو مُقاتل في مجموعة مقاتلة، لا يريد
ولا يستطيع أحد أن يُصبح مُشتبهاً بمساعدته!!

كلّ رسالة كانت تُرسلها أمي، كانت تضع لي بِطَيِّها خمسين
دولاراً، وتُذكرني فيها رمزاً بأيمن طبيب الأسنان الذي راح «شَقَفاً
ونَتَفاً» — كما تقول..، وبعائلة «أم عربي» التي اُقْتِلَت من الحيّ
بأكملها، وارتحلت. ثم جاء اليوم الذي اِكْتَشَف فيه ما تحويه
رسائل أمي.. فتوقَّفت رسائل أمي إلى غير عودة.

الإعتقالات، والتَّعذيب، ومُدهامات البيوت والجامعات
والمساجد، الإشتباكات المُسلَّحة ليلاً نهاراً مع الثَّوار، أزيز
الرَّصاص يَصُمُّ الأذان، والشباب يُتَخَطَّفون ويَخْتَفون، صارت
أحاديث النَّاس هَمْساً، وخيم الحزن على البلاد، وامتلأت البيوت
بالعويل والنحيب، اتَّشحت النساء بالأسود، وكان قهر الرجال
رناناً في صميتهم وإطراقهم، كان بعضهم يذهب ليلاً يتسلم جثمان
إبنة المفقود ويرغم على دفنه تحت جُرح الظلام، ثم يعود وكأنه
لم يفعل.. كان ممنوعاً على النَّاس أن يئنوا والسَّكين مغروزة في
أوداجهم.

بدأ النَّاس يدفعون أبناءهم للخروج من سوريا.. كانت تلك
موجة الرحيل الأولى، عانتها البلد التي أفرغت من جيل كاملٍ من
الثَّائرين ومن ناصرهم ووقف معهم شيئاً وشباباً.

دفعني أهلي للسفر دفعاً، كما فعلت الآلاف من الأسر
السورية، وأرغموني على مُغادرة البلاد خوفاً ورهباً.. سافرتُ

والتَحَقَّتْ بزوجي في إسبانيا، وبقينا فيها نترقب لحظة العودة عامًا
وراء عام، وساعة بعد ساعة.



باعوا بيت جدّي، هكذا بهذه البساطة.. ماذا سأقول لأولادي
عندما يزورون دمشق؟ هنا كان بيت جدّي! وأين هي تلك الدّار
إِذَا؟ صِرْتُ مثل أولادي، غريبة مُنقطعة، كيف سَيَسْتَمِدُّون بعد
اليوم من شعوري بانتمائي إلى «وطني» إنتماءهم وشُعورهم
بالأمن؟! وقد أصبحت أنا الأخرى دون وطن؟ انضمتُ إلى
قافلة غُرْبة جديدة، وُلِدْتُ فيها بناتي دون وطن ولا ذكريات ولا
دار لِلجَدِّ يَعْرِفُون فيها عالمًا كبيرًا كان جَدّهم، مات وباعها ورَثَتُهُ
بثمن لا يضاهي قيمتها التاريخية.

تلك دارٌ حَفِظَتْ لِكُلِّ من دَخَلَهَا بعضًا من نَفْسِهِ.. علماء،
أساتذة، سياسيون، قضاة، فقهاء، محامون، أطباء، وأصحاب ما
سُمِّيَ فيما بعد بالعمل الإسلامي والحركات الإسلامية، وغيرهم
كثير جدًا من طلبة العلم، ومن العُمال، ومن يُسَمُّونَهُمْ صغار
الكسّبة، والتجار، وأصحاب الشركات، من مسلمين ومسيحيين
ويهود وشيعة ودروز وعلويين وأرمنٍ وعربٍ وكُرْدٍ وتركماني
وأشوريين، أتوها يطلبون القرب من «الشَّيْخ»، أو الفتوى، أو
التواصل، أو التعلم، أو المداينة، أو اللَّف والدوران للوصول إلى
مكاسب سياسيّة أو اجتماعيّة أو مادّيّة.

تركوا بصماتهم على جدران دار جدّي، وأشجارها
الباسقات، وشجيرات ورْدِها وياسمينها، وخَرير بُحيرتها الذي
يُوشِوش الزائرين ويُخَيِّمهم برفق ولَبَاقَة، كما تركوا بصماتهم
في نفسي وفكري ورؤيتي لدمشق وسوريا والماضي والحاضر
والمستقبل.

وكما صنعتِ الحكومة بجبل قاسيون، شَقَّتْ بالآلات

الضَّخمة الهادِرة بطنه، حفرت ونبشت، راحت وجاءت.. وتهاَمَسَ النَّاسُ عن جهنم من الأنفاق والمخابئ التَّحت أرضيَّة والقواعد الصاروخية التي كان بينها الرُّوس هناك، يُرَسِّخون لآل الأسد وجودهم في البلد ثُوبًا عنهم، ويمنعون بالخوف والتَّغيب، تفكير الشَّعب بالخلاص منهم، كذلك فعل النَّاس أَنْفُسَهُمْ بأنْفُسِهِمْ.. هُدِمَت الدَّار، كآلاف الدُّور الدَّمشقيَّة العريقة، أُزيلت من المشهد، وضاع معها تاريخ البلد وطبيعته وروحه وبَصَمَتَه، وُبُنيت على أنقاضها عمارات وأسواق متطورة وطريقة حياة مختلفة.

لقد خَرَبْنَا بيوتنا وبلَدنا وهُوَيْتْنَا بأيدينا.

لكن دار جدِّي الشَّيْخ بقيت هنا في الرُّوح، قائمة في تلافيف دِماغِي لا تُبارح. من قال إن الأوطان جغرافية وأرض؟؟ إنها قُطْعًا.. أشواقٌ وذكريات، وقِطْعٌ من أرواحٍ وأكباد.

بهذا الحجم من الألم، على تباين ملابساته، وعلى صِغَرِ سِنِّهِن، خَسِرْتُ بناتي البيت الذي وُلِدْنَ فيه في غرناطة، أو على وجه الدِّقَّة البيت الذي كان أول بيت صَمَّهُنَّ بعد ولادَتِهِن في مستشفى «الكلينيكو» في غرناطة، وفَقَدْنَ الحيَّ الذي نشَأْنَ فيه ومع أولاده، والهواء الذي تَنَفَّسْنَه مُدَّة خمسة أعوام، والشُّرفة التي كُنَّ يجلسن فيها كلَّ عصر يُحادثن أولاد الجيران، ويرمين من هناك ألعابهن وأشياءهن وكلَّ ما يصل إلى أيديهن من أدوات المطبخ وكتب المكتبة، في تبادلٍ طبيعي عجيب للأحاسيس بين البشر الأسوياء، وتواصل إنسانيٍّ بين أولاد الحيِّ وابتتي التي كانوا يُنادونها طِفْلَةً «المورو» منذ بدأت تجلس في تلك الشُّرفة ولَمَّا تبلغ الثلاثة أعوام من عمرها.

تلك «المورا» الصغيرة.. «طفلة المورو» كبرت، وصارت تنزل معهم إلى الساحة التي خُصِّصَتْ لِلْعِبِّ الأَطْفال، بين

مُجمّعات حيّ «الكارتوخا»، وفي «ممرّ الغابة»، كما تُسمّى حارتنا الصغيرة بين تلك المُجمّعات السكنيّة الشّعبيّة في غرناطة.

فقدنا صُحبة تلك الشّجرة الباسقة التي كانت تصلُّ شرفة بيتنا في الطابق الرابع، والتي تُغيّر ألوانها بين الحين والحين، من خضراء سُندسيّة، إلى حمراء أرجوانيّة، إلى صفراء ناريّة، حتى تتعرّى أمام قسوة برد شتاء غرناطة، الزاحف إلينا من جبل الثلج القابع هناك يرنو إلى المدينة الصغيرة العظيمة، وما فعله الدهر بها.



مَعَارِكُنَا الْحَتْمِيَّةُ.

● **في الطريق** ما بين غرناطة ومدريد، ها نحن.. نُهرول نحو المجهول، وكنتُ قد أتيت من هذه الطريق نفسها، قادمة من دمشق عبر مطار «باراخاس» المَدريديّ، ثم إلى غرناطة، قبل خمسة أعوام، مُلتحقة بزوجي بعد أن أنهى دراسة الطب.

بضعة أعوام يُتمُّ فيها إختصاصه ونعود إلى دمشق.. كانت تلك هي الخِطة، لكننا ما زلنا في إسبانيا، وُلدت بناتنا هنا، ولا يعرفن وطناً غير إسبانيا، لم نستطع العودة، لأن شيئاً ما، لم يتغير في سوريا وبدا أن الأمر شبه مستحيل.

غريبة هي مجريات الأمور في حياة الإنسان، غريبة هي علاقته الحميمية بالمكان، غريبة هي تَقَلُّبات الأيام والأقدار التي لا تجري أبداً بما تشتهي السفن، فإن فَعَلَتْ ادّعى المرء أنه من أصحاب الخيارات الموفقة!

كنتُ قد وصلت إسبانيا للتوّ.. حين فوجئنا أثناء زيارتنا لإحدى الأسر الصديقة، بإنقطاع البث في القناة التلفزيونية الوحيدة التي كانت يومئذٍ تُبثُّ في إسبانيا، ليُعلن أحدهم - على الطريقة العربيّة - إنقلاباً عسكرياً في البلد، ويُعطّل الدستور!.. سمعنا الطائرات الحربيّة تجوب سماء غرناطة، قال الجيران إن الدبابات تُرابط لدى مداخل المدينة وأهمّ المباني الحكومية، وأُعلن حظر التجول!

ماقصة هذه الانقلابات العسكريّة تجري في تغييب للشعوب

شرقها أو غربها، وتكونُ فيها ودائمًا آخر من يعلم؟ ولعلها سُميت
«إنقلابًا» من أجل هذا بالضبط، قلبها الأمور رأسًا على عقب!

النَّاس وكان على رؤوسهم الطير يراقبون ما يحدث وهو
يُنْقَل من مُحيط مجلس الشَّعب الإسباني في مدريد، إذاعةً وتلفزةً
في بثٍّ مباشر.

أصبحنا لاجئين في بيت إخواننا لا يمكننا المغادرة، أو هكذا
ظننت.

- يا أخي دعنا نذهب، سنمشي بين الحارات العتيقة، ولن
ينتبه إلينا أحد.

- لا يا زلمة⁽¹⁾.. وكيف ستذهب مع زوجتك ولا يوجد لا
«هابوب ولا دابوب»⁽²⁾ في شوارع غرناطة؟ أنا سأخذكم كما أتيتُ
بكم.

- لك⁽³⁾ أخي لا داعي لذلك.. إبق مع أهيك وأولادك، لا
يعلم إلا الله ماذا يمكن أن يحدث..
- قلت لك أن تَبَيَّنُوا معنا.. فلم ترض.

- يكفيننا انتظار هذه الساعات الخمس، صعب جدًا أن نبقي،

(1) * في القاموس الغني: «زَلَمَةٌ» قطعة اللحم تتدلى من عنق المعزاة،
والأزلام، و«الهيئة».

* وفي لسان العرب: الزَّلْمُ والزَّلْمُ: القِدْح لا ريش عليه والجمع الأزلامُ
وهي السهام التي كان أهل الجاهلية يستقسمون بها.

* وتُسْتَعْمَل في لهجات جميع أقطار «بلاد الشام»، بمعنى «يا رجل».

(2) عبارة «لا هابوب ولا دابوب».. تستعمل في لهجات أقطار أهل الشام
بمعنى: لا يوجد أحد، لا شيء يَهْبُ في الأجواء، ولا شيء يَدْبُ على
الأرض.

(3) «لك».. لفظ يُسْتَعْمَل في اللهجات العامية لأهل بلاد الشام، وأصلها في
اللغة: ويْلُ لك، أو لا أب لك.. تُسْتَعْمَل في اللهجات المحلية لتأدية
معاني رفع الكلفة والدعاء بعكس المراد من الويل.

زوجتي حامل وليس سهلاً أن نكون خارج بيتنا في مثل هذه الظروف، ثم الله أعلم متى سينجلي هذا الأمر، دعنا نذهب إلى بيتنا.

- لا يمكن، لا وألف لا..

- يا أخي ما هذا العناد؟؟ سنذهب وانتهى الأمر.. وماذا سيحدث؟ هل سيعتقلوننا مثلاً؟

- ربما.. ما دام العسكر قد عادوا إلى الحكم، فقد انتهى عهد الديمقراطية، وذهبت إسبانيا في ستين نيلة!.. سأخذكم إلى بيتكم وانتهى الأمر.

ركب أخونا في الله سيارته، تاركاً عُيُونَ زَوْجَتِهِ وأطفاله تدور في محاجرِها خوفاً، مُتَحَدِّثاً «السُّلطات» - على الطريقة العربية كذلك - وأعادنا إلى بيتنا رغم أنفنا، وأصبحنا هنالك مُنْقَطِعِينَ عن العالم، نَلْتَقِطُ الأخبار من جيراننا وما يَتَحَدَّثُونَ به في شُرُفَاتِ بُيُوتِهِمْ، وقد نَدِمْنَا يَوْمَهَا على قَرَارنا عَدَمِ اقْتِنَاءِ جِهَازِ تَلْفِزِيون في البيت، كنا نريد التَّمَرُّغَ للدرس وطلب العلم في هدوء.

حَدَّثْتُ مُحَاوَلَةَ الإِنْقِلَابِ العسكري⁽¹⁾ تلك في إسبانيا، عندما اقْتَحَمَت ثُلَّةٌ مِنَ العسكر اليمِينِيِّينَ مَجْلِسَ الشَّعْبِ، يُرِيدُونَ إِعَادَةَ إِسبَانِيا إِلَى حُكْمِهِمْ، بعد أن خرجت لِلتَّو من ظُلُمَاتِ الإِسْتِبْدَادِ وَالتَّخَلُّفِ، ولولا أن المَلِكِ اسْتَطَاعَ اسْتِنْقَاذَ المَوْقِفِ بِدَعْمِ أوروپيِّ هائل، لَكُنْتُ عِشْتُ في إسبانيا في ظلِّ حكم العسكر الدِّكْتَاتُورِيِّ، الذي دَفَعَنِي أَهْلِي للخروج من بَرَاثِنِ مِثْلِهِ في سوريا، ولكانت إسبانيا قد أُعِيدَتْ إِلَى مُرَبِّعِ دُولِ العالَمِ المُسَخَّمَةِ

(1) محاولة الانقلاب العسكري الشهيرة والأخيرة في إسبانيا، يُشار إليها في التاريخ الإسباني الحديث بمصطلح: «23F» من شباط - فبراير عام 1981.

والمُشَحَّرَة من جديد، بعيدةً عن ركب التَّمَدُّن والديمقراطية، وهي التي كانت قد بدأت تَتَذَوَّق طَعْمَ الإِرْتِمَاء في أحضان العالم الغربيّ القويّ الغنيّ، المُدَاهِن المُنافِق، الإنسانِيّ المُتَوَحِّش، المُتَحَرِّر المُسْتَعْمَر، بكلِّ ما فيه من تَقَدُّم وإرتكاسٍ، وخيرٍ وشرور، وإيجابياتٍ وسلبيات، وإِسْتِثْنَائِيَّة ومُتَنَاقِضات.

تلك الحادثة كانت جدية بأن نغير رأينا في موضوع التلفزيون، لكن ذلك لم يحدث إلا بعد عدة أشهر، في أول رمضان قضيته في إسبانيا، عندما قُتِلَ الرئيس المصري «أنور السادات»، هرونا لشراء تلفزيون صغير يُبَثُّ بالأبيض وبالأسود، ومن وجهة النظر الرسمية فقط.. ليصبح التلفزيون بعد هاتيك الأحداث، فردًا من أفراد العائلة، وواحدًا من ألزم وسائل التعليم والتثقيف - في تلك المرحلة من تاريخ إسبانيا - وأهم وشيخة لتواصلٍ مع المُجْتَمَع الذي أعيش فيه، ورُكْنًا أساسيًا لملاحقة ما يجري في عالمٍ كانت تَتَطَوَّر فيه الأحداث، بالسرعة نفسها التي تبدلت فيها أحوال البثّ التلفزيوني، الذي صار عبر قناتين رسميتين، ثم ثالثة محلية غرناطية، ورابعة أندلسية، ولتتكاثر القنوات التلفزيونية منذ ذلك الحين كتكاثر الخلايا الحية، وبجميع ألوان الطيف.

بعد خمسة أعوام عشتها في غرناطة، ها نحن نمضي إلى مدريد، نرحل نحو مجهول قادم.

ما بين أخبار المذابح والمذابح، والمجازر والمجازر، والفظائع والفظائع، في حرب الجميع التي كان يخوضها الجميع على أرض لبنان، نَصَدَح من مِذياع السيارة تلك الأغنية الشهيرة الرائعة التي أهداها «مايكل جاكسون» للعالم، مع مجموعة من مشاهير المُغَنِّين الأُميركان، مَطْلَع هذا العام، وجعل ريعها لِصالح أطفال إثيوبيا التي ضربتها مجاعة مُخيفَة مُهلكَة.. رسالة إنسانية من «أحرار» الولايات المتحدة، تضامناً مع المُضَيِّعين الضائعين في

عالمنا هذا: «نحن العالم.. نحن الأطفال»⁽¹⁾، أغنية كادت تُصبح نشيداً إنسانياً، يُبشر بعالم جديد، رغيد، أخلاقي، يملؤه الحب والتكاتف والتسامح والإنسانية، يقف في وجه الارتياح والفرح، اللذان ظنَّ أهل إثيوبيا أنهما «النهاية والقيامة»!

وأنت تستمع إلى كلمات تلك الأغنية، التي كانت تُبثُّ في مذياع السيارة كلَّ نصف ساعة، بعد نشرة حُبلى بأخبارنا المُفجّعات، تتقاذفك مشاعر النشوة بالأمل بتغير العالم نحو الأفضل، الشيء الذي عشنه فعلاً بضعة أعوام في مدريد، وكأنَّ الأمر قد بلغ الذروة في هذه الدّورة من تاريخ الغرب، لتبدأ بعدها رحلة ارتكاس إنسانيّ وحضاريّ مُعاصرة في إسبانيا، وفي أوربا، وفي العالم، وفي علاقة الولايات المتحدة بالعالم، وفي حياة مايكل جاكسون نفسه!

كانت مجرد أغنية - حُلُم.. دَغَدَغَت عواطف الضّعفاء، أما الأقوياء فلقد رقصوا وتمابلوا على إيقاعها الجميل، استخدموها في دعم حملاتهم الانتخابية، وتجميل صورهم الوطنية، في حين أنهم في عُرفهم السّرّية يضعون الخطط الجهنمية، التي تؤكد أن ما يقولونه هو: نحن لسنا العالم، نحن أسيادُه وسلطينُه وجلادوه المُتفوّقون!.. وفي سبيل البقاء في هذه المكانة، لا يهْمُنَا كلُّ ما يمكن أن تعانیه البشرية من تجويع واغتصاب وقتلٍ وتمزيق كلِّ أطفال هذا العالم المريض!

لم أكن في غرناطة أشعر بمرارة الغربة وحَنَظَلِها، على الرّغم من وحدتي الرّنانة فيها، ولم تكن «الكراهية» ورفض «الآخر»

(1) we are the world .. we are the children / الولايات المتحدة من أجل إفريقيا/ 1985.

قد استَحَوَذَتَا على النَّاس في إسبانيا، حدَّ إيلام الغُرباء وإيذائهم وتذكيرهم كلَّ ثانيةٍ من وجودهم فيها بأنهم دُخلاء غير مرغوب فيهم.. كان النَّاس يتعاملون معي على أنني «المورا» زوجة الطبيب، كانوا في حيننا وفي غرناطة في تلك السنوات، فقراء مُتوسطي الحال، يشعرون بالنقص أماننا، لأننا عرب البترول! ولأننا أسرة طبيب، مع أننا نسكن بينهم ونعيش مثلهم.

قبل يومين من تلك «الحادثة»، وفي الثانية عشرة ليلاً ونحن نيام، جاءتنا سيدة من جيراننا بطفلها ذي العامين، ابتلع حبة فاصولياء كبيرة، وكان يختنق بها، فقام زوجي بإسعافه كما ينبغي لطبيب أن يفعل، دون شكوى، أو تَذَمُّر، أو أذية.. هداً من روع الأم والأب، ولم يدعُ الأسرة تذهب إلا بعد أن عاد الطفل إلى ضحكته ولعبه وشغبه، وعاد إلى الأبوين الشعور بالأمان، وبما أنهم من الجيران بالجَنب، والمسألة بالغة الخطورة، لم يرَض أن يدفعوا له ثمن أتعابه.

لم نلبث غير يومين على حكاية حبة الفاصولياء، حتى فوجئتُ، بجمع من نساء الجيران يَطْرُقن بابنا عصرًا وسط لغط وصياح وأصوات استغاثة، يطلبون الطبيب، لحالة إسعاف رهيبة، ولم يكن الطبيب في البيت، خرجتُ إلى الشرفة أستطلع ما يجري، فوجدتُ طفلة في التاسعة من عمرها تتخبط في دمها، رجلُها عالقة في مُسنن درّاجتها، كلما تحركت قرّضت أسنان الحديد لحمها وعظمها!

في تلك الأيام، لم تكن إسبانيا وخصوصًا مناطق الجنوب كغرناطة، كما هي عليه اليوم من التقدم الصحي والرعاية والعناية بالشَّعب إلى حدٍّ أن تصبح الدولة أمَّ الجميع وأباؤهم، فلا يحتاج المواطن إلى طلب العون من أحد.. ولا يقرع جازٌ باب جارٍ، خصوصًا إذا كان من المُهاجرين الغُرباء، حتى لو كان طبيبًا، إلا

لتقديم الشكاوى والإعتراضات، ولا يُسَلَّم جازٌ على جار غير إسبانيٍّ، ولا ينظر المواطن في عينيَّ الغريب تجنبًا لحدوث أي تواصل بشريٍّ غير مرغوب فيه! صار التواصل هنا مع الغرباء مقتصرًا على التَّودُّد إلى قِطط الطرفين وكلابهم، وربما بعض الأطفال حديثي الولادة!

يُلبَّغون وجودَ الآخر من وجودِهِم، ويسحبون الشُّعورَ به من شُعورِهِم، ويتصرَّفون على هذا الأساس.. أصبحوا يتعاملون مع «المورو»، وكأنَّه عدوٌّ مُؤدِّ، وحتى قبل أن تتدفَّق الهجرات على إسبانيا بعد كلِّ ما تسبَّب به الغرب الإستعماريُّ في بلادنا من حروب وويلات.. يتصرفون معنا بالضبط كما يفعل أحدنا عندما يبلغ أذى «أحدِهِم» منه كلِّ مبلغ! نُقرِّر حذفه من حياتنا حتى لو كان موجودًا فيها على بُعدٍ متر واحد، وربما مُتَلَسِّسًا بها تلبَّس الرُّوح بالجسد، نتخذ القرار الضروريَّ بأن نتخلَّى عن ذلك الجسد، ونتعامل معه كأنه غير موجود، وإن كان العكس هو الحقيقة.. نحن نبتُر بعض أرواحنا عندما نقطع علاقتنا بالآخرين، ونتحرك في فيزياء ميتة!

هكذا تَعامَل معظم أهل البلد من الإسبان مع «الغرباء المهاجرين»!

لم يكن هذا التَّعامل على أساس دفع أذى هؤلاء عنهم، بل على أساس عُنْصُريٍّ - دينيٍّ عميق، لا يُحبُّ الإسبان الاعتراف به، ولا لأنفسهم، ولأن «أذى» هؤلاء «الموروس» لم يكن قد «وصل» إسبانيا إلا بعد عقدين من تشويه صورة هذا «المورو»، ورفع أسوار الكراهية والبغضاء والرفض بين الطرفين، بشكلٍ عدائيٍّ مدروس طويل المَدَى عبر وسائل الإعلام بكلِّ أشكالها وألوانها.

لم أستطع احتمال المنظر، والنَّاس في الساحة في حيص بيص، وقد أغميَّ على أمِّ البنت من هذا الوضع، نزلتُ مع

طفلتَي الصغيرتين، وحملتُ معي حقيبة الإسعاف الخاصة بأبي الأولاد، طلبتُ من النَّاس أن يتعدوا جميعاً، حتى تستطيع الطفلة أن تتنفس، وقمتُ بدور المُسعف، وقد ارتدت إليَّ روح فرق الكشافة، وأيام حرب تشرين، وملابسات «نظام الفتوة» التي كانت الدولة في سوريا تُربينا عليها، وكأننا مُقاتلون على الجبهات، ونحن تلاميذ في المرحلة الثانويّة، تلبّستُ دور الطبيب والمسعف ورجل الإطفاء و«رامبو» الذي كان ملء لافتات الإعلانات ودور السينما في تلك الأيام!

طلبتُ من إحداهن أن تُمسك برجل الطفلة، وقبضتُ على مُسنن الدراجة، وأخذت أشده وهو ينغرز بين أصابعي، والناس يحبسون أنفاسهم، لا أدري من أين آتاني الله بكلّ تلك القوة.. كنت أشدّ رجل البنت بيقيني أنني أستطيع أن أساعد هؤلاء النَّاس، وناديت «يا معين».. فخرجتُ رجل البنت من قبضة ذلك المُسنن اللّعين، الذي عجز عدة أشخاص عن إخراجها منه.

منذ ذلك اليوم، وحتى هذا اليوم الذي غادرتُ فيه غرناطة.. وكلّ الحيّ كبارَه وصغارَه ينادوننا: بالعائلة المورا «المُباركة»..

أشياء بسيطة جدّاً، وصغيرة جدّاً، لا نحتاج إلى أكثر ولا أكبر منها.. يمكن أن تكون بطاقة مودة ومحبّة للآخرين، تُقدّمنا إليهم على أننا بشرٌ مثلهم.

صغيرة هي اليوم غرناطة في أحضان إسبانيا.. تملك «لوركا»، وجامعتها التي كانت وحيدة في تلك الأيام، و«قصر الحمراء» الذي يُنبئك عن مدينة كانت من العظيمة بمكان يُدهش كلّ من يُفكر في تصارييف الأقدار، وما آلت إليه الأحوال.. عظيمة بتاريخها «الإسلامي» المذهل، ألغاه من ذاكرتهم أولئك الذين ورثوا تلك الأرض، على الرّغم من حضوره الطّاغي!

بالضبط كما فعل «عرب ما بعد الحرب العالمية الأولى»،

في معظم بلادهم، بسلخ هويّة «الإسلام» بطريقة أو بأخرى عن كلّ جُزئيات وجودهم السياسيّ والثقافيّ الحديث، مُلتَحفين عباءة القوميّة العربيّة التي أحيوها جاعلين منها هويّة شاملة إجباريّة حتى لأولئك الذين لا ينتمون إليها، وبطريقة تشبه في «شيء» من تفاصيل تَوْحُشها «شيئاً» مما فعله القشتاليون بالأندلسيين في سياق دأبهم لاستئصال وجودهم من التاريخ. استلّ عرب اليوم «الإسلام» من «الإسلام» ومنعوه من أن يستمر في كونه بَصْمَة وهويّة أُمَّة، تضاعف وتقلّص تاريخها فأصبح كمْشاً⁽¹⁾ من هوشات⁽²⁾ قَبليّة لا تهتم بتاريخ ولا حضارة ولا مدنيّة ولا بالأخلاق ولا بالإنسانيّة.. ولا بصناعة أملٍ يمتد بعيداً في آفاق المستقبل!

بهذا النّسق عينه، جعل القشتاليين وأحفادهم الإسبان، تاريخ الأندلس من شبه المُحَرّمات التي لا ينبغي تداولها، إلا في أروقة الجامعات ودور الأبحاث التاريخية، حتى تكفل النسيان بالنسيان على الرّغم من الذكرى الحاضرة في التاريخ والمكان والشجر والحجر والهواء والغيّات، وأصبح القوم لا يعرفون من سُودد تلك المدنيّة، وهاتيكَ الممالك، وذلك المجد الغابر إلا عمارات فاتنة، ما زالت قائمة شاهدة على أن «قومًا» في سلسلة «أقوام»، كانوا قد «استعَمروا» تلك البقاع، ومَرّوا بها، وأثاروا الأرض وحرثوها، وكانوا على ذمّة التاريخ «عرباً وأمازيغ مُسلمين».. كأنّ أهل البلاد لم يَدْخلوا الإسلام، ولم يكونوا هم أنفسهم نسيج تلك الدُّول ولَحْمَتِها! اختلطت الأعراق فيها، وبلغ أهلها من التّحضر والتّمدن شأواً عظيماً، كان بوابة أوربا إلى حداثتها ونهضتها المُعاصرة، أوربا التي جَمَعَت لهم لتقضي عليهم، بعد أن فتكت

(1) في المعجم الوسيط: كَمْشٌ، الكَمْش: الضَّرْعُ القصيرُ الصغير.

(2) في المعجم الرائد: هوشة، جمعها: هوشات، هوشة: جماعة مختلطة، فتنة واضطراب. هوشات الليل: حوادثه ومكروهه.

بهم أمراض الأمم التي تَدُكُّ المديّات والحضارات وتُفَوِّض
البُنيان، والتي تتولد دائماً عن ثلاثية: استبداد الحُكام، وتخلّي
النّاس عن الأمانة، وعمالة النُّخب للأعداء.

تروي الكتب الإسبانيّة المدرسيّة - اليوم - الحكاية، تُلقنها
للأجيال، مُجتنّة عن الحقائق التاريخيّة التي تجد شواهدا أنّي
سُرت في أنحاء إسبانيا، وليس في أندلسها فحسب.. فضلاً
عن بقايا لغة في اللّغة، وتركّة سلوكيّة نفسيّة لا يخطئها الباحث
المنصف.

أُلغيت الذاكرة الجماعيّة لمن سكن الأندلس، بعد أن انتزع
أهلها من أرضهم، وانتزع الإسلام من حياة من بقي منهم ولم
يرحل، انتزع بالبغي الموجع المفجع المخيف، وبعدما قرط أهل
الأندلس في هويّتهم وأخلدوا إلى الأرض شقاقاً وارتكاساً، سُلبت
منهم، رغماً وحرّاً وذبحاً وطغياناً، على مدى ثلاثمائة وثمانين
عاماً من حملات الإبادة المنظمة، في واحدة من أفظع عمليات
استئصال الحضارات الإنسانيّة التي شهدتها الأرض، وفي واقعة
من أكبر فاجعات تدمير الوجود وتزوير الحقائق، مما عرّفته
البشرية في تاريخها المرير، المدهش، القبيح.. قبح الجريمة،
المذهل الجميل.. جمال الحياة.

وهو عين ما فعلته أوربا برُمّتها، ألغت تاريخ الإسلام
والمسلمين الحضاريّ المدنيّ الإنسانيّ العظيم، ليس من تاريخها
فحسب، بل من التاريخ! وقلصته إلى حكايات أسطورية تُروى عن
مخادع السلاطين والأمراء، استلّت منه كلّ خير وعظمة وثورة في
العلم وفي المُجتمع وفي السياسة وفي الإدارة وفي حُكم العالم
وفي العُمران وفي الأخلاق وفي الإنسانيّة وفي الحياة، حتى
حسب المُستعمرون من أبناء المُسلمين أنفسهم أن لا تاريخ ولا
حضارة ولا أمجاد للإسلام.

تلك هي مُعضلة التاريخ، إذ يرويه المُتَصَرِّفون بعد المعركة الأخيرة التي خاضوها في سياق كلِّ حرب.

واهاً للتاريخ.. ذلك الذي يَنطق بِحِكاياته الدَّافئات العذبة، كما المُرعبات الرهيبة المؤلمة.. جيوشٌ وحملات، وانتصارات، ومذابح، وهزائم، وآلام، ورايات مرفوعات، ورواياتُ عشق وعاشقين، وأساطيرُ فُرسانٍ وأبطالٍ فاتحين، وحقائق عن غيلان ووحوش بشرية، عن هدمٍ ودمارٍ، وعن بناءٍ وتعمير، ثم.. يترك شواهدَه على بلوغ المجد، بالأسوار المرتفعات، والنُقُوش الرائعات، يتركها هناك يَسْتَنْطِقُها المستقبل المفجوع بصدمته بها وبمن كتب تاريخها.. ولو بعد حين.

مريرٌ هو التاريخ، مَرارة الحياة! دَامَ⁽¹⁾ كما هي الولادات، مخيف بويلات حروبه، وظُلَم الإنسان للإنسان، حَنْظَلِيّ بِشَياطينه يجوبون دروب الأمان، يَتَنَزَّعونَه من ضحكات الأطفال في أحضان أمهاتهم، أو يَتَنَزَّعونَهُم من أحضان هاتيك الأمهات المفجوعات، كما حدث في تلك الممالك الغابرات، وما زال يحدث في أيامنا الحاضرات.

كئيبٌ هو التاريخ.. كأنه الموت الباهت تستنطقه فيَنطِق بالأهوال.

وهل التاريخ إلا مُخْتَصَرَاتُ ما بين الولادات والبداية.. وحكايات الموت والنِّهايات؟!

ما زالت أصوات ذلك اللَّغَط والصَّخَب الذي حدث في

(1) في المعجم الغني: دَامَ [د م ي]. (فاعل من دَمِيَ). عَرَاكَ دَامَ: عَرَاكَ نَجَّ عَنْهُ سَيْلَانُ الدَّمِّ.

ذلك اليوم حول بيتنا تصل أذني حتى اليوم، تملأ نفسي بالبَسمة والإستغراب.. كنتُ حديثة عهد بالحيّ وبالمدينة وباللُّغة، إذ سَمِعْتُ جَلْبَةَ عظيمة وصياحًا، وأصوات سيارات الشرطة، وفجأة انتقل كلُّ هذا اللُّغَط إلى باب داري التي تقع في الطابق الرابع من هذا البناء! طرق الباب شرطيان، وأديا التحية في أدب، وأخذا يُقْصِصَان عليّ القصة، وأنا لا أفهم شيئًا، ثم تدخلتْ جارتي، فطلبت مني أن أذهب مع الجمع إلى أسفل البناء، فلما نزلت.. تبرّع أحد «غرباء» الحيّ - ففي ذلك الحين كان الإسبان شعبًا لا يتكلّم إلا لغته الإسبانية -، وسألني باللغة الإنكليزية نيابة عن الجَمع، السؤال التاريخي التالي:

هناك «جحشان» مربوطان في رأس الحارّة، لم نعرف من أين أتيا.. فقلنا نسألك، لعلّهما «جَحْشَاك»؟!

كنتُ يومَها «المورا» الوحيدة في الحيّ - كما يُناديني الجميع -، لم يكن أيّ من إخواننا الطلبة قد تزوج بعد، ولم تكن حركة الهجرة قد جعلت من وجود «الموروس» - كما يُسمينا القوم - أمرًا مُنتشرًا.

أصابتنني دهشة ما بعدها دهشة.. وما بين الضحك والدهشة، قلت لهم: أسكنُ في الطابق الرابع من دون مِصْعَد! لا أدري كيف يمكن اصطحابَ بَغْلَيْن كَهَذين إلى الطابق الرابع!!

ثم أردفتُ: أنا من دمشق، من سوريا!

فأجابت إحدى جاراتي على الفور: وأنا من «سُريا»⁽¹⁾ - Soria -، وعندنا كذلك «جِحاش» تشبه هذين.. فما المُشْكَلَة، ولم الإستغراب!!؟

(1) مدينة «سُريا Soria»، بتسكين الراء، وهي قرية إسبانية صغيرة تقع في مدينة تحمل الاسم نفسه شمال شرقي إسبانيا.

بعد التحقيق.. تبين أن البغلين المسكينين اللذين يفوق حجم كل منهما حجم حصان الملك، كانا قد هربا من «السيرك» الذي نصب خيامه قريباً من الحيّ استعداداً لاحتفالات أعياد الميلاد.

غالباً ما يُلغى البشر قُدرتهم على التفكير مع إلغاء بعض ذكرياتهم.. وهكذا فعل كثيرون — منا ومنهم —، صارت تصوّرات القوم عنا نحن «الغرباء» القادمون من بلاد المسلمين، غريبة وعجيبة ومثيرة للشفقة والتندر، وصارت تصوراتنا عنهم، شاذة وطريفة ولا تمت إلى الواقع بكثير صلة.

لم ألبث إلا قليلاً حتى جاءني من جديد شُرطيّة، ومعها زميلان يحرسانها، قلت في نفسي: يا للجحشين وحكائيتهما، اللهم آتنا صبراً وحِلماً..

كانوا ثلاثتهم يلهثون بعد أن صعدوا سلالِم بيتنا الثمانية، فتحتُ الباب وتبادلنا التّحية، وبادرتُ فأعطيتهم قارورة ماء وثلاث كؤوس ليشربوا — قبل أن أفهم ماذا يريدون.. فاجأتني الشرطيّة بالسؤال: هل يسمح لك زوجك بأن تعطينا الماء؟!؟

دُهِشْتُ وقلت لها: هذا سؤال شديد الغرابة! وإن كنتم قد عُدُّتم من أجل البغلين أو الجحشين.. فأنا لا علاقة لي بكلّ أنواع الحيوانات، لا الأليفة منها ولا المفترسة.. ما عدا «الأسد»، فإن علاقتي به كسوريّة وثيقة جدّاً!

قالت: لا، لا ندرى عن أيّ بغلين تتحدثين، أسألك ما إذا كان زوجك يسمح لك بأن تعطينا شربة ماء؟! يجب أن نعرف؟

قلت لها: هل أتيتم إلى هنا لتعرفوا إن كان زوجي يسمح لي بأن أعطيكم شربة ماء؟ يا سيدة.. نعم يسمح لي.

قالت: نادِه لتأكّد!!

قلت لها زوجي في المشفى، ولن يعود قبل ساعتين.

تبادلت وصاحبها النظرات والتأسفات، وأخذوا يهبطون الدرج، وهي تردد أنهم سيعودون عندما يأتي.

بعد ساعتين، وهو يضع المفتاح في قفل الباب، كان عناصر الشرطة الثلاثة لدى باب البيت، يتحدثون إليه، مُعتذرين أشدّ الاعتذار لِاضطرارهم شرب بعض الماء الذي قدمته لهم زوجته دون إذن!

دعاهم إلى الدخول، وبعد أن بلغت دَهْشَتُنَا كُلِّ مبلغ، أبلغونا أنهم يريدون إصطحابي - بعد إذن زوجي - إلى المشفى لمساعدة سيدة مسلمة جريحة، إذ لم يجدوا غيري في هذه الناحية، ويبدو أن أحدهم في المشفى قد ذكر لهم أن هذا الطبيب السوري متزوج من امرأة يمكنها أن تقدم المساعدة! ..

ذهبنا إلى المشفى، بعد أن حدثونا عن أن سيدة مسلمة ترقد هناك بين الحياة والموت، وقد طَلَبْتُ منهم أن يأتوها بامرأة من أبناء جِلْدَتِهَا تتحدث إليها.

وصلتُ إلى الغرفة الموضوعة تحت الحِراسة، ودخلت، لأرى شابة في العشرين من عمرها، مُمزقة! لا توجد كلمة أخرى تُعبر عن الوضع الرهيب الذي رأيته غير هذه، كان وجهها مَحَوَّطًا بجميع أنواع القطن والشاش والملصقات الطبيّة، يدها اليُسرى مكسورة، رأسها قد عانى من جُرْحين، 34 غرزة مَخِيطة في 17 غرزة، وِضِلْعَاها مكسورتان!

اِقْتَرَبْتُ منها، فاستيقظت، وما إن مَيَّزْتَنِي حتى هَمَسَتْ بلهجة مغاربية: «الله يرحمكم الوالدين عافاكم.. خذوني عند الأهل دِيالي، عافاكم خذوني، وغا يدفعو ليكم الثمن يلي بغيتو من بعد»⁽¹⁾.

(1) والمعنى: أرجوكم أتوسل إليكم إذا كنتم تعرفون الله، خذوني إلى أهلي، أبوس أيديكم خذوني إلى أهلي، وسيدفعون لكم كل ما تريدون لاحقًا.

سألته عن هذه الحال وقلبي ينفطر أسى، وكلّ ظني، أن شاحنة عسكرية مُحمّلة بالقنابل العنقودية كانت قد دهستها! قالت لي وكَلِمَاتُهَا لا تكاد تخرج من فمها: أنا عروس، جئت مع زوجي منذ شهر إلى غرناطة قَادِمِينَ من طنجة، ومنذ اليوم الأول وهو يُعاملني معاملة الدواب، ثم حاول «الإعتداء جنسيًا» عليّ ما بين ضرب مُبرح وإهانات وشتائم، وأنا لا أفهم، ولا أعرف ما الذي يجري، فلما بدأتُ بالشكوى والبكاء أستفسره عما يفعله معي، إنهال عليّ باللّكم الفظيع وضربني بالحزام الذي صار يعتمد أن يسلم به وجهي، ففتحتُ الباب وفرّرتُ من المنزل، فَلَحَقَنِي بالشاكوش - المطرقة - والسّكين فلما اجتمع النّاس علينا، - وكان الإسبان في تلك الأيام لا يزالون من شعوب العالم الثالث، يجتمعون لإغاثة الملهوف والدفاع عن المظلوم ولو كان غريبًا مُسلمًا! صار يصيح كالمجانين، إنها زوجتي الناشز العاصية، أنا زوجها وعليها طاعتي!

عندما جاءت الشرطة: هَدَّدَ من يقترب منه أن يضربه بالشاكوش، صائحًا بالجميع: أنا مسلم، وهذه زوجتي ولي عليها حقّ الطاعة، وأن هذا هو ديننا!!

نقلوا المرأة إلى المشفى، فصار الرّجل يولول ويقول لهم: إنهم لا يستطيعون أخذها إلى المشفى دون إذنه حتى لو ماتت! فالمرأة في الإسلام يجب أن تطيع زوجها في كلّ أمورها!! وقرآنا يأمر الرّجل بتأديب زوجته الناشز!!.. واسألوا أهل العلم والدين، اسألوهم أيها الكفار المشركون!!

في مركز الشرطة - وكان معظم رجال الشرطة حينها يتعاملون مع البشر على اختلاف منابيتهم بتعاطف واحترام وتلطّف -، كانت المشرفة الإجتماعيّة والطبيب الشرعي، يشرعان للرجل أن ما فعله هو جريمة «إغتصاب» مع أقصى أنواع العنف،

والرَّجل يصيح كالمَلْسوع: هذا حقي، وهي زوجتي وقد دَفعت مَهْرها.. ومن حقي أن أفعل معها وبها ما أريد!

الطبيب يحاول أن يشرح له أن هذا الذي فعله ليس من حق أي إنسان أن يفعله في أي إنسان آخر، فالعلاقة الجنسية شيء، والإغتصاب شيء آخر مختلف تمامًا، وهو ما يفعله مجرمو الحروب إذ يغتصبون النساء والرجال، ويؤذونهم باستعمال جرعات رهيبة وحشية من العُنف الجسديّ والنفسيّ.

جاؤوا بطبيب عربيّ يعمل في المشفى، فجلس يتحدث إلى الرَّجل ساعة، يَرَبُّ على كتفه ويُهْدئ من رَوْعه، ولم يعرف أحد ما الذي جرى بين الرَّجلين، كلُّ ما يعرفونه أن ذلك الطبيب لم ينقل إليهم شيئًا من المحادثة، قال لهم بأن الرَّجل مجنون، ولكن... هذا الذي فعله من حقّه شرعًا!! ثم اعتذر عن التدخل لحلّ الأمر!

ساعتان ونصف، استغرق شرحنا لرجال الشرطة، أن هذا الطبيب العربي جبان وجاهل ولا يفهم في الإسلام، وأن ذاك الآخر ليس إلا مجرد مُجرم مُختل، يريد أن يُبرر إجرامه بالنصوص الدينية التي لا يفقه منها شيئًا! وأنه إن كان هنالك من نصّ في ديننا يتعلق بهذه الحادثة، ويخصّ العلاقة بين الزوجين، وخاصة النساء، فهي أوامر الله والرسول بالتّرفق والتّلفظ والأنس والإحسان بين الزوجين، وليس الإعتداء والتّوحش والإملاك السّاديّ⁽¹⁾ الذي لا تستسيغه ولا حتى الحيوانات والضواري!

جلسوا ينظرون إلينا في إرتيابٍ وشكٍّ، ونحن نشرح لهم أن المرأة في الإسلام كالرَّجل أمام الله عز وجل، وأن الزواج في

(1) السّاديّة هي الحصول على اللذة والمتعة بتعذيب الآخرين.

الإسلام ليس عبودية بل شراكة، وأن هذه الأفكار الغريبة جاءتنا من ثقافة محاكم التفتيش الأوروبية⁽¹⁾ وليس من ديننا!

كنا نتحدث إلى الشرطة وإلى الطبيب الشرعي، وكأنا نتحدث بلغة مَرِيخِيَّة لم يسمعوا بها من قبل، كانوا يَتَلَفَتُونَ يُمْنَةً ويُسْرَةً، ويتبادلون النِّظرات فيما بينهم، لا يعرفون من يُصَدِّقون!!.. كِلَانَا نتكلّم بِاسْمِ الإسلام، وبِاسْمِ الله ورسوله!!

جاؤوا بالرجل مُكَبَّلًا، يتطاير شرر الجنون من عينيه، جلس قبالتنا، وراح أبو سَاجِدَةٍ يتحدث إليه في هدوء ورفق، فإذا به يَبْصُق في وجهه، ويصيح: يا فاسق يا كافر لئن خرجتُ من هنا لأُقْتَلَنَّكَ، تُبَدِّل كَلَامَ الله ورسوله! يا ديوث، وهذه «القَحْبَةُ»⁽²⁾ إلى جانبك تؤيدك فيما تقوله!

انقَضَّ عليه رجال الشرطة فساقوه خارج القاعة، ليحموه من ردة فعل زوجي، الذي أخذ ينظف وجهه، وأنا أرتجف خوفاً وحزناً، لم أكن أعرف ماذا تعني كلمة «قَحْبَةُ» هذه، لكن وَقَعَهَا علينا كان أشدَّ من معناها في تلك الجلسة - المعركة، خرجنا من هناك صامتين يمزق قلبينا القهر من طول دربنا ووعورته.

مَعَارِكُنَا الحَتَمِيَّةِ اليوم مع «أنفُسِنَا»، أشدَّ قَسْوَةً وتَوَحُّشًا من جولاتنا اليوميَّة مع الآخرين.

لم يُنادِنِي أحد بالسَّاقِطَةِ منذ غادرت سوريا، فهناك وفي ليلة القدر في آخر رمضان عشته في دمشق، أحيينا الليلة في

(1) المقصود ما استوردناه من أوربا الإستعمارية، في بلادنا المُستَعْمَرَةَ، وفي جملة مافرضه علينا الإستعمار والانتداب في حينه، نموذج الزواج الكنسي الذي صمّمته محاكم التفتيش في أوربا، بحذافيره، الزواج فيه إمتلاكِيّ مؤبد، والطلاق تعجيزِيّ شبه مستحيل.

(2) في المعجم الرائد: قحبة: امرأة بغية فاجرة فاسدة. كلمة يستعملها أهل المغرب في سبابهم وشتائمهم.

مسجد بدر، قبل سفري بأشهر قليلة، ولَدَى خروجنا بعد صلاة
الفجر، وكنا أربع شابات نتجاذب أطراف الحديث نسير غير بعيد
من إخواننا الذكور، بعد ليلة قضيناها في العبادة والدَّعاء.. مررنا
بمجموعة من رجال الأمن تُرابط قريباً من المسجد، في تلك
المنطقة الدَّمشقية المرموقة التي يسكنها بعض مسؤولي الدولة،
أسرعنا الخطو ولم نلتفت إليهم على الرَّغم من تحرُّشهم بالنظرات
والضحكات الساخرة، وإحداث جَلَبَة برشاشاتهم التي أخذوا
يحركونها لإخافتنا، كانوا سُكاري وأرادوا استدراجنا، ربما لِيَتَسَلَّوا
بإذلالنا وتخويفنا، وقد مَلَّوا طول السهر والحراسة، أو مَأَنَا لإخواننا
الشباب أن يبقوا بعيداً، فأكبرهم لم يتجاوز السابعة عشرة من
عمره، ولا نريد لهم أن يتورطوا في مصيبة عند هذا الفجر، ومضينا
في طريقنا نكمل أحاديثنا ولا نلتفت إليهم، وكأنهم غير موجودين،
أثار ذلك غضبهم، وبدؤوا بالسباب والشتائم، وكنت الأقرب من
المجموعة إلى حيث يقفون، ففوجئت بِبَصْقَة كبيرة تنزل على
كتفي، وصوت قبيح يُناديني: «أيتها الساقطة الحقيرة، وين أهاليكم
يا بنت الحرام، طالعين من الجامع يا عاهرات، عاملين حالكم عم
تصلُّوا».

هذه هي المرة الثانية في حياتي التي أُنْعِتُ فيها بهذه الكلمة
الموجعة، وفي مركز الشرطة، بينما كنَّا نحاول أن نُوضح للناس
أن ديننا بريء مما يرتكبه بعض الخُرق بِاسمه! الله أعلم كم من
المرات سَأَنَادَى بالعاهرة وأُوصِفَ بها.. من أعدائنا، أو من الأعداء
الذين هُم من أنفُسنا، ما دامت «معاركنا» مستمرة وعلى كلِّ
الجبهات.

دفاعنا عن الإسلام الحقِّ في وجه مُسلم أهوج مُختلِّ جاهلٍ
في إسبانيا، جعلنا عُرْضَةً لِلْقَدَرِ نَفْسِهِ من الأذى، الذي كنا نتعرض
له في عُمْر دُورنا في دمشق، حين كنا نُمارِس حقناً الطَّبِيعِيَّ في أداء

بعض شعائر ديننا التي تُزرعُ رجال «الأمن»، وتضطربهم للسَّهر
مخافة انفلات «الأمن»!

إمتهان المرأة - بمثل تلك الكلمة - كان أمراً عادياً جداً
في دمشق الستينيات والسبعينيات، ليس من طرف قوى الأمن
المُنتَهكة حقوق جميع من في البلد فحسب، ولا من مختلف
شرائح المُجتمع، بل من أهلها وعائلتها وزوجها وأقرب المقربين
إليها ممن هم مظنة الدفاع عنها وحمايتها ورعايتها وخدمتها.

لم يكن موضوع «الإتهام بالشرف»، و«الانتقام للشرف»،
الذي تعارف عليه المُجتمع السوري - كما كلُّ المُجتمعات
الشَّامية -، إلا واحداً من أسقط وأخطر تجليات إمتهان المرأة في
بلادنا، كان المُجتمع والقانون ومعظم «رجال الدين» يُبررون
للكور قتل نسائهم، زوجة كانت أم بنتاً أم أختاً وربما.. «والدة»،
بسبب ظنٍّ، مجرد ظنٍّ! بينما كان الحبل يُترك على غاربه لِسَقَطِ
الذكور يَهْتِكُونَ الأعراض، يعتدون على الحُرّمات، يؤذون بنات
النَّاس، يَخْدَعُونَهُنَّ وَيَسْتَمِيلُونَهُنَّ وَيَسْتَدْرِجُونَهُنَّ وَيَضْحَكُونَ
عليهن! ثم تُرغم الفتاة على الزواج بمن اغتصبها!

إرغام البنت على الزواج ممن «اعتدى» عليها - بغير
إرادتها -، صورة أخرى من أبشع صور إمتهان المرأة وانتهاك
حُرْمَتِها كإنسانة في بلادنا.

ولطالما استُدعي أبي وأمي كونهما مُعَلِّمين، من أجل حلِّ
مشكلاتٍ من هذا الطراز في بيوت النَّاس المُستورة، يستدعون
المُعلِّمة أو الأستاذ لينظرا في المسألة، ويحاولا مساعدة الأهالي
في إيجاد الحلول دون فضائح، ودائماً كان هنالك «ذكرٌ»، مُتسلِّطٌ
مُعْتَدٍ، متمرِّرٌ يحمل سيف الجلاذ، ويمنح نفسه حقَّ الرَّبِّ والدين
والمُجتمع ليقطع رأس إحداهنَّ!

في الغالبية العظمى من القصص تكون البنت مظلومةً،

والتَّهْمَةُ مُلْفَقَةٌ عَارِيَّةٌ عَنِ الصَّحَةِ!.. حتى بلغ الأمر أن ابن جيراننا الذي سافر للدراسة في أمريكا، كان أهله قد خطبوا له إحدى بنات الحارّة، والتي لا يعرفها ولم يَرَهَا في حياته، لأنّه كان قد سافر حين كانت طفلة، وكانت البنت متديّنة تخشى أن يتسبّب سفرها إلى أمريكا في أن تُغيّر أو تُتغيّر، فطلبت من أهل الخطيب عنوانه، وقالت إنها لن تقبل بالخطبة قبل أن تكتب له رسالة، وكَتَبَتْ له بأنها: «شابة متديّنة ملتزمة إلى أبعد حدود الإلتزام، فإمّا أن يقبل بها بهذا الشكل ويتعهد بالألا يتدخل في طريقتها في الحياة، ويحترم خيارها هذا ويشارِكها فيه، وإمّا فإنها ستعذر عن قبول الخطبة».

جاء جواب الرّجل بالإيجاب، وتَمَّتِ الخطبة..

بعد أيام أَسْتَدْعِيَّ أبي في الثالثة فجراً إلى بيت أهلها، لأن أخاها سحب السكين وعرّزه في عُنُقِها، وهو يُردد أنها راسلت الرّجل لتُحدّثه عن أنها ليست عذراء، وأنها أضاعت شرفها بينما كانت تدّعي أنها ترداد دروس الدّين!! وأن هذا الذي أتاها خاطباً من أمريكا، و.. لأنه «ديوث» حُكِّمًا - كما قال الأخ حامي الشرف والأعراض - قد قَبِلَ لِيَسْتُرَ عليها!!

ولم تنته حكاية اتّهام الأخ لأخته في عرضها - بالضبط كما فعل عنصر المخابرات معنا ونحن خارجات من مسجد بدر صباح ليلة القدر -، على الرّغم من تدخل الوالد، ومختار الحي، وإمام المسجد الذي اقترح بدوره على الأهل عَرُضَ البنت على طيبة نسائية للتأكد من عذريتها!!

رفضت البنت، وقالت لهم: أنا البريئة التي يجب أن أقدم الدليل على براءتي، وهو المعتدي الظالم الذي اتهمني وتريدون أن تثبتوا اتّهامه!.. والله لا أفعل حتى لو ذبحتموني!

قال لها الشّيخ مُتَلَطِّفًا: الله يرضى عليك يا ابنتي هذا أخوك ويريد الحفاظ على شرفك!

قالت البنت: يريد الحفاظ على شرفي باتهامي في عرضي؟! أن أرسلت رسالة للرجل الذي سأتزوجه أستفسر فيها منه عن مستقبل حياتي معه؟.. أيّ طريقة هذه للحفاظ على الشرف، لو كان رجلاً حقاً، لَسَتَرَ على أخته حتى لو سقطت في مهاوي الحرام والعار، لكنني لم أفعل، وهو ليس برجل!

قال الأب: وأين هي الرسالة؟ ولم لم تعرضيها على أحدنا ليقرأها!

قالت البنت: أَلَسْتَ أنت يا أبي من أخذَ الرسالة ووضعتها بيدك في البريد؟ ثَقُتْ بي جعلتك لا تسألني حينها، والآن بعد أن ذهبت الرسالة، وبسبب تشكيك ابنك المريض المُشَوَّش عُدْتُ تُشَكِّك في الأمر!

تمّ الزواج ومن دون فحص طبية نسائية، وَرَغِمَ أنف الأخ المُتَسَلِّط الذي لم يمنعه شعوره المتضخم المَرَضِي بالتَّسَلُّط، وَغَيَّرَتْهُ الشديدة المكبوتة - من أخته، من الخوض في عرضها وشرفها ظلماً وبهتاناً وسقوطاً أخلاقياً رناناً.

تمّ الزواج.. وما فتىء هذا الأخ الأحمق، يُرَدِّدُ إتهاماته عن أخته.. عرضه وشرفه!

الشَّرَف يقتضي أن تحمي شرفك بالقيام على رعايته، وأن تصوِّنه مودةً ورحمةً، وأن تعمل على «إسترداده» إن ضاع لسبب من الأسباب، فتبتغي وجه الله في السَّتْرِ والترَّقُّق في العلاج، وليس في الفجور وإشاعة الفُحْش في إتهامات أختك أو ابنتك أو زوجك أو ابنة عمك.

من الرُّجولَة أن تصوِّنَ عَرَضَكَ فلا يُؤْذِي، وأن تُحيطه بِسِيَّاح السَّتْرِ إن خُدِشَ.

يقتضي الشرف الرجولة، وتقتضي الرجولة المروءة،
وتقتضي المروءة مواقف الحزم والرحمة كل في موضعه.

أيّ منطبق هو هذا الذي تُعامل بموجبه النساء في بلادنا على
هذه الشاكلة، وفي غير بلادنا كذلك، وخصوصاً في إسبانيا، حيث
جرائم قتل النساء يومية؟!.. إلا إنَّ المجرمون الذين يقومون بهذه
الأفعال الشنيعة في إسبانيا، يَنبُدُّهم المُجْتَمع ويُلَاحِظُهم القضاء
ويُعاقِبُهم القانون، أما عندنا فيجد المجرمون والمُجْتَمع والقضاء
والقانون، مُبررات لأفعالهم الشنيعة في قراءاتهم الشاذة، وفهمهم
العقيم لنصوص الدين وتعاليمه.

لم يمنح الدين أحداً من الأفراد وعامة الناس حقّ تطبيق
حدوده، ولا يملك أحدٌ الحقّ في ذبح أحدٍ أو تعذيبه أو إيذاؤه،
فما بالنا بالأرحام والقلوب؟ التي يُفْتَرَضُ بها أن تفيض حناناً
ومودةً وحرصاً، أيّ سقوط؟ وأي إرتكاس؟ وأي كُفر؟ وأي إخلالٍ
للتَّوْحُش؟ وأي إرتداد عن منطق الفطرة؟ وأي إنتكاسة أخلاقية
إنسانية تُعانيها؟

من أعطاك «حقّ» اتّهام أخيك أو ابنة عمك في عرضها؟ من
منحك «الحقّ» في إنتزاع روحها بيدك المجرمتين الأثمتين؟
من فوّضك أن تكون «إلهاً» من دون الله في أرضه ومع خلقه ممن
كلّفك بالقيام عليهم خدمة ورعاية وعناية وحماية وسِتراً وعطفاً
ومودةً؟

إنها الفوضى العارمة، والانخلاع المُوجع من رُوح الشريعة
وأخلاق الدين، وتبرير إهراق الدّم.. دَمُك بِاسْمِ الدِّينِ وحدوده!

لا يُغَسَّلُ الشَّرْفُ بِالدِّمَاءِ المُحَرَّمَةِ، ولكن بِرُقِيِّ التَّعامل
الإنساني الأخلاقي الإسلامي الذي يُعلِّمنا جمال السِّتْرِ، ولُطف
التَّعاطي مع الجرح، وكرَم الأخذِ بِيَدِ المُتَعَثِّرِ لِيُنْهَضَ وَيَقِفَ على
قدميه ويعود.

ما بين مجرمينا المجانين، ومُجرمي حُكامنا ومَجانينهم،
تُرْتَكَب - بِاسْمِ الشَّرْعِ البريء من فهمنا العقيم له - جرائم فظيعة
بحقِّ النَّاسِ في بلادنا، وبحقِّ النساءِ خاصة، وتُسَجَّلُ كُلُّهَا ودائمًا
في ملف ذلك «المجهول المبني للمعلوم المُلْزِم للسكوت»، في
دول الخوف والجهل.. الخوف الذي يُكْمِمُ كُلَّ الأفواه، والجهل
الذي يُكَبِّلُ كُلَّ تطلع للخلاص، في البيت وفي المُجْتَمَع وفي
الدولة.

يا لَطْلُمِنا بعضنا بعضًا، يا لَطْلُمِ النَّاسِ نساءهم وأعراضهم، يا
للظلم كم هي عاقبته وخيمة على المُجْتَمَعات والنَّاسِ.

لا يمرَّ مثل هذا الحجم الرهيب من الظلم فيما بيننا،
والسُّكوت عنه، مُرور «العفو» عن شعبٍ أبدًا.

تذكرت ونحن عائدان إلى بيتنا مُحْمَلَانِ بِحُزْنٍ مُلْجِمٍ، كُلَّ
حكايات النساء في دمشق، كُلَّ العذابات التي كُنَّ يَتَنَاقَلْنَها في
جلساتهن وأسمارهن، كُلَّ الدموع التي كانت تُذرف فيما بينهن فلا
يعلم بها الرجال، لأنها شَأْنٌ خَاصٌّ مُغْلَقٌ على عوالم النساء المنفية
إلى صناديق الأسرار وظلال الحظوظ العائرة، وعلى الرَّغْمِ من أن
معاناة كثيرات منهن لا تمت بكثير صلة إلى معاناة تلك الشابة،
محطومةً في غُرْبَتها ما بين الحياة والموت في مشفى غرناطة
الجامعيّ، فإن هذا المنطق عينه الذي أدّى بهذه المرأة المغربية أن
تنتهي إلى هذا المصير، هو عينه السائد أجواء المُجْتَمَعِ الدمشقيّ،
الذي تُعَامَلُ كثيرات من نسائه من منظور العبوديّة والاسترقاق
والقهر والجبر.. حقيقة يعيشها الجميع، ويُكرها الجميع،
ويستكبر عن الاعتراف بها الجميع، ولم يفلت من براثنها إلا القلة
النادرة.

حين سألتُ الدكتورة حنان، عن سبب عودتها وزوجها

من فلسطين المحتلة، بعد أن أنهيا إختصاصهما وحزما أمتعتهم
ورحلا من غرناطة، قالت لي: ما استطعت أن أحتمل الوضع هناك.

- تقصدين أوضاع الاستيطان الاسرائيلي المتوحش؟

- لا يا أم ساجدة، حكاياتنا مع الإسرائيليين مختلفة، أتحدث
عن أوضاع النساء بالذات، إختصاصي كطبيبة نسائية جعلني
في مواجهة وضع مُربع تعيشه النساء، مزدوج المتاعب في ظل
الإحتلال.

- عن أي أوضاع تتحدثين بالضبط، لأن مشاكل المرأة في
مجتمعاتنا كافة متشابهة؟

- حالات الإسعاف التي كانت تأتيني، كانت تُدْمِرني، ليس
لأنني لا أحتمل ملابسات عملي، بل لأنني وجدت نفسي عاجزة
منبوذة، في مجتمع لا يريد أن يعترف بأنه على باطلٍ مخيف.

- هذا الوضع تعيشه النساء في دمشق، وفي الدار البيضاء،
وفي القاهرة.. وفي كل مكان في بلادنا، علينا أن نصبر ونبدل كل
ما نستطيع لتغيير أوضاعنا.

- أنت تقولين هذا، لأنك لم تعاني ما عاينت من حالات
العنف الزوجي الجنسي⁽¹⁾ القبيحة، وإصابات بالضرب المبرح

(1) العنف الجنسي، والإغتصاب الزوجي، حالات معروفة في الطبّ
الجنائي، ولا علاقة لها بالعلاقات الحميمة الطبيعية بين الزوجين،
تعريف الإغتصاب، كائناً من كان الذي يقوم بهذا الفعل: هو الإعتداء
الجنسي على شخص كبير أو صغير ومن الجنسين، مصحوباً بأقصى
درجات العنف المادي - الضرب والتسبب بالجروح والرضوض
والكسور - والنفسي واللفظي - استعمال الإهانات وتعبير التحقير
والإمتهان -، بهدف كسر إرادة الشخص الذي يعاني من هذه الجريمة،
وحُرمة الزواج لا تُبيح للرجل إغتصاب زوجته، ولا يقوم شخصٌ سويٌّ
بهذا الفعل الشنيع، ولا علاقة للزنا بالإغتصاب فهما جريمتان مختلفتان،
الأولى بالتراضي أو بالخديعة، والثانية بالإكراه مع العنف الإجرامي.

المُعْطَب، وجُروح مُخيفة، ونساء صبايا يأتين باكيات مُتتجبات يُرْدُنَ «الخلفة» ولما يمضي على زواجهن شهران، خوفَ تعنيفِ الأهل والمُجْتَمَع أن لم يخرجن من ليلة العرس حوامل، عدا عن حالات الإنهيار النَّفسي والصَّحي لمن تلد بنتاً.. أشياء مخيفة، أفضع ما فيها أن النساء أنفسهن يجدن لها المبررات السقيمة!

- لا حول ولا قوة إلا بالله، ألا يوجد قانون؟ ألا يوجد فقهاء؟
أليس هناك من حل؟

- أي قانون يمكن أن يوجد في ظلّ الاحتلال المجرم؟ وأي فقهاء هؤلاء الذين تتحدثين عنهم؟ إذا كانوا هم من يؤصلون في المُجْتَمَع لهذا الوضع! وأما الحلّ.. فحدثيني أنت عن الحلّ الذي وجدتموه في سوريا حتى نطبقه في فلسطين المُحتلّة! المُجْتَمَع منخور، وضغط الإِستيطان الرهيب على النَّاس يجعل انفجارهم يتوجه نحو الداخل، داخل الأسرة حيث الوضع مؤلم جدّاً، وأنا لم أستطع وحدي احتمال هذا القدر من الألم، ولا مواجهة المُجْتَمَع، أصبح من حولي يعدّوني عميلة لإسرائيل، أجتهد لتقليل نسل الفلسطينيين وأدعو إلى فجور نسائهم!

- كأنك تتحدثين عما كنت أراه وأسمعه في دمشق من زميلاتنا الطبيبات في الجامعة، لا يختلف عنه في حرف ولا وصف.. كُنَّ يقضين مُناوباتهن في خدمات الإسعاف وسط هذه المواجه التي تبدو وكأنه لا خلاص منها.

يتحدثن ببرودةٍ تثير التَّقزز، عن مثل هذه الحالات التي تواجههن في ليالي الإسعاف، كالضرب المُبرِّح الذي يبلغ في بعض الأحيان درجة الجريمة، يأتي الأزواج أنفسهم بنسائهم إلى المشفى، يتركونهنّ مكومات بآلامهن على الرصيف الخارجي وينصرفون، وقد يأتين مع الآباء والإخوة، وكان مما يذكُرنه أن تعنيف الأهل للمرأة التي يأتون بها إلى الإسعاف يكون عادة

أشدَّ إيذاءً لها من جروحها وإصاباتِها، ذلك أنهم كانوا يأتون بهن تحت التهديد والوعيد كيلا يُفشين أسرار البيوت، وكانت تلك النسوة يحكين للطيبات عندما يختلن بهنَّ للفحص والمعاينة، مُتوسلات إليهنَّ السُّكوت عن حقيقة ما يجري!

استأنفت: أخطر ما في حالات أقصى أنواع العنف الزوجي هذه، أنه لا يتجرأ أحد على تجريمها، كأن من حقَّ الزوج أن يفعل بزوجه ما يشاء، وذلك خلافاً لكلِّ تعاليم الإسلام في هذا المجال! إنهم لا يأخذون من الدين إلا ما يُرضي أهواءهم! ما كان أي فقيه يتجرأ على الكلام في هذا، وما كان أي طبيب أو طيبة يُقدِّم على قول شيء، لأن ذلك عيب وحرام، ويمكنه أن يقضي على مستقبلهم المهني!.. والوضع مُتطابق في كلِّ من مصر والمغرب، هل تعرفين الدكتورة هدى المصرية؟ إن سمعت ما تحكيه لوجدتِ فعلاً أننا «أمة مريضة واحدة ذات بلاوي ونيلة منيلة واحدة»؟!!

لم يكن الأمر يتعلق بالأحوال السائدة في دولةٍ بعينها في مشرق المنطقة أو مغربها، كانت حالة عامة، تُشبه الوباء الذي لا يتعلق بشراسةٍ وخشونةٍ وجهلٍ جيلٍ من الرجال في بلادنا، ولكن بخللٍ كبيرٍ في ثقافتنا المعاصرة المُهترئة، وفي عملية التربية، وفي فهمٍ مُختلٍ لنصوص الدين، وخلطٍ قبيح بينها وبين العادات والتقاليد.

كم نحتاج أو كم يحتاج الآخرون حتى يُغيروا الصورة النمطية عنا في أذهانهم؟.. هل هذه الصورة النمطية المزروعة في أذهان الآخرين تُمثل حقيقتنا التي لا نريد أن نعترف بها؟ نأبى التعميم دفْعاً للتهمة عن أنفسنا؟! أكانت تلك تهمة؟؟ أم مرضاً خبيثاً يجب الإعراف به وتشخيصه، حتى نتمكن من معالجته والتعافي منه؟؟

كنت أسأل نفسي طوال طريق عودتنا من مركز الشرطة إلى البيت.

نحن لا نعتزف بواقعة الاجتماعي العام المَرير البعيد عن الإنسانية والأخلاق، يحاول كل منا منفردًا التَّنزه والنَّأي بنفسه عنه وإنكاره، فلا عجب إن تخطَّ الآخرون في تعاملهم معنا بغير منطق ولا إحترام.

الكذب على الذات، أعظم وأخبث أنواع الكذب!



مدريد أمام ناظري على بعد عدة كيلومترات، تُلفُّها السُّحب الملوثة بدخان غبار المصانع المُتناثرة على حدودها وعلى طول الطريق المؤدي إليها، صَبَغ الجفاف حُقولها بِلَوْن أصفر قد انطَفَأ نوره، بدت المدينة على بُعد عشرين كيلومترًا من عاصمتها المركزيَّة رماديَّة داكِنة، يَصِلُ ضجيجُ حركة المرور الهائلة فيها عنان السَّماء، كانت تلك سنوات قحطٍ، شَحَّت فيها الأمطار وجفَّت الأنهار وتغيرت مَعالِم مدريد البيئية، وهي الخضراء النديَّة المزدانة بالأشجار والحياة.

دَخَلنا مدريد، مع ما تبقى من مَتاعنا الذي حملناه من غرناطة، وفي حقيبة العناية بطفلتي ذات الأحد عشر شهرًا، كُرَّاستان وثلاثة كتب، أحدها ما فتىء يُلازمُني أينما نزلتُ وحيثما حلَّلتُ، وهو كتاب «الأحاديث القدسيَّة»، كتاب أبيض صغير لطيف، يحمل عِطر جدِّي الذي يُضَمِّخ ويُمِيز كُتبه وبيته ويديه وحياته، ويُذكرُني به وبأيامي معه في دمشق، كأنَّ جدِّي يُناوِلُني إيَّاه من وراء السَّنين مخترقًا الحدود والغُرْبَة .. أسمع صوته: افتحي الخزانة الخامسة على اليسار يا جدو، في الرفِّ الثالث من الأسفل، هاتي الكتاب الأبيض الصغير المُهندس هناك.

يُمسك به، يُقلّبه، يضع نظارته على أنفه، يقرأ، يتأثر، تدمع عيناه.. ثم يناولني الكتاب، إقرئي «يا جدو» الحديث الثامن عشر بالرواية الثالثة.

أخذتُ هذا الكتاب معي في رحلتي التي كنتُ أعلم في أعماقي أن لا عودة منها، إحتسبته حقاً شخصياً.. كان حبلاً سُرّياً ما زال يربطني بجدي، الذي كنتُ أشعر كذلك، بأنني لن أعود لرؤيته بعدها في هذه الحياة.

أول عهدي بغرناطة وعندما زُرت جامعته للمرة الأولى والأخيرة، راقبتُ شبابها وشاباتهن بشيءٍ من الغبطة، وبحنينٍ لا يُميّز هؤلاء الشباب جذرياً عن شباب جامعة دمشق، أناقثهم البسيطة جداً، ثقتهم بأنفسهم، ما يقولون، وما يفعلون، وكيف يقولونه ويفعلونه، كان ذلك واضحاً، مُشعاً، يملأ المكان بعبقٍ خاص.. لعلها الحرّية بكلّ أبعادها، تمنح الناس تألقاً وجمالاً ونشاطاً وقوّة وحياة وثقة بأنفسهم وبالأخرين، لعلها الكرامة الإنسانية تُنمّي الصّدق فلا حاجة بالمرء أن يكذب على نفسه ولا على من حوله، لعلهما معاً.. فمن دونهما لا يكون الإنسان إنساناً؟

تلك كانت أجمل السنوات وأغناها في تاريخ إسبانيا الحديث، باكورة عقديّين زاخريّين بالتّطور والإزدهار والنّموا والحقوق والحريات والعزّة وإسترداد تقدير الشّعب الإسبانيّ لنفسه.. تلك بداياتُ حبّو إسبانيا نحو عالم آخر في بُعد آخر جديد تماماً على شعبٍ كان قد عانى نصف قرن من الحرب والفقر والهجرة، ومن إستبداد العسكر بوجوده، وإبقائه على هامش أوربا الإستعماريّة الناهضة.

كان «بعضهم» في جامعة دمشق يدّعون أنهم أحراراً، كانت حرّيتهم سَمجة لِرّجة قدرة منافقة وكاذبة، لا تشبه هذه الحرّية

التي تنتشر هنا كعبق زهر النارج في هواء المدينة.. الحرية هنا طبيعية، أصيلة، نظيفة، لا تشعر بأنها مُزيّفة، أو غريبة أو مُستعارة، يمارس القوم حُرّيّاتهم كما يعيشون الحياة، لا يَعْتَدُونَ على خيارات بعضهم البعض، ولا يُحاربون بحريّاتهم حُرّيّات الآخرين، هكذا كانت الأجواء الجامعيّة في غرناطة في هاتيك الأيام.

انقطعتُ في غرناطة كلّ صلة لي بعالم الشباب والجامعات، وانقطعتُ للعناية ببناتي الصغيرات، لكنني كنت قد حملت معي من عالم أولئك الشباب في ذلك اليوم اليتيم، كنزاً أدبياً صغيراً كبيراً، إشتريته بثلاثمائة «بيسيتة»، تساوي في تلك الأيام دولاراً واحداً تقريباً، من على «بسطة» كانت تُعرض عليها الكتب للبيع لدى باب الجامعة، شجعني على شرائه أنني لم أجد في المركز الإسلامي الذي كنت أتردد عليه في غرناطة ما أريد من كتب، معظم ما فيه كتب إسلاميّة، كنت قد قرأتها في دمشق، وهضمتها، ونقحتها، ووضعت ملاحظاتي عليها، وأعدت قراءة ما بين سطورها في كلّية الشريعة، مع نُخبَةٍ من كُتّابها أنفُسهم، أو تلامذتهم، بعضها قرأته وعرضته على جدي، ونشبت بيني وبينه «المُشادات» بشأن ما كان فيها من أفكارٍ لم تكن تُعجبه.. خصوصاً ما تعلق منها بالفكر السياسيّ الإسلاميّ المعاصر، كان يرى أن هذه طامة.. أن نخترع إسلاماً ليس من الإسلام، وأن نجعل المسلمين حزباً أو جماعة، نُخْرِجُ من خلالها - بصورة عملية مباشرة أو غير مباشرة، ومن حيث نريد أو لا نريد - كلّ من عداهم من الإسلام!

- «يا جدو».. المسلمون ليسوا في حاجة إلى هذه التنظيمات السياسيّة، إنها تنظيمات تُحَجِّمُ الإسلام، وتجعله حزباً أو جماعة أو حركة.. والإسلام هو أمة.

- لكن ذلك يا جدي ضروري، فالناس لم يعودوا مسلمين!
- أعوذ بالله، من أين أتيت بهذا الفكر التكفيري؟ كل من وُلِدَ
في الإسلام مسلم، لا يُخرجه من الإسلام إلا تصريحه بالكفر
البواح!.. استعيزي بالله مما تقولين.

- معظم من حولنا لا يعرفون من الإسلام شيئاً، وحكامنا
كفار، وعلينا أن نجمع جهودنا لقتالهم ونشر الإسلام!
- الله أكبر عليكم.. من أنتم؟ من هذا الذي علّمك هذا الذي
تقولين؟

- قرأتُ وفهمتُ وتعلّمتُ أن حاجتنا ضرورية إلى هذه
الجماعات لإخراج الناس من عبادة الناس إلى عبادة الله!
- لعلك تقرئين كُتُبَ سيّد، ومصطفى؟! كم قلتُ له وأبلغته
أنني غير راضٍ بسبب مسألة الإخوان.. نعم هو ابن أخي وتلميذي،
لكنه لم يسمَعْ مني عندما نصحته، المسلمون ليسوا في حاجة إلى
تنظيمات سياسية إسلامية، المسلمون يحتاجون العودة إلى روح
دينهم الحقّ.

كان يقصد بمصطفى.. مصطفى السباعي، وبسيد.. الشهيد
سيد قطب! عملاقيّ العمل والفكر الإسلامي المعاصر.

فكرٌ دينيٌّ وأدبٌ دينيٌّ وسياسةٌ وتاريخ، من المنظور
الإسلامي الحركي، محاولات مستميتة لحفظ الهوية التي
أوشكت أن تذوب وتضيع في خضمّ دياجير عواصف التيارات
السياسية والفكرية، التي كانت تهبُّ على المنطقة التي
استعجلت الفرح بظنها أنها خرجت لتوها من سطوة الاستعمار..
خرج من الباب، لكنه احتفظ بألف مسمار ومسمار في جدار
وجودنا.. الثقافي، والسياسي، والجغرافي، والجغرافي البشري،
والاقتصادي، والفكري.

محاولات مُجَهَّضَة على الرِّغم من صِدْقِها وكثرتها ومثابرتها وكفاحها المستميت في سبيل أهدافها الكبيرة والنييلة، والتي كانت تَصْطَلِدُمُ بالأعداء المتوحشين الدَّاخِلِيَّين والخارجِيَّين من جهة، وبِقِصُورِها عن طرح آليات تتميز بالتفاعل والحيويَّة اللّازمين لِلتَّعامل مع واقعنا الإِجتماعي العَفَن، ومع واقع العالم الإِستعماريّ الذي يُحيط بنا، بسبب إنطلاقها ومُراوحتِها ضمن نمطِ تفكير حِزبيّ مُنغلقٍ مُتَحَجِّر، ظنَّ أصحابه أنهم بالثبات عليه، وعلى شعاراته الرنانة تُدغِدُ عواطف النَّاس وأشواقهم لِوَصْلِ ماضيهم بِحاضرهم، قادرون على قيادة الشعوب، ومواجهة معضلاتها الخطيرة، من إِستبدادٍ وإِستعمارٍ، ومن تَفَكُّكِ المُجْتَمَع، وتلاشي إنسانيَّة وهُويَّة!

كانت محاولات في الظلّ، في العتمة، في الزنازين، وبين أيدي جَلَاوِزَة لا يعرفون الرِّحمة، وليدة أجواء الإقصاء تحت الأرض، فلا جَرَمَ أن جاءت ضيقة الأفق، عاجزة عن التغير.

الكتابة تحت الأرض غالبًا ما تتغنى بالحرية، لكنها لا تستطيع تعريفها، التفكير تحت سِياطِ الجلادين، يمنح المفكرين الراسخين في العِلْم قدرةً على الحُلم بالخلاص، ولكن نادرًا ما يَتِمَكَّنون من تحديد الخطوات اللازمة لِلسَّير نحو تحقيقه.

نحن شعوبٌ ضائعة دون أن تدري بأنها ضائعة، ومنطقةٌ مُسْتَلَبَة تبحث عن نفسها، تَتَنَاشَى سِهام الإِستعمار الخفيَّة، بينما تجري علينا واحدة من أكبر عمليات التَّغْيِيب والإِستلاب والتَّمْزِيق وتدمير الهُويَّة طوعًا وقسْرًا، تارة عن طريق الغزو المَعْرِفِيّ والمَعِيشِيّ الغربي الأمريكي والأوروبي، وتارة عن طريق الإحتواء الثقافي السَّامِل الشَّرقيّ الروسي، وتارة بسطوة الرُّعب الذي شَلَّ قدرة النَّاس كما رَغِبَتَهم في التفكير الذاتي والتغير الذي يجب أن يبدأ من عندهم هم أنفسهم.

كلّ تلك الكتب كانت محاولات إستثنائية عنيدة مواظبة، لمقارعة ذلك الغزو الإستعماريّ النفسيّ والثقافيّ والوجوديّ، لإعادة صياغة رؤيتنا للإسلام الغريب بين المسلمين، كانت جهوداً جبارة بذلتها وتبذلها القلة النادرة لـ «إعادة تشكيل العقل المسلم»، كما عَنُون كتابه «عماد الدّين خليل»، الكاتب الإسلامي العراقي، كان عنوان كتابه هذا في حينه.. ثورة!

بعض عناوين الكتب تكون أكثر أهمية من محتواها، وتختصر منهجاً، وتطرح أجوبة مهمة عن أسئلة حضارية بالغة الخطورة.. لكنها لم تكن تخرج في مجملها من حيز طرح الفكر والتنظير، إلى مجال الفعل والعمل على أرض الواقع.

لا نكاد نجد في مكتبة المركز الإسلامي في غرناطة، أكثر من هذا.. كتبٌ تحوم حول مُهمة حفظ الهويّة، والإصرار على إستنهاض الهمم للخلاص من الإستبداد والتخلف والإستعمار، ولا شيء غير هذا.

الرُّوح والفكر مُتعطّشان لأدبٍ عالميّ مُختلف، أو فكرٍ إنسانيّ يفتح آفاق رؤيتنا للحياة، شعرٌ وحكاياتٌ أو خواطر وإنطباعات، تحكي عن البشر وللبشر آلام البشر وأحلامهم، تُناقشهم فيما يعيشونه، تأخذ بأيديهم لِتَضَعهم على أول الدّرب، تُعلّمهم الخطو في كهوف الظلام، والسّباحة في بحار المجهول.

لا شيء من هذا.. في ظلّ العطالة العربيّة العامّة⁽¹⁾ عن الإبداع، تحت وطأة حالة الإستبداد الشاملة، وتلكؤٍ وقصور حركة الترجمة، لنقل العلوم والآداب والفكر الإنسانيّ العالميّ

(1) بدأ الوضع بالتغيّر منذ مطلع القرن الواحد والعشرين الميلادي، وإنفجرت ينابيع حركة ثقافيّة كبرى، واکبت ثورة 2011 التي شهدتها المنطقة العربية في تلك الآونة.

إلى القارئ العربي، مما يُحفّزه على التفكير والتدبر وسعة الأفق واستيعاب كل ما يجري معه ومن حوله.

ذلك الكتاب الذي اشتريته كان كُتُبًا صغيرًا لـ «غابرييل غارثيا ماركيز»، «حكاية بحارٍ كان قد غرق»، جذبتني تلك العبارة المكتوبة على غلافه الذهبي باللون الأحمر القاني والخط العريض اللّافت: «جائزة نوبل للآداب 1982»، بحرٌ ولُججٌ وبحارة.. ونوّارس، وحكايات هجرة، وحكايات غرق، وحكايات حياة، ذلك هو «غابرييل غارثيا ماركيز»، أحد سَحَرَةِ الكلمة، أحد عُشاق الإنسان، أحد أصحاب الأقلام الخالدة، أحد الغرباء الكبار.. الذين يُمكن لبعض أدبهم أن يؤنسك في غربة الروح والمكان.

هناك كُتّابٌ كبار، تحترمهم وتعترف لهم بالإبداع، ولكنك لا تُحبهم، وهناك كُتّابٌ كبار، تحترمهم وتعترف لهم بالإبداع، ولا يُبارحون، يتركون بصمّتهم في نفسك وحياتك وكتاباتك.. «غابرييل ماركيز» كان أحد هؤلاء.

ذلك الكُتيب كان الثاني من الكتب التي لا تفارقني، كان معي داخل محفظة إبتني الرضيعة، في رحلتنا من غرناطة إلى مدريد، وما زال معي حتى الساعة.. أينما تلفتُ في مكتبي يجب أن أراه في مكانه المخصص له، إنه يشكل أحد الحدود الجغرافية لمكتبي الشخصية، ضمن المكتبة الهائلة التي جمعها «أبو ساجدة» في بيتنا من كلّ حذب وصوب، والتي اضطررنا إلى تركها وراءنا في غرناطة في جملة ما تركناه..

كانت المرة الأولى التي نترك فيها مكتبةً باللغة العربية وبهذه الضخامة في إسبانيا، لنعود فنؤسس مكتبة جديدة في بيتنا، ولكنها لم تكن الأخيرة.

«الكتابة عملٌ إنقلابي».. لنزار القباني الشاعر السوري، الكبير والاستثنائي، هو الكتاب الثالث في جُعبتي، وكان الأستاذ

«نبيل شبيب»، مدير تحرير مجلة الرائد الإسلامية في ألمانيا، قد أهدانا هذا الكتاب في جملة ما أهدانا من أعمال «نزار القباني» حين زرناه، ونصحني بقراءته، رغبة منه في أن أستمّر في كتابة الشعر، قال ضاحكاً: «نزار قباني» قليل الأدب في كثير مما يكتب، أما شعره فهو الأدب!.. إقرئيه فنحن في حاجة إلى شعراء جدد يكتبون كنزار القباني!

كنت أكتب الشعر في دمشق، وتخيّل بعضهم أنني سأصبح شاعرة عظيمة في غرناطة الأندلسية، لكن غرناطة قتلت الشعر في نفسي، الأمكنة لا تصنع الشعراء، الشعر بحاجة إلى حُرّيّة وحياة وآلات، ولم أعرف طعم الحُرّيّة ولا «الحياة» في غرناطة، ولست أملك أدوات الشعر اللازمة والضرورية.. إنحبس الشعر في نفسي، ولا أجروّ على القول أنه مات، لم أكتب في غرناطة إلا خمسة أبيات أو ستة من منظومة شعر حديث، ودعّت فيها رفيقتي في كُليّة العلوم التي لم تُردّ على رسائلي.. الله أعلم ما فعلت بها وبأيّنها الأيام؟ انقطعت أخبارها عني ولم أعد أعرف عنها شيئاً، ضاعت في زحمة الضياع السوري الشامل، ضاعت في لُجّة التغرية السورية الكبرى، تتمدّد بصمت في وجود السوريين، تلتهم أحشائهم وتقطع شرايينهم وهم غائبون مغيبون.. أو هكذا يبدو.

كنت أراها في مراوحتي ما بين كُليّتي العلوم والشريعة، خطوات ثقيلة، وكاهل مُرهق كأنه يحمل دَهراً.. تقف صامتة على «موقف حافلات الحلبوني» في قلب دمشق، نركب الحافلة نفسها، ولا تنبس ببنت شَفّة.

مرة تأخرت الحافلة كثيراً، اقتربت منها كلمتها وتعارفنا، وأصبحنا رفيقتي طريق يومي من الجامعة وإليها.. حكّت لي، أنها زوجة «شهيد»، كانت تهمس، وتكلفت يُمّنة ويُسرة، فتلك كلمة مُحَرّمة علينا نحن السوريّون! وأنه إقْتيد إلى المُعتقل وقضى

تحت التعذيب الوحشي، وتلك معلومة يُعرّض البوح بها صاحبها للقتل! وأنها حين استشهد كانت حاملاً في الشهر السابع، ورزقها الله بمحمود، سمّته على اسم أبيه.. وأنها ستبقى على العهد، ولن تنسى أبداً، حتى لو نسي كل السوريين أبناءهم المظلومين وراء القضبان وتحت الأرض.

اعتقلوه وقتلوه.. ثم اتصلوا بوالده في الثالثة فجراً، طلبوا إليه أن يأتي لتسلم جثمان ولده ويدفنه، كذلك جرت العادة عندما يُقتل الشباب تعذيباً أثناء اعتقالهم.. وهكذا فعل دون أن ينبس بكلمة، لفّ ولده بسجادة صالّة البيت، حمله على كتفه، فجراً قبل أن يطلع الصباح، حفر القبر ودفنه بمساعدة أخيه الأصغر، وعادا إلى الدار وقد اشتعل رأسه شيباً.

التراب يُغطي حذاءه وملابسه ويديه ورئتيه وروحه وعينيّه ووجوده، أصبح الوالد يهتز ويرتجف، ينظر ذات اليمين وذات الشمال فلا يرى أحداً ولا شيئاً، أصابه البُكم والوجوم.. فلا كلام ولا سلام ولا حياة، أما الأخ فقد تمّ تسفيره بعد يومين إلى حيث أخواله في الكويت، وإلى غير رجعة، هكذا تمت مراسم الثكل والحرمان.

الكل يعرفون أن ولده قد قضى صبراً، لكن أحداً لم يتجرأ على تعزيته وتّصويره.

أمّه.. كانت تدور تُعزي الناس في أمواتهم كلما قرأت نَعوات معلقة على حيطان دمشق، ما أبشع عادة إشهار نبأ الموت هذه وأقبحها، كانت تقتلع النعوة، وتُحكُّ آثارها على جدران الحارة بأظفريها، تقول للمتسائلين: أيّ غباء هذا؟ تُهدرون أموالكم، وتُشوهون حائطكم، وتعرضون حماقات تفأخركم، من أجل ميت مات على فراشه كما يموت الحمار والبعير! تذهب إلى مجالس العزاء، تجلس هناك تقرأ سورة الصمد ثلاث مرات، وتنفخ على

الموجودين، ثم تبدأ بالصَّحْك حَدَّ القَهْقَهة، حتى تأتي إبتها فتأخذها من يدها، وهي تعتذر من النَّاس، وتنصرفان.

كان ولدها أحد الثوار، الذين قرروا مقاومة هذا النِّظام بكلِّ وسيلة ممكنة، قاموا إذ أقعد الشَّعب الخوف، وثاروا على الرَّغم من الخذلان العام من حولهم.. اعْتَقِلُوا وَمَزَقْتَهُمْ سَادِيَّةً وَحُوشٍ أَعَدَّهَا النِّظام لكلِّ من تُسَوِّلُ له نفسه الوقوف في وجهه.. قُتِلُوا وَدَفَعَتْ أَسْرَهُم الثمن أضعافاً مضاعفة.

ما أفزع أن تَتَلَبَّسَ بمحنةٍ تنزل بك وحدك، لا تستطيع أن تحكي عنها، ولا أن تُشارك بها أحداً يحمل معك شيئاً من هول غَرْقِكَ في جُرْحِكَ وحُزنِكَ.

لا شكوى، ولا تنفيس عن براكين القهر التي تَتَفَجَّر في القلب سُمًّا يَفْتُلُّك ببطء، ولكن في بُلِّ وكِبْرِيَاءٍ سَامِيَيْنِ.

مرة.. وجدت صديقتي أم محمود وفي عينيها بَرِيقُ أَسَى وتَأَلَّقِ غَرِيبَيْنِ، قالت لي ونحن نَحْضَرُ دَرْسًا في بُنْيَةِ النَّوَاةِ الحيوانِيَّة: سأحكي لك سِرًّا، ثِقْتِي بِكَ عَمِيَاء، ولكن عِدْنِي بالله أن نَصُونِيهِ:

«كل فجر، وأحياناً لدى العصر، وأنا أهدِّد طفلي أَرْقُبُ طلوع الشمس أو مِيلَهَا، يأتي العصفور نفسه، يُرفرف بجناحيه، يُزَقِّقُ بقربي، يَأْكُلُ مِمَّا في يَدِي من خبز، يَرَقِصُ حول صغيري.. ثم يُغَادِرُ.

هل تؤمنين بالمُعْجَزَات؟.. سألتني وهي تَفْرِكُ يديها وتنظر إليَّ مُسْتَنْجِدَةً.

لا أؤمن بالمعجزات في أيامنا هذه، فالبشر هم معجزة الله الحقيقيَّة الفريدة، التي تتمكن من وَقْفِ كُلِّ هذا الحجم من الطَّغْيَان والتَّغُول والعذاب، الذي نزل بمئات الآلاف من السوريين الأحرار، ممن فكروا في تلك الأيام أن يُخَالِفُوا شعبهم المُسْتَكِينِ،

وَيَقِفُوا فِي وَجْهِ هَذَا النِّظَامِ الْمَجْرَمِ الْمَسِيرِ عَلَى سُورِيَا، فَأَصْبَحُوا
هُمْ وَأَبَاؤُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ وَإِخْوَتُهُمْ وَزَوْجَاتُهُمْ وَمَعَارِفُهُمْ وَجِيرَانُهُمْ
وَأَصْدِقَاؤُهُمْ وَرِفَاقُهُمْ، مَا بَيْنَ نَازِحٍ وَمُهَاجِرٍ وَمُعْتَقِلٍ وَجَرِيحٍ
مَعْطُوبٍ جَسَدِيًّا أَوْ نَفْسِيًّا.

الصَّمْتُ سَيِّدُ الْمَوْقِفِ، صَمْتُ رَنَانِ رَهِيْبٍ يَتَجَلَّى فِي قُدْرَةِ
عَجَبِيَّةٍ عَلَى إِحْدَاثِ الصَّجِيحِ، وَالتَّعَائُشِ مَعَهُ.. صَوْتُ أُمِّ كُلْثُومٍ
يُلْعَلُ فِي كُلِّ وَقْتٍ، صَوْتُ الشَّاحِنَاتِ الْمُهْتَرِّةِ تَخْتَرِقُ الْأَرْقَةَ
الضَّيْقَةَ تَصْطَلِدُ بِجَانِبَيْهَا، صَوْتُ بَائِعِ الْعَرَقِ سَوْسُ يَصِيحُ، صَوْتُ
أَبُو زَهَيْرٍ يَضْرِبُ إِبْنَهُ الْيَافِعَ وَيَلْعَنُ أَبَاهُ فِي وَسْطِ الْحَارَةِ، صَوْتُ
عِرَاكٍ بَيْنَ جَارَتِنَا وَحِمَاتِهَا.. كُلُّ شَيْءٍ يَعْوِي عَوَاءَ ذُنَابٍ تَكَلَّى
جَرِيحَةً عِنْدَ أَفْوَاهِ أَوْكَارٍ سُرِقَتْ مِنْهَا جِرَاؤُهَا..

كُلُّ هَذَا الضَّجِيجِ وَالنَّاسِ صَامَتُونَ! لَا يَسْتَطِيعُونَ التَّحَدُّثَ
بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ حَقِيقَةً! لَا يَتِمَكَّنُونَ مِنْ إِطْلَاقِ تِلْكَ الصَّرَخَةِ الدَّفِينَةِ
الْمَكْتُومَةِ شَوْكَاً يُمَزِّقُ أَفْئِدَتَهُمْ.

الْمَصِيبَةُ.. أَنَا وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ كُلِّ هَذِهِ الْمَعَانَاةِ وَهَذَا
الصَّخَبِ، كُنَّا شَعْبًا بِلا قَضِيَّةٍ، لَا أَحَدَ فِي هَذَا الْعَالَمِ يَعْرِفُ أَوْ
يَعْتَرِفُ بِمِخْتِنَا الْفُظِيَّةِ، لَمْ يَكُنْ فِي سُورِيَا بَيْتٌ لَمْ يَذُقْ أَهْلُهُ
طَعْمَ الْمِحْنَةِ فِي صَمْتٍ وَتَصَبُّرٍ، لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ بَيْتٌ لَمْ يَشُوهِ طَعْمَ
الْفَقْدِ، مَا بَيْنَ شَهِيدٍ أَوْ كَسِيرٍ مَهِيضِ الْجَنَاحِ أَوْ سَجِينٍ أَوْ مُغِيبٍ
مَفْقُودٍ لَا يَعْرِفُ مَصِيرَهُ وَلَا مَكَانَهُ.

مَا كَانَ أَحَدٌ يَرِيدُ أَنْ يُصَدِّقَ أَنَّنَا فِي مِخْتِنَا السُّورِيَّةِ نَكَادٍ
نُلَامِسُ حُدُودَ الْمِحْنَةِ الْفِلَسْطِينِيَّةِ.. كُنَّا شَعْبَ الْمِحْنَةِ الْخَرَسَاءِ،
الَّتِي لَا يَقْتَنِعُ وَلَا يَعْتَرِفُ بِهَا أَحَدٌ!

الشَّعْبُ الَّذِي لَا يَجْرُؤُ أَنْ يَتَحَدَّثَ عَنْ قَضِيَّتِهِ!!



ـ غُرْبَةٌ دَاخِلٌ غُرْبَةٍ، مِنْ تَحْتِهَا غُرْبَةٌ،
مِنْ فَوْقِهَا غُرْبَةٌ -

● **الغريب** للغريب طوق نجاة في لجج الجهل والترقب والخوف.. هكذا يقولون، وهكذا يُخيّل إلينا.

تبرع أحد الأخوة في مدريد بوقته «الثلثين» - كما قال -، فبحث لنا عن دار أجرة تليق بأسر الأطباء - كما قال كذلك! - وكان الوحيد الذي تكرم ممّن كنا نعرفهم في مدريد، فبذل جهداً لمساعدتنا في دار غربتنا الثانية في إسبانيا، بعد أن طار خبر قدومنا على «أهلها» من «أهلنا»، ومُعظمهم من أبناء الجالية السورية والفلسطينية والمغربية الذين يُصنّفون بالأخوة - في الله ورفاق الدرب والغربة، كنا نلتقيهم في المؤتمرات الإسلامية التي كانت تُعقد كلّ عام، يجتمع فيها الناس من أطباء وصيادلة وطلبة علم وعمّال، وزوجاتهم وأطفالهم، من المتدينين بدرجات متفاوتة، وممن يلتفون حول المراكز الإسلامية الصغيرة الناشئة في غرناطة ثم في مدريد، يبحثون فيها عن الوطن الضائع من أيديهم التي حاولت قرع باب الحرية، لكنها لم تُفلح في فتحه، يبحثون في وجوه بعضهم البعض، عن الأهل الذين أصبحوا وراء حدود الغربة، يبحثون عن أناس يُشاركونهم الهموم وأسلوب الحياة وآمال المستقبل، يجدون في هذه المُلتقيات أنفسهم، ويتشبّه بعضهم ببعضهم فلا يضيعون.

إخوة.. لا أعرف أسماءهم، السوريون هنا من بين خلق الله.. أناس بلا أسماء! كلّهم يُنادون بعضهم بعضاً بأبي فلان وأمّ علان.. عادة دَرَجْنَا عليها.. ألا نحفظ الأسماء، حملناها معنا من سوريا، حيث كنا نعيش ويلات قمع النظام للشعب بسبب الثورة

التي نشبت ما بين السبعينيات والثمانينيات، الأسماء خطيرة! ومن أجل سلامتك وسلامة الآخرين، عليك أن تُرغم نفسك على نسيان أسماء إخوانك وأصدقائك ورفاق غربتك، عليك أن تنسى أسماءهم، وألقابهم، ومن أي مدينة جاؤوا، ولماذا أتوا إلى إسبانيا، وماذا كانوا يفعلون في سوريا حتى اضطروا للخروج منها! أو ماذا فعلوا في إسبانيا فوجدوا أنفسهم وقد سُدت في وجوههم سُبل العودة! كان الأمر أشبه بأساليب التعذيب النفسي، إنس الاسم، لا تَسَل، لا تتذكر، أطرده من الذاكرة! و«أنت» على وجه الخصوص، أنت.. هل تسمعين أنت يا «أم ساجدة» - يعني أنا، بسنوات عمري الأربع والعشرين - إنسي الأمر تمامًا، لا تُخزني شيئًا من هذا في ذاكرتك، فذاكرة أصحاب الأقدام خطيرة، وما أدرانا متى وأين سوف تنفجر بهذه المعلومات؟!!

هكذا.. نسيْتُ اسمي في غرناطة، حتى إذا ناداني أحدُ به، استغرِبتُ واستهَجنتُ ذلك الاسم الغريب البعيد الذي أصرتُ جدتي على تسميَتي به بسبب أغنية لعبد الوهاب⁽¹⁾ كانت تُحبها! لم أحبه قط، وكرهته أكثر عندما علمتُ سبب تسميتي به!! وما عاد - لحسن الحظ - جزءًا من حياتي ولا من وجودي، وخصوصًا أنني وحتى في بيتي، لم أعد أنادى كذلك إلا باسمي الجديد: «أم ساجدة»!

«بيتي» لم يكن في واقع الأمر بيتي.. كان امتدادًا مكانيًا ومعنويًا للمركز الإسلامي في غرناطة، بيتي كان خلية نحل، تمرور بالحياة والحركة ونشاطات شباب ذلك المركز، نشاطاتهم «الخطيرة»!! التي منعت معظمهم من العودة إلى سوريا! من مثل: صلاة الفجر جماعة في بيتنا، وقراءة شيء من القرآن بعدها،

(1) عبد الوهاب: مُغن ومُلحن وممثل مصري ذاع صيته بشكل واسع في أواسط القرن العشرين.

الإجتماع على فطور شطائر الزعتر والبندورة، أو الفول المُدمس والحُمص، إفطاراتٍ جماعيّة في رمضان، صلاة العيد والخروج إلى مطعم للاحتفال وكأننا أسرة واحدة، حلقة علم أسبوعيّة يقرؤون فيها كتاباً مُملاً ثقیل الظلّ، يتعلّق بالفقه أو بأسباب النزول، ترتيب مكتبة المركز الإسلامي، الإجتماع فيها للدراسة قبيل الإمتحانات، مُراجعة برامج للثقافة الإسلاميّة وضعها أحدهم قبل قرنٍ من الزمان على الأقل، ولم يستطع أحدٌ استكمالها، أو تطبیق خمسة في المئة منها خلال الخمسة أعوام التي قضيتها في غرناطة، جمع تبرعاتٍ لمنكوبي الحروب المُفترسة المُدمرة في أفغانستان أو فلسطين، أو أي بلد تنزل بها النوازل الطبیعيّة من حولنا كالمغرب والجزائر، رحلات جماعيّة نخرج فيها جميعنا إلى «البُتّانو» - الغابة، الحقل - في غرناطة، يقوم الشباب فيها بِشواء اللحم وعمل السّلطة واللّبن الرائب، يأكلون ويلعبون الكرة ويشربون الشاي، يتناقشون ويختلفون ويتشاجرون ويتصالحون، يُفصّصون بزر البطیخ، و«ينحرون» بطیخة عملاقة اصطحبوها معهم، يشربون الشاي مرة ثالثة، ثم يعودون إلى بيوتهم في غرناطة.

وكان من أهم نشاطاتنا المُتميّزة، حضور مؤتمرات ثقافيّة إجتماعيّة في كلّ عام مرة أو مرتين، نأتيها من عدة أنحاء من إسبانيا، للإستماع إلى محاضرات ضيفٍ إسلاميٍّ معروف، يُحدّثنا عن غربتنا وعن الهويّة التي يجب أن نتمسك بها فلا ندوب ولا - نتلاشي.

تلك كانت نشاطاتنا «الخطيرة»، بالغة الخطورة التي جعلت حكوماتنا والحكومة الإسبانيّة تضع علينا كلّ إشارات الإستفهام والتّعجب!

ابتكرنا في غربتنا «أسرةً كبيرة» مُمتدّة مكان تلك التي

فقدناها، وصنَعْنَا في مسجِدنا وطنًا بديلاً، وطنًا لا يُحاربُ إلزامنا
بديننا، وأسرَةً لا يحكُمُها الخوف والرُّعب من تقاليد تُكَمِّمنا
وتمنَعنا من الحركة، وتَحْرِمنا من مُمارسة حقِّنا في الحياة.. وإن
كانت درجات قُدرتنا على التَّعامل مع هذه الواحة من الحُرِّيَّة،
تختلف بحسب طاقة كلِّ منا الشخصية وجُرائه على فَكِّ زَرَدِ حديد
قُيود العبوديَّة تلك التي استَصحبَها معه تُطوُّفه وتُخفِّفه.

اتَّخذ أولئك الشباب من بيتنا في غرناطة داراً كانت علاقتهم
بها، تشبه علاقتي بدار جدِّي في دمشق.. واتخذوا مِن أبي ساجِدَةٍ
أباً، وبالتالي.. كنتُ «أنا» أمَّهُم في الله! أمَّا نَصغَرهم أو تتساوى
معهم في السَّن، وكان في ذلك قمة سعادتي، ومُنتهى ما أُمِلُّته من
العيش في خضم العمل الإسلامي، والحياة لله، ولكن.. كان في
ذلك أيضاً، ضياع مُتعة الشعور بسنوات الشباب، وكان فيه بعض
نَكِدِ الحياة التي لم يعد من حدودِ تفصيل فيها ما بين الشخصي
والعام.

«أم ساجِدَةٍ».. إسمي الجديد! كان ذلك وجعاً في الرُّوح
مُزلزلاً وحُلُواً في نفس الحين.. انقطاعٌ عن الوطن، عن تاريخِ
الشخصي، عن مَرحلة الشباب والدراسة، عن الخُصوصية، إنكفاءً
على الذَّات الجديدة، داخل البيت الجديد، والوضع الجديد مع
أناس أتعَرَّف عليهم للمرة الأولى في حياتي، لا شيء مشتركاً بيننا،
إلا ظنُّنا «الانتساب إلى الله»!

كثيراً ما تساءلت، إن كنا حقاً قد أتينا من البلاد نفسها، وأحياناً
من المدن أو الأحياء نفسها؟ أن تأتي من حيٍّ معين، أن تكون
ابن أسرةٍ معينة، أن تكون أمُّك مُعلمة أو خياطة أو مُفَرَّغة لإدارة
بيتها.. هذا يُحدِّد سمات شخصيتك وتفكيرك وسلوكك ويجعلك
مختلفاً عن غيرك.. فسيفسائية ما بعدها فسيفسائية، وغنى بشريٍّ

هائل، تنوع ثقافيّ عجيب، تتصارع كلّ مكوناته في بوتقة تَشَطُّ كبير مؤلم، نعاني منه شعوباً شقيقة، ومنطقةً تغلي.

تبدو مجتمعاتنا مثل بُلُورٍ عتيق مكسورٍ مُتَنَاطرة شظاياها إلى ألف قطعة وقطعة، نبدو في مرآة غُرْبتنا للوهلة الأولى وكأنه لا شيء يجمعنا، لا طريقة التفكير، ولا أسلوب الحياة، ولا أولويات الخيارات، لا شيء.. بحرٌ متلاطم، كلّ من فيه يتنحّل وصلاً بليلي المَترَوكة تَدوي وحدها.

أحياناً تظنُّ أنك لا تعرف هؤلاء الأشخاص، ولا تستطيع التفاهم معهم، ولا الإستئناس بهم، ولا تجد ذلك الخيط الرفيع الذي يمكنه أن يَضُمّ شتاتهم.. لكن شيئاً كبيراً وعميقاً في واقع الأمر كان يجمعنا فعلاً على الرّغم من كلّ تلك الأشياء التي تفرقنا، رباط غليظ يشدّ بعضنا إلى بعضنا، نتمسك به فلا نضيع ولا ندوب في هذا البحر اللّجّي المخيف، كنا مهتدين في غُرْبتنا هذه كلّ حين بالفرق.. وكانت تلك «العلاقات في الله» المَنارة والمِرْسة وسبيل النّجاة الوحيد.. على اختلاف درجة فُهم كلّ منا لها، ودرجة تحقّقها بها، ودرجة صدق وعمق شعوره بها.

«العمل الإسلامي»؟! ذلك إذاً العنوان الجديد الذي يجمعنا، نحن أبناء الإضطهاد والضّيم والتّغيب، من «المُتدّين» الآتين من كلّ مكان، تشكّلت مِنّا هذه الشريحة الجديدة في الوطن كما في المهجر، وُلِدَتْ في خِصَم صراع شعوبنا مع المُستبدّ المجرم الإقصائيّ الذي يُحارب ويُسوّه ويُموّه ويُغيّر ويسْتَلِب «هُويّتنا» في عُقر بلداننا، ويمنعنا من أن نكون مواطنين نتمتع بكامل حقوق المواطنة! برزت مشكّلة الهُويّة في غُرْبتنا، غولٌ حقيقيّ يريد أن يفترس الجميع.. يشعرون به ولا يكادون يرونه، يلمسونه لكنهم لا يستطيعون إستيعاب وحشيّته وقدرته على الابتلاع والإزْدراد والسّحق والتّمزيق.

إصرار نظام فاشٍ إقصائيٍّ طائفيٍّ مجرم، على تذويب هوية الشعب السوري الجماعية، دفع الطيبين العاديين الخائفين من الذوبان، للتشبُّث بما يظنونه هويَّتهم، من عادات وتقاليد يعصُّون عليها بالتواجد، كما دفع آخرين للبحث عن هذه الهويَّة، من خلال هذا الذي تواضع النَّاس على تسميته بالعمل الإسلامي.. «عنوان» غريب لافتٌ مُخيف، وفَرَّ لنا أَمْنًا في صميم الغربة، وهويَّة في لُب الضياع، ووجودًا في ذروة ألم الخوف من التلاشي.. ومظلةً تقينا من إقلاع السَّماء وسط هُبوب الأعاصير..



- والله عجيب.. كيف لم تحفظي اسمي حتى اليوم، أربعة أعوام ونحن في الجامعة، نلتقي دائمًا في مسجدنا، نأكل قريبًا من بعضنا بعضًا، ونُصَلِّي معًا.. وفي كلِّ مرة تسألين عن اسمي؟!.. أتفعلينه عامدة، أم أن في الأمر نُكْتة لم ألتقطها؟

- صدقًا.. إنني أغبى مَنْ عليها، عندي مشكلة ما في دماغي، لا أستطيع حفظ الأسماء!

- أيُّ مشكلة هذه؟ كلَّما التقينا تسأليني عن اسمي.. هذا مزعجٌ جدًّا!

- أرجو ألا تغضبي، وأن تُسامحيني.. لقد عودت نفسي ألا أحفظ الأسماء.

- ماذا؟ هذا غريب جدًّا!

- لا أستطيع أن أشرح لك الموضوع، لكنني رأيت أن هذا أفضل لي ولكلِّ من ألتقيه.

- لا تخيفيني..

- لا.. لا تخافي، الموضوع يتعلق بما أكتبه، ولا شيء غير ذلك.

- ما تكتبينه في صحيفة الحائط في مسجد الجامعة جميل ويعجبني.. ما علاقة ذلك بالأسماء؟ أنت لا تكتبين في السياسة؟ ولا تتدخلين فيما لا يعنيك؟

ثم أردفتُ وهي تضحك: أنت «حباية» و«عاقلة».. أليس كذلك؟؟

قلتُ ضاحكة بينما كنا نبتاع شطيرتي فلافل ونحن ندخل إلى الجامعة: لا.. لا أتدخل فيما لا يعنيني! ما هذا الكلام المغرض؟ كلام أعداء⁽¹⁾!!

ودّعنا بعضنا في وُدّ وتسامح، ذهبتُ هي إلى مبنى كلية الطبّ المجاور، ودخلتُ بهوُ كُليّة العلوم.. ومنذ ذلك اليوم، وعلى الرّغم من أنني لم أعد لرؤية «أمامة»، إلا أن اسمها لم يفارق ذاكرتي.. أذكره كلّما ناداني أحدُهم بأُمّ ساجدة، وكلّما ناديتُ إحداهنّ بأُمّ أحدِهم!

كانت تجربة «نسيان الأسماء»، عنواناً جديداً لمرحلة جديدة في حياتي، يصرخ كلّ ما فيها بمُسمى واحدٍ.. «الغربة»! لكنه في الوقت عينه كان رياضةً «حيويّة» و«مُسلية»! تتّصل بشبابك الذي لم تعشه، وبعُمر «الولادة»، تُشعرك بخطورة الحداث والناس والوطن البعيد والحرية والغربة، رياضة عقلية قهرية فاتنة، فيها من المغامرة ما يُشبه اللّعب، وفيها من الخطورة ما يُشبه القتل! اتّصلتُ بأيامي في جامعة دمشق، عندما كنا نخشى أن نحفظ أي اسم، خوف أن نقع في أيدي المخابرات، وأن نقع في أيدي المخابرات

(1) تطلق كلمة «أعداء» على «الأصدقاء» الذين يتصرّفون مع بعضهم كالأعداء.

في دمشق كان أكثر من عادي ومُتوقع في كل لحظة، فنضطر إلى الإبلاغ عن «الأبرياء» تحت التعذيب الذي كان الجميع يُرهبونا به ليلاً نهاراً.

الحديث عن «البراءة»، يُوهَّم بأننا «مذنبون»! والتهمة؟ الكتابة!.. أنت إسلامي وكاتبٌ و«امرأةٌ شابة»!! إذاً أنت مُلاحق ومُتهم من قبل الجميع: النّظام الحاكم، المُجتمع الأَجْرَب، أهْلَكَ، إخوانَكَ، أصدقاءَكَ، أبناء الجيران.. بقاليّة الحارّة، محل بيع القُرطاسيّة في حيّكَ، الجماعات الإسلاميّة الموبوءة بسوء الظنّ والتخشّب، وشيخَكَ - شيخَتَكَ - نفسه، مُوجِّهَكَ الديني.. الذي لا يُمكنه أن يَسْتَوْعِب، ماذا يعني أنك «تكتب»؟ و«لماذا»؟.. و«يخرب بيتك على هذه الفعلة السّوداء»؟ و«من هذا الذي دَسَكَ علينا لتكتب»!!؟

هل هناك بالنسبة إلى شابة مُتديّنة مُلتزمة في العشرين من عمرها، ما يُمكن أن يُكتب في غير أحكام الماء الطّهور والحيض والنّفاس وواجب المرأة في طاعة زوجها؟! هل هناك من شيء بالنسبة إلى شاب مُتدين مُلتزم في العشرينيات من عمره، يمكنه أن يكتبه خارج حدود المُرَبّع المخصّص والمنضبط لفهم الدّين وقواعده وأصوله وتاريخه، كما علّمه شيخه حرفياً لا زيادة ولا نقصان؟ إن هذا لشيء عَجاب!

ذهبت مع أسرتي إلى حمص لحضور عرس، فدعّنتي ابنة عمي لحضور حفل، أو مأت وهي تغمز لي بطرف عينها أنّه حفلٌ خاصٌّ جدّاً، تركتُ العرس وذهبتُ معها، خصوصاً أنّي أكره الأعراس ولا أطيعها، كانت أعداد الفتيات من الحضور في ذلك الحفل الخاصّ كبيرة جدّاً، كان حفلاً دينيّاً مهيباً، أُقيم لتكريم شابة في مثل عمري، قالوا إنّها ألّفت كتاباً!

كنْتُ هنالك جالسة بين الحضور، أتمعّن في وجه الشّابة

الكاتبة الكبيرة، وأُقلِّب صفحات الكُتَيْب الذي وزعوه علينا، والتي لا تتجاوز الثلاثين صفحة، يتحدث في الفقه أو في السيرة، والمعلمة «القائدة» تُبَالِغ في إمتداح الشَّابة إلى درجة لا يمكن إحتمالها.. حَمَلَنِي هذا الجَوَّ الحِمَصِيَّ العام - رغم أنفي - إلى «جَوِّي» الشَّاميَّ الخاصَّ!.. عندما أَتْتُ بي «شيختي» إلى بيتها، لتَسْتَجِوَنِي - هكذا حرفياً - بخصوص كتابي الأول الذي كتبه وطُبع في بيروت، وبحضور شيختين أُخريين مُراقبتين لا أعرفهما:

- من كتب لك هذا الكتاب؟؟ قول لي الحق، ولا تكذبي!

- أنا كتبه!

- أنت كاذبة! ومنافقة!

- يا «آنسة»⁽¹⁾ أنا كتبته..

- ثلاثمائة صفحة، وتقولين إنك كتبته، ووَحِدِكَ، وَلَمَّا تَفْقَسْ عَنْكَ الْبَيْضَةُ! لا يمكنك الكذب علينا بهذه الوقاحة! قول لي الحقيقة؟

- عندي أكثر من ألف صفحة مكتوبة غير هذا.. أنا أكتب منذ كنت في الخامسة من عمري، وحضرتك تعرفين هذا.

- أعرف أنك جيدة في الإنشاء، ولكن أن تكتبي كتاباً في ثلاثمائة صفحة! كيف طَبَعْتِه؟ وما أدراكِ أَنْتِ ما الكِتَابَةُ، وما الطَّبَاعَةُ؟

- أمي هي التي ساعدتني على البحث عَمَّن يطبعه، والسيد رضوان دعبول، صاحب «دار البشير» للطباعة والنشر، هو الذي تكفَّل بالأمر.

- لِمَ لَمْ تحدثيني عنه؟ ولمَ لم تقولي لي بأنك تُؤلفين كتاباً؟

(1) «آنسة» بمعنى أستاذة في الإستعمال الشعبي الدمشقي.

- أنتِ أوقفتِ الحَلَقَاتِ يا أستاذة، واستثنيّتي من الدّعوة إليها
لَمَّا عادتُ لِلإِنْعقاد!

- وعلى الرّغم من ذلك، كان يجب أن تتصلي بي أنتِ
وتُحدثيني عن أنكِ تُؤلفين كتابًا، الله أعلم بما كتبته فيه؟

- ألم تقرئيه يا أستاذة؟ لقد أتيتك به فور طباعته، عندما
وصلتني أول أربع نسخ منه، جئتُك بواحدة.. وقد أخذتها مني،
ورميّتها على الكنبه، وقلت لي: اذهبي الآن ثم نرى!

لماذا يكون التّكريم البالغ نصيب بعضهم، والشّكّ البالغ
نصيب آخرين؟ سؤالٌ بقيتُ أفكّر في جوابه طويلاً، أَقْلَبُهُ على
كُلِّ الوجوه المُمكنة! نحن أيضًا نتعامل مع بعضنا البعض، بآليات
تَعامُل عصابات الأمن معنا! بعضنا مدعوم، وبعضنا مَخْذول!
بعضنا مَدسوس والآخر مَنحوس! بعضنا ابن السَّيِّد والآخر
ابن الغَسَّالة، وعلى الرّغم من أنني كنتُ ابنة سادة من السّادة،
فلقد اعتُبرت - ولله ألفُ ألفِ حَمْدٍ ومِنّة - ودائمًا مَحسوبةً على
المَخْذولين والمَنحوسين وأولاد الغَسَّالات البشريّة!!

ربما.. لأنّ أولئك «المدعومين» يتحرّكون في الفلّك
المَرسوم لهم بِدقّة.. يدورون فيه لا يتجاوزونه، لا يخرجون
عن المَसार، تُصَبِّ كُلُّ جُهودهم المُقنَّنة في خدمة الجَوْقَة⁽¹⁾،
أما الآخرون من «المنحوسين» فقوانين الجاذبيّة «الأرضيّة»
و«النجوميّة» لديهم معطلة، يخرجون عن السّياق، وعن النّصّ،
ويأبون الدّوران في مدارات أحد.

إنه استنساخٌ لآليّة التّواصل بين الخالق والمخلوق، إنها بكلّ
بساطة علاقة الآلهة بالعبيد.. ومن حَوْلِ كَعْبَتِهِمْ يطوف الأرقاء

(1) في المعجم الوسيط: الجَوْقَةُ: الجَوْقُ. وفي المعجم الرائد: الجَوْقُ: كُلُّ
خَلِيطٍ من الرّعاء أمرهم واحد، والجوقة: الجماعة من الناس.

مُسَبِّحِينَ بِحَمْدِهِمْ، وَكَلَّمَا أَمَعْنُوا فِي التَّذَلُّلِ وَالْوِلَاءِ، تَصَعَّرُوا
وَارْتَقُوا لَدَى «الْأَرْبَابِ»!

من ذاق طَعْمَ حُرِّيَّتِهِ فِي الْعُبُودِيَّةِ لِلَّهِ، يَسْتَعِصِي عَلَيْهِ إِتْخَاذَ أَيِّ
«مَعْبُودٍ» غَيْرِهِ.. إِنَّهُ يَتَحَرَّرُ بِهَذِهِ الْعُبُودِيَّةِ مِنْ قَهْرِ كُلِّ أَنْوَاعِ الْأَرْبَابِ
الْمُرْتَفِقِينَ.

درسٌ بليغٌ تعلَّمته من جدَّتِي لَأُمِّي، العَجُوزُ الْأُمِّيَّةُ الْمَرِيضَةُ
الَّتِي لَا تَكَادُ تَبِينُ، رَأَيْتُنِي مَرَّةً فِي حَالَةِ هَيْجٍ، أَدْخَلَ وَأَخْرَجَ،
وَأَحْمَلَ صَوَانِي الطَّعَامِ الرِّمَاضَانِيَّ، أَوْصَلَهُ سَيَّارَةً رَفِيقَةً لِي فِي حَلْقَةِ
الدَّرْسِ الَّتِي أَحْضَرَهَا، كَانَتْ قَدْ أَتَتْ لِنَظَرِ فَنُورِ عَهِدِهِ عَلَى بَعْضِ
الْفُقَرَاءِ الْمُعْدَمِينَ فِي حَيِّ «الشَّيْخِ مُحْيِي الدِّينِ» الدَّمَشْقِيِّ.

سَأَلْتُنِي الْجَدَّةُ: مَا بَكَ يَا ابْنَتِي؟ صَلَّيْ عَلَى النَّبِيِّ، لَمْ كُلِّ هَذَا
الْإِضْطِرَابُ وَالْمَبَالِغَةُ فِي الْإِهْتِمَامِ؟

قُلْتُ لَهَا: سَيُؤَدِّنُ الْمَغْرِبُ يَا تَيْتَةَ، وَهَذِهِ صَدِيقَتِي أَتَتْ
بَسِيَّارَتَهَا لِتَأْخُذَنِي، وَيَنْبَغِي أَنْ أَقُومَ بِالْعَمَلِ بِشَكْلٍ جَيِّدٍ..

سَأَلْتُنِي مُسْتَنْكَرَةً: حَتَّى لَوْ أَتَتْ بِمُصَفَّحَتِهَا، تَشَرَّفْنَا بِهَا
وَبَسِيَّارَتِهَا، لَا يَسْتَحِقُّ الْأَمْرَ كُلُّ هَذَا الْإِضْطِرَابِ مِنْ جِهَتِكَ.. لَمْ
أَرَكَ تَكَثَّرَ ثَيْنٍ كَذَلِكَ لِأَحَدٍ مِنْ قَبْلِ.

قُلْتُ لَهَا مُبْررةً إِنْشِغَالِي وَإِهْتِمَامِي: إِنَّهَا ابْنَةُ وَزِيرٍ يَاجِدَتِي،
ابْنَةُ وَزِيرٍ!

فَمَا كَانَ جَوَابَ الْجَدَّةِ إِلَّا كَلِمَةً وَاحِدَةً: طُز!

أَمَامَ دَهْشَتِي الْكَبِيرَةِ جَدًّا، صَحَّكَتْ جَدَّتِي الشَّامِيَّةُ «أُمُ
يَاسِينَ» وَقَالَتْ لِي: طُزْ وَسْتَيْنِ طُزْ، «طُزْ» كَلِمَةُ تَرْكِيَّةٌ يَا تَيْتَةَ، تَعْنِي
«مَالِحٌ»، أَوْ تَعْنِي أَيُّ شَيْءٍ آخَرَ.. لَا ابْنَةَ وَزِيرٍ، وَلَا ابْنَةَ الرَّئِيسِ
الْجَحْشِ نَفْسَهُ تَسْتَحِقُّ مِنْكَ أَنْ تُعِيرَهَا كُلَّ هَذَا الْإِهْتِمَامِ بِسَبَبِ
مَنْصَبِ أَبِيهَا! نَحْنُ لَا كَبِيرَ عِنْدِنَا غَيْرَ اللَّهِ.

تلك «الطرز».. كانت أبلغ صدمة فكرية أخلاقية سلوكية عرفتها في حياتي! غيرت مجرى اهتمامي بالناس من حولي، وطريقة رؤيتي إلى نفسي وإلى الآخرين.. ولم يعد عندي من كبير منذ ذلك اليوم إلا الله.

أَحَدَثْتُ «فَرَمَلَةً» فِي سِيرِي فِي اتِّجَاهٍ خَطَأً.

عَرَفْتُ وَتَعَلَّمْتُ هذه الحقيقة من قَبْلِ مع أُمِّي وَجَدِّي الشَّيْخِ، لكن جدتي «أم ياسين» رسّختها في ذهني عن طريق تلك الصدمة اللُّغَوِيَّة الأخلاقية..

طرز! وستين ألف طرز! لأحد، ولأَيِّ شيء، يستحق أن نهْدِر بسببه شيئاً من كرامتنا، في لحظة إعجاب، أو إنبهار، أو اهتمام فوق العادة.

يكاد خوف الشباب في الشَّام من سوء ظنِّ النَّاسِ بِهِمْ وسوء معاملة المُجْتَمَع لَهُمْ، يوازي الخوف من التَّعْذِيب والإعتقال الحاضرين في حياتهم، هكذا يعيش مئات الآلاف من الشباب الغاضبين الثائرين ضدَّ النَّظام، إسلاميين كانوا أم يساريين، أم قوميين عرباً وكرداً، أو من أيِّ انتماء لا ترضى عنه قُوَى الأمن في سوريا..

لقد بلغ الخوف من الإعتقال والتَّعْذِيب حَدَّ أنني وفي كُلِّ سَجْدَةٍ في صلواتي، كنت أطلب إلى الله أن لا أُمْتَحَن بثلاث: السَّجْن والإغتصاب وذكِر أسماء من أعرف من الأُخُوَّة والأصدقاء والأصحاب والأقارب الأبرياء.. فَيُبْتَلُون بسببي بما أعلم، وما لأعلم.. وإذا كنت أنا نفسي لا أدري ما التَّهمة التي يمكن أن أُعْتَقَلَ بسببها، إلا الكتابة عما نعيشه من ظُلم وفساد وإجرام وأوهام!

وسواءً كتبتَ عن عَفَنِ المُجْتَمَعِ الذي نعيش فيه، أو عن
تَوْخُسِ السُّلْطَاتِ التي تحكمنا.. فلقد كانت ثنائِيَّة الرُّعْبِ ولَجَمِ
الحياة في عُروَقك.. حاضرة تُهَيِّمِن على حياتِك.

لم يكن هذا الأمر نُكْتَةً.. كان ذلك طريقة حياة، موضوع
نسيان الأسماء كان أحد أوجْهها، كما أحد الأمور التي وصلت ما
بين أمسي ويومي في غُرْبتي، ضَمِن هذه الجالية الصغيرة المُغلَقَة
على عَذَاباتها، وذكرياتِ الأوطان والأهل، التي خلفها النَّاسُ
وراءهم، في رحلتهم نحو ما ظنَّوه حُرِّيَّةً وانعتاقًا، كشفت لنا الأيام
أننا وعندما خرجنا من تلك الأرض، كان مُعْظَمنا قد حملَ معه
بَذْرَةَ الإِسْتِبْدَادِ الشَّيْطَانِيَّةِ، التي بدا أنها كانت مزروعة في أحشائنا،
تنمو مع نمو الجاليات وتكاثر أعدادِها، وما كنا نظنه تحررًا من
قيود الدَّوْلَةِ المُسْتَبَدَّةِ والمُجْتَمَعِ المَعْطُوبِ، انقلَب في غُرْبتنا إلى
إِسْتِرْقَاقٍ لا يرحم، لبعضنا البعض، وجحيمٍ معاركٍ إجتماعية لا تهدأ
ولا تُهادِن في عُمقِ البُعدِ الزمانيِّ والمكانيِّ الجديد الذي أصبحنا
فيه.

جَوْ مُلْتَمِّمٌ مُتَنَافِرٌ، وبِكثير من حذافير عَفَنِه وُضُمُورِهِ، وتَخَلُّفه
وَإِسْتِبْدَادِهِ، تطلُّ برأسها طوال الوقت، مُتَجَلِّية في قدرة الناس -
كلِّما إِسْتَطَاعُوا - على قَمْعِ بعضهم بعضاً، والشَّكِّ في بعضهم
بعضاً، ومحاولاتِ الإِسْتِلَابِ أو الإِسْتِحْوَازِ والتَّنَمِرِ على بعضهم
بعضاً، جَوْ مُصَغَّرٌ مُسْتَنْسَخٌ عَمَّا كُنَّا نعيشه في أوطاننا، من عاداتٍ
وتقاليد وأنماطٍ فكريَّة وسلوكيَّة وأخلاقيَّة مَرَضِيَّةٍ تَالِفَةٍ، جَوْ موبوءٌ
بكلِّ شيءٍ إلا بالكرامة والحُرِّيَّة، على الرَّغم من الهجرة، التي كان
من المفروض أن تعني فيما تعنيه، البحث عن شيء من الكرامة
وشيء من الحُرِّيَّة!.. حيث بدا واضحاً أنَّ كَلِمَةَ «الإنْعِتَاقِ»،
لا تتعلق دائماً بالسُّلْطَاتِ الحاكمة المُسْتَبَدَّة، بل بالمجتمع كذلك..
وبالأُسرة، وإِسْتِبْدَادِها بالابن، الذي خرج من بلده في حالاتٍ

كثيرة ليتخلص من عبء عقوق الوالدين، بسبب استحالة تفاهمه
معهما على كثير من شؤون حياته، أو بالابنة التي اضطرت للزواج
برجل لا يجمعها معه أيُّ مُشترك، لتتخلص من تعيير المُجتمع لها
بالعُنوسة.. أو بالشاب الذي رمى بنفسه إلى دولة أجنبية لينجو من
الاختناق في جو أسرة تريد أن تُرغمه على عمل لا يريده، أو دخول
فرع جامعي لا يحبه.

الإستبداد لم يكن أمرًا خاصًا بالأنظمة الحاكمة في بلادنا،
كان مرضًا عُضالًا تعاني منه مجتمعاتنا وأفرادها.

استبدلنا في غربتنا.. باستبداد الأسرة وتَعَسُفها إستبداد
«الجالية» وتَعَسُفها، وتَنَطُّع «الشَّيخ» وتَطْفِيفه، بِنَتَطُّع «مجموعة
العمل الإسلامي» وتَطْفِيفها.

تلك واحدة من أكبر المَحَن التي عَشَتْها في غرناطة ثم في
مدريد، ولم أكن أعلم أنها ستمتد معي إلى ما يُشبه اللانهاية!



تركنا غرناطة إذاً، وما كدنا نفعل.. وجئنا مدريد للبحث
عن عمل في مستشفياتها التي كانت تشهد تطورًا مُطردًا، وتطلُّب
أعدادًا كبيرة من الأطباء في تلك الأيام، كما لتلتحق بناتنا
بالمدرسة العراقية أو الليبية الموجودتين فيها.. ولم يتحقق أيُّ من
الأمرين، فلا اشتغل أبو الأولاد في أيِّ من هذه المستشفيات، ولا
رَضِي دخول أولاده في هذه المدارس، التي كان يقول إنها تحمل
فكر «البعث» الإجرامي المُجرَّم، أو فكر القذافي المُختل وكتابه
الأخضر.

قال: لقد حُرِمنا العودة إلى بلادنا بسبب هؤلاء القتلة، لا
لِنُسَلِّم إليهم أولادنا فيصيغوا عقولهم كما يريدون.

لا أدري.. هل كُنَّا قد ارتكبنا غلطة لا تُغفَر، أم أنَّ ما فعلناه

كان عين الصواب؟ ففي واقع الحال وعلى الرغم من سيطرة بعث صدام وجماهيرية القذافي عليهما، لم تكن تِلْكَمَا المَدْرَسَتان تُعَلِّمان التلاميذ مناهج البعث العراقي ولا نظريات الجماهيرية الليبية بحذافيرهما، كان الأساتذة ومُعْظَمُهُم من المهاجرين الفارين من حُكْم الرّجلين المُتَوَحِّشِينَ، يُعَلِّمون الأولاد ما يُمكنُهُم ممّا تُملِيه عليهم ضمائرهم، واحتياجات الأولاد في الغربة، وواقع الحال في إسبانيا.

في مدارس مدريد العربية كان خروج المُعلِّمين عن النّصّ هو القاعدة، على الرّغم من أن جدران المدرستين، - قد غصّت بأقوالٍ وصُور القائِدين المرذولين.

المناهج المفروضة من قبل حكوماتنا العتيدة، مناهج قميّة، متخلفة، تخدّم الأنظمة، وتؤلّله المُستبَدّين، تارة باسم القوميّة، وتارة باسم الإسلام، وأخرى بأسماء مُستترةٍ لِلجنون! كانت مناهج مُعدّة بشكلٍ مَدْرُوس، لتعطيل القدرة لدى الطلبة على التّفكير والنّمو العقليّ الإنسانيّ الطبيعيّ للبشر، وكان على المُعلِّمين ذوي الضمائر الحيّة، أن يتصرفوا ويتخذوا التدابير التعليميّة اللازمة، لإيصال مثل هذه المناهج المُوغلة في الارتكاس، إلى تلاميذ يعيشون في مدريد نهاية القرن الميلادي العشرين.. قاموا بمهمة شائكة شاقّة، وأنجزوا عملاً صعباً، وخرّجت تلك المدارس أعداداً لا يستهان بها من خيرة شباب وشابات مدريد، دخل معظمهم كليات الطبّ والصيدلة، وكانت نسبة البنات بين هؤلاء كبيرة جداً.

ترتّب عن امتناع أبي الأولاد عن العمل في المشافي الحكومية المدرّية، وعدم التّحاق أولادنا بتلك المدارس العربيّة، الكثير من الأمور التي غيرت مجرى حياتنا، وجعلتنا أسرة تعيش في تنقّلٍ دائم، وغربة - مُضاعفة عن معظم من حولنا

من أبناء الجالية، لم تكن تُعجِبُهُم القرارات التي تَتَّخِذُهَا بِصورة مُغايرة بِشكلٍ جذري لِكُلِّ قناعاتِهِم في هذه الحياة، ومنها قرار إلحاق البُنَيَّات بالمدرسة الإِسبانيَّة، أو على وجه الدِّقَّة بالمدارس الإِسبانية، فلقد اضْطُرُّرنا إلى تغيير تسع مدارس خلال بضعة أعوام، وكانت أَسْرُّ قليلة جدًّا في مدريد تلك التي اتَّخذت هذا القرار «الخطير» من وُجْهَة نظر معظم أبناء الجالية! فمعظم من نعرف من إخواننا، ألحقوا البنات بالمدرستين العربيتين الوحيدتين آنذاك في مدريد، وألحقوا الذكور بالمدارس الإِسبانيَّة، حيث كان - وما زال - الخوف على الأعراض أكبر بكثير جدًّا من الخوف على اللِّغَة أو العقيدة أو الدِّين.

مُعضلةٌ كبيرة كانت هذه، وكانت المسألة الأولى التي اِحْتَدَمَتْ بسببها الخلافات بيننا وبين عدد كبير من الإخوة - والأصحاب في مدريد.. كان مُصطلح «الشَّرَف» يتطابق في أذهان معظم النَّاس مع مُصطلح «الدِّين»، والمَعْنَى بالشَّرَف هي «الأنثى» فقط، وليس الذَّكَر!

وهكذا بالضبط حَدَّثَ الخلط ما بين مُصطلحَي «الإِلْتِزام»، و«المُحافظة»!.. اِختلط الحابل بالنابل.

كان «المحافظون» من أبناء الجالية أعمق وأشدَّ تَمَسُّكًا بالعادات الإِجتماعيَّة، من «المُلتزمين»، بل لقد بَدَّوْنا - نحن الذين نعتبر أنفسنا من الملتزمين - شِبْه «مَتَحَرِّرين» مُقارَنة بِتَمَسُّكِ «المحافظين» من أصحابنا بحذافير التَّقاليد العامَّة للسلوك والأفكار المعروفة في بلادنا!

الإِلْتِزام بالدِّين حقيقةٌ لا وِراثة، وفعلاً لا قولاً، يمنح المرء هامِشًا كبيرًا جدًّا من القدرة على النِّمو الإِنساني، بما يعرفه يقينًا عن دينه وحضارته وتاريخه، مما يُمكنه من طرح الأسئلة الضروريَّة على نفسه وعلى الجالية التي ينتمي إليها في غربته، وعلى مجتمعه

في وطنه، في الوقت الذي يرفع من سَوِيَّة جاهزِيَّتِه للتعامل مع
«الآخر» المُضَيِّفِ تَعَامُلَ الأنداد.

كان «المحافظون» من جالِيَّتِنَا، يَتَشَبَّثُونَ بما نشأوا عليه،
مَخَافَةً أَنْ يَضِلُّوا طَرِيقَهُمْ وَسَطَ أَدْغَالِ جَهْلِهِمْ بالإسلام.. وكانت
درجة جهل المسلمين بدينهم في غربتنا مخيفة.

كنا نراوح ما بين أقصى اليمين «المُتطرف»، وأقصى اليسار
«المُلتزم»! في جالية مُسْلِمَةٍ⁽¹⁾ معظمُ أفرادِها ينتمون إلى فئة
«الوَسَطِ المحافظ»!!

عن الانتماءات الإسلامية - في جالياتنا المغتربة أتحدث
بعيداً عن السِّياسة.

أَنْ يَخْتَلِطَ ابْنُكَ الذَّكَرُ بالإسبان، وَيَذُوبَ بِشَكْلٍ كبير جداً في
المُجْتَمَعِ الإسباني، فيَشْرَبُ الجعة، ويخالط النساء فيتورط في
المحرمات، ولا يُصلي إلا أمام الآخرين، وعندما تَصْطَحِبُهُ معك
إلى المسجد أحياناً، كُلُّ هذا لا يُعَدُّ إثماً فردياً واجتماعياً مخيفاً..
أما أَنْ يَحْدُثَ عُسْرُ هذا مع «ابنتك الأنثى»، وَأَنْ يُفْتَضَحَ الأمرُ
بين النَّاسِ.. فإِنَّكَ هي الطَّامَةُ الكُبْرَى، التي يَحْرُسُ الجميع على
تلافيها عن طريق حماية البنات بما يستطيعون، وَغَضَّ النَّظْرَ عَنْ

(1) وَصَفْتُ الجالِيَّةَ بـ«المُسلمة»، لأنَّ «الثقافة الإسلامية»، هي القاسم
المُشْتَرَكُ بين جميع أفرادها الآتين من المنطقة العربية، من عَرَبٍ وَتُرْكٍ
وَكُرْدٍ وَأمازيغ، من — مسلمين ومسيحيين، ومُلاحدين، ومن جميع
الانتماءات الدينية المعروفة في منطقتنا.

و«الأمازيغ»، هم العِرْقُ البشري الذي ينتمي إليه معظم سكان شمال
وغرب إفريقيا، والذين يُدْعَوْنَ في بعض المراجع «البربر»، ولهم ثقافتهم
ولغتهم الخاصة بهم، وإليهم يُنسَبُ «طارق بن زياد» فاتح شبه الجزيرة
الإيبيرية، و«يوسف بن تاشفين» أمير دولة المرابطين التي ضمت الأندلس
والمغرب.

البنين، وعدم المبالاة بأوضاعهم، إلى حدّ تضييع كثير من أبناء المهاجرين الذكور.



لدى وصولنا مدريد، التّفّ حولنا وقام بمساعدتنا بعض إخواننا، من السوريين والفلسطينيين والمغاربة والجزائريين والمصريين، من عامة أبناء الجالية المسلمة في المدينة، مدّوا إلينا أيادي النّجدة في هجرتنا تلك، كانوا طوّق نجاة وأخوة ومحبة، رأينا منهم الكثير من التّلهّف، على العكس ممّن نعرفهم ويعرفوننا شخصياً وتجمّعنا بهم أخوة وثيقة العرى، ممّن كنا قد تقاسمنا معهم من قبل في غرناطة، الخبز والفلول المدمّس، وقصر الحمراء، والعمل الإسلامي، ومباريات كأس العالم في إسبانيا!

كثيرون يُظهرون لك المودة ما دُمّت هناك بعيداً، أما إن أصبحت قريباً منهم، معهم.. اختلّفت مقاييس الحبّ والودّ، وحلّت محلّها مقاييس بشرية أخرى!

من غرناطة، بقيت لنا مودة المسناوي والعبودي⁽¹⁾ وغيرهما من الإخوة - الأبناء، من الشباب المغاربة الإسبان، مودة لازمتنا قمرًا مضيئًا طوال حياتنا، أينما حللنا وارتحلنا، جمعنا بهما ما هو فوق الأخوة، وما هو أكبر من روابط الدّم، وأعمق مما يجمع الغرباء، تغلّبت علاقتنا بهؤلاء الإخوة من الإسبان - المغاربة، على عوامل الزّمن، وخلافات الرّأي، وبُعد الشّقة والسّفر والتّقلّ الدّائب، والخصامات التي تُحدّثها كلّ علاقة وثيقة عادة.

لا تخلو الحياة على مرارتها ونصيبها، من مباحج أسرة، منها،

(1) الدكتور الطيب علي المسناوي الطنجاوي - رحمه الله - أحد أعلام العمل الإسلامي ما بين المغرب وإسبانيا، والدكتور حسن العبودي، أحد وجوه المجتمع في مدينة مليلة التابعة للإدارة الإسبانية.

أَنْ يَرُزِقَكَ اللهُ بِأَخٍ تَحْرِصُ عَلَيْهِ فَيَحْرِصَ عَلَيْكَ، تَبْدُلُ مُهْجَتَكَ مِنْ أَجْلِهِ فَلَا يَنْسَى لَكَ ذَلِكَ أَبَدًا.. كانوا معنا في كُلِّ مِحْنَةٍ، وفي كُلِّ فَرْحٍ، وفي كُلِّ تَعَبٍ وَنَصَبٍ، حملوا معنا، وحملوا عنا.. كانت تلك المجموعة الغرناطية، أُسْرَتْنَا الثانية التي اضطررنا للهجرة إلى مدريد، وتركها في غرناطة، ولكن كُلٌّ مِنْ فِيهَا لَمْ يَتْرَكْنَا، إِلَّا النُّدْرَةُ الَّذِينَ غَيَّرَتْهُمْ الْأَيَّامُ أَوْ غَيَّرَتْنَا.

إنها رحلة الأعمار التي لا تُبْقِي فِي يَدَيْكَ صَلْبًا، إِلَّا الْمَاسَّ الْعَتِيقَ الصَّافِي الْمَصْقُولَ.

في مدريد، لم يكن الأمر كما كان عليه في غرناطة.. كان لعلاقات النَّاسِ - ناسِنا، فيما بينهم، حسابات مختلفة وقواعد غريبة.. لم تكن الأخلاق هي الحَكْمُ الذي يُدِيرُ سُلُوكَ أَفْرَادِ الْجَالِيَّةِ مع بعضهم البعض، وَلَا تَعَامُلِهِمْ مع مَنْ حَوْلَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْبَلَدِ.. كان غِيَابُ «الأخلاق» مِنْ حَيَاتِهِمْ كَجَالِيَّةٍ عَرَبِيَّةٍ مُسَلِّمَةٍ.. ذُو صَخْبٍ وَضَجِيجٍ!

بدأت الخِيبَاتِ بَاكِرًا، خِيبَاتُ الْأَمَلِ فِي كَثِيرٍ مِمَّنْ «يَقُولُونَ» إِنَّهُمْ يُمَثِّلُونَ الْإِسْلَامَ فِي الْغَرْبِ وَيَحْمِلُونَ هَمَّهُ وَهُمُومَ الْمُهَاجِرِينَ مِنْ أَبْنَائِهِ. كَانَ يُمَكِّنُ لِلْمَرْءِ أَنْ يَرُصِدَ بِجَلَاءٍ، ذَلِكَ الْإِنْفِصَامَ الْبَشْعَ بَيْنَ الدِّينِ وَالْأَخْلَاقِ، وَبَيْنَ الْعَقِيدَةِ وَالْمَعَامَلَاتِ.

الأواصر التي كانت تجمع معظم أفراد الجَالِيَّةِ القليلة العدد في مدريد العقد الثامن من القرن العشرين، لَمْ تَمَرَّرْ وَتَتَوَقَّعْ مِنْ خِلَالِ مُعَادَلَتِي الْأُخُوَّةِ - وَالْهُوِّيَّةِ، بِقَدْرِ مَا كَانَتْ تَتَفَتَّتْ وَتَتَشَطَّى تَحْتَ مَقَارِضِ طَاحُونِ ثَنَائِيَّاتِ «الْغَنِيِّ وَالْفَقِيرِ»، «ذُو الْحَسَبِ وَالتَّبَاهِي وَذُو التَّمَسْكَنِ وَالتَّذَلُّلِ»، «الْخَسِيسِ الرَّذِيلِ الْمُتَفَحِّشِ اللَّئِيمِ وَالْخُلُوقِ الْمُتَوَاضِعِ الْحَلِيمِ»، وَلَكِنْ فَوْقَ هَذِهِ وَتِلْكَ، كَانَتْ عِلَاقَاتُ أَفْرَادِ الْجَالِيَّةِ الْمُسَلِّمَةِ تَمَرُّ وَبِصُورَةٍ رَئِيسِيَّةٍ، عَبْرَ مَفْهُومِ «الْمَسْئُولِ وَالْمَسْئُولِ عَنْهُ»، «التَّابِعِ وَالْمَتَّبِعِ»!

بعض هؤلاء «المسؤولين» كانوا يقومون بجهود ضخمة لحماية حقوق الجاليات ورعايتها، والإشتغال بتسوية أوضاعها القانونية لدى الدول الغربية، قائمين على خدمة وجودها الناشئ في أوربا، لا ينكر فضلهم إلا جاحد، أفنوا شبابهم وأوقاتهم في إنجاز المهمة التي حملوها.. لكن مهمتهم تلك، شُفِعت بعد سنوات بوظيفة أخرى إبتدعوها ومن حوّلهم، بدت.. وكأنها البقاء في «الكراسي» على رأس تلك «المساجد - المراكز الثقافية»، التي صارت لاحقاً مؤسسات مُتَشَعِّبة، فُصِّلَت فيها المهمات والمسؤوليات، وحيء من بلادنا ببعض «الأئمة» المُبتَغِثين من قبل بعض الحكومات العربية، للخطابة والصلاة بالناس، وإنفاذ عقود الزواج والطلاق، نَدَرَ فيهم من كان يُجيد الوعظ والتعليم الديني، لا علاقة لمهمتهم - التي وُظِّفَ معظمهم فيها بالواسطة -، بِمهمة أولئك «الدعاة - المسؤولين».. حيث الفكرة المنتشرة بين جمهور الجاليات التي تلوذ بالمساجد في أوربا، وأينما يَمَّتْ وَجْهَكَ، أنه لا يستقيم وجود هذه المؤسسات الناشئة إلا بوجودهم، فَهْمُ «المؤسسون»، وهُم أصحاب الفضل، وهم «الرأس»، لا يمكن أن تستمر تلك المؤسسات إلا بأشخاصهم، ولا يُتَوَقَّع تفاهمها مع الدول «المضيفة» إلا من خلال جهودهم التي يصفونها هُم ومن حولهم بأنها «جَبَّارة»!!

و..كلّ ذلك في سبيل الله وخدمة الإسلام والمسلمين!!

«هُم».. أو «لا أحد»، «هُم».. أو يحترق العمل كلّه وينهار على رؤوسنا! عَقِمَت بعض المؤسسات الإسلامية في الغرب، عن إنجاب الأشخاص المختصين المؤهلين لحمل هذه المسؤوليات التي يحملونها.. كما عَقِمَت مجتمعاتنا عن إنجاز ذات المهمة في الوطن!

«الاستثمار بالسلطة»، والعُضُّ عليها بالنواجز.. مُصيبة

ومَرَض «عربي» مُعاصراً شديداً الخطورة، عملت على ترسيخه
السُّلطات الحاكمة المُستبدّة، كما عمل على ترسيخه كلّ أصحاب
السُّلطات الاجتماعيّة والاقتصاديّة والدينيّة المختلفة داخل البلاد
وخارجها.. بقيّ الأشخاص أنفسهم في كراسي مسؤولياتهم،
ومن جميع الهيئات الإسلاميّة المهاجرة - وفي مختلف بلدان
أوروبا-، وعلى اختلافها ومشكلاتها البينيّة وتنوع مشاربها، من
«وطنية» تابعة لبعض الحكومات العربيّة وأجهزة إستخباراتها، أو
من «مستقلة» ترتبط مباشرة بحكومات وأجهزة إستخبارات الدُّول
المُضيفة.. بقوا في كراسيهم تلك، المصنوعة من أوهامهم وأوهام
من حولهم، بالضبط، المُدّة نفسها التي بقي فيها حكامنا مُلتصقين
بكراسيهم في بلادنا.

باقون فيها إلى الأبد، وحتى الموت، موتهم أو موتنا!

هنالك.. نشأت أولى بؤادر الخلافات والانشقاقات في
هذه المؤسّسات، والتي كان أخطر ما فيها أن بعض «الثّائرين»
عليها و«المُنشقين» عنها، كانوا يتصرفون بدوافع الأنانية والانتصار
لذواتهم وانتماءاتهم الوطنيّة والقوميّة، أو مناطقيتهم وأحياناً
أنسابهم ومصالحهم الشخصية.

«التّشبث بالكرسي».. مَرَضٌ عُضال، سرطانٌ مُتفشٍّ بين
الجميع، لم يكن وفقاً على العمل الإسلاميّ والإسلاميين
وحدهم، كان بصمة خاصة بكل المهاجرين من المنطقة العربيّة من
عربٍ وكُرْدٍ وأمازيغ وغيرهم، في كلّ مؤسّساتهم في ديار الغرب،
السياسيّة والدبلوماسيّة والثقافيّة والدينيّة.

لا تعيننا المؤسّسات التّابعة لحكوماتنا مباشرة، والتي دَفَع
باتّجاه إنشائها مع المُنشقين، النّظام السوري - من بين كل الأنظمة
العربيّة - ليُلحَق بالسّوريين في منافعهم، ويُبذّر فيما بينهم مزيداً
من الشّقاق والخلاف ويستأنف حربه عليهم، فتأسّست «النوادي

الإجتماعية السورية» في مختلف العواصم الأوروبية المهمة، والتحق بها بعض مهاجري الجيل الأول وخصوصاً من الأطباء والتجار، وكل من لا يريد أن يُوصم بالإسلامية! وعُدَّ كل من انتسب إليها مؤالياً لنظام الحكم في بلده، أو ساكتاً عنه، سواء كان سورياً أم غير سوري! بعكس المؤسسات الإسلامية - التي افتتحها السوريون والفلسطينيون باديء الأمر - وعومل كل من لاذ بها على أنه مُعارض «خطير»! سواء جاء من سوريا أم من المغرب، أم من فلسطين، أم من العراق، أم من العراق، أم من العراق.

«عُدَّ»، و«عومل».. هنا إعلان ساري المفعول مبنان للمعلوم قطعاً، من قبل أجهزة المخابرات الإسبانية، وأذبال أجهزة الاستخبارات العاملة في السفارات العربية، وكل من يتعامل بالشأن العربي والإسلامي في العواصم الغربية الرئيسية، سياسياً أو ثقافياً أو اقتصادياً.

ما يعيننا ويُورقنا، هو وضع المؤسسات الإسلامية الأهلية، التي كان يُنتظر منها أن تثبت أنها مؤسسات شعبية، وُجدت لخدمة الناس بالطريقة التي تُرضيهم، خصوصاً أن القائمين عليها يعيشون ويشغلون في أعمال بالغة الضرورة للجالية.. مثل افتتاح وتنظيم وإدارة شؤون مدارس نهاية الأسبوع لأولاد المهاجرين، يتعلمون فيها شيئاً من العربية وشيئاً من الدين، ومثل حصص التعريف بالإسلام، للراغبين من أهل البلد في التعرف عليه، كما يقوم الطلبة بتخصيص حلقات لتعليم مبادئ الإسلام الأساسية للمسلمين من الإسبان، ومعظم هؤلاء من النساء المتزوجات من الشباب المسلم في الغرب.. وعلى رأس هذه النشاطات تأتي دورات تعلم اللغة لمن يطلب ذلك من الإسبان، مسلمين كانوا أم غير مسلمين.

وكان هذا هو الحال عينه، في كافة الدول الأوروبية، التي «استقبلت» تلك الهجرات الأولى، التي خرج أصحابها فارين

بأنفسهم وأعراضهم ودينهم، من براثن الوحوش، في كل من سوريا وفلسطين.

أضف إلى هذه المهام التعليميّة، الخدمات المعيشيّة، كتوفير اللحم الحلال وبعض الأطعمة الوطنيّة التي لا يمكن للمرء أن يجدّها في مدريد الثمانيّات والتسعينات، طبعُ مواقيت الصلاة، ترجمةُ كُتُبٍ بسيطةٍ صغيرة تُعرّف بالإسلام باللغات المحليّة، إجراءُ عقود الزواج والطلاق، إصدارُ شهادات الوفيات والولادات، إدارةُ هذه المؤسسات والقيام عليها والعناية بها وحمايتها، إجراءُ المباحثات المُضنيّة مع الدّول «المضيقة»، لتوفير الأجواء المناسبة والقوانين اللازمة لحماية ما يُمكن من حقوق المسلمين في أوربا.

ارتبطت حياة القائمين على هذه المؤسسات، بطريقة حيويّة مُعقّدة، بهذه الخدمات الجُلى التي يُقدمونها للجاليات، وأصبحت تلك طريقة حياتهم الخاصة والشخصيّة، فلا يُخرجُهم ممّا هم فيه إلا «مُجرم»! ولا يَجْرُو أحد على استبدالهم أو صَرْفِهم، وهم بدورهم، لم يتركوا لأحد - غيرهم - أي فُسحة للقيام بشيء من هذه الأعمال، التي تَسَنِّموها واحتكروها، و«تسلطوا» على النَّاس بها، أدبيّاً واجتماعيّاً ودينيّاً.

وأيّ سُلْطَة أخطر من هذه، التي تَسْتَخْدِم «الدين» لِلْهِمَنَة على عباد الله، إنها تكاد تُضاهي سُلْطَة الاستبداد العسكريّ، الذي يعتمد القوة لقمع النَّاس وسياسَتِهِم.

يخشاهم النَّاس في الجاليات اللائذة بالمساجد، باعتبارهم كُبرائهم ومُرشديهم وأئمّتهم، يعملون لِرأيهم فيهم ألف حساب، يَسْرُهم رضاهم عنهم، ويؤلّمهم تصديقهم لما ينقله لهم بعضهم عن بعضهم الآخر! شكّلوا من حيث يَدرون ولا يَدرون، ويُرِيدون أو لا يُرِيدون، سُلْطَة اجتماعيّة مُستحدّثة في المهاجر، سُلْطَة

«سيطروا» بها «معنوياً» على النَّاس في غُرْبَتِهِمْ، في هذه المجموعة الكبيرة التي تدعى «الجالية المسلمة».

كثيرٌ مِمَّن يَمْتَلِكُون «السُّلْطَةَ الدِّيْنِيَّةَ»، ومهما كانت بسيطة، يَظُنُّون أَنَّهُمْ يَمْتَلِكُون قُلُوبَ النَّاسِ وَأَشْوَاقَهَا، وَيَدَّعُونَ أَوْ يَظُنُّون أَنَّهُمْ يُدِيرُونَ عِلَاقَتَهُمْ بِرَبِّهِمْ وَبِكِتَابِهِ وَبِحِجَّتِهِ وَنَارِهِ، يَعْرِفُونَ أَسْرَارَ النَّاسِ وَدَوَاحِلَ أَنْفُسِهِمْ وَمُشْكَلاَتِهِمْ وَمَكَائِمَ ضَعْفِهِمْ وَقُوَّتِهِمْ.. وهذا لَعَمْرِي سِلَاحٌ سَطْوَةٌ إجْتِمَاعِيَّةٌ مَا بَعْدَهَا سَطْوَةٌ! لَمْ يَنْجُ مِنْ شَهَوَتِهَا وَالسَّقُوطِ فِي مَهَاوِيهَا، إِلَّا النَّدْرَةُ الْمُؤَفَّقَةُ.

إنه الوجه الآخر القاتم، لهذا العمل ذو النواحي المشرقة، والذي يُدْعَى بالعمل الإسلاميّ، بِالْبَغِ الأهمية والضرورة في الغرب.

هذه هي الحال في مدريد، وبرشلونة، وغرناطة، وألكانتة، وبلنسية، وفي معظم المدن الإسبانية، حيث إِفْتَتِحَتْ مراكز أو جمعيات إسلاميّة - لاحقاً، وهي الحال عينها السائدة في لندن، وفي باريس، وفي ميلانو، وفي مُعْظَمِ المدن الغربية أنى وُجِدَتْ مؤسّسة إسلاميّة - لخدمة الجاليات المهاجرة.

كانت أعداد الطلبة من الوافدين الأوائل إلى مدريد وغرناطة على وجه التّخصيص، هي الغالبة أيام الثمانينيات، على قِلَّتِهِمْ، وكانت أعداد العمال صغيرة جداً، كنا في غرناطة ثلاث أو أربع أُسَرٍ سوريّة ممن أعرَفَهُمْ، مابين طبيب ودارس للطبّ أو الصيدلة. وخمس أُسَرٍ مغربية جميع أفرادها من الطلبة في كليات الطبّ والصيدلة والفيزياء في جامعة غرناطة، ومن أعلى الطبقات الاجتماعيّة في المَغرب القريب المُحاذي لإسبانيا، لم تكن الهجرات العماليّة الاقتصاديّة، قد بدأت بالتدفق على البلد، لتحمل معها المهاجرين من أبناء قاع المُجْتَمَعات المَسْحُوقَة في بلادنا، شرقها وغربها، ولم تكن إسبانيا قد شهدت حقبة الطفرة

الإقتصادية الهائلة، التي جعلتها قِبلةً للمهاجرين، بعد عقود من الزمان، كان الإسبان فيها هم الذين يهاجرون خارج بلادهم، طلباً للرزق والحرية والمستقبل الكريم.

تَسَنَّم الطلبة من المُتَدَيِّنِينَ والمُحَافِظِينَ العمل الإسلاميّ، قاموا به وأنشأوه ورَسَخُوا قَوَاعِدَهُ، ثم.. استبدوا بالسُّلطة المُطلقة عليه.

«مُستَبَدُّون» ضَيَّلُون مُتَنَكِّرُونَ بِأَسْمَالِ ثَوْرَةٍ عَلَى الاستبداد الذي عاشوه في بلادهم وأَسَرِهِم، تَسَبَّيُوا بِاسْتِبدَادِهِم هذا، في دفع العمال والطلبة من الشباب القادمين من بَعْدِهِم، لِلإِعْتِرَاض ومُحاوَلات التَّغْيِير، التي باءت بالفشل، لأن معظم هؤلاء، كانوا مُتَمَتِّرِينَ وراء أهواء ووشائج خاصة، يُحَارِبُونَ بِهَا أَهْوَاءَ ووشائج آخرين!

خَلَطَةٌ مُتَفَجِّرَةٌ فِي قَلْب «العمل الإسلاميّ» فِي أُرْبَا عَلَى هامش غُرْبَتِنَا فِيهَا، صَرَاعَاتٌ بَشْعَةٌ وَغِيبِيَّةٌ عَلَى كَعَكَةِ سُلْطَةٍ «مَعْنَوِيَّةٍ» نَوْكَاء⁽¹⁾، كَانَتْ تَتَمَدَّدُ مَعَ نُموِّ الجاليات، وَتَكَثَّرَ أَعْدَادُ المهاجرين والوافدين والمولودين فيها.. وبدأ العمل الإسلاميّ بالتَّحَوُّل، مِنْ كونه عَمَلًا تَطَوُّعِيًّا دِينِيًّا لخدمة النَّاسِ، إِلَى عَمَلٍ إِجْتِمَاعِيٍّ رَسْمِيٍّ، لِإِدَارَةِ شُؤُونِ الجاليات المسلمة، وَلِلتَّحَكُّمِ فِيهَا كَذَلِكَ، قَدْرَ المُسْتَطَاع.

بعض النَّاسِ يَحْتَاجُونَ إِلَى العِيشِ فِي ظِلِّ سُلْطَةٍ يَتَّقُونَ بِهَا، وَآخَرُونَ يُرِيدُونَ الوُصُولَ إِلَى أَيِّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ التَّرْعَمِ وَالتَّرُّوسِ، حَتَّى لَوْ كَانَ ذَلِكَ عَلَى كَوْمَةٍ مِنَ التَّيْنِ الْمُتَعَفَّنِ.. وَفِي هَذَا السِّيقِ

(1) أَنْوَكُ، الْجَمْعُ: نُوْكٌ، الْمُؤْنِثُ: نَوْكَاءٌ، هُوَ الْعَاجِزُ الْجَاهِلُ، الْأَنْوَكُ: هُوَ الْعَيْيُّ فِي كَلَامِهِ/ الْمَعْجَمُ الرَّائِدُ.

كان يُسْتَبَعَدُ الجميع، بمن فيهم كلٌّ من يَمْتَلِكُ قُدْرَةً حَقِيقِيَّةً على الفعل الإيجابي، والإصلاح والتَّغيير.

اِخْتَلَطَتِ الأمور، وَتَشَبَّثَ بَعْضُهُمْ بِمَقَاعِدِ «مَسْؤُولِيَّاتِهِمْ» يُنَافِحُونَ عنها، يُقَاتِلُونَ في سَبِيلِهَا، وَيَتَأَمَّرُونَ فيما بَيْنَهُمْ لِلْحِفَافِ عَلَيْهَا، حَتَّى لو كَانَتْ «حَلَقَةُ تَحْفِيزٍ لِلْقُرْآنِ»، أَوْ دُكَّانًا لِبَيْعِ اللَّحْمِ الْحَلَالِ، أَوْ رِفْعًا لِلْأَذَانِ فِي وَقْتِهِ.. كَانَ بَعْضُهُمْ مُسْتَعِدِّينَ لَتَنْفِيزِ أَحْكَامِ «إِعْدَامِ اجْتِمَاعِي إِقْصَائِي نَفْسِي مَعْنَوِي»، فِي «مُعَارِضِهِمْ» أَوْ مُنَافَسِهِمْ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ مِنْهُمْ عَلَى سُلْطَاتِهِمْ الْهَزِيلَةِ! «يُقَاتِلُونَ» طَوَاحِينَ الْهَوَاءِ عَلَى الطَّرِيقَةِ «الدُّونُ كِيخوتِيَّة»، فِي سَبِيلِ الْإِحْتِفَافِ بِهَا. لَمْ يَكُنْ بَعْضُهُمْ - وَبَعْضُهُنَّ - يَتَوَرَّعُ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ، عَنْ الْكُذْبِ وَالتَّفَاقُ وَالِدَّسِ بَيْنَ النَّاسِ، وَتَأْلِيْبِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضِهِمْ، وَتَشْوِيهِ سُمْعَتِهِمْ، لَيْسَ فِي أَوْسَاطِ الْجَالِيَّةِ فِي مَدْرِيدِ فَحَسَبِ، بَلْ لَقَدْ تَجَاوَزَ بَعْضُهُمْ كُلَّ الْحُدُودِ، حَتَّى الْجُغْرَافِيَّةِ مِنْهَا، فَرَاخُوا يُشَوِّهُونَ سُمْعَةَ خُصُومِهِمْ هُنَاكَ فِي أَرْضِ الْوَطَنِ، الَّذِي لَا يَتِمَكَّنُ هُؤُلَاءِ الْخُصُومِ مِنْ زِيَارَتِهِ، وَلَا الدَّفَاعِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ لَدَى مَنْ شُوِّهَتْ سُمْعَتُهُمْ فِيهِ بِالْأَبَاطِيلِ.

مَاذَا يُوْجَدُ فِي «السُّلْطَةِ» - مَهْمَا كَانَتْ تَافِهَةً.. حَتَّى تَسْتَهْوِي الْقُلُوبَ، وَتُغَيِّرَهَا، وَتَجْعَلَ الْإِخْوَةَ أَعْدَاءً، وَالْأَصْدِقَاءَ وَحُوشًا يَنْهَشُونَ فِي لُحُومِ بَعْضِهِمُ الْبَعْضَ؟؟! نَاهِيكَ عَنِ السُّلْطَاتِ الْكُبْرَى الَّتِي تَجْعَلُ الرِّجَالَ ضِبَاعًا، يَسْتَمِرُّونَ سَفْكَ دِمَائِ الْمَلَائِكِينَ لِلْإِحْتِفَافِ بِهَا؟!

«الْأَنَا».. وَظَنُّ الْمَرْءِ فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ بَعْضٌ مِنْ «رَبِّ أَعْلَى»، مُشْكَلَةً كُبْرَى، أَكْبَرُ مِنْهَا أَنْ لَا يَكُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَظَمَةِ وَمَنْجَزَاتِ وَمُلْكِ الْفَرَاغَةِ أَيْ نَسَبِ!

الْجَوُّ مَوْبُوءٌ بِأَمْرَاضِنَا، وَمَا اسْتَمَلَتْ عَلَيْهِ الْأَنْفُسُ وَالْقُلُوبُ،

من عِلَلِ أخلاقِيَّةٍ عَمِيقَةٍ مُسْتَفْجِلَةٍ، حَمَلَنَاهَا معنا من أوطانِنا الآيلة
إلى التَّدْمِيرِ ما دُمْنَا على هذه الحال.

كَم نُشَبِّهِ حُكَّامُنَا، كَم يُشَبِّهُنَا حُكَّامُنَا..

إِسْتَبْدَادُهُمْ بِنَا لَمْ يَأْتِ إِلَّا مِنَ الْفِرَاقِ الَّذِي مَلَأَتْهُ بُذُورُ فِسَادِنَا،
مُنْدَسَةً فِي أَحْشَائِنَا نَتَعَامَلُ مِنْ خِلَالِهَا مَعَ الْآخِرِينَ حَتَّى لَوْ كَانُوا
مِنْ أَنْفُسِنَا.. لَمْ يَكُنِ الْإِسْتَبْدَادُ فِي وَاقِعِ الْأَمْرِ إِلَّا أَحَدًا أَوْجُهُ هَذَا
الْفِسَادِ.

«مُسْتَبِدُونَ» رَدِئُونَ صِغَارًا، هَؤُلَاءِ الْمَرْصَى بِالْأَنَا، اِلْتَحَفُوا
عِبَاةَ الْإِسْلَامِ.. وَكَانَتْ عَلَيْهِمْ جِدَّ فَضْفَاضَةٍ.

يَا لِلْهَرَبِ مِنْ هَذِهِ الْمُسْتَنْفَعَاتِ الْآسِنَةِ، إِنَّهُ فَضِيلَةٌ تَسْتَحِقُّ أَنْ
تُمنَحَ وَسَامَ «ثُلْثِي الرِّجُولَةِ» دُونَ أَدْنَى شَكِّ!

كُلُّ ذَلِكَ.. كَانَ يَجْرِي دَاخِلَ الْجَالِيَّاتِ الْعَرَبِيَّةِ - الْإِسْلَامِيَّةِ
عَلَى هَامِشٍ «الْإِقَامَةِ شَبْهَ الْجَبَرِيَّةِ»، غَيْرِ الْمَلْمُوسَةِ وَغَيْرِ الْمَرْتِيَّةِ،
«الْمَفْرُوضَةِ» - بِشَكْلِ صَامِتٍ وَغَيْرِ رَسْمِيٍّ - عَلَى الْمُهَاجِرِينَ،
وَالذِّبْنَ لَا يَكَادُونَ يَشْعُرُونَ بِهَا هُمْ أَنْفُسُهُمْ.

فِي إِسْبَانِيَا، تَطَوَّرَتْ آيَاتُ إِقْصَاءِ الْمُهَاجِرِ النَّفْسِيَّةِ
وَالْجُمَاهِيرِيَّةِ، بِسَرْعَةٍ كَبِيرَةٍ مَعَ تَطَوُّرِ إِسْبَانِيَا وَتَوَقُّعِ عُرَى شُعُورِهَا
بِالْإِنْتِمَاءِ الْأَوْرَبِيِّ الْغَرْبِيِّ.. بَدَأَ الْأَمْرُ بِأَخْذِ مَنْحَى الْإِسْتِنْكَارِ
وَالشُّكْوَى، ثُمَّ الْإِنْكَارِ الْوَقْهِ، ثُمَّ الْهُجُومِ الْحَادِّ وَالْعُدْوَانِ
الْلَفْظِيِّ وَالنَّفْسِيِّ الْمَعِيبِ، ثُمَّ التَّهْمِيشِ الْمُؤْلِمِ، بَعْدَ ذَلِكَ جَاءَتْ
مَرَحَلَةُ اللَّامْبَالَةِ بِهَذَا الْوَافِدِ الْغَرِيبِ.. وَالتَّعَامُلِ مَعَ الْأَمْرِ الْوَاقِعِ
- الْمُسْتَجِدِّ - بِأَقْلٍ الْخَسَائِرِ الْمُمْكِنَةِ!

أَحْيَاءُ كَامِلَةٌ، بِمُسْتَشْفِيَاتِهَا، وَمَطَاعِمِهَا، وَمَرَافِقِهَا الْعَامَّةِ،
مُغْلَقَةٌ تَمَامًا فِي وَجْهِ الْمُهَاجِرِ.. اللَّهُمَّ إِلَّا الْعَامِلَ فِي الْخِدْمَاتِ
الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ.

في هذا السَّجْنِ الخارجيّ الشَّبحيّ الكبير، عِشت حياتي في
مدرّيد، في سِجْنٍ داخليٍّ آخَرَ أَصْغَرَ وَأَشَدَّ قَسْوَةً.. عُزْلَةٌ نَفْسِيَّةٌ
فَرَضْتُهَا أَنَا نَفْسِي عَلَى نَفْسِي، لَعَلِّي أَجِدُ نَفْسِي فِيهَا، بَعْدَمَا بَدَأْتُ
أَعْيِي مُشْكِلاتَنَا فِي أَنْفُسِنَا كَشَعْبٍ، وَأَمْرَاضَنَا الْمُسْتَعْصِيَّةَ، وَعِلَلَّنَا
الْمُدْمَرَّةَ لِكُلِّ شَيْءٍ فِي حَيَاتِنَا، بَدَأًا بِعِلَاقَاتِنَا الثَّنَائِيَّةِ الشَّخْصِيَّةِ،
مُرُورًا بِشَبْكَةِ صِلَاتِنَا الْعَامَّةِ كَجَالِيَّةٍ مُهَاجِرَةٍ، وَانْتِهَاءً بِقُدْرَتِنَا
كَمَجْمُوعَةٍ بَشَرِيَّةٍ عَلَى فَهْمِ الْكَارِثَةِ الْأَخْلَاقِيَّةِ، الَّتِي نُعَانِي مِنْهَا
وَنُسَاهِمُ مِنْ خِلَالِهَا فِي تَدْمِيرِ أَوْطَانِنَا وَأَنْفُسِنَا.

«مُكَبَّلَةٌ» كُنْتُ مَعَ «مُكَبَّلِينَ»، يَجْمَعُ بَيْنَنَا حُبُّ الْإِسْلَامِ
وَالْإِلْتِزَامُ بِمَظَاهِرِهِ، مِنْ صُومٍ وَصَلَاةٍ وَحِجَابٍ وَتَمَسُّكِ بِالْهُوِيَّةِ
وَتَشَبُّثٍ بِالْإِنْتِمَاءِ، وَالْمِحْنَةُ عَلَى الْمِحْنَةِ عَلَى الْمِحْنَةِ.. الَّتِي كَانَتْ
كَثِيرًا مَا تُقَرِّبُنَا نَحْنُ «السُّجَنَاءُ الْغُرَبَاءُ الْأَحْرَارُ» بَعْضُنَا مِنْ بَعْضٍ،
إِلَى حَدِّ نَسْيَانِ سِجْنِنَا الْكَبِيرِ هَذَا، وَإِنْ كُنَّا لَا نَرَى وَلَا نَفْهَمُ بِذَاتِ
الطَّرِيقَةِ، وَجُودَ وَمَاهِيَّةِ هَذِهِ «الْأَسْوَارِ الْوَهْمِيَّةِ» الْمَضْرُوبَةِ مِنْ
حَوْلِنَا، وَلَا أَبْعَادَ «سِجْنِنَا» دَاخِلَهَا، وَمِحْنَتِنَا فِيهَا.

لَا يَشْعُرُ جَمِيعُنَا بِهَذِهِ الْمِحْنَةِ، بِنَفْسِ الْقَدْرِ، مِنْ الْأَلَمِ وَمِنْ
إِسْتِيعَابِ أَبْعَادِ الْعَسْفِ وَالضَّيْمِ الَّذِي يَتِمَثَّلُ بِهَا.

تَجْمَعُ الْمَحْنُ الْغُرَبَاءُ، يَنْسُونُ مَعَهَا مُشْكَلاتَهُمْ وَمُشَاكْسَاتَهُمْ
وِخْلَافَاتِهِمْ، وَيُصْبِحُونَ بَيْنَ الْحَيْنِ وَالْحَيْنِ - وَبِشَكْلِ مَفَاجِيءٍ
وَمَدْهَشٍ - كَالْجَسَدِ الْوَاحِدِ.

هَكَذَا أَصْبَحْنَا بَعْدَ وَفَاةِ أَحَدِنَا فِي مَدْرِيدٍ فِي حَادِثٍ سَيْرٍ..
كَانَتْ تِلْكَ، الْوَفَاةُ الْأُولَى بَيْنَنَا، كَانَ ذَلِكَ مُرْعَبًا، أَنْ نَشْهَدَ بِأَمْ أَعَيْنَا
كَيْفَ تَفْتَحُ أَرْضَ مَدْرِيدٍ بَاطِنَهَا لِيَنْزَعَ فِيهَا وَاحِدٌ مِنَّا، كَانَ ذَلِكَ
صَادِمًا.. أَنْ تَصْفَعَكَ الْغُرْبَةُ - بِحَقِيقَةٍ قَاسِيَةٍ مُرِيعَةٍ: أَنْكَ سَتُدْفَنُ هُنَا
عِنْدَمَا تَمُوتُ! وَلَا عَوْدَةَ!

يَوْمَ دَفَّنَا أَخَانَا ذَاكَ، كُنَّا قَدْ دَفَّنَا مَعَهُ جَمِيعُنَا ذَلِكَ الْحُلْمَ

البراق المأنوس المريح الغبي، الذي اعتاد الغرباء أن يقتاتوا عليه
في خصاصة غربتهم، حلمهم شبه المستحيل، في أن يضمهم في
أرض موطنهم الذي جاؤوا منه.. قبر.

كان هذا من أعظم النسب والوشيجة بين الغرباء، وكان
يكفيهم نسباً ووشيجة.. لكنه لم يكن يكفيني، ولم يسد جوع
روحي، كنت في حاجة إلى ماهو أعظم وأعمق من حلم - بقبر في
الوطن - يجمعني بمن حولي! كنت أشتاق إلى شيء يحينني الآن
واليوم وهنا، كأخوة صادقة وكصدافة حقيقية.

الأخ الصادق لأيوذي، ولايجرح، ولايخذل، الصديق
الحقيقي لايتهم، ولايهين، ولايتشكك، الرفاق لايتأثرون بزقاق
فرعية على هامش الدرب، يسرون فيها من دونك، لايتخلون،
لايضمون آذانهم عن عويل ألمك، ولايتركونك وحدك في
صحراء غربتك - غربتهم.. أخوة كهذه، وأخ أو أخت يتحلون بهذه
القيم، هم زهور الحياة ورياحينها.

في غربتنا الإجبارية هذه.. كنا إخوة، لكن لم يكن الجميع
صادقين في أخوتهم، لم يكونوا جميعهم رفاق درب، ولا رفاق
هم، ولا رفاق فكر، ولا رفاق توجع، ولا رفاق أمل، كانوا رفاق
غربة ومحزن.. ولا شيء غير هذا.

لكل غربته، وشرعته في غربته.

جميعنا سجناء غربتنا في مدريد، وكل منا سجين ذلك
الصندوق الصغير الذي حشرته فيه بيئته التي جاء منها، وقابليته
وقدرته على النمو والتغير والتغير.

غربة داخل غربة، من تحتها غربة، من فوقها غربة.. تماماً
كعبة «الدمى الروسية» الخشبية البيضاء المزركشة، كلما فتحت

إحداها وَجَدَتْ فِيهَا أُخْرَى مِثْلَهَا، أَصْغَرَ مِنْهَا حَجْماً، وَتَخْتَلَفُ عَنْهَا فِي أَلْوَانِهَا وَزَخَارِفِهَا، لَكِنَّا صُورَةٌ مُصَغَّرَةٌ عَنْهَا.

إِخْوَةٌ.. لَا تَخْتَلِفُ عِلَاقَةٌ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ عَنْ عِلَاقَاتِ الْإِخْوَةِ - فِي أُسْرَةٍ وَاحِدَةٍ، رُبَّمَا لَا تَسْوُدُّهَا فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ مَشَاعِرُ الْمَحَبَّةِ وَالْإِحْتِرَامِ وَالثَّقَّةِ، إِلَّا أَنَّ رَوَابِطَ الدَّمِّ تَبْقَى عَلَى الرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ قَوِيَّةً، مَتِينَةً، ذَاتَ سَطْوَةٍ رَهِيْبَةٍ، لَا يُمْكِنُ وَلَا حَتَّى لِمَشَاعِرِ الْحُبِّ وَالْكُرْهِ أَنْ تُلْغِيَهَا أَوْ تُغَيِّرَهَا، مَا لَمْ يَكُنِ اللَّاعِبُ الدَّاخِلُ بَيْنَ الْإِخْوَةِ شَيْطَاناً مُؤْذِئاً!

يَلْتَجِئُ الْإِخْوَةُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ فِي الْمُلَمَّاتِ، وَيَضْطَرُونَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ فِي النَّزَلَاتِ، أَكْثَرُهُمْ شَعُوراً بِهَذِهِ الْأُخُوَّةِ وَصِدْقاً فِي إِدْعَائِهَا، يَجِدُ نَفْسَهُ مُرْغِماً عَلَى خَلْعِ رِدَاءِ كِبَرِيَّائِهِ عَلَى عَتَبَةِ الْمِحْنِ الَّتِي تُشَكِّلُ عَلَى مَرِّ الْأَيَّامِ إِمْتِحَانَاتٍ مُرْعَبَةً لِحَقِيقَةِ الْأُخُوَّةِ.. فِي الدَّمِّ، أَوْ فِي الْغُرْبَةِ، أَوْ فِي اللَّهِ.. لَيْسَ بَعْدَ هَذَا مِنْ «الْأُخُوَّةِ» شَيْءٌ!

الْأُخُوَّةُ تَعْنِي الْقِيَامَ بِوَاجِبِكَ، تَعْنِي بِذَلِكَ كُلِّ جُهْدٍ مُمَكِّنٍ لَكِي لَا يَنْفَرِطَ الْعَقْدُ، لَا تَقْتَضِي فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْيَانِ وَالْمَلَابَسَاتِ، صَدَاقَةً وَلَا صُحْبَةً وَلَا تَفَاهُماً وَلَا أُنَاقَةً وَلَا رِعَايَةً.. إِنَّهَا «أُخُوَّةٌ» وَحَسْبُ.

هُوَ وَاسِعَةٌ مُؤَلِّمَةٌ مُفْرَعَةٌ، بَيْنَ حَقِيقَةِ «الْأُخُوَّةِ فِي اللَّهِ»، وَمَا يُمَكِّنُ أَنْ يَفْهَمَهُ النَّاسُ مِنْ هَذِهِ الْكَلِمَةِ «الْجَبَّارَةُ»! بِالضَّبْطِ كَتَلِكِ الَّتِي تُمَيِّزُ بَيْنَ حَقِيقَةِ أَنْ تَمَسَّكَ الْغُرْبَةُ بِمَوَاجِعِهَا مَسّاً، وَأَنْ تَثُورَ أَشْبَاحُهَا تَجَوُّبٌ بِأَعَاصِرِهَا كَهْفٌ رُوحِكِ، تَدُورُ فِي جَنْبَاتِهَا، وَلَا تَجِدُ لَهَا مَأْوًى فِيهَا يَمْنَحُهَا سَلَامًا.

تَخْتَلِفُ دَرَجَاتُ اسْتِيعَابِ الْغُرْبَاءِ لِإِحْسَاسِهِمْ بِالْغُرْبَةِ، كَمَا تُرَاحُ لَدَى الْوَاحِدِ مِنْهُمْ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ، فَتَارَةً تُصَيِّنَا كَشُعُورٍ عَمِيقٍ بِالْمَرَضِ، وَتَارَةً تَتَجَلَّى فِي تَبَلُّدِ أَحَاسِسِنَا وَوُقُوفِهَا لَدَى عَتَبَةِ

ذكرى أكلّة في الوطن! وربما تبدّت في غرابة تفكيرك وتميّزه، أو ارتكاسه ينحصر في حضيض عَفَنِ العلاقات الاجتماعية، ولعلها تترتب عن رؤية خاصة للأمر، أو مبالغاة في الإحساس بالألم، أو في شعور بالمسؤولية يُسَقِّم ويُمَرِّض، وربما تكمن المشكلة في الرغبة في تعلّم الطيران! خَفَقَ أَجْنَحَةُ الرُّوحِ الدَّائِبِ، ليس إلا صَليلاً سَيوفٍ في الأذان والعقول، وقليلٌ جدًّا من النَّاسِ من يَتَمَتَّعَ بالجاهزيّة اللاتّقة لخوض المعارك المُترتبة عن شَغَفِ أحدهم بالتحليق عالياً!

معظمهم يُبادرونَ بالإستهزاء، ووضع كلِّ العراقي المُمكِنَة في مَسَارِ «الفرناسيين»⁽¹⁾، ويُقَصِّصون أجنتهم بكلِّ الوسائل المُمكِنَة.

عندما يَبْذُلُ المرء الكثير الكثير، من الوقت والجُهد لبناء علاقة «أخوة»، يَكُونُ طَعْمُ مَرَارَةِ الخُذْلَانِ حَنْظَلِيًّا يَنْغَرِزُ في أطراف رُوحه، عندما تَتَمَخَّضُ «الأخوة» عن هَبَاء!

أن يكون أحدهم خارج السِّياق، يُفَكِّرُ، لا يَرْضَى، يَسْأَلُ، يَعْتَرِضُ، يَتَنَقَّدُ، لا يَسْتَسْلِمُ، لا يَرْضَخُ، لا يَقْبَلُ بالموجود، يُريد الإصلاح، يُطالب بالتَّغيير، لا يَتَطَابَقُ وضعه مع القوالب الجاهزة، وَيَسْتَعَصِي على دخول ثقب الإبرة.. فهو إذاً جاسوسٌ مَدسوسٌ! هكذا كان السُّوريون يُصَنِّفون بعضهم بعضاً في مدريد الثَّمانينيات! وفي أحسن الأحوال.. مُزعج، غليظ، مُشاغب، طَفرة، مَرفوض، خطير.. يجب مُحارَبته وتَحجيمه وإقصاءه بكلِّ وسيلة ممكنة.

أَنْتَ خارج الإطار المُحدَّد، تَتَحَدَّى قُضبان الزنزانة، لا تنتمي إلى القطيع، لا تسمح لِحَشْرَةِ أَنْ تَدُوسَ رَأْسَكَ بِكَعْبِ حذاءٍ رَفِيعٍ

(1) نسبة إلى عباس بن فرناس العالم الموسوعي الأندلسي، أول من حاول الطيران في التاريخ.

اِنْتَعَلَتْه في إحدى أرجلها المِفْصَلِيَّة السَّتَّة، فَظَنَّتْ في نفسها الرِّفْعَةَ
الإِسْتِنَائِيَّة.

تلك هي الغُرْبَةُ على الغُرْبَةِ على الغُرْبَةِ! غُرْبَةٌ - ثَلَاثِيَّة الأَبْعَاد،
ظِلْمَاتٌ على ظِلْمَات، لا يجد المرءُ وسطَ لُجَجِ ظُلُمِهَا وظَلَامِهَا
بَصِيصَ نورٍ، إِلَّا بِشِقِّ الأَنَفْسِ.

في مثل هذا الجَوِّ الموبوء، ليس إِلَّا أَنْ يَنْكَفَى المرءُ على
جُمْهُورِيَّتِهِ الخاصة في بيته، يَبْنِيهَا، ويعمل فيها وبِهَا وَلَهَا، وَيَقِرُّ إلى
الله.

الفِرَار من الجُذَام الإِجْتِمَاعِيّ كالفِرَار من الإِسْتِبْدَاد والْفَسَاد..
كلا المَرَضَيْنِ مُفْسِدٌ لِلرَّوْح والنَّفْسِ والمُرُوءَةِ والحَيَاة.

.تَتَلَشَّى الْأَحْلَامُ بِالنَّجَاةِ.

● **وصلنا** مدريد بعد ساعات طويلة من السفر والتوقف في المحطات، ويممنا شطر ضاحية من ضواحيها تسمى «تورخون ده أردوث»⁽¹⁾، وما أدراك ما «تورخون ده أردوث»؟؟ دخلنا تلك الضاحية وفق تعليمات أخ تبرع بوقته لنجدتنا، في هذا البحر المتلاطم الذي يُسمى مدريد، حيث وجد لنا بيتاً للسكنى.. جزاه الله عنا خيرًا!

البيت يُطل على «الساحة الكبيرة»⁽²⁾، يقابل الكنيسة التي يحتلُّ بُرجها مركز الضاحية، يرتفع فوق البُرج مُربع طويل يحمل صليباً كبيراً تتصدّره من جهاته الأربع ساعة قُطرها متر أو يزيد.

يقع البيت في الطابق الثاني، الذي يعلو سوق الأغذية الرئيسيّة في البلدة، دارٌ مظلمة، مُحطّمة الأثاث، مُهدّمة الجدران، مكسورة الخاطر، تطلُّ شرفاتها على مركز الساحة، حيث الحديقة المحيطة بالكنيسة، وقد جلس جمع من شيوخ وشيخات القرية يتهمسون في إهتمام بالغ، حول هذه الأسرة الغريبة التي حلت بقريتهم، وفي المنزل المرموق الذي هو محطّ الأنظار وقبلة المهتمين بشؤون الأغيار، وكان أولئك العجائز الطيبون يوزعون الإبتسامات الودّية ويتبادلون الهمس اللطيف عن هذه الأسرة «العربيّة»، وكان الناس - في تلك الأيام - ما زال بعضهم يُكنّ «للعرب» بقية من تعاطفٍ تاريخيٍّ، ليس بسبب ما تركه العرب

(1) Torrejón de Ardoz: بلدية إسبانيّة تابعة لمقاطعة مدينة مدريد، يبلغ عدد سكانها 132.000 تقريباً، ومساحتها 832 كلم².

(2) Plaza Mayor - «الساحة الكبيرة» وهو اسم الساحة.

في البلاد من آثار تاريخية جميلة، هي الشيء الوحيد الذي يعدّه عامة الإسبان مُتعلّقًا بتاريخ العرب في أرضهم، بل بسبب سياسات الجنرال «فرانكو» وصدقاته الحميمة مع البلدان العربية، وما اشتهر به «العرب» في إسبانيا حتى ذلك الحين من مالٍ بتروليٍّ مدرار، وكرمٍ حاتمٍ! حتى إن بعض الشباب الآتين من منطقتنا الناطقة بالعربية، كانوا - في هاتيك الأيام - يتقربون إلى الفتيات الإسبانيّات، بادّعاء أنهم يتحدّرون من آباء بتروليين!... يضحكون عليهنّ، مُستجلبين اهتمامهنّ، من أجل الحصول على زواجٍ مجانيٍّ وجنسيّةٍ تضمّن الحقوق، وحِضنٍ عائليٍّ يقيهم صقيع الغربة، ثم تتلاشى الأحلام بالنّجاة، وتبدأ المُعانة لدى الطرفين، مُعانة الشّعور بالخذلان والخديعة من طرف الزوجة، ومُعانة ضياع الهوية الذي يتجاوز الزوج إلى الأبناء.. معاناة لا تنقطع ولا تزول.

فضلاً عن التّسوّق المجنون وتبذير المال بشكلٍ هستيريٍّ، كانت «مُلاحقة النساء» هي الرياضة التي اشتهر بها «العرب» في أوربا عموماً، وفي إسبانيا خصوصاً، ذلك أمرٌ لم ينج منه إلا من رحم ربي.

وعلى العكس من معظم الآتين من بلاد المغرب، ذاب معظم شباب الجيل الأول من القادمين من بلاد الشّام في المُجتمع الإسبانيّ، بعيداً عن المساجد والمراكز الإسلاميّة، فبلاد المغرب قريبة، رَمِيّة حَجَرٍ ويصيح المهاجر في بلده بين أهله، لا ينقطع حبُّه السّريّ في إسبانيا، ولا يُخلّفه وطنه وأهله على قارعة الغربة، فضلاً عن أن المغاربة لم يُقتلَعوا من تاريخهم ولم يُسلَخوا عن هويّتهم، بالشكل الذي تُعانيه سُعوب بلاد الشّام، ناهيك عن أن الهوية المغربيّة، من الصّلاية والوضوح والرّسوخ والتّصالح مع الإنسان

والوطن والتَّاريخ والدين، بِمِكانٍ لا يَسْتَطِيع المَغاربة معها الذُّوبان
حتى لو أرادوا!

معظم المغاربة القادمون من المغرب والجزائر وموريتانيا،
على خِلافٍ معظم المشاركة، يندمجون، يتعايشون، يُحاكُون،
يَتَشَبَّهون.. ولكن ومن الصَّعب جدًّا أن يذوبوا.

تَلَخَّصَ حِكاية الذُّوبان هذه في اسْتِسْلامٍ كاملٍ، يبدَأ بِصِدامٍ
عنيف بين «مهاجرٍ»، يَظُنُّ في نفسه الخيرية والاستثنائية والتَّفوق
وامْتِلاك الحقِّ المُطلَق، مهاجرٌ آتٍ من مُجتمعاتٍ ما زالت
مُسْتَعْمَرة، مُتَخَلِّفة مَقموعة مُضْطَّهدة مُضْطَّهدة، تَغْلِبُ سيئاتُها
حسناتها.. مع مُجتمعٍ اسْتِعْماريٍّ مُستَكْبِرٍ، يَظُنُّ أنه «وحده» الذي
يملك القِيَم الحضارية «الوحيدة» على وجه الأرض، وأنه يملك
معها الحقَّ في فَرْضِها على الآخرين، بكلِّ الوسائل التي تُحَقِّقُ
مصالحَه وإدعاءاته وظَنَّهُ بنفسه خيرًا، وهو يمضي في طريق التَّمَدُّن
والإزْدِهَار والحرية، تغلب حسناته سيئاته.

كثير من هؤلاء الشباب بنوا أمجادهم الشخصية بمساعدة
زوجاتهم الإسبانيات، وركنوا دينهم وأصولهم إلى حين، ثم
تناسوا بعد ذلك كلَّ فَضْلٍ لهؤلاء الزَّوجات ومَأَثَرة، بالضبط
كما أَلْغَتْ تلك الزَّوجات كلَّ فَضْلٍ لهؤلاء الأزواج ومَأَثَرة..
تبادلُ سَلْبِيٍّ لافِتٍ للأدوار بين الوافِد والمُضيف، على هامشِ
أجواء حياةٍ إجتماعية طارئة في حياتهم، تَفْرِضُ عليهم أنماطًا من
العلاقات لم يَعْتادوها في بلادهم أيام السبعينات والثمانينات،
معظمهم لا يعرف التَّعامل بالمُطلق مع النِّساء، فما إن تُفْتَحَ لهم
أبواب هذا المُجتمع، حتى يَسْقُطوا ضحايا الشُّعور بالنقص،
والجهل بالآخر، والإنهيار بطبيعية العلاقات بين النَّاس عامة،
والنِّساء والرِّجال في هذه البلاد.. وهي في ظاهرها مُبْهَرة!

تَتَطَوَّر الصِّدمات الأولى والصِّدمات، وتَعَثِّرُ التَّعامل مع

الآخرين باللياقة المطلوبة.. إلى تعارفٍ على كُرهِ، فَصُحْبَةٍ لَا تَتَوَقَّعُ
عُراها إلا بعد خِصام، فِقْصَة عِشْق وَهِيَام، تنتهي بزواجٍ اضْطِرَّارِيٍّ،
بين مُهاجِرٍ وافِدٍ يَدْرُس الطِّبَّ أو ما شابهَه، وفتاةٍ صغيرةٍ أو امرأةٍ
كبيرة، مُتَوَسِّطَة الحال، لم تَصِلْ إلى المرحلة الثانوية من تحصيلها
الدراسيِّ - عادة -، زواجٌ يُصْبِحُ به هذا المُهاجِرُ مُواطنًا «مُضَافًا
إليه» مَجْرورًا بِقُوَّةِ الرِّبَاطِ الأُسْرِيِّ المُقَدَّس، يَدْخُلُ مُعْتَرِكَ الحَيَاةِ
وَالْعَمَلِ، كزائِدَةٍ دُودِيَّةٍ في مُجْتَمَعٍ لن يَرْضَى عنه أَبَدًا، على الرَّغْمِ
من تخليه الكامل عن هُويَّتِهِ، وذُوبانِهِ شبه التَّامِ في الأسرة التي
قَدَّمتْ إليه ابْنَتَها، وَفَتَحَتْ لَهُ دَارَها وَصَدَّرَها، تَبَتَّتْ ثِقَةً مِنْها بِكَرَمِ
«العربيِّ»، و«مُروءتِهِ».. وكثيْرٌ من هؤلاء الشَّبَابِ كانوا لاحقًا أَهْلًا
لهذه الثَّقَّةِ.

لم يَكُنِ النَّاسُ حينها في إسبانيا، قد رَكِبَتْهُمُ العنصريَّةُ
الأوروپيَّةُ، والكراهيَّةُ والتَّكْبَرُ والحِقْدُ والرَّفْضُ، والإسْتِعْلَاءُ على
عباد الله من الأَغْرَابِ، ولم تكن أعداد العرب والمسلمين في
البلاد تكاد تُذْكَرُ، إلا على أَنَّهُمْ سَيَّاحٌ أَغْنِيَاءُ مُبَدَّرُونَ، أو طُلابُ
عِلْمٍ كُسَالَى، اِخْتارُوا واحِدًا من أسوأ البلاد الأوروپيَّةِ التي يُمكن
اِخْتِيَارُها للدراسة والاختِصاص في تلك الأيام.

كَأَنَّ المَرْءَ هو الذي يَخْتارُ، وَكَأَنَّ بَيْدَ أَحَدِنَا تَغْيِيرُ مُجَرِّياتِ
الليْلِ والنَّهارِ!

تجلِس «روثيو»⁽¹⁾ في صَدْرِ المائدةِ كَمَلِكَةٍ اِغْتَصَبَتْ الحُكْمَ،
تُلْفُ ساقًا على ساقٍ، بصعوبةٍ بالغةٍ بسببِ بَدَانَتِها المُفْرِطَةِ،
وَإِصَابَتِها البليغةِ في ركبَتِها إثرَ حادِثٍ تَعَرَّضَتْ لَهُ، تَنْفُثُ دُخَانَ
سِجَارَتِها في مرارةٍ، وتَنْظُرُ إلى مَنْ حَوْلَها بِاسْتِعْلَاءٍ مَقِيَّتٍ وَهي

(1) Rocío اسم إسباني مؤنث فرد من أصل أندلسي، معناه باللغة العربية:
«الندى».

تقول: لولا جهودي، ما كان يمكن لسمير أن ينجح في عمله، ولا عيادته، ولا حياته.. أنا التي صنعتُ منه رجلاً.

تُجيب «باكيثا»⁽¹⁾ التي تكبر زوجها بعشرة أعوام: هو ذاك.. لولانا لكانوا همَجًا لا يعرفون شيئًا في هذه الحياة، ولولا أنني أدير عيادة زوجي في كلِّ شؤونها، لكان طبيبًا فاشلاً من الدرجة العاشرة لا يملك بيسيته⁽²⁾ واحدة.. إنني أملك زوجي وأضعه في جيب بنطالي الخلفي، لا يتجرأ على أن يفتح فمه بينت شفة.

وترد «فينا ريميديوس»⁽³⁾: أنا وأمي وأبي جميعنا.. عمِلنا عند عبدول⁽⁴⁾ خدمًا حتى تَخَرَجَ وأصبح طبيبًا، وافتتح دار العَجَزة التي تعرفون، وما زِلْتُ حتى الآن أنا وأمي نعمل فيها ليلاً ونهارًا، حتى أَصَبَحْتُ في هذا المُستوى الذي ترونه.. إذا طَلَبَ الطَّلاق، فَسَتَكُون الدَّار ودار العَجَزة والأولاد والسَّيَّارة وثلاثة أرباع معاشه من نصيبي، إنَّه رجلٌ خائن، بعد كلِّ الذي بذلَّته من أجله، ليأتي الآن ويقول إنه غير مُرتاح في حياته ويريد أن يتحرر.. الرجال قومٌ كفرة! و«الموروس» منهم قوم لا حياءَ عندهم!

كان ذلك الحديث يدور أمامي، في المَطْعَم الذي ذَهَبنا نَتَعَشَّى فيه، نحنُ الخمس من نساء أطباء سوريين، بانتظار وصول أزواجنا.

أَحْسَسْتُ أَنَّ الحديث مُوجَّهٌ إِلَيَّ وحدي، وكأَنني والدَة

(1) Paquita تدليع وتصغير اسم فرانسيثكا، معناه باللغة العربية: «الفرنسية».

(2) Peseta الوحدة الأساسية للعملة الإسبانية قبل دخول إسبانيا منظومة الأورو الموحدة.

(3) Fina Remedios اسم إسباني مؤنث مركب من اسمين، معناه باللغة العربية: «الناعمة صاحبة الوسائل لاتعدَم حيلة».

(4) Abdul اختصار اسم عبد الله أو عبد العظيم، «أبدول»، باللغة الإسبانية.

أزواجهن، أو المَسْؤولة عن كل ما يقوم به طبيبٌ سوريٌّ في حياته
الغرناطية من تَصْرُفَاتٍ، وعن كل ما يَرْتَكِبُه من حماقات.

تلك الجَوْقَة الغرناطيّة - السّوريّة كانت تَشْعُرُ بالتهديد
بسبب زواجنا الدّخيل على نَمَطِ الحياة المُهَيِّمِ بين أفرادها،
كنتُ هناك «مُتطفلة دَخيلة» على ما اعتادته تلك الأُسَر المُخْتَطَطة،
من مَنطِق طَبِيعَة عَلاَقَات هاتيك النّسوة الإِسبانيّات بأزواجهنَّ
من المُهاجِرين السّوريين، بحجابي والتزامي، كنتُ أصغر من
أصغرهنَّ بِثمانية أعوام، والوحيدة بَيْنَهُنَّ التي وَصَلَتْ إلى الجَامِعة
وَدَرَسَتْ في فَرْعَيْنِ من فُرُوعِهَا، كنتُ هناك «تهديدًا مُباشِرًا»
يَتِمَثَّلُ.. في «الهُويّة المُغَيَّبة» عن تلك المجموعة الغرناطيّة -
السّوريّة الصّغيرة!

اسْتَأْنَفْتُ باكيثا: عاش معي خمسة أعوام قبل الزواج بِصِفَتِنَا
خطيين.. لم يَذْكُرْ فيها مرة واحدة كلمة «حرام»، وعشنا معًا بعد
ذلك سبعة أعوام زوجين شرعيين، تزوجنا في الكنيسة، وقُمْنَا
بَتَعْمِيد ابنتينا الكبيرتين في الكنيسة، لم يَعْتَرِضْ بكلمة.. والآن جاء
يُحَدِّثُنِي عن الحلال والحرام، وعن أنه يريد أن يعود إلى أصوله،
ويُريد أن يُعَلِّم الأولاد الإسلام! لا أَعْتَرِضُ على أن يُعَلِّمَهُمْ شيئًا،
لكننا اتفقنا مُنذ البداية، أننا لن نُلقَنَهُمْ أيّ تعاليم دينيّة، لا من ديني
ولا من دينه حتى يكبروا ويختاروا.

هنا، تَدَخَّلْتُ بِلُغَتِي الركيكة واستَفْهَمْتُ: أليس الزواج في
الكنيسة وتعميد الفتاتين الكبيرتين هو من «الدين»؟!!

إنتَهَرْتَنِي روثيو، وقالت: لا.. لا... هذا ليس من الدين، هذا

من تقاليدنا وثقافتنا هنا في أندلوثيا⁽¹⁾، ألا يكفي أنه أرغمها على أن تُسمي الصبيين أسماء عربية؟!

عَلَّقت «فيينا ريميديوس»: أنا مُسلمة أكثر منه، أصولي مُسلمة لأنني أندلسية، ومُسلمة أحترم الإسلام.. كنتُ في رمضان أمتنع عن الطَّعام والشَّرابِ احترامًا له وللإسلام، في حين ما كان يحترم فيه الصَّيام إطلاقًا! يُغازِل المُمَرِّضات والمريضات وعاملات التَّنظيف أمام عيني، ويقول لي بكل وقاحة: أنت عَجَزتِ، وأنا ما زلت شابًّا.. بعد كل التَّضحيات التي بذلتها وأهلي لمساعدته، اشتغلتُ في تنظيف خَلْفِيَّات المَرَضَى عشرة أعوام لأُساعدَه، في الواقع، أزواجنا هؤلاء سَفَلَة!

قلتُ لها متعاطفة: اشتغلتُ لِتَبْنِي بيتك وأسرَّتكَ، وتُعِينِي زوجك وأطفالك، لأنك امرأة شريفة كريمة.. حتى لو غير وبدل، أنت تبقين مَلَكَةً في بيتك ومَمْلَكَتَكَ.. نُكرأنه وجُودُه لا يُنْقِص من حَقِّكَ شيئًا.

بدا الإرتياح على وجه فيينا ريميديوس، وقالت روثيو: كأنك لستِ سوريَّة! كلَّ «العرب» الذين ذهبوا «فيينا» تشتكي زوجها إليهم - ومنهم زوجك - عَنفوها وألقوا باللائمة عليها، تمامًا كما فَعَلَ الكاهن في الكنيسة!

ضحكتُ وأنا أقول: أليسوا رجالاً؟؟ إنهم لا يفهمون الدِّين في هذه الأيام، أي دِين، إلا من زاوية ذكورتهم وحِفْظِ حُقُوقهم! وإن كانوا عادة في الحقيقة، يَغْضُون الطَّرْفَ عن «المَظَالِم» حفاظًا على كيان الأسرة أن ينهار.. كأنَّ انهيار الكيان الأُسْرِيَّ أخطر من أن يعيش الجميع تحت ظِلِّه تُعساء!

(1) ANDALUCIA: أندلوثيا، اسم المقاطعة الإسبانية الجنوبية التي يحدها جنوبًا مضيق جبل طارق، والإسم منحوت عن اسم الأندلس.

صَحِكت السيدات، وزالت مَخَوفُهُنَّ وشُعورُهُنَّ بالتهديد الذي شكَّله وجودي بينهن، وعادَ السَّلام إلى الجلسة، وبدأنا بتناول طعامنا الذي برد، بعد أن أصبح الجو أكثر وُدِّيَّة ودِفئًا.. وتساءلن عن «ماري أنخلس»⁽¹⁾، التي ما لَبِثَ أن وَصَلت مُتأخِّرة، ألَقَّت بجسديها النحيل الطويل على الكرسي، خلعت معطفها وسَوَّت حجابها، تناولت سيكارة، وراحت تنفُث دخانها بعيدًا من المنضدة، والكل صامت ينتظر أن يَنجَلي تَجْهَمُها.

سألْتُها «فينا».. هل أطلبُ لك فِنجانًا من القهوة بالحليب؟ أو مَاتَ بالقبول، ثم انفجَرت غاضِبَةً: مَلعونُ ذلك اليوم الذي رأيتُ فيه أسامة، ملعونةُ سوريا وأهلها!

التَفَتْتُ إليَّ وقالت: أَسْتَنِيكَ.. ولن أعتذر!

لم أرُدُ، وأخذتُ أشربُ قَهوتي من دون أن أنظر إليها، وقد اكْفَهَرَّ وجهي غَضَبًا.

بعيونٍ دامعة، اسْتَأْنَفْتُ ماري أنخلِس حديثها: ذهبتُ إلى المحامي وطلبت التَّفريق، لن أحتَمِل هذا الرَّجل يومًا واحدًا آخر، ولماذا عليَّ أن أحتَمِلَه بعد كلِّ الذي كان منه؟

التَفَتْتُ موجهَةً حديثها إليَّ مباشرة وكأني ابنة خالتيه ووليّة أمره: قُولِي الحقّ، أنت مُسْلِمَةٌ تَحْتَرِمُ إِسْلَامَها، وأنا أحتَرِمُكَ أَشَدَّ الإحْتِرَامِ وأتَعَلَّمُ منك، ولكن قُولِي ما يجب أن يقال، هل يَجوزُ لهذا الرَّجل أن يُؤَلِّبَ أطفالِي ضِدِّي؟ يأخُذُ الولَدَيْنِ إلى بيتِ صديقه، يتركُهُما هناك أسبوعًا كاملاً، وأنا لا أعرفُ أين أولادي؟ هل يَجوزُ له أن يَسحَبَ السَّكِين ويَغْرِسَها في عُنُقِي، ويُهَدِّدُنِي

(1) Mari Angeles اسم إسباني مؤنث، ذو أصلٍ عبري أو إغريقي، معناه باللغة العربية: «مريم صاحبة الملائكة».

ملاحظة: كل الأسماء مُثَبَّتة في هذا الكتاب كما تُلفظ باللغة الإسبانية.

بالقتل إن بلغت عنه وطلبت الطلاق؟ الطلاق الذي قد تستمر معاملات ومحاكمته أعواماً في بلدنا المتخلف! متى سيصدرون القوانين التي وعدونا بها لتسهيل الطلاق في إسبانيا⁽¹⁾؟!

قاطعتها ريميديوس، وقالت: أنا لا أفهم ماذا يجري؟ عشت معه ثلاثة أعوام كخطيبة قبل أن تتزوجا، ولم يدر منه شيء، تزوجته واحتملت فقره وكسله وعدم رغبته في إتمام دراسته ولا في العمل.

قالت ماري أنخلس وهي تمسح دموعها: بلى بدّر منه، لم يكن ملاكاً، لكنه كان مُحتملاً، ثم ألا تذكرين ريميديوس البيت الذي كنت أسكنه، تحت الأرض بطابقين من دون حمام؟ ولم أقل شيئاً.. صبرتُ ريثما يُنهي دراسته، ولم يُنهِها، ولا يُريد أن يُنهِها، عَمِلْتُ وساعدته في كل شيء.. فلماذا انقلب إلى وحشٍ كاسر بعد أن دخلت في الإسلام؟ لماذا؟!!

كان الكلام مُوجهاً إليّ مباشرة، وبقيت صامتة.. ماذا أقول؟ وهو الذي صادفته مرّة في العيادة التي يعمل فيها أبو الأولاد، فكان أول ما قاله لي: أرجو أن تُعلّمي «ماري أنخلس» أنه لو كان أحد يسجد لأحد فإن واجب المرأة أن تسجد لزوجها، فلقد أسلمت وتريد أن تأتيك لتعلميها الإسلام!!

استشاط زوجي غضباً يومها، وقال له: أيها الأحمق، وهل الإسلام هو هذا؟

(1) اعترف الدستور الإسباني بالحق في الطلاق لأول مرة في تاريخ إسبانيا عام 1932، وصدر تعديل قانون تسهيل الطلاق الذي وعدت به الحكومة الاشتراكية الأولى، في إسبانيا عام 1981، وتمت الموافقة على قانون الطلاق فائق السرعة، عام 2005 في عهد الحكومة الاشتراكية الثالثة.

قال الرَّجل: لا.. لَكِنَهَا قَدْ تَنَمَّرَتْ عَلَيَّ كَثِيرًا، وَعَلَيْهَا أَنْ تَفْهَمَ
بَعْدَ إِسْلَامِهَا أَنَّ الْمُسْلِمَةَ لَا يَنْبَغِي أَنْ تَتَنَمَّرَ عَلَى زَوْجِهَا!

نَظَرْتُ إِلَى الرَّجُلِ بِازْدِرَاءٍ وَلَمْ أَنْبَسْ بِنْتَ شَفَةِ.

عِنْدَمَا زَارَتْنِي مَارِي أَنْخَلِسَ فِي بَيْتِي عَلَّمَتْهَا أَنَّ «لَا إِلَهَ إِلَّا
اللَّهُ» تَعْنِي أَنَّ لَا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ.

جَاءَنَا أَسَامَةُ هَذَا بَعْدَ فِتْرَةٍ، يَشْكُو زَوْجَتَهُ وَيَشْكُونِي مَعَهَا،
أَنْنِي السَّبَبُ فِيمَا سَمَّاهُ نُشُوزُهَا! لِأَنْنِي لَمْ أَعْلَمْهَا - كَمَا قَالَ -
كَيْفَ تَكُونُ أَخْلَاقُ الْمُسْلِمَةِ مَعَ زَوْجِهَا.. تَحَدَّثَ عَنْ تَقْصِيرِهَا فِي
تَنْظِيفِ الْمَطْبَخِ، وَرَفْضِهَا أَنْ يَأْتِيَ بِأَصْدِقَائِهِ إِلَى الْبَيْتِ، لِأَنَّهَا تَدَّعِي
أَنَّهَا مَرِيضَةٌ وَأَنَّهَا لَا تَسْتَطِيعُ خِدْمَتَهُمْ، رَاحَ يَهْلُوسُ بِكَلَامٍ قَبِيحٍ
وَأَلْفَافٍ سَاقِطَةٍ عَنْهَا وَعَنِ الْأَوْلَادِ.. وَأَنَّهَا تَتَدَخَّلُ فِي شُؤْنِهِ كُلِّهَا،
وَتَسْأَلُهُ أَيْنَ ذَهَبَ، وَأَيْنَ سَهَرٍ، وَمَعَ مَنْ كَانَ طَوَالَ اللَّيْلِ؟ وَهُوَ
الرَّجُلُ! وَلَيْسَ لَهَا أَنْ تَسْأَلَهُ عَنْ شُؤْنِهِ! وَلَا تَتَدَخَّلَ فِيهَا! تَصُورُوا
- قَالَ - إِنَّهَا بَدَأَتْ تَعْمَلُ وَلَا تُعْطِينِي الْمَالَ الَّذِي تَكْسِبُهُ!!

قَالَ لَهُ أَبُو سَاجِدَةَ: لَعَلَّكَ تَظُنُّ أَنَّ إِسْلَامَهَا يَعْنِي أَنَّهَا أَصْبَحَتْ
عَبْدَةً عِنْدَكَ؟ لَا يَوْجَدُ فِي كُلِّ مَا ذَكَرْتَ مُبَرَّرًا وَاحِدًا لِتُعَامِلَهَا هَذِهِ
الْمُعَامَلَةَ السَّيِّئَةَ، وَكَيْفَ لَا تَرِيدُهَا أَنْ تَدْخِرَ مَالَهَا لِنَفْسِهَا، بَعْدَ
الَّذِي رَأَتْهُ مِنْ تَقْصِيرِكَ وَاتِّكَالِكَ عَلَيْهَا فِي الْعَمَلِ، يَا أَخِي مِنْ حَقِّ
زَوْجَتِكَ أَنْ تَعْرِفَ عَنْكَ كُلَّ شَيْءٍ، وَالرَّجُلُ الْمُسْتَقِيمُ لَيْسَ لَدَيْهِ مَا
يُخْفِيهِ عَنْ أَهْلِهِ.

قَالَ وَكَأَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ شَيْئًا: أَلَمْ يَقُلِ النَّبِيُّ حَدِيثًا: «لَوْ كُنْتُ
أَمْرًا؟» هَلْ تُرِيدُ تَغْيِيرَ الْإِسْلَامِ يَا رَجُلُ؟

ضَرَبَ أَبُو سَاجِدَةَ يَدًا بِيَدٍ وَهُوَ يُحَوِّقُ وَقَالَ لَهُ: لَنْ أُنَاقِشَكَ
فِي مَلَابَسَاتِ هَذَا الْحَدِيثِ، وَدَرَجَةِ صَحَّتِهِ، لَكِنَّ تَفْسِيرَهُ يُشَبِّهُ

تفسير سُجود إخوة يوسف ليوسف، لا أكثر ولا أقل، تحية عرفان واحترام.

ولكن ألم تفهم - يازلمة - من كلّ تعاليم الإسلام وأخلاقه ومعاملاته إلا هذا الحديث؟ ألم يرد كذلك «خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ» و«رفقاً بالقوارير»، و«ما أهانهنَّ إلا لئيم»؟ تأخذون من النصوص ما تُبررون به أفعالكم، وتدعون جوهر الدين وروحه؟!!

قالت ماري أنخلص مُوجَّهةً الحديث إليّ: أنا مُسلمة، دخلتُ الإسلام بِمَحْضِ إرادتي، وما كان أسامة يريد لي أن أصبح مُسلمة، كان يُراودني عن إسلامي.. لأن إسلامي يعني حرمانه من احترام النَّاس وعائلي له، وظنُّهم أنه أرغمني على ذلك! لا هو ولا أحدٌ غيره سوف يُرغمني على ترك الإسلام، أنا لم أُسلم من أجله، كما أنّني لن أخرج من الإسلام بسببه.

لن أفعل ما فعلته ليندا⁽¹⁾، أخذَ زوجها أولاده وهرب إلى السُّعودية، فلما لحقتُ به وجدته قد تزوج ابنة عمته، ومنعها أحدُ القضاة من إسترداد أولادها وأن تعود بهم إلى إسبانيا دون إذن الزوج.. فازتدت عن الإسلام!

أنا لن أفعل هذا.. لقد طلبتُ الطلاق هنا في بلدي قبل أن يفعل أسامة ما فعله زوج ليندا.

قلت له البارحة: اتَّقِ الله فيّ وفي الأولاد، فأجابني: أنا ربُّ هذا البيت، أنا «الله» في هذا البيت!!

(1) Linda اسم إسباني مؤنث فرد، يعني باللغة العربية: الظرفية الأنيقة الرشيقة.

رجُلٌ مجنون كهذا لا يَسْتَحِقُّ أَنْ يَكُونَ وَصِيًّا عَلَى إِسْلَامِي
ولا على أبنائي.



تَسَلَّمْنَا مفاتيح الدَّارِ، ودخلناها لِنُفَاجَأَ بِوَضْعِهَا الْمُزْرِي..

إِذَا قَلَبَ الْمَرْءَ النَّظَرَ فِيهَا، وَوَقَعَتْ عَيْنَاهُ عَلَى الْفُرَشِ وَمَسَابِلِ
الْأَسِرَّةِ وَوَسَائِدِ الْأَرَائِكِ، ظَنَّ أَنَّهَا خَرَجَتْ لِتَوَّهَا مِنْ مَقَالِبِ
الْقُمَامَةِ، فَإِذَا جَلَسَ عَلَيْهَا أَوْ اضْطَجَعَ تَحَقَّقَ ظَنُّهُ وَصَارَ يَقِينًا،
وَمَا فَتَحَتْ دُرْجًا أَوْ بَابَ خِزَانَةٍ إِلَّا وَوَجَدَتْ فِيهَا صِرَاصِيرَيْنِ
عَلَى الْأَقْل، مِنَ الْحَجَمِ الصَّغِيرِ الَّذِي يُثِيرُ الشَّفَقَةَ، أَمَّا إِذَا دَخَلَتْ
الْمَطْبِخَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْمَطْبِخُ، فَهَنَّاكَ رَوَائِحُ اللَّحْمِ النَّيِّءِ، وَالسَّمَكِ
الطَّازِجِ، وَالخَضِرَاوَاتِ، قَدْ صَعَدَتْ مِنَ الطَّابِقِ الْأَسْفَلِ وَاسْتَقَرَّتْ
فِي مَطْبَخِنَا ذَاكَ، حَيْثُ لَا خِزَائِنَ، وَلَا أَدْرَاجَ وَلَا مِنْضِدَةَ وَلَا
كَرَاسِي وَلَا رُفُوفَ.

كَانَ الْمَطْبِخُ مُجَرَّدَ مَجْلَى، وَصُنْبُورِ مِيَاهٍ، وَنَافِذَةٍ تَطُلُّ عَلَى
قَبْرِ مُشْتَرَكٍ بَيْنَ مَزَلِنَا هَذَا «الَّذِي يَلِيْقُ بِأَسْرِ النَّاسِ الْمَسْتُورَةِ»،
وَالسُّوقِ الَّتِي تَقَعُ تَحْتَهُ مَبَاشَرَةً.

وَكَانَتْ لِلْمَطْبِخِ مِيزَةٌ لَا يَنْبَغِي نَسْيَانُهَا، وَهِيَ أَنْ صَرَاصِيرَهُ
لَمْ تَكُنْ كَصَرَاصِيرِ الصَّلَاةِ، بَلْ مِنْ الْحَجَمِ الْكَبِيرِ الْمُحْتَرَمِ، الَّذِي
يُثِيرُ الرَّغْبَةَ فِي الْهَرَبِ، بَعْدَ تَقَنُّفٍ فِي الْجِسْمِ وَاسْتِثَارَةٍ لِكُلِّ مُشَاعِرِ
الرَّفْضِ وَالْحَقْدِ وَالْعُنْصَرِيَّةِ وَكَرَاهِيَةِ الْآخِرِ!

لَا يَسْتَفِزُّ فِي نَفْسِي مِثْلُ هَذِهِ الْمَشَاعِرِ مُجْتَمِعَةً، إِلَّا مَخْلُوقَانِ
إِثْنَانِ، الصُّرُصُورُ، وَ«رَفَعْتَ الْأَسَدَ»، الْقَمِيءُ الْمُنْحَطُ الْمُجْرَمُ
الْمَتَوَحِّشُ، شَقِيقُ الرَّئِيسِ السُّورِيِّ الْمُجْرَمِ الْمَتَوَحِّشِ! الَّذِي
يُثِيرُ فِي نَفُوسِ السُّورِيِّينَ، مُجَرَّدَ ذِكْرِ اسْمِهِ، كُلِّ أَنْوَاعِ الْغَضَبِ
وَالْإِشْمَازِ!

من أين جاء هذا الحجم الصرّاريّ المُتميز؟ سألت ابنتي بأعوامها الخمسة، مذعورة من هذه الهجمة الصرّارية غير المسبوقة في حياتنا، فأجبتها مُتَوَخِّية الدّقة في الإجابة، وأنا لا أقلّ دُعرًا عنها: إنه يا ابنتي حصيلة التّغذية المُتوازنة، والأمن الاجتماعيّ، والعناية الصّحيّة، والاستقرار السياسيّ، والتّربية الراقية!

هَزَت الصغيرة المسكينة رأسها موافقة، وانصرفت وهي تضرب يدًا بيد، ثم سَمِعْتُها تشرح القضية لأختها الأصغر: «هذا «بيت الأسد» الشرير الكافر، لا يُمكن أن يكون بيتًا للطّيبين الأخيار المؤمنين أبدًا.. أبدًا!»

لم أُحدِّث أولادي - قط عن آل الأسد وما فعلوه في سوريا، وفي مدينة حماة، لم نُربِّ الأحقاد في نفوس أبنائنا، تركناهم يَنُمُون سَلِيمي القلوب، مُتَعافين من الكراهية.. إلا أنّهم على صِغَر سنّهم، كانوا يَلْتَقِطُونَ أحاديثنا نحن الكبار، فَهَمُوا منها أن هناك غولًا ابتلع سوريا، مما اضطرَّهم أن يعيشوا بعيدًا عن جَدّتهم اللّتين يحبونهما كثيرًا، وهو - الغول - الذي تسبب في أن يعيشوا غُرباء، وألّا تَمَكَّنَ أمُّهم من زيارة سوريا كلّ عام، كما تفعل معظم «المامات»⁽¹⁾ في الصيف والعُطل.

صحيح أننا لم نكن في رَغَدٍ وَبَحْوَحَةٍ من العيش في غرناطة، لكننا كُنَّا أسرة طيِّبٍ لا يزال في مرحلة التّخصّص، وقد شغل جُلّ وقته بعمارة وتأسيس الجمعية الإسلاميّة في غرناطة، ولا يكاد يجد وقتًا للبحث عن الرِّزق أو التّفكير في مستقبل عائلته، لم يكن يَظُن ولا للحظة واحدة أنه سيَسْتَقرّ ويعيش ويُقيم وأسرته في إسبانيا، كانت تكفيه مُساعدات الوالد المُتدقّقة شهرًا إثر شهر، في كَرَمٍ وَصَبَرٍ وَرِضى، يَدْعُمُهُ حُلْم ذلك الوالد بعودة ولده طيِّبًا

(1) جمع الأطفال العفوي لكلمة «ماما».

مُخْتَصًّا يَفْتَحُ عِيَادَةً إِلَى جَوَارِهِ، وَيُعِينُهُ عَلَى لَأَوَاءِ الشَّيْخُوخَةِ وَالْأَمِ
غُرْبَتِهَا.

غَلَبَ تَعَايُشُهُ مَعَ غُرْبَتِهِ فِي إِسْبَانِيَا صَبَرَ أَبِيهِ عَلَى غُرْبَةٍ -
شَيْخُوخَتِهِ، لَمْ تَنْقُطْ تِلْكَ الْمُسَاعَدَاتُ عَنْهُ، حَتَّى يَوْمَ وَفَاةِ
وَالِدِهِ، قَبْلَ أَنْ يَرَى حُلْمَهُ قَدْ تَحَقَّقَ بِفَتْحِ عِيَادَةٍ خَاصَّةٍ بَوْلَدِهِ فِي
قَلْبِ دِمَشْقٍ، تَقَرَّرَ عَيْنُهُ بِهَا، وَنَسِيَهِ مَرَّأَهَا وَوَلَدَهُ فِيهَا، تَعَبَ السَّنِينَ
وَاسْتَنْزَافَ الْأَمْوَالِ.

كُنَّا أَسْرَةً طَيِّبِ شَابٍ، صَغِيرَةٍ عَادِيَةٍ مُتَوَسِّطَةِ الْحَالِ، كَمُعْظَمِ
أَسْرِ الطَّلَبَةِ الْوَافِدِينَ إِلَى إِسْبَانِيَا مِنْ بِلَادِ «العرب»، أَسْرَةً مُتَوَاضِعَةٍ
تَتَوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ وَتُمَسِّسِي أُمُورَهَا، وَتُظَنُّ أَنَّ مَرَحَلَةَ الْعَمَلِ التَّطَوُّعِيِّ
لِخِدْمَةِ الْجَالِيَةِ الْمُسْلِمَةِ فِي إِسْبَانِيَا سَوْفَ تَنْتَهِي، وَسَوْفَ نُقَدِّمُ
الطَّلَبَاتِ لِلْعَمَلِ فِي دَوْلَةِ خَلِيجِيَّةٍ قَرِيبَةٍ مِنْ سُورِيَا، تُسَهِّلُ زِيَارَةَ
الْأَهْلِ وَرَوْيَتَهُمْ، وَتُعِيدُ أَبُو سَاجِدَةٍ وَأُمُّ سَاجِدَةٍ وَأَوْلَادُهُمَا إِلَى بِلَادِ
العرب والمسلمين.

آخِرُ مَا كَانَا يَتَوَقَّعَانِهِ هُوَ أَنْ يَنْتَهِيََا إِلَى بَيْتٍ مِثْلِ هَذَا، لَكِنَّهَا
الْغُرْبَةُ - تُشَوِّهُ الْأَصُولَ، وَتُرْهِقُ الصَّدُورَ!

وَلَقَدْ ظَنَنْتُ يَوْمَهَا أَنَّي فِي كَابُوسٍ فَاسْتَسَلَّمْتُ لِلْكَابُوسِ
رَيْثِمًا أَسْتَيْقِظُ لِأَتَحَرَّرَ مِنْهُ، كَمَا هِيَ حَالِي مُنْذُ قَدِمْتُ إِسْبَانِيَا..
أَرَى دَائِمًا وَفِيمَا يَرَى نَصْفُ النَّائِمِ، أَنَّنِي عُدْتُ إِلَى دِمَشْقٍ،
وَرَكِبْتُ سَيَارَةً أَجْرَةً لِأَذْهَبَ إِلَى بَيْتِنَا، وَمَدَدْتُ يَدِي إِلَى السَّائِقِ
بَتِلْكَ الْحَفْنَةِ مِنَ الْقِطْعِ النَقْدِيِّ، إِحْتَفَظْتُ بِهَا يَوْمَ مَغَادِرَتِي دِمَشْقَ
مِنْ أَجْلِ هَذَا الَّذِي أَفْعَلُهُ بِالضَّبْطِ، الْعَوْدَةِ إِلَيْهَا.. يَلْتَفْتُ إِلَيَّ سَائِقُ
التَّاكْسِيِّ بِوَجْهِ قَبِيحٍ غَرِيبٍ مُخِيفٍ، صَائِحًا: مَا هَذِهِ السَّخَرِيَّةُ؟ هَذِهِ
النَّقُودُ مَا عَادَتْ لِلِاسْتِعْمَالِ هُنَا! أَكَلَّمَهُ، فِيزِدَادُ غَضَبًا وَلَا يَفْهَمُ
عَلَيَّ، وَأَرِيدُ أَنْ أَسْتَذْكِرَ عُنْوَانَ بَيْتِي فَلَا أَذْكُرُهُ، وَكَلَّمَا جَاهَدْتُ
لِأَتَكَلَّمَ، خَرَجَ الْكَلَامُ مُبْهَمًا غَرِيبًا غَيْرَ مَفْهُومٍ، لَا عَرَبِيًّا وَلَا إِسْبَانِيًّا،

والسائق يَلْفُ ويدور هائجاً مُضطرباً في شوارع دمشق، فلا هو يعرف أين يذهب، ولا أنا أعرف أين دارنا!

لم تكن المرة الأولى ولن تكون الأخيرة، التي «تَشْرَدنا» فيها بسبب قناعاتنا عن الغرب والوطن والهجرة والعودة، كما حماقاتنا في فهم «العمل الإسلامي»، والكرم الحاتمي الانتحاري الأهوج المتعلق به - في تلك المرحلة، قبل أن يتمّ توطينه في الغرب، وتحوله إلى مؤسسات خيرية تعمل بإشراف الدُول المضيفة - وإدراك مُلابسات العيش والأسرة والغربة وأن يَرزُكَ الله بالأبناء ومُستقبلهم وحياتهم ومآلاتهم.

جاءت زوجة ذلك الأخ الطيب، الذي كان قد بذل جهده ووقته لبحث لنا عن منزل يليق بنا - كما قال - وحاولت الجلوس على تلك الأريكة، يَغوصُ كل من يجلس عليها في أحوالها وتكسر لوالِها وهشاشة خَشَبها، حاولت التّخفيف عني، وهي تقول لي بلهجتها الحمويّة: يا أمّ ساجدة.. ألا ترين مصائب البشريّة؟ انظري كيف يعيش النّاس في نيكاراغوا؟ تفكّري في المصائب التي نزلت بإخوانك في أفغانستان وفلسطين.. شوفي⁽¹⁾ شو صار فينا في حماة، ما بقي فيها حجر على حجر!

نظرتُ إليها في حُنى وغيظ، ثم خِفْتُ أن أرتكب زلّة كبيرة، فأثرتُ الصمت، والصمتُ في موضعه فضيلة لا يختلف اثنان على مآثرها.. ثم شعرتُ بالخجل من غُصبي وقهري، ومن غيظي وحُنفِي.

كان همّي إنقاذ أولادي من ذلك الوضع الذي رأيته شاذّاً، كان من واجبنا أن نعيش حياتنا كما يليق أن نعيشها ضمن

(1) «شوفي» - كلمة عامية تستعمل في اللهجة الدمشقية بمعنى انظري، وأصلها فعل «تَشَوَّفَ».

إِسْتَطَاعَتَنَا، لم يكن من اللَّائِقِ ولا من الطَّبِيعِيِّ أَنْ يُنْزَلَ المَرءُ نَفْسَهُ
مَنْزِلَةً فِي إِسْتَطَاعَتِهِ أَنْ يَكُونَ فِي خَيْرِ مَنِهَا.

كانت مُحَدَّثَتِي الطَّبِيبَةُ الحُمُويَّةُ لا تَزَالُ تُخَفِّفُ عَنِّي، وَأَنَا
غَارِقَةٌ فِي أَرِيكَتِي وَأَحْلَامِي وَهَمُومِي نِصْفَ نَائِمَةٍ، وَنِصْفَ مُغْمَى
عَلَيَّ، حِينَ حَصَلَ مَا يُمْكِنُ أَنْ نُسَمِّيهِ «مُعْجَزَةُ الإِسْتِيقَاطِ»..
شَعَرْنَا بِأَرْتِجَاجٍ جَمَاعِيٍّ فِي المُنْخِ أَصَابِنَا، وَزَلْزَلَةٌ فِي البَيْتِ،
وَرِعْدَةٌ فِي المَعِدَّةِ، وَلَمْ تَمْضِ إِلَّا دَقَاقُ مَعْدُودَاتِ أَفْقَانَا فِيهَا مِنْ
فَرْعِ المُفَاجَأَةِ، حَتَّى تَبَيَّنَ لَنَا أَنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ لَمْ يَكُنْ إِلَّا أَجْرَاسُ بُرْجِ
الْكَنِيسَةِ تُعْلِنُ انْتِصَافَ النِّهَارِ! قَرَعَتْ تِلْكَ الأَجْرَاسُ اثْنَتَا عَشْرَةَ مَرَّةً
بِسَبَبِ هَذِهِ المُنَاسِبَةِ السَّعِيدَةِ! وَقَبْلَ أَنْ تَمْضِيَ سَاعَةٌ أُخْرَى فَهَمْنَا
أَنَّ هَذِهِ السَّاعَةَ التَّارِيخِيَّةَ تَدُقُّ كُلَّ سَاعَةٍ بِعَدَدِ السَّاعَاتِ، مُعْلِنَةً
مَرُورَ الوَقْتِ مِنْ دُونَ كُلِّ، فِي ضَاحِيَةٍ يَقْضِي مَعْظَمَ أَهْلِهَا وَقْتَهُمْ
فِي التَّشَمُّسِ وَالثَّرَثَةِ، وَالجُلُوسِ فِي الحَدِيقَةِ المَحِيطَةِ بِالْكَنِيسَةِ،
يَتَجَذَّبُونَ أَطْرَافَ قِيلٍ وَقِيلٍ، وَكَأَنَّ تِلْكَ الأَجْرَاسَ إِعْتَادَاتِ
جُلُوسِهِمُ الكَسُولِ ذَاكَ فَأَرَادَتْ أَنْ تَسْتَهْضِمَهُمُ لِلْحَيَاةِ وَالحَرَكَةِ..
وَلَكِنْ لَا هِمَّ يُمْكِنُ اسْتِنْهَاضُهَا فِيْمَنْ تُنَادِيهِمْ، مِمَّنْ أَرَهَقَتْهُمْ
الشَّيْخُوخَةُ وَالمَلَلُ مِنَ الحَيَاةِ.

لَا نَوْمَ وَلَا كَوَابِيسَ إِذَا.. إِنَّهُ الوَاقِعُ المُرُّ، وَالحَقِيقَةُ الجَرَبَاءُ،
الَّتِي جَعَلْتَنَا نَخْرُجُ مِنْ غَرْنَاطَةِ الوَادِعَةِ الحَالِمَةِ الحَزِينَةِ، لِنَقَعَ فِي
بِرَائِنِ هَذَا الغُولِ المُفْتَرَسِ الَّذِي يُدْعَى «تُورْخُونِ دِهْ أَرْدُوثِ» عَلَى
أَطْرَافِ مَدْرِيدِ!

وَمَا كِدْنَا نَسْتَسْلِمُ لِهَذِهِ الحَقَائِقِ «الطَّنَانَةِ»، حَتَّى جَاءَتْنَا
صَاحِبَةُ الدَّارِ.. سَيِّدَةٌ فِي الخَمْسِينَ مِنْ عَمَرِهَا، طَوِيلَةٌ، مُمْتَلِئَةٌ
الجِسْمِ، مَفْتُولَةٌ العَضَلَاتِ، مُصَفَّقَةٌ الشَّعْرَ، تَرْتَدِي ثَوْبًا ضَيِّقًا
لِيَلْكِي اللَّوْنَ، وَفَوْقَهُ وَبِزْرَيْنِ تَحْتَ كَتْفَيْهَا عُلَّقَتْ مَرْيُولًا أَيْضَ

مُزركشًا بالدانتيل⁽¹⁾ المُفرَّغة الأنيقة، يَنِمُّ عن عملها في أحد مَحَلَّاتِ السوق التي يعلوها بيتنا، فهذا هو الزيُّ الرَّسميُّ للسيدات العاملات في محال البقالة واللَّحْم وبيع الخضراوات في الأسواق الإسبانيَّة.. حِنْطِيَّة اللَّون، صَبِيَّة العَيْنين، عِدائِيَّة النَّظرات، قد انْتَفَخَتْ أوداجُها، واحمرت وجنتاها السَّميكتين، وانزوى فَمُها الصغير رقيق الشَّفَتين، يُنبئُ بمِعرَكة.

جاءت مُربدة مُزبِدة، فقد أبلغها إخواننا الأكارم إِستِئاءنا من الدَّار وما فيها ومَن فيها، ودخلت معركة حامية الوطيس معنا، وهي تَتَعَجَّب من أن تَسْتَنكر شَقِيَّة⁽²⁾ «مورا» - مثلي وجود صراصير ترعى أمانة مطمئنة في دارها:

- يعني حضر تكم لا صراصير عندكم يا سيدة؟

- لا يا سيدة، لا صراصير عندنا، يعني ممكن أن نجد صرصاراً أو صرصارين من الحجم الصغير اللطيف!

- لعلكم جِئْتُم من سويسرا؟

- لا يا سيدة.. نحن قادمون من غرناطة!

- وقبل غرناطة كنتم في باريس؟ الصراصير تتجول حُرَّة طليقة في إفريقيَّتِكُم.. هذا نفاق يا سيدة!

- مع كلِّ إحترامي لِلأفارقة، نحن لسنا أفارقة يا سيدة.. وحَضْرَتُكَ تَنَحَّرُفِين بالحديث عن مَسارِه.

لأوّل مرّة، أُنَبِّهُ أنّا آسيويون! تَوَقَّفْتُ قليلاً عند الموضوع الآسيوي، وإِسْتَأْنَفْتُ فَقُلْتُ: نحن آسيويون يا سيدة!

(1) دانتيل: نوع من الأقمشة المثقوبة المطرزة / ثوب موشى بالدانتيل / معجم اللغة العربية المعاصرة.

(2) شقفة: قطعة مكسورة من شيء - المعجم الرائد.

- آسيويون يا سيّدة، آسيويون؟ إذا حضراتكم يا سادة تأكلون الصراصير، وتأتون هنا تجعلون من أنفسكم أمراء حرب!
العمى.. العمى⁽¹⁾ هجومٌ مُسلَّحٌ بالقنابل الانشطارية هذا!
استوقفتنا العبارة، فهذه جديدة علينا تمامًا! لم يدعنا أحدٌ من قبل بأمراء حرب! ماذا كانت تقصد تلك السيدة المجنونة؟

قال لها أبو الأولاد بعد أن تسلم المعركة خشية أن تتهجم عليّ بالضرب، وهي التي تتمتع بقدرات جسدية بارزة للعيان: يا سيّدة، لا داعي للإهانات، هذا بيت لا يستكمل شروط السكن الصحي.

- خذ يا سيّد سيّدتك هذه - يعني أنا - وارحلا بحثًا عن قصرٍ يليق بحضرتيكما!

- يا سيّدة، لا داعي لقلّة الأدب من فضلك، حضرتك صاحبة المنزل، ونحن نشتكى لك من الصراصير، وهي هنا وفيرة، ولا علاقة لك بأصلنا وفصلنا، ومن أين أتينا وإلى أين نحن ذاهبون، هذه شكوى محدّدة، وحضرتك انحرفت تمامًا عن الموضوع.

- يُمكنك يا سيّد ترك البيت، ولَن أعيدَ لكم أجرّة هذا الشهر، ولا مبلّغ الضّمان الذي دفعتموه، أمثالكم لا يحلمون بالعيش في غرفة واحدة من غرف بيتي هذا!

«اللهمّ جيبك يا طولة البال»⁽²⁾!

(1) عمى «اسم»، عَمِيَ «مصدر»، ألمّ به العمى: ذهب بصره، وفي القرآن الكريم: [سورة فصلت، آية: 17] ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾/ المعجم الغني. وكلمة «العمى» شائعة الاستعمال الاستنكاري في لهجة أهل الشام.

(2) مثل شامي يعني «اللهم طول بالنّا»/ وفي معجم المعاني الجامع «طويل البال: هادئ لا يزعج».

ما بين «يا سيِّدة»، و«يا سيِّد»، و«حضرْتُكَ» و«حضرْتُكِ»، وهي الألقاب التي كان يدعو بها المتخاطبون بعضهم بعضاً في جميع أنواع الحوارات في إسبانيا، قبل أن يتأمرَّك القوم فيَدْعُون بعضهم بعضاً بالأسماء المُجَرَّدة المُفَرَّدة، أُصِبنَا بالدُّوَار لكثرة ما صاحَتْ، وجادَلَتْ، وأطلَقَتْ من إهانات وأذى، وصاحِبنا الحموي وزوجَتَه يُحاوِلان الفصل بيننا وبينها، وإخراجها من الدَّار قبل أن يحدث ما لا تُحَمِّدُ عُقْبَاه.

انْتَعَشَتْ آمالنا برؤية عميد أُسْرَتِنا قد أخذت منه الحَيِّية كُلَّ مَأْخُذ، وشَعَرَ بِثِقَلِ المسؤولية الخطيرة على عَاتِقِهِ، وهو يرى أُسْرَتَهُ وقد انْتَهَكَتْ صَاحِبَةَ الدَّار كرامَتَهَا، وأصبحت مَحَطَّ أنظار القاصي والدَّاني من سُكَّان القرية، ممن يُمضون جُلَّ نهارِهِم في التَّحَدُّثِ عن النَّاسِ، وقد صارت لديهم مادة غنيَّة لِقَتْلِ الوقت في الحديث عن هذه الأسرة من «الموروس» الغرباء، الذين سكنوا هذا المنزل المرموق فوق السُّوق! ولَعَلَّه المكان المُناسب وبالضَّبْط لِعَمَلِ قائم مَقَام، حيث لا تخفى عليه مِنْهُمْ خَافِيَةٌ، كما لا يمكن فيه كَتْمٌ ولا سِتْرٌ شيء من شأنِهِ عن أفراد شعبِهِ المُرابطين أبداً تحت ناظرِيهِ، حارساً أَمِيناً على مَصَالِحِهِم، كما هُم رُقَبَاءُ سَاهِرُونَ على وِلَاةِ أَمْرِهِم!

إنها لعمري مكانة لا ينالها إلا من غَضِبَ اللهُ عليه!

رُحْتُ أَرَا جَعٌ في ذهني، كُلُّ الذُّنُوبِ العظيمة التي جَنَّتْهَا يَدَاي في هذه الحياة، حتى اسْتَحَقَّ عَلَيَّ هذا العِقَاب، ولكن وقبل أن أَسْتَرْسِلَ في اسْتِذْكَارِي ذُنُوبِي الشَّنيعة، وأبو الأولاد مُتَأَهِّبٌ لِحَلِّ المشكلَّة، وكأنه لا يَسُّ دِرْعَهُ لِلذَّهَابِ إلى دَاحِسَ والغبراء، حصل ما لم يكن في الحسبان!

في هذا العالم طائفة تُدعى «الكونكوردي»، أو «البوينغ 747»، ارتبط اسمها في ذهني بذلك الصَّوت المُريع الذي أحدثته لدى

مرورها في الأجواء السورية أثناء تجربتها أول مرة، حيث تم تنبيه الناس في نشرات الأخبار، حتى لا يُصيبهم الفرع من شدة صوتها، الذي يُشبه زعيق طائر أسطوري هائل مرعب، لم تفاجئ الدمشقيين قوته وبشاعته، في حقيقة الأمر، فلطالما سمعوا نفس دويّه من قبل، كلما قامت الطائرات الإسرائيلية المعتدية باختراق جدار الصّوت بين الحين والحين وهي تُحلّق كوحوش مفترسة مخيفة في سماء دمشق، مُتَهَكِّةً المجال الجويّ السّوريّ برحلاتها الإرهابيّة المُعتادة فوق رؤوسنا!

في ذلك البيت في «تورّخون ده أردوث» وفي تلك اللَّحظة بالضبط، حدث شيءٌ مُشابهٌ فظيع! لم نُدرِك بدايةً كُنْهه، صوتٌ يَشقُّ قدرة المرء على التّوازن، ويُنذِرُ بِشَرٍّ مُسْتَطِير، كانت طفلي الرّضيعة نائمة، فاستيقظت مذعورة تُطلق أصوات الرُّعب كمن أصابَه مَسٌّ، وتَشَبَّثَتِ البِتانِ بأبيهما، لا يدري بمن يبدأ لِتسكين الرّوع، الذي استحوذَ على أسرته، وقد عانت في صبيحة ذلك اليوم ما تعانيه أسرة مشردة في حمى حربٍ ضروس.

خطر في ذهني أن إسرائيل تَبْعَنّا إلى مدريد، لِتَضْرِبَ، وتُدَمِّرَ، وتَعْتدي، وتَخْتَرِّقَ جدران الأصوات كما يحلو لها أن تفعل، وأن إسبانيا المسكينة قد وَقَعَت فريسة إِسْطِيطانٍ إسرائيليّ، وَلَحِقَتْ ببلادنا المنكوبة! ولعلنا نحن التّعساء، تَلَحُّقُ بنا الحروب والبلاءات أينما ذهبنا وحيثما حللنا.. ألم تقع فور وصولي إسبانيا قبل خمسة أعوام مُحاولَة الانقلاب إياه؟

خرجنا إلى الشُّرفة لِاستطلاع آثار الهجوم الإسرائيليّ الغاشم على مدريد! فإذا الناس جُلوس مُتَبَسِّمون والأحاديث تُدار.. ففترم اللُّحوم والأعراض في دِعة مُنْقَطِعة النّظير، كان القوم يُمارسون رِياضَتَهُم المفضلة: «المَغْيبة»، «الرياضة القوميّة الإسبانيّة» كما يُسمّونها مُتَفَكِّهين! وذلك قبل أن تُصبح رِياضَتُهُم «الشّكوى» من

كُلُّ شَيْءٍ.. من السياسة، من الحكومة، من المعارضة، من الإتحاد الأوروبي، من بدءِ تَدْفُقِ المهاجرين على إسبانيا، من قَلَّةِ المطر، من شدة البرد، من قَيْظِ الصيف، من تأخر المِصْعَد، من تقديم الساعة في التوقيت الفصلي، من مِكياج مُقَدِّمة الأخبار، من قلة حياء «كاميلو خوسه ثيلا»، الروائي الإسباني، ما إن اِشْتَهَرَ وراجت كُتُبُه وصار أقرب إلى جائزة نوبل من حبل الغسيل، حتى أقام دَعْوَى طلاق على زوجته، وتزوج بِسِكرتيرته التي تَصَغُرُهُ أربعين عامًا، وكتب كَلَّ ما يملكه بِاسْمِهَا! «الفأرة».. هكذا كان النَّاسُ يَدْعُونَهَا في مدريد! حَرَمَ زَوْجَتَهُ وابنه الوحيد من ميراثه الماديِّ والثَّقافيِّ.

إِذَا لَا حَرْبَ وَلَا إِحْتِلَالَ وَلَا كُونْكَوردَ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ.. كان ذلك سِرْبًا من طائراتِ سِلَاحِ الجَوِّ الأَمْرِكِيِّ، لَا يَقِلُّ عددها عن السَّبْعِ، قد عَادَت لِتَوَّها مِنْ إِحْدَى طَلْعَاتِهَا التَّدْرِيبِيَّةِ الْمُعْتَادَةِ! عَقُولُنَا الْعَرَبِيَّةُ الْمُرْهَقَةُ الْمُرْهَبَةُ لَا تُفَكِّرُ إِلَّا فِي الْحُرُوبِ وَالْإِعْتِدَاءَاتِ وَالْهَجُومِ وَالْقَصْفِ وَالْغَزْوِ، بِـ«فَضْلٍ» تَهْدِيدِ إِسْرَائِيلِ الدَّائِبِ لَوْجُودِنَا، وَمَلَابَسَاتِ إِعْتِدَاءَاتِهَا عَلَى بُلْدَانِنَا وَمُدُنِنَا وَحَيَاتِنَا مُذْ أَدْرَكْنَا وَجُودِنَا فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ.

لَمْ تُسْعِفْنَا اللَّحْظَاتِ التَّالِيَّةُ لِلإِسْتِمْرَارِ فِي حِمَايَاتِ تَصَوُّرَاتِنَا الْحَرْبِيَّةِ، فَقَدْ كَانَتْ وَجْهَ النَّاسِ مُتَبَسِّمَةً، يَتَخَفَتُونَ الْهَمْسَ وَالِاسْتِهْزَاءَ مِنْ سَدَاجَتِنَا وَخَوْفِنَا، وَتَبَرَّعَ أَحَدُهُمْ فَصَاحَ: يَا دَكْتُورَ لَا تَخَفْ لَا تَوْجَدُ أَيَّ مُشْكَلَةٍ، إِنَّهَا الطَّائِرَاتُ الْخَاصَّةُ بِالْقَاعِدَةِ الْجَوِيَّةِ الْأَمْرِكِيَّةِ الْمَوْجُودَةِ فِي الضَّاحِيَّةِ، وَهِيَ تَجْرِي هَذِهِ التَّدْرِيبَاتِ يَوْمِيًّا!

هِنَالِكَ.. وَدُونَ أَنْ يَنْبَسِ بِنْتِ شَفَةِ، أَخَذَ أَبُو الْأَوْلَادِ ذَلِكَ الصَّدِيقَ الْوَحِيدَ الَّذِي هَبَّ لِنَجْدَتِنَا فِي مَدْرِيدِ فَاسْتَأْجَرَ لَنَا هَذِهِ الدَّارَ الْمُعْتَرَّةَ، وَخَرَجَ كُلُّهُمَا «يَا قَاتِلَ يَا مَقْتُولَ» - كَمَا يَقُولُ الْمَثَلُ

الدَّمَشَقِيّ - للبحث عن منزل آخر في مكان آخر، يليق بأسرة غريبة
لا ملجأ لها ولا أهل، ولكن بقي لدى عائِلها من المُروءة ما يمنعه
من ترك أسرته المسكينة بين فكيّ هذا الوضع المتوحش.. ضاحيةٌ
كلّ ما فيها ومن فيها غريب ومُزعج، وقد تبين أنه لم يكن لِتلك
الدار من مِيزة، إلا قُرْبها من دار الأخ الذي تبرع فاستأجرها لنا،
أحبَّ الرَّجل أن يَسْتَأْنِس بِجِوارنا له، أحَبَّ الله كما أَحَبَّنَا!

كان منزلنا ذاك في «تُورْخون دِه أَرْدوْث» أول مَنْزِل نزلناه في

مدريد.



أنا «مورا»، هو «مورو»، هي «مورا»،
هم «موروس»، هن «موراس» -

● **يَرْنُ** جرس المنبه في تمام السابعة والنصف صباحًا، مُمزقًا
كلّ الأحلام في نصف ساعة فقط من النوم الهادئ بعد أن
يدخلُ الفجر، وقبل أن تطلع الشمس، فلا يحلو للمرء
النوم إلا عشرة دقائق قبل هذا الموعد أو ذاك، فتضيق عليه
الصلاة!

ضياح صلاة الفجر يعني بدء اليوم في خمول وكآبة، رانٌ
على القلب يُميته ويكسر ما فيه من الأشياء الجميلة، نهوض بلا
استيقاظ، وهنٌ يسيطر على النفس والجسم والروح معًا، إنه من
أشدّ الأشياء التي تُسبب الحسرة، أن يُضَيِّع المرء رؤية ضوء الصُّبح
يَتَسَلَّل في أناقة وثقة يُغيِّر سواد الأشياء.. أولُ دَرْس يُلقيه عليك
الكَوْنُ كلَّ يوم جديد لِيَمْنَحَكَ شيئًا من أمان، يُدَغِّرُكَ بأنَّ الصُّبْحَ
سَيَطْلَع لا مُحَالَة مهما اشتدَّ الكَرْب وسواد اللَّيْلِ.

إنه الفجر الذي يُضفي على الأشياء سِحْرَهُ، يَتَنَفَس، وَتَتَنَفَس
الخلايقُ معه تلك النَّسَائِم الأثيرة التي لا يمكن أن يشعُر بها المرء
إلا في تلك الساعة.

هذا الفجر يستدعي في نفسي كلَّ مَشَاعِر الحنين، يُدَكِّرُنِي
بالحقيقة المُصاحبة المُفْجِعة.. غُرْبَتِي ووَحدَتِي في مدريد كذلك،
على الرِّغم من وجود جالية لا بأس بأعداد أفرادها من سوريين
وفلسطينيين ومغاربة ومصريين.

هذا الشعور بالغربة والوَحدة يُصيب بالإختناق، لم أعانِه في
غرناطة ولا في مدريد فحسب.. بل لقد عِشْتَه في دمشق، أكثر من

عشرين عامًا بين أهلي وناسي، وكنتُ أحسُّ هناك بأنني أكثر وحدة
وأشدَّ غربة ممَّا أنا عليه هنا!

إنه الإدراك الكامل لحالة نقص الأوكسجين في الهواء الذي
تتنفّسه، وأنت تجتاز النفق الصخري العَتم الضيّق، يُفضي بك في
نهاية المطاف، إلى فضاءٍ داخليٍّ واسعٍ مُدهشٍ كبيرٍ مُضيءٍ في
جوفٍ كهفٍ.. حيثُ تعثُرُ في نهاية مُعاناتِكَ على «الكنز»!

الغربة والوحدة حالتان خاصّتان، يُعاني منهما بعض الناس،
ويتمتّع بهما بعضهم الآخر.. يعيشهما المرءُ من خلال طُقوسٍ
خاصةٍ بشوّةٍ وسعادةٍ، وربما بكآبةٍ وحُزنٍ، في أيّ أرضٍ، وفي كلّ
زمانٍ ومكانٍ، دون أن يكون لوجود الآخرين من حولك أو عدَمه
أيّ علاقة، أم أن هؤلاء الأدميين من حولك هم الذين يصنعون
لك هذا المعروف.. تأصيلُ غُربَتِكَ ومنحِها كلّ الأدوات اللازمة
ليكون مشروعِيّةٌ عليا في حياتِكَ؟

أكان ذلك ضريبة البحث عن الذات، في مجتمعٍ يَمُور
يريد كَسْرَ القوّةِ، ولا يعرف طريقًا إلى رُشدِه؟ أم هو الرغبة في
التّخلص من قيود شذوذ العادات والتقاليد في مجتمعاتنا، اتّخذت
منها آلهةً تعبُدُها وتبتلّ إليها؟ وهي التي تُقيّدُها وتُخنّقُها وتُشدُّها
إلى أرضِ اعتاداتِ الإلتصاق بها، تَزحف مثل حيّةٍ لا تستطيع
النُّهوض ولا الخلاص من قَدَرها، إلا إذا لدَغَت نفسها أو قطعَها
الأعداء.

أم أن هذا الشُّعور المرَضِيّ بالغربة الخاصة المُغرقة في
المُبالغات والنزجِسيّة، ليس إلا حالة إنسانيّة إستثنائيّة - عامة، لا
علاقة لها بطبيعة المُجتمع الذي يعيش فيه الفرد وينتمي إليه أو لا
ينتمي، فقد يتسبب انتماءك إلى المُجتمع بأن تُصاب بِجُرحِ الغربة
- الغائر، بالضبط كما يمكن أن يفعل عدم انتمائك إليه.

المسألة تتعلّق بِكَ أنتَ، ولا تتعلّق بالمُجتمع.

المسألة مُرَبِّطَةٌ بِقُدْرَتِكَ عَلَى اسْتِيعَابِ مَا حَوْلَكَ، وَفَهْمِ
وَإِدْرَاكِ مُلَابَسَاتِهِ.. وَتَقَبُّلِ شُدُودِهِ وَإِنْجِرَافَاتِهِ، وَالِاسْتِنَاسِ بِمِيزَاتِهِ
وَحَسَنَاتِهِ، وَالتَّعَايُشِ مَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ عَلَى أَنَّهُ عَيْنُ الْمُنْحَةِ وَالْمُعَافَاةِ.

صلاة الصبح في مدريد الثمانينيات ليست كصلاة الصبح
في دمشق، حيث أصوات المؤذنين تُضِيف سِحْرًا إِلَى السَّحَرِ،
فَتَنُ الدَّفَاقِ الْأُولَى لِإِنْبِلَاجِ الْفَجْرِ، أُنِينُ هَاتِيكَ الْمَآذِنِ الْعَاشِقَاتِ،
يَبْعُثُ كُلَّ الْأَمَالِ وَالْآلَامِ الْهَاجِعَةِ فِي النَّفْسِ، نِدَاءُ أَتْهَمِ الصَّبَاحِيَّةِ
الْوَاحِدُ تَلَوَ الْآخِرَ، تُشَكِّلُ مَوَكِبًا لِلنُّورِ، يَسْرِي مُصِرًّا عَلَى زَرْعِ
الطَّمَأْنِينَةِ الرُّوحَانِيَّةِ فِي النَّفُوسِ، تَرْفُفُهَا إِلَيْنَا فِي تَجَاوِيدِ مُوسِيقِيَّةِ
خِلَابَةٍ، لَهَا فِي الْقُلُوبِ فِعْلٌ لَا يُضَاهِيهِ فِي رَوْنِقِهِ وَنَفَازِهِ الْأَخَاذُ فِي
الْأَرْوَاحِ شَيْءٌ.

أول الأمر ما كان النَّاسُ هُنَا فِي إِسبَانِيَا يَسْتَطِيعُونَ تَحْدِيدَ
وَقْتِ صَلَاةِ الصَّبْحِ إِلَّا بِزَوْغِ أَوَّلِ خِيُوطِ الضَّوءِ، وَلَوْ لَا رَمَضَانُ مَا
ذَاقَ كَثِيرُونَ حَلَاوَةَ دُخُولِ سَاعَةِ الْفَجْرِ الطَّيْبَةِ الطَّاهِرَةِ الْمُبَارَكَةِ،
تَمَلُّا الْقَلْبَ بَرْدًا وَسَلَامًا. ثُمَّ أَصْبَحُوا يُحَدِّدُونَ أَوْقَاتَ الصَّلَوَاتِ
عَنْ طَرِيقِ الْأَوْرَاقِ وَالنَّشْرَاتِ الَّتِي صَارَتْ تُوزَعُهَا الْمَرَكَزُ
وَالْجَمْعِيَّاتُ الْإِسْلَامِيَّةُ.

هُنَا لَا نَقُولُ أَذْنَ الظَّهْرِ، وَقَارَبَ أَذَانَ الْعَصْرِ، وَلَكِنْ دَخَلَ
وَقْتُ الظَّهْرِ، وَخَرَجَ وَقْتُ الظَّهْرِ، وَكَادَ يَدْخُلُ وَقْتُ الْعَصْرِ!

ضَرُورَاتُ الْغُرْبَةِ، ضَرُورَاتُ الْعَيْشِ فِي مَدْرِيدَ، حَيْثُ لَا
مَآذِنَ وَلَا أَذَانَ⁽¹⁾، وَلَوْ لَا هَذِهِ الْمَسَاجِدُ الصَّغِيرَةُ الْقَلِيلَةُ جَدًّا، وَالَّتِي
وُلِدَتْ مَعَ وَصُولِ أَوَّلَى مَوَاجِتِ هِجْرَاتِ الطَّلَبَةِ إِلَى إِسبَانِيَا، لَمَاتَ
الْمَرْءُ كَمَدًا وَغُرْبَةً، فِي مَدِينَةٍ تَسْتَقِظُ وَتَنَامُ مَحْمُومَةً لَا هَيْئَةَ مَهْرٍ وَلَا

(1) لَمْ تَكُنِ الْمَسَاجِدُ الْكَبِيرَةُ قَدْ شُيِّدَتْ، وَلَا الْإِنْتَرْنِيْتُ قَدْ عُرِفَتْ وَلَا
التَّلْفُونَاتُ الذَّكِيَّةُ قَدْ إِخْتَرَتْ.

نحو شيء كأنه يَفَرُّ منها باستمرار، مَحْكُومَةٌ بِعِقَابِ السَّاعَاتِ التي تَفْرِضُ سيطرة صارِمة على كلِّ حركة وسكَّنة فيها.

من المفارقات «المُدْهَشَة»، أنَّ هذه المساجد كانت قد أُسِّسَتْ أول الأمر على أيدي طلبة، لا يمكن اعتبار مُعْظَمِهِم من المُلتزِمِينَ بالجماعات الإسلامية، أو من المُتَدَيِّنِينَ، جاؤوا للدراسة، وأدركوا أنه لا يُمكن لهم أن يكونوا في أيِّ مكان لا يقوم فيه مسجد.. لا يستطيع القادم من بلادنا العيش إلا في ظلِّ مَسْجِدٍ، حتى لو لم يكن مُسْلِمًا، فالمسجد هنا ليس دارًا للصلاة فحسب، إنه المكان الذي تُعْقَدُ فيه حلقات الدِّرس والتَّعليم للكبار والصغار، والذي يُوفِّر للنَّاس لَحْمًا حَلالًا، ورُبما تجدُ فيه شيئًا من المُلوخِيَّة والبامِيَّة، وبعض بهارات «الطَّاهِي»⁽¹⁾، وعُلبَة «كول وشكور»⁽²⁾.

المَسْجِدُ هُنَا رُقْعَةٌ من وَطَنِكَ البعيد الذي تَبَرَّأَ مِنْكَ، المَسْجِدُ هُنَا وَطَنُكَ الوحيد إذْ أَنْكَرَكَ الوطن الجديد وَأَفْصَاكَ.

كَبُرَتْ الجالِيَّة، وكَبُرَتْ مساجدها معها، ازدادت أعداد النَّاس، وأصبحت الحاجة مُلِحَّة لِتَطْوِيرِ طبيعة وجود ووظيفة المَسْجِد.. الذي يُنْتَظَرُ أَنْ يَشْمَلَ مكتبة، ومدرسة، ومُصَلَّى، ومُعْتَسَلٌ لِمَنْ يُتَوَفَّى مِنَ النَّاس، ومَكْتَبٌ لِعَقْدِ الزِيَّجات والطلاقات، وإمام لِيَسْتَفْتِيَهُ في شُؤُونِ دِينِكَ، وتَسْتَنْصِحَهُ في أُمُورِ دُنْيَاكَ.. ومكانٌ يجتمع فيه النَّاس للاحتفال بالعيد وبالأفراح، أو تَقَبُّلِ العزاء في والدٍ قَضَى نَحْبَهُ في سوريا.. يَأْتِي القَوْمُ لِنَعْزِيَةِ وَلَدِهِ، لا في موتِ أبيه أو أمِّه فحسب، بل في أنه حُرِمَ وداعهما، ومرافقتهما إلى قبريهما.

(1) نوع مشهور من البهارات يستعمله الناس في بلاد الشام.

(2) نوع من الحلويات الشامية المشهورة المصنوعة من عجائن الرقائق والفسق والسمن والسكر.

تلك كانت وما زالت بعض الخِدْمَات الجُلَى التي تُؤديها
المراكز والجمعيات الإسلامية التي بدأت تنتشر في كل أنحاء
إسبانيا.

لولاها لَضَعْنَا، وبعيداً عنها ليس إلا الذَّوْبَان والإَضْمِحْلَال،
وفيهما ومعها جَنَّة ونار، ذات الجَنَّة والنَّار التي كان كلُّ منا قد
إِصْطَحَبَهما معه من بلاده، يُجَرِّجُهما وراءه بِسَلْسَلِ غليظة تَتْرُكُ
جِراحاً غائرةً في أكتاف العبيد، يَتَبَاهَوْنَ بها في غُرْبَتِهِمْ وَأَسْرِهِمْ!
وهل من جَنَّة ونار في هذه الدُّنْيَا، إِيَّاكَ؟ .. أَنْتَ جَنَّتُكَ،
وَأَنْتَ نَارُكَ، وَأَنْتَ جَنَّةُ أَهْلِكَ وَرَفَاقِكَ وَمَنْ حَوْلَكَ، وَأَنْتَ نَارُهُمْ.

كَلِّمْنَا رَجُلًا جَرَسَ مِنْهُ السَّاعَةُ صباحاً، إِسْتَيْقَظْتُ على حقيقة
أو سرابٍ وجودي في مدريد.. «مورا في مدريد»، واقعٌ أعيشه
بل وأُحْسَدُ عليه! فمدريد كانت وما زالت إحدى أهمِّ المُدُن في
العالم، وَمِنْ أَكْثَرِها عِرَاقَةٌ وإِغْرَاءٌ وَجَمالاً وقِسْوَةٌ وشموخاً، فهي
وعلى الرَّغم من عدمِ اعتبارها من العواصم ذات الثُّقل السياسيِّ
والاقتصاديّ عالميًّا، لكنها تمتلك «روحاً» تَنْبُضُ بالحياة، إنها
مركزٌ مدنيٌّ - حضاريٌّ ثقافيٌّ إنسانيٌّ، يحوي كلَّ الوسائل اللازمة
لِتَنْمِيَةِ الثقافة وخدمة الإنسان ومُعانة الحياة المُعاصرة، خصوصاً
في ظلِّ حُكُمِها الاشتراكيين الأوائل، الذين جعلوا منها عاصمةً
إنسانيةً مفتوحة، مراكزها الثقافيَّة أصبحت تَضجُّ بالحياة، جامعاتُها
تحوّلت - في هذا العهد - إلى مناراتٍ دِرَائيَّةٍ وبحثٍ وتقدّمٍ ومَعْرِفةٍ.

أدباؤها، مُفَكِّروها، ومُبدِعوها، كانوا نُجُوماً تأخُذُ بأيدي
النَّاسِ إلى سَمَواتِ الفِكر والأدبِ والفنِّ والإنسانيَّة، نعيش معهم،
نَلْمَسُهُمْ، نَتَعَرَّفُ إليهم، نزلوا من بروجهم العاجيَّة، وعاشوا مع
النَّاسِ، في وسائلِ الإعلام، في المُتَنَدِّيَّات، في المُشْهَد الاجتماعيِّ

والثقافي، في هذه الفترة الذهبيّة المتألّقة، من تاريخ إسبانيا الحديث، ترى «أنتونيو غالّا»⁽¹⁾ لدى زيارتك لمعرضٍ للكتب، تستطيع الاستماع إلى الكاتب اليميني المتعصّب «فرانثيسكو أومبرال»⁽²⁾ في حفل توقيع كتاب له في مكتبة ترتادها، وتستمتع بحديث الفيلسوف المعاصر الكاتب «فرناندو ساباتير»⁽³⁾ في مُحاضراته في مختلف المراكز الثقافيّة، التي أخذت بالانتشار في أحياء مدريد، فضلاً عمّا تتعلمه يومًا فيومًا من الطبيب الأديب المفكر الكاتب «إنريكة روخاس»⁽⁴⁾ المُختص بالصّحة العقليّة الاجتماعيّة، والذي كان رائدًا في تحويل الطبّ العقليّ والنفسيّ، من حقل «الأمراض الشّخصيّة» إلى فضاءٍ توجيه سلوك المُجتمع وأفراده، وبثّ الوعي الصحيّ النَّفسيّ والعقليّ بين الجمهور، مُوجّهاً نحو بناء مُجتمعٍ أخلاقيّ إنسانيّ سليم.. وذلك في حصّته اليوميّة في برنامج «خسوس إرميدا»⁽⁵⁾ الصحفيّ المُتنوع المهارات، المُعجزة الإعلاميّة الإسبانيّة المُمتدّة عبر أربعة عقود، المُختلف فيه وعليه، المَكروه أو المَحبوب، تَرَبّى جيلٌ كامل من الصحفيين الإسبان في مدرسته الإعلامية، المُكوّنة من سِلْسِلَةٍ من البرامج الحوارية أو المُنوّعة أو الإخبارية⁽⁶⁾، الزاخرة بالحثّ

(1) Antonio Gala الشاعر الروائي.

(2) francisco umbral الروائي.

(3) Fernando Savater الفيلسوف.

(4) Enrique Rojas Montes الطبيب أستاذ الأمراض العقليّة وعلم السلوك.

(5) Jesús Hermida Pineda الصحفيّ الإعلامي.

(6) برامجه المتنوعة مثل «عند الصباح» Por La Mañana، وما تبعها من برامج مستنسخة عنها، في عدد كبير من قنوات التلفزة الإسبانية، شكلت مدرسة تربوية تعليمية تثقيفية، تبثّ مابين ساعتين إلى ثلاث يوميًا خلال ثمانية أعوام، خرّج خلالها خسوس إرميدا جيلًا كاملاً من الصحفيين والإعلاميين الذين احتلوا مراكز بالغة الأهمية لاحقًا في مسيرة الإعلام في إسبانيا، كما تربى فيها ومعها جيل من الأمهات وربات البيوت اللواتي =

على التفكير، وتنمية الوعي، والتأسيس لقواعد السلوك والعلاقات الاجتماعية المتحضرة، والتبصير بحقائق الأمور في كل النواحي السياسية والاجتماعية والثقافية والفكرية.

كنا نتعلم من خلال تلك البرامج قواعد الطبخ، كما أساليب التعامل مع المشكلات العائلية، والطبية، وأسس الصحة النفسية الاجتماعية والفردية، وأصول التفكير، ونطلع على آخر ما أنتجه الأدب والفنون على اختلافها.. وأهلها وروادها من كبار الكبار، ومن الناشئة، جعل منهم هذا الإعلامي الاستثنائي «خسوس إرميدا» وجوهاً معتادة لدى الجميع، وغَيَّرَ بهم ومعهم، ومع كثيرين من الإعلاميين المعاصرين له، وجه المُجْتَمَع الإسباني، في عَقْدٍ من الزمان استطاعت وسائل الإعلام الإسبانية أن تؤدي فيه دوراً أساسياً واستثنائياً في إعادة تربية الإنسان والمُجْتَمَع، وإحداث نقلة أقل ما يقال فيها إنها هائلة في سبيل تحويل الشخصية الإسبانية في اتجاه الحداثة والنضوج والتّمدن والإنسانية⁽¹⁾.

كما كان بإمكانك وفي العَشية نفسها، أن تجتمع في المركز

= كنّ الشريحة الأساسية المستهدفة لهذه البرامج التي عملت على تزويد الناس بجميع أنواع المعرفة الضرورية/ كانت نسبة المتابعة الجماهيرية اليومية لهذا البرنامج مذهلة.

(1) جزء من افتتاحية برنامج خسوس إرميدا : «على طريقتي» ويظهر فيه في البرنامج نفسه الكاتب الإسباني الحائز جائزة النوبل «كاميلو خوسه ثيلا»، والكاتب الإسباني الكبير «أنتونيو غال».

<http://www.rtve.es/alacarta/videos/programas-y-concursos-en-el-archivo-de-rtve/manera-jesus-hermida/2754194>

وداع القناة الثالثة التلفزيونية الإسبانية 3A. لخسوس إرميدا يوم وفاته 5. 5. 2015 كونه أول مراسل إسباني في نيورك، وأول من أعطى خبر هبوط الإنسان على وجه القمر، وأول من «اخترع» التلفزيون كوسيلة إعلام ووسيلة تربية وتواصل اجتماعي.

http://www.antena3.com/noticias/cultura/jesus-hermida-periodista-que-marco-estilo-propio-television_2015050400409.html

التجاري الذي تشتري منه الخبز والخضراوات، بالسياسية والمثقفه الشيوعية الرائعة، المحامية «كريستينا ألميدا»⁽¹⁾، تشتري الخبز من «السوبر ميركادو» «الكامبو»⁽²⁾، تخرج نحو «الكورته إنكليس»⁽³⁾ المشهور بأفخر أنواع الألبسة والخدمات، لتجد نفسك وجهاً لوجه مع شاعرة الأطفال الكبيرة المبدعة، الجدة «غلوريا فويرتس»⁽⁴⁾، وبالمغنية الشعبية الاشتراكية «لوث كاسال»⁽⁵⁾.. تُسلمان على الناس، تبتاعان حاجياتهما، توزعان إبتساماتهما على الجمهور وتتواصلان معه بكل أريحية.

تلك كانت مدريد «اليسارية» المدهشة، التي وجدت نفسي فيها ما بين الثمانينيات والتسعينيات⁽⁶⁾، من أواخر القرن العشرين،

(1) María Cristina Almeida Castro المحامية والحقوقية الشيوعية الشهيرة.

(2) Al Campo السوق الضخمة المتعددة الأغراض.

(3) El Corte Inglés مركز تجاري ضخم، رفيع المستوى.

(4) Gloria Fuertes García شاعرة الأطفال الإسبانية الاستثنائية.

(5) Luz Casal كاتبة الأغاني المغنية اليسارية المعروفة.

(6) كانت مدريد ما بين الثمانينيات والتسعينيات عاصمة ثقافة عالمية فعلية، كانت ذرة إنسانية وُرقي، وطيعة مستقبل كان يمكن أن يكون مختلفاً تماماً عما آلت إليه أحوالها.. إذ أحدث حكامها من اليمين المحافظ لاحقاً هدمًا وشرخاً كبيراً بين الثقافة والمجتمع، وبعد أن كانت وسائل الإعلام في عهد الاشتراكيين الذين حكموها أول مرة، منارات للثقافة والتربية الاجتماعية، أصبحت تكتظ بما يسمى إعلام القمامة، وبرامج القمامة، وثقافة القمامة!.. حتى مكتباتها، صارت وكما يجري في بلادنا، عامرة بكتب دجل المنجمين، والروايات الرخيصة، والكتب الذين يُلَمَّعُهم الإعلام، وهم ليسوا أحداً، إلا أنهم من جماعة اليمين الصهيوني.. فقدت مدريد «روحها»، وللإنصاف، فإن المرء لا يدري هل كان السبب هو انتقالها من حكم اليسار المنفتح المثقف، إلى حكم اليمين المغلق المتعصب، أم أن السبب الحقيقي يكمن في التغيرات الدولية التي ضربت العالم خمسة أعوام بعد تلك الأيام.. ما بين هجمات الحادي عشر من أيلول - سبتمبر، والأزمة الاقتصادية التي زلزلت كل شيء في الغرب؟

لا أنعت نفسي فيها فأقول أنا «سوريّة في مدريد»، «أنا مسلمة في مدريد» لا أفعل ذلك.. لأن الواقع الذي تشهد له مدريد، هو أنّني «مُورا» فيها، فهي على ثقافتها وافتتاحها وإنسانيتها، لا تزال أسوارها مغلقة في وجهي، لا تراني ولا تريد أن تراني إلا «مورا» فيها، و«مورا» فقط.. هذا إن رأيتني!!

فمدريد الاشتراكيّة، كمدريد المحافظة، لا تحب الغرباء ولا تريد أن تراهم، ولكن بدرجتين وطريقتين مختلفتين، الغرباء هنا يعيشون على هامش إنسانية مدريد، وثقافتها، وديمقراطيتها، وافتتاحها على الآخرين. كان محافظ المدينة «إنريكه تيرنو غالبان»⁽¹⁾ القيادي الاشتراكي، المفكر الثوري، والكاتب الحاصل على درجات الدكتوراه المتعددة في الفلسفة والأدب والقانون وعلم الاجتماع والسياسة، ومَن جاء بعده «خوان بارانكو غاجاردو»⁽²⁾ قد أعلنّا مدريد «مدينة مُشرّعة الأبواب».

بكلّ بساطة الغياب والإستثناء، ومن المفروغ منه، أن العرب والمسلمين كانوا مُستثنين من هذا الإنفتاح والترحيب، ما خلا علاقات الملك الإسباني، الشخصية، الإبداعية، المثمرة جدًّا بالنسبة للدولة الإسبانية، مع ملوك العرب وحُكّامهم! هؤلاء «العرب» الذين لم يفكر أحد فيهم، كشعوبٍ في أرضهم، أو كجالياتٍ تُقيم بين ظهرائيّ الإسبان، لم يدعُهم أحد ليكونوا ضمن المجموعات التي أرادت مدريد احتضانها في تلك الحقبة، حقبة الاشتراكيين الذين جلبوا إلى إسبانيا - في تلك الفترة - الثقافة والعلوم والتطور والقفزات الهائلة في التربية والفكر والفلسفة

(1) Enrique Tierno Galván محافظ مدينة مدريد 1986 - 1979، المفكر، والسياسي والأستاذ الجامعي متعدد الاختصاصات. أحد أكبر رجالات التغيير والإصلاح في إسبانيا.

(2) 1989 - 1986 ديردم تينيدم ظفاحم Juan Antonio Barranco Gallardo .

والإعلام، رسّخوا الديمقراطية والحريّة وحقوق الإنسان، ودخلت إسبانيا أثناء حكم «فيليبه غونثالث»⁽¹⁾ المنظومة الأوروبية الاقتصادية.

ليس الأمر حركة إقصاء أو عزل، إنّه مُجرّد تجلّ للغياب، كُنّا بكلّ بساطة، وكَبَشِر، غير موجودين بالنسبة إلى الغرب.. على العكس تمامًا، من وجودنا المُحتّم في أروقة السياسة والديبلوماسية والاقتصاد.

وأنا.. سأُنزل نفسي من مدريد لدى الكتابة عنها، منزلتي لديها، فمن الأمانة والصّدق ومشاركة همّ ومعاناة الغُربة مع كلّ امرأة «مسلمة» تعيش فيها.. أن أدعو نفسي كما تدعوني مدريد: «مورا»⁽²⁾.

وعلى الرّغم من كون هذا الاسم وقفً على النساء المسلمات في إسبانيا، سواءً كُنّ مُهاجرات أم حديثات عهدٍ بالإسلام، فإنّه في واقع الحال لا يقتصّر عليهن، بل يشمل كلّ امرأة مُهاجرة أتت بها أقدارها من بلادنا إلى إسبانيا، سواء كانت مسلمة أم مسيحيّة، وسواء كانت عربيّة أم كرديّة أم أمازيغيّة.

مرّةً وبينما كنت أودّع أُمّي في المطار، رأيت سيدة مصريّة تتباهى بصليبٍ ضخّم تحمله على صدرها، ضخّمٌ إلى حدّ لافتٍ للاستهجان، وكان الإسبان يمرّون إلى جانبها يتغامزون ويقولون

(1) Felipe González Márquez حقوقي، سياسي، كاتب رأي، الأمين العام للحزب الاشتراكي العمالي الإسباني، ثالث رئيس للحكومات الإسبانية، منذ موت الجنرال فرانكو وبدء عهد الديمقراطية/ حكم إسبانيا ثلاث فترات حكومية متعاقبة، ثلاثة عشر عامًا 1982 - 1996. شهدت إسبانيا في عهد حكوماته المتعاقبة، ازدهارًا غير مسبوق، وتطورًا اجتماعيًا وثقافيًا هائلًا جعلها في عداد دول العالم الأول.

(2) مذكر مورو Moro / مؤنث مورا Mora.

ساخرين، وهي لا تفهم قولهم: أنظروا إلى هذه «المورا» وإلى هذا الصليب الذي تحمله!

«كلّنا».. نحن الآتون من «المنطقة العربية»، ومن وجهة نظر مدريد «موروس»⁽¹⁾.

إنّها كلمة طَبَعَتْ وجودي وعلاقتي بمدريد، وسكان مدريد، وثقافة مدريد، وحركة الحياة والمدنيّة فيها.

أنا في مدريد، مجرد «مورا»... إسمٌ أطلقته «مدريد» عليّ، وألزمّني به على الرّغم من رفضي وثورتي عليه وألمي وإعتراضي، الذي انتهى بعد هذه السنين إلى التّعايش القسري معه، كما يتعايش الواحد منا مع مرض الروماتزم، والقلب، وآلام الظهر المزمنة، فهذا الإسم مُلتصق بي شتّى أم أبيت، ما دُمْتُ مُلتصقةً بهويّتي، بل حتى لو تنازلتُ وانسلخت عنها!

كلّنا هنا «موروس» ما دُمنا عاجزين كمجموعة بشرية، عن إحداث أيّ تغيير في ساحات الثقافة، ومنظومة الإعلام التي تصيغ العقول وتفرّض على النّاس آليات التّفكير، ومنطق محاكمة الأشياء والأشخاص والأزمنة.

وكيف لا نعجز عن ذلك، ونحن مجموعات ضائعة مُضَيَّعة دون «هُويّة»؟.. هُويّة واضحة المعالم في وجودنا المُعاصر، ننتمي إليها ونحتمي بها، معظمنا لا يعرف تحديد إنتمائه، تخبّطنا بين الإنتماءات الدينيّة والقوميّة والوطنيّة وحتى المناطقية.. مُريع.

التّسبّب بهويّاتنا الوطنيّة، وتلك «الأوطان» التي خلفها النّاس

(1) جمع كلمة «مورو» أو «مورا» باللغة الإسبانية - Moros, Moras، حرف (O) بالّلغة الإسبانية، يلفظ كما تُلفظ كلمة «أوه» عندما نكتبها بالعربية، مع عدم لفظ الهاء في آخرها، وهو غير حرف الواو، مخفف عنها إلى درجة يمكن مقارنته بحركة الضمة.

وراءهم، كان يأخذ نوعاً من أنواع المأساة المُستديمة، والتي تدخل حدّ الملهاة المُبهمة، نتيجة المُبالغات العاطفيّة الفطريّة، لتعلّق النّاس بأوطانٍ ليسوا في منظورها الإنسانيّ والقانونيّ والوطنيّ غير مصادِر دخلٍ عابرٍ للذّل والغربة.. لم يكفِ الأنظمة المُستبدّة المُجرّمة، أنها استولت على مقاليد الحُكم في بلادنا، بالقمع والبطش واجتثاث الإرادة واستلاب الهويّة، لكنها دَفَعَت النّاس للهجرة، ونسيّتهم وضيّعَتهم وراء حدود الغربة والمهاجر، ثم تاجرت بالآمهم وحنينهم وغريبتهم وضعفهم وضياعهم، جعلت من تعبٍ ونصب وهوانٍ مواطنيها «المهاجرين»، واحداً من أهمّ مصادِر «الثروة الوطنيّة» المُستباحة.

«مدريد» ليست مثل «لندن» التي تستوعب اختلاف هويّات الوافدين عليها، وتحافظ على درجةٍ مُلفتة من التّنوع الثقافيّ والدينيّ والعِرقيّ ضمن الإطار الإنكليزيّ الثقافيّ العام، كانت مدريد - وما زالت ومثل الغالبية العظمى من المدن الأوربية - تريد للمهاجر أن يخلّع هويّته عند حدودها، كَلِمَة «الاندماج» تعني في إسبانيا «الدّوبان»، كما تعني إعلان الحرب على كلّ من يستعصي على ذلك.

أولئك المهاجرون الذين حاولوا الانسلاخ عن هويتهم، وتشبهوا بالقوم حتى يرضوا عنهم، لم يستطيعوا الانخلاع من ربقة عاداتهم وتقاليدهم التي تلتف على أعناقهم أغلالاً. مدريد ما زالت تدعوهم بالموروس، لكنهم هم وأبناؤهم، لم يستفيدوا كثيراً من مُحاولاتهم المُستميّة للانصهار في المُجتمع المدريدي. شيءٌ ما ودائماً يكشف «اختلافهم»، أسماءٌ بعض أولادهم، ألقابُ العائلة، لكُنةٌ في لُغتهم الإسبانيّة، إتقانُ لفظٍ حرفٍ عربيّ، عادةٌ من عاداتهم الموروثة الشنيعة، طعامٌ خاصٌّ بالبلد الأصل يُحبونه، أو

يُتَقَنُّونَ صُنْعَهُ، أَوْ يَعْرِفُونَ تَرْكِيبَتَهُ.. إِصْرَارٌ عَلَى إِجْرَاءِ عَمَلِيَّةِ طَهْوَرِ
أَبْنَائِهِمُ الذَّكُورَ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ تَرْكِهِمْ كُلَّ أَرْكَانِ دِينِهِمْ!

أَيَّ شَيْءٍ فِيكَ يُمَكِّنُ أَنْ يَكْشِفَكَ، وَيَحْرِمَكَ مِنْ رِضَى هَذَا
الْمُجْتَمَعِ عَنْكَ، لِيَجْعَلَكَ «لَقِيطًا» فِيهِ عَلَى طَرِيقَتِهِ، وَطَرِيقَتِهِ فِي
ذَلِكَ هِيَ بُدُ «الْمُورُو» - خَاصَّةً، وَالْغَرِيبِ عَامَّةً - وَإِقْصَاؤُهُ نَفْسِيًّا
وَفِعْلِيًّا، مَعَ التَّفَضُّلِ عَلَيْهِ بِإِدْعَاءِ مُعَامَلَتِهِ مُعَامَلَةً حَسَنَةً!

الَّذِينَ يَمْتَلِكُونَ تَصَوُّرًا وَاضِحًا عَنْ هُويَّةِ جَلِيَّةٍ، يَعْتَرِضُونَ
بِالْإِنْتِمَاءِ إِلَيْهَا وَيَفْهَمُونَ أَبْعَادَهَا وَلَا يَتَخَلَّلُونَ عَنْهَا، هُمْ وَحْدَهُمُ
الْقَادِرُونَ عَلَى الصُّمُودِ فِي وَجْهِ أَعَاصِيرِ الدُّوبَانِ وَالْفَنَاءِ.

أَعْجَبَ سَوْالِ يُوجِّهُونَهُ لَكَ فِي أَيِّ تِمَاسٍّ مَعَهُمْ، فِي عِيَادَةِ
الطَّبِيبِ، فِي السُّوقِ، عَلَى بَابِ مَدْرَسَةِ أَوْلَادِكَ: أَنْتَ مُسْرُورٌ فِي
حَيَاتِكَ بَيْنَمَا أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟؟

تَهْزُ رَأْسَكَ، لَكِي لَا تَقُولَ شَيْئًا، فَمَاذَا يُمَكِّنُكَ أَنْ تَقُولَ،
وَالْقَوْمُ يَمْنُونُ عَلَيْكَ «حَسَنَ» مُعَامَلَتِهِمْ لَكَ! كَأَجْنَبِيِّ وَمُهَاجِرٍ!..
فِي أَيَّامٍ لَمْ يَكُنْ فِيهَا مِنْ وَجُودِ حَقِيقِي ظَاهِرٍ لِلْغُرَبَاءِ الْمُهَاجِرِينَ فِي
إِسْبَانِيَا بَعْدَ!

- أَرَأَيْكَ فِي غَايَةِ السَّعَادَةِ لَوْ جُودَكَ هُنَا؟

- أَيْنَ هُنَا؟ عَلَى بَابِ هَذَا الْمِصْعَدِ؟

- لَا.. طَبْعًا، أَقْصِدُ هُنَا فِي بَلَدِنَا!

- !!!

- سَعِيدَةٌ جَدًّا أَنْتَ فِي إِسْبَانِيَا، وَمُرْتَاحَةٌ عَلَى مَا يَبْدُو؟

- فِي الْوَاقِعِ.. لَا! لَسْتُ سَعِيدَةً وَلَا مُرْتَاحَةً! وَلَا أَدْرِي كَيْفَ

يَبْدُو عَلَيَّ عَكْسَ ذَلِكَ!

- !!

- لا أفهم لم «يجب» أن أكون سعيدة ومُرتاحة في إسبانيا؟
- طبعًا.. وإلا فلماذا أنت هنا؟؟ ولماذا تُهاجرون إلى بلدنا؟
قبل أسبوع رأيت «الموراس» في غَايَةِ السَّعَادَةِ وهُنَّ يَتَوَافَدْنَ إلى
المَسْجِدِ مِثْلِ الذَّبَابِ.

- كان ذلك يوم عيد يا.. سيدة، يأتي النَّاسُ فيه إلى المسجد
يومًا واحدًا في السنة، كما تذهبون إلى الكنيسة كُلَّ أسبوع.. وفي
الواقع، يجب على المرء أن يكون في قِمَّةِ السَّعَادَةِ في مكانٍ
يَعُدُّونه فيه ذُبَابًا!!

- لو لم تكونوا سُعداء هنا، لَمَّا جِئْتُمْ...

- النَّاسُ لا يتركون بلادَهُمْ بحثًا عن السَّعَادَةِ يا سيدة،
النَّاسُ يَضْطَرُّونَ تحتَ ضَغْطِ الأَحوَالِ في بلادِهِمْ لِلخُرُوجِ منها،
ألم يخرج الإسبان من بلادهم إلى المغرب والجزائر وفنزويلا
والأرجنتين أيام حربِكُم الأهلية، وسنوات القَحْطِ والديكتاتورية
التي كانت تَحْكُمُكُمْ؟

- ماذا تقولين؟؟ نحن عُدْنَا إلى بلدنا، ولم نَمُكِّثْ في بلاد
الآخرين، ثم نحن نتعايش مع الآخرين ونُندَمِجُ في مُجْتَمَعَاتِهِمْ،
أما أنتم.. فانظري إلى شَكْلِكِ وَمَنْظَرِكِ وَلِبَاسِكِ، هل هذا اندماج
وتعايش؟

- ما كنتُ أعلم يا سيدة أن الاندماج والتعايش يعني الذَّوْبَانِ،
وأن ينزل المرء عند تَصَوُّراتِ الآخرين وقَنَاعَاتِهِمْ عن الحياة
والوجود.. هل تعرفين أنت ما «الغُوغَنهايم» مثلاً؟؟! ثم من قال
لَكِ إننا سَنَمُكِّثُ هنا إلى الأبد، ولن نعود إلى بلادنا عندما تسقط
الديكتاتوريات التي تَحْكُمُنَا؟

-

- «الغوغانهايم» هو المتحف العجيب الهَنَدَسَةُ الرائع

التَّصْمِيمُ الَّذِي افْتُسِحَ لِلتَّو فِي مَدِينَةِ بِيَلْبَاو!... أَرَأَيْتَ يَا سَيِّدَةُ أَنَا
أَعْرِفُ عَنْ إِسْبَانِيَا أَكْثَرَ مِمَّا تَعْرِفِينَ أَنْتَ!

عَنْ إِذْنِكَ، الْحَمْدُ لِلَّهِ وَصَلَّ الْمَصْعَدُ الطَّابِقُ الثَّالِثُ عَشَرَ
أَخِيرًا.. وَمَا ظَنَنْتَهُ يَفْعَلُ، عَلَيَّ الْمَغَادِرَةُ.. وَدَاعًا.

تِلْكَ الْمُحَادَثَةُ عَيْنُهَا كَانَتْ تَتَكَرَّرُ مَعَ بَعْضِ جِيرَانِ «أُمِّ أَمَجْد»
كَلَّمَا ذَهَبَتْ لَزِيَارَتِهَا، فَلَقْدَ كَانَتْ «أُمُّ أَمَجْد» السُّورِيَّةُ تَسْكُنُ فِي
وَاحِدَةٍ مِنَ الْمَنَاطِقِ الْمَدْرِيدِيَّةِ الَّتِي تَتَمَتَّعُ بِرُقْيٍ نَسَبِيٍّ، وَإِنْ لَمْ
تَكُنْ مِنْ أَرْقَاهَا، مِنْ تِلْكَ الَّتِي لَا يُمْكِنُ لِمُورُو أَنْ يَقْتَرِبَ مِنْهَا، مَا
لَمْ يَكُنْ عَامِلًا فِي الْخِدْمَاتِ، أَوْ مِنَ النَّدْرَةِ النَّادِرَةِ مِنْ أَصْحَابِ
الْمَلَائِينَ وَالْعَلَاقَاتِ الدِّبْلُومَاسِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ الْخَفِيَّةِ وَالْمَعْلَنَةِ.



هَذِهِ هِيَ مَدْرِيدُ بِقُصُورِهَا الْفَخْمَةِ وَمَتَاحِفِهَا الثَّرِيَّةِ وَتَمَاثِيلِهَا
وَتُخَفِيفِهَا الْفَنِّيَّةِ، وَشَوَارِعِهَا الْعَرِيضَةِ الطَّوِيلَةِ، وَالتَّارِيخِ الَّذِي تَفُوحُ
رَائِحَتُهُ مِنْ كُلِّ شَبْرٍ فِي مَرْكَزِ الْمَدِينَةِ وَأَحْيَائِهَا الْقَدِيمَةِ، الَّتِي لَا
تَشْبَهُ فِي شَيْءٍ ضَوَاحِيهَا السَّكْنِيَّةِ الْحَدِيثَةِ، وَخُصُوصًا هَذِهِ الْأَحْيَاءُ
الْمُحَدَّثَةُ الْمُصْطَنَعَةُ الْغَرِيبَةُ الطَّرَازِ وَالسَّقِّ، وَالَّتِي بَدَأَتِ الْحُكُومَةُ
الْمَحَلِّيَّةُ بِنَائِهَا حَوْلَ الْمَدِينَةِ، لِلْغَجَرِ، وَلِافْقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ مِنْ كُلِّ
جَنَسِيَّةٍ وَانْتِمَاءٍ، وَلِمَرْضَى إِدْمَانِ الْمُخْدِرَاتِ، وَلِلنِّسَاءِ وَأَطْفَالِهِنَّ
مِنَ الْوَاتِي إِضْطِرَّارًا لِلتَّفَرُّقِ عَنْ أَزْوَاجٍ يُسَيِّوُونَ مَعَامَلَتِهِنَّ
وَيُؤْذِنَهُنَّ، وَلِافْقَرَاءِ الْإِسْبَانِ مِنَ الْعَاطِلِينَ عَنِ الْعَمَلِ الَّذِينَ ضُرِبَتْ
أَعْدَادُهُمْ رَقْمًا قِيَاسِيًّا فِي هَذِهِ الْحَقْبَةِ، لَيْسَ فِي إِسْبَانِيَا فَحَسَبِ، بَلْ
فِي كَامِلِ الدُّوَلِ الْأُورُوبِيَّةِ.

لَمْ تَتْرِكْ مَدْرِيدُ هَذِهِ الْفَنَائَاتِ الْمَسْحُوقَةَ هَمَلًا، مَنْحَهُمْ
الْأُولَوِيَّةَ لِلْحَصُولِ عَلَى خِدْمَاتِ إِجْتِمَاعِيَّةٍ، وَمَسْكَنِ كَرِيمٍ فِيهَا،
بِتَسْهِيلَاتٍ وَتَخْفِيزَاتٍ كَبِيرَةٍ، تَتَنَاسَبُ مَعَ أَوْضَاعِهِمُ الْاِقْتِسَادِيَّةِ

البالغة الصعوبة، تلبيةً لحاجة مُجتمعٍ يحكمه «الإشتراكيون»، كان عليه أن يعمل لإحتواء المُشكلة.

مدير يدِ بِساحاتِ «مُصارعي الثيران» الشهيرة فيها، وملاعب «كُرة القدم» الضَّخمة، بِحدائقها الواسعة المُترامية الأطراف، وملاعب الأطفال التي تنتشر في كُلِّ حيٍّ وزقاقٍ وساحة، يقضي فيها الأطفال نَهَمَهُم لِلْعِبِّ والحركة، والمراكز الحكومية لِمُمارسة الرياضة والتي تجعلها متاحة للجميع، بأسعارٍ تشجع الناس على العناية بأجسادهم وصِحَّتِهِم، بمقاهيها الشَّعبية الكثيرة النِّظيفة التي تَسْتَلْقِي على أُرصفة المدينة صيفًا، حيث يَسْهَرُ الناس وَيَسْمَرُونَ.

مدير يد التي بدأ زحف المدينة الأمريكي المخيف على أسواقها ومنازلها وأجهزة إعلامها وإنسانها ومجتمعها وهويَّتها، تظهر بِصَمَاتِهِ شيئًا فشيئًا، عنوانًا عريضًا لمرحلة جديدة في التاريخ الحديث، دخلت فيها إسبانيا تحت مظلة العولمة الأميركية طائفة مُختارة، لكي لا تُغرد خارج السَّرب الغربي، في الوقت عينه الذي بدأ فيه الإتحاد السوفييتي بالتفكُّك، وقام رئيسه الأخير «ميخائيل غورباتشوف» بتوقيع معاهدة، قيل بأنها ستوقف تصنيع الأسلحة الكيميائية في روسيا، وتدمير المخزون منها، مما منحه جائزة نوبل للسلام.

كانت هذه واحدة من أكبر الكِذِّباتِ التَّهريجِيَّةِ الإستِعراضِيَّةِ في التاريخ الحديث، فلا توقَّفَ تصنيع الأسلحة الكيماويَّة، ولا تَمَّ تدميرها، بل لقد تَمَدَّدَت روسيا الإستِعْمارِيَّة في السَّرب والخفاء، لَتُصَدَّرَ هذه الأسلحة الفتَّاكة لأنظمةٍ قذرةٍ مُجرِمةٍ إرهابيَّةٍ كالنَّظام السُّوري، دفع بكلِّ ثروات البلاد مقابلِ استيراد تقنيات

تصنيع الأسلحة الكيماوية هذه، بإشرافٍ روسيٍّ وتقنيات ألمانية وكورية⁽¹⁾.. سرٌّ مفضوح، يعرفه القاصي والداني في سوريا!

مدرید.. بصراعاتها السياسية ومُشاداتها الحزبيّة وفُضائح الحكومة ونزاعاتها الدائبة مع المعارضة، ممّا يضمن استمرار عملية مراقبة هياكل ومؤسسات المُجتمع المدنيّ للمسؤولين، ويُمهّد للتداول الدّستوريّ للحُكم.

مدرید.. وفي القلب منها يقع قصر الملك الذي لا يحكم، لكنّه يُعدّ رمز وحدة الأمة الإسبانيّة، واستقرار أركان الدولة، وفي زاوية ثانية يقبع مجلس الشعب الذي شهد عام 1981 آخر محاولة إنقلاب عسكريّة عانتها إسبانيا، وهناك غير بعيد مقرّ الحكومة في قصر المونكلوا حيث يُقيم رئيس الحكومة المُنتخب، وتلك هي الدعائم الثلاث لحكم حُرّ حديثٍ مُتطور نقل إسبانيا في أقل من عشرين عامًا نقلة عظيمة وعلى كلّ صعيد.

وغير بعيد عن مراكز السّلطة هذه، تتناثر المقرات الرئيسيّة للحزبين السياسيّين الرئسيّين، المتناويّين على حكم دولة ذاقت طعم الحرّيّة والديمقراطيّة التي أحسن الشعب استعمالها، حتى بدا وكأنه شعب مارس حُكمه بنفسه منذ قرون. وعلى أطراف مدرید تنتشر دُور الصحف الإسبانيّة الضخمة الرئيسيّة، وهي التي تمارس على أهل الحكم والسياسة دُور الرقيب المُحاسب، والمُعَلِّم،

(1) ترسانة الأسلحة الكيماوية السورية، التي سمح العالم للنظام السوري، باستخدامها عام 2013 ضدّ شعبه في ثورته على النظام التي اندلعت عام 2011، كانت قد بنتها له شركات ألمانية، وبمساعدة كوريا الشمالية وإيران، وإشراف روسي كامل.

<http://elaph.com/Web/News/2015/1/977092.html>

<https://sites.google.com/site/syriachemicalattack/-l>

والمُثَقَّف، ترفع من تشاء وتهوي بمن تشاء إلى مُستنقعات
الفضائح أو النسيان.

مدريد التي تتناثر فيها المكتبات والمراكز الثقافية كالدرر،
حافلة بالعلم والفكر والثقافة، و تتدفق إليها المطبوعات يوميًا بكل
جديد من الإنتاج الإنساني الذي يُغذي أرواح الناس وعقولهم،
ويجعل الكتاب بين أيديهم ضرورة حيوية أساسية، وعلى رأس
هذه المظاهرة الثقافية المدهشة تربض المكتبة القومية الإسبانية،
في أحد أهم شوارع مدريد قريبًا من ساحة «كولون»، تضم في
أجنحتها وأروقعتها وصالاتها تاريخ البلد، مكتوبًا بأيدي رجالها
ونسائها، مخطوطات من كل لون وشكل وتاريخ، كُتبت من كل
نوع وجنس ولغة، وثائق تُعدُّ بمئات الآلاف، ورفوفًا تعرض تطوّر
الفكر الإنساني في إسبانيا، كما تعرض تقدّم الأمة الإسبانية التي
نال خمسة من أدبائها وعلمائها جائزة نوبل.

أمة حيّة مكافحة تنمو بإطراد وتعمل وتجتهد، ليس بالسوية
نفسها التي يتطلبها مقياس الجودة الأوروبي أو الأمريكي
والياباني، والذي يدعو الإسبان «بالكسالي النوم»، ولكن بما
أهلها في سنوات الفورة الاقتصادية والثقافية الكبيرة، لتستحق
مكانًا مرموقًا بين أمم الأرض في زمن بدأ العالم يشهد فيه ولادة
العِملاق الأوروبي الاقتصادي والسياسي، تتمايز فيه الأمم بين
كيانات تنمو وتستمر، وأخرى تضمحل وتنفك وتهدو نحو درك
الدمار والخراب، على أعتاب قرن جديد، بدأ العالم بالاستعداد
لاستقباله قبل خمسة عشر عامًا من انتهاء القرن العشرين، الذي
سيمضي نحو محاكم التاريخ، بأحداثه الجسيمة، بالنقلة العلمية
التاريخية الهائلة جدًّا التي شهدها، بإنكاره فضل الذين سبقوه
ومهدوا لتحقيق هذه النقلة، بطمسه تاريخ أمم وحضارات بلغت
شأوا عظيمًا، قبل أن تُدك سُقْفها من القواعد في كل من آسيا

وافريقيا وأمريكا اللاتينية. بمنجزات «بعض» البشر من الذين عاشوا فيه، حققوا الأمن والسلام والرفاهية لأنفسهم على حساب عذابات الآخرين، والأهوال التي شهدتها العالم، بعد حروبهم العالمية الفظيعة، واعتقادهم بأن للبحار بوابات يمكن إغلاقها على أنفسهم في جزيرتهم المُتناهية في الصغر، وسط المحيط المُتلاطم بأمواج البشر المُتصايحين يريدون الخروج من وديان جهنم الفقر والفساد والاستعباد.

سيمرُّ هذا القرن الغريب الأطوار في التاريخ، بمآسيه، بمظالمه، بالفظائع التي ارتكبها المُستعمرون فيه، والدِّماء التي سَفكوها في حروبهم البينية ومع وعلى الآخرين، كما حُرِّبهم بالوكالة، دَفَعُوا مفاعلاتها خارج حدودهم لتجري هنالك بعيداً.. في بلدان العالم التي سَمَّوها «بدول العالم الثالث»، والتي أصبحت ساحة لصراعاتهم، شرقيهم وغربهم، عليها وعلى ثرواتها، مُحْتَظِّين بحقهم الإستعماري في تحريك كلَّ خيوط اللّاعبين فيها من ساسة وعسكر، وكلَّ خطوط نارها ولهبها عن بُعد.



مديرد.. ما بين الثمانينيات والتسعينيات، البهيّة، الفتية، الحية، المُتألّقة، المُعافاة، الطالعة من وسط صراعات اليمين واليسار التاريخية في إسبانيا، ومن خَضَم نزاعات العسكر والقوى المدنية على حكمها، بُعِيد موت الجنرال فرانكو، الذي حكم البلاد مُستَبَدًّا بها أربعين عاماً، بعد نهاية الحرب الأهلية الإسبانية المتوحشة.

مديرد الخارجية لِتَوَّها من عهد الاستبداد، تصافحُ أشعة شمس الحرية والازدهار والنمو الإقتصادي المذهل، الذي دفع أحد وزراء إقتصادها إلى ارتكاب واحدة من أكبر الحماقات، حين

قال: «هنا في مدريد يُمكنك أن تصبح الأغنى، وبأسهل طريقة مُمكنة»⁽¹⁾!

مدريد بِسُكَّانها.. المديريدي منهم وغير المديريدي، الإسباني منهم والأجنبي والمهاجر، من الذين ينتمون إلى البشر، وهُم الغالبية، وأولئك الذين يحسبون أنفسهم فوق البشر ممن لا تجد بينهم وبين الإنسانية أيَّ صلة.. وهم قلة مؤذية جدًّا على قِلَّتِها!

مدريد طفرة التسعينيات المذهلة التي صارت مَحَطَّ الرِّحال.. إليها ارتحل أهل الشمال والجنوب من الإسبان، طلبًا للرزق في عاصمة بلادهم، وإليها جاء شذاذ الآفاق من الشرق والغرب - شأن كلِّ عواصم أوربا في العقدين الأخيرين من القرن العشرين - وعليها عَقَدَ الآمال مُضطهدو آسيا وجِيع أفريقيا وتُعساء أمريكا اللاتينية وفقراء أوربا وعصابات المافيا الروسية.

وإليها حجَّ كثيرون من أبناء أُمَّتِنَا زائرين، يَنشُدون أُنْدُلُسًا لا تجد لها فيها أيَّ بصمة على الإطلاق، فالآثار الإسلامية البارزة والمُعتنى بها، تجدها في جنوب وشرق إسبانيا، وليس في مدريد، وإن وُجِدَت رَدَمَها القوم وأهالوا فوق بقاياها التراب. وآخرون يَمُمُّوا شطر مدريد، طلبًا لِلْعِلْمِ والدراسة والبحث والتَّحصيل ضِمن إطار برامج التعاون الثقافي بين إسبانيا وبعض الدول.

هذه هي مدريد التي كانت منذ عقودٍ مَضَتْ مكانًا يصعب العيش فيه، يأتِيها الإسبان من جميع المدن والمقاطعات الإسبانية،

(1) الشيء الذي جعل وزير حكومة يمين الوسط هذا - «رودريغو راتو» Rodrigo Rato يدفع الثمن لاحقًا بالمحاكمة والسجن بسبب تجاوزاته المالية، على هامش الأزمة الاقتصادية العالمية، في السنوات العجاف التي تَبَعَت تلك البقرات السمان العشرين التي لم يحسن الإسبان الاستفادة منها!

إستعداداً للهجرة والعمل في البلاد الأوربية، هرباً من الحرب والفقر والجوع والإستبداد والظلم والسُّجون.

وأنا... ومدرید، نعيش منذ أعوام وسط هذا المهرجان⁽¹⁾ الهائل، ما بين سلام وحرب، وحزن وفرح، وأمان وخوف، وكرامة ومهانة.. وكرامة ومهانة!

مدرید عاصمة إسبانيا المثقلة بتاريخها الحديث والقديم، وأنا «المورا»⁽²⁾ المثقلة بشعوري بوحديتي مُتعددة الأبعاد، وحاضر أمتي المُخيف المؤلم الرهيب.

«مورا».. في نظر مدرید، وأهل مدرید، وكنائس مدرید، وأسواق مدرید، ومدارس مدرید، وأطفال مدرید، ورجال ونساء مدرید، وجميع أجهزة الإعلام في مدرید.

«مورا».. يا لها من كلمة؟! جعلتني بسنوات عمري الثماني والعشرين، وذكرياتي التي حملتها معي من حياتي الغنية الحافلة في دمشق ثم في غرناطة، غريبة حتى نخاع عظامي، بآمالي وآلامي، وآمال زوجي وأطفالي وآلامهم — على صغر سنهم — وأوراق وأقلامي، وقلبي الذي أثبتت تقارير الأطباء أنه مُتعب.

«مورا».. مجرد كلمة، كلمة واحدة فحسب.. جعلتني مع

(1) في المعجم الوسيط: المِهْرَجَانُ : كلمة فارسية مركبة من كلمتين : الأولى: مِهْر، ومن معانيها الشمس، والثانية : جان، ومن معانيها الحياة أو الروح. والمِهْرَجَانُ الاحتفالُ يُقام ابتهاجاً بحادث سعيد، أو إحياءً لذكرى عزيزة، كمهرجان الأزهار، مهرجان الشَّباب.

(2) لا تلفظ الواو هنا واواً، وإنما كالحرف الإسباني «أوه» O—، فهي تشغل مكان حركة الضمة باللغة العربية. فنقرأ «مورا» بتخفيف الواو إلى ضمة، كما تلفظ كلمتي «تورا بورا» المشهورتين، واللتيان تعنيان بالعربية الغبار الأسود، وهي منطقة تقع شرقي أفغانستان تابعة لولاية ننگرهار — كما جاء في الويكيبيديا—

كُلَّ هَؤُلَاءِ، مِنْ أَشْخَاصٍ وَمَشَاعِرٍ وَصُورٍ، أَنْكَمَشَ إِلَيْهَا، أَنْقَلَصَ،
أَنْحَشَرَ فِيهَا، أَكَادَ أَخْتَنَقَ، أَصَارَعَ سَجَنَهَا، وَأَحَاوَلَ أَنْ أَمْزِقَ
بِأَظْفَارِي جَدْرَانَ قَهْرِهَا وَجَبَرَوْتَهُ، وَلَا أَسْتَطِيعُ الْخِلَاصَ، فَلَقَدْ
بَدَأْتُ - لِلْأَسَفِ أَوْ لِحَسَنِ الْحِظِّ - أَتَعَايَشُ مَعَ هَذِهِ الْكَلِمَةِ، كَمَا
أَتَعَايَشُ مَعَ مَدْرِيدَ نَفْسِهَا، تَمَامًا.. كَمَا يَتَعَايَشُ الْمَرءُ مَعَ مَرَضِ
الْقَلْبِ وَالرُّومَاتِزَمِ، مَرْضَانِ أَنْيْقَانِ صَامَتَانِ مُهْلِكَانِ فِي زَمَنِ الْأَوْرَامِ
الْقَبِيحَةِ وَالْخَرَاجَاتِ الشَّنِيعَةِ.. وَلَكِنْ لَا شِفَاءَ مِنْهُمَا وَلَا حَلَّ
مَعَهُمَا.

بَدَأْتُ أَمْلُ الدَّوْرَ الَّذِي أَرَاغَمْتَنِي مَدْرِيدَ عَلَى أَنْ أَعِيشَ ضِمْنَ
إِطَارِهِ.. «مُورَا»، دَوْرٌ أَسْنَدْتَهُ مَدْرِيدَ إِلَيَّ، وَوَجَدْتُ نَفْسِي مُكْرَهَةً
عَلَى الْقَبُولِ بِهِ بَعْدَ عَشْرَةِ أَعْوَامٍ مِنَ الْعِيشِ فِيهَا، لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَنْفِكَ
عَنْهُ.

حَاوَلْتُ جَاهِدَةً، دَخَلْتُ «مَعَارِكُ» كَلَامِيَّةً وَثَقَافِيَّةً وَفَكْرِيَّةً
وَشَخْصِيَّةً، مَعَ كُلِّ الَّذِينَ عِشْتُ وَتَعَايَشْتُ مَعَهُمْ رَغْمَ أَنْفِي وَأَنْفِهِمْ،
كَانَتْ النِّقَاشَاتُ الْيَوْمِيَّةُ الْمَزْعُجَةُ هِيَ خُبْزُ حَيَاتِي فِي مَدْرِيدَ
وَأُوكْسَجِينِهَا، عَلَى الرَّغْمِ مِنَ السُّكُوتِ وَالتَّجَاوُزِ فِي كَثِيرٍ مِنَ
الْأَحْيَانِ، إِنْ لَمْ يَكُنْ إِتْقَاءٌ لِلشُّرُورِ، فَنَتِيجَةُ لِلتَّعَبِ وَالْإِرْهَاقِ مِنَ
دُخُولِ نِقَاشَاتٍ حَادَّةٍ بَلْغَةٍ لَا تَكَادُ تُتَقَنَّ نِصْفَ مَهَارَاتِهَا.. نِقَاشَاتُ
خَاطِفَةٍ، طَوِيلَةٍ، سَطْحِيَّةٍ، عَمِيقَةٍ، مُتَعَبَةٍ، مُرْهَقَةٍ، عَقِيمَةٍ، قَلِيلَةٍ
الْثَّمَارِ، نِقَاشَاتُ إِسْتِفْهَامِيَّةٍ، أُخْرَى تَقْرِيرِيَّةٍ، ثَالِثَةٌ تَرْمِي إِلَى الْإِمْتِهَانِ
وَالْإِقْصَاءِ.. وَقَلِيلَةٌ جَدًّا، تِلْكَ الَّتِي يَرِيدُ أَصْحَابُهَا الْمَعْرِفَةَ.

فِي الْبِقَالِيَّةِ:

- مِنْ أَيْنَ أَنْتِ؟

مِنْ سُورِيَا

- وأين يقع هذا الشيء.. آه لعله هنا في شمال مدريد؟ فأنا من «خاينين»⁽¹⁾ جنوب «أندالوثيا»⁽²⁾.

- أنا من سوريا.. إنها بلد عربي!

- وأين يقع؟ لم أسمع به في حياتي.

- إنه على يدك اليمين إلى شرق إسرائيل.

- آه لقد عرفته الآن!

موظفة البريد:

- إلى أي «أخوية» تنتمين؟

- أخوية؟

- يعني إلى أي نظام رهباني؟ أنتِ راهبة أليس كذلك؟

- لا.. أنا لست راهبة.

- ولماذا ترتدين ملابس الراهبات؟

- أنا مسلمة..

- وأي شيء هو هذا؟

- إنه دين الإسلام، وأنا مسلمة.

- إياك أن تقولي لي إن هؤلاء الأطفال هم أولادك؟

- نعم إنهم أولادي.

(1) Jaén أصل الاسم العربي «جيان»، ولفظها بالإسبانية «خاينين» بتسكين الياءين، مدينة أندلسية جنوب إسبانيا.

(2) مقاطعة أندلوثيا جنوب إسبانيا Andalucía.

- يا للهول... راهبة مع ثلاثة أطفال.. هذا من علامات
إقتراب يوم القيامة لا شك!

عند اللحام:

- تغسلون اللحم؟ ولماذا؟

- ولم لا نغسله؟ شيء طبيعي أن يغسل الناس اللحم قبل
طبخه!

- قلت لك إن هذا اللحم مذبوح.. أنت سألتني وأنا
استفسرت وجئتك بالجواب.

- أنا لا أغسله لكونه مذبوحاً أو غير مذبوح.. أنا أغسله
لمسألة تتعلق بالنظافة.

- بالنظافة؟ اللحم نظيف هنا ومُسْتَوِفٍ لكل الشروط
الصحية، لكنك تبالغين كثيراً في أشياء صغيرة وعديمة الأهمية، ما
المشكلة إن كان العجل مذبوحاً أم مقتولاً بالصاعق الكهربائي؟ أنا
لا أفهم تنطعكم هذا؟

- هذه مسألة لا تتعلق بالتنطع، إنها مسألة بالغة الأهمية
بالنسبة إلينا.

- نعم أعلم، لم تبق «مورا» في الحي إلا جاءت تسألني إن
كان اللحم مذبوحاً أم لا!

- ذكرت لك يا سيدة أن هذه مسألة مُهمّة بالنسبة إلينا.

- أنتم يا سيدة تريدون أن تفرضوا علينا طريقة حياتكم
ومأكلكم وملبسكم ورؤيتكم للأشياء، المفروض وبما أنكم

تعيشون بيننا أن تعيشوا مثلنا وتندمجوا في المُجتمع على طريقتنا،
لا أن تُرغموا مجتمعنا على أن ينزل عند رغباتكم.

- في الحيّ تسكن أربع أسر مسلمة فقط، أسرتان مصريتان
مُبتعثتان للدراسة، وأسرة مختلطة إسبانية - سورية، ونحن، وهُنَّ
صديقاتي اللاتي دَلَّتْهُنَّ على مَلَحَمَتِكَ، لِمَا رَأَيْتَهُ من طيب التعامل
والخدمة، نحن يا سيدة لم نرغمكم على شيء، كُلُّ ما هنالك أنا
نسأل عن مصدر اللحم، أليس من حقنا أن نفعل؟

- تصرفاتكم هذه تؤذي السُّلم الاجتماعي في بلدنا، وتجعلنا
نشعر أننا على خطأ، أو أن أمرًا ما قد أصاب مجتمعنا!!

في جامعة الكومبلتينسة.. وفي أثناء النقاش الذي كان يجري
بعد إلقائي محاضرة عن المرأة المسلمة:

- هل لك أن تشرحي لنا موضوع تعدد الزوجات في
الإسلام، فإننا نَعُدُّه هنا من أخطأ الأمور وأكثرها إثارة للفتنة.

- إثارة للفتنة؟

- نعم.. إثارة للفتنة.

- دعني أسألك سؤالاً من فضلك.. وأرجو أن تصدّقني
القول.

- تفضلي.

- مع كم «خطيئة» كنت قد خرجت في حياتك قبل أن
تتزوج؟

تلقت الرجل يميناً وشمالاً مُستغرباً أن أجيبه عن سؤاله العام
بسؤال شخصي.

- طيب.. أوجه السؤال لكل السادة الحضور في القاعة -
العدد كان فوق المئتين - من فضلكم الكريم، ليتفضل برفع يده
- من الرجال - من «خارج» مع عشرين امرأة على الأقل في حياته.

ما بين هرج ومرج وضحك وفوضى عمت القاعة، رفع أكثر
من عشرين رجلاً أيديهم.

- الآن.. أرجو أن يتفضل برفع يده من «خارج» مع عشر نساء
في حياته على الأكثر.

وكان الأمر صار لعبة مَرَح جماعية، رفع أكثر من خمسة عشر
رجلاً أيديهم.

- من فضلكم الكريم.. كم رجلاً من الحضور كان قد «خرج»
في حياته مع خمس نساء فقط؟

فرفع ما يقارب العشرة أيديهم، من بينهم رجل الدين الأستاذ
الجامعي، الذي كان ضمن من نَظَّم هذه الفاعلية، بمشاركة بعض
الطلبة التوانسة والمغاربة في الكومبلتينسة.

- حسنٌ جداً.. مَنْ من رجال هذه القاعة لم «يخرج» في حياته
كلّها إلا مع امرأة واحدة؟
لم يرفع أحد يده.

توجهت بالحديث إلى الشخص الأول الذي سألني ذلك
السؤال، وقلت له: يا سيدي، الفرق بيننا وبينكم، هو أن موضوع
التعدد عندنا «مُقَنَّ»، وأما عندكم فهو مفتوح من دون قوانين ولا
حقوق ولا واجبات.

صَفَّق الحضور وقام بعضهم واقفاً وهو يُصَفِّق، ولما انتهت
«اللّعبة» الجماعية الفكرية - هذه، قام الرجل نفسه فقال: أرجو ألا
تُعْذِّي يا سيدتي «الخروج» مع امرأة مساوياً للزواج بها!

قلت له: لا يا سيد.. أنا لا أعدّه كذلك، أنتم الذين تعتبرونه كذلك.. «الخطيب» عندكم هو «زوج» يتمتّع بكلّ حقوق الزوج، مع وقف تنفيذ أي من واجباته والتزاماته.

هنا وقفت سيّدات القاعة يُصَفِّقن ويُصَفِّرُن ويدعمنني فيما قلته.

فوجئنا جميعاً بأحد الأساتذة من العرب، كان بين الحاضرين، يَقِفُ مُعْتَرِضاً، قد أزعجه أشدّ الإزعاج منطقي في إدارة الحوار في محاضرتي هذه، أخذ مُكَبِّرَ الصوت، ثم توجّه إليّ بالقول: أعتقد أن هذا الذي قلته مردود عليك، هذا كلّهُ هراء فارغ، كان عليك أن تُزودي الجمهور بالآيات والأحاديث والعِلل الفقهيّة الخاصّة بموضوع التعدد، من مرض الزوجة أو عجزها عن الإنجاب.. أما التّهريج فإنّه لا يقدّم إجابات علمية.

صمت الجميع بانتظار جوابي، وقبل أن أجيبه، قام رجل الدين أستاذ الفلسفة، وقال له: يا أستاذ، هذه جلسة عامّة تُدار فيها أحاديث عامّة وليست محلاً للنقاشات الفقهيّة الخاصّة بكم.

كانت تلك سنوات إستثنائية في إسبانيا.. لم تتكرّر، انقضت ولم تعد، إلا بعد سنوات طويلة، ووصول جيل آخر من المهاجرين الآتين من بلادنا، أو تمكّن المولودين في إسبانيا من إتمام تحصيلهم الأكاديمي، والقيام بهذه النشاطات التي تُعدّ لبّ وجوهر وجودنا الثقافي، وملح الحوارات المفتوحة الدائبة بيننا وبين نخب المُجتمَع الإسباني.

في أحد المراكز الثقافيّة.. على هامش لقاء مفتوح مع الطلبة حول مشكلات المهاجر بين ثقافتين وهويتين:

- لا أفهم لماذا ترتدين هذه الملابس؟

- أنا «متدينة».. ولماذا ترتدي الراهبات عندكم الملابس نفسها تقريباً ولا يعترض أحد؟

- تعنين «مورا» متديّنة؟ لا مقارنة بين «مورا» وراهبة!

- لا.. أنا مسلمة، وأنتم تسمّونني «مورا»! ثم إنّ المقارنة لا ينبغي أن تكون إلا من هذه الزاوية بالضبط، هناك فِرَق دينية مسيحية يتزوج فيها رجال الدين ويُنجبون الأولاد، ولا يستغرب النَّاس هذا، هل يُمنع على المسلمين فقط أن يكونوا مُتدينين وفي الوقت عينه آباء وأمّهات.

- أنت إذن «مورا».. مُحمدية، تابعة لهذا الذي يُدعى محمد؟

- نعم.. تابعة أنا لهذا السَّيِّد العظيم الرسول الذي اسمه محمد.

- دعي عنك هذا.. أنتم مجموعة من الكُفَّار.. ولا شيء غير هذا!!

«كُفَّار»؟؟! وقعت عليّ الكلمة كالصاعقة.. «كُفَّار»؟ نحن؟ لم أسمع قطُّ أن وصفني أحدُهم بكلمة «كافرة»! هذه هي المَرَّة الأولى التي أكون فيها أنا هو «الآخر» الكافر! فَلَطَلَمَا وَصَفْنَا «نحن» كلَّ أهل الأرض بالكُفْر! أما أن نكون نحن هُمُ «الكُفَّار»، فهذه مسألة مُثيرة لِلبالغ التَّعجُّب والاهتمام!

- كُفَّار يا سيِّدة؟!

- نعم.. أنتم الكُفَّار، الذين لا يؤمنون بالسَّيِّد المسيح!

- بلى نؤمن به نبياً رسولاً عظيماً، بل أكثر من ذلك من لا يؤمن به من المسلمين يخرج من الإسلام جملة وتفصيلاً!

- هذه سَفْسُطَة... أنتم لا تؤمنون به إلهاً ولذلك أنتم كُفَّار!

- يبدو يا سيدتي أن كلاً منا يُعدّ الآخر «كافراً»، وأظن أن علينا أن نجد قاسماً مُشترِكاً للتّقييم بالكُفر والإيمان، لنستطيع أن نتفاهم كبني البشر.

- هذه ملاحظة ذكية جدّاً، ما ظننت أنه يمكن التّفاهم مع المحمديّين!

- بل نحن يا سيدتي أكثر الأقوام قبولاً بالآخر، واستيعاباً للاختلاف، ورغبةً في التّفاهم!

- يا سيدتي المُحمديّة.. أنا أعرفُكم، أنتم أصحاب «القتل»، و«الذبح»، و«خذوهم حيث ثقتُمُوهم واقتلوهم»⁽¹⁾.. ألا ترين ما يجري في لبنان، وما تقومون به من ذبح وفظائع واغتصابات؟

- يا سيدتي غير المُحمديّة.. تلك آياتٌ نزلت في المُعتدين الذين يُقاتِلون المؤمنين، وهي خاصة بأداب المعارك والقتال والحروب، تحضّ الجيش على عدم الإستسلام، وعدم التّخاذل أثناء سير المعركة.. أما عن لبنان، فلَسنا وحدنا من يقوم بهذه الفظائع، هناك يُقتل الجميع مع الجميع، اليهود والنصارى والمسلمون، إنها ساحة حرب عالمية باردة في دياركم، تتميز غيظاً ونيراناً في بلداننا. والأصل عندنا ياسيدة، قوله تعالى: ﴿وَقَتْلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقتُلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾⁽²⁾، وفي نفس السياق: ﴿فَإِنْ أَنهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾⁽³⁾.

(1) في إشارة إلى الآية: ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَفْتَنُوهُمْ وَآخَرُجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوهُمْ﴾

الآية 191 من سورة البقرة.

(2) الآية 190/ سورة البقرة.

(3) الآية 193/ سورة البقرة.

كانت المرة الأولى، التي أَقِفُ فيها عندَ مَعْنَى كَلِمَةِ «الكُفْر»، بهذا الفَهمِ المُضْطَبِّط، أنا أَعْتَبِرُكَ كَافِرًا، وأنتَ تَعْتَبِرُنِي كَافِرًا، لَأَنَّكَ لَا تُؤْمِنُ بِمَا أُؤْمِنُ بِهِ، ولَأَنَّنِي لَا أُؤْمِنُ بِمَا تُؤْمِنُ بِهِ⁽¹⁾.. إِنَّهُ مُلَخَّصُ سُورَةِ «الكَافِرُونَ»، التي لَا تَعْدُو - إِذَا - كَوْنَهَا طَرِيقَةً دَقِيقَةً لِتَوْصِيفِ قَضِيَةِ الْكُفْرِ التي يَجِبُ أَلَّا يَتَرَتَّبَ عَلَيْهَا مَعْرَكَةٌ وَلَا حَرْبًا، بَلْ هُوَ التَّسْلِيمُ بِالْحَقِيقَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ الْمُطْلَقَةِ، أَنَّ الْبَشَرَ مُخْتَلِفُونَ، وَأَنَّ لِكُلِّ دِينِهِ وَانْتِمَاؤِهِ وَطَرِيقَتِهِ.. لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِي دِينِي، الْحَرْبُ تَقُومُ فِي حَالِ الْعُدُوَانِ، وَالتَّغُولِ، وَقَهْرِ الْإِنْسَانِ، وَاسْتِلَابِ حُرِّيَّتِهِ وَكَرَامَتِهِ.. حِينَئِذٍ لَا بُدَّ مِنَ الدَّفَاعِ وَالرَّدِّ، وَحِمَايَةِ الْإِنْسَانِ مِنْ ظَلَمِ الْإِنْسَانِ، وَهُوَ حَقٌّ يَرِيدُ الْجَمِيعَ - الْيَوْمَ - أَنْ يَحْرُمُونَا مِنْهُ - وَمَعْنَا كُلِّ الشُّعُوبِ الْمُسْتَضْعَفَةِ الْمُسْتَعْمَرَةِ -!

يَعْتَدُونَ عَلَيْنَا يَغْزُونَ بِلَادَنَا، يَسْرِقُونَ ثِرَوَاتِنَا، يَشُوهُونَ هَوِيَّتِنَا، وَيَهِينُونَ إِنْسَانَنَا.. ثُمَّ وَإِذَا قَامَ النَّاسُ بِالْدَّفَاعِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ، سَمَّوْا ذَلِكَ إِرْهَابًا، وَرَدُّوهُ إِلَى آيَاتٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ! لَا سِيَاقَهَا وَلَا أَسْبَابَ نَزُولِهَا وَلَا الْمَرَادَ مِنْهَا فِي أَيِّ حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ يَتَضَمَّنُ الْعُدُوَانُ عَلَى الْآخَرِينَ، بَلْ «الرَّذْعُ» الَّذِي يُرْهَبُ الْأَعْدَاءُ، لِيَكْفُوا عَنْ الظُّلْمِ وَالْإِعْتِدَاءِ.

إِنَّهُ الْإِعْدَادُ وَالِاسْتِعْدَادُ اللَّازِمَانِ لِاسْتِدْعَاءِ الشُّعُوبِ مِنَ «الْغِيَابِ» وَ«التَّغْيِيبِ»، فِي عَالَمٍ لَمْ يَحْتَرَمْ قَطُّ الضُّعْفَاءُ، عَالَمٌ يُغَيِّبُ الْمَهْزُومِينَ الْمُسْتَسْلِمِينَ لِإِخْفَاقِهِمْ، يَسْتَبِيحُ أَرْضَهُمْ وَأَعْرَاضَهُمْ وَثِرَوَاتَهُمْ وَوُجُودَهُمْ..

اللَّهُ وَحْدَهُ الَّذِي يَعْلَمُ مِنْ يَقِفٍ وَرَاءَ هَذِهِ الْإِعْتِدَاءَاتِ الَّتِي يَقُومُ بِهَا قِلَّةٌ قَلِيلَةٌ مِنْ «شِبَابِنَا» هُنَا وَهَنَّاكَ، بَيْنَ الْحَيْنِ وَالْحَيْنِ.. وَمَنْ

(1) سورة - الكافرون، رقمها 109 في القرآن الكريم.

يُحَرِّكُهُمْ⁽¹⁾ كما تَتَحَرَّكُ الدُّمَى في مسرح العرائس، وَهُمْ يَدَّعُونَ
الرَّغْبَةَ في التَّحَرُّرِ والخلاص والانتقام من المُستعمرين الذين
يعيشون فساداً في بلادهم، لا تعترف بهم دُولُهُمْ ولا مجتمعاتهم،
في حين أنَّ مَنْ يقوم بالإرهاب الحقيقي وعلى مُستوى العالم
كُلِّه.. هي الدُّول العُظمى القويَّة التي تمتلك أدوات البطش
الرهيبة، ترفع لواء الحُرِّيَّات وحقوق الإنسان، بينما وعلى أرض
الحقيقة والواقع، تقوم بتدمير الشعوب وحقوقها وحُرِّيَّاتها
وإنسانها، بالقوَّة، أم بالقهر، أم بالضغط الاقتصادي أم السياسيَّة أم
الثقافيَّة أم النفسيَّة!



لا يَرْتَبِطُ العُدَّوان والإرهاب بِحَمْلِ السِّلَاح فحسب.. لكنهما
يَأْخِذَان أَشْكَالاً مُتَنَوِّعَةً في عَالَمِنَا اليَوْم! فَأَنْ يَحْمِلَكَ مُجْتَمَعٌ
مُضَيِّفٌ، على أَنْ تَذَوَّبَ فِيهِ بِسَطْوَةِ القُوَّة «الثُّعْبَانِيَّة».. الزَّاحِفَةُ
المُسَلَّلَةُ تُحَاصِرُكَ، بالإعلام المُفْتَرَس، بِصَلَفِ الشُّعُورِ البالغِ
القَسْوَةِ بالإسْتِعْلَاءِ الفارغِ والرَّفْضِ الحَقِيرِ والكَرَاهِيَّةِ المَرْدُولَةِ..
فهذا عُدَّوَانٌ وإرهابٌ وإِغْتِصَابٌ، لكلِّ مَوَاقِفِ الحقوق والحُرِّيَّاتِ
التي يَتَبَاهَى بها عالم القرن العشرين.

(1) ثبت لاحقاً أن كل العمليات المسماة بالإرهابية التي شهدتها الساحة
الأوروبية - على سبيل المثال - في المرحلة الزمنية التي يحكي عنها
الكتاب، وماسبقها، كانت من تدبير الجماعات الإيرانية في لبنان،
والحكومة السورية البعثية، ثم ثبت وبالدلائل أن كل العمليات الإرهابية
في روسيا وماشايها، والتي إنهم بها الشيشانيون خارج أرضهم، كانت
من تدبير فلاديمير بوتين شخصياً، استخدمها لاحقاً مبرراً لغزو الشيشان
وتدمير حواضرها وتشريد شعبها واستئصال أحرارها، والوصول إلى
سدة الحكم في موسكو.

ذهبتُ وقد تَعَطَّلَ هاتفنا، أتصلُ من كوخ الهاتف العام أمام مدخل البناء الذي أسكنه، كانت تستعمل الهاتف شابة من جيراننا الأبعد، فلما رأنتي أنتظر دوري بعدها مباشرة، بِالْغَتِ في إغلاقِ الباب، وفي توزيع نظراتِ الإحتقار والكرهية، وبقيتُ تتحدث هناك أكثر من عشرين دقيقة إضافية، وأنا أنتظر في صبرٍ وهُدوء، أتشاعَلُ بأطفالي من حولي، ولمّا خرجتُ، رَدَّتِ الباب في عُنْفٍ، نفثتُ دُخان سيجارتها في وجهي، ثم صاحت بصوتٍ مرتفع: «مورا» بنت الساقطة!

لم أستطع السكوت كما أفعل في أغلب الأحيان، خصوصاً أنها شتمتني أمام البُنيات، ومن دون أي وجه حقٍّ، قلتُ لها في غضب هادئ: عفوًا.. ما الداعي إلى مثل هذا الكلام القَدَر يا... جارة؟

أجابتنني وقد أغاظها هدوء ردِّ فعلي: يكفي أنكِ تتنَفَّسين معي هواء مدريد⁽¹⁾!

(1) كان ذلك قبل أن تتوافد الهجرات من بلاد المسلمين المنكوبة، بعشرات الآلاف من النساء والرجال المسلمين إلى إسبانيا في أواخر القرن العشرين، وقبل أن تقع جملة الأحداث الهائلة التي جعلت كل من على ظهر الأرض يعرفون ما الإسلام، حقيقة أو واقعاً أو كذباً وتشويهاً...! كان ذلك في أوائل التسعينيات، حيث لم تكن الدعوات العنصرية قد عمّت البلاد، ولم تكن وسائل الإعلام حينها قد انقلبت لتصبح أبواباً لنشر الكراهية والبغضاء بشكل منظم ودؤوب - في طول أوروبا وعرضها، وليس في إسبانيا وحدها -، توحى للشعب الإسباني بأن كل ما نزل به من مصائب وبلاد وفقر ومحن وأزمات وحتى سوء الأحوال الجوية بين الحين والحين صيفاً أو شتاءً، إنما هو بسبب الأجانب، والمسلمين منهم بشكل خاص، والمغاربة على وجه الدقة - في ذلك الحين -!

يُلْجِمُ الحَقْدَ والكراهية الأنفس الشريفة...

الصدمة بالبغضاء مؤلمة، مؤلمة جداً.

كُنَّا يومها خمس أسير «عربية» تسكن حيّ البيلار، الذي كان يتجاوز عدد سكانه السبعين ألفاً في تلك الأيام! أربع أسر مُسلمة والخامسة مسيحية، ما بين مصريين وفلسطينيين وسوريين، كُنَّا إذ ذاك قِلة قليلة، لا تكاد تبين، وكان الحقد علينا والغیظ من وجودنا أكبر من أن يُمكن إخفاؤه.

لم يكن هناك أي مُبرر يستوجب مثل هذا الاعتداء السّافر عَلَيَّ، كانت المرة الأولى في مدريد، التي أُشتم فيها بكلمة «مورا»! وكانوا يشتمون الأسرة السورية المسيحية بنفس الكلمة، رغم اشتغال أفرادها كباراً وصغاراً بتبيان أنهم مسيحيون!

في البداية كانوا يُنادونني في غرناطة بكلمة «فاطمة»، لكنها لم تكن شتيمة، كانت أقرب إلى الإزعاج والمُعاكسة والإستفزاز منها إلى الشتيمة، «نكته» كئيبة جُلقة، نوع من أنواع التّواصل السمج الثقيل.

أحياناً كانوا يُريدون بمناداتنا بكلمة «فاطمة» مُجرد لَفَتَ النَّظَر.. إننا هنا نراكِ ونراقب تحركاتكِ! أحياناً أخرى كان تحرّشاً جنسياً مَفْضوحاً أو مُسْتَتِراً، لامرأة مُحجّبة مُتَجَلِّبة وحيدة وغريبة! وفي الغالب كانت نوعاً من أنواع التذكير الفظّ، بأنكِ غريبة هنا في بلد لا يُحب الغرباء القادمين من عوالم لا ترغب غرناطة ولا مدريد في استضافتهم!

تَطَوّرت الأمور مع مرور الأيام - إذا كان يمكننا أن ندعو ذلك تطوراً - فأصبحتُ أدعى بـ «المورا» بصورة إستثنائية دائبة، صار هذا اسمي ولقبني وصفتني وعملي وهويتي في مدريد.

سمعتُ هذا الوصف أول مرة في مدينة «إلكانتة»⁽¹⁾ شرقي إسبانيا، كان ذلك أيام أعياد الميلاد أوِاسط الثمانينيات، وكنا في زيارة أخت فلسطينية هناك نُمضي معهم فترة العطلة، وصلنا أم ياسر وأنا والأولاد إلى رتلٍ سيارات الأجرة، وكما هي الحال مع سيارات الأجرة، فتحنا باب السيارة الأولى في الرتل وأدخلنا حاجاتنا والأولاد، وقد استغربنا أن السائق لم ينزل لمساعدتنا في وضع أغراضنا في صندوق السيارة، كما جرت العادة، وبعد أن استقر بنا المقام في المقعد الخلفي مع ثلاثة أطفال جميعهم دون الثالثة من العمر، أغلقنا الباب، وحيّينا السائق.. فلم يرد.

- مساء الخير

-

- هل تسمعنا؟ قالت له أم ياسر!

-

- هل تريد أن نُقلنا إلى حيّ (كذا)؟

-

بقي الرجل يُحمِلُ فينا بكلّ صفاقةٍ ولؤم، عبر مرآة السيارة الأمامية، قلتُ لأم ياسر هيا بنا ننزل!

قالت: لا.. واجبه أن يُقلّنا رغم أنفه - قالتها بالإسبانية مُتحدية!

لم يردّ الرجل، لكنه فتح باب السيارة وبصقَ على الأرض، ثم تمتم: موروس قاذورات، وأغلق باب السيارة وكأنه لم يفعل شيئاً. فتحتُ الباب، وبدأت بإنزال بناتي، ثم ذهبتُ آخذُ حاجياتي

Alicante (1)

من صُندوق السيارة الخلفيّ، بينما راحت أمّ ياسر تُهدده بأنها ستشكوه إلى المحافظة، وأنها ستُقدم بلاغاً ضده لأنه خالف لوائح النظام الداخليّ لسيارات الأجرة.. وهو يردد: اذهبي إلى «الخِراء».. وفعليّ ما بدا لك!!

ذهبنا إلى بيت أمّ ياسر على بُعْد ساعتين مشياً، مع أولادنا الثلاثة وعربتي أطفال، ونحن نحمل أكثر من خمسة عشر كيلوغراماً من الأطعمة والحاجيّات، وكلّلتنا حامل في شهرها السابع، ولما وصلنا الدّار، أُصِبتُ بأول نوبة قلبيةّ عرفتُها في حياتي، كنت يومها في السابعة والعشرين من عُمرِي.. وكانت تلك أول مرة سمعتُ فيها أحداً يناديني بكلمة «مورا».

كلّنا هنا «مُوراس»⁽¹⁾...

أصبحنا ولا يُفرّق القوم بين عربية ومُسلمة، ولا بين آتية من المشرق وآتية من المغرب، كلّنا أعداء علّق⁽²⁾ دُخلاء، مُتخلفون لا ترقى إلى درجة إنسانية الإسبان الاستثنائية، وتحضّرهم الضارب أطنابه في التاريخ!

هذه هي الصورة النمطيّة التي تسكن ذهن معظم الإسبان،

(1) MORAS «موراس»، جمع كلمة «مورا» المؤنث باللغة الإسبانية، بتخفيف الواو.

(2) في لسان العرب: وفي حديث عامر: خيرُ الدّواءِ العَلَقُ والحِجامة. العَلَقُ: دُوْدَةُ حمراء تكون في الماء تَعَلَقُ بالبدن وتمصّ الدم، وهي من أدوية الحلق والأورام الدّمويّة.

لم أجد تخريج الحديث عن عامر، لكنني وجدت أحاديث بهذا اللفظ والمعنى، منها: «إنَّ خيرَ ما تداويتم به اللّدودُ والسَّعوطُ والحِجامةُ والمُشِيّ»/ الراوي: عبد الله بن عباس، سنن الترمذي/ الموسوعة الحديثيّة/ الدّرر السنيّة.

عن كلّ مسلمة يرونها في الشارع بحجابٍ على رأسها، أو سِحنةٍ غريبة في وجهها، أو لَكَنَة أجنبيّة واضحة على لسانها!

قدّر ضُرب على المُسلمة في إسبانيا.. عربيّة أو كرديّة أو أمازيغيّة، سافرة أو مُحجبة، سوريّة أو مغربيّة أو فلسطينيّة أو باكستانيّة، كبيرة أو صغيرة، أميّة أو أستاذة جامعيّة!

كانت تلك «هُويّتنا» في إسبانيا، والتي جاهدنا جهاد المُستَتميت يومًا فيومًا، وحدّثًا فحدّثًا، لتغييرها، دون أن نُفلح كثيرًا، فعلى الرّغم من الجُهود الجبّارة التي كانت بعض النّساء المسلمات يبذلنها بين الحين والحين وخصوصًا ممن يَرْتَدن الجامعات، أو يُحاولن إقحام وسائل الإعلام، بمُشاركاتٍ فنيّة أو حواريّة، يَقمُن بها بصورة فردية أو عن طريق أطفالهن، في سبيل تغيير نظرة المُجتمَع إلينا، فإنّ وسائل الإعلام هذه نفسها ودائمًا، كانت بالمرصاد، لتَقْويض كلّ جُهدٍ إيجابيّ في هذا الاتجاه.

نحن هنا كلّنا «عربٌ» «مُسلمون»، غرباء مَمْقوتون، دُخلاء مرفوضون.. «موروس»!

أنت هنا لا تمتلك تلك البَصمة المُعقّدة، الدّينية أو القوميّة أو العرقيّة، التي طالما تغنيت بها، أو استَخدمتها للإستعلاء والتّمييز على الآخرين من أبناء شُعبك وأمتك، أو لمُحاربتهم ودك بُنيان وجودهم، مدعومًا - سواء كنت عربيًّا أم أمازيغيًّا أم كرديًّا أم نوبيا - بقوى إستعماريّة تَستَخدمُك لِفعل هذا، من حيث تعلم ولا تعلم.. ولكنك هنا مُجرّدٌ ليس من هذه الإستثناءات الفُسيّساتيّة ذات النّزعة التّدميرية فحسب، بل من هُويّتك الوطنيّة البسيطة المُسطحة، التي لطالما استكبرت بها - كذلك - على إخوانك وأشباهك، من أبناء عمومك الأقربين من حولك.

حاجّتك في غُربتك ماسّة، إلى هُويّة صلبة جدًّا، راسخة شامِلة ضاربة جُذورها في عمق التاريخ.. هُويّة نقيّة واضحة ترتسم

معالمها في دماغك قناعات راسخة تُدافع عنها، كما تبدو سماتها
سلوكًا ثابتًا غير مُتذبذب ولا مُتأرجح يُستجدي التأسي بالآخرين.
إنها الوسيلة الوحيدة لاستدعائك من الغياب والتغيب.

الوسيلة الوحيدة لفرض احترامك على هذا المُجتمع الذي
يُضيفك كارهًا.

في مدريد، أنت لست سوريًا، أو فلسطينيًا، أو مغربيًا، أو
مصريًا، تكفّلت الغربّة بأن تقضي على كلّ الحدود التي زرعها
الإستعمار وأذياله فيما بيننا، ليست الحدود الجغرافية فحسب،
بل النفسية والأخلاقيّة، أو على وجه التّحديد غير الأخلاقيّة،
التي رفعت في وجودنا الممزّق حواجز من الكراهيّة والرّفص
والعنصريّة البنيّة، نزاولها بعضنا مع بعضنا، وهي أشدّ وأقذر من
العنصريّة التي يتعامل بها الأوربيون معنا!

هنا أوربا.. جنة الحقوق والحريّات والخدمات والتّغني
بالإنسانيّة، هنا أوربا.. جحيم العنصريّة والكراهيّة ونفاق
الديمقراطيّة والانتقائيّة الإنسانيّة، وإنكار الجرائم التاريخيّة التي
ارتكبتها الغرب بحقّ شعوب العالم، هنا.. لا يطلب منك أحد بطاقة
هُويّتك الوطنيّة أو القوميّة، على أبواب هذا الجحيم وويله وألسنة
لهيبه.

- أنت مورو؟

- لا.. أنا سوريّ!

- يعني.. أنت مورو؟

- لا... لا أبدًا، أنا سوريّ، ألا ترى أنّني أتميز بنظافتي
وشكّلي وبياض بشرتي، أنا لست مورو!

- أنت مورو! ما الفرق بينك وبين أي «مورو» آخر؟

- نظافتي، سُلوكي، أناقتي، أنا لستُ مورو! المورو هو القادم من جُزر المورو الفليبيّنة أو من بلدان مغرب المنطقة فقط.

- دَعْ عنك جُزر المورو جانبًا.. لأنّها بعيدة ولا يأتينا من هناك أحد، وأنت تعرف أنّها ليست المعنّية بالموضوع، أما من جهة بلدانكم ففيها كلّها طبقة اجتماعيّة صغيرة مُتميزة بنظافتها وأناقَتها، وهي طبقة الأغنياء فقط، وكلّ بلادكم ترزح تحت نِيرِ الاستبداد والفقر والتّخلف.. المغاربة والجزائريون من الأغنياء المُتعلّمين أوّلا والعائلات التي تُسمى بالكبيرة، لا يختلفون عنك في شيء، بل هم أفضل منك في كثير من الأشياء، وخصوصًا من جهة تحصيلهم العِلْمِي، وقدرتهم على استيعاب الأمور، أنت مورو، فلماذا تُنكر أصلك؟ وتُحقّر غيرك من الموروس!

- أنا لستُ مورو، ولا أنتمي إلى الموروس، أنا سوري!

- لكن السُوريين الفقراء المهاجرين من بلدكم، لا يختلفون كثيرًا عن غيرهم من الفقراء المهاجرين من مختلف دُول مِنطَقَتِكُمْ، ولا حتى في لون البشرة الذي تَبَاهَى بِهِ، كُلُّكُمْ موروس، ووجود القليل من الأغنياء المُتطهرين المُتَرَفِّعين عن الإعراف بالانتماء إلى المجموع، لا يعني أنّهم لا يَتَمَوَّنُون إلىهم!

- قلتُ لك، أنا لستُ مورو، المورو أَسَمَرٌ مُتَخَلِّفٌ قَدِر! أصدقائي من الإسبان يعرفون أنني لست بالمورو.

- عندنا، كلُّكم موروس.. المورو هو «الآتي من بلاد المسلمين» كائنًا ما كان انتماءه أو لونه، معظم سكان مناطق الشّمال المغربي المُسمّاة بـ«الريف» بيضُ البشرة شُقرٌ ذَوو أعينٍ ملونة، فلا تُكابر، إذا كان رفاقك يُراعون شُعورك، فهذا لا يعني أنك لست مورو بنظر كلّ الإسبان! أنت مسلم عربي مهاجر.

- أنا لستُ مُهاجرًا!

- وما وضعك في إسبانيا إذا يا صديقي، واسمك «إبراهيم»،
لا - أنطونيو ولا خابيير؟

- أنا مولودٌ هنا.. ولا يَهْمُ اسمي!

- ومن أين جاء أبوك وأمك، ولمَ سَمَّوكَ بهذا الاسم؟

- جاؤوا من سوريا لدراسة الطب.. وأنا مسلم إسباني.

- لا يا عزيزي، أنت إسبانيّ من أصولٍ أجنبية، ووالداك
مُهَاجِرَيْنِ لَأَسْبَابٍ تَتَعَلَّقُ بالدراسة، مُشْكِلَتَكَ أَنْكَ لَا تَفْهَمُ،
مُصْطَلَحَيَّ «مُهَاجِر»، و«مُورُو».. المسألة تتعلق بأنكَ تَعْتَبِرُهُمَا
شْتِيمة!

- إنَّهُمَا في إسبانيا شْتِيمة!

- في هذه أَنْتَ مُحِقٌّ، في كُلِّ أَوْرْبَا تُعَدُّ كَلِمَةُ «مُهَاجِر»
و«مُورُو» شْتِيمة، وفي أَلْمَانِيَا لَا يَقُولُونَ «مُورُو»، يَقُولُونَ «تُورْكو»،
أَيُّ الْقَادِمِ مِنْ تَرْكِيَا!.. وَالْمَسْأَلَةُ سِيَان.

- قُلْتُ لَكَ أَنَا لَسْتُ مُورُو، وَلَا تُورْكو.. أَنَا سُورِي!

- سُورِيَا تُعَدُّ جِزَاءً مِنْ تَرْكِيَا التَّارِيخِيَّة، أَوْ لَيْسَتْ سُورِيَا الْيَوْمِ
جِزَاءً مِنْ أَرْضِكُمُ الْعَرَبِيَّةِ الْكَبِيرَةِ؟ فِي إِسْبَانِيَا.. أَنْتَ مُورُو، لَا أَحَدٌ
يَعْرِفُ مَا سُورِيَّتُكَ هَذِهِ، مَا يُحَدِّدُ هُوِيَّتَكَ، هُوَ سَلُوكُ الْمَجْمُوعَةِ،
وَلَيْسَ تَمِيزُ الْفَرْدِ.

- أَنَا سُورِي، وَسُورِيَا مِنْ أَقْدَمِ وَأَعْرَقَ دُولُ الْعَالَمِ.

- هَهْهَهه يَا صَاحِبِي.. أَنْتُمْ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْنَا وَاحِدٌ، الْفُرُوقُ الَّتِي
تَرَوْنَهَا فِيمَا بَيْنَكُمْ، لَا يَرَاهَا أَحَدٌ غَيْرَكُمْ، أَنْتُمْ هُنَا بِالنِّسْبَةِ إِلَيْنَا شَعْبٌ
وَاحِدٌ، إِنَّكُمْ الْغُرَاةُ الْجُدُدُ «الْأَعْدَاءُ الْقَدَامَى»!

كُنْتُ أَسْتَمِعُ إِلَى تِلْكَ الْمَحَادَثَةِ بَيْنَ هَذَا الْفَتَى السُّورِيِّ فِي
الثَّانِي الثَّانَوِيِّ، وَجَارِهِ وَمُعَلِّمِهِ الْإِسْبَانِيِّ الطَّالِبِ فِي السَّنَةِ الرَّابِعَةِ

في علوم الاجتماع، والذي كان يُدرّسه بعض المواد ويُساعده للتّحضر للثانوية العامة لاحقاً، كان حديثاً «وُدِيّاً»، أكثر منه خِلافاً ثقافياً وفكرياً، على الرّغم من أن «إبراهيم» كان يَخْتِنِق فيه قهراً، وكاد يبكي أكثر من مرّة أثناء هذا الحوار القاسي.

كان ذلك الطالب الإسباني، يحاول أن يردّ جاره وتلميذه السّوريّ إلى أرض الواقع، طار منها بفقاعة لامية من شُعوره المُتعاضِم بِسوريّته وجماله وبياض بشرته، لعلّها تحميه من تلبّسه بِتُهمة الغُربة! ومن إمتِهان الآخرين له بِنَعْتِه بالَمُورو، وكانت بالفعل تُوفّر له جزءاً لا يُستَهان به من الحِمَاية، في مُجتمَعٍ يعبد الجمال، وتَسوّدُه ثقافة العناية بالجسد إلى درجة الهَوَس.

قلتُ له مُعَقِّبة ومُواسِية: نحن أمة واحدة، وشعوب مختلفة، لكننا في نهاية المطاف واحد، كُلُّ مُتكامل.. فغضب، وانتَهَرني مُصِراً: أنا لست مُورو، أنا سوريّ!

ولمّا تحدّثتُ إلى السيّدة الطيّبة جدّة إبراهيم، وكانت في زيارة العائلة، اكتشفتُ أنها ابنة عمّة جدّتي الحِمصية، راحت تَسبُّ مُعلّم حفيدها «إبراهيم»، هذا الأبيض الأشقر الذي يرفض بأن يُدعى «مورو».

قالت لي: هذا المُعلّم عُنصري وغَبي.

شربنا القهوة.. ثم أخذت تُحدّثني عن أبنائها، قالت لي: ابني الكبير تزوج مُعلّمة رائعة الجمال من بيت حسبٍ ونسبٍ وثراء، ما فيها عيب إلا أنها «ليبية»! وابني الآخر جاركُم «الله يُعَدِّمني إياه»⁽¹⁾ تزوّج من سوريّة سمراء تكاد لشدة سُمرتِها تكون «عبدة»

(1) عبارة «الله يُعَدِّمني ياه» تُستخدم في بلاد الشام للتعبير عن القهر من الشخص الذي يُدعى عليه، بمعنى «الله يأخذه، دون أن يتقصّد قائلها - دائماً - الدعاء بالهلاك على المعني بالموضوع!

سوداء! الأعمى لم يجد شابة إسبانية يتزوجها بدل امرأته هذه؟
أبو إبراهيم.. هو الوحيد الذي تزوج بمشورتني، الحمد لله زوجته
بيضاء مثل البراد⁽¹⁾، وانظري إلى جمال أولاده.. الكل يظنون أنهم
ألمان! يخرب بيتو هل المعلم شو عنصري ونازي!!!

ذكرني إصرار الفتى المسكين، المحاصر بحقيقة يريد أن
ينكرها وبأي ثمن، بآية أحد «الكبار» من الإسلاميين السوريين في
أوربا، كانت تعترض على زواج صديقتها من شاب جزائري، لم
يعفه كونه طبيياً جراحاً من رفض السوريين العنصريين لزوجاته من
فتاة سورية، ف راحت تسأل العروس في تعال واستهزاء: وهل من
طريقة للتفاهم بينك وبينه؟ بأي لغة تتحدثان وتتفاهمان؟

أجابتها العروس دون أن يرف لها جفن: بلغة العيون
والقلوب، وهي لغة تستعصي على البعض!

عجزنا عن النمو والتعلم، أكبر من قدرتنا على استيعاب
الواقع الذي نعيشه كغرباء، ضمن غربتنا المترابكة، وأمينا
المزدوجة، وحاجتنا الماسة إلى تطوير مشاعرنا الإنسانية
والأخلاقية.. نعيش معضلات معقدة، وليس معضلة واحدة،
وبعض مشكلاتنا هذه مع الآخر الذي هاجرنا إلى أرضه ووجوده،
تتعلق بمشكلاتنا الذاتية فيما بيننا، وبنظرتنا إلى أنفسنا، وإلى الآخر
الذي هو منا «نحن»!

في مدريد، أعجبك أم لم يعجبك، أنت «مورو»، وحتى لو لم
تكن امرأة محجبة، أو شاباً أسمر، أو غريباً يتلعثم بلكنته الإسبانية
التي تفصح غربته، فإن اسمك يفصحك، إبراهيم، علي، محمد،
يمان، بنان، نور، بهيجة.. وعلى الرغم من أن معظم «المسلمين»
في إسبانيا يسمون بناتهم «سارة» أو «مريم»، وأبنائهم «إسماعيل»

(1) الثلاجة.

أو «ريّان»، لأنها أسماء مشتركة بيننا وبين الإسبان، فإن «هويّتك» لا تلبث أن تُطلّ برأسها لتكشف الحقيقة: أنت مُسلم وغريب، ولن يرضى عنك القوم حتى ولو اتّبعْتَ منهج حياتهم وتفكيرهم شبرًا فثبرًا، وخَلَعْتَ كُلَّ عباءة كانت تُدَثِّرُكَ من صقيع الغُربة، وطوفان الذوبان والاضمحلال.

منذ جئتُ مدريد لَصَقَتْ بي كَلِمَة «مورا»، كما يَلْتَصِقُ أيُّ حاكم عربي بِكرسي الحكم، وكما يَلْتَصِقُ أيُّ مسؤولٍ صغير أو كبير في موقع مسؤوليته، داخل البلد أو خارجها، مدى الحياة.. حياته أو حياتنا!

أنا في مدريد لستُ إنسانة، ولا مواطنة، ولا حتى «مخلوقة» من صنْع الخالق، أنا هنا لستُ أمًّا، ولا زوجة، ولا امرأة، لستُ كاتبة، ولا صحفية، لا يمكن لأحدٍ أن «يستوعب» هنا، إلّا أنني أُمّية جاهلة مُتَوَحِّشة، جاءت من وراء البقر أو الجمال.

أنا هنا لست إلا «مورا في مدريد».

أنا هنا لستُ سلمى، ولا ليلي، ولا حتى «فاطمة»، التي كانوا يُنادونني باسمها في غرناطة، لستُ هنا أمّ ساجدة، ولا ابنة عبد الرحمن، لستُ هنا سورية، ولا مغربية، ولا فلسطينية، ولا عراقية، ولا جزائرية، ولا باكستانية، ولا صومالية، إنني هنا «مورا»، وفقط «مورا»⁽¹⁾.

هذه «المورا».. التي تمثل رغم أنفها الإسلام والمسلمين في جميع أنحاء الكرة الأرضية.

(1) كلمة «مورا» جاءت في الويكيبيديا باللغة الإسبانية، أنها «كلمة تُستعمل في الموروث الشعبي والجمعي - وحرفيًا - بمدلولات تحقيرية، تُطلق على كل سكان شمال أفريقيا أو المنطقة المغاربية». في حين أن التعريف نفسه جاء في الويكيبيديا باللغة العربية محذوفة منه هاتان الكلمتان: «المدلولات التحقيرية»!

يستوي في ذلك أن تكون طيبة أو خادمة، والأمر واحد إن كانت شريفة أو منحرفة، ومهما بلغت درجة فهمها لانتمائها الإسلامي، أو مدى تطبيقها لأوامر هذا الدين، أو انفلاتها منه وخروجها عليه، وسواء أتت من أكبر وأهم العائلات في بلادها، أو من الشوارع التي تُربي وتُعلم كذلك بطريقتها الخاصة، كما تُربي العائلات وتُعلم، وفي كثير من الأحيان لا يكون هناك فارق بين التريتين إلا التَنظف والتَّائِب والتَّصَعُّر!

كلّ امرأة مُسلمة في مدريد هي مجرد «مورا» في نظر مدريد، مُحترقة، غريبة، دخيلة، مُسلمة.. حتى لو كانت من أيّ انتماء دينيٍّ أو طائفيٍّ معروف في بلاد «العرب»، عربية.. حتى لو كانت كُرديةً أو أمازيغيةً أو من أي انتماء قوميٍّ أو عرقيٍّ في بلاد العرب والمسلمين.

مُحتقرة، غريبة، دخيلة، مُسلمة، عربية.. اختر أيّ الكلمات الخمس لتفسير كلمة «مورا» فلن تُخيب لَفْظَةً «مورا» ظَنكَ فيها.

لم آت بهذا التفسير الجارح المؤلم لكلمة «مورو» من القواميس الإسبانية⁽¹⁾، لكن كرّ الأيام والأعوام عليّ في مدريد جعلني أوّلُف فيها قاموسًا خاصًا، عِشْتُهُ بِسِنِّي عُمري وكتَبْتُهُ بآلامي، يومًا فيومًا أحولُ جذع هذه الشجرة على عاتقي وأمضي به في طريق حياتي في مدريد، ومدريد مُصِرّة على صُلبي عليه، ودقّ المسامير في كَفِّي وقَدَمَيَّ، دون رحمة ولا انتظارٍ فرمانٍ انعتاق!

(1) Moro مسلم ج. مسلمون (يطلق على مُسلمي المغرب والأندلس خصوصًا، وعلى سائر المسلمين بعامة) / وهو غير الممزوج بالماء - غير طاهر - / غير مُعمد / يُقال في المثل الشعبي الشائع: «لا يوجد مورورس على الشاطئ»: بمعنى من لا يُرغب في حُضورهم أو إطلاعهم على سرّ / حالة من السُكر.

المصدر: قاموس جديد إسباني - عربي، الصادر عن المعهد الإسباني - العربي للثقافة طبعة 1988.

أنا وكلّ امرأة مُسَلِّمة كُتِبَ عليها العيش في مدريد.

مِنْهُنَّ مَنْ فَهَمَتْ هَذَا الْوَاقِعَ بَاكِراً فَعَاشَتْ جَاحِمٍ صِرَاعِ
الْهُوَيَّةِ وَإِثْبَاتِ الذَّاتِ، وَمِنْهُنَّ مَنْ لَمْ تَلْتَقِطِ الْإِشَارَاتِ الْقَارِعَةَ وَلَمْ
تُلِمَّ بِحَقِيقَةِ الْوَضْعِ، تَعَايَشَتْ مَعَ الْمُجْتَمَعِ الْإِسْبَانِيِّ فِي لَا مَبَالَاةٍ
مُرِيحَةٍ، غَيْرِ عَابِئَةٍ بِمَا يَقُولُ وَبِمَا يَصْنَعُ، وَمِنْهُنَّ مَنْ التَّقَطَّتْهَا
وَأَهْمَلَتْهَا، لَتَسْتَطِيعَ التَّأَقُّلُ مَعَ حَالَةِ «النَّبَذِ وَالتَّهْمِيشِ» الدَّائِبَةِ،
وَمِنْهُنَّ مَنْ اقْتَحَمَتِ الْعَقَبَةَ بِشَجَاعَةٍ، مُسْتَظِلَّةٌ بِفِيءِ عِلَاقَاتِ بَنَتِهَا
هُنَا وَهُنَاكَ مَعَ أَصْدِقَاءَ مِنَ الْإِسْبَانِ يُوفِرُونَ لَهَا الْحِمَايَةَ مِنْ أَدَى
الْعُنْصَرِيَّةِ الْإِسْبَانِيَّةِ الرَّنَانَةِ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ تَمْوِيهِهَا وَمُرَاوَعَتِهَا!
وَمِنْهُنَّ مَنْ كَابَرَتْ وَتَأَنَّفَقَتْ، سَمَحَتْ لَهَا أَوْضَاعُهَا الْخَاصَّةُ أَنْ
تَعِيشَ فِي قَوَاقِعَ بَعِيدَةٍ، وَمِنْهُنَّ مَنْ تَصَنَّعَتْ تَبَكُّدَ الْأَحَاسِيْسِ، هَرَبًا
مِنَ الْقَهْرِ الْمُضَاعَفِ وَالْإِهَانَةِ الْيَوْمِيَّةِ.. كَذَّبَتْ عَلَى نَفْسِهَا وَعَلَى
الْآخَرِينَ، وَمِنْهُنَّ مَنْ رَشَتْ عَلَى الْمَوْتِ سُكَّرًا، تُصِرُّ مَعَهُ عَلَى أَنَّ
طَعْمَ الْمَوْتِ حُلُوٌّ الْمَذَاقِ.

وَكُلُّهَا أَبْوَابُ مُتَفَرِّقَةٍ لِلْجَحِيمِ نَفْسُهُ.. جَحِيمِ الْغُرْبَةِ وَالْكُرْبَةِ
وَالْإِنْكَارِ وَالْجُحُودِ.

تَقَلَّصَتْ فِي إِسْبَانِيَا - وَفِي سَائِرِ أَقْطَارِ أَوْرُبَا - كُلُّ التَّعْقِيدَاتِ
الْمُتَعَلِّقَةِ بِ«هُوَيَّتِنَا» الْمُعَاَصِرَةِ الضَّائِعَةِ الْمُتَّهِيَّةِ إِلَى كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ:
«مُورُو»!

أَنَا «مُورَا»، أَنْتَ «مُورُو»، زَوْجَتُكَ «مُورَا»، وَأَبْنَاؤُكَ الَّذِينَ
وُلِدُوا فِي إِسْبَانِيَا، كَذَلِكَ «مُورُوس»!

أَهْلًا بِكُمْ فِي عَالَمِ «الْمُورُولَانْدِيَا»، حَيْثُ يُحْشَرُ «الْمُسْلِمُونَ»
فِي زَاوِيَةِ الْكِرَاهِيَّةِ وَالرَّفْضِ وَسُوءِ الظَّنِّ، وَالتَّصَوُّرَاتِ الْهَوْلِيُوْدِيَّةِ
الْمُسَبِّقَةِ الْمَرْسُومَةِ بِعِنَايَةٍ كَبِيرَةٍ عَنْهُمْ فِي الدَّهْنِ الْغَرِيبِيِّ، وَلَا يَرِيدُ
الْغَرْبُ أَنْ يَعْتَرِفَ لِلْمُورُوسِ بِأَيِّ انْتِمَاءٍ آخَرَ، إِلَّا هَذِهِ الْكَلِمَةُ أَوْ
مُرَادِفَاتِهَا فِي مُخْتَلَفِ بِلَادِهِ.

كَلِمَةً دَخَلْنَا مِنْ خِلَالِهَا مِنْطَقَتَنَا الْعَازِلَةَ الْمَعزُولَةَ عَنْ
الْمُجْتَمَعِ الْمَدْرِيدِي - إِلَّا النَّدْرَةَ مِنْ - النُّخْبِ الْاِقْتِصَادِيَّةِ
السِّيَاسِيَّةِ وَالْاَكَادِمِيَّةِ الَّتِي تُعَامَلُ بِبِنَاقٍ بَرَّاقٍ -، يُعَامِلُنَا مِنْ خِلَالِهَا
عَلَى أَسَاسِ الْفَصْلِ النَّفْسِيِّ وَالثَّقَافِيِّ الْعُنْصَرِيِّ، بِنَفْسِ طَرِيقَةِ
«الْأَبَارَتَايد» الْجَنُوبِ إِفْرِيقِيَّةِ الْعُنْصَرِيَّةِ⁽¹⁾ نَفْسَهَا، وَلَكِنْ دُونَ
ضَجِيجٍ وَكَثِيرٍ جَعَجَعَةٍ!

الْمُشْكَلَةُ الْحَقِيقِيَّةُ «الْمُدْهَشَةُ»، لَمْ تَكُنْ فِي هَذِهِ الْمَتَاهَاتِ
الَّتِي تُدْخِلُنَا عَمَتَهَا كَلِمَةُ «مُورُو» أَوْ «مُورَا» فِي إِسْبَانِيَا، بَلْ فِي
الظُّلُمَاتِ الَّتِي يَغْشَى بَعْضُهَا بَعْضًا، وَالَّتِي تَفْرِضُهَا عَلَيْنَا مَلَاسَاتِ
هَذِهِ الْكَلِمَةِ نَفْسَهَا، وَمَعَانِيهَا وَظِلَالُهَا وَمُرَادِفَاتِهَا فِي النَّفْسِ
وَالْعَقْلِ، فِي.. بِلَادِنَا عَامَّةً، وَفِي سُورِيَا خَاصَّةً، حَتَّى لَوْ لَمْ يَسْمَعْ
بِهَا أَوْ يَعْرِفَهَا هُنَاكَ أَحَدٌ!!

كُلُّ امْرَأَةٍ مُلْتَزِمَةٌ، وَكُلُّ «مُتَدَبِّين»، كَانَا مَحَلَّ عَدَاوَةٍ وَرَفْضٍ
وَكِرَاهِيَّةٍ وَاحْتِقَارٍ وَاتِّهَامٍ، وَأَبْلَغُ أَنْوَاعِ سُوءِ الْمُعَامَلَةِ الْمُتَعَدَّدَةِ
الْأَبْعَادِ، فِي بِلَدِهِمَا وَمُجْتَمَعِيهِمَا وَالسُّلْطَاتِ السِّيَاسِيَّةِ وَالْأَمْنِيَّةِ فِيهِ!
كُنَّا نَحْنُ الْمُتْلِزِمِينَ بِدِينِنَا - كَمَا كُلُّ مَنْ اتَّزَمَ بِأَيِّ مِنْهَجٍ فِكْرِي
أَوْ سِيَاسِيٍّ خَارِجِ السِّيَاقِ - بِطَرِيقَةٍ تُخَالِفُ مَا تَعَارَفَ عَلَيْهِ الْمُجْتَمَعُ
مِنْ فِكْرٍ وَسُلُوكٍ وَمَظْهَرٍ، كُنَّا وَمَا زِلْنَا فِي بِلَدِنَا، «أَقْلِيَّةً» غَرِيبَةً
مُضْطَهَدَةً، مِنْ قَبْلِ الْمُجْتَمَعِ كَمَا مِنْ قَبْلِ الدَّوْلَةِ!

حَقِيقَةُ صَارِخَةٍ لَا يُمَكِّنُ لِمُنْصِفٍ مُدْرِكٍ، أَنْ يُنْكِرَهَا، لَيْسَ فِي

(1) الْأَبَارَتَايد (أَوْ الْأَبَارْتَايْد، بِالْأَفْرِيقَانِيَّةِ [Apartheid] أَيْ «الْفَصْل»): نِظَامُ
الْفَصْلِ الْعُنْصَرِيِّ الَّتِي حَكَمَتْ مِنْ خِلَالِهِ الْأَقْلِيَّةُ الْبِيضَاءُ فِي جَنُوبِ
أَفْرِيقِيَا مِنْ عَامِ 1948 وَحَتَّى الْغَاثَةِ بَيْنَ الْأَعْوَامِ 1990 - 1993، وَأَعْقَبَ
ذَلِكَ انْتِخَابَاتُ دِيمُقْرَاطِيَّةِ عَامِ 1994. هَدَفَ نِظَامُ الْأَبَارَتَايْد، إِلَى خَلْقِ
إِطَارٍ قَانُونِيٍّ، يَحَافِظُ عَلَى الْهَيْمَنَةِ الْاِقْتِصَادِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ، لِلْأَقْلِيَّةِ ذَاتِ
الْأَصُولِ الْأُورُوبِيَّةِ. - الْمَصْدَرُ: وَيْكِيبيديَا الْمَوْسُوعَةُ الْحُرَّةُ.

سوريا فحسب.. بل في بلدان المنطقة العربيّة كافة من محيطها إلى خليجها ماعدا بلدين أو ثلاثة.

هنا يُقْصَوْنَك وهناك يحاربونَك، هنا يُهَمَّشُونَك وهناك يعتقلونَك، هنا يحقِّرونَك وهناك يحرمونَك من كلِّ حقوقك في المواطنة والإنسانيّة.

هنا أنت غريب.. وهناك أنت أشدَّ غربة.

هنا يريدون أن يكون وجودُك بينهم شَبِيحًا ومُؤَلِّمًا، هناك يبذل الجميع كلَّ جهدٍ مُمكن، لتبدو غير موجود.. يريدون لك ألا تكون.

هنا يُنادونَك «هذا المورو العذرة»⁽¹⁾، وهناك إسْمُك «هذا المُتدبِّين المَهْبُول»⁽²⁾، هذا «الشُوَيْخ»، هذا «الوَلِي»، والله يزيدنا من بَرَكَاتِكَ!

ثم ما لبَسَ «الوصَّمان»⁽³⁾ أن انصَهَرَ في بَوْتَقَةِ «كَلِمَةٍ ثَالِثَةٍ»، اخْتَرِعتَ لمحاربة كلِّ من تُسَوِّلُ له نفسه التَّحَقُّقَ بهويَّته الأصليّة، حتى لو كان مُعتدلاً سَلَمِيًّا، أو مُنْخَلَعًا مُتَخَلِّيًا.. صار الوصفان مُرادِفَين لكَلِمَةٍ واحدة، في الوطن وفي الغربة.. أصبحنا جميعًا مُتَّهَمين بها في بلادنا التي جئنا منها، أو في المهاجر التي ولدنا أو نعيش فيها.

أَنْتَ مُتَّهَمٌ بِالْغُرْبَةِ، مُتَّهَمٌ بِالْإِسْلَامِ، مُتَّهَمٌ بِأَنَّكَ «مِنْ هُنَاكَ»!

(1) في المعجم الوسيط: العَذْرَةُ: الغَائِطُ.

(2) في المعجم الغني: مَهْبُولٌ، (مفعول من هَبَلَ): وَلَدٌ مَهْبُولٌ: أَهْوَجٌ، أَحْمَقٌ. في معجم اللغة العربية المعاصر: ج: مهابيل.

(3) في معجم اللغة العربية المعاصر: وَصَمَ يَصُمُّ: وَصَمَ فَلَانًا: عَابَهُ، لَطَّخَهُ بَقْبِيجٍ، تَنَقَّصَ مِنْ قَدْرِهِ. وَصَمَ حَسَبَ فَلَانٍ: أَلْحَقَ بِهِ الْعَارَ.

وقد حَلَّتْ عَلَيْكَ «اللَّعْنَةُ» التي جَعَلَتْ هذه المفاهيم الثلاثة
تتلخص في كلمة واحدة وحيدة: الإرهاب.

أنت «مورو»، أنت «مُتَدَيِّنٌ مُلتزم»، إذاً أنت «إرهابي».. مهما
كُنْتَ بعيداً عن الأفكار التي تُبرِّرُ لِلْقَلَّةِ النَّادِرةِ من مُعْتَلِّي الفَهْمِ،
من المَسحوقين المُهَمَّشين المَقهورين المُعَذِّبين المُطَارَدِينَ
والبائسين.. مِمَّنْ قاموا من عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ، أو «اسْتَعْمَلُوا» من حيثُ
يَدْرُونَ ولا يَدْرُونَ، لِلقيامِ بِأعمالٍ «إرهابية» فردية أو جماعية،
في مواجهة الإرهاب العالمي، الذي لا يتورع عن استخدام القتل
والتدمير والكذب والنفاق، وازدواجية كُلِّ المَعايير الأخلاقية
والإنسانية في هذا العالم الأَجْرَب.



في مدريد، تُعيدُ إكتشافِ إندمائك إلى «المنطقة الناطقة
بالعربية»، وتفهمُ — إن أردتَ وتيقظتَ — الملابسات النفسية
والتاريخية لهذا الإنتماء، بعد أن ترى أبعادَه الحقيقيَّة في عُيون
الآخر ومِراتِه النفسية والثقافية.

في مدريد تعرفُ وتفهمُ، حقيقةَ تركيبة الجغرافية البشرية
للمنطقة التي أتيتَ منها، والتي تُعدُّ كنزاً إنسانياً ثقافياً، معجزةً
حقيقيةَّة، أو قبلةً ذرية إنشطارية تُوشك أن تنفجر بين أيدينا، إن لم
نحسن إستيعابها ولملمة أطرافها.

في مدريد، ولأول مرة، تعرفُ على المغربي، والمصري،
والجزائري، والسعودي، أخي، وابن عمي، لحمي ودمي، إنه.. أنا،
إخوة الهم الواحد، والقهر الواحد، والقدر الواحد.

في مدريد، ولأول مرة، رأيتُ هذا الفلسطيني، البعيد
البعيد، القريب القريب، الآتي مباشرة من الأرض المحتلة،
ليس ذلك الفلسطيني المهاجر الذي يعيش غربته المضاعفة في

أرضنا وبلادنا، ويحمل ويَحتمل آلامَ نظرة «أخيه» إليه، النظرة الاستعلائية، الفوقية، المُتَّهمة، الراضة، النائية بالنفس.. لكنه هذا الفلسطيني الأسطوري، فلسطيني الأرض الفلسطينية، الذي ظلَّ هناك، شجرةً أورقت وأزهرت وأثمرت.. ولم تستطع الرياح إقتلاعها من فلسطينيتها.

أعدتُ إكتشاف هذا الفلسطيني، الذي كان أنا، وكنتُ هو، والذي كنتُ أعرفه في دماء شهداء دير ياسين، وأغنية أم كلثوم «فدائي»، و«سوسة» محمود درويش، وأساطير الحرب الأهلية اللبنانية الرهيبة وصبراها وشاتيلتها⁽¹⁾، ومخيم اليرموك على حاصرة دمشق، وأولئك الثوار الذين طالما حلمنا بالانتساب إليهم والعمل معهم، كنت أعرف الفلسطيني بجراح فدائيّ كريات شمونة، ورقص المُستوطنين الحاقدين على أشلائهم التي مزقوها وأحرقوها، كنت أعرفه بانتفاضات الأقصى، انتفاضة بعد انتفاضة بعد انتفاضة.. وحده، هذا الفلسطيني، كان يزود عن شرف الأقصى، شرف الأمة.. وحده كان المُربط هناك، في مواجهة كلِّ

(1) مذبحة صبرا وشاتيل: هي مذبحة نُفذت في مخيمي صبرا وشاتيل لللاجئين الفلسطينيين في 16 أيلول 1982 - مركز المعلومات الوطني الفلسطيني. «شهداء مجزرة صبرا وشاتيل 1982» في لبنان. استمرت المجزرة مدة ثلاثة أيام على يد المجموعات الانعزالية اللبنانية المتمثلة بحزب الكتائب اللبناني - الحياة الجديدة 2014 - وجيش لبنان الجنوبي - العربية نت 2010. والجيش الإسرائيلي - القدس دوت كوم (16 سبتمبر 2013). - عدد القتلى في المذبحة لا يعرف بوضوح وتتراوح التقديرات بين 750 و 3500 قتل من الرجال والأطفال والنساء والشيوخ المدنيين العزل من السلاح - عرب 48 دوت كوم (16 سبتمبر 2013) -، أغليبتهم من الفلسطينيين ولكن من بينهم لبنانيين أيضا. /المصدر: ويكيبيديا النسخة العربية.

راجع تفاصيل المجزرة وضلوع النظام الأسد السوري فيها في كتاب: رتقٌ على جراح الذاكرة/ خواطر في زمن الثورة.. للمؤلفة.

هذا الحجم من التغول والتسرف والإجرام الرهيب، لكنني اليوم وفي مدريد، أصبحت أعيش معه، أصافحه، أكُل وأشربُ على مائدته، أستمعُ إلى لهجته الفِلَسْطِينِيَّة الرائعة الموسيقى في أُذُنَيَّ التاريخ، تتحدى التلاشي والإضمحلال، ولا تستسلم.

«أم ياسر» القادمة من غزة، و«أم طارق» ابنة القدس، و«أم دعاء» من بيت لحم، و«جدة محمود» التي نزلت إلى لبنان، ومنها إلى مدريد.. كُنَّ صلة وَصْلِي بعالم الفلسطينيين الذين هم من لحم ودم، عالم الفلسطينيين الملموس والمشهود، قصص حياتهم اليومية، وضمودهم الأسطوري في وجه التهويد، تعایشهم الإنساني المُنْهَك مع الإسرائيليين، حكايات نزل صبرهم على معابر الدّل والهوان، وتحدي الرغبة في العودة مرة بعد مرة.

وكذلك فعل رضوان وأمه، تلك الأم الفِلَسْطِينِيَّة الشامخة العظيمة الكبيرة، تلك المرأة التي تُشبه جبلاً، تمشي في شوارع غرناطة كلما أتت لزيارة ابنها، بثوبها الفلسطيني التقليدي، وغطاء رأسها الأبيض الذي يُحيط بوجه رَسَمَت فيه الشمس والأيام خرائط الضمود والاستمرار، الحاجة أم رضوان شكّلت صدمة في وعي بحقيقة القضية، وليس بالقضية المُستَلَبَة، المسروقة، التي جعلها الجميع خيال مآتة لهم، لم تكن قضيتها الفِلَسْطِينِيَّة - تُشبه تلك التي عرفناها في جَعَجَعَات وسائل إعلامنا، ولا تلك التي رَكِبَتْها الأنظمة العربيّة لتحقيق أهدافها في قَمْع الشُّعوب، واستمرارها في الكراسي، وبقائها فيها مدى الحياة، على حساب أشلائنا وآلئنا ونهب ثرواتنا، وتركنا في العراء وحدنا مع أهل القضية الحقيقيين، كان تعرُفني إليها وإلى ولديها، الطبيب المُقيم معنا في غرناطة، والشاعر الثائر الزائر، مُنعطفاً في فهمي للفلسطينيين أبناء الأرض، بأخلاقهم، برُقيهم، بصدقهم، بشأتهن، ببساطة تعاملهم معنا، بلهفتهم كأنهم أهلك، يحملون من الاعتزاز

بِإِتِّمَائِهِمْ وَتَقَالِيدِهِمْ وَوُجُودِهِمْ، مَا يَصْطَلِدُ مَبَاشِرَةً مَعَ مُبَاهَاتِنَا
الْفَارِغَةِ الْمَعْيِيَةِ بِإِتِّمَائِنَا وَتَقَالِيدِنَا وَوُجُودِنَا..

عَلَّمْتَنِي أُمِّ يَاسِرٍ.. طَبَخَ الْمُلُوخِيَّةَ عَلَى الطَّرِيقَةِ الْفِلَسْطِينِيَّةِ،
وَكُنْتُ بَعْدَ أَنْ عَادَتْ إِلَى فِلَسْطِينَ أَهَاتِفَهَا بَيْنَ الْحِينِ وَالْحِينِ،
فَأَسْأَلُهَا مِنْ خِلَالِ الْخُطُوطِ الْمَشَوَّشَةِ أَنْ تُعِيدَ عَلَيَّ خُطُوطَ صِنْعِ
الْمُلُوخِيَّةِ النَّاعِمَةِ، وَمَا إِذَا كَانَ فِي إِسْطَاعَتِي أَنْ أَضِيفَ إِلَيْهَا السِّلْقَ
الْمَفْرُومَ مِنْ أَجْلِ الْأَوْلَادِ؟؟ عَلَّمْتَنِي أُمِّ دَعَاءٍ كَيْفِيَّةَ إِعْدَادِ الصَّفِيحَةِ
الْفِلَسْطِينِيَّةِ الَّتِي تُمَدُّ عَجِينَتُهَا بِالزَّيْتِ وَلَيْسَ بِالطَّحِينِ، أَوَّلَ مَرَّةٍ
زُرْنَا فِيهَا وَدُقْنَاهَا فَأَعْجَبَتْنَا، حَمَلْتَنَا كُلَّ مَا كَانَتْ قَدْ أَعَدَّتْهُ مِنْ
هَذِهِ الصَّفِيحَةِ، طَنْجَرَةٌ كَبِيرَةٌ مِنَ الْعَمَلِ وَالْكَرَمِ الْحَقِيقِيِّ وَالْمُودَّةِ،
عَلَّمْتَنِي أُمِّ طَارِقٍ كَيْفَ تُطَبَخُ الْكُوسَا الْمَحْشِي بِالْحَامِضِ دُونَ
صَلْصَةِ الْبَنْدُورَةِ، عَلَّمْتَنِي أُنَاقَةَ الْأُخُوَّةِ، وَجَمَالَ الْحَيَاةِ عِنْدَمَا يَكُونُ
فِيهَا أُمَثَالُهَا، وَذُقْتُ مَرَارَةَ الْفَرَاغِ لَمَّا عَادَتْ إِلَى الْقُدْسِ، وَعَلَّمْتَنِي
جَدَّةٌ مَحْمُودٌ لَفَّ وَرَقَ الْعَنْبِ وَطَبَخَهُ عَلَى أَصُولِهِ، بِكَثِيرٍ مِنْ
الدَّهْنِ وَالْإِتْقَانِ وَبَالِغِ الْمَحَبَةِ.. كَمَا يَفْعَلُ أَهْلُ فِلَسْطِينَ الْمُتَلَبِّينِينَ
- كَمَا قَالَتْ.

عَلَّمْتَنِي «أُمِّي الْفِلَسْطِينِيَّةُ» أُمِّ رِضْوَانَ، لِأَوَّلِ مَرَّةٍ كَيْفَ أُعْجِنَ
الْعَجِينُ، وَكَيْفَ أَعْمَلُ الْفَطَائِرَ بِالسَّبَانِخِ، شَرَحَتْ لِي كَيْفَ يُخَزَّنَ
اللَّبَنُ الْيَابِسُ ثُمَّ يُطَبَخُ، حَكَتْ لِي أَلْفَ حِكَايَةٍ عَنْ مُعَانَاتِهَا كَامْرَأَةٍ
فِلَسْطِينِيَّةٍ فِي ظِلِّ الْإِحْتِلَالِ، وَكَأُمِّ وَزَوْجَةٍ وَفَلَّاحَةٍ وَمُنَاضِلَةٍ.

مَنْ قَالَ بِأَنَّ الطَّعَامَ، هُوَ أَكْلٌ وَتَغْذِيَّةٌ وَلُقِيَمَاتٌ تَسُدُّ الْجُوعَ..
إِنَّهُ ثِقَافَةٌ، وَحَضَارَةٌ، وَهَوِيَّةٌ، وَغِذَاءٌ لِلرُّوحِ، وَفِعْلٌ يَسُدُّ عَوَزَهَا
لِلْجَمَاعَةِ، وَبَصْمَةٌ شَعْبِيَّةٌ وَإِنْسَانِيَّةٌ، وَإِنْجَازٌ مَعْجُونٌ بِالْحُبِّ،
وَإِسْتِعْرَاضٌ لِمَهَارَاتِ مِشَارَكَةِ السَّعَادَةِ وَبِهَيْجَةِ اللَّمَّةِ عَلَى الْمُوَدَّةِ
وَالرَّحْمَةِ...

يَمُدُّ رِضْوَانٌ يَدَهُ صَبَاحَ الْعِيدِ فَيُعْطِي أَوْلَادِي الْعِيدِيَّةَ، يَعِدُّ

نفسه عَمَّهُم الصغير أو ابن عَمِّهم الأكبر، لم يكن أولادي يعرفون ما «العيدية النّقدية»، ولم يكونوا يعرفون معنى أن يكون لهم عمٌّ أو ابن عمّ كبير.

وأتردد قبل الخروج من البيت مع أمّ رضوان بثوبها التّقليدي الفلسطيني، خوفًا عليها من أذى الإسبان، فيقول لي رضوان: «يحكوا اللَّيَّ بَدْهُمْ ياه، إحنا موش فارقين معنا كلّهم ع بعضهم».. «فَشَرُوا والله يزعجوا الوالدة، وإحنا الشباب وين رحنا إذا بنخليهم يزعجوها».

إنّهم يمتلكون «هُويّة».. و«نحن» يتأمى!

أولئك الفلاحون الأعزّة الأبّة الشّامخون، أهل الأرض المحتلة، كانوا هم السّادة الأحرار، ونحن أذلاء وعبيد، نحن أبناء البلاد المُستعمَرة التي يحكمها المُستبَدّون وأسيادهم، ونحن نظنُّ في أنفسنا الأنفّة والانعِتاق.

تَشَقُّقات أيديهم من العمل في الأرض، ورائحة البرتقال الساكنة مسامات جلودهم، كانت تُحدِّثك عن حكاية أمة، تَرَكْتَ الفلسطينيين وحدّهم هناك بين أنياب الوحوش، فاستعصوا على أنياب الوحوش، واستعصوا على نسيان وخذلان الأُمّة.

كانت الأُمّة هي المُستعمَرة الصّاغرة، وكانوا وهم يرُسُفون⁽¹⁾ في قيود الإِستيطان.. أحرارًا.

إنّهم هناك، أهل القضيّة، يعيشون ويتعايشون مع الواقع المرير، يأكلون ويشربون، يعصرون زيتهم الذي يكاد يُضيء ولو لم تَمَسَّسه نار، من أشجار زيتونهم المُقدّسة، يعجنون خُبزهم بحلاوة الرِّباط في سبيل الله، ويصنعون فطائرهم بالسّبانخ

(1) في المعجم الغني: يرُسُف ويرسُف، رَسُفًا، رَسَف السّجين في القيد: مشى فيه رويدًا «خرج يرُسُف في الحديد».

يَحْمِضُ لِيْمُونُ أَشْجَارِهِمُ الْمُسْتَلْبَةَ الصَّارِبَةَ بِجُذُورِهَا فِي صَدْرِ
التَّارِيخِ.. يَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ، يَنْوِنُ الْبُيُوتِ، يَتَزَوَّجُونَ وَيُنْجِبُونَ،
وَيَصْنَعُونَ الْحَيَاةَ، يَعِيشُونَ.. بَاقُونَ هُنَاكَ فِي فِلَسْطِينَ، مَخْرَجًا فِي
عَيْنِ هَذَا الْعَدُوِّ الْوَقِيعِ. لَمْ يَسْتَطِعِ «العَرَبُ» مُجْتَمِعِينَ أَنْ يَقْفُوا فِي
وَجْهِهِ، وَوَقَفَ فِي وَجْهِهِ هَذَا الْفِلَسْطِينِيُّ الْأَعْزَلَ الْمَغْلُوبَ عَلَى
أَمْرِهِ.. إِبْنُ الْأَرْضِ، - تَشَبَّثَ بِهَا، غَرَزَ أَظْفَارَهُ فِي عَيْنِ الْوَحْشِ،
وَجَعَلَ مُهْمَتَهُ فِي تَهْوِيدِهَا صَعْبَةً شَدِيدَةً الْإِيلَامِ.

لأول مرة أَعِيشُ وَأَتَعِيشُ مَعَ فِلَسْطِينِيِّ الدَّخْلِ، أَعْرِفُهُمْ عَنْ
كُتُبٍ، أَتَلَسُّ أَلَمَهُمْ وَأَمْرَاضَهُمْ، وَالنَّدَبَاتِ الَّتِي خَلْفَهَا الْإِسْتِيطَانُ
الْإِسْرَائِيلِيُّ الْمَفْتَرَسُ، وَالتَّضْيِيعِ الْعَرَبِيِّ الْمُتَوَحَّشِ، فِي ثِقَافَتِهِمْ
وَأَرْوَاحِهِمْ وَسُلُوكِهِمْ الْفَرْدِيِّ وَالْجَمَاعِيِّ.. أَرْوَاحُ تَنْبُضٍ وَجَعًا،
وَسُلُوكٌ يَرَسُمُ أَلَمًا، وَثِقَافَةٌ تَنْصَحُ بِالْمَظْلُومِيَّةِ الْمَوْجُوعَةِ، وَسُوءُ
ظَنٍّ وَتَحَسُّسٍ - مَفْهُومٌ - مِنْ كُلِّ سُوءِ تَفَاهُمٍ، مِنْ كُلِّ خَطَاٍ مَقْصُودٍ
أَوْ غَيْرِ مَقْصُودٍ، يُمَرِّوْنَهُ مِنْ ثَقْبِ إِبْرَةِ الْجُحُودِ وَالنَّكَرَانِ الْعَامِ،
الَّذِي قَابَلَ بِهِ الْجَمِيعَ قَضِيَّتَهُمْ.. قَضِيَّةُ الْأُمَّةِ.

غَيْرَ أَنَّهُ لَا حَقْدَ فِي مَظْلُومِيَّتِهِمُ التَّارِيخِيَّةِ، وَلَا شَهْوَةَ انْتِقَامٍ وَلَا
تَلَمُّظَ لِرَاحَةِ الدَّمِّ.

عِنْدَمَا انْفَجَرَتْ انْتِفَاضَةُ أَطْفَالِ الْحِجَارَةِ عَامَ 87.. كُنَّا كُلُّنَا
فِلَسْطِينِيِّينَ فِي مَدْرِيدٍ، ذَابَتْ الْحُدُودُ، وَالسُّدُودُ، وَالْحَزَازَاتُ
بَيْنَ الْمِهَاجِرِينَ الْقَادِمِينَ مِنَ الْمَنْطَقَةِ الْعَرَبِيَّةِ، لَمْ يَعُدْ هُنَاكَ
حَمَصِيٌّ وَدِيرِيٌّ وَدَمَشَقِيٌّ وَحُورَانِيٌّ، لَمْ يَعُدْ هُنَاكَ سُورِيٌّ وَمَغْرِبِيٌّ
وَجَزَائِرِيٌّ وَمَصْرِيٌّ وَمُورِيتَانِيٌّ وَسَعُودِيٌّ، كُنَّا كُلُّنَا فِلَسْطِينِيِّينَ
فِي مَدْرِيدٍ وَشَعْبُ مَدْرِيدٍ ضَمِنَ الشَّعْبَ الْإِسْبَانِيَّ الَّذِي «يُعَدُّ»
دَاعِمًا تَارِيخِيًّا لِلْقَضِيَّةِ الْفِلَسْطِينِيَّةِ، كَانَتْ تِلْكَ الْانْتِفَاضَةُ - كَكُلِّ
الْانْتِفَاضَاتِ السَّابِقَةِ وَاللَّاحِقَةِ - الْهَوَاءُ الْمُضْمَخُ بِالشَّرَفِ فِي نَفَقِ
إِخْتِنَاقِنَا الْمَهِينِ.

تلك الدماء الزكية البريئة استردت القضية بالتدريج، من
حلقات غرقها وضياعها.. أرجعت إليها الاهتمام والاحترام
العالميين.

أعادت ربطها بمحيطها الإسلامي.

ردتها إلى حاضنتها العربية.

وثقت صلتها المصيرية من جديد بجغرافيتها الشامية، التي
استبدلوا اسمها فنعثوها «بالشرق الأوسطية»، لجعلها وكأنها لا
تنتمي إلى هذه الأمة.

كانت تلك الأحجار في الأرض المقدسة، بأيدي أولئك
الأطفال المقدسيين والفلسطينيين، وطننا، وهويتنا، ومبرر اعتزازنا
بانتمائنا.

عشت تلك الانتفاضة في مدريد، مع أهل الأرض المحتلة،
ساعة فساعة، وشهيداً فشيداً، ومعتقلاً فمعتقلاً.. دعوت الله
لهم في كل سجدة وعلى امتداد أيامها ولياليها، حتى ظننت أنها
انتصرت بدعائي!

«بهروا الدنيا» أولئك الأطفال، وما في يدهم إلا الحجارة،
هكذا فضحنا وفضح العالم شاعرنا «نزار القباني».. السُّوري الذي
كتب عن أولئك الأطفال الفلسطينيين، أروع ما كتب في حياته
وحياة هذه الأمة، في زمن البؤس والوهن ما بين قرنين:
«علّمونا

كيف الحجارة، تغدو بين يدي الأطفال مأساً ثميناً..

كيف تغدو دراجة الطفل لغماً، وشريط التحرير، يغدو كميناً.

كيف مصاصة الحليب

إذا ما اعتقلوها تحوّلت سكّيناً...

نحن موتى.. لا يملكون ضريحاً..

ويتامى.. لا يملكون عيوناً

قد لزمنا جحورنا

وطلبنا منكم أن تقاتلوا التّينا..

قد صغرنا، أمامكم ألف قرن...

وكبرتم خلال شهر.. قرونًا⁽¹⁾.

واهاً لنزار، لقد أنهى حياته بأروع ما يُمكن لشاعر أن يُنهي به حياته.. شرف الإصطفاف مع الحقّ، مع القضية، قضيته وقضيتي وقضية الجميع، غَسَلَ بثلاثيته تلك، أدران أربعين عامًا، من الغوص في الجنس والعشق المُحرّم القميء، واكتسب إحترام وحُبّ حتى أولئك الذين ما كانوا يحترمونه ولا يحبونه.

إنّها القضية، «الوطن الوحيد»، الذي يُوحّد كلّ هذه الأشتات من النّاس، المُتهاوين تحت طواحين القومية والوطنية والطائفية والعنصرية، في زمن الموت العربي والكساد الأخلاقي وضياع الهوية.

إنّها «القضية».. قضيتنا، تشبّثنا بها هو بقعة الطُّهر الوحيدة، في واقعنا الملوّث الموبوء.

لكنّ «القضية الفلسطينية» لم تَبَقَ في تصوراتنا - نحن الغرباء الطيبون - ورغباتنا وأحلام يقظتنا، في دوائر الطُّهر الرومانسية كما هالات النور، إذ كانت تُنصَّب في كلّ مكان على هامش الأحداث التي تمور بها منطقتنا والعالم من حولها، أسواقٌ ضخمة خاصة ببيع وشراء «القضية»!! وأصبح لبنان الجريح الذبيح حلبة صراعٍ دولية ترمي إلى ما كان يظنه الجميع تصفية القضية!

(1) ديوان «ثلاثية أطفال الحجارة» 1988 / نزار قباني.

هناك كان يُدَبِّح الفلسطينيون كالنَّعَاج، ولكن ومع ذلك.. وما بين «تل الزعتر» و«صبرا وشاتيلا»، كانت «قضية المذبوحين»، ورغم أنف الجزارين القتلة، تولد بعملية قيصريّة بالغة الخطورة، نعم كانت تولد من جديد في تلك السنوات الحمراء الدامية التي كان الجميع يتودّع فيها منها.

قضايا الحق لا تموت بقتل أهلها وإبادتهم، لا يستطيع الباطل أبداً هزيمة الحقّ بذبح أصحابه.. يذهب دَمُ الشهداء في الأرض، يبحث عن جذور الأحرار يرويهما، فتنبّت في قلوبهم سنابل، في كلّ سُنْبلة سبعة أكفّ وليدة، تحمل راية الحقّ وتُسْتَأْنَف بها المسيرة.

بدأت «القضية الفلسطينية» شيئاً فشيئاً تعود إلى حضن أهلها، وإلى مصداقيّتها العالميّة، ولكن ومع آلام ذلك المخاض الرّهيب، وبالتّوازي، بدأت تتكشف حقائق مروّعة عما يجري في بلادنا، وما يُخطط لها، وما يُراد بها. الحرب بين ديناصورات «المُجمّع الإستعماري الدولي»، ومزق آخر «دولة» جامعة مانعة في المنطقة، لم تنته بعد! والعدو.. لم يعد المستعمر الغربي فحسب، لقد بدأ الأعداء التاريخيون المُستترّون، يُكشرون عن أنياب مطامعهم في أرضنا من جديد.

تأتي «الخالة» «أم بيسان» التي تكره أن أناديها بالخالة، وبعض أولادها في مثل عمري.. «أم بيسان» الفلسطينية الثائرة المُحترمة جدّاً، تضع شالاً على رأسها احتراماً لحرمة المسجد، لا تُحبها نساء المسجد، يعتبرنها غير مُلتزمة، وأنا أظنّ أنها تعرف الله أكثر مما يعرفنه مُجتمعات.. «يترفعن» عن الحديث معها، وهي التي تُغرِقهن كلّهن معاً في بحر علمها وروحها الجميلة الدافئة! سيدة فلسطينيّة مُعقّقة، تجاوزت الخامسة والخمسين من العمر، طويلة ممتلئة سمراء، تركت «القضية» أخايداً من حزن وتحدّد على وجهها، صوّتها أجشّ مبحوح بسبب الدخان الذي يُميز رائحتها،

مهما سكّبت على نفسها من عطور، سيدة مجتمع من الطراز الثقافي السياسي النادر، وخريجة جامعة إسرائيلية في الدراسات التاريخية، أمُّ ثلاثة شبان لا يرتادون المسجد، وزوجها لا يأتي إلا لصلاة الجمعة، لكنها، ومنذ افتُتح هذا المسجد في مدريد، تمرُّ بين الحين والحين بتباع اللحم الحلال والملوخية.. وتُصلي في مسجد النساء، وتقرأ بعض القرآن وتدعو الله، ثم تخرج إلى الباحة فتجلس تستأنس برؤية الداخلين والخارجين، فإذا عثرت عليّ، وَجَدَتْ ضالَّتْها، تُحدِثني وَتَحكي وَأُنصِتُ وَأَتَعَلَّمُ، تُلاعب البُنيّات، تُخبيّ لهنّ دائماً في حقيبتها الألعاب والحلوى.. فيَجِدُن عندها عطف الجَدّة التي يفتقدنها بعيداً في دمشق.

أجلس إليها، أتناول معها أطراف الحديث، وكانت تُكِنّ لي مَوَدّة خاصّة، طالما قالت لي: والله أنت «حباة» يا أمّ ساجدة.. ولكن ما هذا الاسم الطاعن في السّن لُبنيّة مثلك؟ تُناديني بهذه الكنيّة وتضحك، وكأنها تُلقني بنكتة.

جاءت يوماً مُتلهفة، جلست إلى جوارِي على أحد المقاعد الحجرية في الساحة الصغيرة لِمَدخَلِ جمعيتنا الإسلاميّة في مدريد، وأخذت تنظر يمينه ويسرة، ثم وبما يُشبه الهمس، تسألني إن كنتُ قد عَلِمْتُ بما حدث في «مكة»!

- للأسف الشديد المذيع متعطل عندي وإذاعة لندن التي هي مصدري الوحيد للأخبار باللّغة العربيّة في بلادنا، قد غابت عني منذ أسبوعين، الله يفرجها، خيراً إن شاء الله؟

همستُ في حذر شديد: الإيرانيون!

- الإيرانيون؟ خيراً؟

قالت لي في أسف: لا خير يأتي من هؤلاء أبداً.. لقد هاجموا
الحَرَمَ المَكِّيَّ، واعتدوا على الحجاج، وأحدثوا هنالك مقتلة⁽¹⁾!

أجبت في برودٍ نسبي، وأنا الثَّورية الداعمة لجميع أنواع
الثَّورات في الكرة الأرضيَّة: وأخيراً قام أحدهم في أرضنا بثورة!

قالت لي بنفورٍ شديد: ماذا تقولين يابنتي؟ أًجُننتِ؟ ثورة
في الحَرَمِ المَكِّيِّ واعتداء على المُصلِّين والحجاج، يخرب بيتهم
وبيت هيك ثورة! من يريد القيام بثورة لا ينتهك قدس أقداس
الأمة ولا يعتدي على بلاد الآخرين، ليقوموا بالثورة في بلدهم!
قطعاً أنت لم تري الأخبار، لو رأيتِ ما رأينا، لما كان ردّ فعلكِ
على الخبر بهذا الشكّل! كان كلّ شيء مُعدّاً ومُرتّباً، إنها مؤامرة
حقيقية فعلاً.. تفجيرات وقتل ومُظاهرات وتحريك للأقلية الشيعيَّة
في السعودية.. أمر كبير وفظيع!.. والقتلى بالمئات!

ردّتني «أم بيسان» الفِلَسْطِينِيَّة، الفتحاوية الواعية المحيطة
بكثير من الأمور، إلى الواقع الأجرّب.. فعلاً أي ثورة هي هذه
التي تقوم في «حرم مكة»؟؟!.. والتي لم يَمُدّ الواقفون وراءها
في طهران يدّ العون لنا بأي شيء في ثورتنا ضد النّظام السوري
المُجرّم في حينه؟!

قلت في استحياء بعدما شرحت لي ملابس الحَدَث:
صدقْتِ يا خالة.. صدقت، ومعك كلّ الحق فيما تقولين، العَمى
يُعميهم⁽²⁾.. يقتلون الحُجّاج، ويُفجّرون في المَسْجِدِ الحرام!

سبحان الله كيف يعمى أحداً أحياناً عن الحقيقة، وعن ما
وراء الحقيقة، مما هو أشدّ خطراً وفضاعة؟!

(1) راجع «الكرونولوجيا» في نهاية الكتاب، - الخطة الزمنية للأحداث التي
بُنيت عليها حبكة - الكتاب -، والفقرة الخاصة بهذه الحادثة.

(2) صيغة لغة تعبيرية شامية تفيد أبلغ أنواع الاستنكار. فعل شنيع.

قالت أم بيسان: هؤلاء مُجندون تابعون لإيران، قَدِموا من الكويت خَصِيصًا، لِيُحْدِثُوا هذه المجرزة في مكة، وَلِيَضَعُوا السعوديين في مأزق!

- سبحان الله.. مجرمون قتلة! لم يجدوا أفذر من هذه الطريقة ليشيروا الفتن بين السعودية والكويت؟ إيران دولة إسلامية صديقة للعرب فكيف يحدث هذا؟

ضحكت أم بيسان، حتى كادت تَنقَلِبَ في جلستها، وصارت تُرَدِّدُ في استنكار وتندُّر: دولة صديقة للعرب؟؟ فعلاً أحتاج الآن إلى سيجارة! أَرَأَيْتِ لِمَ أَجِدُّ أَنْ اسْمَ «أُم سَاجِدَةَ» كبير عليك يا ابنتي؟

ثم همست: إنهم يريدون تفجير المنطقة كلها، إنك لا تعلمين كيف يَتَمَدَّدون في لبنان وفلسطين وسوريا، يريدون أن يركبوا ظهر القضية!

بَدَتْ لي أم بيسان ضليعة في السياسة، لكنني أُنِفْتُ من هذا الحديث الذي تفوح منه رائحة الطائفية، فقلتُ معترضةً: يا خالة نحن يجب ألا نكون طائفيين، والمسلمون جسدٌ واحد سنة وشيعة، إنها مشكلة سياسية لا أكثر ولا أقل!

ابتسمت أم بيسان ابتسامة المُرتاب، وأجابت: أنت ما زلتِ مُتَسَمِّمة بأفكار البعث، أيّ مسلمين هؤلاء؟ ألا ترين ما تفعله «ثورة الخميني»؟ وكيف تحاول التمدد والاعتداء على جيرانها؟ هؤلاء امتطوا الإسلام ليعود حكم فارس القديم.

قلت لأم بيسان: الله يرضى عليك يا خالة، أنت ما شاء الله بارعة في معرفة كلِّ ملابسات ما يجري على الساحة، ولكنني لا أحب الطائفية، ولا الأحاديث الطائفية.

ردت أم بيسان، وهي تهز رأسها في أسفٍ شديد: والله

إنكم لا تعلمون شيئاً مما يُحاك لكم يا بنتي، خصوصاً في سوريا، أَكْبُرُكُ بأكثر من عشرين عاماً، وأنا يساريّة فتحاويّة وأكره كلّ اليمين العربي كُره الجذام، لكنني أتنقل دائماً في العواصم العربيّة والغربيّة بسبب طبيعة عمل زوجي في السفارات.. وما نعرفه مخيف! هؤلاء الإيرانيون يُعدّون العِدّة لشيء مُرَوّع فعلاً.. سَيَفْرَغُونَ مِنَ الْعِرَاقِ الذي يَتَحَرِّشُونَ به، ويلتفتون إليكم في سوريا.. وستذكرين كلامي هذا!

أرعبني فعلاً ما قالت أم بيسان، فأنا أعرف تماماً طعم الخذلان الإيراني الثوري في أرواحنا، يوم ظننا أن الثورة الإيرانيّة ناصرتنا في سوريا ضدّ الأسد!!

استأنفت أم بيسان: هل ساعدوكم في مُصيبتكم التي حلّت في سوريا في الثمانينيات؟! أم أنهم قاموا بمساعدة النّظام السّوري الذي هَدَمَ حماة وذبح أهلها! كفانا حمقاً وسذاجة.. كفانا.. غداً يذبحوننا ذبح النّعاج ونحن نتفرج عليهم.. هل نحن طائفيون أم نظامكم المجرم هو الطائفيّ الكريه!

- والله يا خالة لا أطيق حتى أن أنظر في هذه الكتب التي يوزعها النّاس والتي تتحدث عن طائفية إيران، وعن مشكلاتٍ قادمة إلى المنطقة سيقوم من خلالها الشيعة بذبحنا واستباحة أراضينا.. ربّنا جدّي ﷺ ألا نتحدث وألا نخوض أبداً في أيّ موضوع يخصّ الطوائف في بلادنا، كان يقول لنا: ترفعوا يا جدو، ترفعوا.. واركبوا الخلق للخالق.

صَحَّكَتْ أم بيسان وأردفت: دعي عنك مناداتي بالخالة، جَلَطَنِي بها! .. إيه الله يرحم جدّك، كان يعيش في عوالم الأولياء، ما كان يظنّ أن أياماً سوداء ستحل عليكم وعلينا.

- بلى يا خالة.. كان يكره حكم الأسد، ويقول عنه إنه مُعْتَصِبٌ للبلد والحكم، لكنه كان يُحذّر من حمل السلاح، لأن

هذا السلاح ليس من صُنْعنا، ويقول: إياكم وحمل السلاح في وجه من لا يُمكنكم الصُّمود بالسلاح في وجهه!

غضبت أم بيسان، وقالت: يا أختي الله يرحمه.. خربوا بيوتنا المشايخ.. لا أجِبْهم ولا أطيعُهم!

قلتُ معترضة: يا خالة.. نحن ذُبِحنا في سوريا بسبب الثورة المُسلحة التي قُمنّا بها!

قاطعتني: أنتم ذُبِحتُم في سوريا، لأنه كان يجب أن تُذبحوا، سواء قُمتُم بثورة مسلحة، أم وَرْدِيّة، أم إرتوازِيّة، أم بيضاء.. كهذه التي نرى اليوم بداياتها في روسيا!

ثم أضافت: وكيف كان يريد جدّك أن تتخلّصوا من حكم الأسد؟ بالتّفاهم؟ أم بالاتّفاق؟ أم أن تطلبوا منه أن ينقلع فينقلع ويترككم في سلام؟؟

قلتُ لأم بيسان: أنتُ تُدخِلين إيران بسوريا بالسعودية وتخلطين الأمور بالخلاطة الطائفية!

قالت أم بيسان: حبيتي.. ألَمْ تُحدِثيني أنتُ نفسك عن الحُجاج الإيرانيين الذين بدؤوا بالوفود إليكم في الشّام، وخصوصًا على الجامع الأموي.. والله لن يرتاحوا حتى يأخذوه منكم! وستذكرين ما أقوله لك، ستذكرينه! من يهجم على الحُجاج في مكة، لا يفعل ذلك لأنه يريد التّخلص من نظام حكم، بل لأنه يريد الحكم في المنطقة كلّها، سنرى الآن.. ماذا سيفعلون هم وثورتهم الإسلاميّة بعد هذه الفضيحة الكبرى التي لَحِقت بهم!

كانت أم بيسان على حقّ، وقال أبو ساجدة عندما نقلتُ إليه الحديث: إن أم بيسان عليمّة مُطلعة، وإنه يُكبر كثيرًا أن تتحدث

بهذا الشكل سيدة يساريّة.. وأن رومانسيّتي الثورية وصوفيّة جدّي
وتسامحه.. قد جَعَلَتاني لا أرى الطوفان القادم.

في تلك الليلة.. استيقظت مدعورة أرتجف فزعاً مما رأيت
في منامي، كانت لُجّة هائلة قد ارتفعت في وسط البحر، وبدأت
تقترب بشكل مُرعب من «المدينة» التي نسكنها، ثم تحوّلت إلى
موجة كبيرة تُشبه صّهرات البراكين السائلة، بدأت تتمدّد نحونا،
ونحن نجري أمامها هارين طالبين النّجاة، ثم رأيتها موجة سوداء
قائمة لزجة بترولية القوام، صارت تتمدّد وتتمدّد، ونحن نجري
ونركض في كلّ الاتجاهات.. ثم رأيت نفسي أفرّ نحو بناء أبيض
رخامي، بدأت أصعد درجات سلّمه، والموجة تتمدّد من خلفي
تطلبّني، حتى وصلت الدّرجة الأخيرة، ولم يعد أمامي من مهَرَب،
هنالك وصل المَوج وتوقّف عن الصّعود، وبينه وبين قدميّ
ستيمتر واحد، ولم يلمسهُما..

كادت تلك اللّجة أن تضربني وتغرّقني لولا لُطف الله..
ونجوت.. بدا لي أنني نجوت.

۔ عید ۔

● **أيام قليلة بقيت** لرحيل هذا العام، هكذا تفرّ الأيام وتكرّر، ومرة أخرى تعود أيام النابيداد، أعياد «الميلاد» كما يُدعى هنا في إسبانيا، وما من زمن تُثار فيه أحزاني في مدريد، كما يحدث في هذه الأيام من كلّ عام، أيام الأعياد والحنين المؤلم الذي تبعثه في النفس، شوقاً إلى أوقات الفرح، وأيام الحب والدفء التي فقدتها الناس في عالمنا اليوم، وهم يمضون لاهثين وراء الأوهام التي تُهرول نحو مستقبل غامض، غريب، وربما مخيف.

كلّما سمعت أغاني «النابيداد» وموسيقى تراتيله، انغمستُ في تلك البركة الدافئة من الذكريات، تلمّني وتضمّني في غربتي ووحديتي.

يعود «النابيداد» ويعود معه في كلّ عام، ذلك الإعلان التلفزيوني الإسباني الشهير عن حلول الأعياد: «عُدْ إلى بيتك.. عُدْ يا بُني، ارجع.. إنه النابيداد»، يُذكّرني كلّما سمعته ببيت جدّي الذي لن أتمكن من العودة إليه أبداً.

تُعيدني أيام «النابيداد» دائماً هنا في مدريد، إلى ذلك العيد البعيد في دمشق، عيدٌ واحد له في فمي طعم كلّ أعياد العالم، عيدنا ذاك القديم.. لم أعش بعده مثله في حياتي، يوم ذهبْتُ أُمي إلى الحجّ وتركنا في عُهدَة جدّتي وجدّي الشَّيخ، دلّلونا حتى ظنّنا أننا أصبحنا أيتاماً، لو أنّ ذلك العيد كان ذهبياً بلون ثوب العيد الذي كانت أُمي قد اشترته لي قبل سفرها، جدّي الشَّيخ يطعمني بيده الجبن «المَدقوق مع حَبّة البركة السوداء»، ويأمر لي بكوبٍ

من عصير الليمون بالسُّكَّر، كان أمِّي في غياب أمِّي.. وجدّتي المسكينة، لا تهدأ، وهي رائحة غادية، تُهيئ لنا الطعام، تُنظِّفنا، تَحْدِثُنَا، تُنِيْمُنَا، تُحَدِّثُنَا، تشكو لنا أمنا دون كلل ولا ملل في غيابها في الحجّ!.. وتَتَنَدَّر طول الوقت على أنها قصيرة وسمينة، وأنها لا تُشَبِّهها البتة، وترجو الله ألا نُصبح كأَمَّنَا عندما نكبر، وإلا فإننا لن نتزوج أبدًا!

كلام الجدّة عن أمنا «يبدو» وكأنه لا يؤثر فينا، فلا شيء ولا أحد يُعوّض مكانة الأم في حياة الإنسان، كما لا شيء ولا أحد يُغيّر من مكانة الجدّة نفسها في قلوب الأحفاد.. الكلام مجانيّ هنا في دمشق، أو هذا ما يظنّه المتكلّمون! إذ تُثبت الأيام أنه ليس مجانيّا، ولا - رخيصا، إنه يُخَلِّف خُدُوشًا في النفس لا تُمحي، وكثرة النّق⁽¹⁾ تترك ندبات في الرُّوح، كما يفعل صنوبر ماء متروك طويلاً يُنْقَط⁽²⁾، لكن الجدّات - والكُنائِن - لا يفهمون هذا أبدًا، ولا يستطيعون استيعاب معادلة أن يكون لكلّ منهنّ مكانها في القلب وفي حياة ووجود الأبناء والأحفاد، كما لا يفهم النّاس، أن كلّ ما يُقال للأطفال، يُساهم في تركيب شخصياتهم وتصوراتهم عن الحياة والأشياء، ورؤيتهم لأنفسهم وللآخرين.

تلك كانت أيام لا تُنسى.. وذلك العيد كان عيدًا حقيقيّا، يغدو فيه رجال العلم والدين والسياسة إلى دار جدّي منذ صباح اليوم الأول للعيد، مُباركين مُهنّئين، فلان الفقيه، وفلان العالم الجليل، وفلان القاضي الأول، وفلان النائب في مجلس الشعب.. كان بيت جدّي على تواضعه، ملتقى النّخب في تلك الأيام التي لا أذكرها إلّا ساحرة رائعة، كقصة سندريلا والجميلة النائمة.. ألزَمْنَا

(1) النّق، والنقّ: صوت الحجلة، وصوت الدجاجة تبيض، وصوت الضفادع، وصوت العقارب / معجم الأصوات.

(2) نَقَطَ السَّائِلُ: نَزَلَ قَطْرَةً قَطْرَةً / المعجم الغني.

جَدِّي ذَكَورًا وَإِنَاءًا أَن نَرْتَدِي سِرَاوِيلَ طَوِيلَةً، قَالَ إِنَّهَا لِلْسُّتْرَةِ، وَإِنَّهُ لَا يَفْهَمُ ذَوْقَ أُمِّي فِي اخْتِيَارِ الْمَلَابِسِ الْقَصِيرَةِ لِلْبَنِينَ وَلِلْبَنَاتِ.. كِدْتُ أَبْكِي لِمَا أَحْدَثَهُ ذَلِكَ مِنْ خَدَشٍ فِي أُنَاقَتِي ذَاتِ الْأَعْوَامِ الثَّمَانِيَةِ! لَكِنِّي «إِقْتَنَعْتُ» حِينَ قَالَ إِنَّهُ لَنْ يُسَمَّحَ لِي بِالْجُلُوسِ مَعَ هَؤُلَاءِ «النُّخَبِ» إِلَّا إِنْ لَبِسْتَهُ، لِأَنِّي أَصْبَحْتُ كَبِيرَةً!

المشكلة لم تكن في لبس السَّروال، بقدر ما كانت في عدم تناسُق شكله ولا لونه مع الثوب الذي أرتديه، والمشكلة كانت أكبر بالنسبة إلى شقيقَي الصَّبِيِّين الصَّغِيرَيْن، اللذين اضْطَرَّا لِاسْتِبْدَالِ سِرْوَالَيْهِمَا الْجَدِيدَيْنِ الْقَصِيرَيْنِ جَدًّا بِسِرْوَالَيْنِ عَتِيقَيْنِ طَوِيلَيْنِ، دُونَ أَنْ يَفْهَمَا سَبَبَ وَضُرُورَةِ ذَلِكَ كُلِّهِ، وَهَذِهِ مُشْكَلَةٌ كَبِيرَةٌ بِالنسبة إلى طفل صَغير، كَانَ مِنَ الْمُمْكِنِ تَفَادِيهَا بِبَعْضِ التَّلَطُّفِ فِي الْأَمْرِ مِنْ جِهَةِ أُمِّي، لَكِنِّهَا هِيَ نَفْسُهَا لَمْ تَكُنْ مُقْتَنَعَةً بِهِ، كَانَتْ تَعْتَقِدُ أَنَّهُ مَبَالِغَةٌ فِي غَيْرِ مَكَانِهَا، وَتَنْطَعُ، فِي حِينَ أَنْ الْأَمْرَ كَانَ بِالنسبة إلى جَدِّي أَمْرًا تَحَدُّ وَبَقَاءً.

قَالَ لِأُمِّي فِي غَضَبٍ شَدِيدٍ: هَذِهِ لَيْسَتْ أَخْلَاقُنَا، هَذِهِ أَخْلَاقُ الْفَرَنْجَةِ، وَهَذِهِ لَيْسَتْ مَلَابِسُنَا هَذِهِ مَلَابِسُ الْفَرَنْجَةِ، وَأَنْتِ مُسْرُورَةٌ بِأَنْ يَكُونَ أَوْلَادُكَ كَالْفَرَنْجَةِ، بَلْ تَتْبَاهِينَ بِذَلِكَ.

أَجَابَتْهُ فِي انْكِسَارٍ غَيْرِ مُعْتَادٍ: لَا أَحَاوِلُ تَقْلِيدَ الْفَرَنْجَةِ، وَلَمْ أَفَكِّرْ فِي الْأَمْرِ مِنْ هَذِهِ النَّاحِيَةِ، لَكِنْ هَذَا مَا يَلْبَسُهُ أَكْبَارُ النَّاسِ.

أَضَافَ مُتَحَسِّرًا مُنْدهَشًا: أَيُّ سَقُوطٍ هَذَا أَنْ نُحَاكِيَ مِنْ يَسْتَعْمِرُنَا وَيَسْتَعْبِدُنَا حَتَّى فِي لِبَاسِنَا؟ بَلْ وَنَعُدُّ مَنْ يَفْعَلُهُ مِنْ أَكْبَارِ النَّاسِ! أَكْبَارِ النَّاسِ، هُمْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ تَرُونَهُمْ هُنَا يَزُورُونَنَا، مُحَافِظِينَ عَلَى هَوِيَّتِهِمْ وَأَدَابِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ حَتَّى لَوْ لَمْ يَكُونُوا مُسْلِمِينَ، أَكْبَارِ النَّاسِ هُمْ الَّذِينَ يَحْفَظُونَ هَذِهِ الْبِلَادَ مِنْ أَنْ تَنْحَلَّ وَتُضَيَّعَ.

لأول مرة.. سَكَتَتْ أُمِّي، لَمْ تَحْزَرْ جَوَابًا.. لَمْ يَكُنِ الْمَوْضُوعُ

مجرد موضوع سَترٍ ودينٍ فحسب، من وجهة نظر جدِّي، بل كان قضية هوية!

ربما لم أستوعب كلَّ ما قاله جدِّي يومها، لكنه بقي يقرع دماغي سنوات طويلة بِمَنطِقِهِ الطَّاعِي، وأنا أشهد فترة التَّحولات المخيفة والسريعة التي كان يعيشها المُجتمَع السوري، تحولات اخْتَفَتْ فيها طبقة تلك «النُّخب الوطنيَّة» المُحافظة المُجمعة على ما يُشكِّل هُويتنا في وطننا، لِتَحَلَّ مَحَلَّها شخصيات و«نُخب» ليست بِنُخب! لا تحترم أحداً ولا شيئاً، ولا يهمها الوطن ولا هُويَّته ولا وحدته ولا وجوده.

تلك التَّحولات تَبَدَّت في تَمَرُّقٍ لُحمة تلك الطبقة السياسيَّة والإجتماعيَّة والدينيَّة، التي كانت تحفظ وتُمثِّل هُويَّة البلد، كما في تَصَدُّع القشرة الخارجِيَّة للمُجتمَع السُّوري، وفي التَّهجين الظاهريَّ الإِسْتِعْماريَّ الذي لم يَتَعَدَّ تلك القشرة.. أصبحنا ذلك الشَّعب العربي المُتَفَرِّنس، والذي فَقَدَ مُعْظَم مَعَالِمِ هُويَّته، فلا هو بعربيٍّ يحتفظ بأخلاق العرب الحميدة، صِدْقَهُمْ ومُروءَتَهُمْ وشجاعتَهُمْ وكرمَهُمْ، ولا هو أخذ عن الفرنسيين حُرِّيَّة تفكيرهم، وأساليب بحثهم، وأسس نهضَتِهِمْ وقوَّتِهِمْ وتَقَدُّمِهِمْ، أخذنا من العرب أخط ما لديهم - من أخلاق الجاهليَّة، وأخذنا عن الفرنسيين أسفَه ما لديهم من قُشور المدنيَّة، وأبشع ما لديهم من قوانين ومفاهيم.

أصبحنا شعباً لا يَعْرِف نفسه، يُنكر ذاته، يُتَبَرَّأ من تاريخه، ذاهباً إلى حَتْفِهِ، يَحْتَقِر فلاحيه وبدوِّه.. وهُم غاليَّة هذا الشَّعب، وهُم وعاء هُويَّته.

كنا شعباً يريد أن ينطلق، يريد أن يُخلَق، يريد أن يخرج من القُفْمُ.. ولكن كان علينا أن نفهم أن التَّحليق والطيران يحتاجان إلى «سَمَاء».

لَمَّا كُنْتُ أبحثُ في سوقِ غرناطة عن سراويل لِطفلي،

عَلَّقَتْ إحدى رفيقتي السُّوريات: ما سَمِعْتُ بهذا؟ سراويل لِطِفلة ما دون العامين من عمرها.. والله بَهْدَلَة.

قالت لي صاحبة الدُّكان التي كُنَّا نَسألُ فيها: هذه السراويل تُباع فقط في دُكانٍ خاص لملابس الأطفال هنا في غرناطة، وهذه القِطْع الدَّاخِليّة بالذات غالية جدًّا، لأنّها مشغولة باليد بخيطان DMC ومُزَيَّنة بالدانتيل وشرائط الحرير، ولا يشتريها إلا عَليّة القوم، ثم عادت تُوكِّد وهي تنظرُ إلى جلايينا من دون أن تحاول أذيتنا: إنّها غالية جدًّا!

كان من تقاليد عَليّة القوم أن يُلبسوا أطفالهم الصُّغار هذه السِّراويل الدَّاخِليّة التي تصل إلى ما فوق الركبة، دليل عناية، وأناقة، واهتمام وحفظ من عيون المُتحرشين بالأطفال، وهُم هنا كثيرون! .. وكانت هذه التَّقاليِد عندنا «بَهْدَلَة»!!

لكنّ هذه «البَهْدَلَة» .. ما لبثت أن انتشرت في كلّ أنحاء غرناطة ثمّ مدريد، فأصبحت سراويل الفتيات الصغيرات تُباع في كلّ المَحال التجاريّة.. ليس تديناً، وإنما أناقةً وحِفظاً للأطفال، واتباعاً لِمَوْضِعٍ جديدة عَمَّت ولا قَتَ قَبولاً من الجميع.

كان بيت جدّي المأوى والملاذ في الأعياد والمُلمات، كان طعمُ العيد مختلفاً، ونحن جلوسٌ كأنّ على رؤوسنا الطير في حضرة أولئك القوم المُعَمِّمين المُجَلِّبين، نقوم على خِدْمَتهم، نأتي بصواني الحلوى، ونأخذ صواني الشاي، نناول السُّكَّر لأحدهم، ونعطي الآخر منديلاً طلبه، نتكلّم همساً أنا وإخوتي، ويُغيظ بعضنا بعضاً بالتَّنَافس على خِدْمَة القوم، لِنفوز بكلمة الله يرضى عليك يا عمو، ما شاء الله عليك يا بنتي.. فما إن يذهبوا، حتى نخلع عنا كلّ ما عدا ثياب العيد، ونطلق عصافير تَنشُد الأراجيح، والفول النابت.. والعيد.

كان ذلك أشبه بمزاوَلَة رياضيّة تُثير كلّ الحواس، كان نَقْشُ

وَنَبَشَ يَدٌ صَغِيرَةً ضَعِيفَةً فِي جِدَارٍ ضَخْمٍ يُوشِكُ أَنْ يَنْقَضَ، كَانَ ذَلِكَ كَمَنْ يُجَرَّبُ أَنْ يُثَبِّتَ لِنَفْسِهِ وَلِلْآخَرِينَ أَنَّهُ يَسْتَطِيعُ الطَّيْرَانَ، دُونَ أَنْ يَسْتَوْعِبَ أَنَّهُ يَطِيرُ فَعَلًا.

عِيدُنَا فِي بَيْتِنَا كَانَ مُخْتَلَفًا عَنْهُ فِي بَيْتِ جَدِّي، أُمِّي تَرَبَّتْ فِي «الَلَّايِيك وَالْفَرَنْسِيْسْكَان»، تِلْكَ الْمَدَارِسُ الْفَرَنْسِيَّةُ الَّتِي افْتَتَحَتْ فِي دَمَشَقٍ فِتْرَةَ الْإِنْتِدَابِ الْفَرَنْسِيِّ، رُؤْيَيْهَا لِلْعِيدِ مُخْتَلَفَةٌ، وَإِنْ كَانَتْ بِهَجَّةِ الْعِيدِ لَدَيْهَا، كَمَا عِنْدَ مَعْظَمِ نِسَاءِ الشَّامِ، - تَعْنِي أَنْ تُضْحِي بِكُلِّ مَا لَدَيْهَا وَكُلِّ مَا تَمْلِكُ، وَحَتَّى مَا لَا تَمْلِكُ، لِتَكْسُونَا وَتَجْبُرَ خَوَاطِرُنَا وَتَحْمِلَ إِلَيْنَا الْأَلْعَابَ وَالْحُلُوى، تَأْتِي مِنَ الْمَدْرَسَةِ عَصْرًا، تُنَظِّفُ الْبَيْتَ وَتَلْمَسُ الْحَاجِيَّاتِ الْمُبْعَثَةَ فِيهِ، تَحْمِلُنَا وَتَهْرُولُ بِنَا نَحْوَ سُوقِ الْحَمِيدِيَّةِ، فَتَخْتَارُ لَنَا مِنَ الْمَلَابِسِ أَجْمَلَهَا وَأَكْثَرَهَا أُنَاقَةً، مَلَابِسَ تَلِيقَ بِأَوْلَادِ الْمُعَلِّمِينَ الْمُحْتَرَمِينَ.. ثُمَّ تَتْرُكُنَا لِنَعُودَ فَتَذْهَبُ وَحْدَهَا فِي مُهِمَّةٍ خَاصَّةٍ تَتَعَلَّقُ بِاتِّفَاقٍ سِرِّيٍّ بَيْنَهَا وَبَيْنَ «السَّيِّدِ الْعِيدِ»، الَّذِي تَقُولُ إِنَّهَا سَتُقَدِّمُ لَهُ تَقْرِيرًا عَنْ سُلُوكِ كُلِّ مَنْ طَوَالَ هَذَا الْعَامِ، وَبِنَاءً عَلَيْهِ يُقَرَّرُ «السَّيِّدِ الْعِيدِ» أَنْ يُقَدِّمَ لَنَا الْهَدَايَا، وَنَوْعَهَا، وَقِيَمَتَهَا.

مِنْذُ سَاعَاتِ الصَّبَاحِ الْبَاكِرِ تَشْدُو الْمَآذِنُ وَالْإِذَاعَةُ بِالتَّكْبِيرَاتِ، نَتَلَمَسُ مَلَابِسَنَا الْجَدِيدَةَ بِأَطْرَافِ أَصَابِعِنَا، نَخَافُ عَلَيْهَا بِصِمَاتِنَا، نَرْقُبُهَا كَمَا لَوْ كَانَتْ شَيْئًا سَحَرِيًّا، جَاءَنَا عِبْرَ بَرِيدِ الْجِنِّيَّاتِ الْعَرَابَاتِ، نَبْحَثُ عَنِ الْحِذَاءِ اللَّامِعِ بَيْنَ طَيَّاتِ اللَّحَافِ، تَرَكْنَاهُ هُنَاكَ قَبْلَ أَنْ نَنَامَ مَخَافَةَ أَنْ يَهْرَبَ! عَانَقْنَاهُ وَكُنَّا نُمَتِّعُ النَفْسَ بِشَمِّ رَائِحَتِهِ الْمُمِيزَةِ! نَهْرُولُ بَيْنَ الْحَمَّامِ وَالْمَطْبَخِ، مُنَظِّفِينَ مُهَنْدَمِينَ مُعْطَرِينَ مُسَارِعِينَ إِلَى النَّوْمِ، قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ الْعِيدُ لِيَجُوبَ شَوَارِعَ دَمَشَقٍ وَيَتَفَقَّدَ الْأَوْلَادَ الْحَبَّائِينَ⁽¹⁾، لِتَبْرُكَ لَهُمُ الْعِيدِيَّةُ.

(1) كَلِمَةٌ تَسْتَخْدَمُ فِي الشَّامِ بِمَعْنَى «الطَّيِّبِينَ»، أَصْلُهَا: الْحَبَابُ: الطَّلُّ يُصْبِحُ عَلَى النَّبَاتِ.

كنت أتخيل ذلك العيد شبهاً طيباً مُزركشاً، مخلوقاً أليفاً كبيراً يشبه خيال المآتة، مُرداناً بكلّ الألوان والبحارج.. يجوب ليلة العيد شوارع دمشق وحاراتها مُثقلاً بالهدايا، من كلّ لون وحجم وشكل، يحملها بين يديه، أو يعلقها على صدره وكتفيه.. يُحدث جَلَبَةً ورنيناً وضوضاء، أنتظرُ تحت لحافي أن يوقظني صخبه ورنين الألعاب المعلقة على صدره، لكنها لم تفعل قط، غير أنه كان لا يُخلف وعده.. يترك إلى جانب السرير أو تحت المِخدة «الهدية - العيديّة»، نتقافز عند الفجر مُنتشين فرحاً بها حتى من قبل أن نفتح غلافها الجميل، ونعرف ما في داخلها.

الوالد عائدٌ للتو من صلاة العيد، وزيارة المقابر.. لا أدري من أين جاء النَّاس بهذه العادة العجيبة، لا شيء في ديننا يأمرنا بزيارة المقابر صباح العيد، عادة تقديس الأموات الذين لا نرضى موتهم، ولا ننفك مرتبطين بهم حتى عندما يُصبحون تحت التُّراب، إلى درجة تجعل تذكُّر الموتى أحد أول مراسم الإحتفاء بالعيد والحياة! نُقدم لهم يوم العيد طُقوس بقائهم في الذاكرة، كأنهم ما زالوا أحياء فاعلين في حياتنا.

عائد أبي بملابسه المَكوية المُنشأة، يلبسها عيداً وراء عيد، فلا يسمح راتب المُعلِّم في بلادنا بأكثر من شراء ملابس جديدة لأولاده، وفي - كلّ عيدين أو ثلاثة.. أما هو فيكتفي بملابس عرسه نفسها، تدب فيها الحياة عيداً بعد عيد!

الوالدة تمارس «تَمَتُّعُها» بعطلة العيد في المطبخ! رائحة الملوخية تملأ البيت والبناء، رائحة الملوخية شرطٌ أساسي من شروط دخول العيد بيتنا.. أمي هي الوحيدة التي تستقبل العيد بملابس التَّعْزِيل⁽¹⁾! تَكْنِس وتُكْوِي وتُنظِّف وتُطْبِّخ، وتَسْهَر لإنجاز

(1) عَزَلُ الغرفة: رتبها وأزال ما لا يحتاج إليه/ «تعزيل» تستخدم بمعنى التنظيف الشامل والدقيق.

مهمة تحضير «المعمول»⁽¹⁾.. عيب وعار أن تأتي الجدة والجدة ثاني يوم العيد - كما جرت العادة - لزيارتنا، ولا يكون المعمول جاهزاً بكل أصنافه، المعمول المحشو بالفُسْتَق، والآخر المتطاوِل المحشو بالجوز، ولا بد من أقراص المعمول المحشي بالتمر.. وصواني المعمول رائحة غادية تُشَوِّى في فُرن الحَيِّ طوال يوم وقفة عرفات، ورائحة السَّمْن العربي «الرهية» تسد علينا منافذ التنفس وهي تفوح من بيوت أهل الحارة، ودارنا في حالة هياج عاطفي، ووحدها أُمِّي التي تشتغل.. تقضي أيام عطلة العيد بطولها في الشغل، بدلاً من أن ترتاح من عناء عملها في التدريس.. وهي راضية سعيدة بنا، لا تسأل عن نفسها، ولا تهتم إلا بأن يترك العيد بصماته على بيتها وأولادها كأحسن ما يكون، ينسل أبي من إنشغاله بالزيارات والمعائدات، يخلع طقم العيد، ولا يتخرج أن يلبس مريول المطبخ، ليقف ويساعدها في تنظيف الصُّحون والأواني التي خلّفتها إعدادات الطبخ وصنع الحلوى.

لم يكن أبي يشعر بأن مُسَاعَدَتَه زوجَتَه في المطبخ يُقلِّل من رجولَتِه أو يَخْدِش كِبَرِيَاءَه، وهي التي تعمل مثله في التدريس، وتتفانى في خدمة أولادها وبيتها، كانا معاً في كل أمور حياتهما، كانا دائماً معاً في الطريق.

كلّنا واقفٌ مزهُوٌّ بنفسه، فَرِحَ بمظهره كالطَّاووس، مُستَعِدون للانطلاق نحو بيت جدِّي الشَّيْخ، لا عيد دون الذهاب إلى منزل «جدو الشَّيْخ» في أول ساعة، بعد أن يعود أبي من صلاة العيد، كان هذا لقب جدِّي الذي نناديه به، وهذا اسمه، وهذا الوصف الذي نعرفه به منذ ولدنا.. إلى أن مات.

هناك لدى باب دار الشَّيْخ، نتواضع في مظهرنا، ونضبط

(1) المعمول: حلوى تُعد خصيصةً للعيد تصنع من الدقيق والسمن والمكسرات والسكر.

فرحنا بملابسنا، فَنُطَوِّلُ القصير، نَشُدُّ الأكمام، ونُخْرِجُ الحجابات التي نأتي بها لدى زيارته فنَسْتُرُ بها شعرنا، تمامًا كما أصبح الناس يفعلون عندما يدخلون المسجد في مدريد، كان مَنْزِلُ جَدِّي الشَّيْخ في دمشق وبالضبط كالمسجد الذي كان وحيدًا في حينه في مدريد عندما نَزَلْتُهَا، كِلَاهُمَا بيتان نَأْتِيَهُمَا فَنُصَلِّي فِيهِمَا جماعة، ويُوَضِعُ الحِجَابَ على عَتَبَاتِهِمَا، وَتَسْتُرُ الأيدي والأرجل والنُّحُورَ، كِلَاهُمَا ندخله في وقار وخشوع، كِلَاهُمَا رائحته طيبٌ ومِسْكٌ، كِلَاهُمَا فيه سَكِينَةٌ وصَمْتُ وسَلَامٌ، كِلَاهُمَا نَأْتِيهِ يومَ العيد، ولا عيد دون زيارته.

كِلَاهُمَا يُقِيمُ فِي القَلْبِ وَلَا يَرَحِلُ، أَحَدُهُمَا بيت جَدِّي الشَّيْخ الذي وَلِدْتُ فِيهِ، هُنَاكَ فِي حَيِّ «المهاجرين» قَرِيبًا مِنْ قَمَةِ قَاسِيُون، مِنْ شَرَفَاتِهِ أَرَى دِمَشْقَ، تَشْتَعِلُ بِمَصَابِيحِهَا المَتَالِقَةَ، تَزْدَانُ بِهَا جَمَالًا وَدَلَالًا، وَسَاحَةُ الأُمُويِّينَ فِي وَسْطِهَا، وَتَسْلُلُ السَّيَّارَاتُ فِي شَوَارِعِ المَدِينَةِ الجميلة الساكنة، كَمَا كَانَتْ تَبْدُو عَنْ بُعْدٍ لَطْفَةً صَغِيرَةً تَقِفُ هُنَاكَ لَا تَعْرِفُ شَيْئًا عَنْ أَحْشَاءِ المُدُنِ وَلَا مَاذَا يُمْكِنُ لِلْمُدُنِ أَنْ تَضُمَّ فِي تِلْكَ الْأَحْشَاءِ!

ذَلِكَ كَانَ بَيْتُ جَدِّي الشَّيْخِ فِي دِمَشْقَ، وَهَذَا فِي مَدْرِيدَ كَانَ «بَيْتَ اللَّهِ».

هَنَا فِي مَدْرِيدَ، نَسَمِّي المَسْجِدَ، مَرْكَزًا ثَقَافِيًّا، أَوْ جَمْعِيَّةً.. نَسَمِّيهِ بِاسْمِ الحَيِّ الَّذِي افْتُتِحَ فِيهِ، نَتَرَدَّدُ عَلَيْهِ فِي حُبٍّ وَحَنِينٍ، بِالضَّبْطِ كَالْحُبِّ وَالحَنِينِ الَّذِينَ نَحْمِلُهُمَا فِي صُدُورِنَا لِبُيُوتِ أَجْدَادِنَا وَجَدَاتِنَا، إِنَّهُ بَيْتُ «الْجَدِّ» فِي غَرْبَتِنَا، تَجْمَعُنَا بِهِ صَلَاتُ القُرْبَى وَالمُودَةِ.

كَانَ أَوَّلُ مَسْجِدٍ زُرْتُهُ فِي مَدْرِيدَ، بَيْتًا كَبِيرًا مُتَوَاضِعًا جَدًّا، اسْتَأْجَرَهُ طَلِبَةٌ وَعَمَالٌ، جَعَلُوا مِنْهُ مَسْجِدًا وَمَدْرَسَةً وَمَلْحَمَةً، وَمَرْكَزًا إِسْلَامِيًّا وَحَيَاةً وَمُلْتَقَى وَوُطْنًا.

نقف أمام باب بيت جدّي، ونستعد بكلّ ما أوتينا من رغبة في الاستعداد لتلافي المشكلات، قبل أن تمتد يد الوالد ليقرع الجرس، نلج ذلك العالم الأخاذ الخلاب، المُنبَت عن حياتنا الحقيقية في دمشق، ذلك البيت الكبير العريض الواسع العتيق، بحديقته التي بدأت تَحْتَضِرُ بعد أن أنهكت الأيام الجدّة، ففقدت اليَدَ الحانية التي كانت تعني بها، بأشجار سَرُوه⁽¹⁾ الباسقات، وبقياء قِنٍّ للدجاج والأرانب كان قَلَعْتُنَا ووَكُرُّ أسرارنا، وأشجار التين والنّارنج والمُشمُش الهندي، وشجيرات الورد والياسمين، تَرَامَت أغصانها، عَرَّشَت وامتدت، ثم أَلَقَت بنفسها فاستلقت على أرض الدّار، كأنها تُهَرِّول لِإستقبال الزائرين بأنجمها البيضاء وبراعمها الملونة، وعبيرها الأخاذ.

ونحن هناك أسفل الدَّرَج الحَجَرِيّ الطويل المؤدي نحو الطابق العلوي، نبدو في هيئة مُزَيَّية تُخفي بهجتنا بثياب العيد الجديدة، لكنه «جدو الشّيخ»، وينبغي أن نظهر في حضرته بهذا الشكل تماماً، إحتراماً، وخوفاً.. لم ندرك كم كانا ينطويان على كثير من الحب والحنان، إلا بعد أن طوت الأيام تلك الأيام.

الجدّة مكسورة الخاطر كما هي دائماً، لم يُغيّر مرور الأعوام حالها، خَلَفَتْهَا الأيام على هامش حياة زوجها الحافلة، وحيدة غريبة في بيته ومعه، تُحَدِّث الجدران والسَّقْف، مُطيلة النَّظَر والتَّمعن في يديها، رَسَمَت فيهما الحياة أخايد الشّيخوخة والتَّعب، متأملة أشجار بيتها الكبير، أُمَسَى بالنسبة إليها غابة

(1) شجر السّرو بجميع أنواعه من أهم الأشجار الخضراء المُعمّرة، ينتمي إلى الفصيلة السّروية، قد يصل طول الشجرة منها إلى 30 متراً، يستغرق وقتاً طويلاً جداً حتى ينمو، موطنه الأصلي تركيا، أوراقه إبريّة، وثماره قاسية ومغلقة، خشبه وأوراقه وثماره عطريّة، وقد إنتشرت زراعته في جميع مناطق حوض المتوسط معتدل المناخ.

المصادر: ويكيبيديا+ المؤسسة الخضراء لرفع الوعي البيئي. دمشق.

ضَاعَتْ فِيهَا سَنَوَاتُ عَمَرِهَا وَهِيَ تَبْحَثُ عَنْ مَخْرَجٍ، وَعَلَى الرَّغْمِ
مَنْ أَنَهَا تَجَاوَزَتْ الْعَقْدَ السَّادِسَ مِنْ عُمْرِهَا، لَكِنَّا بَقِيَتْ حَبِيسَةً
هَاتِيكَ السَّبْعَةَ عَشَرَ عَامًا، الَّتِي كَانَتْ تَتِيهِ فِيهَا عُرُوسًا بِشَبَابِهَا
الْغَضِّ، وَجَمَالَهَا الْإِسْتِثْنَائِيَّ، وَحَسَبِهَا وَنَسَبِهَا الْحِمَاصِيَّ الْعَرِيقَ.

المرأة التي لا تعيش حبًّا واحترامًا مع شريك العمر، تبقى
سجينة سِنِّي شبابها الأول.

الحلم بالحب والحياة يبقى عالقًا هناك ينتظر.

لم نفعل شيئًا لإنقاذها، ولا لإنقاذ تلك الحديقة التي تركناها
تحتضر إهمالاً.. كنا ندينُ لهما بالكثير، وكان في استطاعتنا أن
نُقَدِّمَ ولو القليل، لكننا لم نفعل، لا أدري لم لم نفعل، أو لعلِّي
أدري؟ البيت الخالي من البنات، أو الكنائن الحنائن، يَضْمَحِلُّ
ويَتَفَكِّكُ وَيَتَحَوَّلُ إِلَى مقبرة يسكنها أحياءٌ ينتظرون الموت!

خلفناهما وراءنا، ومَضِينَا فِي رحلة جُنُونٍ لَاهِثٍ نَبْحُثُ عَنْ
بيوت وعن أوطان، وكان ذلك البيت وطننا، وكانت جدّتي سقْفَه
وقلبه.

واقفةً هناك دائماً، تنتظر، في آخر السُّلَمِ الْحَجَرِيِّ، بِشَعْرِهَا
الكَسْتَنَائِيَّ المصبوغ، وقَامَتِهَا الطويلة المنتصبَة تُغَالِبُ الْإِنْكَسَارَ،
بِثِيَابِهَا البسيطة المُبَالِغَة فِي التَّوَاضُّعِ كَمَا فِي الْأَنَاقَةِ، بِسُتْرَتِهَا
الصُوفِيَّةِ الْخَضْرَاءِ الَّتِي لَا تَكَادُ تُفَارِقُهَا، بِنَظَرَاتِ عَيْنَيْهَا الْعَسَلِيَّتَيْنِ
الصَّغِيرَتَيْنِ الْحَزِينَتَيْنِ، بِكَتِفَيْهَا تُصَارِعَانِ التَّهْدُلَ، كَأَنَّهُمَا تُحَاوِلَانِ
إِحْتِضَانِ شَيْءٍ خَوْفَ أَنْ يَفِرَّ، وَاقِفَةً هُنَاكَ تَسْتَقْبِلُنَا بِالتَّأْهِيلِ
وَالْمَعَايِدَاتِ اللَّطِيفَةِ بِلَهْجَتِهَا الْحَمَصِيَّةِ الرَّائِعَةِ الْجَمِيلَةِ الَّتِي
وَرَثْنَاهَا عَنْهَا، نُدَاعِبُهَا بِهَا وَنَعْلَنُ بِهَا إِنْتِمَاءً إِلَى حِمَاصِ الْعَدِيَّةِ،
فَإِذَا مَا كَانَتْ الْوَالِدَةُ عَدَلْنَا لِهَجَّتِنَا خَوْفًا مِنْ أَنْ نَكْسِرَ خَاطِرَهَا،
وَعُدْنَا شَامِيَيْنَ مُعْتَقِنَيْنَ لَا نَتَكَلَّمُ إِلَّا لَهْجَةً أَمَّنَا الشَّامِيَّةَ!

كثير من العناق والقبلات المضمخة بعطر الجدة الذي لا ينفد، نبدأ بها زيارتنا، يُقبل والدي يد أمه وتقبل رأسه وترضى عنه، فهو ابنها وصديقها الذي علقت عليه الآمال التي دُفنت في ظل ذلك الزوج العالم الطبيب الشيخ، وعلى هوايمش زواجه بمعلمة عاملة منهنكة، لا وقت لديها لحمل مسؤولية الأسرة الممتدة التي كانت في أمس الحاجة إلى من يتفرغ لحمل مسؤولية استمرار تدفق الحياة في وجودها.

اكتشفت منذ كنت في دمشق أن العيد مات يوم مات جدتي، ما كنت أعرف أن البيوت تنهدم بموت الأم! تربيينا وتعلمنا أن البيت ينهدم بموت عميده، وأن اليتيم فقط هو من مات أبوه، علمونا أن الأم تأتي في المرتبة الثانية في حياة البيت والأسرة، لكن بيت جدي تبعثر يوم مات جدتي، وبيت جارتنا «كارمن» - هنا في مدريد - أغلق وانتهى وجود تلك الأسرة يوم مات «كارمن»، فهمت مع الوقت أن الكثير من البيوت تموت بموت الأم.. إلا أن يُندارك الأمر فتزرع «امرأة» فيها تقوم بدور الأم وتعيد إليها الحياة، أو أن يقوم الأب بدور استثنائي يسد فيه تلك الهوة.

للأب مكانته في الأسرة والبيت، وللأم مكانتها، ولا يوجد شيء يعوّض فقد «بعض» الآباء، ولا يوجد أي شيء يعوّض فقدان «معظم» الأمهات، في حياة الأبناء وقيام البيوت واستمرار الأسرة.

نتقافز نحو غرفة الجد، هناك.. كان يجلس مُتربّعاً، بكلّ الوقار والبهاء والجمال، مُلتقاً بعباءة الشيخ «بدر الدين الحسني» شيخه وحببيه، ورثها عنه كما ورثت تلك السترة الصوفية الخضراء عن جدتي، لا يذكر اسمه إلا ويكي، مُمسكاً بالسُّبحة التي ما كانت تفارق يده لحظة من ليل أو نهار، وتلك العمامة المنزلية تزيده وقاراً وبهاءً وجمالاً، وتعلمنا بأن جدنا هذا، هو الشيخ

الجليل الطيب العالم المُحدِّث الفقيه، ولم نكن نفقه من هذه الألفاظ شيئاً، عيناه تغروران بالدموع ما إن يرانا ونُسَلِّم عليه.

«السلام عليكم ياجدو»..

هذه هي التَّحيَّة الرسمية المتعارَف عليها في بيت جدِّي الشَّيْخ، كان غريباً جدًّا هنالك أن يُحيِّي المرء بأيَّ تحيَّة إلا هذه، «السلام عليكم»، التَّحيَّة نفسها شبه «الممنوعة» في كلِّ أرجاء دمشق، لم تكن ممنوعة بِسلطة النِّظام الحاكم، ولكن بِسلطة المُجتمع المُنسلخ عن هُويَّته!

لا أحد يُحيِّي بهذه التَّحيَّة، إلا كبار السِّن من الرجال، أو المُلتزمين جدًّا من الشباب، كانت تحيَّة فُلكلوريَّة! تهريجيَّة! تُستخدم في الأسواق الشَّعبية، والمُسلسلات التلفزيونية التاريخية أو الساخرة!

تحيَّة محظورة على النِّساء خاصة، فلو أن امرأة تلفَّظت بها في تلُكُم الأيام بين أقرانها لصارت أضحوكة بين النَّاس، ومدعاة لسُخرية الجميع، هذه التَّحيَّة المشايخيَّة المضحكة كانت «مُحرَّمة» علينا خارج بيت جدِّي!

كلمة «السَّلام» هذه سحرتني، تفكرتُ فيها كأنني لم أسمع بها من قبل، وتعبجتُ من نُفور النَّاس منها.

أحببتها.. وكأنني اكتشفت قارَّة من فُلٍّ، فرحتُ بها وعددتها أفضل تحيَّة وأسلمها وأرقاها وأرقَّها، لم تُصاحبها في ثقافتنا أغاني فيروز، ولا أنغام موزارت، ولا جعلوا معها زقزقات العصافير.. ليتخيل كلُّ من يتلفظ بها أن عبَق الياسمين يفوح من حروفها، وأن رائحة القهوة تُلْفُّها بظلالها، كان وقعها على النَّاس ثقيلاً، وكان جَرَسُها في آذانهم غليظاً.. كأن من يُسَلِّم عليهم بها يقول لهم: «الحربُ عليكم» و«الدَّمار»، وليس «السلام»!!

أصابتنني لوثة الإصرار على المُخالفة، وتحدّي سلطة المُجتمع المارق، فالتزمتُ «السلام عليكم» هذه مع كل من هبّ ودبّ، وأصبحتُ أُصرّ على إستعمالها إغاضةً لمن حولي، ممّن يُصيبهم مُجرّد التلفُّظ بها، حالة من الهستيريا غير المفهومة!

كان أحد أقرباء أمّي وهو يسمّعني أرددها، عندما أكون في زيارة بيت جدّي والدّها، يقول مُتأفِّفاً: وما مُشكِلة «المرحبا».. و«الصباح الخير»؟!

قلت له: لا مُشكِل، لكنني أحبُّ هذه التّحية، تُشعّرنني بانتمائي وهويتي، وهل هنالك أجمل من «السلام»، خصوصاً إن كان يأتينا بالحسنات.

فأجاب مغتاضاً: يا بنتي اذهبي إلى بيت جدّك الشّيخ وعيشي عنده، واركبنا من قُرف المشايخ!

ذات يوم وأنا أنتظر في موقف الباص، جاءت سيارة من تلك التي كانت تُدعى في دمشق السبعينيات بـ «السرفيس» وهي سيارة أجرة عامة، تحمل من الرُّكاب ما تتسع له، فإذا في السيارة مديرة المدرسة التي تُدرّس فيها أمّي، وإثنتان من زميلاتها المعلمات، وَلَجْتُ السيارة، وألقيت عليهن تحيتي الجديدة، «السلام عليكم»، إنفتحت مديرة المدرسة إلّاي، وصاحت:

لُك يا «مفعوصة».. السلام إيش؟

السلام عليكم!

الله ياخذك.. شو عاملة حالك جدّك الشّيخ؟ قال «السلام عليكم» قال!

تبسمتُ ضاحكة من قولها، بينما أخذت المعلمتان تتندرا بـ «السلام عليكم» خاصتي، فقال سائق التاكسي مشاركاً في ذلك الطّيّشان:

لعلَّ الشَّيْخَ الذي تقصدونه هو الشَّيْخُ صاحب الحرائق؟

قالت المديرية: هو بعينه!

قال الرَّجُل: وهذه حفيدته وغير محبَّبة.. الله الله على مشايخ هذه الأيام!

ألمتني جدًّا تلك الملاحظة، ولم يمض طويل وقت حتى لبستُ الحجاب، والتحقْتُ رسميًا بِجَدِّي لدى النَّاس، يشيرون إلي بِاستغراب واستهجان.. هذه بنت الشَّيْخ صاحب الحرائق! وأصبحتُ «بنت جدِّ» حقيقية⁽¹⁾ - كما يقولون! -

كان جَدِّي الشَّيْخُ مشهورًا في دمشق بهذا الفعل، يلتَقِطُ كلَّ ما يجده من أوراقٍ مكتوبة مَرْمِيَّة في الأرض، يجمعها ويقوم لاحقًا بحرقها، حرصًا على ألاَّ يدوس النَّاس الأحرف والكلمات، كانت اللُّغة عنده أداة مُنزَّهة مُقدَّسة.. وكان يقول: لغة القرآن لا ينبغي أن تُرمى في الأرض مع القمامة.

لم تكن «إعادة الإنتاج وتدوير المواد» معروفة في تلك الأيام، فكان يحرق تلك الأوراق، وكان النَّاس لا يفقهون طبيعة ما يقوم به، ولا يفهمون ماذا يقصد عندما يقول: إنه لا يجوز أن تُداس الكلمات والأحرف بالأقدام.

بعد عشرين عامًا على تلك الأيام، قالت لي «كونسويلو»⁽²⁾ جارتِي الإسبانية المسلمة، عندما عادت من زيارة دمشق مع زوجها السُّوري وطفلتها: يا أمَّ ساجِدة، وأرجو ألاَّ تنزعجي مما سأقول، النَّاس يرمون كلَّ شيء في الشوارع، دمشق تبدو مَرَبَلَّةً كبيرة.. لا تُشبه في شيء دمشق التي تُحدثيني عنها! لا يحترم

(1) عبارة يستعملها الشاميون للتندر، «ابن جدِّ»، و«بنت جدِّ»، بمعنى «صاحب/ صاحبة كرامات» بِانتمائه الى جدِّ من «أولياء الله».

(2) Consuelo - اسم إسباني فرد علم مؤنث، ومعناه بالعربية «سلوى».

النَّاسَ مَدِينَتَهُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ؟ يَرْمُونَ أَوْسَاخَهُمْ فِي الطَّرِيقَاتِ،
بينما التلفزيون السوري يُلْعَلَعُ بإعادة التدوير والحرص العالمي
على البيئة! لماذا لا يحرصون على نظافة شوارعهم، وهم شعب
معروف بنظافة وترتيب دُوره بشكل يجعلها قِطْعًا مِنْ جَنَانِ
الْأُنْسِ؟!

تناقُصُ كبير، بين ما يجري داخل البيوت وخارجها، تناقُصُ
رَنَانٍ، يكاد يبلغ درجة «النِّفاق» في مجال الحرص على النظافة،
في مجال الآداب العامة، في مجال الأخلاق الشخصية، وفي
مجال السياسة، حيث يَسْبُ الجميع في بيوتهم الرئيس والحكومة
والقيادة القُطْرِيَّة والقومية وحزب البعث، في حين أنهم يَبْدُونَ
خارج البيوت مُسَالِّمين مُنضَبطين بما يريده الحاكم! وما تنفكُ
الأمّهات والجَدَّات والخالات والعَمَّات والزوجات والبنات
قائِمَات قاعدات بذلك الدَّعاء للأبناء والبنات: الله يحميكم من
الظُّلَام والحُكَّام وأولاد الحرام!

رَمَى القُمَامَة في الشوارع، واحدٌ من أبلغ تجليات خُتْقِ
السُّوري على كُلِّ شيء، ومن أهمّ علامات رفضه نظام الحُكم
وسيطرته على البلاد، ومن أبرز مظاهر التَّحدي.. تحديّ أوامره
وتعاليمه حتى لو كان فيها منفعة البلد والشَّعب نفسه.

عندما ظنَّ الجميع أنني أصبحتُ شيوعيَّة «مُتَحَرِّفة»، بسبب
كتاباتي في مجلات حائط المدرسة عن جيفارا والثَّورة في
كوبا، والثَّورة البلشفية، والقضيَّة الفِلَسْطِينِيَّة التي كانت يسارية
التَّوجُّهات في هاتيك الأيام، اجتاحتني مَوْجَة تَدْيُنٍ مُفاجئة غير
مُتَنَظَّرة، بعد مقتل أحد الشباب الشيوعيين من أقاربنا في حرب
لبنان وهو في ريعان الشباب، كنتُ مِنَ المعجبين بثوريَّته ونضاله،
لتميَّزه بصفات قياديَّة لافتة، جعلته قدوة ومَثَلًا يلتفُّ الجميع

حواله، لكنّه رَحَل، قُتِل، هكذا بكلّ بساطة وعُتُوّ كبرياء الموت.. مات.

انتهى، فقد.. ذهبْتُ مع أمي لحضور الجنازة، وكانت دِماؤه تُغطي الأرض، بقي الرّجال يُعَسِّلونه ساعتين، والدّم لا ينقطع، كان شيئاً مُريعاً، ثم اضطروا لتكفينه ودِماؤه تَشَخَّب، وبدؤوا بقراءة القرآن، فاندفع بعض أصحابه لمنع أهله من قراءة القرآن، قالوا لهم: لم يكن يؤمن بالله!

هنالك انفجرت أمّه بالعويل.. وهي تقول: بلى لقد كان يعرف الله، بلى قد كان يعرفه ويؤمن به.. عندما خرج إلى لبنان قبل أسبوع سألني أن أدعو الله أن يرزقه الشهادة.

الشهادة؟؟ مع أي الفرقاء كان يقاتل؟ ولماذا؟ حرب إيش هذه التي كانت تجري في لبنان؟! ولم يذهب هذا الشيوعي ليقاتل هناك وليستشهد؟ وفي سبيل ماذا استشهد؟!

أحدثت هذه الفاجعة بملاساتها زلزالاً وجودياً، قلب كثيراً من موازين الأشياء في عقلي وروحي.

كانت الشيوعية في الشّام، تعني الإلحاد أو الكفر، لم نكن نميّز بينهما، لكنني بعد هذه الحادثة، كنت على يقين، أنني لا أريد أن أكون كافرة ولا مُلحدّة ولا شيوعيّة.

يَضَعُنا الموت في مواجهة حقائق الحياة، يَضَعُنا الموت أمام تحدّيات وجودنا، يَضَعُنا الموت أمام مخاوفِ الفناء والتّلاشي.

أردت التّزام الدّين وقواعده، حتى أنني طلبت من إحدى رفيقات الصفّ، أن تأخذني معها إلى حلقة علم كانت تحضرها، يُسمونها «درس دين»، هنالك تعرفت إلى الأستاذة التي كانت البنات المحجبات في صفّنا يحضرن درّسها، أحببتها، بهرني ذلك الدرس الذي سدّ في نفسي جوعها للصّلة بالله، ورَمَمَ في قلبي حاجته إلى معرفته، منّحي ربّي في هذا الدّرب الذي أخذني

إليه، نورًا أرى به، وقوة أمضي بها قدمًا، ومُبررًا للكفاح والنضال والإستمرار والحياة.

خيتُ ظنَّ جدِّي أول الأمر، وابتعدتُ عن التدّين الذي أراد أن يُربينا عليه، وكان يلوم على ذلك أُمي المُتفرّسة - كما يدعوها - مات قبل أن يُدرك حجم تأثيره الهائل في أنفسنا وعقولنا الفتيّة، جنبًا إلى جنب مع فاعليّة تربية أُمي الصارمة جدًّا، في حفظنا من الأذى، وردّنا إلى الله ردًّا بالِغ الجمال والروعة، كلِّما اقتضت الحاجة.

أنا مدينة لأُمي وأبي أولاً، ولجدِّي ثانيًا بأُني عَرَفْتُ الله كما أعرفه.

ضحكتُ «فَلَك».. رفيقة مقعد الصف الثاني الثانوي، عندما رأتني بالحجاب أول مرة، وقالت: كنتُ كلِّما قرأتُ لكِ شعراً عن «جيفارا».. دعوتُ الله أن يجعل قَلَمك هذا منارة لنصرة هذه الأمة المرهقة.

التزمتُ مع تلك الجماعة بضعة أعوام، وأصبحت تلك السيدة المُدرّسة «شيختي».. لكنني وعلى الرّغم من ترحيبها الكبير بي، لم أكن عند حُسن توقّعاتها مِنّي كذلك! لم أتحجب في طُقوس احتفالية مهيبّة على يديها كما كان مُتتظراً أن أفعل، ولم أمضِ في حفظ القرآن وفق الخطة المحددة، لم أكن تلميذة مُطيعّة ولا مُجتهدة ولا مُتفوّقة.. كنت مُمتنّعة من الصّرف والإعراب!

أستمعُ إلى القول فأَتبع فقط ما أحسبُه أحسنه! أنتقد وأكتب! كنتُ تلميذة غريبة الأطوار!! لم تجدُ فيّ تلك الأستاذة ما أمثَلته من حفيذة واحد من أكابر فقهاء سوريا، ربما.. كنتُ على هذه «الشّاكِلَة»، لأن جدِّي كان واحداً من أكابر العلماء!

بعد أن التزمت بالحجاب، رفضت أمي أن تشتري لي جلباباً - معطفًا، كالذي تلبسه المحجبات الملتحقات بالجماعة الدينيّة التي أسستها الأستاذة «مُنيرة القيسي»⁽¹⁾، وكان ذلك في بدايته لباساً غريباً لم يعتده الناس في الشّام، فإنّ الملائة التّركية السوداء المخصوصة القبيحة الغريبة التي تُخفي وجه المرأة ووجودها، وإما اللباس على الطريقة الغربيّة مع «إشارب»⁽²⁾ يُعقّد على الرّأس والعُنُق على الطريقة الفرنسيّة، يُظهر كلّ شيء، ويُخفي الرّغبة في الإظهار.

بقيت تسعة أشهر بما فيها أشهر العطلة الصّيفيّة رائحةً غاديّة مع أمي بلباس «الفتوة»⁽³⁾ المدرسيّ، لا أرتدي غيره.. حتى

(1) الأستاذة منيرة قيسي (1933 دمشق - 2022): واحدة من أهم الدّعاة الإسلاميين في سوريا، ومن أكبر السيدات الداعيات فيها على الإطلاق، أسست جماعة القبيسات التي تنسب إلى لقبها، والتي انتشرت عن طريقها الدعوة بين شرائح واسعة جداً من فتيات المدن السورية الكبرى، انتهجت الجماعة الطريقة الصوفية النقشبندية في تربية التلميذات، واتبعت تراتبية المعلمات في الحلقات الخاصة والعامة، وتميزت تلميذات الجماعة بالالتزام الأعمى بأوامر المعلمات الموجهات الدنيات، والتفوق في الدراسة والتحصيل العلمي، يؤخذ على الجماعة نهج الطاعة العمياء بين الطالبات، كما تدخل المعلمات في حياتهن الشخصية والأسرية إلى درجة كبيرة، كما يؤخذ على الجماعة نهج مهادنة نظام الأسد. وإن كان من المفهوم سياسة الجماعة في البعد عن الخوض في الأمور السياسيّة والثورية حفظاً لطالبات الجماعة من الاعتقال والتعذيب في سجون النظام. توفيت الأستاذة قيسي بعد أن تركت إرثاً بشرياً دينياً هائلاً في صفوف النساء في دمشق على وجه التخصيص، ومختلف المدن السورية.

(2) الاسم الفرنسي المتعارف عليه للمنديل الملون الذي تستعمله السيدات لتغطية بعض الرّأس أو العنق.

(3) الزي العسكري المدرسي الذي كان مفروضاً على طلبة المدارس الثانوية في سوريا.

اضطَّرتْ أُمِّي أَنْ تَرْضَخَ لِعِنَادِي وَتَشْتَرِي لِي «مِعْطَفًا مَشَايخِيًّا» -
كما تدعوه.

بقدر سعادتي بجلبابي القصير ذي اللون البنفسجي الغامق
ذاك، كان حزني حين رأيت عيني أُمِّي يَنْطَفِئُ فِيهِمَا بَرِيقُ الأَمَلِ
وَتَرَعْرُعُ الخيبة.

انفصامٌ هائلٌ مُتَعَدِّدُ الإِتِّجَاهَاتِ، كان يعاينه المُجْتَمَعُ
الدَّمَشَقِيُّ فِي تِلْكَ الأَيَّامِ، مَجْتَمَعٌ مُسْلِمٌ مُنْغَلِقٌ عَلَى قِيَمِهِ العَرَبِيَّةِ،
وعاداته التُّرْكِيَّةِ، وَأَخْلَاقِهِ الكُرْدِيَّةِ، وَتَقَالِيدِهِ الفَرَنْسِيَّةِ، مَجْتَمَعٌ يَتَنَكَّرُ
لأَبْعَادِهِ البَدَوِيَّةِ والقُرُوبِيَّةِ، يَلْفِظُ لَهْجَاتِهَا، يَرْفُضُ لِبَاسَهَا الوَطَنِي
التَّرَاثِي، وَيَلْتَحِقُ بِتَقَعْرِهِ اللُّغَوِيِّ وَبَازِيَائِهِ وَلِبَاسِهِ، بِالمُسْتَعْمِرِ
الأوروبي الذي غادره عسكريًّا قبل عشرين عامًا، تَدَفَّقَ فِي شَرَايِينِهِ
التيَّارَاتُ الشَّيْوَعِيَّةُ والعِلْمَانِيَّةُ والبُعْثِيَّةُ.. يَرْتَكِسُ فِي تَخْبُطِهِ،
مُسْتَقْطَبًا مَا بَيْنَ انْتِمَائِهِ إِلَى المَشَايِخِ مِنْ قُرَاءِ وَفُقَهَاءِ، مِنْ الَّذِينَ
بَدَأُوا يَسْتَحْوِذُونَ عَلَى مَفَاصِلِهِ، يَرِيدُونَ اسْتِنْقَازَهَا مِنْ مُحَاوَلَاتِ
النِّظَامِ تَقْطِيعِهَا، وَبَيْنَ هَذِهِ المَوْجَةِ الطَّاعِيَّةِ مِنَ التَّغْرِيبِ وَالتَّشْرِيقِ،
وَتَذْوِيبِ كُلِّ هُيُوَيَاتِ المُكَوِّنَاتِ البَشَرِيَّةِ السُّورِيَّةِ، وَوَضْعِهَا فِي
خَلَاطِ البَعْثِ!

ما بَيْنَ السُّتِينِيَّاتِ والسَّبْعِينِيَّاتِ.. كَانَتِ الشَّامُ تَتَخَبَطُ فِي
أَوْحَالِ خَلْطِهَا الثَّقَافِيَّةِ الأَنْثَرُولُوجِيَّةِ، تَعِيشُ دُونَ هُيُوءٍ تَجْمَعُ وَلَا
تَسْتَنِي!

لَا يَكَادُ هَذَا المُجْتَمَعُ يَجِدُ الوَقْتَ الكَافِي لِلتَّقَاطِ أَنْفَاسِهِ
والتَّفَكِيرِ فِي وَضْعِهِ، فِي هَاتِيكَ السَّنَوَاتِ العَجَافِ الَّتِي كَانَ
السرطان فيها قد بدأ يَتَمَدَّدُ فِي أَحْشَائِهِ.. وَهُوَ لَا يَدْرِي.

أُمِّي تَشْعُرُ بِالإِهَانَةِ، أَنْ التَّحَقُّقُ بِجَمَاعَاتِ «الْمَهَابِيلِ»
- كَمَا تُسَمِّيهَا - وَدُونَ إِذْنِهَا وَرِضَاهَا، كَانَ ذَلِكَ «خُرُوجًا» عَنْ
سَيِّطَرَتِهَا التَّامَّةِ عَلَى حَيَاتِنَا، كَانَتْ تَشْعُرُ بِالخَوْفِ عَلَيْنَا، وَبِتَهْدِيدِ

سُلِّطَها الأمومية، وعَبَّرت عن ذلك بِقولها: وبعد كُلِّ الذي بذلته
في تربيَتكم وتنشِئَتكم بشراً أسوياء، لَحِقَت بِجَدِّك، وأصبحت
«شِخْةً» مثله!

موجعة تلك العبارة، ما زالت تتردَّد في مَسامِعي، وأنا أمضي
في طريق الحياة، أسمع صوت أمِّي تُردِّدها وهي تختنق بدمعة
عنيدة.

ما الذي كانت تريده أمِّي لي؟ إذا كانت هي نفسها ضائعة
ضمن مجتمع ضائع، لا يعرف ولا يعترف بهويته؟ لو لم أَلْتَحِقْ
بتلك الجماعة التي تربي البنات وتوجِّههن نحو الخير والفضيلة،
بأخطائها وزلاتها وتجاوزاتها.. لَكُنْتُ أَلْتَحِقْتُ بالحزب الشيوعي،
أو بمنظمة التحرير الفِلَسْطِينِيَّة - على هامش حرب لبنان، حيث
كانت تواييت الشباب الذين قضوا نَحْبَهُم في القتال هناك، تتوافد
على البلد، يحملها رفاقهم الثوريون اليساريون يطوفون بها
الجامعة والحارة.. يرقصون بها ويدبكون ويهتفون للقصيدة.

قلتُ ذلك مرة لأمِّي.. نظرتُ إلي طويلاً، ثم أشاحت بوجهها
عني، وسكتت، ولم تُعد مرةً أخرى لِإبتزازي عاطفياً بحكاية
«أَلْتَحَقْتُ بِجَدِّك»!

كان اِلْتِحاقِي بِنَهْجِ جَدِّي شرفاً وطوق نِجاة، ولم يكن أهل
دمشق يُحبون المشايخ رمز هُويَتهم الضائعة.. كانوا لا يَفْقَهُون
أي مَعْنى حقيقيٍّ للشرف، وكانوا غَرَقى يَسْتَكْبِرُونَ عن مَدِّ أيديهم
لِلتَّعَلُّقِ بطوق نِجاة!

تلك كانت دمشق في هاتيك الأيام، سفينة تَغْرَق بما فيها
ومن فيها، يحيط بها الطَّوفان من كُلِّ حَـدٍ وَصوب، على هامش
الخونة الذين غَزَوْها في صمت، وكانوا يُعْمِلُونَ أزاميلهم في قاعِها
لِيَضْمَنُوا غَرَقَها لا مَحالة!

قَلَّةٌ قليلةٌ من أهلها كانت تعرف ذلك، وتبذل الجهود
المستميتة لِرَقْعِ الثَّغراتِ.



نِيَمُّ شَطْرَ غُرْفَةِ جَدِّي الشَّيْخِ، نَكَبْتُ عَلَى يَدِهِ وَكَتَفِهِ فَنَقَبْتُهُمَا،
يُضْمِنُنَا وَيَشْمِنُنَا وَيَمْنَحُنَا الدَّفءَ وَالْحُبَّ وَالْحَنَانَ وَالطَّمَأْنِينَةَ،
ويعطينا العيدياتِ النَّقْدِيَّةَ، نَأْخُذُهَا وَنَهْرُولُ خَارِجَ الدَّارِ، نَرْكَبُ
الأراجيحَ التي نُصِبتْ قَرِيبًا مِنْ بَيْتِ الشَّيْخِ هُنَاكَ فِي الْجَادَّةِ
الخامسةِ فِي حَيِّ «المهاجرين» الدَّمَشْقِيِّ، نَأْكُلُ الْفُولَ النَّابِتَ،
نشرب مرقه الحامض بالكمون، نشترى المفرقات، ويأتينا الوالد
بعد هُنيئةٍ مِنَ الزَّمَنِ مُكْفَهَرًا مُزِيدًا مُرْعَدًا، لِنَتَزِعَنَا مِنْ فَرَحَةٍ نَصْفِ
السَّاعَةِ الَّتِي تَمْتَعْنَا بِالْعِيدِ فِيهَا، وَتَقْبُضُ الْوَالِدَةُ عَلَى أَيْدِينَا مُقَطَّبَةً
عَابِسَةً هِيَ كَذَلِكَ، يُجَرِّجِرَانَا إِلَى مَوْقِفِ الْبَاصِ.

نفهم من الوضع، أَنَّ شَجَارًا نَشَبَ بَيْنَ جَدِّي الشَّيْخِ وَأُمِّي،
مَافِتْنًا يَتَشَاجَرَا مِنْذَ عَرَفَا بَعْضَهُمَا، لَا يَعْجِبُهُ لِبَاسُهَا، وَلَا الطَّرِيقَةُ
الَّتِي تُرَبِّينَا بِهَا، وَلَا بَدَنُهَا أَنَّ شَجَارًا آخَرَ قَدْ حَدَثَ بَيْنَ جَدَّتِي
وَأَبِي، بِسَبَبِ لَوْمِهَا الدَّائِمِ لَهُ عَلَى سُلُوكِ زَوْجَتِهِ مَعَهَا!

لِمَاذَا لَا نَقْبَلُ النَّاسَ كَمَا هُمْ؟ لِمَاذَا لَا تُحِبُّ الْحِمَاةُ كُنَّتْهَا
الَّتِي خَطَبَتْهَا هِيَ بِنَفْسِهَا وَنَصَحَتْ بِهَا ابْنَهَا؟ لِمَاذَا تَغْلِبُ خَبِيَّةُ أُمِّهَا
بِكُنَّتِهَا قُدْرَتِهَا عَلَى إِدَارَةِ الْوَضْعِ الْجَدِيدِ؟ لِمَاذَا نَتَصَرَّفُ وَنَتَفَوَّهُ
بِأَشْيَاءَ تَزْرَعُ الْكَرَاهِيَّةَ فِي نَفُوسِ أَقْرَبِ النَّاسِ إِلَيْنَا؟ لِمَاذَا لَا تَفْهَمُ
الْكُنَائِنُ أَنَّ أَهْلَ زَوْجِهَا هُمْ أَهْلُهَا، وَعَائِلَتُهَا، وَأَنَّهَا لَا يَنْبَغِي أَنْ
تَكُونَ غَرِيبَةً عَنْهُمْ وَمَعَهُمْ؟! وَأَنَّ هَذَا الرَّجُلَ لَيْسَ مُلْكًا لَهَا وَحْدَهَا،
فَهُوَ ابْنُ أُمِّهِ وَأَبِيهِ كَمَا هُوَ زَوْجُهَا؟!

الْكُلُّ يَلُومُ الْكُلَّ، الْكُلُّ يَتَدَخَّلُ فِي الْكُلِّ، الْكُلُّ يَتَسَبَّبُ فِي
جَعْلِ الْحَيَاةِ أَكْثَرَ صَعُوبَةً وَمَرَارَةً.. لَا تَشْعُرُ فِي دَمَشَقٍ بِطَعْمِ السَّلَامِ

الإجتماعي، ولا السعادة في وجوه الناس، ولا الدَّفء العائلي، ولا التعاطف بين الأقرباء.. أصبحت المُشاجرات بين أفراد الأسرة الواحدة دَيَدَنَ معظم الناس.

في بيت جيراننا لا ينامون كلَّ ليلة، إلا بعد حفل حافل من الصراخ والخصومات التي يصل صداها آخر الحارة، لا أكاد أعرف واحدة من صديقاتي في المدرسة، إلا وهي تُعاني بسبب طلاق والدتها، أو زواج أبيها بامرأة أخرى، أو مُشادات عنيفة بين أمها وأبيها، أو خصومات فظيعة بين الحماة والكنة، أو بين الأخ وأخيه.. إلا من رحم ربي وهم قلة مُتنزهة.

مجتمعنا الدَّمشقيّ ذاك، وعلى الرّغم من الحِفاظ على تقاليد المودة الأسريّة الإِجباريّة، والقيام بالواجبات تجاهها، كان في حقيقة الأمر مجتمعًا مَنْخورًا بالكراهيّة، بين الأهل وأفراد العائلة الواحدة.. الكلّ يدّعي فيه الاستثنائيّة، والكلّ يختنق فيه تحت وَطْأة تَفْسُخِ إجتماعي رنان! فَقَدَ الناسُ أُسُسَ التّواصل السّليم فيما بينهم، فلا يَعْرِفونَ أَطْرَ واجباتهم، ولا حدود حقوق الآخرين.

نحشر في الباص مع عشرات الرّكاب، ونذهب مباشرة إلى زيارة بيت جدّي الآخر والد أمّي، وهناك لا يُحاسِبنا أحد على قِصر ثوب ولا على ضيق سِروال، ولا يُطلب إلينا الإلتزام بالسّلام والتّحية باللغة العربيّة الفصيحة، هناك خالي الذي كان على عكس ما تعارف عليه أهل الشّام، يُوزع الهدايا على أولاد وبنات إخوته وأخواته وليس العيديات العينية، مِنْضَدة طويلة كان ينصبها في صالّة البيت، صَفَّ عليها الألعاب والهدايا التي تجعلنا نتقافز فرحًا بالعيد وبخالنا.

شابٌّ طويل جميل، في وجهه نَضْرَة سلامٍ عجيب، أنيق نظيف، هادئ، لا نكاد نعرف صوته لكثرة ما يطيل الصمت والإستماع للآخرين، لا تُفارق البَسْمة مُحياء، لا يخوض في أيّ

مَخَاصِة لا علاقة له بها، إنَّه ذلك الفرد من العائلة الذي يتمنى كل من في العائلة أن يكون هو، وأن يقوم بما يقوم به..

هذا تماماً، ما حاولت عمَله في غرناطة، توفير احتفال بالعيد لأطفال الجالية الذين كانوا يُعَدُّون على الأصابع — أحاكي به ما كان يفعله خالي في دمشق... إتفقنا أنا و«ماري أنخلس» على أن نجعل عيد أطفالنا في يوم الفطر مختلفاً، عيداً حقيقياً، يفرح فيه الأولاد ويلعبون، ويشعرون أن هذا العيد هو يَوْمُهُم، يكفيهم الفرح به وفيه مؤونة الضغط النفسي الذي يعانونه في أعياد الآخرين.

وجهُ العيدِ هذا، من أهم أوجه هُويَّتينا الجماعية، نكتشفها يوماً فيوماً في غربتنا، ونتشبث بها، تَضَمَّنَّا وتَلَمَّ شتاتنا على اختلاف مشاربنا وإنتماءاتنا والمناطق والقرى والمدن والأقطار التي أتينا منها.

طريقة طبخ الملوخية المشرقية أو الطاجين المغاربي، تُحدد هُويَّتكَ الجغرافية بالضبط، وتُقَدِّم تشكيلة البهارات التي تستعملها في صنْع كعك العيد، بصمة واضحة عن إنتمائك الوطني.

العيدية ثم تقبيل الأيادي، كانت طابع ثقافة واحدة لا تُخطئها الأعين، بحسناتها الجميلة، وباهترائها البادي للعيان.

نحن قوم قد أتينا من منطقة واحدة، تُرتل تنزيلاً واحداً، يُطربها نفس الموال، تَرْقُص فرحاً على نفس الأنغام، تشكو همماً واحداً، وتُحكى حكاية مرض واحد.

من يصل أولاً إلى منضدة الخال يختار الهدية التي يريد، نجلس هناك نَفَكُّكَ الألعاب ونُرْكِبُها ونلعب، وخالي يرقبنا سعيداً بنا وبفرحنا، في حين أن أبي في غرفة الضيوف ضيف غريب، فهو

زوج البنت، بعيد، مُقصى، لا يُعامل هو ولا أولاده مُعاملة الأبناء
وأولادهم!

قناعات مؤلمة مُختلقة، يُرَدِّدها النَّاسُ هنا وهناك لِتَرْسَخَ في
ضمائر الأجيال، لَطالما كَذَّبها الحُبُّ والحنان والعطف الذي كان
بيت جدِّي هذا يُغرِقنا فيهما، كانت الجدَّة تقول: «الصَّهر غريب»..
بينما تَضُمُّه وينحني هو مُقَبِّلاً يدها كما فعل مع أمِّه قبل ساعة.

سمعتُ جارتنا تسأل أمي مرَّة في رِيبة: هل يَجِبُ عَلَيَّ
الوضوء، لقد قَبَّلَ صِهري يَدَي! ماذا أفعل؟!!

إِشاعاتٌ، وقناعاتٌ، وَجَهالاتٌ، كان يعيش في دياجيرها
مجتمعٌ دِمَشقيٌّ مَرِيضٌ، لم يُفْلِتْ من العَدوى ببعض أمراضه، إلا
القِلَّةُ من بيوتات العِلْمِ والدين والمُروءات العالِية، كنت أسمع
الكثير مما يشبه حماقة جارتنا هذه المُغرقة في جهلٍ مُريع، في
بيت جدِّي الشَّامي الكريم المَرَح الجميل، الذي يفخر بأصوله
التركية، وبِمُصَاهَرَتِهِ العالِمِ الطيب الجليل «أبو الحراتق»، بيتٌ
تَرنُّ الضحكات في جَناباته، ويعيش أهلُه في مَرَحٍ ومُودةٍ وأُلْفَةٍ،
بيتٌ يُصَلِّي أهلُه ويَصُومون، لكنهم لا يحبون «الهِبَل» و«المشيخة»
- كما يقولون -، يتفاخرون بمصَاهَرَةِ الشَّيْخِ العَلَّامة، لكنهم
يكرهون تَدَيُّني وأنا حفيدته، وَيَتَنَدَّرُونَ على حجابي وسلوكي في
محبةٍ لا تُفْسِدُ المودة، بيتٌ لا أذكرُه إلا وصُورَتُهُ في ذهني يَلْفُها
الظلام، لا تَصِلُ الشمسُ عُرفُهُ، ولا صالته الداخليَّة، التي كانت
مُعْتِمَةً إلى درجة تخيفني كثيرًا، حتى أنني كنت أحلم بها في
كوابيس ثَقِيلَةٍ تَدْهمني بين الحين والحين وأنا في مدرِّيد.

تقاليدٌ وعاداتٌ.. تنصَّبُ في آذان الطفولة، تعاليمٌ معطوَبَةٌ
تَكَرَّسَتْ في بيوتٍ يَثْقُلُ على أهلها قول «السلام عليكم»!
وتستغرب رافضةً حجاب فتاة في السابعة عشرة من عُمرها!
طريقة غريبة لفهم الحياة والدين، الذي تَلَخَّصَ لدى النَّاسِ في

جملة أباطيل كانت الألسن تُردها ليل نهار، لم يستطع الزمن أن يُخلفها على قارعة طريق آلام هذا الشعب المسكين، حكمت حياته هذه المُسلّمات المُقرّزة مُتّي عام يَجترُّها من دون أن يحاول تغيير شيء فيها، ولا حتى مجرد الوقوف عن تراددها، كلمات، عبارات، وقوانين إجتماعية قاسية قبيحة، تشده نحو التخلف والتفسخ والإنهيار، تشدّه من شعره نحو الخلف، بقوة، كما كان يشدُّني أخي من شعري المجموع على شكل ذيل الحصان.

كانت البلاد تغلي بعفنها بانتظار الزلزال.

حين سألتُ جدّي الشّيخ الفقيه: هل تقبلُ الصّهر يد حماته يُفسدُ وُضوءها يا جدّو؟ ظلّ يضحك ساعة حتى نفرت الدّموع من عينيه!



وكما هي الحال في دمشق، عندما يحل زمن العيد و«يسكن» النَّاس سوق الحميدية والبزورية، هنا كذلك في مدريد، وقبل شهر ونصف من موعد رأس السنة ويوم الميلاد، ترتدي مدريد حُلّة من الزينات والصّراعات، تتجدد عامًّا إثر عام، تدبّ فيها حركة غير عادية، تنقلب مُجمّعاتها التجاريّة الضخمة إلى مراكز للبهجة والصّخب، وتنطلق ترنيمات العيد من جنباتها، وتُنصب تماثيل الرّموز الدينيّة، والألعاب المُتحركة التي تأخذ بالباب الصغار والكبار، ويُقام في كلّ بيت وسوق ومشفى ومؤسسة ومكان في المدينة، مُجسّم مُناه في الصّغر أو بالغ الضخامة لـ «بيت لحم»⁽¹⁾،

(1) «بيلين»: - مع تخفيف اليائنين - بالإسبانية مُشتق من أصل التسمية باللغة العربية: «بيت لحم»، وهكذا يسمى المجسم الخاص بأعياد الميلاد في إسبانيا.

على الشاكلة التي تصوّر القوم أنّها كانت عليها ليلة ولادة نبي الله عيسى .

يحترم الإسبان لغتهم جدًّا، وقد بلغ من تعصّبهم لها، أنهم لا يُطلقون على أعياد الميلاد، إلا الاسم الإسباني المنحوت منها بدقّة: «النايديد». وعلى الرّغم من أنّ المفردات المشتقّة من اللّغة العربيّة تبلغ 11٪ من أصل كلمات اللّغة الإسبانيّة، فإنه لا يعرف هذه المعلومة منهم إلا المختصون، بل لقد كان من الصعوبة بمكان أن تجد فيهم من يتكلّم الإنكليزية أو الفرنسية في هاتيك الأيام.

الهبة الاقتصادية الضخمة التي شهدتها إسبانيا ما بين الثمانينيات والتسعينيات، جعلت الناس يُبالغون في بهارج احتفالاتهم بالأعياد في تلك السنوات السّمان، فلا يكاد يخلو بيتٌ من مُجسّم «بيت لحم»، ولا من الزينة والأنوار الكهربائيّة والشّموع والحلوى والملابس الجديدة، ويُتوّج ذلك كلّه بإجتماع أفراد الأسرة ليلة الميلاد على مائدة العشاء، الوالدين والأجداد والأبناء وأزواجهم وأبنائهم، وبعض الجيران، وبعض المعارف ممن ليس لديهم أسرة.. حتى إنّ الواحد منهم يسافر المسافات الشاسعة ليكون مع أهله ليلة الخامس والعشرين من كانون الأوّل/ديسمبر، حيث يتبادلون الهدايا والتّهاني، ثم يعود كلّ من حيث أتى.

عامّة العلاقات الأسرية في إسبانيا الثمانينيات والتسعينيات، أكثر صحّة وسلامة مما هي عليه عندنا، حيث يختنق المُجتمع بزخّم العواطف الفارغة من المحتوى الأخلاقي، وزحمة العادات التي لم تتم غربلتها منذ عقود طويلة، كما أن العلاقات الأسريّة بين الإسبان، أجمل وأرقى من الأوضاع الأسرية التي نراها عند شعوب أوروبية أخرى تشكو تفكّك أواصر الأرحام فيها وجفاف

ينابيع المودة والرحمة، في عمرة التقدّم والازدهار والبرّد الذي أصاب مفاصل تلك المُجتمعات.. يقدم المُجتمع الإسباني حلاً وسطاً ما بين طرفي النقيض الشرق أوسطيّ والغربيّ.

المودة والمحبة بين الأبناء والآباء لا تُترجم إلى استعباد ورقّ، كما لا تختفي من حياة الأسرة بفعل البُعد والزواج وملابسات الحياة.. لا بُعد يُجفّف العواطف، ولا التّصاق يجعلها رخيصة مُبتذلة، وكلّ يعرف قواعد السلوك الاجتماعي والأسري الصحيحة.

لا أحد يتجرأ على التّعدي على حقوق الآخر الأسريّة، لكلّ مكانته واحترامه وحقوقه وواجباته.. حدوده.

كان الانضباط الاجتماعيّ والأسريّ في إسبانيا أواخر القرن العشرين، مدعاة للفخر والاعتزاز، فبينما تعمّ الفوضى الاجتماعيّة بلداننا، مُتجليّة في ضياع حدود الحقوق والواجبات بين النّاس، تجد في إسبانيا استقراراً اجتماعيّاً، وانضباطاً سلوكيّاً ثابتاً في حياة الأسرة والمُجتمع، وُضعوا أسساً أخلاقيّة للتّعامل فيما بينهم، من تجاوزها نبذهُ المُجتمع وعدّه خارجاً عن السّياق.

فإذا انقَضَت ليلة الميلاد ويومها، أصبح النّاس مُنصرفين إلى شُؤونهم وأعمالهم، وما تمضي أربعة أيام، حتى تَضجّ المدينة من جديد باحتفالات النّاس بالليلة التي يُسمونها «الليلة العجوز»، يُودّعون فيها العام المُنصرم، ويستقبلون العام الجديد في صخب ومجون لا يشبهان احتفالاتهم بليلة الميلاد، التي تُعدّ عندهم طقساً دينيّاً ألبسوه حلّة أُسريّة مهيبّة، يجتمع فيها النّاس في البيوت مع أفراد عائلاتهم على الأكل والشرب والترّانيم، أما ليلة رأس السنة الميلادية الجديدة، فهي ليلة احتفالات اجتماعية عامة، لعب ولهو وخلاعة وفُجور ورقص وعربدة وفوضى وانتحار، تودي

بحياة المئات كل عام وتُخلف وراءها مشاهد مُفرّعة في مركز
ووسط المُدن وأحيائها.

الفوضى التي نعانيتها في بلادنا على المستوى الاجتماعيّ،
والتي يضبطها الدين في كثير من الأحيان، توازيها هنا فوضى في
السُّلوك الفرديّ يضبطه القانون والدولة كلّما استطاعا.

تفعل الخمر فعلها في رؤوس الشباب، وتقلب عيد بعضهم
مأتمًا، تكسير واجهات المحال التجارية وتحطيم المرافق العامة،
صار عادة ثابتة لدى السُّكّاريّ كل عام، يُخلفون وراءهم أطنانًا من
أكوام القمامة، وكان ذلك قد أصبح شرطًا لازمًا لتوديع العام الذي
مضى!

يحتفل الناس بمُضيّ العام ورحيله من حياتهم، وهو شيء
لا يمكنني فهمه ولا استيعابه! أمضيتُ زمنًا أحاول فهم فلسفة هذا
الإحتفال المجنون كل عام، فوجدتُ الناس يُودِّعون عامًا يظنون
أنه لن يعود إليهم أبدًا، قد ذهب بخيره وشرّه، وما ارتكبه فيه من
حماقات وأخطاء، فكأنهم إن ودَّعوه ودَّعوا معه صَعَفَهُم الإنسانيّ،
وذلك الشعور بالنقص الذي يشدهم إلى الأرض، وهكذا يبدؤون
عامًا جديدًا وهم على قيد حياة، هي كلّ رصيدهم، وكلّ ما
يملكون.. مُرددين الأغنية الشعبيّة المحببة إلى نفوسهم: «إننا لن
نحيا إلا مرة واحدة».

هذا الضّجيج المدنيّ على هامش الحضارة، يُحزنني ويصدم
تركيبة دِماغِي الدمشقية، فنحن قوم نعيش ونحيا على أمل حياة
أخرى، وأنا إن متنا لن نَفنى، وإنما سَنُبْعث لِنُسأل بعد حياتنا هذه
عن كلّ شيء عشناه فيها.. على الرّغم من إهمالنا شبه التّام لما
يترتب عن هذا «الإيمان» من ضريبة أخلاقيّة وربانيّة وإنسانيّة.

معادلات مختلفة تمامًا تحكّم طريقة تفكيرنا المُعاصرة
نحن «أهل الموت».. نعيش ونتصرف من خلالها بقناعات مُغايرة

لقناعات الأوربيين المُعاصرة، مما يُثير الأشجان والأحزان..
 مدريد تفهم الأمور والحياة بشكل يختلف عن فهمي لها، تُقيم
 أعيادها ومناسباتها الدينية الكثيرة، على أساس حركة الاقتصاد
 التّصاعديّة البّحتة، فإذا ما كُشف المرء طرف الغطاء البراق
 الأخاذ لمظاهر هذه الأعياد الدّينية الإقتصادية، وَجَدَ مجموعةً من
 الوحوش البشرية التي تسمى المُستثمّرين، تَسْتَغَلُّ أجملَ وأرقى
 ما لدى النّاس من مَشاعر دينيّة وإنسانيّة وتاريخيّة، لِاستنزاف آخر
 «بيسيتا»⁽¹⁾ من جيوب المواطنين المخدوعين بأجهزة الإعلام،
 تسيطر عليها وعلى كلّ ما فيها، شركات التّجارة الضخمة داخل
 البلاد وخارجها، وعن طريق الإعلانات التّجارية، تقوم بتوجيه هذا
 المُجتمع، المحكوم بشهوة الإستهلاك المحمومة، تَفْتِكُ بِإنسانيّته
 وبراءته، مَعاول النّمو الإقتصاديّ والتّمُدّد المدنيّ العُمُرانيّ
 الماديّ.



أيامُ «النّابيداد» في إسبانيا، أيام حنين وحزن وإكتئاب، أجهزة
 الإعلام ما تفتأ تتحدث عن هذا الإكتئاب الذي يتسبب في انتحار
 الناس، ولماذا يُخَلّف العيد آلاماً ويأساً في الأنفُس.. أتساءل عن
 هذا وأنا أسمع في المذيع، أن أكثر حالات الطلاق والانتحار
 تقع في أيام كهذه، ومعظم الرجال الذين يَقْتُلون زوجاتهم⁽²⁾ في
 مدريد، وفي كافة أرجاء إسبانيا، يقومون بجرائمهم في أيّام أعياد
 الميلاد.

(1) وحدة العملة الإسبانية قبل اليورو/الأورو.

(2) في إسبانيا تُعدّ جرائم قتل النساء وباءاً اجتماعياً منتشرًا، ولا يكاد يمر
 يوم، إلا ويعلن فيه عن جريمة قتل ضد النساء فيها، ولم تراجع نسبة هذه
 الجرائم إلا شيئًا يسيرًا فيما بعد التسعينيات، على الرغم من الحملات
 الكبيرة التي تشنها الدولة ومؤسسات المجتمع المدني لمحاربتها.

لا أستطيع إستيعاب حجم هذه الفاجعة الإنسانية، على هامش الأعياد وبهاجِها في مدريد، يَسْتَمِرُّ المُتحدِّث في المذِيع في حديثه المؤلم المُستَفَز، المشفوع بالأرقام والإحصائيات والتحليلات، وأستمر أنا في غسل الصحون وتحضير الفطور، وأتساءل هل هو شعور النَّاس بالخديعة؟ هل هي ضريبة إكتشاف الحقائق المخيفة والمخفية وراء الأقنعة؟ هل هو الشعور بالنفاق المدني؟ ما هذا الشيء الذي يحمل المرء على وضع حدِّ حياة زوجته، أو حياته؟ ما الذي يُصيب النَّاس بكلِّ هذا الحجم من البُؤس، ويجعلهم يختارون «العَدَم» على ما يُؤمنون بأنه وجودُهُم الوحيد؟

إنَّها مدريد أواخر القرن العشرين، المدينة الكبيرة المُفَنَّعة، تَظُنُّها فاتنة، فإذا ما تَوَغَّلَتْ في أحشائها وأحيائها، إكتشفت الكثير من البلاء والمعاناة الإنسانية.. مُخدِّرات، دَعارة، فقر، هجرة غير شرعية، بطالة، قُبْح، مَرَض، وتَشَرَّد.. في زمن الانفجار الإقتصاديّ الخُلْبِيّ⁽¹⁾ الفُقاعيّ، الذي يتدفق النَّاس فيه على المراكز التجارية الضخمة لشراء هدايا ومستلزمات العيد، حتى لو كَلَّفَهُمْ ذلك اللّجوء إلى الإِسْتِدانة من المصارف، بينما مئات الآلاف يَحْتَضِنُونَ زجاجات الخمر الرخيص، يحتسون شقاءهُم، وهم يراقبون بهجة العيد من خلال شاشات التلفزة، عاجزين عن المشاركة الفعلية، عاجزين عن الفرح، وعاجزين عن العيش كبقية مُواطنيهِم.

يفقِد النَّاس هنا كرامتهم، لحساب المصارف والشركات العملاقة، التي تُحوِّل البشر إلى قطع من الآلات المؤنَّسة، تلهث وراء ما تَعرِضه عليها أجهزة الإعلام من مواد إستهلاكية، تُهرول لإقتنائها، ثم تكُدُّ راضخة، لتسديد الديون المترتبة عليها بسببها،

(1) في مختار الصحاح: السحاب الخُلب الذي لا مطر فيه كأنه خادع، ويُقال لمن يَعِد ولا يُنجز.

هنا الكُلّ مدين لهذه المصارف، والكُلّ عبدٌ عندها! بالطريقة نفسها التي فقد النَّاسُ بها في بلادنا حُرِّيَّتَهُم، وأصبحوا عبيداً للمستبدين، يُعاملونهم كقطعان من الماشية، تُحلب وتُجبي خيراتها إلى جيوب الظالمين. هنا تَسْتَبِدُّ المصارف بالشعوب لمصلحة جهات مصرفية نقدية خفيّة، وعندنا يَسْتَبِدُّ المجرمون القتلّة بالشعوب لمصلحة جهات أجنبية معلومة.

الغريبيون مُستعمرون بطريقة تختلف في ظاهرها عن الطريقة التي نحن بها مُستعمرون، لكننا نتشارك جميعاً، الخضوع الموضع لقوى إستعمار عالميّة.

هم يَعْمَهُون في سَكْرَتِهِم ظَنًّا منهم أنهم أحرار، ونحن مُتَلَكِّسون في سَكْرَتِنَا لا نعلم أننا مُستعبدون.

أخذتُ الأولاد وذهبتُ إلى ساحة المحافظة القريبة من داري، ليشاهدوا عرضاً لمسرح عرائس مُتجول، اجتمع إليه أطفال الحيّ، اشتريت الصحيفة ومعهما مُلحق خاصٌّ عن «النايديد»، كانوا سعداء برؤية الدُمى الملونة تتحرك وترقص وتغني، والمُهرَّجون يُلقون قطع السُّكَّر الملونة إلى الأولاد، وآخرون إرتدوا الملابس المزركشة، يدورون بين الصغار موزعين عليهم البالونات والدّعائيات التي تدعوهم وآباءهم لزيارة «السيرك»، الذي يُنصَّب كلُّ نايديد قريباً من الباغودا حيث نَسْكُن، كما هي الحال في كلِّ حيٍّ من أحياء مدريد، وغيرها من المُدن الإسبانيّة في الأعياد.

المَلاهِي والتَّسَالِي والألعاب والرياضة، ومختلف أنواع النشاطات الثقافيّة، هنا في إسبانيا، ليست حِكراً على الحاكم وأبنائه، أو أبناء طبقة إقتصاديّة إجتماعيّة خاصّة، كما هي الحال في بلادنا.. تحاول الحكومة - الاشتراكية الديمقراطيّة، أن يتشارك

الجميع الفرح والعيد، وأن يَتَمَتَّعُوا بِحَقِّهِمْ في أن تُتاح لهم ولو أدنى فرصة مُمكنة.

كلّ الأطفال في إسبانيا الاشتراكية، بمن فيهم أبناء الغجر والمهاجرين، يمكنهم أن يَتَمَتَّعُوا بالدرجة نفسها والأشياء التي يُمكن لأبناء المَلِك أو رئيس الحكومة أن يَتَمَتَّعُوا بها، كما يمكنهم جميعاً — إن أرادوا هُم وآباؤهم — الوصول إلى المراتب كافة التي يحلمون بها، كان التلفزيون الإسباني يث حملة هائلة للتوعية في هذا السياق، ينشر ثقافة تكافؤ الفرص والدِّفاع عن الحقوق، التي وُجدت للجميع، وكان الاشتراكيون في بعض حملاتهم الانتخابية، يُؤكِّدون على مُنجزاتهم هذه، يوجهون خطاباً للشعب مُفاده: «إذا لم تَتَخِب الاشتراكيين.. فإن ابن الخادمة، سيكون خادماً لابن المَخدومة، الذي سيبقى مَخدوماً»!

فُتحت الجامعات للجميع، للفقراء وللأغنياء على السواء، لأبناء أصحاب الملايين، كما لأبناء العُمال والفلاحين والمهاجرين، وفُتحت معها للجميع كذلك المراكز الثقافية، والنوادي الرياضية العامة، والمعارض، والصالات الفنية، كان بإمكان المُجتهد أن يَصِل.. لا يمنعه من الوصول عائقٌ مادي أو اجتماعي.

الإشتراكيات في الغرب الديمقراطي، تعني تَشَارُك الجميع في الحقوق والواجبات، ماداموا يُؤدُّون ضرائبهم الاقتصادية - الاجتماعية.

الإشتراكيات في مَهْدِها الشيوعي، تعني تَشَارُك الجميع في العبودية المطلقة للدولة، كمرحلة من مراحل التَّحَقُّق بالشيوعية، التي إنهارت وبَقِيَت الشعوب مُستَعْبدة.

الإشتراكية في بلادنا، تعني مشاركة الحاكم المُستبد، جميع أفراد الشعب أموالهم وأولادهم وحياتهم وموتهم.

التفتت جارتى «ماريا روسا» إلى زوجها، وكانا يجلسان إلى جانبي، وسألته ببالغ الإستغراب والدهشة، بعد أن شاركتني قراءة بعض ما في الصحيفة: إسمع يارجل هذه السّمْعة، هنا في الصحيفة يقولون أن مَوْلِد عيسى، لم يكن في ليلة الخامس والعشرين، ولا في الشهر الثاني عشر من العام! أجاب الرّجل: لكنّ «المصلحة» - الإقتصادية والتّنظيمية للمجتمع - إقتضت تغيير التاريخ، لتُجمّع الأعياد في حقبة معينة من العام الميلاديّ... قوانين السّوق يا امرأة، قوانين السّوق!

مُفجّع تقليدنا للقوم عن جهلٍ وعمى، موجد إكتشاف تلك الجحور، التي دخلناها وغيرنا من الشعوب المستعمرة وراء المستعمرين خضوعاً وتبعية، دخول الذليل وراء سيده، الذي تمكن من عقله ونفسه، ومَلَكَ عليه لُبّه وفؤاده.. إلى درجة أن ننساق وراءهم حتى في الإحتفال بأعيادهم، التي حَوّلوا وغيروها وعدّلوا تواريخها لتدخل في المنظومة الإقتصادية الرأسماليّة التي يحكمون بها العالم اليوم ويستبدون شعوبه.

سألتنى ماريا روسا⁽¹⁾: هل يحتفلون في بلادكم بعيد الميلاد؟ أم أن هذا ممنوع في بلاد الموروس؟؟!

قلت: أقسم يا روسا، أن إحتفالات كثير منا في بلادنا، بهذه الأعياد، تكاد تفوق في بهرَجَتها وصَخَبِها، إحتفالاتكم به هنا!

تعبّبت روسا وزوجها كثيراً من قولي هذا، ونظرا إلى بعضهما نظرات تَنَمَّ عن الشك.

ما زلتُ أذكرُ إحتفال الكثيرين في دمشق بأعياد الميلاد ورأس السنة الميلادية، ونَصَبَ الشجرة المُزينة شجرة الميلاد.. التي لم يبدأ الإسبان أنفُسَهُم باستعمالها في إحتفالاتهم بالنايبيداد،

(1) ماريا Maria: مريم. - Rosa روسا: اسم فرد علم مؤنث، ويعني وردة.

حتى أواخر الثمانينيات من القرن العشرين! كونها عادة دخيلة على إسبانيا! فهُم لهم عاداتهم وتقاليدهم الخاصة بالنايديد، ولم ينتشر استعمال شجرة الميلاد في إسبانيا، إلا بعد دُخولها حلف شمال الأطلسي، وانتشار الثقافة الأميركية - الأوروبية فيها، مما جعلها أكثر التصاقاً بأوروبا من غيرها من العوالم المتخلفة، التي تشترك معها بحدود الجغرافية - مثلنا - ! أو حدود الإستعمار كأمريكا اللاتينية!

«استعمار» أو «تدمير»: مهما كان اسم العلاقة التي تجمعها بمعظم الدول اللاتينية، فإن تلك الدول أصبحت بعد قرون من الغزو الإسباني الشامل الاستتصالي، تستجدي إسبانيا العطف والرعاية ومد يد المساعدات الإستعمارية لها.

الكاتب الإسباني الشهير «أنطونيو غالا»⁽¹⁾ في حديث له في التلفزيون، كان يعيب على المُجتمَع الإسباني، دخول شجرة الميلاد إلى حياته، واستعارته تقليعة «بابا نويل» من الأمريكان، وتسَلُّلها شيئاً فشيئاً، لتأخذ مكانها في تقاليد الاحتفالات الدينية الإسبانية.

كان «غالا» يريد لإسبانيا أن تبقى إسبانية، وألا تنصوي في سياق التغيير الهائل الذي بدأت تحدثه الهيمنة الأميركية العامة على العالم كله.



دار العام، وكلما دار إنتقلت «معركتي» الخاصة في مدريد ومع مدريد من مرحلة إلى أخرى، حين كنتُ حديثة عهدٍ بالغربة، كنتُ في حالة رَفَضٍ وصِرَاعٍ مع مدريد ومع المُتَحَرِّشين بِوجودي

(1) Antonio Gala الشاعر والروائي وكاتب الخواطر الإسباني الشهير.

فيها من أهلها، رَفَضَ جهلٌ وخوفٌ ودفاعٌ عن النفس، وكانت النقاشات حاميةً مع الناس، والحُجج ساخنة، والكلام طويل.. ولا جدوى.

مع مُرور الأيام، تحولتُ من مُجرد «مورا» في مدريد، غريبة غير مُرحّب بها، إلى «مُهَاجِرَة» يحقِّدون عليها، يرفضون وجودها بينهم، غير مسموح لها بمجرد إبداء الرأي في أي شيء يخص الإسبان، حياتهم الثقافية، طبقاتهم السياسية، مجتمعاتهم، وكل ما يُمُتُّ إليهم بِصلة.

يقف إلى جانب سيارتي شابان بدراجتيهما الآليتين⁽¹⁾، وكانا يتبادلان التناوب بالألقاب، رفع أحدهما خوذته ليرتاح قليلاً، ويتنفس هواءً نظيفاً، ريثما تصبح إشارة المرور خضراء اللون، فإذا بصاحبه يقول له ساخراً، كأنك فيليه غونثال، قد حلقَ شعره بكامله!

أضحكتنا الصورة التي رسمها الشاب، وتخلتُ رئيس الوزراء وقد حلقَ شعره، حتى أن أطفالِي ضحكوا مُقهقهين مما قاله، فالتفتَ إلى صاحبه وعلى وجهه علامات الإستفهام والتعجب، وقال له وهو يُعيد لبس خوذته: انظر إلى المورا إنها تضحك وأولادها!! انظر!!

يَسْتَغْرِبُ الإسبانيُّ منك، أن تضحك مع الصّاحكين على موقف هزليٍّ جماعيٍّ عام وسط الشارع! واستغرابه أكبر إن قُمتَ بِانتقاد أحدٍ سياسيٍّ أو سياسةٍ حكومته، وأغربُ الثلاثة أن تتجرأ مثلاً، فتقول لسائق التاكسي: يا إلهي ما هذا الإزدحام المُروري في هذه المنطقة!.. يَلْتَفِتُ إليك الرَّجل بعينين تقدحان شرراً، ويقول:

(1) وتُسمى بالعربية اليوم: دراجة نارية، مع أن هذه التسمية بعيدة عن الوصف، فهي دراجة تعمل آلياً عن طريق «موتور/ مُحرك آلي».

إذا لم يُعجِبْكَ ذلك، فيمكنك العودة إلى بلدك لترَكِبَ الجِمال
هنالك!!

إبداء رأيك، يعني أنك مُلَّمٌ بمُجمل الأمور في هذا المُجتمع
الذي تعيش فيه، إبداء رأيك بالنسبة إلى الكثيرين من الإسبان، يعني
أنك أصبحتَ واحدًا منهم، وهم لن يقبلوا بذلك البتة.. يحترمون
أصحاب الكلمة والقلم منا، ولكن ماذا يعني ذلك؟ لا يعني لهم
شيئاً! اذهب إلى بلدك فإكتب هناك عن بلدك وشعبك! نحن لا
يَهْمُننا الإستماع إلى رأيك، ولا يَهْمُننا أن يكون لك رأي.

أن تبدي رأيك وأنت أجنبي غريب، فإن هذا يمكن أن
يكون محصوراً بمتنديات الفكر والثقافة المغلقة ضمن جدران
الجامعات وما شابهها من المتنديات، أو في حلقات الأصدقاء
والمعارف المختلطة ما بين عرب «مُندمجين» وإسبان «مُفتحين»،
وعلى أضييق نطاقٍ ممكن.

يتغير بالطبع الأمر وزاوية التفكير والإهتمام برأيك، إن كان ما
تقوله مديح وإستحسان! فهل يُمكن لمورو، أو مورا، أن يجدوا في
هذه البلاد إلا ما ما يُبهرهم إعجاباً ودهشة؟! وهم الآتون من وراء
حدود الحضارة، ومن تحت قيود التخلف، ومن قلب البراري
المُقفرة من المدنية!!

إننا نعيش في مدريد، على كُرهِ منا ومن أهلها، وعلى الرغم
من ذلك، لا نستطيع، ولا يُمكن أن نَعزِل أنفسنا عن الجوّ النفسيّ
العام الذي تعيشه مدريد، وأهالي مدريد، لا نستطيع إلا أن نفرح
معهم أيام فرحهم، وأن نحزن معهم أيام مآسِيهم، وأن نُعبّر عن
إنسانيتنا التي لا يُريدوا أن يعترفوا بانتمائنا إليها.

نَسعدُ برؤية الناس سُعداء من حولنا في أمنٍ وسلام، في
أرضهم وبلدِهم وبين أهلهم في رخاء، وتُسرنَا رؤية إبتساماتهم
ورضاهم وفرحهم.. كما يَسعدُ ويُسّر البشر الأسوياء بسعادة

وسرور البشر الأسوياء.. دون أن تُغرِقنا فوضى التباس الأفكار، في نصف كأسٍ من ماءٍ عَكِر.. لا نَخْلِط الأوراق، ولا نُمِيع القنوات، ولا نريد أن يَعْتدي أحدٌ علينا ولا على عَقِيدَتِنَا، كما لا ينبغي أن نَعْتدي على أحدٍ ولا على عَقِيدَتِهِ.. وإذا كُنَّا مُلْزَمِينَ أن نَعْطِلَ أيام الأعياد، فنحن غير مُلْزَمِينَ بمشاركة القوم عَقَائِدَهُمْ وَصَلَوَاتِهِمْ.. خصوصاً أن ثلاثة أرباع المديرين أنفسهم، ما كانوا - في تلك الأيام - يحتفلون بالناييداد إلا لمشاركة الأسرة جَمْعَهَا وفَرَحَتَهَا.

مدير السارية الاشتراكية، المدينة المفتوحة للجميع وعلى الجميع، كانت تحاول ألا تُلْزم أحداً بما لا يريد.

تلك الحقبة التي حكم فيها الاشتراكيون إسبانيا بأغلبية مُطْلَقَةٍ، كنتُ أراها مُشرقة فريدة في تاريخ مدريد.. وبينما كانت السُّلُطات السياسية تعمل على إقرار التسامح والتعايش والأمن والسلم الاجتماعي في البلاد، كان المُجْتَمَعُ الإسباني، والمديري خاصة، يُغَالِبُ إنغلاقه وعُنْصَرِيَّتَهُ وكراهيَّته للغرباء.

بعض الأسر الإسبانية، كانت تبحث ليلة الميلاد عن أحدٍ يحسبونه «مَيِّتاً من جوعه»، يَدْعُوْنَهُ تَكَرُّماً وَصَدَقَةً إلى مائدة العيد، يُطَبِّطُونَ على عَوْزِهِ، يُهْدُّونَ أنين الضمائر الحية بين جوانحهم، بتطبيق أوامر السيد المسيح.. كانت بعض الأسر الإسبانية، تتبارى في هذا النوع من الأعمال الخيرية، ولربما دَعَوْا إلى موايِدِهِمْ، بعض الطلبة الأجانب من أصدقاء أبنائهم، كيلا يقضوا وحدهم ليلة عظيمة عندهم كهذه.

لكن بعضهم الآخر، كانوا لا يُريدون لأجنبي أن يفرح مَعَهُمْ، ولا أن تُبْهِجَهُ مَسَرَّتُهُمْ، لا يُريدون له أن يكون حَيًّا يُرْزَقُ بينهم، عليه أن لا يَنْتَسِمَ لِرُؤْيَا طفل صغير، ولا يَنْتَشِي بِسَمَاعِ زَقَزَقَةِ عصفور، ولا أن تَنْشُرَ الحُبُور في قلبه رؤية حبيبين يتبادلان نظرات اللَهْفَةِ والمودَّة، ولا أن تُضْحِكَه مَزْحَةٌ جماعية في غُرْفَةِ انتظار

الدّور عند الطيب، ولا أن يُعبّر عن فهمه ومشاركته لحديث الناس في الانتخابات العامّة أو المحليّة..

أنت غريب، قف بعيداً، يكفي أننا سمحنا لك أن تعيش بيننا!
كانت تلك سنوات نموّ وإزدهارٍ بالنسبة إلى إسبانيا،
وسنوات قهر وإقصاءٍ للمهاجرين فيها، والذين لم يكن أحدٌ منهم
يعترف بهذه الحال، خصوصاً السّوريّين والفلسطينيّين، وغالبيتهم
من قدامى الأطباء وكبار التّجار، بلغ اعتدادهم بأنفسهم حدّ
تقديسها، فلا يرى أكثرهم الحقائق، ولا يعترف بما يخدش درجة
هذا التقديس!

كما لم يكن أحدٌ من الإسبان - إلا النّدر -، يتجرأ على البوح
بهذا الواقع العنصريّ المُحزّن والمُخجل، لا يعترف به أحد، لكن
الجوّ في إسبانيا عامّة، وفي مدريد خاصّة، كان ينبض به.. أنت
غريب، يجب ألا يكون لك الحقّ في مُشاركتنا البسمة، ولا حتى
الهمّ، ما دُمنا مُرغمين على مُشاركتك إزدهار إقتصادنا، والهواء
الذي نتنفس!

مع مُرور الأيام والأعوام.. إنكمشت مساحة حواراتي مع
الإسبان، أصبح الأمر مُنْهَكًا مُملًا وثقيلًا، كأنك في حرب «أهليّة»
دائبة، لا هُدنة فيها ولا مُتصر ولا حلّ يلوح في الأفق!

مع مُرور الأيام.. بدأت ترسخُ في ذهني فكرة «شيطانيّة»، بأن
لا فائدة تُرجى من الكلام، ولا من النقاش ولا من إيراد الحُجج،
كانت فكرة بشعة، التّفكيرُ فيها وأن تتحوّل في نفسك شيئاً فشيئاً
إلى قناعة، كان شيئاً مخيفاً حقّاً.. كان ذلك يشبه تَمَدُّد شبح
«الصّمت» بين زوجين، لا يجدان بعد مُرور خمسين عاماً من
حياتهما معاً، أيّ شيء مُشترك يُحفّزهما للحوار واستمرار حيويّة
مشاركة الحركة والحياة.

كلّ منا أنا ومدرّيد، كان على قناعة تامّة بصحّة قناعته عن الآخر، وسلامة نيّته تجاهه، وصواب سلوكه معه.. بدا هذا، وكأنه المحطة الأخيرة لرحلة نحو مقبرة!

هذا الجدار الصّلب الذي ما فتئتُ أتجاوز معه، وأرتطم به، أصمّ، صلباً، مُضْمَتاً.. لم ينكسر، ولم أزم قط إلى كسره، لم أفتنع بالصمت ولم أُنوّه في حينه.. لا الجدران تُغيّر من طبيعتها، ولا أنا بقادرة على ترك أكثر من بصمة باهتة، لا يمكنها حتّى الأحجار فضلاً عن الرّسم عليها بالألوان، والنّحت بالكلمات والأفكار.

لا يتعلق الأمر برغبة كلّ منا أنا ومدرّيد، في تبادل «العشق»، لكنها لعبة البشر الأرضية - الأبدية.. التعارف، التّواصل، التّجانس، أنسنة وجودهم الموحش على هذه الأرض، الرّغبة في الحوار بين النّاس، وفي إذابة جليد الغربة، وتذليل مصاعب الاختلاف.

ما زلتُ أمشي في هذا الطريق، أقفُ أمام هذا الجدار، أحاوره، أناقشه، أحفر فيه بأظفري، ثم أعود أدراجي لأستردّ أنفاسي، وأتأمّله عن بُعد بكلّ تفاصيل الصورة، أستأنف المضيّ نحوه من جديد، في الطريق ذاتها أمضي جيئةً وذهاباً.. وأرجع فأصطدّم به نفسه.

يُنقذُ في حُكم الإعدام تحت ظلّه المُستبدّ، تنسكبُ دُمائي على جنباته، تصبغُ أحجاره بلونٍ بعيدٍ عن الأحمر، دماء لا تُشبه دماء الشّهداء، لكنها تفعل فعلها فيه بصمّةٍ غاضِبٍ رنان.. تحته، تُقشّره، تُعيّده إلى حالته المُسيّئسائيّة الأولى.

لم أياس، مرات ومرات أضربه بقبضة يدي لأفتح فيه ثغرة، فترتدّ إليّ مُهشّمة، لكنها تتركّ عليه بصمة من خلايا مهروسة، ومن قهرٍ يتمدّد، أحاول نقبه بالمثقاب الكهربائيّ نفسه، الذي يستعملونه عادة لثقب رُكبتيّ وكتفَيّ في حفلات التعذيب، فيترك

المُتَقَب فيه عَيْنين، وعَيْنين.. ينظرُ إليَّ من خلالها كُلُّها في غَضَبٍ
وتَحَدٍّ..

لقد مَنَحْتُهُ حِياة.

بتصميمٍ ودأبٍ تلك الفلاحة الصِّينِيَّة الصغيرة، طَرَرَتْ
صُورَتِها في طرفِ بساطِ الإمبراطور السَّحْري، فما إن بَسَطَ أَمَامَه،
حتى نَفَخَتْ في صُورَتِها الرُّوح، مع كُلِّ الأشياء التي صَوَّرَها
الفلاحون وهم يَسْجُونَهُ من حكايات الحياة، إِسْتَطَاعَتْ أَنْ تَجْتَازَ
الأَسوار..

هكذا صارت صُورَتِي حَيَّة في ذلك الجدار، «تَغْرِيبَتِي»
صارت لوحة ناطقة، آلامي تتنفس على صَخْرِهِ الجامد، نوافذُ
صِراعي معه، تُشَرِّعُ مصاريعها على أَنهار الدَّم وعذابات الذَّبَح
البشريِّ.

أهاجِمُهُ بِمِطْرَقَةِ صُموْدي وقُدْرَتِي على الصبر والاحتمال،
ولا أترجع، حتى لو وقفتُ مرارًا أَعِيدُ حساباتي، فالمعركة
مَعَه وأَمَامَه قاسِيَّة شديدة.. والسَّمَاوات التي تركها عليه أَنامل
المُبْدِعِينَ مُغْرِيَّةً وَجَمِيلَةً.

هذه الطريق غير مَسدودة، حتى لو كان في نهايتها الطويلة هذا
الجدار.

فبعض المعركة، إِجْتِيازُ الطريق حتى النِّهاية، وبعضها،
مواجهة هذا الجدار..



أَقْلِيَّةٌ.

● **أنظر** إلى بناتي الجالسات أمام التلفزيون، يتناولن طعام الغداء وأَعْيُنُهُنَّ على أحداث فيلم «الحكاية التي لا نهاية لها»⁽¹⁾، فيلم رائع، والحكاية التي يرويها مُثيرة للتفكير ومُحفّزة للقدررة على التَّخيل، كنت رائحة غادية على خدمة المائدة، ورأيت شِدَّةَ انتباههن، فأحببت أن أداعِبُهُنَّ، سألتهن أثاقل عليهن وقد بدأت فترة الإعلانات التجارية: هل أعجبكن هذا الفيلم، كأنه مُملّ، أليس كذلك؟!

قالت ساجدة: مام لا تكوني ثقيلة الظلّ، ابتعدي عن الشاشة، الفيلم رائع.. سبحان الذي خلَقَكَ يا مام⁽²⁾!

وقبل أن أردّ عليها، استأنفت مُنْهية تأزّم الموقف، وسألتني وهي الديبلوماسيّة الحاذقة: مام لماذا يقولون في الأفلام ودائمًا «الآلهة»، أليس الله واحدًا؟!

- قلت لها: أنت تريدين أن تحرفي الموضوع الخاص بالغلاظة!

قالت: لا، أريد أن أعرف.

(1) «الحكاية التي لا نهاية لها»: فيلم يعتمد كتابًا من تأليف الألماني ميتشيل أندرياس هيلموت إنده / La historia interminable MICHAEL ENDE والفيلم طبعة 1984 من إخراج Wolfgang Petersen.

(2) «سبحان الذي خلَقَكَ»: تعبير شامي يقتضي الشكوى والاعتراض بتلطف.

قلت: هذه معتقدات قديمة مام، لا علاقة لها بالدين، ولا

بدینا.

قالت: ولكن هذا حرام.

قلت لها: حرام يا ساجدة إن ردّدناه نحن.

— أنا لا أريد أن أسمعَه.

- قولي إِذَا: الله أكبر.. لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، كَلَّمَا سَمِعْتِهِ.

- وهل تنحل المشكلة بقولي ذلك؟

- في رأيي نعم.. وهذه أولاً ليست مُشكلة، وثانياً هذا أمر

يتعلق بقناعات الإنسان وعقيدته ودرجة فهمه لدينه، ولا علاقة لنا

بعقائد الآخرين، ولا - قناعاتهم ولا درجة فهمهم لدينهم.

- وإن كانوا على خطأ؟

– المسألة هذه بالذات أنا لا أراها مأم⁽¹⁾ إلا من خلال سورة

فِي الْقُرْآنِ أَنْتَ تَحْفَظُهَا، يَقُولُ رَبَّنَا فِيهَا: «لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ».

- وكيف نعرف من هو على حقّ ومن هو على خطأ مام؟

- كُلِّ إِنْسَانٍ يَظُنُّ أَنَّهُ عَلَىٰ حَقٍّ، وَنَحْنُ نَظُنُّ أَنَّكَ عَلَىٰ طَرِيقٍ

الحقّ.. وواجبنا الآن وفي أعمااااااااااااااااا هذه، ألا نتدخّل في عقائد

النَّاسَ، وَلَا - نَسْمَحْ لَهُمْ بِأَنْ يَتَدْخَلُوا فِي عَقَائِدِنَا.

- مام.. كلهم يتدخلون في ديننا وإيماننا، يشتموننا ويؤذوننا

وَيَجْعَلُونَا نَشْعُرُ بِالضُّيْقِ وَالْحُزْنِ.. مام، أنا لا أظنّ أن من يفعل

ذلك هو على حق.

هل تعرفين ماذا حصل في الصّفِّ البارحة ليوسف ابن

أستاذنا الذي يأتي في العُطل لِيُعَلِّمَنَا العِريَّةَ، أراد الأولاد أن

(1) تصغير كلمة ماما، استعمال شخصي خاص بهدف التّحبيب والتّلفظ.

يُشارِكُهُم الصلاة أمام «البيلين»⁽¹⁾، فقال لهم: «لا أريد الصلاة معكم أنا مسلم، أنا على حق، وأنتم كفار»!

قلتُ لها: وأنتِ ماذا قُلتِ؟

- قلتُ لهم.. أنا أحترم دينكم، وأطلبُ منكم احترام ديني، أنا لا أطلبُ منكم أن تُصلُّوا معي، فلا تطلبوا مني أن أصلي معكم.

- أحسنت.. وماذا حدث؟

- تركوني، وبدؤوا جميعهم بالضحك على يوسف، والسُّخرية منه، ولما دافعتُ عنه، صاروا يقولون لي: أنتِ مثله وكِلَاكُمَا كافران، أنتم المسلمون أغبياء ومُتخلفون، ورؤوس أمهاتكم المُحجبات مَلأى بالقمل.

- لكن أم يوسف إسبانيَّة، وليست مسلمة!

- قلنا لهم هذا.. لكنهم استمروا في ضَرْبنا، ونحن أيضًا ضَرْبناهم، حتى جاءت المعلمة فعاقبت الجميع.

- وماذا قالت؟

- قالت ليوسف أنت ولدٌ غير مُهذب، وليس من حَقِّكَ أن تقول للأولاد إنهم كُفار، قال لها: هُم قالوا لي إنني مورو وسبوني، فصرخت في وجهه، وقالت: لولا أننا كنا في آخر يوم قبل إجازة الأعياد لاسْتَدْعَيْتُ أُمَّكَ.

لكن المديرية جاءت إلى الصَّفِّ بعد ذلك، وقالت لنا: إن هذه هي المرة الوحيدة والأخيرة، التي ستسمح بأن يتدخل أحد في دين أحد، أو يطلبُ منه الصَّلَاة معه، أو أن يقول له كافرٌ أو مؤمن، وأن هذه كَلِمَات يُمنَعُ استِعمالُها في مدرستنا.. وأن إسبانيا دولة ديمقراطية، يعيش فيها كلُّ إنسان العقيدة التي يختارها، وليس

(1) مجسم بيت لحم ليلة الميلاد.

لأَحَدٍ أَنْ يَعْتَدِي عَلَى دِينِ أَحَدٍ.. وَأَنْ هَذِهِ مَدْرَسَةُ حُكُومِيَّةٍ وَلَنْ يُسَمَحَ فِيهَا بِحُدُوثِ مِثْلِ هَذِهِ الْمُشَادَّاتِ.

قَالَتْ أُخْتُهَا الْأَصْغَرُ: وَجَاءَتْ كَذَلِكَ إِلَى صَفِّنَا، وَقَالَتْ لَنَا الْكَلَامَ نَفْسَهُ يَا أُمِّي.

- وَلِمَ لَمْ تَخْبِرَانِي بِالْأَمْسِ؟

- كُنْتُ أُرِيدُ أَنْ أَخْبِرَكِ، وَلَكِنْ لَمَّا رَأَيْتُكِ تَتَكَلَّمِينَ مَعَ «آلْبَا»⁽¹⁾ أُمِّ يَوْسُفَ، ظَنَنْتُكُمَا تَتَحَدَّثَانِ فِي هَذَا، ثُمَّ نَسِيتُ الْأَمْرَ.

قُلْتُ: إِنْتَهَتْ الدَّعَايَا، تَابِعَا الْفِيلِمَ مَامَ، سَأَتُصِلُ بِآلْبَا، وَبَعْدَ انْقِضَاءِ عَطَلَةِ «النَّابِيدَا» سَوْفَ نَذْهَبُ إِلَى الْمَدْرَسَةِ وَنَتَكَلَّمُ مَعَ الْمُعَلِّمَةِ.

قَاطَعْتَنِي سَاجِدَةٌ قَائِلَةً: هَلْ تَعْرِفِينَ مَا فَعَلَ يَوْسُفُ مَامَ عِنْدَمَا تَضَارَبَ مَعَ الْأَوْلَادِ وَغَلِبَوْهُ؟

قُلْتُ: مَاذَا فَعَلَ؟

قَالَتْ وَعَيْنَاهَا تَلْتَمِعَانِ: لَقَدْ خَلَّصَ نَفْسَهُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَطَلَعَ فَوْقَ مَقْعَدِهِ، وَرَاحَ يُؤَدِّنُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ.. اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ.

قُلْتُ: أَدْنُ فِي الصَّفِّ؟

أَجَابَتْ: أَدْنُ فِي الصَّفِّ، وَسَكَتَ الْجَمِيعُ، تَرَكَوهُ وَحَسَدُوهُ، لِأَنَّ صَوْتَهُ كَانَ جَمِيلًا جَدًّا، ثُمَّ صَبَرْنَا نَضْحَكُ جَمِيعًا، وَعَادَ الْأَوْلَادُ لِلْمَلَاحِظَةِ، وَالْبَنَاتُ لِلتَّصْفِيقِ قَبْلَ أَنْ تَعُودَ الْمُعَلِّمَةُ.

تَرَكَتْنِي «سَاجِدَةُ» بِسِنَوَاتِ عُمُرِهَا الَّتِي تَجَاوَزَتْ الْعَاشِرَةَ بِيَضْعَةِ أَشْهُرٍ، فِي ذَهُولٍ بَعْدَ هَذَا الْحَوَارِ، وَجُمْلَةِ الْمُلَاحَظَاتِ الَّتِي سَجَّلَتْهَا فِيهِ بِلُغَتِهَا الْإِسْبَانِيَّةِ الْغَنِيَّةِ، الَّتِي تُسَاعِدُهَا عَلَى هَذَا التَّعْبِيرِ

(1) Alba آلْبَا: إِسْمُ إِسْبَانِيٍّ مُفْرَدٌ ذُو أَصْلٍ لَاتِينِيٍّ، وَمَعْنَاهُ بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ: الْفَجْرُ.

الدقيق عن مشاعرها وأفكارها، تعقيبا وانفعالا بما حدث معها في المدرسة، ثم راحت وأختيها يتابعن الفيلم، تناولن طعامهن، وتبادلن التعليق والضحك على حادثة الصف، التي يبدو أنها شاعت في المدرسة وبين الآباء، الذين بدؤوا بالاتصال ببعضهم بعضا لتوضيح الأمور.

أطفالنا، وعلى صغر سنهم، لا يمكنهم أن يتمتعوا بشيء في البيت أو خارجه، إلا ورقابة ذاتية «صارمة» نمت مع الأيام في أنفسهم على أنفسهم، وعلى كل ما حولهم، يؤدون على حادثة سنهم ضريبة اختلافهم وكونهم «أبناء أقلية» و«غرباء».

من حق الآباء أن يعملوا على حفظ هوية أبنائهم، بالطريقة التي يحسنونها كل منهم، من حقنا أن نعمل على ألا يذوب أبنائنا، وعلى ألا يضيعوا.. حتى لو وقعنا في أخطاء كبيرة، ومؤلمة لنا ولأولادنا أنفسهم.

من حقنا أن نفعل، ومن واجبنا أن نتعلم، ومن مقتضيات ذلك أن نخطئ ونصيب.

لقد اشتغلنا - كل الأسر في جاليتنا، وخصوصا الأمهات - كثيرا على ذلك، لحفظ هوية أولادنا في غربتهم وغربتنا، ومساعدتهم على ألا يضيعوا أو يذوبوا.

يذكرني وضع أولادي في مدريد، بأولاد مكونات المجتمع السوري «الأقل عددا» كالأرمن والمسيحيين، والذين كان بعضهم رفاقا على مقاعد الدرس، مع أنهم في غالبيتهم كانوا يرتادون مدارسهم الخاصة في دمشق، يذكرني هذا بمعاناتهم مع بعض الطلبة والطالبات، الذين كانوا يتحرشون بهم ويؤذونهم ببعض الشتائم الطائفية، دون أي مسوغ إلا أنهم مختلفون! خصوصا عندما يضطرون إلى حضور حصّة الدين الإسلامي، بسبب البرد الذي يمنعهم من مغادرة القاعة.

- يجب علينا العمل لتحرير فلسطين، وتخليص مُقدَّساتنا الإسلامية - والمسيحية فيها من أيدي الغزاة الصهاينة.

هذا ما كانت تقوله المعلمة في درسي اللغة العربية، عندما صاحت فتاة من آخر الصف قائلةً: نحن لن نُحرر إلا مُقدَّساتنا، مقدسات الإسلام!!

سألتها المعلمة: وهل تؤمنين بعيسى؟ هل يتحدّث قرآننا عن عيسى وولادته في فلسطين، وعن أمّه العذراء؟؟ إذن نحن مَعنيون بالمقدسات المسيحية، كما الإسلامية!

أعلن رينُ الجرس انتهاء الحصّة، فهرولت المعلمة خارجةً من الصفّ، وخرّجت وراءها «جوزفين» مُحوّطة⁽¹⁾ بصديقاتها في الصفّ، دامعة العين، مكسورة خاطر، بينما اشتبكت طالبات الصف العاشر ذاك، في مُشادة كلامية عنيفة، بسبب هذا الذي حصل..

قالت ملكة، لإعتدال: كيف تقولين هذا وفي الصفّ طالبة مسيحية؟؟ أَجِنْتِ؟!

صاحت إعتدال: أنا لا أفهم لماذا يجبُ أن تُراعي مشاعرَها كمسيحية في صفّنا، بينما لا يُراعي أحد مشاعرنا كمُسلمين في بلادنا؟؟ هذه المعلمة جرّتني قبل يومين إلى الإدارة للتحقيق معي، لأنها رأتني أصلي في قاعة الصفّ أثناء دُخولها إلى الحصّة! قالت ملكة: وإذا كانت هذه المعلمة حمقاء سافلة، هل نكون نحنُ مثلاًها؟

ردّت إعتدال: أنا حُرّة فيما أقول.. لا أحد هنا يحترمني في مدرستي وبلدي كمُسلمة، وأنا لن أحترم أحداً، من أيّ انتماءٍ كان!

(1) حَوّطْتُ دَارِي: بَنَيْتُ حَوْلَهَا حَائِطاً/ معجم المعاني الالكتروني الجامع.

تَدَخَّلَتْ كِيَان فِي الْمَحَادَثَةِ، وَكَانَتْ طَالِبَةً دَمَثَةَ الْأَخْلَاقِ،
رَفِيعَةً لِلْإِلْتِمَازِ: كَيْفَ تَرْضِينَ بِخُرُوجِ جُوزَفِينَ مِنَ الصَّفِّ بَاكِئَةً بِهَذَا
الشَّكْلِ، وَنَبَيُّنَا يَقُولُ: مَنْ آذَى ذُمِّيًّا أَوْ انْتَقَصَهُ فَأَنَا خَصْمُهُ (1)؟!

سَكَتَ الْجَمِيعُ، وَانْقَضَوْا، وَتَمَتَّتَ إِعْتِدَالُ: كَمْ أَكْرَهُهَا كِيَانُ
هَذِهِ، لَا أَحِبُّهَا، وَلَا أَطِيقُ رُؤْيَيْهَا وَلَا الْإِسْتِمَاعَ إِلَى فِلْسَفَتِهَا.

قَالَتْ مَلَكَةٌ: إِنَّكَ لَا تُحِبُّونَ الْإِسْتِمَاعَ إِلَى الْحَقِّ، الْكَرَاهِيَّةُ
أَسْهَلُ مَا فِي الْأَمْرِ، أَمَا الْإِنْقِيَادُ إِلَى الْحَقِّ فَمُرِيرٌ!

قَالَتْ إِعْتِدَالُ: أَنَا عَلَى الْحَقِّ، وَأَنَا صَاحِبَةُ الْحَقِّ، وَأَنَا الَّتِي
أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ.

أَجَابَتْهَا مَلَكَةٌ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، هُوَ حَقٌّ لَا شَكَّ وَلَا رَيْبَ، وَإِنَّمَا مَا
تَفْعَلِينَهُ بِإِسْتِخْدَامِهِ لِإِذَاءِ النَّاسِ هُوَ بَاطِلٌ عَلَى بَاطِلٍ.

كَانَ أَبْنَاءُ «الْأَقْلِيَّاتِ» فِي دِمَشَقَ، شَدِيدِي الْحِرْصِ عَلَى
عَقَائِدِهِمْ، وَلُغَاتِهِمْ الْخَاصَّةِ، وَعَلَى تَعَلُّمِ اللُّغَاتِ الْأَجْنِبِيَّةِ، كَانَ
سُلُوكُ مَنْ عَرَفْتَهُ مِنْهُمْ إِيْجَابِيًّا مُتَوَجِّسًا حَذِرًا، الْخَوْفُ مِنْ مُرَاقَبَةِ
الْأَكْثَرِيَّةِ يُرْهِقُ أَطْفَالَ مُكَوِّنَاتِ الْمُجْتَمَعَاتِ «الْأَقْلَّ عِدَدًا»،
وَيُتْعِبُهُمْ، وَيَجْعَلُهُمْ يَشْعُرُونَ بِثِقَلِ مَسْئُولِيَةِ الْحِفَازِ عَلَى هُيَوَانِهِمْ
مِنْ جِهَةٍ، وَتَقْدِيمِهَا لِلْآخَرِينَ عَلَى أَنَّهَا شَيْءٌ جَيِّدٌ وَمُتَمِّيزٌ، وَأَنَّهُمْ
عَلَى «حَقٍّ»، مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى.

مُؤَلِّمٌ جَدًّا أَنْ يَضْطَرَّ الْأَطْفَالُ إِلَى حَمْلِ عِبَاءِ خِيَارَاتِ الْكِبَارِ،
مُؤَلِّمٌ أَكْثَرَ أَنْ يَضْطَرَّ الْأَطْفَالُ إِلَى حَمْلِ مَسْئُولِيَّةِ هُويَةٍ.. وَأَكْثَرَ
الْثَلَاثَةِ إِيْلَامًا أَنْ يَضْطَرُوا إِلَى إِقْنَاعِ أَنْفُسِهِمْ وَالْآخَرِينَ طُولَ الْوَقْتِ
بِأَنَّهُمْ عَلَى «حَقٍّ».

(1) «أَلَا مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا، أَوْ انْتَقَصَهُ، أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ، أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ
طَبِيعِ نَفْسٍ، فَأَنَا حَاجِبُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

الراوي: عِدَّةٌ مِنْ أَبْنَاءِ أَصْحَابِ النَّبِيِّ / صَحِيحُ أَبِي دَاوُدَ.

«الحقّ» بالنسبة إلى الأطفال، ينبغي أن يتعلّق باحترام
طفولتهم، وبراءة إبتاعهم لأبائهم، ومنحهم الفرصة ليكونوا أطفالاً
أبرياء.

أولادنا في العُربة، يعيشون في «منطقة عزل واشتباك» - في
آن واحد- بين حضارتين ومدنيتين ولغتين ودينين وجغرافيتين
ومُنطَقيّين في رؤية الأشياء .. وهذه - مسألة تُشبه السَّير في حقل من
الألغام، بالنسبة لأطفالٍ وُلِدوا في عُربةٍ مُضاعَفة، فهم أبناء «أقليّة
غربية» هنا في المَهجَر، وهم أبناء «أقليّة غربية» هناك في الوطن!
يعانون هنا، ويعانون هناك...

عندما زار أولاد أختنا في الله «أمّ المُعتَصم» دمشق لأول مرّة،
لم يبقَ أحدٌ من رجال الأمن في المطار، ومن سيدات المُجتمع
الدّمَشقيّ، مُروراً برجال العائلة من الجِهَتَيْن .. إلّا اعترض على
أنّهم يحملون في جوازات سفرهم الإسبانيّة، لقب عائلة أمهم
إلى جانب لقب عائلة أبيهم، كما يستدعي القانون في إسبانيا.

سأل الشرطي في المطار: أنت شو اسمك بالضبط آبتني؟
قالت هدى التي هي أكبر أخواتها: اسمي هدى الشامي
الحموي⁽¹⁾.

قال الرّجل مُتَعَجِّباً لصاحبه: هادي البنت عندها لقبين أبو
مصطفى، أشو رأيك إنت؟

قال أبو مصطفى: أهى سورية؟

قال الشرطي الأول: مالك طاسس أنها سورية؟⁽²⁾.

(1) اسم افتراضي.

(2) وترجمتها باللغة العربية الفصحى: ألا ترى أنها سورية؟ طسّ في معجم
المعاني الجامع: طسّ فلاناً: طعنه، صدمه، خاصمه وأفحمه، وتستخدم
في لهجة بلاد الشام بمعنى «انظر مع الانتهاز».

أجاب أبو مصطفى: لا مش طاسس، فكرتها إسبانية، تعالي
أشوف أبنتي.. إنت إسبانية أم سورية؟

قالت الطفلة: عمو أنا سورية مولودة في إسبانيا.

قال الرجل: يا عمي أبيصير يكون عندك كنيّين⁽¹⁾ هون بس
بنعترف عا كنية الأب!

لم تفهم البنت: وسألت: عمو ألا أستطيع دخول سوريا؟

قهقه الشرطي، ونظر إلى صاحبه وهو يتندر: «شوف الهبلة
المسكينة آبتفهام سوري».

عندما تسلم العمّ أولاد أخيه، قال له الشرطي: يجب أن
تصلحوا اللّقب، هنا لا نعترف إلا بلقب الأب، ما هذه المهزلة؟

في السيارة التي تُقلّهم إلى الدّار، إنتهرهم عمّهم كمال، بعد
التأهيل والتّسهيل والعناق والقُبَل التي كادت تُهلكهم حُبًّا وفيض
حنان، وسألهم وهو ينفث دُخان سيجارته في وجوههم: وكيف
يكون هذا يا عمي، بهدّلتونا أمام رجال الأمن الأوباش؟ هذا لا
يمكن أن يكون أبدًا، أنتم أبناء أبيكم فقط!

قالت له هدى بسنواتها الإثنتي عشرة: لكننا أبناء أمّنا كذلك يا
عمي.. عمو ممكن تتوقف عن التّدخين من فضلك.

أجابها دون أن يلتفت إلى مسألة التّدخين: لا وألف لا.. أنت
إبنة عائلة أبيك فقط!.. ثم إنّ هذا حرام في القرآن.

تساءلت الطفلة في دهشة وتعجب: حرام في القرآن؟ عمو
الدّخان هو الحرام.

(1) أهل بلاد الشام، يستخدمون لفظ «كنية» بمعنى «اللقب».

قال الرَّجل في حُتق وغيظ: نعم.. الله قال: رُدّوهم إلى آبائهم!.. وليس إلى أمّهاتهم!

قالت الطفلة بالغة الفطنة: عمو.. في القرآن مكتوب أنّ سيّدنا عيسى اسمه «عيسى بن مريم»!.. ولما حَكَت لنا الحكاية ماما وقرأناها لنا في القرآن، أنا رأيت بعيني أنّ اسم عيسى هو «عيسى بن مريم».. ونحن لسنا ضائعين حتى يأخذوننا ويرُدّوننا لعند بابا!!

استشاط العمّ غضباً وقال لها: عيسى لا أب له! يجب على أمّك أن تُعلّمك الإسلام، ولا تتفلسف عليكم بهذه الخزعبلات، ما تطلعيلنا إسبانية!

أجابت البنية: عمو.. ماما لم تقل لنا شيئاً عن هذا الأمر، هذه أول مرة أسمع فيها شيئاً كهذا!

- إذن قل لي لها أن تنتبه لما تُعلّمه لأولادها.

- عمو.. أمي كانت تُعلّمنا القرآن.

.....

- هذا اسم ولّقبين، ونحن نعرف بابا، وكلّ الناس يعرفونه.. فأين هي المشكلة؟ عمو، بابا قال لنا إنّ الدخان حرام لأنه يضرّ بالصحة.

تَمَّت الرَّجل: هذه هي تربية الغرب والغربيين، بناتٌ علاكات لا بُدّ من قطع ألسنتهنّ.. كان على أبيك أن يعود بِكُمْ إلى سوريا أو إلى أي بلد عربي تتعلمون فيه الإسلام.

استأنفت البنت وهي تشعر بالقهر والعدوان، وقد تهدّج صوتها بالبكاء: عمو نحن مسلمون، ونعرف الإسلام، ونُصَلّي ونُصوم، ونقرأ القرآن، ونذهب إلى المسجد دائماً.

تطوّعت زوجته فتدخلت بصورة انتحارية، نُصرة للطفلة

المسكينة التي وصلت دمشق للتوّ، قالت: هَوْن عليك أبو محمد، رُدُّوهُم إلى آبائهم تعني ألا يتبرأ الأب من ابنه، وألا يُنسب الولد إلى غير أبيه، ولا تعني تحريم أن يُكتب لَقَب الأم مع لَقَب الأب في جواز السفر.. بعدين ماذا تفعل البنت إذا كان هذا هو القانون في إسبانيا؟؟ في بريطانيا يضعون للزوجة لقب عائلة زوجها ولا أحد يعترض ويقول ردوها إلى أبيها!! زوجة ابن خالك الإنكليزية ماريا الشامي، لم يعترض أحد على أنها أَلَحِقَتْ بلقب زوجها، اترك الطفلة بحالها!!

هنا، جُنَّ جُنُون الرَّجُل، وصار يصيح: والله ما كان ناقصني إلا فلسفة حضرتك، أعيرينا سُكوتك.. هذا دين، هذا ديننا، وليس تيناً!!

هَمَسَت السيدة: لَكَ كمال، هذه أول مرة أسمع بهذا الموضوع، أنا لا أتفلسف، فقط أعطي رأيي، مسكينة البنت لقد أكلتها بلا مِلَح، حرام عليك! لقد وصلوا للتوّ، وهم لا يعرفون هذه القصص!

- قلت لك إسْكُتِي وأعيرينا صمتك، لم يطلب أحد رأيك.

- كمال، ما من نبي ولا صحابي ولا عظيم ولا تابعي ولا قائد في الإسلام، إلا ويعرف النَّاس أمه وأبيه بالاسم والنسب.. أَوْقَفَ دِين النَّاس وإيمانهم على تغيير بسيط في قوانين بلد من البلدان؟! ثم والله إنه لقانون جميل جدًّا هذا، أن يُثَبَّت لقب الأم مع لقب الأب.. ما المشكلة؟

ثارت ثائرة الرَّجُل وقال لزوجته أمام الأولاد وعيناه تقدحان بالشرر: سُدِّي حَلَقُكَ⁽¹⁾، لا أريد أن أسمع صوتك، هل فهمت؟ نظرت إليه امرأته في إزْدِرَاءٍ مُشْفِقٍ وهي تَكْظِمُ غيظها، ثم

(1) تعبير عامي قبيح يُستخدم في كل لهجات بلاد الشام بمعنى «إخرس، - وإسكت، - ولا تُصدر الأصوات من حلقك».

استدارت نحو النافذة بكلّ جسدها، مُنهيّة تدخّلها لنصرة الأولاد، وهو مُستمر في صياحه وزعيقه حتى بعد وصول السيارة إلى البيت، أمسك بساعدِ ابنة أخيه المرعوبة تُغالب دُموعها، وقال لها: شوفي⁽¹⁾، بتقولي لأبيك أن يحذف لَقَب أمك من جواز السفر أنت إبتنا فقط، أنت ابنة أبيك.. فهمتي؟؟

ثم سحب مُعتصم ذو الأعوام السبعة اللّائد بأخته الكبيرة، وصاح في وجهه: أنت رجل أم خروء⁽²⁾؟؟

نظر معتصم ذات اليمين وذات الشمال مُتوجّساً، يريد أن يفهم ما الذي يقوله عمه.

فاستأنف العم: أنت الرّجل هنا، من الآن فصاعداً، نحن لا نسمح للبنات بالعلاك، الكلام معك أنت فقط!

إنّدسَ الطفلُ وراء معطف أخته التي كانت تُعدّ نفسها أمّه الثانية، وهو صامتٌ يرقب هذا الاستقبال العجيب، بسبب أن أسماءهم قد أُثبتت في جوازات سفرهم الإسبانية بلقبَي أبيهم وأمهم!

همست هدى في أذن أخيها: سأتصل بابا ليُعيدنا إلى إسبانيا، أنا لا أريد أن أستمّر في زيارة سوريا.

حدثني أمّ المعتصم وهي تضحك: مضت الزيارة، وكان الأولاد في غاية السُرور في دار عمّهم كمال هذا، وعادت إبتني إلى مدريد، وهي لا تزال تجهل هذه المسألة الخطيرة، التي جعلت

(1) كلمة سورية عامية، - وأصلها، - شاف الرجل: صعد مكاناً عالياً ونظر / معجم اللغة العربية المعاصر.

(2) خُروق وخِرقات: في لهجات بلاد الشام تستخدم هذه الكلمة بمعناها اللغوي الصحيح: جمع كلمة «خرقة»، وهي عندهم الخرقة البالية اللينة التي لاتصمد في وجه شيء، ويريدون: إنه لا يليق بالرجل أن يكون كالخرقة.

عَمَّهَا يُخْرِجَهَا مِنَ الْإِسْلَامِ بِسَبَبِهَا.. وَمَا فَتِنْتُ تُكَرِّرُ: أَنَا ابْنَةُ أُمِّي،
كَمَا ابْنَةُ أَبِي!

قُلْتُ لِأُمِّ الْمَعْتَصِمِ: هَذِهِ الْحِكَايَةُ تُضْحِكُكَ يَا أُمَّ الْمَعْتَصِمِ؟!
وَاللَّهِ لَقَدْ أَبَكْتُ فُرَادِي! أَوْلَادُنَا يُعَانُونَ هُنَا مِنْ مُحَاوَلَاتِ تَذْوِيهِهِمْ،
وَيُعَانُونَ هُنَاكَ مِنْ مُحَاوَلَاتِ تَحْجِيمِهِمْ وَإِلْغَاءِ عُقُولِهِمْ، هُنَا
يُحَارِبُونَ هُؤَيَّيَّتَهُمْ، وَهُنَاكَ يَسْتَبْدِلُونَ بِهَا عَادَاتٍ وَتَقَالِيدٍ وَفَهْمٍ عَقِيمٍ
عَاجِزٍ.

قَالَتْ أُمُّ الْمَعْتَصِمِ: تَعَلَّمْنَا الدَّرْسَ، فَقَبْلَ أَنْ يَسَافِرَ الْأَوْلَادُ
لِزِيَارَةِ سُورِيَا لِلْمَرَّةِ التَّالِيَةِ، اتَّصَلُ «أَبُو الْمَعْتَصِمِ» بِالْأَهْلِ مِنَ
الْطَّرَفَيْنِ، وَشَرَحَ لَهُمْ أَوْضَاعَ الْأَطْفَالِ فِي إِسْبَانِيَا، وَمَعَانَاتِهِمْ،
وَمَعَانَاتِنَا الشَّدِيدَةَ لِتَعَلُّمُوا شَيْئًا مِنْ دِينِهِمْ، وَرَجَاهُمْ جَمِيعًا إِلَّا
يَتَعَرَّضُوا لِمَوْضُوعِ الدِّينِ، وَأَنَّا لَا نُرِيدُ أَنْ يُعَلِّمَهُمْ أَحَدٌ شَيْئًا عَنِ
الْإِسْلَامِ، وَأَنْ يَتْرَكُوا الْبَنَاتِ فِي سَلَامٍ!

الشَّيْءُ الَّذِي لَمْ يَحْدِثْ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنْ الْجَمِيعَ وَعَدُوَّهُ
خَيْرًا!!



هُنَا فِي مَدْرِيدَ، نَحْنُ لَسْنَا «الْأَغْلَبِيَّةُ»، أَصْبَحْنَا نَنْتَمِي إِلَى
«الْأَقْلِيَّاتِ»، انْقَلَبَتْ كِفَّةُ الْمِيزَانِ فِي وُجُودِنَا، تَغَيَّرَتْ زَاوِيَةُ الرُّؤْيَا،
صِرْنَا نَحْنُ «الْآخَرُ الْمُخْتَلَفُ»، مَوْضِعٌ وَمَحَطٌّ الْكِرَاهِيَةِ وَالرَّفْضِ،
وَاخْتَلَفَتْ مَخَاوِفُنَا وَاهْتِمَامَاتُنَا، وَالتَّحْدِيَّاتُ الَّتِي نُوَاجِهُهَا.

مَجْرَدُ التَّفَكُّيرِ فِي ضِيَاعِ أَبْنَائِنَا فِي لُجَّةِ الْمُجْتَمَعَاتِ الْغَرِيبَةِ،
كَانَ أَشَدَّ عَلَيْنَا مِنَ الْخَوْفِ مِنْ ذَوَابِنِهِمْ فِيهَا، ظَنْنَا أَنَّ التَّمَسُّكَ
بِهُؤَيَّيَّتِهِمْ وَعَقِيدَتِهِمْ وَحَدُّهُمَا، يُمْكِنُ أَنْ يَحْمِيَهُمْ مِنَ السُّقُوطِ فِي
مَهَاوِي مَصَائِبِ كُبْرَى مُشْتَرَكَةٍ مَعَ الْمُجْتَمَعِ الَّذِي يَعِيشُونَ فِيهِ،
كَالْفَشْلِ فِي التَّحْصِيلِ وَالدِّرَاسَةِ، أَوْ الْفَشْلِ فِي الْإِنْخِرَاطِ فِي سَوْقِ

الأعمال الشريفة، وانحراف سلوكهم نحو السرقة والاختلاس والغش والقمار، وإدمان المخدرات والكحول، أو الزنى وما يمكن أن يترتب عليه من تفكك وانهيار الأسر، ودمار الأشخاص، وربما انتحارهم، أو جنوحهم وضياغ بعضهم في مهاوي التشرّد أو الرذيلة.. اجتهدنا، كلنا.. الدارس منا، والأقل حظاً في الدراسة، المثقف، والذي لا يعرف ماذا تعني هذه الكلمة، الآتي من المدينة كما الآتي من القرية، الفقير والغني، المتدين والأقلّ تديناً، المسلم والمسيحي، وحتى الملحد منا.. تلك الأسر التي تتكون من أبوين جاءا من المكان نفسه والانتماء نفسه، أم المختلطة.. اجتهدنا لِحماية أبنائنا بما استطعناه، فَمِنَّا من أصاب، وَمِنَّا من أخطأ.

كانت تلك معرّكتنا الفرديّة والجماعيّة، وملحمتنا الخاصة مع أنفسنا ومع أقدارنا.

بعض الأولاد ذابوا مُبكراً جداً، بعضهم ضاعوا، بعضهم ذاب وضاع، وبعضهم ضاع وعاد، وقَعَ.. تَهَشَّمت رُكبتيه، وكُسِرَ مِرْفَقُه وقلبه وقلوب أبويّه وأسرته، لكنه عاد، ومنهم من تلاشى، لم يذُب ولم يضع.. تلاشى كأنه لم يكن!

كانت نتائج تربيّتنا لأبنائنا، كأبناء أقلية دخيلة على المُجتمعات الغربية، تظهر على الأولاد شيئاً فشيئاً منذ أن كانوا في الرابعة أو الخامسة من أعمارهم، كنا ندفع شيئاً فشيئاً «ثمن» كلّ ما فعلناه، أو.. لم نفعله مع أبنائنا: أخطأنا، صوَّأنا، اجتهداتنا، قسوَّنا، رَحَمْنَا، لِينَّا، شِدَّتْنَا، صِدْقُنَا، كَذِبُنَا، دَابَّنَا، مُثَابَرَتْنَا، سَهَرْنَا، تَضْيِيعُنَا، تَوَحُّشُنَا، لُطْفُنَا، ضَعْفُنَا عَجْزُنَا، لامبالاةنا، إهمامنا، ابتعادنا، قُرْبُنَا، درجة مَحَبَّتِنَا وإهمامنا.. درجة مَحَبَّتِنَا وإهمالنا. -

تَعَبْتُ مُعْظَمَ الأمّهات في جاليتنا كثيراً، بَدَلْنَا الكثير، ارتكبنا أخطاءً كثيرة وكبيرة، عانينا ضغوطاً نفسيّة وفكريّة وجسديّة قاسية، ما بين البيت والشارع، والأسرة والمُجتمع، ومع حجم كلّ هذه

الضغوط الهائلة على الجميع، كان الشّعور بالعُربة على العُربة
يَتَنَامَى وَيَشْتَدُّ، وكأنه شوكة مغروسة في القلب.

كانت أقدارنا لنا بالمرصاد، وكنا على الرغم من ذلك،
واحدة من أنجح الجاليات في الغرب، من جهة تعاملها مع أبنائها
ومحاولات الحفاظ عليهم وعلى هُويّتهم، محاولات حفظ الله بها
كثيرين من أبناء السوريين والفلسطينيين، وقد أصبحوا مع الأيام
أقلية ضمن الأقلية المسلمة في إسبانيا⁽¹⁾!
عُربة، وأقلية، ضمن أقلية..

ماذا يعني أن نحافظ على أبنائنا، غير أن يُوفّقنا الله لرعايتهم
وخدمتهم؟؟ كان أتعسنا، ذلك الذي أُوكِلَ إلى نفسه، وظن أنه
باجتهاده وحده، يُمكنه أن ينجو وأولاده، وأتّعس منه، ذلك الذي
مضى شوطاً بعيداً في اجتتهاده، ثم ظن أن لمهمّة الأب والأم في
الحياة نهاية.. وأتّعسهم جميعاً، من أهمل ابنه أو ابنته، وأساء
مُعَامَلَتَهُمَا، ثم ظن أن الأولاد يُمكن أن يَنشؤوا هكذا وخدّهم،
بخير ومعافاة وهدي ونور، دون رعاية ولا عناية ولا محبة ولا
شعور بالأمن...

(1) آخذين في الاعتبار المستوى الاجتماعي المتوسط، الذي كانت تتمتع به
هذه الأقلية السورية والفلسطينية، في العقدين الثامن والتاسع من القرن
العشرين في إسبانيا، وأوضاعهم الاقتصادية المقبولة أو الجيدة/ المرجع:
موضوع الأطروحة في التربية الذي رُشح لجائزة الدولة 2014 لأفضل
أطروحة دكتوراه في إسبانيا.

«هوية، تعايش، ونجاح أكاديمي، لدى الشابات الجامعيات الإسبانيات
اللاتسي يتّمين إلى الأقلية المسلمة في إسبانيا» د. سلام ادلي/ كلية
التربية/ جامعة الكومبليتنسة، مدريد 2013 – 2014.

Identidad, Convivencia y Éxito académico De las mujeres
universitarias Españolasque pertenecen a la minoría musulmana.
SALAM ADLBI 2013 - 2014 / Facultad de Educación – Universidad
Complutense de Madrid

كَأَنَّهُمْ يُوسِفَ الَّذِي أَلْقَاهُ إِخْوَتُهُ فِي غِيَابِ الْجُبِّ، وَقَدْ
تَغَالَفَ عَنْ أَنَّ يُوسُفَ وَقَبْلَ أَنْ يُلْقَى فِي الْجُبِّ كَانَ قَدْ تَرَبَّى فِي بَيْتِ
نَبِيِّ!

نحن هنا مجرد أفراد غرباء، أقلية من الغرباء، تعيش في هذا
المجتمع مع أهله، ننتمي إليه بحكم وجودنا فيه، وبنص قوانين
الدستور والديمقراطية، على الرغم من كراهية كثيرين من أفراد
لوجودنا هذا.. الموجه لنا ولهم.

غرباء بكل ما تعنيه كلمة «غربة».. غرباء نكره غربتنا،
وبرفضها الآخرين، معادلة مؤلمة، تشتد وطأتها كلما ازداد تمسك
المرء بهويته، وكلما وجد أن الطريق مسدود بينه وبين وطنه الذي
جاء منه.. هنالك يستحكّم البلاء، وتقسو الغربة.

في حافلة المدرسة الخاصة، مدرسة الراهبات رفيعة
المستوى، التي كانت تنقل الطلبة، قد أصابهم الهوس، بسبب
الانتصار الكروي الساحق الذي حققه فريقهم «ريال مدريد»..
كانت هناك طالبتان في الصف الخامس والسادس الابتدائي،
بنات جارتني «رجاء» السورية، حملتهما بهجة اللحظة، وبراعة
الطفولة، على مشاركة الرفاق احتفالاتهم، والغناء معهم بنشيد
ريال مدريد.. «أوليه... أوليه.. أوليه» - بمعنى قريب من «عاش عاش
عاش»... فجأة تقدمت منهن طالبة في الأول الثانوي، وأمسكت
بالكبرة منهما، هزتها بغلظة، رفعتها وألقتهما بعنف شديد في
مقعدها، وصاحت في وجهها: إخرسي.. أنت غريبة، لا نسمح
لك بالاحتفال معنا بانتصارنا هذا! أنت لست إسبانية! ساد الصمت
هنيهة في الحافلة، ثم مضى التلامذة في احتفالهم، وكأن شيئاً لم
يحدث!

بقيت البنت أسبوعاً في البيت مريضة، لا تريد الذهاب إلى

المدرسة، ولم يستطع الأبوان إرغامها على العودة إلى المدرسة، الأم فيكتوريا الراهبة المسؤولة عن شؤون الطلبة في المدرسة قالت على الهاتف: إنها مُجَرَّد نزاعات عاديّة، كثيرًا ما تجري بين الأولاد في الحافلات.. ليس هناك أيّ أهميّة لهذا الموضوع، لا تُكَبِّرُوا الموضوع من أجل مصلحة أبنائكم.

ذهبتُ مع جارتِي لِتَرْفَع شَكْوَى إلى إدارة المدرسة، جاؤوا بالطالبة، وجمعوها بالفتاة التي اعتدت عليها، والتي تكبرها بخمسة أعوام، قالت لها «رجاء» بأن ابنتيها مولودتان في مدريد، وهما إسبانيتان، وأرغموا البنتين على التّصافح والتّسامح.

حادثة سيئة بين التلاميذ في حافلة المدرسة.. هذا ما رددته المديرية أيضًا!

لكنّها لم تكن كذلك.. كانت اعتداءً عنصريًا صارخًا على فتاة بريئة، حمّلت معها ألمها ذاك طويلاً، وحمّلت مع ألمها، الشعور بالإنكسار والقهر و.. الغضب!

كانت تلك الحوادث «الفردية»، تتكرّر بين الحين والحين، في أرجاء مدريد، وعلى كلّ صعيد، كانت السّماذ المسموم، مهّد لاحقًا لموجاتٍ من العنصريّة والكراهيّة المُتبادلة، والتّفاضل الخطير والكبير، بين الجاليات الأجنبيّة وأهل مدريد، خصوصًا وأن تدفّق الغرباء لم يتوقف، وزاد من إستفحال الوضع، قيام القوى السياسية المحافظة في إسبانيا، وقبل وصولها إلى الحُكم، بحملة واسعة، لاستبدال الهجرات من جنوب أمريكا اللاتينية بالهجرات المغاربية، فبدأ مواطنو المُستعمرات الإسبانية السابقة في أمريكا اللاتينية، يتوافدون بأعداد هائلة على إسبانيا، مما أجبّ مشاعر البغضاء والعنصرية فيها، بشكل غير مسبوق.

إذن لم تكن المُشكلة في دين الغرباء، ولا ثقافتهم، ولا عدم تمكّنهم من اللغة الإسبانية، كما كان يدّعي زعماء المعارضة

اليمنية المحافظة، من وجهاء حزب الشعب، كانت المشكلة في رُوح الكراهية والبغضاء، المُتمكّنة من قلوب كثير من مُنتخبيه، الذين يُسكّلون نصف الشعب الإسباني، في بلدٍ تتجاذبه قوى اليسار واليمين، وتُراوح سياساته وساسته بين الحزبين الكبيرين، الإشتراكيّ والمحافظ، وبعض الأحزاب الصغيرة والقوميّة الانفصاليّة المحليّة التي كانت تدور في فلكيهما.

«الكراهية» و«الرفض» و«الإستعلاء العُنصري»، لم تكن مشاعر خاصة بقطاعات من الشعب المدريدي، المُستقبل للهجرات فحسب، لكنها بدأت تنتشر كذلك، إنتشار النار في الهشيم، بين أبناء مختلف الجاليات، المُهاجرة، التي تركت أوطانها على كُرهِ منها.

كانت السّنابل صفراء يابسة في إنتظار أن يرميها أحدُ الشياطين بعودٍ ثقاب لِتشتعل الأرض نارا.

نزيفٌ دائمٌ مُستمر في الأعماق، من أنت؟ ومن أنا؟ ومن نحن؟ معاناة قائمةٌ باستمرارٍ غُرَبتنا، على هامش تغيّر الحكومات، وتبدّل الأوضاع الإقتصاديّة والثقافيّة في إسبانيا، ومُرور أحداثِ الأيام ونكباتها الكبيرة بنا أو بالمُجتمع الإسباني من حولنا.

مُعاناة دائمة بدوام وجودنا «موروس»⁽¹⁾، غُرباء في ديار الآخرين الذين ينعنوننا بهذه الكلمة، وينعتون المُهاجرين الجُد المُتدفّقين من جنوب أمريكا، بكلمة ثُمائلها في معانيها ودلالاتها: سُوداكاس»⁽²⁾.. الآتون من الجنوب!

إنها كلمة، لا تقلُّ قُبْحًا واحتقارًا واتّهامًا وأذى عن كلمة «موروس»، أعجب ما في الأمر، أن يسبَّ بعضنا بعضًا،

(1) جمع مذكر كلمة «مورو» باللغة الإسبانية.

(2) sudacas: الآتون من الجنوب - من بلدان أمريكا الجنوبية -، بحسب قاموس الأكاديمية الملكية للغة الإسبانية، وتُستعمل لقب تحقير وإمتهان.

الموروس والسوداكاس، بهاتين الكلمتين! كانت الشقة تتباعد بين مجموعات المهاجرين داخل صفوفهم، وفيما بينهم، كما بينهم وبين المجتمع الإسباني، وبدا الأمر وكأنه قبلة موقوتة!

بدأ مجائنيهم يُنظَّمون صُفُوفُهُم، ويُشكَّلون فِرَق مَوْت عُنُصْرِيَّة، وشكَّل شبيبة ثائرة مُنْتَفِضة، لِلدِّفاع عن الجالية اللاتينية، في مواجهة اعتداءات النازيين الصامتة تلدغ في خفة وتؤدي كالثعابين، في حين أن جُل تفكير مجائنيننا، كان يَنحَصِر في إحداث أذى رنان، يُولد الصدى الذي يُمزق أغشية السَّمع لدى الجميع، وأولهم أبناء جاليتهم نفسها!

يَتَمَدَّد الخوف، يَطْبُخ في النفوس الكراهية، على نار الجهل المؤقَّدة، كنا نرى اشتعال الصُّدُور بالقهر والشُّعُور بالظلم، وانتهاك المجتمع الإسباني - والأوربي بشكل عام - كل قِيَمِهِ، وشِعَارَاتِهِ، ومبادئه، لدى التعامل مع المهاجر، بل مع ابن المهاجر، المولود في هذا المجتمع، والذي لا يعرف أرضًا ولا وطنًا غير الأرض التي ولد فيها، أنت ابن مهاجر، إذن: لا «أخوة، ولا حرية، ولا مساواة»، وخصوصًا إن كنت مُتَمَسِّكًا بهويِّتك وبدينك.

إخلع على أعتاب أوربا كل شيء، لِتَمْنَحَكَ شيئًا أو شيئين! .
واها لمن لا يستطيع تغيير لون جلده، ولا هندسة عظام وجهه.

الحوادث يومية، وانتهاكات حقوق الإنسان رثانة وعلى كل صعيد، وادعاء الخيرية والأفضلية مُقَرَّر.

تَرى ذلك في عيادة طبية نسائية، تَكْشِف باحتقار ولا مبالاة وامتِّهان بَشْع، على أم شابة مسلمة، جاءت ترى جنينها أول مرة وتسمع دقات قلبه.

تراه في عيادة طبيب الأسنان، يُعامِلُك باستِغْذار يَجْعَلُك تنسى مُعاناتك مع وَخز آلاته.

تراه في الأسواق التجارية الكبرى، وعُيون الناس تتفحص كل ما اشتريته، مُستنكرين قُدرك على شراء شيءٍ غير رَغيفٍ خبزٍ تسدُّ به جوعك.

تراه في الباص، إذ تجلس وحدك لا يريد أحد أن يجلس إلى جانبك.

تلمسه في المدارس، حيث يُعامل الأطفال من أبناء المهاجرين بالإقصاء والإذلال.

تشعر به في الطريق، يمرُّ بك القوم يتغامزون، يُشيرون إليك بأنك ضالٌّ وغريب ودخيل، تسمعه من وراء ظهره في ضحكاتهم وتندُرهم عليك.

تعيشه مع جيرانك يتَمَنون لو أنك لم تكن.

ترى وتسمع وتشعر وتعيش.. وأنت تمضي في حياتك، تُشقُّ طريق آلامك، تحمِل «صليب» غربتك.

هم يعبدون المصلوب، لكنك وحدك هنا من يحمِل الصُلبان، تَقُطر الدماء من جبهتك، المغروسة فيها أشواك الكراهية والجهل المُكعب والغربة.

إنها الغربة، وإنه التماس الحضاري الذي تعلّمنا في بلادنا أن نحترمه ونُبجله، كما أنّه وفي صميم تَرَكيبنا التربوية، أن نحترم الآخرين.. خصوصاً الشعوب التي استعمرتنا، شرقية كانت أم غربية، إحتراماً يكاد يصل درجة العبودية!

كان لزاماً علينا قبل ذلك أو معه، أن نُدرك حاجتنا الملحة لأن نتعلم إحترام أنفسنا أولاً، وقبل أن نُفكر في الآخرين! إحترام ذاتنا كبشر، والحفاظ عليها كيلا تذوب في هذه المُجتمعات الغريبة، التي كان رد فعلها الأول على موجات الهجرة إليها - والتي تفاقت بالتوازي مع تضخم وارتفاع فقاعة الازدهار الإقتصادي الرّنان لعدة أعوام ما بين يدي القرن الواحد والعشرين - أن

حاولت الانغلاق على ذاتها، شيئاً فشيئاً، لصيانة بصمتها الخاصة،
والحفاظ على هوياتها القومية والدينية.

بصمتها التي طالما قاتلت وقتلت في سبيل نقلها إلى البلاد
التي استعمرتها ودمرتها، وهويتها التي فرضتها على شعوب
الأرض، بقوة التوحش العابرة للقارات والأمم.. ثقافة ولغة.

لا يفهم المستعمرون أن طريقهم لتدمير الآخرين، هو طريق
ذواتجاهين سالكين!

رغبة المجتمعات الغربية في التتوقع والانغلاق، جاءت
متأخرة جداً! فضلاً عن أنها أصبحت في عالم اليوم شبه مستحيلة،
رغبة تجعلها تعاني تفهقراً إنسانياً وأخلاقياً خطيراً، وهي المندفعة
بسرعة الضوء في مدارات الثقب الأسود المخيف الذي يدعى
«العولمة»، على هامش ما كان صنّاع الرأي فيها يسمونه «غزواً
بشرياً»، تركّز على المهاجرين، وعلى المسلمين منهم بشكل
خاص، المتهمين في إسبانيا بأنهم يريدون استعادة الأندلس!!
وفي إسبانيا وخارجها بالعمل على ذلك قيم الحضارة الغربية،
واختراق نسيج البلاد الثقافي والبشري!

بلاد جعلت دينها ودينتها، تنافساً مادياً ساحقاً، شكّل عجلة
جبارة، تسحق في طريقها أولئك الضعفاء والفقراء والمساكين، من
أهلها أنفسهم، ومن الأقليات المهاجرة والغُرباء، وكل من لا حول
له ولا قوة للوقوف في وجهها.

أو أن يدخل في لحمة دوائها الهائلة فيتلاشى.



..نَحْنُ بَشَرٌ..مُجَرَّدَ بَشَرٍ..

● **كَأَنَّهُ** لا يكفيني أنني مورا في مدريد، وما أنا فيه من غُربة - وكربة، حتى نزلت بي الأقدار فأُصِبتُ بمرض في القلب، وعلى وجه الدقة.. إكْتُشِفَ مرض القلب الذي يبدو أنه كان قد أصابني منذ كنت في الخامسة من عمري! الحمد لله حمداً كثيراً يُوافي نعمه، فمرض القلب مرض معروف، أي أنه مَرَضٌ مُحْتَرَمٌ! وليس من أمراض هذه الأيام، التي تشيب لمجرد سماع أسمائها الولدان، سِلٌّ في القدم اليمنى! إلتِهَابٌ في البَصْلَةِ السيسائية! تجرثمٌ في جُذُور الضفيرة الوركية! وأشياء من هذا القبيل، مما يَتَبَارَى الأطباء في إختراع صِبْغٍ وأَلْفَاظٍ لِتَسْمِيَتِهَا، ويتسابق المَرَضَى في ادِّعَائِهَا وإِنْتِحَالِ أعراضِهَا وآلامِهَا، في مدريد، كما في دمشق.. فالأمراض متشابهة، - وسلوك البشر فيما يخصها متشابه.

ذهبتُ إلى طبيب القلب في الموعد المُحدد، كانت غرفة الانتظار في قسم العيادات الخارجية القلبية، في مشفى السلام المدريدي الشهير، ممراً طويلاً تتفرع على جانبيه عيادات أمراض القلوب، والغرف التي تُحصى في أجهزتها حركاتها وسكناتها.

يَصْطَفِّ المَرَضَى على الكراسي عن يمين الممر ويساره، وجوهٌ شاحبةٌ ونظراتٌ زائغةٌ، قد أَسْنَدَ كُلُّ مِنْهُمْ رأسه إلى كتف مُرافقٍ له، ووضع يداً على قلبه والأخرى على حافظة نُقُودِهِ، أما مُرافقتي فقد كانت إنتي الصغيرة، أتمت عامين من عمرها للتو.

أتقدمُ على إستحياء وأجلسُ بينهم، وقد وجدوا في رؤيائي

ما يُسْلِيهِمْ وَيَجْذِبُ إِهْتِمَامَهُمْ، كما يجذب المغناطيس الحديد..
تدب الحياة فيهم على حين غرّة، وتبدأ الهمّمة والهمس واللمز
والتؤفّف والاستعداد لخوض «المعركة»!

كان الإسبان في هاتيك الأيام، يُشبهوننا، يمكننا القول إنهم
كانوا - نسخة مُنقحة ومُصححة عنّا اجتماعيّاً، كانت الصورة
الشعاعية للشخصية الإسبانيّة ما بين القرنين، تشبه إلى حد كبير،
تلك التي يمكننا الحصول عليها للشخصيّة السورّيّة.. نفوسٌ
زاخرة بالحياة، بالحركة، بالدّفء، بالكرم المادي والمعنوي،
بالرغبة في التواصل، بترك بصمة اجتماعيّة فارقة.. بالتّطفل،
بالحشريّة، بتلك الزغزغة تُدغِدغ حبّ الاستطلاع، لمعرفة المزيد
عن هذا الآخر، ليس لمجرد المعرفة فحسب، بل.. لعلنا نُعلّمه،
نساعده، نفهم منه ماذا يريد؟ ونُفهمه أننا متقدّمون عليه!

أُخْرِجُ نظاراتي التي لا أسمع ولا أرى إلا بها! والتي
أستعملها كدِرْعٍ واقٍ ضدّ نظرات الإسبان الواخزة المؤذية، وكتاباً
لـ «أنطونيو غالا» عَنَوْنُهُ «الوحدة الرنانة»، خَصَصْتُهُ لهذه العيادة،
فأنا أخصّص لكلّ عيادة أذهب إليها كتاباً أقرأه أثناء عذابات
الانتظار - وكان الانتظار في تلك الأيام على باب عيادة طبيب
القلب يمتدّ إلى أربع ساعات على الأقل - وذلك اغتناماً للوقت،
وحتى يُقال: هذه «مورا» مثقفة متحضّرة، ولكن وعلى الرّغم من
هذه الجهود، فإن أحداً ما كان يدعوني إلا بالمورا، فحسب!

ما استطعت قراءة إلا ثلاث صفحات من الكتاب، الذي
سقط من يدي أكثر من عشرين مرة، وأنا أرفعُ إِبْتِني طوال الوقت،
أعطيها رضعة الحليب، ثم وجبة الطعام، أُبدّل ملايسها مرة بعد
مرة، والمسكينة تتلوى مع هذا الانتظار الطويل، جالسةً مَشْدُودَة
إلى العربة، أحملها، أُمشيها، أَلْعِبُها، أقرأ لها كتاباً.. تنام، تستيقظ،
أبدّل لها ثيابها، أحاول أن أغسل لها وجهها، فالحِرّ شديد جدّاً هنا،

قد رفع أهل المستشفى درجة حرارة التدفئة، إلى ما يضطر معظم المرضى إلى خلع ملابسهم قطعة قطعة، حتى يجلس بعضهم بالقميص الداخلي، ينتظر وينظر إلى جلبابي مُعتاطًا وهو يُتمِّم: هؤلاء الآتون من إفريقيا يحتملون الحرَّ لأنَّهم مُعتادون عليه!

بعد انتظار أربع ساعات بالتمام والكمال، رأيتُ فيها أنا ورفاقي من عجائز المرضى، الأهوال، وقد ابتلينا بالتدمر، والتأفف، والإحباط، ثم باليأس، ثم الشعور بالتمرد، ثم الثورة، حين نُقرر بعد همهمة ودمدمة وأخيرًا... أن نعترض...

كان الإسبان في هاتيك الأيام، لا يُؤثرون الاعتراض السريع لدى أي صاحب سُلطة! ولا الشكوى غير المبررة، كان الشعب حديث عهدٍ بالديمقراطية، فرحًا بها، يراها الناس كما يرعون أبناءهم، ويحرصون عليها حرصهم على حياتهم، يخافون عليها أكثر من رغبتهم في ممارسة حُرَّيتهم وتعبيرهم عن آرائهم، ما كان النَّاس في تلك الأيام يتسرعون في غضبهم، إلا بعد تمحيص، وتدقيق، وتمهل، ومُصابرة.. خصوصًا وأن زُملاء العيادة من المرضى، هم من أبناء الستين والسبعين والثمانين.

يقول الإسبان عن وضعنا كأمهات شابات، أنه مريع وفظيع، وخصوصًا أننا نعيش بعيدًا عن أمِّ تُساعدنا وتمدُّ إلينا يدَ العون، وعن أبٍ يحمل معنا مسؤولية أطفالنا، وجدِّ وجدَّة يأخذانهم من المدرسة ويُعطيَانهم العصرية⁽¹⁾ في الحديقة، ريثما تَخْلُدُ الأمُّ إلى الراحة والاعتناء بنفسها قليلًا! ما كان الإسبان يعرفون أننا في الشَّام وفي هاتيك السنوات، لا نعرف كثيرًا عن هذا، تتزوج البنت، فتَفْقِدُ علاقتها الطبيعية بأهلها - إلا من رحم ربي - الأمُّ والأبُّ والإخوة - يُصْبِحون غُرباء في حياتها الزوجية، لا تَصِلُهم بها إلا

(1) عصرية: كلمة عامية تعني وجبة الطعام الثالثة التي تعطى للأولاد عادة عصرًا وفي الحداث والملاعب.

المناسبات والأعياد والهواتف بين الأم وابنتها، وتقتصر علاقة المرأة بأهل زوجها على خِدْمَتِهِم ورعايتهم، واحتمال شكواهم وسَقْمِهِم ونَقَّهِم الدائب على رأسه لكي يرى عُيُوبَ زَوْجِهِ، الْمُقْصَّرَة بالنسبة إليهم أبدًا في كُلِّ شيء، رغم تفاني الكثيرات من الكنائن في خِدْمَتِهِم وطلب رضاهم! وأما الأزواج أنفسهم في دمشق فلا يعرف مُعْظَمُهُم ماذا يعني تقديم العون والمساعدة في تربية أبنائهم، وكأنَّهم لم يُجْعَلُوا آبَاءً إِلَّا لشيئت ألقابهم لدى أبنائهم!

تقع على عاتق المرأة مسؤولية القيام بالبيت والأسرة وخدمتهما ورعايتهما.. وليس لِمَن حولها إلا الشكوى ومطالباتها بأن تكون «المرأة الخارقة»، ترعى خمسة أطفال على الأقل، تقوم على شؤون البيت، من طبخ ونفخ وغسل وشطف، وتمثّل لأوامر الزوج، كإنسانة آلية يجب أن تتحرك بما يأمرها وينهاها، فضلًا عن خدمة الحماة والحمو - إن وُجِدَا - وقيامها بالواجبات الأسرية والاجتماعية، لإرضاء أهل الزوج وأصدقائه وأقربائه وجيرانه وزملاء عمله! بالإضافة إلى أن كثيرات في دمشق، يُقْمَن إلى جانب مَهَامِهِنَّ التّعجيزية هذه، بواجب العمل والمساعدة في إعالة الأسرة!

كانت معظم النساء في دمشق، في هاتيك الأيام لا يجدن أي نوع من أنواع المساعدة العائلية، التي تتمتع بها النساء في إسبانيا، وما تعيشه معظم الأمهات الشابات في ذلك الوطن، لا يختلف كثيرًا عما يعاينُهُ في الغُربة .

أُسْرُنَا هنا تعيش ضِمن بوتقة جالية تتحرك كلّها في اتجاه واحد، عندما يتعلّق الأمر بالنزهات والرحلات والنشاطات العامة والخاصة، أما في ساعة الحاجات المُلِحَّة، فإنك لا تكاد تجد أحدًا يُمَدُّ لك يدّ مساعدة، أو يقف معك في مِحْنة حقيقية، أو

يقوم تجاهك بما يمكن أن يقوم به الأخ الشقيق، إلا القلة النادرة
الإستثنائية.

مجرد التفكير في وضعنا هذا في مدريد مُحزنٌ ومُحِطٌ جداً..
كانت طبيعة التعامل بين نساء الجالية، تشبه إلى حد بعيد
طريقة تعامل مُعظم الأرحام فيما بينهم في بلادنا.. أخلاقٌ،
كالحسد والتنافس السلبي وبُخل الأنفس، كانت تحكم معظم
علاقاتنا فيما بيننا.

وضعي مع إبتني الرضِعة المسكينة في ذلك الرّواق في
المشفى، حيث الضجيج يبلغ حدًّا لا يُطاق، والحرارة تصل
درجة الإختناق.. كان مؤلماً حقاً، رضِعة صغيرة ما كان ينبغي
إصطحابها معي إلى المشفى، كما لا يُمكن تركها مع شغالة تحتاج
هي إلى الرعاية والتوجيه، كان معظم النَّاس في جاليتنا لا يثق
بعضهم ببعض، إلى درجة تَخَوُّفهم من ترك أولادهم لدى بعضهم
البعض لزيارة طبيب مثلاً، مخافة أن يتفلت لسان الأولاد بأسرار
البيوت! كانوا يَمْنَعون عنك المساعدة، وكانوا يَمْنَعونك بصورة أم
بأخرى من مجرد طلبها!

دبر نفسك.. فهذه إحدى فروع «حارة كلّ مين إيدو إلو»⁽¹⁾!!
إمتدت تلك الحارة المقيّنة، ولحقت بنا ونشبت أظافرها في
أكتافنا، على الرّغم من الغربة - والبُعد.. فكأننا لم نَتَغَرَّب ولم
نَبْتَعِد.

لا أحد غيري هنا في عُرفة الإنتظار «المؤبد» هذه، يجد
ما يُعَكِّر صَفْوَ إنتظاره أو غَفَوَتِه، من التفكير في راعية أطفال
لم تتجاوز السادسة عشرة من العمر، إضطرت أن أترك معها

(1) مصطلحٌ شامي يعبر عن حالة الأنانية، وتفسخ المجتمع، وعدم قيام بعض
أفراده بواجباتهم تجاه بعض.

أولادي، ولا ما يُقلق راحتهم، من اقتراب مَوَعِد الغداء، وانتهاء
دَوْرَةِ الغَسَّالَةِ، وضرورة تلبية حاجات أسرة «كبيرة»، كأسرتي
المؤلفة من خمسة أفراد!

لا مصير الغسيل المنشور خوف نزول المطر، ولا ضُحون
الجلي التي تنتظر التنظيف، ولا هذه البنت الإسبانية نصف
المجنونة التي تُساعدني في بعض أعمال البيت، ولا تقوم
بَعْمَلَيْنِ معاً - كما قالت - فيما رعاية الأولاد في غيابي، وإما غسل
الصحون! وهذه نفسها هي التي تَحْسُدني على إستخدامِها -
أربع ساعات في بيتي أسبوعياً - نساء الجالية المبعجلة في مدريد،
وَيَنْعَوْنَ علي أنني أُحْمِلُ زوجي من المصروفات ما هو فوق
طاقته، وما يَفْتَأَن يَغْمُزَن ويَلْمِزَن بسبب مرض قلبي، حتى إن حماة
إحداهن التي تأتي للزيارة كلَّ صيف، وكانت تُؤدِّي دورَ حماةِ
الجميع، قالت لي بلهجتها الفِلَسْطِينِيَّة - الجميلة، تُداعبني أمام
جمع حافل:

- الله يكون بعون أبي سَاجِدَة.. يا ترى كان يعرف قبل ما
يخطبك، أنك مريضة بالقلب؟! مسكين والله، هل أخبره أهلك
أنك مريضة، أم أخفوا عنه مرضك؟!

- لا والله يا حَاجَة أهلي ما كانوا يعرفون بمرضي هذا، الذي
لم نكتشفه نحن أنفسنا إلا قبل عام!

- لا... أكيد أهلك عارفين وخبوا على الزلمة مشان يُمَشُوكِ!
- طبعاً يا حَاجَة أَجَلِّكِ الله، أنا كنت عند أهلي بقرة، واضطروا
أن يُخفوا عن زوجي الأمر، لكي يتخلصوا!... وأنتِ يا حَاجَة؟
هل كان أهلك يعرفون بمرض السُّكَّر، والضغط، والقلب،
والروماتزم، والكبد، والحصاة، المصابة بها؟ الله يعافيك ويعافينا.
شو عم تقولي؟؟ أنا كُنت مثل الفُلَّة، هو أبو الأولاد الله

يرحمه عاد، راح لعند اللي خلقه، هو الذي تسبب لي بهذه الأمراض كلّها!

- يا حاجة إتقي الله، أين الإيمان بالقضاء والقدر، والمحنة والإبتلاء؟ الأمراض يا حاجة كلّها، تكون كامنة عند الإنسان، وتخرج مع تقدّمه في العمر، ومُعظمها يرثها النّاس، ويُولدون بها.. ثم لماذا لا يكون أبو أولادي هو الذي تسبب لي بهذا المرض، كما فعل أبو أولادك؟؟؟!

- لا.. لا.. لا أعوووووووذ بالله! أنا كنت مثل الفلّة، ما في عيب ولا مرض، أعوذ بالله.. ثم ماذا تقولين؟ ثمّ إن زوجك مثل السُّكّرة لا يمكن، لا يمكن، ما هو طبيب فكيف سيأتيك بالأمراض؟!

بعدين مسكين هو إشو حكى؟⁽¹⁾

- وماذا سيقول يا حاجة... قال إنه سيُعيدني إلى أهلي، ويطلب منهم تعويض عطلٍ وضرر!! ويمكن أن يُطلّقني قريباً ويخطب امرأة أخرى! هل عندك عروس مستكملة الشروط يا حاجة؟؟ ولكن هذه المرة سيقوم بطلب كشف عن صِحّتها بالتفصيل، وسيجري دراسة جينيّة، دفعاً للاحتِمالات المستقبلية، ولن يَعتدّ العقد، حتى يتأكّد من سلامتها من العيوب والأمراض، ومن احتمال الإصابة بها، يعني ينبغي أن يشمل «الكشف الطبي» أمها وأباها وإخوتها، أنت عارفة يا حاجة، أهل الشّام لا يمكن أن يخطبوا لأبنائهم أي بنت عندها أي أخ مريض، أو أخت مصابة بشلل الأطفال، أو عمّ عنده روماتزم، أنت عارفة يا حجة أهل الشّام كلّهم سورييهم وفلسطينيهم «خَرَطَهُم الخراط ثمّ انقلَب فمات»!

(1) إشو حكى؟: صيغة عامية وأصلها «أي شيء قاله؟»، أو «أي شيء فعله؟».

- يا لطيف يا أم ساجدة شو بتحبي المزح والضحك.. والله موتيني من الضحك.

كنت هناك في غرفة الانتظار، الوحيدة الجديرة بالإعتراض،
أو على وجه الدقة كنت المرشحة لقيادة حملة الاعتراض، التي
لم نخرج منها بشيء، غير مزيد من الوجوه الجلطة الطويلة،
ونظرات الإحتقار لأمثالنا من المرضى، لا ذنب لهم إلا أنهم
قد أُصيبوا جميعهم بشيء في القلب، واجتمعوا في هذا الممر،
حَفَّتْهم فيه الزفرات، والآهات، وعَشِيَهُم فيه ما عَشِيَهُم من الأطباء
والممرضات، يتفننون في قرع قباقيبهم الطبية على الأرض
الصقيلة، وقع موسيقاها الأثومة يسقط مباشرة على شِغاف قلوبنا
المكلومة.. فكلما دخل أحد وُجَّهَاء تلك العيادات أو خرج، صَفَعَ
الباب وراءه صفعَةً توقظ كلَّ خلية من خلايا دماغ هؤلاء المرضى،
الذين استسلموا للنوم شيخوخة وسأمًا.

أخيرًا جاء دوري، وأصبحتُ وجهًا لوجه مع طبيب القلب،
يُحَدِّثُني بنظرة من أعلى حجابي إلى أخمصِ حذائي، ثم يستديرُ
ويقول لي بقرٍ شديد: من أي منطقة من إفريقيا أتيت؟

أجيبه وأنا أشد منه قرفًا: أنا من دمشق، ودمشق تقع في آسيا.
يصيح على حين غرة: ومتى ستوقفون هذه الحرب المُشْتَعلَة
هناك؟

أصبح مثله: في سوريا لا يوجد حرب.

يقول وهو يُعَرِّب عن إطلاعٍ واسع: بلى في لبنان حرب،
حربٌ رهيبة طاحنة!

- بيروت ليست في سوريا.

يقول وهو يُقَلِّب الأوراق، ويُعلِقُ جُزءًا من عشرة أجزاء من
إبتسامة ساخرة على طَرَف شَفَتِهِ السُّفلى، وفي سخرية واضحة:

- أووووووه من فضلك! ماذا تقولين؟ طبعًا بيروت في

سوريا؟؟! إقْرئي الصحف لِتَعرُفي أن بيروت في قلب سوريا؟
إسألني شقيق رئيسكم عن ذلك، وميليشياته المُسلّحة، التي تحتل
لبنان للقضاء على مَسِيحِيي الشّرق!.. كلّ بلادكم مثل بعضها، كلّ
حكوماتكم مُتَعَفِّتة، وكلّهم ضالعون في هذه الحروب التي تجري
شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً، في كلّ دولة من دُولكم، سيأتي الدور
على سوريا وستشهد حرباً فظيعة.

- الحرب في لبنان، حرب دُولية، تُديرها دُول العالم هناك،
بأشلاء ودماء اللبنانيين والفلسطينيين، الموضوع لا يتعلق
بمسيحيين ولا بمسلمين.

يَنْظُرُ إليّ مُرتاباً مُستَغْرِباً، يَسْكُتُ.. يفكّر قليلاً، ثم يعود إلى
الصياح بي، مُستفسراً وهو يقرأ التقرير الطيّب الذي أمامه:
- ولكن ما اسمك بالضبط؟؟ فناس.. كناس.. سييات..
نابال.. ما اسمك؟

أكتبُ له اسمي بوضوح، على ورقة كانت معي وأعطيه
إياها، فيُتمتم، ثم يسأل من دون أن يرفع رأسه: وتعرفين الكتابة
بالإسبانية؟ وَيَسْتَدْرِك: من أين جاءك مرض القلب وأنت شابة
صغيرة؟ كم عمرك بالضبط؟؟

فأقول على الفور: من العيش في إسبانيا!
يرفع رأسه غاضباً ويرميني بنظرة قاسية، فأتبسم ابتسامة
صفراء لا معنى لها خوفاً منه، يعود يقلب أوراقه، ثم يصرخ من
جديد، مُعتبراً أنني لا أفهم عليه إلا إن رفع صوته، كما يفعل كلّ
الإسبان مع الأجانب، كأنّ رَفَعَ الصوت يُوصِلُ المعنى للإنسان لا
يعرف لُغَتَكَ:

- ثمانية وعشرون عاماً ولديك ثلاثة أطفال؟ إذا كم من
الأولاد ستكونين قد أنجبت، عندما تكونين في الأربعين؟ أين هو

هذا المجرم زوجك؟ لماذا لم يأت معك، وتركك تأتين مع هذه
الطفلة المسكينة وحدك إلى المشفى؟

يرمق طفلي بنظرة لطف وإعجاب، ويسأل: أم هي ولدٌ
ذكر؟ إياك أن تقولي لي، إنك ستستمرين في إنجاب البنات حتى
يأتيك الولد!! هذا ما قالته لي سيدة سورية زارتني في عيادتي، سبع
بنات وهي حامل، قالت، إنها لن تتوقف عن الإنجاب حتى تُرزق
بالصبي، وإلا فإن زوجها سيتزوج عليها من أجل أن يكون لديه
صبي! أنتم قوم مجانين، مختلون، وفوق هذا لا تؤمنون بالرب...
لو كنتم تؤمنون به لعرفتم أنه هو الذي يرسل الأولاد أو البنات،
ولتوقفتم عن هذا العبث بحياة البشر، تخلفونهم في الشوارع
للجوع والتشرد.

لا جواب لدي، فما قاله حق، وأنا مؤمنة به تمامًا.
مُسكت قول الحق.. ملجئ الغيظ من كلمة الحق في أفواه
الثقلاء.

يتشجع الرجل بسبب سُكوتي، ويمضي بصوتٍ أقل حدة:
- أنا فعلاً غير قادر على الفهم! كيف تستطيعون إنجاب
الأولاد بهذا الشكل؟ كيف تستطيعون القيام بواجب تربيتهم؟
كيف يأخذ كل واحد منهم حظه من العطف والحنان والعناية
والاحترام، وهم مُتراكمون بين أيديكم مثل كتلٍ من لحمٍ مُضَيَّع؟
هل تفكرون في مستقبلهم؟ هل تعرفون كم هي كلفة تنشئة كل
ولدٍ وتعليمه؟!... لا... لا تقولي شيئاً! لقد زُرْتُ المغرب وزُرْتُ
سوريا، ورأيت بعيني هذا الوضع، كان عندي طالبٌ سوريّ لديه
أربعة عشر أخاً، أمهم لا تكاد تعرف واحداً من واحد منهم!.. لا
تقولي لي دمشق وآسيا وإفريقيا... كلُّكم واحد مُشابهون!

يأخذ نفساً عميقاً.. ويتابع: طبعاً... أنتم لا تفكرون في شيء

من ذلك كله، تُنجبون وترمون الأولاد في الشوارع، ثم إن على أوربا أن تحتمل كل هذا الغناء!

من دون أن ينظر، يلمح خارطة القهر التي ارتسمت في وجهي، بعد هجومه ذاك على مريضة تزور عيادته، يصمت وهو يكتب التقرير⁽¹⁾، تركني مع هواجسي عشر دقائق مرّت طويلة جداً، وهو يتفحص نتائج الإلكترول والايكو وتحليل الدم.

كنت أتفحصُ قسّات وجهه، يعرف أنني أرنو إليه في تحدٍ وقهرٍ وغضب، فلا ينبس ببنت شفة، أتشغل عنه، أجول ببصري في الغرفة، فأجد اللوحة التي على مكتبه مكتوب عليها: البروفسور «دُل الكاستيو»⁽²⁾ أخصائي أمراض وجراحة القلب رئيس قسم العيادات الخارجية .

لم يكن رجلاً سيئاً «دُل الكاستيو» هذا، لم تكن ملامح وجهه تنم عن حقدٍ وسوء نيّة، ربما يظن أنه بهجمته التوبيخية تلك، على شابة مصابة بمرض في القلب في عيادته، سوف يُغير مصير الإنسانية!

أرفع رأسي فأتفاجأ، بصورة صغيرة علّقها على الحائط وراء كرسيه مباشرة، لِلْمُنَجِّم «رابيل».. المتنبئ الإسباني الشهير!! وهو أحد الذين تنبؤوا بغزو المسلمين لإسبانيا عام الألفين وإعادة احتلالها! أشعر بخيبة أملٍ شديدة في البروفسور، أستاذ الجامعة الكبير الصغير «دُل الكاستيو» هذا، صغير الجسم، عظيم العلم، صعب المراس، سَخيف التطلّعات، تتنازع مشاعر الغضب والرفض لهؤلاء الموروس، لكنه يُغلفها بادعائه الغيرة على

(1) في تلك الأيام كانت تقارير الأطباء تكتب باليد، ولم تكن التقنيات قد دخلت كل مناحي أجهزة العناية الصحية في إسبانيا، فأحدثت فيها ثورة معلوماتية.

(2) Del castillo لقب عائلة إسباني عريق، يعني بالعربية: «سيد القلعة».

مَصْلَحَتِهِمْ.. وبمشاعر أبوة قاسية، يُحاول حلّ مشكلته هو، وليس
مشكلتي أنا!

كان ذلك، الدكتور «دِل الكاستيو» طبيب «قلبي» خلال
السنوات اللاحقَات، والذي كان من أكثر الأطباء الذين عرفتهم
إنسانيةً ونبلاً، وما خلا طبيبين اثنين فقط، فإن معظم من عرفتهم
من الأطباء والمرضى، قد دفعوني بتصرفاتهم المؤذية، لاتخاذ
قرارٍ شخصيٍّ «تاريخيٍّ»، بترك مُراجعة أيّ طبيب خاصٍّ بي على
أرض إسبانيا، خلال خمسة عشر عاماً قضيتها أعالج نفسي في
البيت، إتقاءً لشرورهم وأذاهم.

يرفع الرجل رأسه بعد ساعة من الزمن، وقد ظننت أنه نسي
وجودي، ويسألني في عصبية ونزق: ماذا تعملين؟ أجيبه لأغيطه:
إنني أفكر!

يعود فيسألني بتأفف: أسألك عن مهنتك؟ هذا إن كان لديك
مهنة؟

قلت: نعم.....

وقبل أن أتم العبارة التي كنت أنوي التلّفظ بها، يقاطعني بعد
ال «نعم» ويكتب في التقرير.. «عاملة تنظيف».

أتفرس في وجهه في عناد، وأقول له في حُنيٍّ وتشفٍ: أنا
كاتبة!

يرفع رأسه ويثبت نظارته على أنفه، يتردد ثم يقول: وأي
شيء هو هذا؟

أقول في هدوءٍ شديد: كاتبة... وأهجي له الكلمة بالإسبانية
حرفاً حرفاً!

«كاتبة».. المهنة التي أزاولها في أوقات فراغي، أو الموهبة
التي أحملها منذ وعيت أنني أحيَا في هذه الحياة، أو «البلاء» الذي

وُلِدْتُ مُتَلَبِّسَةً بِهِ، أَوْ «الْعَاهَةِ الْخَلْقِيَّةِ» الَّتِي أَتَعَايَشُ مَعَهَا! «كَاتِبَةٌ»..
الشَّيْءَ الَّذِي فَهَمُّهُ وَتَعَلَّمْتُهُ عَنْ نَفْسِي مِنْذُ وَصَلْتُ هَذِهِ الْبِلَادَ.

أَخَذَنِي «أَبُو سَاجِدَةَ» لَزِيَارَةِ الْمَرْكَزِ الثَّقَافِيِّ الْإِسْلَامِيِّ فِي
غَرْنَاطَةِ، وَهَنَّاكَ وَعَلَى الْمُنْضَدَةِ الْمُتَوَاضِعَةِ الَّتِي جَلَسْنَا إِلَيْهَا، تَنَاوَلْ
عَدَدًا مِنْ «مَجَلَّةِ الرَّائِدِ» الْإِسْلَامِيَّةِ - الْأَلْمَانِيَّةِ، وَقَالَ لِي مَازَحًا:
هَذِهِ هِيَ الْمَجَلَّةُ الَّتِي سَتَكْتُبُ فِيهَا طَوَالَ حَيَاتِكَ!

بَعْدَ عَامَيْنِ، عِنْدَمَا زُرْنَا «عَصَامَ الْعِطَارَ»⁽¹⁾، وَ«نَبِيلَ شَيْبِيبَ»⁽²⁾
فِي أَلْمَانِيَا، كَانَا يَتَوَجَّهَانِ إِلَيَّ بِالْكَلَامِ عَلَى أُنْيِ «كَاتِبَةٍ»، وَكَانَ
الْأُسْتَاذُ الشَّيْخُ يَتَحَدَّثُ فِي جَمْعٍ مِنَ النَّاسِ عَنِ الْكِتَابَةِ وَالْكِتَابِ
قَائِلًا: «نَحْنُ» مُعَاشِرُ الْكِتَابِ أَمَّ سَاجِدَةَ وَنَبِيلَ وَأَنَا!

أَمْرَانِ كُنْتُ أَجْهَلُهُمَا عَنْ نَفْسِي فِي دِمَشْقَ، اكْتَشَفْتُهُمَا هُنَا
فِي غُرْبَتِي، أَوَّلَهُمَا: أُنْيِ كَاتِبَةٍ، مَدِينَةُ أَنَا لِإِسْبَانِيَا وَلَأَبِي سَاجِدَةَ
وَلِعَصَامِ الْعِطَارِ وَلِنَبِيلِ شَيْبِيبَ، بِأُنْيِ أَصْبَحْتُ أَعْرِفُ وَأَعْتَرِفُ
لِنَفْسِي بِأُنْيِ كَاتِبَةٍ.

وَالثَّانِي: أُنْيِ إِنْسَانَةٍ!.. وَلِإِسْبَانِيَا الْفَضْلَ فِي ذَلِكَ مَعَ
الْإِمْتِنَانِ، فَفِيهَا أَدْرَكْتُ أُنْيِ إِنْسَانَةٍ، وَأَنْ مُعَامَلَتِي لِنَفْسِي كِإِنْسَانَةٍ،

(1) عَصَامُ الْعِطَارُ، الْقِيََادِيُّ الْإِسْلَامِيُّ، وَالْبِرْلَمَانِيُّ السُّورِيُّ السَّابِقُ، أَحَدُ
كِبَارِ رِجَالِ سُورِيَةِ مِنْ جَيْلِ مُصْطَفَى السَّبَاعِيِّ وَنَزَارِ الْقُبَانِيِّ، وَكَانَ قَدْ
غَادَرَ دِمَشْقَ لِلْحُجِّ فَمَنْعَهُ النِّظَامُ الْبُعْثِيُّ مِنَ الْعُودَةِ، قَامَ رِجَالُ النِّظَامِ بِقَتْلِ
زَوْجَتِهِ «بَنَانِ عَلِيِّ الطَّنْطَاوِيِّ» وَهِيَ فِي بَيْتِهَا فِي مَدِينَةِ آخُنِ الْأَلْمَانِيَةِ عِنْدَمَا
إِقْتَحَمُوا الْبَيْتَ فَلَمْ يَجِدُوهُ، أَدِيبٌ، شَاعِرٌ، كَاتِبٌ، دَاعِيَةٌ إِسْلَامِيَّةٌ، مُثَقَّفَةٌ
كَبِيرَةٌ، وَكَانَ مِنْ مَشَاهِيرِ السِّيَاسِيِّينَ الْأَوَائِلَ فِي سُورِيَا إِبَانُ عَهْدِ الْإِسْتِقْلَالِ.

(2) نَبِيلُ شَيْبِيبَ، الْفِلَسْطِينِيُّ - السُّورِيُّ، الْكَاتِبُ الصَّحْفِيُّ، وَالْمَحَلَّلُ
السِّيَاسِيُّ، وَالْأَدِيبُ، أَحَدُ أَهَمِّ تَلَامِذَةِ الْعِطَارِ وَمُرَافِقِيهِ، رَئِيسُ تَحْرِيرِ
مَجَلَّةِ «الرَّائِدِ الْإِسْلَامِيَّةِ» الرَّائِدَةِ فِي أُورُوبَا خِلَالَ عَشْرِينَ عَامًا، كَانَتْ فِيهَا
مَنَارَةٌ عِلْمٌ، وَتَوْجِيهٌ فِكْرِيٌّ، وَأَدِيبِيٌّ، وَسِيَاسِيٌّ، وَثَقَافِيٌّ لَشَرَائِحَ وَاسِعَةٍ مِنَ
الْمُسْلِمِينَ فِي الْغَرْبِ.

ينبغي أن تتقدّم على أيّ صفة أخرى.. إنسانة قبل أن أكون مواطنة،
أو امرأة، أو زوجة، أو أمّاً، أو سورية، أو وافدة، أو غريبة أو كاتبة..
اكتشفتُ هنا أبعاد إنسانيّتي، على الرّغم من كلّ تصرفات الإسبان،
التي ويوعّي أو من دون وعي منهم، بقصد أو من دون قصد، كانت
تتنزّع من الغريب إنسانيّته إنزاعاً، وترمي به في دياجير شعوره بأنّه
مُسلخٌ ومُختلف وغريب!

عرّفتُ هنا في غربتي أنني «كاتبة»، على الرّغم من أنّي أتيتُ
من سوريا، ولديّ كتابٌ مطبوع منذ عشرة أعوام، كتابٌ هو أقرب
إلى كونه منشور غضبٍ واعتراضٍ طويلٍ عريضٍ، من أن يكون
كتاباً أدبياً أو فكرياً، وحملتُ معي في حقائب سفري مُسوّدة
كتاب آخر، اصطحبتها معي إلى إسبانيا، على الرّغم من الخطر
والمخاوف الهائلة المتعلّقة بحمل هكذا مخطوطة إلى خارج
البلد، في أيام القلاقل والمجازر والملاحقات والاعتقالات التي
شهِدتها سوريا في تلك الحقبة التي غادرْتُها فيها في آخر أسبوع
من عام 1980.

كان مجرد إكتشاف تلك الأوراق في حقيّتي، لدى مُغادرتي
سوريا، كفيلاً بتحولي إلى السّجن الرّهب مباشرة، لم أستطع إلا
أن أصطحبها معي.. وقد لَطَفَ الله وسلّم.

تلك كانت خواطري، كتبها خلال أعوام الجامعة، المريعة،
الغنيّة، الثريّة، والعصيّة.

في دمشق كنتُ مُجرد «بنتٍ مُشاغبة»، «مُثيرة للمُشكلات»،
«ذات حماس وتوفّر»! صفات كهذه كانت تُطلّق بكثيرٍ من
السُّخرية على كلّ صاحب موهبة من المُحافظين، أو من
المُتدبّنين، أو من غالبية هذا الشّعب المَحروقة أنفاسه.

وما لم يكن صاحب الموهبة، بعثياً موالياً، أم مُعارضاً يسارياً،
أو ينتمي إلى إحدى الأقليّات في البلد، أو يدور في فلك إحدى

الجماعات الدينية - المشهورة! فهو كصاحب موهبة، غريب الأطوار، شاذ، ومزعج جداً! يقتله ناسه من حوله، يحشر أنوفهم في كل صغيرة وكبيرة في حياته، تغريهم موهبته اللعينة لشعر عرضه على جبال ألسنتهم، بالحق وبالباطل!

يَخْنُقُكَ الْمُجْتَمَعُ الدَّمَشْقِيُّ الْمُتَعَفِّنُ بِعَفْنِهِ، قَبْلَ أَنْ تَعْلَمَ مُخَابِرَاتِ الدَّوْلَةِ الْعَتِيدَةِ بِوُجُودِكَ، وَقَبْلَ أَنْ يُعْتَقَلَ مِنْ سَوَّلَتْ لَهُ نَفْسُهُ شِرَاءَ نُسَخَتَيْنِ مِنْ كِتَابِكَ الطُّفُولِيِّ الْإِحْتِجَاجِيِّ الشَّاجِبِ، إِصْطَحَبَهُمَا مَعَهُ مِنْ بِيْرُوتَ، لِيُعْتَقَلَهُ رِجَالُ الْمَخَابِرَاتِ عَلَى الْحُدُودِ، وَيُرْسِلُونَهُ إِلَيْكَ بِرِسَالَةٍ مُفَادُهَا، أَنَّ يَدَكَ الَّتِي تَكْتُبُ بِهَا، سِوَاءَ أَكَانَتْ الْيُمْنَى أَمْ الْيُسْرَى.. سَتَكُونُ نَهَائِثَهَا فِي مَفْرَمَةِ «آلَةِ فَرَمِ اللَّحْمِ»، الَّتِي يَسْتَعْمِلُونَهَا فِي أَقْبِيَةِ التَّعْذِيبِ لِمِثْلِ هَذِهِ الْمُنَاسَبَاتِ!

يسألني الطبيب قاطعاً علي سياحة أفكارِي: كاتبة على الآلة الكاتبة؟!

قلتُ له مُتَشَفِّئَةً: بل كاتبة، ك... ا... ت... ب... ة... كاتبة مقالاتٍ وكتبٍ E.s.c.r.i.t.o.r.a.!

يتساءل باستغرابٍ شديد: كتب؟ كتب؟

أجيبه: نعم يا دكتور.. آسفة جداً، لكنني كاتبة كتب.. لدي ثلاثة كُتُبٍ مطبوعة إلى جانب البنات الثلاث، وأكتب في ثلاث مجلات.. على الرغم من أنني في الثامنة والعشرين من عمري!

لستُ كاتبة مشهورة، ولا من الطراز الرفيع، ولكنني كاتبة! يُتَمِّمُ وَيُوشِوشُ فِي تَعْجَبٍ وَاسْتِسْلَامٍ: مَا ظَنَنْتُ أَنْ إِمْرَأَةً مُسَلِّمَةً يُمْكِنُهَا، أَوْ يُمْكِنُ أَنْ يَتْرُكُوهَا، تَفْعَلُ شَيْئاً غَيْرَ إِنْجَابِ الْأَوْلَادِ وَتَنْظِيفِ الْبُيُوتِ.

في هدوءٍ وقد أشفقتُ على شَيْئَتِهِ، أَعْلَقْتُ: كَثِيرَةٌ هِيَ الْأَشْيَاءُ الَّتِي لَا يَعْرِفُهَا بَعْضُنَا عَنْ بَعْضِنَا الْآخِرِ يَا بَرُوفْسُور.

يَمْتَعِضُ الرَّجُلُ وَيَشْعُرُ بِالْخِزْيِ، وَلَعَلَّهُ خَافَ أَنْ أَسْجَلَ
حَدِيثَهُ مَعِي، فِي أَحَدِ مَقَالَاتِي أَوْ كُتُبِي ذَاتَ يَوْمٍ.. يَقُولُ: عَلَى أَيِّ
حَالٍ، لَدَيْكُمْ الْكَثِيرُ مِمَّا يَجِبُ عَمَلُهُ لِإِنْقَاذِ بِلَادِكُمْ.. لَا تَتَفَلَسَفِي
عَلَيَّ بِأَنَّكَ مِنْ سُورِيَا الْأَسَدِ الْمَجْرَمِ.. وَالشَّعْبُ السَّاكِتُ! سَتَنْفَجِرُ
بِلَادُكُمْ هَذِهِ الَّتِي تَفْخَرُونَ بِهَا يَوْمًا مَا، أَنَا أَعْرِفُ الْكَثِيرَ عَنْكُمْ،
هُوَائِيَتِي الْإِطْلَاعَ عَلَى أَوْضَاعِ النَّاسِ فِي الْبِلَادِ الْمُقَدَّسَةِ.

أَجِيبْهُ بِنِيَّةٍ نَصَالِحِيَّةٍ: أَوَافَقُكَ الرَّأْيَ يَا دَكْتُورَ، وَنَسْأَلُ اللَّهَ
الْلُّطْفَ وَالسَّلَامَةَ لِسُورِيَا وَأَهْلِهَا.

أَرَى خَارِطَةَ الْأَلَمِ الَّتِي كَانَتْ عَلَى وَجْهِهِ وَفِي قَلْبِي، تَنْتَقِلُ
إِلَى وَجْهِ الرَّجُلِ، أَسْتَاذِ الْجَامِعَةِ الْكَبِيرِ، الصَّغِيرِ، عَصَبِيِّ الْمَزَاجِ،
طَيِّبِ الْقَلْبِ، سَيِّئِ الْخُلُقِ.. نَحْنُ بَشَرٌ، مُجَرَّدُ بَشَرٍ يَتَأَلَّمُونَ،
يَسْأَلُونَ، يَبْحَثُونَ عَنْ شَيْءٍ يَتَمَسَّكُونَ بِهِ مِنْ حَقٍّ أَوْ حَقِيقَةٍ.

يَقُولُ لِي فِي بَرَّةِ أُبُوَّةٍ، وَبِصَوْتٍ أَكْثَرَ تَوَاضُعًا، وَهُوَ يَتَشَاغَلُ
بِفَحْصِ الصُّورَةِ الشَّعَاعِيَّةِ لِقَلْبِي: لَدَيْكَ صِمَامٌ مُصَابٌ فِي الْقَلْبِ
إِصَابَةً طَفِيفَةً جَدًّا، لَكِنَّكَ شَابَّةٌ وَقَوِيَّةٌ، وَلَا أَجِدُ أَيَّ حَاجَةٍ لِمُنَاقَشَةِ
أَيِّ شَيْءٍ يَتَعَلَّقُ بِعِلَاجٍ أَوْ عَمَلِيَّةٍ جِرَاحِيَّةٍ، قَبْلَ مُضِيِّ ثَلَاثِينَ
عَامًا عَلَى الْأَقْلَ، خَفَفْنِي مِنْ أَكْلِ الْمِلْحِ، وَامْشِي كَثِيرًا، وَمَارِسِي
الرِّيَاضَةَ، وَإِيَّاكَ أَنْ تُنْجِبِي الْمَزِيدَ مِنَ الْأَوْلَادِ.. وَقَبْلَ ذَلِكَ كُلِّهِ،
غَيْرِي مِهْنَتِكَ، وَاتْرَكِي الْكِتَابَةَ، لَتَرْتَاحِ أَعْصَابُكَ، وَقَلْبِي مِنْ
الْكَلَامِ.. فَإِنَّ لِسَانَكَ طَوِيلٌ وَمُخِيفٌ!

إِبْتَسَمْتُ وَشَكَرْتُ الدَكْتُورَ «دِلَّ الْكَاسْتِيو»، وَدَفَعْتُ عَرَبَةً
طِفْلَتِي الَّتِي أَنْهَكَتْهَا مُرَافَقَتِي فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ إِلَى عِيَادَةِ طَبِيبِ
الْقَلْبِ، ثُمَّ التَفْتُ إِلَى الْبَرُوفُوسُورِ وَأَنَا خَارِجَةٌ مِنْ عِيَادَتِهِ، وَقُلْتُ لَهُ
وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَى صُورَةِ الْمُنَجِّمِ وَرَاءَهُ: نَسِيتُ أَنْ أَخْبِرَكَ يَا دَكْتُورَ، أَنَّ

زوجي لم يستطع مرافقتي اليوم لأن لديهم عمليات مُبرمجة، في مشفى «خِتافِه»⁽¹⁾، ولم يستطع الاعتذار عنها لُرافقتني.



لَمْ أَتْرُكْ تَنَاوُلَ الْمِلْحِ لِأَنِّي وَجَدْتُ الْحَيَاةَ مِنْ دُونِ مِلْحٍ لَا طَعْمَ لَهَا وَلَا بَهْجَةَ.

كما لم أستطع مُزاوَلَةَ غير رياضة المَشْيِ، لأنني لم أجد مكاناً أُمَارِسُ فِيهِ الرياضة، من دون تَحْرُشٍ وَإِيْذَاءٍ وَضُغُوطٍ هَائِلَةٍ، مِمَّنْ يُمَارِسْنَها معي من نساء الحيّ والجيران، مما حملني على ترك النّادي الرياضيّ بعد أول جلسة، ولعلّ السبب الحقيقيّ لتركه أنني لا أكادُ أَجِدُ لحظة فراغٍ واحدة، في أيامي المُكْتَظَّة بِخِدمَةِ بيتي، والعناية ببناتي، والمُشارَكَة في الواجبات الإِجْتِمَاعِيَّة الكثيرة التّافهة والفارِغَة من أيّ فائدة تُرْجى منها، كانت تَقْرُضُها في هاتيك الأيام، أعمارُنَا، وشبَابُنَا، وَغُرْبَتُنَا، ووجودُ أطفالِنَا وحَدَثِهِم، دون عَائِلَةٍ كَبِيرَةٍ يَأْوُونَ إِلَيْهَا.. أو وبكلّ بساطة، وكما يقول أبو سَاحِدَة صَاحِبُ الحِزَامِ الأسود في مُصَارَعَةِ الجودو: إنه الإِهْمَال، وترك الإِصرار والتّصميم وتحدي هذا المُجْتَمَع، الذي يفرض علينا أن نبتعد!

لَمْ أَتَوَقَّفْ عَنِ الْكِتَابَةِ، بل إزداد قلمي قسوةً بِطَعْمِ الغُربة، وجمعتُ لِلْكِتَابَةِ مِهْنَةَ الصّحَافَةِ والعَمَلِ الإِعلامي والبحث، وَبِشْكَلٍ رَسْمِيٍّ لَاحِقًا، بعد أن كَبُرَتْ بناتي، وَذَهَبَتْ آخِرُ العُنُقُودِ إِلَى الْمَدْرَسَةِ، ثم .. مَا لَبِثْنَا حَتَّى أَكْرَمَنَا اللهُ فَأَصْبَحَ عِدَدُ أَوْلَادِي أَرْبَعَةً.

وَمَا زِلْتُ أَكْتُبُ.. حَتَّى لَا أَمُوتَ عَفْنًا وَفَهْرًا، وَمَا زَالَ لِسَانِي

(1) خِتافِه Getafe: بلدية مدريدية، تقع جنوب مقاطعة مدريد العاصمة الإسبانية.

يَزِدَادُ فِي كُلِّ يَوْمٍ «طَوَلًا»، يُزَعِّجُ وَيُوجِعُ وَيُغَيِّظُ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ لَا
يُرِيدُونَ أَنْ يَقُولَ لَهُمْ أَحَدٌ أَبَدًا: أَنْتُمْ عَلَى بَاطِلٍ وَمَخْطُئُونَ.. حَتَّى
لَوْ كَانَ ذَلِكَ، بِصِغَةِ مُخَاطَبَةِ الْغَائِبِ، وَدُونَ التَّعَرُّضِ لِلْأَسْمَاءِ وَلَا
لِلْأَشْخَاصِ.

۔ «رَشَا» ۔

● **كَانَ الْمَصْعَدُ** فِي الْبِنَاءِ الَّذِي نَسْكُنُ فِيهِ، مَكَانًا لِلْقَاءِ بَيْنَ الْجِيرَانِ، وَمَحَلًّا لِلْإِهْتِمَامِ الْفَائِقِ، بِكُلِّ شَارِدَةٍ وَوَارِدَةٍ مِنْ قِصَصٍ وَحِكَايَاتٍ كُلِّ مَنْ صَعَدَ أَوْ هَبَطَ، كَانَ مُتَنَدِّيًّا لِلْحَوَارِ، وَتَبَادُلِ أَخْبَارِ الْجِيرَانِ، وَتَنَاوُلِ أَحْدَاثِ الْحَيِّ، وَتَحْلِيلِ الْأَخْبَارِ السِّيَاسِيَّةِ وَالْإِجْتِمَاعِيَّةِ، الْمَحَلِّيَّةِ وَالْدَوْلِيَّةِ، وَإِعَادَةِ تَدْوِيرِهَا، وَ.. الْبَحْثِ فِي حَالَةِ الطَّقْسِ.

بِالْمَخْتَصَرِ الْمَفِيدِ كَانَ الْمَصْعَدُ فِي بِنَايَتِنَا مَرْكَزًا رَئِيسِيًّا لَوَكَاالَةِ أَنْبَاءِ إِسْتِثْنَائِيَّةٍ.

«حَالَةُ الطَّقْسِ» بِالذَّاتِ، هُوَ الْمَوْضُوعُ الثَّقِيلُ الظَّلُّ، يَهْرَبُ الْجَمِيعُ إِلَيْهِ عِنْدَمَا لَا يَجِدُونَ مَا يَتَحَدَّثُونَ فِيهِ، دَفْعًا لِلْحَرْجِ، وَكَسْرًا لِذَلِكَ الْجَبَلِ مِنَ الْجَلِيدِ الَّذِي يَنْمُو بَيْنَ النَّاسِ، فِي الْمَصَاعِدِ الضَّيِّقَةِ، لَا تَتَجَاوَزُ مَسَاحَتَهَا الْمِثْرَ وَرَبْعَ الْمِثْرِ الْمَرْبَعِ! حَالَةُ الطَّقْسِ هِيَ الْمَنْفَذُ الْوَحِيدُ لِلْجِيرَانِ مِنْ سَأَمِ الْإِنْتِظَارِ، صَعُودًا وَهَبُوطًا، مَسَافَةِ عَشْرَةِ طَوَابِقٍ، فِي مِصْعَدٍ عَتِيقٍ ضَيِّقٍ بَطِيءِ الْحَرَكَةِ.. وَمِنْ ثِقَلِ الصَّمْتِ، وَتَحَفُّزِ النُّظُرَاتِ الَّتِي لَا تَعْرِفُ أَيْنَ تَحُطُّ.. عَلَى مِفَاتِيحِ الْجَارِ أَمْ عَلَى حَقِيقَةِ الْجَارَةِ، عَلَى أَنْفِ الْجَدِّ الَّذِي يَسْكُنُ قِبَالَةَ بَيْتِنَا، عَلَى حِذَاءِ الْمَرْأَةِ غَيْرِ الطَّبِيعِيَّةِ الَّتِي تَسْكُنُ الطَّابَقَ الْخَامِسَ؟!

الْجِيرَانُ غَيْرُ الظُّرْفَاءِ، لَا يَرْضُونَ بِرُكُوبِ الْمَصْعَدِ مَعَنَا أَصْلًا، يَتَحَجَّجُونَ بِأَيِّ حُجَّةٍ، كَيْ لَا يَسْتَقِلُّوا الْمَصْعَدَ⁽¹⁾ مَعِي وَمَعَ

(1) يُقَالُ مَصْعَدٌ بِالْفَتْحِ وَمِصْعَدٌ بِالْكَسْرِ / مَعْجَمُ: اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ الْمَعَاوِرُ

الأولاد.. حديث جانبي مع البواب، بحث طارئ في حقيبة اليد، تذكرُ مفاجئٍ لِتفتيش صندوق البريد، ثم يُتبعون ذلك - إن كانوا من ذوي اللطف واللباقة - بعبارة: اصعدي حضرتك، لا مشكلة سَنصعد لاحقاً!

كنت أفعل في معظم الحالات الشيء نفسه، لا ضيقاً بالناس فحسب، بل بسبب ضيق المصعد، والشعور بالاختناق فيه، كلما حشر الجيران أنفسهم فيه معنا، ذوقاً ولطفاً، حتى لا نشعر بالإقصاء والرفض!

جيراننا الظرفاء، وهُم غالبية أهل العمارة، كانت لديهم معي مُهمة إجباريّة أخلاقيّة «بروتوكوليّة»⁽¹⁾، تدفعُهم يومياً وكلّ صعود وهبوط لسؤالني عن أولادي، ولسؤال الأولاد عني، يَستفسرون مني عن صحة البنات، عن مدرّستِهِنَّ، عما إذا كنتُ سأُزِمُهُنَّ بالحجاب في وقت لاحق.. مسكينات! ويستفسرون مِنْهُنَّ ساعة فساعة، عن إحساسي بالبرد والحرّ، وتأقلمُ جلبابي وحجابي مع تغيّرات درجات الحرارة، يتسّمون لنا، يُكبرون فيّ - صبري الجبّار، يقولون إنهم لم يروا قط أحداً على وجه الأرض يَتحلّى بمثله، في موضوعين، أولُهما صبري منقطع النظر على هذا الزوج، الذي لا يرى في البيت، ولا في البناء، ولا في الحارة، ولا يتواجد أبداً مع أسرته، وقد ترك في رقبتي ثلاث.. ثلاث بُنيات تنوء بتربيتِهِنَّ الجبال! - كما قالت جارتني «المديرة العامة» لأحد فروع واحدة من أهم الشركات الإسبانيّة، التي تقطن في الطابق الثامن - والتي كانت تُردّد على مسامعي يومياً: هنا في إسبانيا ولَدّ واحد فقط، ثلاثة أبناء كثير وكثير جداً، هذه جريمة بحق زواجك قد تنتهي بك إلى الطلاق!

(1) أصول التعامل الدبلوماسية.

«ألتزاي»⁽¹⁾ الشابة المديرة العامة للشركة التي كانت تعمل فيها، كانت وزوجها، يُكَنَّان لنا قَدْرًا كبيرًا من الإحترام والثقة والموودة، إلى درجة طلبهم منا التدخل لحل المشكلة الكبيرة التي نشبت بينهما، والتي أدت بهما إلى الطلاق، بعد مُسلسلٍ عشناء في البناء ثلاثة أعوام مؤسفة! اضطرَّ فيه الجيران أكثر من مرة لاستدعاء الشرطة للفصل بينهما.

كلاهما في الثالثة والثلاثين من عمره، هي مُجازة في الحقوق، طويلة جسيمة كما هم مُعظم الباسكيين، لكنها على ضخامتها كانت رائعة الجمال، طيبة مُهذبة راقية إنسانة، لم تُعاملني قط على أنني غريبة، أما «مونتشو»⁽²⁾ الزوج فكان مُهندسًا لا يقلُّ عنها دَمَائَة ونبلاً وجمالاً وخُلُقًا، وكانت أمه التي تسكن في البناء نفسه، تتدخل بينهما بصورة دائبة تُفسد علاقتهما، كانت تتدخل في كلِّ شؤونهما، ليس من باب النصيحة فحسب، وإنما هو فرضُ الرأي، وتنجية الكُنة، ومُعاملتها بامتهانٍ شديد، بسبب بدانتها، كما بسبب ضعف شخصيتها.

مونتشو بينهما عاجزٌ عن إدارة هذه المعركة الشائكة، لم يكن يتمتع بشخصية قوية تُلزم كلاهما حدًّا.. حتى وصل الأمر به أن يضرب زوجته، المديرة العامة! والتي لجأت إلى بيتنا، تشدُّ طبيبًا يساعدها.. كنتُ أجِدُ نفسي في موقعٍ صعبٍ جدًّا بينهما، فهو الجار النبيل، الذي كان يبذل لي شخصيًا، يد المساعدة في كلِّ شيء، حتى أنه وهو يحمل طفله، كان يُبادر كلما رأني مُثقلة بالمشتريات ليحمل عني ويُساعدني، وعندما أقاما حفلًا عائليًا

(1) Altzai: «ألتزاي» اسم محلة على الحدود ما بين اسبانيا وفرنسا، مما يعتبر ارضا باسكية تاريخية، يستخدم في اقليم الباسك اسم علم مؤنث، يمكن فهمها بالعربية بمعنى «أرض الذهب والسنندس الأزرق».

(2) Montxo: اسم فرد مذكر باسكي، يعني بالعربية «يوم الأحد».

صغيراً، ليوم مَوْلِدِ ابْنَتَيْهِمَا الصَّغِيرَةِ، كُنَّا وَحَدَّنَا المَدْعُوَيْنِ مِنْ غَيْرِ الأَقْرَبَاءِ.. وَتَفَضَّلَا بِإِخْبَارِنَا، أَنَّهُمَا لَمْ يَسْتَعْمِلَا الخَمْرَ وَلَا الخَزِيرَ، فِي أَيِّ مِنَ الأَطْعَمَةِ الَّتِي نَرَاهَا عَلَى المَائِدَةِ إِكْرَاماً لَنَا.. وَكَانَ ذَلِكَ إِكْرَاماً مَا بَعْدَهُ إِكْرَاماً، فِي مَدْرِيدِ الَّتِي تَكَرَّرَ الغُرْبَاءُ وَنُسِيءُ مُعَامَلَتِهِمْ.

مَا الَّذِي حَدَّثَ إِذَا، بَيْنَ «الْتَزَايِ» الْجَمِيلَةِ الْحَقُوقِيَّةِ الْمُدِيرَةِ الْعَامَّةِ التَّنْفِيزِيَّةِ، وَ«مُونْتَشُو» الْمَهْنَدِسِ النَّبِيلِ؟؟

كَانَا شَخْصَيْنِ رَائِعَيْنِ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْنَا، وَلَمْ يَكُنَا كَذَلِكَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى بَعْضِهِمَا بَعْضًا.

قَلَّةٌ مِمَّنْ هُمْ حَوْلُهُمَا يُمَكِّنُهُمْ أَنْ يَعْرِفُوا بِالْفِعْلِ، حَقِيقَةَ مَا يَجْرِي بَيْنَ زَوْجَيْنِ فِي بَيْتِهِمَا؟ وَمَا هِيَ تِلْكَ الْأَسْبَابُ الَّتِي تَحْمِلُ النَّاسَ عَلَى الْخِصَامِ الَّذِي قَدْ يَصِلُ دَرَجَةَ الإِعْتِدَاءِ الْجَسَدِيِّ عَلَى الزَّوْجَةِ، أَوْ مَا هُوَ أَشَدُّ مِنَ الضَّرْبِ، وَالَّذِي قَدْ يَكُونُ سُوءَ الْمُعَامَلَةِ النَّفْسِيَّةِ، وَإِنْهِيَارَ جِسْرِ الثِّقَةِ وَمِظْلَّةِ الْأَمْنِ، مِمَّا يَكْسِرُ الْإِنْسَانَ، وَيُحْطِطُّهُ، رَجُلًا كَانَ أَوْ امْرَأَةً.

كَثِيرَةٌ هِيَ الْأَشْيَاءُ الَّتِي يُمَكِّنُ لِلْمَرْأَةِ أَنْ تَغْفِرَها لِرُزُوحِهَا - بِإِعْتِبَارِهَا الطَّرْفَ الْأَضْعَفَ «عَادَةً» -، إِلَّا أَنْ يَضْرِبَهَا ضَرْبٌ تَنْمُرُ وَانْتِقَامٌ، يَقْهَرُهَا بِهِ وَيُضَيِّبُهَا بِأَذَى جَسَدِيٍّ وَنَفْسِيٍّ يَكْسِرُهَا.. ثُمَّ يَظُنُّ أَنَّهُ يُمَكِّنُ الشِّفَاءَ مِنْهُ أَوْ نِسْيَانَهُ.

أَنْ تَعْتَدِيَ عَلَى امْرَأَتِكَ بِالضَّرْبِ، فَأَنْتَ رَجُلٌ يَفْتَقِرُ إِلَى الْمُرُوءَةِ وَالْفَضْلِ وَالرُّجُولَةِ..

كَسَرُ الْمَرْأَةِ فِعْلٌ قَبِيحٌ وَسَهْلٌ، وَلَعَلَّ كَسَرَ قَلْبِهَا بِالتَّفْرِيقِ وَالتَّعْلِيقِ، أَهْوَنُ مِنْ كَسْرِهَا بِالضَّرْبِ الظَّالِمِ الْمُهِينِ.. الَّذِي لَا يُمْكِنُ لِلْأُمُورِ أَنْ تَنْصَلِحَ بَعْدَهُ.

بَلَغَ الْخِصَامُ بَيْنَهُمَا أَنْ رَفَعَ مُونْتَشُو دَعْوَى تَفْرِيقٍ وَطَلَاقٍ عَلَى

التزاي، وترك البيت وعاد للسكن مع أمّه، تبدّلت أخلاقه، وحتى ملامح وجهه، صارت قاسية مُتحدية، لم يعد مونتشو ذلك الجار النبيل المُتعاون، أصبحت رائحة الخمر تفوح منه، وبدا قذراً طوال الوقت، ما عاد يهتم بمظهره ولا بملابسه ولا بنظافته.

الجيران يتحدّثون عن أمّه أنها المُتسببة بهدم هذه الأسرة، ولكن هذا الأمر فيه نظر! ذلك أن مونتشو كان عاطلاً عن العمل، وكانت ألتزاي هي التي تعمل وتُعيد البيت، وكان يشرب ويتردد على الحانات وهو يحمل طفله ذات العامين، ويقول لأصحابه: أنا حاضنة أطفال وعاملة تنظيف برتبة مهندس!!

أمّه لم تكن في هذا «الثلاثي» أكثر من فاعلٍ سلبيٍّ ثثار، مُفاعِل التدمير كان داخلياً بين الرجل وامرأته، كان انهيار هذه الأسرة مسألة وقت.

تغيّر وتبادل المهام والأدوار بين الزوج والزوجة والأم والأب، ليس طبعياً، ولا يمكن أن يأتي بنتائج طيبة! أمّه كانت تكتفي بالإنقاذ والتفريع، لكنها لم تمد يد العون، لرعاية الطفل والبيت، ولم تبدل أي جهد - لإنقاذ هذا الزواج..

وبينما كنت أصطحب أولادي إلى المدرسة ذات صباح، فاجأني «فيليشيانو» البواب، بقوله: هل عرفت أن صاحبك المدير قد غادرت؟؟

رحلت «ألتزاي»، دون كلمة وداع...

لم تعد تحتمل ضغط الأئمة الناس ولا نظراتهم المُتّهمة والمتحرّشة، ولا رؤية زوجها وهو داخل خارج طوال الوقت بهذا الشكل المُزري.. أخذت الطفل ونقلت عملها إلى إقليم الباسك، ورَحَلت.

أحياناً نعجز عن توديع من نحبهم، لأن الكلمات تخون

صاحبها، ولأن الدَّموع تخون صاحبها، ولأن الشَّعور بالضعف
خَنَجَرٌ مَسْموم في أرواحنا.



الأمر الثاني الذي يُجمع عليه كل جيراني، من الطابق الأول
وحتى الثاني عشر، هو احترامهم العميق - كما قالوا - وكثير
من المشاركة الوجدانية، والتقدير الكبير لقُدرتي على احتمال
هذه الملابس، التي ما كان واحدٌ منهم يُشكُّ في أن ذلك الزوج
«المُتَوَحِّش المُخْتَفِي»، قد أرغمني على ارتدائها! فلا يمكن لامرأة
على وجه الأرض - كما يقولون - أن تحتمل مثل هذه الملابس!
إلا مُرَمَّةً!

لم أَسْتَفِدْ أي شيء من النقاشات الودّية الكثيرة، والشرح
الطويل العريض، ليلاً ونهاراً للموضوع.. حتى كلَّ مَتْنِي، وَيَسْتُ
من أن يَفْهَم أحدٌ إلا ما كان قد فَهِمَ من قَبْل!

ما كان يُثير استهجانهم حقيقةً، لم يكن الصبر على غياب
الزوج، ولا تلك الملابس، والتي أصبحت فيما بعد شيئاً
«مُسْتَهْجَناً - عادياً»، بسبب توافد المهاجرين بشكلٍ كبير على
إسبانيا، لكنه - كما قال «سالبادور» رئيس لجنة الجيران المُتَّحِدِينَ
:- إنه هذا الصبر الذي تَمَتَّعَ به «الموراس المُقدسات» - كما
وَصَفَهُنَّ حَرْفياً.. على ظروفهنَّ المعيشية، وحفاظهنَّ مع ذلك على
كلِّ هذا القَدْر من العِفَّة والإخلاص!

مُعْظَمُ جيراننا، كانوا ممن تجاوز الستين عاماً، وشارف على
التقاعد، وجلس في شُرْفَةِ بيته آناء اللَّيْلِ وأطراف النَّهار، يَرُصُّدُ
حركات الدَّاخل والخارج والآتي والذاهب، خصوصاً في حَيِّ

كَحَيِّ «البيلار»⁽¹⁾ الشَّعبي الشهير الزاخر بالحياة والحركة، وفي منطقة كمنطقة «الباغوادا»، التي تَسَمَّت بِاسْمِ المركز التجاري الكبير، الذي كانت بعض أَجْنَحَتِهِ ما زالت قيد الإنشاء يوم سَكَنَّا الحَيَّ.. يَجْلِسُون هناك يُمَضُون أَوْقَاتِهِمْ، يَنْظُرُونَ وَيُرَاقِبُونَ.

وكان أمر الصبر هذا، فوق قُدْرَتِهِمْ على الفَهم، «لا توجد امرأة إسبانية يمكن أن تَحْتَمِلَ غياب زوجها عنها نصف يوم»! هذا ما قاله جاري السبعيني، صاحب الياشمينة التي تَدَلِّي على باب البناء الرئيسي من الطابق الأول.. كان في قوله هذا، ظُلْمٌ للنساء الإِسبانيَّات، كُنْتُ أعرف كثيراتٍ من الإِسبانيَّات الصَّابرات العفيفات، والكثيرات ممن إِحْتَمَلْنَ في سبيل أولادِهِنَّ، ما لا يُحْتَمَل، حافِظْنَ على زواجهنَّ وأُسَرِهِنَّ على الرَّغم من كلِّ ما إِبْتُلِينَ بِهِ من جهة الأزواج.

زوجٌ جارتِي بالجنب مباشرة، خانَهَا مع أُخْتِهَا، وكان يَأْتِي بِهَا إلى البيت في غياب زوجته وأولاده، لكنها صَبَرَتْ وإِحْتَمَلَتْ، ثم طَرَدَتْهُ مِنَ البيت في هدوء، ومن دون كثير ضجَّة، وبقيت عشرة أعوام تَرعى ولديها، لم تتزوج ولم تخرج مع خطيب طِوال تلك المدة، حتى كبر الولدان، وما عادا يحتاجان إلى الرعايَةِ المشدَّدة.

ماريا دولورس⁽²⁾ المَمْرُضة صاحِبَتِنَا، التي تَسْكُنُ الطابق الرابع، وهي في الخامسة والخمسين من عُمرها، جَارَتْ على صَدِيقَتِهَا التي تَسْكُنُ فِي البناء المُقَابِلِ، إِسْتَلَبَتْ مِنْهَا زوجها،

(1) Barrio Del Pilar - : حي البيلار، يقع شمالي مدريد، من الأحياء الشعبية المشهورة فيها، معظم ساكنيه ينتمون إلى الطبقة الاقتصادية الاجتماعية المتوسطة، أشهر معالمه، مستشفى السلام الجامعي الضخم، ومجمع الباغودا Vaguada التجاري الكبير، والمركز الثقافي الباغوادا، وملحق به مسرح مدريد/ عدد سكانه 47.000، حسب إحصائيات عام 2014.

(2) Maria Dolores - اسم إسباني مؤنث، ويعني بالعربية ماريا حاملة الآلام. -

وأصبحا خطيبين، يقضي مُعظم وقته في بيتها، ثم يعود إلى النوم في بيته، وزوجته تعلم، وترى، وتسمع.. لكنّها وحفظاً لكرامتها، تتصرف وكأنّها لا تدري ولا ترى ولا تسمع.

مرةً قالت لي، وكنا خارجتين من دُكان الخبّاز: لا تأمن غدرَ الرَّجل إلا حمقاء. نظرت ذات اليمين وذات الشمال، ووشّشتني: يظنُّ أهل الساحة هنا أنني غبيّة مُغلّلة، أنا فقط ليس لديّ مكان أذهب إليه، هذا بيتي، ولا أحد يستطيع أن يطردني منه، وأنا لن أطرد هذا البغل، يكفيني أنه يشتري حاجات البيت، وبيننا صمتُ القُبور، أنا مع تلفزيوني، وهو مع ماريته دولوره الساقطة.. انتبهي، لا تسرقن منك زوجك.

قلتُ لها وأنا أبدي إحترامي لألمها: إنها تكبر زوجي بعشرين عامًا.

أجابتنني: تلك الساقطة.. كانت صديقة عمري..

ثم أردفت: الرجال لا يكتفون بامرأة واحدة، ولا ثلاثة، لا شك أن زوجك متزوج بأخرى وأنت لا تدريين! وإلا فأين هو؟؟ مختلفٌ بشكل دائم؟! عليك أن تعرفي ماذا يفعل هذا الرجل، ثقتي بزوجي وصديقتي، دمرت حياتي..

يثقُ الناس بالغُرباء حتى لو كرهوا وجودهم بينهم، يظنون أنه لا يمكن لغريب أن يُفشي سرّك وقد إئتمنته عليه.

وضع المرأة في تلك الأيام، كان الشغل الشاغل لإسبانيا، التي بدأت تفتح على عالم الحريات والإنسانيّة والحقوق، وكانت العناية بالنساء كبيرة جدًا، وحتى المهاجرات منهن، مما شكّل مُعضلة في كثيرٍ من الرؤوس الذكوريّة المُتَحَجِّرة، التي قاومت منح المرأة هذه المكانة في المُجتمَع، كانوا يريدون لها أن تبقى

مُتَخَلِّفَةً عَنِ الرَّجُلِ، لَا تَتَجَاوَزُ مَا يُرِيدُهُ الرَّجُلُ مِنَ الْمَرْأَةِ، وَلَا تَلْتَفِتُ إِلَى مَا تَرِيدُهُ الْمَرْأَةُ أَبَدًا.

جرائمُ القتلِ المُعلَّنة ضدَّ النساءِ، كانتِ يَوْمِيَّةً ومُفْجِعَةً فِي إسبانيا، تُشَبِّهُ جَرَائِمَ «القتلِ النَّفْسِيِّ وَالْإِنْسَانِيِّ» الْبَطْطِيِّ، غَيْرِ الْمُعْتَرَفِ بِهَا وَغَيْرِ الْمُعْلَنِ عَنْهَا فِي بِلَادِنَا.

كَانَتْ إِسبَانِيَا مُتَخَلِّفَةً بِضَعِّ سِنَوَاتٍ ضَوْئِيَّةٍ عَنِ رَكْبِ أَوْرُبَا، فِيمَا يَخْصُ وَضْعَ الْمَرْأَةِ، وَهِيَ الْمَسَافَةُ نَفْسَهَا بِالضَّبْطِ، الَّتِي تَسْبِقُنَا بِهَا فِي هَذَا الْمَجَالِ!

جَارَتِي الَّتِي تَسْكُنُ فِي الدَّارِ الْمَلَاصِقَةِ لِدَارِنَا، الْجَدَّةُ «كَارْمِنْ» كَانَتْ تُرَدِّدُ عَلَى مَسَامِعِي طَوَالَ الْوَقْتِ أَنَّهَا لَا تَفْهَمُ، كَيْفَ يُمَكِّنُنِي أَنْ أَحْتَمِلَ الْعَيْشَ بَعِيدًا عَنْ أُمِّي، وَأَنَا مَا زِلْتُ «طِفْلَةً»! وَأَمَّ لثَلَاثَ بَنَاتٍ! عَجِيبَ كَيْفَ تَتَزَوَّجُونَ بَاكِرًا إِلَى هَذِهِ الدَّرَجَةِ؟ كَيْفَ يُمَكِّنُكُمْ حَمْلُ هَذِهِ الْمَسْئُولِيَّاتِ الَّتِي تَحْتَاجُ إِلَى النَّضْجِ وَالتَّجَرُّبَةِ، وَمِنْ دُونِ مُسَاعَدَةِ وَالِدَيْكُمْ؟ عَجِيبَ أَمْرِكُمْ أَنْتُمْ الْقَادِمُونَ مِنْ تِلْكَ الْبِلَادِ الْعَجِيبَةِ؟

كَانَتْ مَشَاعِرُ الْأُمُومَةِ وَالْأَبَوَّةِ، تَفِيضُ مِنْ قُلُوبِ بَعْضِ جِيرَانِي، خُصُوصًا الْمُتَدِينِينَ مِنْ كِبَارِ السَّنِّ، فَلَأَسْرَةٍ فِي إِسبَانِيَا شَيْءٌ بَالِغُ الْقُدَاسَةِ، وَمَوْقِعُ الْأُمِّ فِي الْأَسْرَةِ فَوْقَ كُلِّ مَوْقِعٍ، وَاحْتِرَامُ مَشَاعِرِهَا وَآلِمِهَا جُزْءٌ لَا يَتَجَزَّأُ مِنَ الشُّعُورِ الدِّينِيِّ وَالْإِنْسَانِيِّ، وَعِلَاقَةُ الْبَنَاتِ بِأَسْرِهِنَّ لَا تُشَبِّهُ فِي شَيْءٍ عِلَاقَةَ الْبَنَاتِ بِأَسْرِهِنَّ فِي دِمَشْقَ.. هُنَا يَحْمِلُ الْأَبُ وَالْأُمُّ كَامِلَ الْمَسْئُولِيَّةِ عَنْ بَنَاتِهِنَّ، رِعَايَةً وَعِزَايَةً وَدَعْمًا، هُنَا يَتَرَبَّى الْأَحْفَادُ فِي بُيُوتِ أَجْدَادِهِمْ لِأَمَهَاتِهِمْ، وَيَقُومُ الْجَدُّ وَالْجَدَّةُ بِخِدْمَتِهِمْ وَرِعَايَتِهِمْ، وَأَخَذِهِمْ يَوْمِيًّا إِلَى الْمَدْرَسَةِ، يُسَاعِدُونَ ابْنَتَهُمْ فِي كُلِّ شَأْنِهَا، حَتَّى أَنَّ الْجَدَّ يَمْنَحُ الْحَفِيدَ لَقَبَهُ وَإِسْمَهُ فِي حَالِ تَخَلُّي الْأَبِ عَنِ الْإِبْنِ، أَوْ لَمْ يُعْرِفْ لَهُ أَبٌ.

ما أشبه علاقاتهم الأسرية، بتلك العلاقات الأسرية التي
نعرفها في بيت مُحَمَّدنا ﷺ؟ وما أبعدنا في بلادنا عنها وعن
مُحَمَّدنا ﷺ!

كَانَهُمْ هُمُ الْمُسْلِمُونَ «المحمديون»!

كان وضعي في وحدتي وغربتي، يثير شجون بعض جاراتي،
تغليهنّ دمعتهنّ، كُلّما رأيَني أَكابدُ متاعب الحياة بعيداً عن أُمّي،
فَيَتَسَبَّبُ من حيث لا يَعْلَمُنّ، بإصابتي بمزيد من الحزن والإكتئاب،
وبكثير من هَلْوَساتِ الغربة التي صارت لا تُفارقُني.. رَؤى وأحلام
يقظة عجيبة، كأنَّ أشمَّ رائحة الزَّنبَق في بيتي قُبيل صلاة المغرب
يوماً، وما كان هنالك زنبَق ولا هُم يَحزنون! غالية الأزهار هنا
في مدريد لا عطر لها ولا عير.. وأبحثُ عن الزَّنبَق! أتجولُ في
البيت، ولا أجده! لكنني أَشمُّه، أكادُ أَلْمُسُه بيدي التي ترد خائبةً
في كلِّ مرّة.

كنتُ أرى في وجوه الناس، وجهَ أختي، إنها أختي! آخرون
أرى فيهم ابنَ حارتنا، لم أرَ وجهه ولم أَكَلِّمه في حياتي في دمشق،
وهو الذي يسكن على بعد ثلاثة أمتار من بيتنا، لكن الأعجب من
ذلك، كانت قصة أستاذ الفيزياء، الذي لا أعلم ما الذي جاء به إلى
غرناطة، يوم كُنْتُ في غرناطة؟ وكنت أَكرهُه ولا أَحترِمُه، بسبب
طائفيّته الرنانة، ورُعُونَتِه، وقَسَوَتِه، وحِقْدِه المُعلَن على «الشّام»
وأهلِها، في ذلك الزمن، الذي كانت تزحف فيه «الطائفية» على
وجودنا، كأفعى خَفِيّة شفافة، تكشف كلَّ ما يحتويه جَسَدُها،
المُتَلَوّي الخفيف المخيف، لكنها لا تظهر للعيان كثعبانٍ حقيقيٍّ،
كانت تزحف تحت الأنقاض، التي تُخَلِّفُها عملياتُ الهدمِ اليوميّة
في حياة أهلِ الشّام.

كيف جاءَ إلى إسبانيا هذا الرّجل القدر؟ الذي كنت أَتجنّبُ
مُجرّدَ المرورِ إلى جِوارِه في الجامعة، كان يرتدي سُمّاً، ويشتمِلُ

كِرَاهِيَّة، وَيَعْتَمِرُ حِقْدًا، وَكُنْتُ أَكْرَهُ حِصَّتَهُ وَمَادَّةَ الْفِيزِيَاءِ الَّتِي يُدَرِّسُهَا، رَسَبْتُ فِيهَا ثَلَاثَ مَرَاتٍ، وَلَمْ أَذْهَبْ لِمَرَاجَعَتِهِ .. وَتَرَكْتُ الْجَامِعَةَ وَكُلِّيَّةَ الْعُلُومِ، دُونَ أَنْ أُنْجَحَ فِي تِلْكَ الْمَادَّةِ، الَّتِي كُنْتُ فِيهَا مِنَ الْمُتَفَوِّقِينَ فِي الْمَرَحَلَةِ الثَّانِيَةِ.

صِرْتُ إِلَى طَرَفِ الْبَحْرِ الْأَبْيَضِ الْمَتَوَسِّطِ الْآخِرِ، وَإِذَا بِي أَجْدُ الرَّجُلَ أَمَامِي فِي سَوْقِ الْأَحَدِ، فِي غَرْنَاطَةِ، قَبْلَ أَنْ أَغَادِرَهَا إِلَى مَدْرِيدَ بِأَيَّامٍ! ذُهِلْتُ، لَاحَقْتُ نَظْرَاتِي الرَّجُلَ، وَهُوَ يَتَجَوَّلُ بَيْنَ النَّاسِ، تَتَبَعْتُ خَطْوَهُ، حَتَّى أَصْبَحْتُ وَجْهًا لَوَجْهِ أَمَامِهِ، رُحْتُ أَحْمِلُ فِي وَجْهِهِ، وَهُوَ يُبَادِلُنِي الْحَمْلَقَةَ وَالْدَّهْشَةَ.. ثُمَّ تَجَرَّأْتُ وَقُلْتُ: مَا الَّذِي جَاءَ بِكَ يَا أَسْتَاذَ إِلَى غَرْنَاطَةِ؟ رَبَّتِ الرَّجُلَ عَلَى كَتِفِي، وَهَزَّ رَأْسَهُ فِي أَسْفٍ، وَقَالَ لِي بِلُغَتِهِ الْإِسبَانِيَّةِ: أَنَا لَا أَفْهَمُ مَا تَقُولِينَ أَيْتَهَا السَّيِّدَةُ الصَّغِيرَةُ!

هَلْ كَانَ ذَلِكَ هَوَسًا؟ جُنُونًا؟ كَابُوسًا؟ تَخِيلًا؟ طَيِّفًا مِنْ مُعَانَاةٍ يَوْمِيَّةٍ فِي دِمَشْقٍ؟؟ إِنْتَقَلَتْ ذِكْرِيَاتُهَا الْمُقَرَّرَةَ، لِتَتَجَسَّدَ أَمَامِي فِي غَرْنَاطَةِ شَبَحًا مِنَ الْمَاضِي الْقَرِيبِ؟؟ يَرِيدُ أَنْ يَصِلَ ذَلِكَ الْوَطْنَ الظَّالِمَ بِهَذِهِ الْغُرْبَةِ الْمَوْجِعَةِ، أَلَمْ يَجِدْ عَقْلِي غَيْرَ هَذِهِ الشَّخْصِيَّةِ الَّتِي أَنْفَرَتْ مِنْهَا حَدَّ الْقَرَفِ؟ مَاذَا كَانَ ذَلِكَ بِالضَّبْطِ؟؟

لَمْ أَشُكَّ لِلْحِظَةِ، أَنَّهُ قَدْ لَا يَكُونُ هُوَ! كَانَ بَغِيضًا، يَمُقَّتُهُ جَمِيعُ الطَّلَبَةِ لِكثْرَةِ إِمْتِهَانِهِ لِأَهْلِ الشَّامِ، لَا يُوَفِّرُ فُرْصَةً، إِلَّا وَيَكِيلُ لَنَا كُلَّ أَنْوَاعِ الْهَمْزِ وَاللَّمَزِ، سُلُوكُهُ مُنْفَرٌّ، رَائِحَتُهُ تُثِيرُ الْغَيْثَانَ..

لَكِنَّهُ أَتَى إِلَى غَرْنَاطَةِ، شَبَحًا زَائِرًا مِنْ ذَلِكَ «الْوَطَنِ» الْعَاقِ.

نَحْنُ لَا نَكْرَهُ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ الَّذِينَ اسْتَحَلُّوا دِمَاءَنَا، وَأَحَالُوا حَيَاتِنَا جَحِيمًا، وَاضْطَرُّوْنَا لِمَغَادَرَةِ بِلَادِنَا وَأَهْلِنَا.. نَحْنُ لَا نُجِيدُ الْكِرَاهِيَّةَ، لَا نَرِيدُ أَنْ تَمْتَلِكَ قُلُوبُنَا بِالْأَحْقَادِ.. رُبَّمَا مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ، أَتَى طَيِّفُ ذَلِكَ الرَّجُلِ مِنْ دُونَ غَيْرِهِ، لِيَفْرِضَ نَفْسَهُ عَلَى غُرْبَتِي فِي غَرْنَاطَةِ!

وربما لأنني كنت أتفكر كثيرًا، في تلك الملاحظات اللاذعة،
عن الشَّام ومُجتمعها، لم يكن يتوقف عن إلقائها على أسماعنا،
وكأنه أستاذٌ في علم النفس والاجتماع، وليس في الفيزياء.. وإن
كانت كلُّ العلوم، في نهاية المطاف، تصلحُ لِتحليل حالة التَّعَفُّنِ،
التي أصابت جماعةً بَشَرِيَّةً أو مُجْتَمَعًا بِعَيْنِهِ.

كنتُ أرى تطابقًا بين ما يتقدَّه في المُجْتَمَع الشَّامي، وبين ما
كنتُ أنتقدُه أنا نفسي، مع فارقٍ كبير جدًّا، بين حِرْصِي وكِراهِيتِهِ..
لم أَصْرَحْ لأحد بمثل هذا التَّوافق، لكن «رشا» رفيقة كُليَّة العلوم،
نكَّستني مرة، وهو يتحدث عن إِستِكبار النَّاس وتَنَطُّعِهِمْ في
دمشق.. هَمَسَتْ في أُذُنِي وهي تبتسم: هذا الأحمق يتحدث
مِثْلِكَ! أوعِزْتُ إليها أن تسترَّ على الأمر، خصوصًا أن كلَّ من في
القاعة من أبناء الشَّام أوسَّعوه شتيمة وتَشْنِيعًا.

لم تكن المُشْكِلَة في أن يَنْتَقِدَنَا، كانت مُشْكِلَتنا معه، ذلك
الكَمِّ الهائل من الحِقْدِ الذي يَحْمِلُهُ علينا.

لم تكن مُشْكِلَتنا كَطَلَبَة، أننا لا نتقبل نقدَه المؤذي، كانت أننا
لا نرضى المَسَّ بأوضاعنا العَفِئَة.

كان يُمثِّل المُسْتَبْدِينَ القَتْلَة، فأغلقَ المَظْلُومونَ كُلَّ الأبواب
في وجهِ كل ما يُمكن أن يأتي مِنْهُمْ، حتى لو كان فيه وجهٌ حقٌّ!

بين الظالم والمظلوم لا حوار ولا بصيص أملٍ في أي تَعَايُشٍ
مُمكن.

كانت تلك الهَلَوَسَات المحزِّنة، تتسبب لي خلال سنوات
غربي الأولى، بكثير من المفاجآت.. كنت كُلَّمَا دَخَلْتُ سَوِّقَ
الباغوادا، التي أسكنُ إحدى السَّاحات المقابلة لها، رأيتُ
أختي هناك! ولولا أنني أعلمُ يقينًا، أنها لا تستطيع مُغَادَرَة سوريا
لارتكبتُ كثيرًا من الحماقات، بسبب ذلك الخلطِ الذي أصابني،

وأنا أدخلُ عاميَ العاشرَ في إسبانيا بعيدةً ووحيدة، قبل أن نُصبحَ
جُزءًا من الجالية السّوريّة-الفلسطيّنيّة «المُبلّجة» في مدريد! كان
ذلك أنجَعَ علاجٍ لهلّوساتي.. إذ انتقلتُ من حالة التّخيّل والخلط،
إلى حالات التلبّس اليقينيّ بفواجعنا الإنسانيّة، وبعاهتنا الوطنيّة!!

«رشا» كانت صديقتي ورفيقتي في الجامعة، وشقيقة الرّوح
البعيدة في دمشق، الوحيدة وهي وَسَطُ أهلها، والتّعبئة المَكسورة
الخاطر، لم تمنحها الحياةُ الحبَّ، ولم يمنحها زوجها الاحترام،
ولم يمنحها أهلها الحماية، ولم يمنحها وطنها الكرامة..

هناك في وسط الشّام كانت وحيدة وغريبة، تتصلّ بي في
الهاتف بين الحين والحين لتبكي، لم تكن تجد أحداً يُمكنها أن
تبكي معه في دمشق، كانت تقول لي في كلّ مرة تهتف لي فيها:
أرأيت.. كان أستاذ الفيزياء الطائفيّ ذاك مُحِقًّا فيما يقوله عَنّا، نحن
القَوْمُ الظّالمون!

القَهْرُ عنوان حياتها، الزوج الظالم الذي يُقارب ظلمه
الجريمة، كان قد جعل من وجودها معه جحيماً حقيقيّاً، وسائلُ
تعامُلِه معها لم تكن الكلمة الطيبة والتي هي أحسن، بل الضّرب
وجميع أنواع الإهانات، يَسُبُّ أباهَا، وَيَسُبُّ أمّها، وَيَسُبُّ إخوتها..
ويقول لها: «أنظري مع أيّ رجلٍ قد زنتِ أمك حتى جاءت بِقُمامةٍ
مِثْلِكَ»!!

تبكي بحرقة، وتَشهق بِتلك الكَلِمات، وترجوني ألا أكتب
عن ذلك، وألا أُسجّله في ذهني، وألا أضطرّها لقطع علاقتها
معِي، وكنتُ أمارحها لأخفف فُظاعة الأمر: فأقول: لن أكتبه إلا
بعد رَحيلكِ إلى المَلَأ الأعلى!

تُولد ضِحكتها من قلب الألم، ثم تُعقّب: اللَّهُمَّ اجعله عاجلاً
وفكاً أسري.

كانت تقول: «أمي التي تقرأ في اليوم الواحد ثلاثة أجزاء من القرآن، وتعرف الله ورسوله وتُدَرِّس الدين والفقه، يَتَّهِمُهَا بالزُّنى؟ ولم؟ لأنه لا يُحِبُّنِي، لم أعجبه منذ البداية، لم يَتَقَبَّلَنِي كما أنا، لا يُعجبه شيء مما أفعل أو أقول، إنه يُريد «أمة» بين يديه، أمة رخيصة قَذرة مثله، يُخَلِّفُهَا في البيت وحدها مع أولاده، في حين أنه يعيش حياته كما يحلو له خارج البيت، وأنا لست أمة، ولا أستطيع أن أكون كذلك حتى لو أردت.

«كان يودّ لو كنتُ من مُستواه، وفي مثل أخلاقه.. يُريد أن يُفَصِّلَنِي على قياسه، يريد أن أكون وَضِيعَةً مثله، وأنا إنسانة خلقتني ربي كما يشاء هو، كريمة ابنة كرام، ولا يستطيع أحدٌ تغيير طبيعة الواحد مِنَّا، ولا نحنُ أنفُسنا نستطيع تغيير طبائعنا كما يحلو للآخرين».

الكلامُ الفاجش الرَّهيب، كان أهْوَنَ عِنْدَهَا من سِبابٍ ولَعْنٍ أبيها طوال الوقت، دون أيِّ مُبرِّرٍ مفهوم.. وَصَلَ به الأمرُ أن يقول لها: «أبولُ هذا التَّاجِرَ الكبير، بِشَيِّئَتِهِ وَسُبْحَتِهِ وَصَلَاتِهِ في المساجد، لا يعدو كونه «تحميلة»⁽¹⁾ أَضْعَاها في فَفَايَ.. أَكْرَهُكَ وأَكْرَهُ أَهْلَكَ جميعاً!»

حَكَتْ لي أنه وعلى الرَّغم من إدِّعَائِهِ المُحَافَظَةَ والإِسْتِقَامَةَ، كان يَخْرُجُ قبل زواجه، مع كُلِّ فتاةٍ تقع عينه عليها، وَيَتِمَكَّنُ من إِسْتِمَالَتِهَا وَخَدِيعَتِهَا، ومُرَاوَدَتِهَا عن نَفْسِهَا، والتَّلَاعُبِ بها وَبِجَسَدِهَا، وإن كان يقول إنه لم يَهْتِكْ عِرْضاً!! وهَلْ هَتَكَ الأعراض هو غيرُ هذا؟؟!

(1) في معجم اللغة العربية المعاصر: تحميلة: جمع تحميلات وتَحَامِيلُ: دواءٌ جامد على شكل أقماع يوضع في الدُّبُرِ أو القِبل فيذوب، ويقال له لَبُوس: - قد تتأذى معدة المريض ببعض الأدوية فيأخذها على شكل تحميلة.

قد تجاوزَ عددَ مَنْ ذَكَرَ مُغامراتِه مَعَهِنَّ الثمانية!! يَفْعَلُ مَعَهُنَّ ما يحلو له، ثُمَّ يَرْمِيَهُنَّ لِأَقْدَارِهِنَّ، دونَ أَنْ يَصِلَ الأمرُ إلى فَضِّ ما يَعتَقِدُ النَّاسُ أَنَّهُ وَحْدَهُ العِرضُ!! وكَأَنَّ جَسَدَ البنتِ وَقَلْبُها ورُوحها المنتَهكة.. ليس عِرضاً وأمانةً عَظُميةً؟!

«فكيفَ سَتُعِجِبُهُ فتاةٌ مثلي لم تَعْرِفْ قَطُّ في حياتها وجهَ رجلٍ من غيرِ مَحارِمِها؟»...

«صحيحٌ أَنني لستُ مُحجَّبةً، لم يُرغَمَني أباي الطيبُ على الحجاب، قال لي: يا بابا هذا لا زِمٌ في حقِّ المرأة، خُذي وقتَكَ ولا تَرْتديه إلا عن قناعة، لكنني فتاةٌ عفيفةٌ أَصْلِي وَأصومُ وأَعْرِفُ ربي.. ربما كان هذا الزوج الفاجر يريد راقِصةً ليلية؟ لم يَطْلُبْ مني يوماً أَنْ نَسْهَرَ معاً، فنحن نَسكنُ مع أمه وأبيه! لكن احتقاره الدائم لي كان يعني أَنني لم أَمْلَأْ عينه».. «لم أفهم هذا إلا متأخرة جداً»!

«إنفصامٌ رهيبٌ في شخصيَّته لا أَسْتَطِيعُ إِستيعابه، ونفاقٌ اجتماعيٌّ مُرعبٌ، تَزَوَّجَني من بيتِ عِلْمٍ ودينٍ، لأكونَ زوجةً وأماً وَرَبَّةَ منزلٍ، في حين أَنه كان في حَقِيقَةِ الأمرِ يُريدُ عشيقةً مُتَمَرِّسةً، تَتَفَرَّغُ لِإِرْضاءِ أَناثيته وأَراضه الشَّهوانية.. أنا لا أَعْرِفُ هذه الأشياءَ، ولم أَطَّلِعْ قط على مثل هذا الذي يُريده.. ومن سَيَقومُ على الأولاد الصغار هؤلاء؟ إِذْ أَبْتَلُوا بِأَبٍ مثل هذا! فكيف أَصنع وأَتَرَكُهُم لِأَرْضِي نِزواتِه داخلَ البيتِ وخارجِه؟».. «خطبني سافرة جامعية، ظناً منه أَنني أَعْرِفُ هذا الذي يريده من إِمْرأتِه! ثم جعلني سجينَ البيتِ، وَضَرَبَ عَلَيَّ حِجابَ الإِسْتِعبادِ المُطْلَقِ».

«لا أدري أَأضحك أم أبكي، أَتُصَدِّقِينَ؟ أُمِّي هي التي جَعَلَتني أَرْضِي به عندما وَجَدَتني نافرةً مُتَرَدِّدةً، يَكْبُرُني بخمسة عشر عاماً، بدا مُتَعَجِّراً مَمْقُوراً مُتَحَذِّلاً.. لم يَخْدَعنا في واقع الأمر، لكن أُمِّي ظَنَّتْ أَنه رجلٌ يَعْرِفُ اللهَ، وقالت لي: سيكون لك خير رفيق في درب الحياة!

كم هو مُضحِكٌ مُبكٍ ذلك؟ يا لِمُفَارَقَاتِ الأمور!». .

كانت تَهْتِفُ إليَّ في ساعاتِ الفَجْرِ الأولى، وتَشكو وهي تبكي، في إحدى المرات قالت: «إنَّه يكرهُني إلى درجة مُريعة، وقد تركتُ البيتَ ومَعِي وَلَدَيَّ، فأعادني أهلي إليه بسيارة تاكسي، قالوا لي: بناتنا لا يمكن أن يُطْلَقْنَ! ونحن لسنا مُلزَمين بتربية أبناءِ هذا المخلوق!». .

«بدا لي أن أهلي أكثرُ إجرامًا منه، وأحيانًا كنتُ أفكّرُ أنهم يَسْتَحِقُّونَ تلكَ الإهانات التي كان يُمِطُّرُهُم بها»..

الأهل الذين لا يَعْرِفُونَ حِفْظَ كرامة بناتِهِم، ولا يقومون بواجبِهِم في حمايَتِهِنَّ من ظُلْمِ الأزواج، هُم بالضُّبط كالأهل الذين يُفَرِّطُونَ في بناتِهِم، ولا يُحَسِّنُونَ حمايَتِهِنَّ من شُرور الحياة وأشرارها. -

«عُدْتُ إليه كسيرة جريحة، أرغَمَني على تقبيل يَدِهِ، حتى يرضى أن يُعيدني إلى عِصْمَتِهِ.. وعُدْتُ، وأصبحَ أولادي ثلاثة، وأصبح الضُّربُ إجرامًا حقيقيًّا معي ومع الأولاد، وصار الكلام البذيء أمرًا مُعتادًا، وتطوَّرت الإهانات لتصبح أفدَع أنواع الأذى النَّفسيِّ واللِّفْظيِّ».

«استمرَّ بعد الزواج بما كان يفعلُه قبل الزواج.. الخروج مع النساء، مُغازَلَتِهِنَّ، إنه يبحث عن «أم» بينَهُنَّ، تمنحه المحبة المجانيَّة، تُغدِّق عليه نُعوت الرِّجولة والشهامة والمروءة.. دون أن يفعل شيئًا لِيَسْتَحِقَّها! يَمْرَح وَيَسْرَح مَعَهُنَّ، يتمتع بهنَّ كالجواري، يَتَوَدَّد إليهنَّ بِكَرَمِ حاتِمِي، يَسْتَجِدِّي إطرأهُنَّ، يَشْكُونِي إليهنَّ، يَطْلُبُ تعاطُفَهُنَّ، يذهب بهنَّ إلى المطاعم والحفلات، يَعِدُهُنَّ بالزواج، بل لقد خطب بعضهنَّ! وكان يخرج معها كونها خطيبته! لم يسأل أهلها عن زوجتِه وأولادِه، صَدَّقُوا أنني مُختَلَّة، وأنني زوجة غير صالحة.. ناشز!»

«هل البنات رخيصات إلى هذه الدرجة؟؟» «هل تَسْتَحِقُّ الزوجة المُختَلَّة أو غير الصالحة، أو حتى النَّاشِز كل هذا التَّعْذِيب؟»

ماذا أفعل، وإلى من أَلْجَأ؟ وإلى أين أذهب أنا وأولادي؟ أنا لا أَسْتَطِيع أن أترك أولادي وأتخلّى عنهم».

كانت وطوال أعوام تشكو.. تسألني.. وتسألني.. وكان مُجَرَّد استماعي إليها، وإحتمالي آلامها مَعَهَا بعضُ إجابة، وبعض المساعدة، كان مُشاركة، وتعاطُفًا.

أَنْ يَحْدَ المرءُ من يَسْمَعُ شكواه، ليس بالأمر الهَيِّن أبداً، خصوصاً إذا لم يَسْتَهِنِ المُسْتَمِع بهذه الثَّقَّة، ويتعامل معها بِفوقِيَّة، تُكَدِّرُها وتُفْسِدُها.

«أَنْ يَعَامِلَكَ زوجُك بهذا الشَّكل في دمشق، شيءٌ «طبيعي».. وأن تُظْهِرِي الشَّكوى، فذلك هو المَعِيبُ في الأمر! يجعلُكَ تَسْقُطِينَ من أعين الجميع! عليك أن تَحْتَمِلِي وتُخْرَسِي.. ولا شكَّ ولا ريب بأنَّ العيبَ فيكَ أنتِ!»

كانت رشا تَجِدُ في الحديث عبر الهاتف، مع صديقة قديمة بعيدة لا ترى وجهها، كُوءَ بُشْرٍ بِمَخْرَجٍ «ما»، بِانْعِتَاقٍ، بِانْفِكَائٍ من ذلك السَّجْنِ المؤبَّد مع التَّعْذِيب والأشغال الشاقَّة.. ولم يكن في إِسْتَطَاعَتِي مُسَاعَدَتِها، ولا دَفْعَ الأذى عنها، لكنها كانت تَجِدُ في مُجَرَّد استماعي شكواها ومُشاركتها مُشكِلتها، مُتَنَفِّساً من إحتناقها بذلك الألم.

كنتُ أنقُلُ إليها ما أسمعُه يومياً، في حصص التربية النفسيَّة الاجتماعيَّة في برنامج «خسوس إرميدا»، خصوصاً تلك الموجهة بصورة رئيسية للنساء المُعَنَّفَات في إسبانيا، لِمُسَاعَدَتِهِنَّ على تجاوز أزماتِهِنَّ النفسيَّة، وإستعادة تقديرِهِنَّ لِذواتِهِنَّ، والتَّخلُّص

من الرضوخ للشعور بالذنب، قبل أن تصل الحال بهنَّ إلى أن يُقتلن على أيدي الأزواج المجرمين، كما نسمع ونرى يومياً في إسبانيا.

الرجل الذي ديدنه تعنيف امرأته، إنما يفعله لأنه إنسان سيئ معتوه، وليس لأنها تستحق ذلك، لا أحد يستحق أن يحيا حياة العذاب والإذلال والانكسار المستمرة هذه في بيته.

رجلٌ يخطم أهل بيته، ولا يترك مجالاً لفصائل وطلاق تؤدي فيه الحقوق، وتوزع فيه الواجبات، يضع حداً لسوء التفاهم والتعاش المستمرين، وانعدام المحبة والمودة في البيت.. هو مخلوق مريض مهزوم ضئيل جبان، يبحث لأمرأته عن منفذ وذريعة.. لا شيء على الإطلاق، يُبرر أن يضطهد الرجل زوجته وأبناءه بالضرب والإهانة والأذى المستمر.

هذا ليس بيتاً، وهذه ليست أسرة.. إنه سجن رهيب في أرض الأعداء.

هذه النظرية، أراحت نفس «رشا» القلقة اللوامة، وخففت الضغط عن دماغها، وهي الذكية النبيهة، جعلتها تشعر بالرضى، والأمان، واحترام الذات، في مجتمع كل من فيه يلوم المرأة.. وفقط المرأة، على أي مشكلة يمكن أن تنشب في بيتها.

سارعت الحكومة الإسبانية، بتشكيل هيئة على مستوى الدولة، مسؤولة أمام مجلس الشعب، لوضع تصور كامل عما سُمي «قيام المجتمع الإسباني بمحاربة العنف ضد النساء في إسبانيا»، انطلقت الهيئات المختصة، في سياق اجتهاداتها المكثفة، للعمل على القضاء على مشكلة «سوء معاملة النساء والإردياد المرعب في عدد جرائم قتلهن في إسبانيا»، سنت قوانين تُسهل التفريق بين الزوجين، وتجعل الطلاق أمراً متاحاً لِكِلَيْهِمَا، في الوقت عينه الذي كانت فيه مجتمعاتنا في بلادنا، تستنسخ

من الغرب نموذجَه الأسريِّ الكنسيِّ، حيثُ يكونُ الزَّواجُ مُؤبِّداً،
والطلاقُ مُستحيلاً، والمرأةُ شيطاناً، والرجلُ «نِصفَ إله»!

كَانَهُمْ، ما كان «يُنْتَظَرُ مِنَّا أن نكونَ عليه»، وكاننا «ما نَظُنُّ
أنهم مُتَلَبِّسونَ به»!.. كأنهم هُم مُسَلِّمُوا الذُّرَى الحضاريَّةَ الإنسانيَّةَ
الأخلاقيَّةَ، وكاننا نحن أوريبوا القُرونِ الوُسطى!

كُلِّمًا نَزَلْتُ إلى سوقِ الباغودا، رأيْتُها.. رأيْتُ رشا، بِشَحْمِها
ولَحْمِها، كانت تَمُرُّ بين النَّاسِ كالسَّهم، تنظُرُ إليَّ عن بُعد، ثمَّ
تَنسَلُ في رِقَّةٍ وتختفي، وأنا أُلَاحِظُها، وأَلْحَقُ بها، لكنني لا أَسْتَطِيعُ
إِدراكَ خَطوِها، الذي يكاد أن يكون طَيْرًا أكثرَ منه سَيْرًا.

يَمْنَعُنِي الإنشغالُ بِأُمورِ البيتِ والأولادِ، من التَّفكيرِ فيها،
فِيرافِقُنِي طيفُها كُلِّما خرجْتُ وحدي.

مَرَرْتُ يَوْمًا بالباغودا، ورأيْتُ النَّاسَ مُتَجَمِّهين في إحدى
زواياها، وكانت رشا بينَهُمْ ومَعَهُمْ، تَشْرَبُ بِعُنْقِها الجميلِ
وشَعْرِها الناعمِ البُنِّي الطويلِ، فلما اقْتَرَبْتُ أَسْتَطَلِعُ الأمر، اكْتَشَفْتُ
رَسامًا، يَرَسُمُ صُورَ النَّاسِ بِرِشاقَةٍ مَباشِرَةٍ وآنيَّةٍ، يُرَكِّبُها أحيانًا
على أجسامِ غَجرياتِ بَالِيسَتِهِنَّ الفولكلوريَّةِ المزركشةِ الملونة..
النَّاسُ مُزْدَحِمونَ عِنْدَه، سُعْداءُ بلوحاتِ وجوهِهِمْ.. يُبْهِجُ النَّاسَ
وَيُفاجِئُهُمْ، أن يتأملوا وجوهَهُمْ مرسومة في لوحة، تجعلهم
يُبْصِرُونَ فيها، ما لا يَعْرِفونَه عن وجوهِهِمْ ولا عن أنفُسِهِمْ!

يُدْهَشُ النَّاسُ أن يَروا صُورَهُمْ في عَيْنِي فَنان، أكثرَ مما تفعله
عدسة آلة تصوير، فهذا الفنان لا ينقل تفاصيلِ وجوههم كما هي،
وإنما ما يقع في نفسه من تعابيرها وما إرتسم عليها في لحظة
بعينها، من فرح أو ألم.. حاجَةُ البَشَرِ إلى المشاركة الوجدانيَّة مع
البَشَرِ، كَحاجَتِهِمْ إلى الأوكسجين، حاجة الإنسان إلى «آخر» يرى
فيه من خلال نفسه ما لا يراه فيها، ماسَّة وموجعة.

اقتربت من الرجل بعد أن انفَصَّ النَّاسُ، وقلتُ له، هل ترسُمُ
لي صديقتي، رفع الرجل عينيه وحاجبيه، وسألني في تعَجُّبٍ،
وأين هي؟!

مددت يدي إلى جيبِي، وأخرجت رزمة من الأوراق، سَحَبْتُ
من بينها صورة صغيرة لي مع رشا، حين كانت في الثامنة عشرة
من عمرها، قلت له: هذه هي صديقتي، حين كانت في عُنْفوان
ثَقَّتْهَا بِنَفْسِهَا واعتَزَاها بوجودها، وهي اليوم مكسورة مُحَطَّمَةٌ،
أريدُ أن أُلَمِّمَ شظايا نفسها، وأحاول إعادة تركيبها في لوحة كبيرة
بريشَتِكَ.

- لم أفهم بالضبط ماذا تريد مني؟

— أريد أن ترسم صديقتي هذه التي في الصورة، بشكلٍ
يُسَعِدُهَا عندما تَراها، ويُعيد إليها ثَقَّتْهَا واحترامها لِنَفْسِهَا.

طلب مِنِّي الرَّجُلُ ثلاثين ضِعْفًا كُلفَةَ العمل الذي اعتاد أن
يقوم به مباشرةً لِلْعَابِرِينَ، أَمَلًا في أن أعْجَزَ عن الدَّفْعِ، فأعْفيه من
عَناء مُهمّة كهذه!

بعد شهر، جِئْتُهُ، وأخذت اللوحة المُدهِشة.. رأيتُ فيها رشا
القويّة السعيدة المُتَفَتِّحة كوردةٍ دِمَشْقِيَّةٍ بيضاء، كنتُ راضية بها،
شكرتُ ذلك الفنان الشَّعْبِيَّ، وأرسلتُ اللوحة بالبريد إلى رشا،
وكان آخر ما سَمِعْتُهُ منها في الهاتف: شكرًا.. شكرًا، أنا عاجزة عن
الشُّكر.

بعد ذلك انْقَطَعَتْ هَوَاتِفُ رشا، وانْقَطَعَتْ أخبارُها عني، جُنَّ
جُنُون «الوحش» لما رأى تلك اللوحة، قطع أسلاكَ الهاتفِ في
البيت، ومنَعَهَا من العُودَةِ إلى التَّحَدُّثِ معي..

ولم تُعَد رشا للتَّحَدُّثِ معي...

ثمّ.. تَناهَى إِلَيَّ خَبْرُ مَوْتِهَا، صَدَمَتْهَا شاحنةٌ عسْكَرِيَّةٌ قَريبًا

من سوق الحميدية، دهستها، اختلطت عظامها ولحمها بإسفلت دمشق، التي لم تمد لها يد عونٍ ولم ترحمها.

كانت تقول لي: أسألك بالله أن تدعي الله لي بالموت، لأرتاح منه ومن أهله، لا خلاص لي إلا بالموت، وليت أطفالي يموتون معي، حتى لا أتركهم للوحوش، أهلي لا يريدون مساعدتي، ولن يأخذوا الأولاد ليربوهم في حضنهم إن متُّ، ولا أجد طريقاً للخلاص مع أبنائي الثلاثة، الذين يربيهام مثله بالقسوة والظلم.

أي نوع من الظلم هذا، الذي لا يجد المظلوم خلاصاً له منه إلا بالموت؟!!

ماتت رشا، ولم أعرف، ماذا حلّ بأبنائها، من واجب القاضي أن يلزم أهلها بحضانتهم، وأن يلزم «الوحش» بالنفقة عليهم! ولكن عن أي قضاء أتحدث؟ في بلادنا الإسلام معطلة قوانينه الأسرية، والقضاء تمثيلية قبيحة، والظلم مستفحل!

ماتت «رشا»، ومات شيء في قلبي بموتها.. لم أودّعها، لم أكن هناك، ولم أعلم بوفاتها إلا بعد شهرين، عندما جاءت أُمِّي لزيارتي.

ماتت رشا، وسكن حزنٌ هائلٌ روحي.. ماتت، ولم أعلم هل احتفظت بتلك اللوحة لأولادها على الأقل، أم مزّقتها ذلك الوحش، كما مزّقت شاحنة الجيش جسدها.

يا للألم، يا لهذا الجرح، «أيتها الحسرة، يا حسرتي، أيها الحزن، يا حزني».

لا شيء يُعبر عما أشعر به، مثل كلمات «لولا فلورس» هذه..

سمعتُ الخبر في مطبخي وأنا أعدّ طعام الإفطار للأولاد،

سمعته في التاسعة، في مذياع البواب «سالبادور»، يُلْعَلَع على مدار ساعات النهار، بأغاني وخبر وفاة «لولا فلورس»⁽¹⁾، ماتت هي كذلك، فَمَلَأَتْ سَمْعَ إسبانيا وأمريكا اللاتينية وبَصَرَهُمَا، كما كانت تفعله في حياتها الطويلة العريضة، وكفاحها المرير، ومُعاناتها الكبيرة، وأمراضها التي تَحَدَّثُهَا، واستطاعت قهرها، اِحْتَمَلَتْ ذلك كله، لكنّها لم تحتمل أن ترى ولدها صريع المُخدرات.. بعد أن جاهدت جهاد المستميت لإخراجه منها!

ماتت قهراً، كما ماتت رشا قهراً، وإن قَصَصَتْ تحت عجلات شاحنة عسكريّة.

كانت «لولا فلورس»، العجريّة، ومهرجانات مُصارعة الثيران، بَصْمَتَانِ إسبانيّتان لا تُخْطِئَانِ.

يا للبشر كم عذاباتهم مشتركة، يا لقلوب الأمهات من كلّ صنف وطبقة وفي كلّ زمان ومكان كم هي مُتشابهة.

«لولا فلورس» الغربية في بلدها، المختلفة داخل مجتمعها وناسها.. الراقصة العجريّة، والمغنيّة، والممثلة، ومقدمة أشهر وأنجح البرامج التلفزيونيّة في تاريخ الإعلام الإسباني، لم تكن تَمُرُّ من ثَقْبِ أيِّ إبرة، من تلك التي تُحَاكُّ بها، التّصورات العامة عن النساء الفنّانات أو الإعلاميات.. لا شكلها المُغرّق في أصوليّته العجريّة، ولا لونُ بشرتها البُنّي، ولا قَسَمَاتُ وجهها عميقة الملامح العرقيّة، ولا شَخْصِيَّتها السّعبيّة، شديدة الالتصاق بهموم الشارع الإسباني وإنسانه.. ولا أناقتها غير الأنيقة مُتَفَجِّرة الألوان والتركيبات، تصدّم الحواسّ وتستفّزها.. ولا حركاتها التي تُعبّر عن حُمولة ثلاثمائة عامٍ من الحُزن، تنبعُ من عمق ثقافة

(1) Lola Flores 1923 — 1995 إحدى أهم مشاهير الفن الفولكلوري في إسبانيا، تُعدّ علماً بالغ الأهمية في الثقافة الإسبانية المعاصرة.

قاع الشخصية الإسبانية المعاصرة، التي وُلدت ما بين مخاضات حروب الاستتصال الصليبية، التي لم تتوقف في شبه الجزيرة الإيبيرية، إلا قبيل مئتي عام ونيف، وحرب الإسبان الأهلية، الرهيبة، مطلع القرن العشرين.. ولا حتى صوته الأَجَش، الذُكوري - في آخر عُمرها.

كان صوتها، مُتحدِّيًا، نائحاً بعويل الفلامنكو، يَشُقُّ الرُّوح ويَخْرِقُهَا بِأَلَمٍ رنان، يُعبر تارةً عن عَشْقِ المسيح، وأخرى عن مُعاناة الولهان، وثالثة عن أَلَمِ الأَلَم⁽¹⁾..

كانت روحاً غَجريّة، قَلَقَة، نائرة، صاخبة، غريبة، تَحْمِل في دَمِها بُرْكاناً، لم يكن ما تُقَدِّمه على المَسارح «رَقْصاً»، كان حكايات جَسَدٍ، بعداباته، بِأَلَمِهِ، بِأَشواقِهِ، بِأَفراحِهِ، بِغُرْبَتِهِ.. كانت شجرة مُتَحَرِّكة تُراقص على المَسارح الأعاصير!

كانت «لولا فلورس» المتمردة، الوجه الآخر لحالة «رشا» المُستَسلِمة لِقَدَرِها، لم تفعل أيّ شيء لِتَفَرَّ منه إلى قَدَرٍ آخر، إِسْتَكَانَتْ لِغُرْبَتِهَا وَأَلَمِهَا وَمُعَانَاتِهَا، حتى صُرَّعت وتَلَأَشَتْ كأنها لم تكن.. لم تستطع أن تُقاوم ولا أن تَتَمَرَّد.. إِنْجَازُ رشا الوحيد، كان في تَحْدِيدِهَا لِلظَالِمِ الَّذِي إِبْثُلِتْ بِهِ، والذي لم يَتِمَكَّنْ من تَغْيِيرِهَا!

تَحَدَّثَتْ بِالثَّبَاتِ وَعَدَمِ الإِنْصِياعِ لِرَغْبَاتِهِ المَرَضِيَّة.. لكنها لم تستطع أن تتحداه بِأُمُومَتِهَا، كان أَلَمُهَا الفُطِيع يَغْلِبُ أُمُومَتِهَا في مُجْتَمَعٍ لا يحترم الأمّهات ولا آلامِهِنَّ.

(1) pena penita pena الأغنية الأكثر شهرة وأهمية للراحلة لولا فلورس، يمكن ترجمة العنوان على النحو التالي إلى العربية: «أيتها الحسرة، يا حسرتي، أيها الحزن، يا حزني».

لم يكن للأُمّ في المجتمع السّوريّ المكانة الحقيقية التي
تُوليها لها تلك الكلمات الثلاث: «أُمّك، ثم أُمّك، ثم أُمّك»!

كانت تلك مُجرد تعاليم نبويّة حبيسة الألسنة، بينما حال
المجتمع كله يَنطِق بكلماتٍ أخرى مثل: «أبوك، ثم أبوك، ثم
أبوك»!!

«لولا فلورس» ، التي تعيش في مُجتمَع يحترم الأُمّ ويُقدّس
دورها نظرياً وكَنسيّاً، وَيَنْتَهِكُ حقوقها على أرض الواقع، كانت
تُمثّل كلّ أُمّ إسبانيّة، وكانت في طليعة المُكافحات الإسبانيّات
للحصول على حقوق المرأة، إنسانة وأُمّاً.

كانت «أُمّاً».. أولاً وآخراً، لم أرها إلا أُمّاً، ولم أسمع أغانيها
إلا كأمّ، ولم أشهد شجاراتها ومُشكلاتها، وفضائحتها، ونزاعاتها،
واصطفافاتها السياسيّة، وكلّ غسيلها وغسيل أُسرتها الوسخ
يُنشر على جبال الإعلام.. إلا من خلال كونها أُمّاً، مُقاتلة دون
أولادها الثلاثة، الذين ساروا على نهجها، وتركوا بصماتهم على
إسبانيا وثقافتها الفنيّة الغنائيّة، بحيث يصعب تخيل كلمة إسبانيا،
إلا مُقتَرنة باسم «لولا فلورس» وأبنائها الثلاثة، خصوصاً ابنها
«أنتونيو»⁽¹⁾، الذي لَحِقَ بأمّه بعد خمسة عشر يوماً فقط على موتها.

كان الحزب الشّعبي المحافظ في هاتيك الأيام، يَسْتَعِدّ
لإسقاط الاشتراكيين، وتَسَلُّمُ الحُكْم، وقد تَصَرَّف بعض «كبارِه»
عندما ماتت «لولا فلورس»، بصورةٍ عنصرية كريهة، فيها إِمْتِهَانٍ
للألم الشّعبيّ العامّ، كونها غَجرِيّة وداعِمة لليسار.. لكن الردّ
الشّعبي على هذه التّصرفات، جاء مُذهِلاً، حين أُعلِنَت وفاة أنتونيو

(1) Antonio Flores يُلفظ بالإسبانية كما يُكتب «أنتونيو» بالتاء، اسم إسباني
من أصل لاتيني، ومعناه «ذلك الذي يقارع مناوئيه»: المناضل أو المقاوم.

فلورس، بسبب جرعة مضاعفة من المخدرات، بعد أن كانت أمّه قد دفعت كل ما تملك قبل وفاتها، لإخراجه منها..

عشرات الآلاف من الشباب الإسبان الصغار، من تلاميذ المدارس الخاصة في المناطق المؤيدة لليمين المحافظ، توجهوا مع عشرات الآلاف من اليساريين، لوداع أنتونيو صاحب بعض الأغاني الخالدة - على صغر سنّه - ، تقاوم الحروب والنزاعات المسلحة والعنف ومعاناة الإنسان في كل زمان وظرف.. احتشدوا لدى دفنه في مقبرة «ألمودينا» الشهيرة في مدريد إلى جانب أمّه.. ثم جعلوا من قبره مزاراً.

دائماً تنتصر الإنسانية على العنصرية.. دائماً ينتصر الإنسان.

القلوب الطيبة، لا تعرف الإضطغافات السياسية، وتستعلي في ساعات الألم الجماعي، على الانتماءات.

بكيتُ رشا في موت لولا فلورس، بكيتها بقلب قد احترق ألماً، بكيتُ الظلم الذي عانت منه، مجاناً، دون أن تحظى بكلمة إنصاف، بكيتُ نفسي أن لم أتمكن من مساعدتها، ولم أكن إلى جانبها يوم ماتت، بكيتُ بلادنا ومجتمعاتنا ونساءنا وأطفالنا، بكيتُ الإنسان في كل مكان، معاناته وآلامه وعجزه.. بكيتُ نفسي التي أصيبت بجرح لا يمكن شفاؤه بعد هذا الذي حدث لرشا.

الحمد لله على نعمة الإيمان بالله ويوم الحساب...

إنّه لولا الإيمان بالله، وبأنّ الخصوم سيجمعون عنده في يوم العدل، لمات الناس كمداً وقهراً ويأساً.

قلتُ لرفيقتي رفاه: «لولا فلورس»، جمعتِ الشعب الإسباني، حيّة وميتة، ومن كل الانتماءات، السياسية والثقافية والفكرية، بالضبط كما كان يفعل ملك إسبانيا، لا عجب، أن

الجميع يَعتونها «بالفرعونة»، سلطنة خشبة المسرح وقلوب
الإسبان.

هزّت رفاه رأسها، دون أن تردّ، واكفهرّ وجهها، فاستأنفتْ
ملاحظاتي الصحفية المعتادة: ستَمُرُّ «لولا فلورس» في تاريخ
إسبانيا في حقبة الخروج من عُنق الزجاجة، على أنّها الأمّ، التي
تمثل جِهادَ وعذاباتِ كلِّ أمّ لكي يعيش أبنّاؤها حياة أفضل من
تلك التي عاشتها هي.

لدى باب المسجد، ونحن في انتظار خروج أطفالنا من
مدرسة نهاية الأسبوع، سألتني رفاه في غضبٍ وتأفّف: عجيبُ
أمرك، لم كلّ هذا التأثير لموت شقفة مغنية إسبانية جريئة؟

شعرت بالقهر لهذه الملاحظة العنصرية، وقلتُ لها: هذه
المغنية الإسبانية الجريئة، هي إنسانة حقيقية، ذات تاريخ طويل
من المعاناة والكفاح، للخروج من البؤس والشقاء، الذي كانت
تعيش فيه هي شخصياً، وكافة الأقلية الغجرية في إسبانيا، إحترامي
لها ينبع من هذه النقطة، وليس لأنها مغنية، فهي أصلاً لا تدخل
إطلاقاً في بوتقة تصوّراتنا عن المغنيات!

قالت: ما رأيك لو قلتُ الشيء نفسه، عن صباح أو أمّ كلثوم،
المغنيتين العربيتين؟

قلتُ: شتان شتان بين هذه وأولئك، فالمقارنة لا تستقيم،
خصوصاً فيما يتعلق بأمّ كلثوم.

قالت: كلّهنّ كافحن للخروج من الفقر والشقاء.. قياساً على
منطقك هذا!

قلتُ: صحيح، لكننا لم نَرِ لهاتين المغنيتين قضية، ولم
نسمع حكاية كفاحهما، لأجل تغيير التّصوّر العامّ عن المُعذّبين
والمُضطهّدين، والمُعذّبات والمُضطهّدات في بلادنا، ولم نعرف

شيئاً عن جهادِهما من أجل أولادِهما، وانتشالهما لأُسْرَتَيْهما من الحضيض إلى مصافِّ أعلى طبقة ثقافيّة فنيّة، ولم تكن أغانيهما إلا عن الحب والعشق والغزل.

قالت: وهذه غنّت للحبِّ والعشق! ثمّ - هل نسيتِ «أصبح عندي الآن بندقيّة» لأُمّ كلثوم؟؟

قلتُ: لا لم أنس، كانت تُغني في سياق طلبات الحكومة المصرية!

أما هذه وإن غنّت للحبِّ والعشق، فهو ضمنَ سياق قضية إنسانيّة كبيرة، شخصيّة وعامة، عاشت وماتت من أجلها، أرجو من الله أن يُخفّف عنها، ويرحمنا ويرزقنا رِقّة القلوب والتّعاطف مع البشر.

لا يمكن فهم قضايا الناس، إلا ضمنَ حواصنهم، وثقافتهم، ومُجتمعاتهم، وأوطانهم.. أنا لا أستطيع أن أُفَارِن بين مُعنيّة عربية في بلاد العرب، بأخرى غربيّة في بلاد الغرب.. تقيّم الغناء في بلاد العرب، يختلف عنه في بلاد الغرب، ووضع المُغنين في بلاد الغرب، يختلف عن وضع المُغنين في بلاد العرب.

في بلاد العرب، وكثير من بلدان الشرق، يتعلّق الأمر - غالباً - بالطَّرب، والتَّغريب، والتَّغريب، والإنسلاخ عن هُمووم الوطن والمواطن، وفي كثير من الحالات يتعلّق بخدمة الحاكم طوعاً أو كرهاً.. أما في الغرب فيتعلّق الأمر - غالباً - بمسيرة الثقافة العامّة، وحمل قضايا الإنسان والمُجتمع.

قالت رفاه: يا أختي أنا لا أحبها.. ذهبت إلى جهنم، وارتحنا منها..

قلتُ: يا سبحان الله، لم يخطر في ذهني أن أمّررها من مفْهُومَي الحبِّ والكراهية، إنها حكاية إنسانيّة عميقة، عاصرتُها

خلال خمسة عشر عاماً، وكِفاحِ امرأةٍ اجتهدت وعملت وبذلت وعانت كثيراً، فكيف لا تأثر لهذه الأحداث المحزنة التي انتهت إليها.

قالت: تقصدين ابنها المذمّن ذاك، رؤية وجهه تقطع الرزق⁽¹⁾.

قلت: لو أننا أحببنا الناس أو كرهناهم لُقبح وجوههم، أو تجهمها، لظلمناهم وظلمنا أنفسنا، ثم إننا لا ينبغي أن نكره الناس بسبب ما جنته أيديهم، ولكن نكره جنایاتهم! كم من شاب في إسبانيا، وفي بلادنا، من مُدمني المخدرات لا يجدون آباء وأمهات يُصَحّون من أجْلهم، ويكافحون لكي لا يقع أبناءهم في هذه المصائب، فإذا وقعوا كافحوا لا يتسألهم منها!

قالت: أنت غريبة الأطوار وتُبالغين في تأثرك بمثل هذه التفاهات.

قلت: كلتاهما نعمة، وليست سبّة.. وإن كنا أحياناً نَقَمه وبلاءً.

التفتت رفاه ضاحكة حائقة، وقالت لي: «لك تضربي أنت وإياها»⁽²⁾ واشتغالِك بالصّحافة كذلك، منيح هيك!!
صَحِكْنَا كثيراً للنكتة وللموقف..

لكنني لم أستطع أن أُحدّث رفاه بأنّ جُرَحَ صديقة عزيزة لي

(1) مثل شامي يعبر عن قُبْح الوجه أو عبوسه.

(2) «تضرب أنت وياه»، تعبير عامي بلهجة بلاد الشام، بمعنى «لُصِبَ بضربة أنت وهذا الشخص الذي تدافع عنه»، وتأتي بمعنى الاعتراض المُتودد. «منيح هيك»: تعبير شامي كذلك، بمعنى «أهذا مليح؟» أو «أعجبك ما أقول؟».

في سوريا إسمُها رشا، ما زالَ مَفْتُوحاً يَنْزِفُ في الرّوح حَسْرَةً وألماً ..
كُنْتُ أبكيها وأبكي أولادها، وأنا أبكي لولا فلورس وابنها!

وإنني كُلّما سَمِعْتُ نَوَاحَ «لولا فلورس» هذه بأغنيتها
التي تَصَدِّحُ في وسائل الإعلام مُنْذُ تُوَفِّيتُ في كُلِّ مكان: «أيتها
الحَسْرَةُ.. يا حَسْرَتِي، أيها الأَلَمُ يا أَلَمِي» ... تَصَوَّرْتُ أمامي رشا،
تَشْرَبُ بِعُنُقِها الجميل، وشعرها الطويل، من فوق أكتاف النَّاسِ،
لُتْراقِبَ أَلْفُونَسو الرِّسَام وهو يُحاوِلُ رسم صورتها.

ثمّ ما تلبثُ أن تَخْرُجَ مِنَ اللّوْحَةِ، مُرْتَدِيَةً ثَوْبَ الفِلا مَنَكُو
الشَّهير، - لِتُؤَدِيَ تِلْكَ الحَرَكَاتَ الفَنِيَّةَ الثَّائِرَةَ، تَخِيطُ الأَرْضَ
بِكَعْبِ حِذَائِها مُتَحَدِّيَةَ المَوْتِ والنَّسيانِ.

ـ دَرَبُنَا الْمَلَأَى بِجُشْنِنَا الْمُتَفَسِّخَةَ ـ

● قُرْع الباب، ووجدتُ شَابَّةً إسبانيةً تسأل عني، عَرَفْتَنِي
بنفسها أنها «لوردِس»⁽¹⁾ ابنة أخت «ماريا دولوريس» جارتنا
الممرضة التي تسكن في الطابق الرابع، والتي كانت قد
لَطَّشَتْ⁽²⁾ زوج صديقة عمرها، وأنها خطيبة «ألفونسو»⁽³⁾
رَسَّام الباغوادا.

راحت - لوردِس تشرب القهوة بالحليب التي قَدَّمْتُهَا لَهَا،
وهي تحكي لي أن «ألفونسو» بكى، بعدما أنهى رسم تلك اللوحة،
وَتَمَنَّى ألا أُمِرَّ ولا أَخْذَهَا.

رسمها مُكْمَلِمًا شظايا شَابَّة كَسَرَتْهَا الْحَيَاة، لَا يَعْرِفُهَا، تَعِيشُ
عَلَى بُعْدِ آلاف الكيلومترات، امرأة شَابَّة تَنَاسَلَتْ بِقَايَا رُوحِهَا فِي
دَمَشَق، بِفَعْلِ ظُلْمِ الزَّوْجِ وَالْأَهْلِ وَالْمُجْتَمَعِ، قُمْنَا أَنَا وَأَلْفُونَسُو
بِجَمْعِهَا فِي مَدْرِيد.

«أُمُّ أَلْفُونَسُو عَاشَتْ حِكَايَةَ مُمَاثِلَةٍ، وَلَمْ تَسْتَطِعِ الْأُسْرَةَ أَنْ
تَحْيَا بِسَلَامٍ، إِلَّا بَعْدَ أَنْ طَلَبَتْ مَسَاعِدَةَ الشَّرِطَةِ، جَاؤُوا وَأَرْغَمُوا
الْوَالِدَ عَلَى مَغَادَرَةِ الْبَيْتِ، بَعْدَ حَفْلَةٍ تَعْذِيبِ جَمَاعِيَّةٍ، فَذَهَبَ دُونَ
عُودَةٍ، وَكَانَ فِي ذَلِكَ خَلَاصُهُمْ، لَكِنَّهُمْ لَمْ يَسْتَطِيعُوا تَجَاوِزَ تِلْكَ
الْمَحْنَةِ.

(1) Lourdes: إسم إسباني مؤنث ذو أصل فرنسي، ومعناه: المقدسة التي
تبذل نفسها وروحها.

(2) معنى لطش في «تاج العروس»: اللَّطَشُ: الضَرْبُ بِجُمْعِ الْيَدِ وَالطَّعْنِ.

(3) Alfonso: اسم إسباني مذكر ذو أصل ألماني، ومعناه: الرجل النبيل
المستعد للكفاح.

تلك اللوحة فتحت كل جراح «ألفونسو».

لم تأت «لوردس» لتُحدّثني عن اللوحة وعن ألفونسو فقط، لكنها أتت تطّلب مساعدتي، فلقد قال لها بواب العمارة «فيليشانو»⁽¹⁾ إنني صحفية، وإن كان لا يبدو عليّ أنني صحفية! - كما قال لها -، وهو - كما قال -، لا يعرف إن كنتُ مدّعية، أم أنني صحفية فعلاً، لأن شكلي - كما قال - لا علاقة له بمهنة الصحافة على الإطلاق! ولأنني - كما قال - منهمكة آتاء الليل وأطراف النهار في الاهتمام بأولادي، فهو لا يعلم - كما قالت لوردس - متى أعمل في الصحافة! هذا إن كنت صحفية حقاً - كما أقول - !!

كان الأمر بالنسبة إلى «لوردس» مُلِحّاً وضرورياً، فقال لها اصعدي وتبيّني، فإن كانت صحفية، فاسألها لعلها تستطيع مساعدتك، وإن كانت مجرد مدّعية.. فلقد عرفتُ منذ البداية أنها مدّعية!

ضحكنا من تصرفات فيليشانو حتى بردت قهوتنا، قبل أن ندخل فيما غير صفوّ جلستنا، وصفاء ضحكتنا.

كانت لوردس تُحضّر بحثاً أكاديمياً في دراسات الشرق الأوسط، وكانت تعمل على موضوع تقسيم السودان⁽²⁾، منذ ثلاثة أعوام، راجية أن تنال عليه درجة الدكتوراه مطلع 1990.

قلتُ لها في تعجب شديد من إهتمامها بالموضوع، ومدى أهميته بالنسبة إلى تلك الجامعة: السودان هو سودان واحد، ولا يمكن تقسيمه.

(1) Feliciano: اسم إسباني لاتيني، وأصله - Félix -، ومعناه: المسعود، وهو

اسم قروي قديم نادر الاستعمال في المدن الإسبانية.

(2) أُعلن عن انفصال جنوب السودان رسمياً في 9 يوليو/ تموز 2011، أي بعد أكثر من عشرين عاماً من إهتمام الجامعات الغربية بهذا الأمر!

- لكن كل شيء يُشير إلى حتمية تقسيمه!

- وكيف ذلك؟

- المسلمون يضطهدون الأقليات، والمسيحيون لن يرضوا بهذا بعد الآن، وقد نظّموا أنفسهم، وضبطوا كل الأمور التي تسير باتجاه التقسيم!

- أظن أن المنطقة مُقسّمة بما فيه الكفاية ليتم المزيد من التقسيم، غريب جداً اهتمامك أصلاً بهذا الموضوع الذي لا نكاد نُلقِي له بالاً في بلادنا.

- أنا كاثوليكية متدينة، ودراستي في العلوم السياسيّة، تجعلني على إطلاع مباشر على المظالم التي يتعرض لها المسيحيون في بلادكم...

- بصراحة أنا متفاجئة تماماً من هذا الكلام، لا يوجد قوم يَسْتَوِعُونَ الأقليات، يحمونهم، ويمنحونهم حُرّياتهم كاملة كما نفعل في بلادنا.. إذا قارنت وضع المسلمين في إسبانيا بوضع المسيحيين في سوريا....

قاطعتني «لوردس» قائلة: في السودان المذابح ضد المسيحيين يوميّة، وفي بلادكم، المسيحيون ليسوا مهاجرين، ولكنهم أصحاب البلاد الأصليون!

فوجئت بهذا الهجوم غير اللائق البتة، وقلتُ لها في هدوء المستنكر:

«الأقليات» الدينيّة، لا تقتصر في بلادنا على المسيحيين يا سيّدة، بل إن هنالك الكثير من الطوائف والفرق والانتماءات الدينيّة، ثم.. ماذا تقصدين بمصطلح «سكان البلاد الأصليين».. ما هذا الكلام العجيب الغريب؟

- أقصدُ مع كل الإحترام، أنكم أنتم الدّخلاء عليهم!

- دُخلاء؟ ماذا؟! هل تُعدّين مُسلمي سوريا مثلاً أو مُسلمي فلسطين دُخلاء على هذه البلاد؟ يا لوردس إسمحي لي، يبدو أن التحضير للدكتوراه الذي تقومين به يسير في اتجاه مُغاير لكثير من الحقائق.. أهل تلك البلاد دخلوا في الإسلام، فالمسلمون والمسيحيون في تلك البلاد هم أهل البلاد، ثم إن الحاضر لا يمكن محاكَمَتَه للتاريخ بهذا الشكل التدميري المريع..



منذ اليوم الأول الذي استأجرنا فيه هذه الدار في منطقة الباغودا، كان كل جيراننا في البناء - إلا القلة النادرة - يتعاملون معي شخصياً في مودة واحترام، إلا «فيليشانو أفندي»⁽¹⁾ العجوز بواب العمارة، الذي اتخذ مني موقفاً عدائياً غير مفهوم، كانت كراهيته لي أكثر من أن يستطيع إخفاءها، وطال صبري عليه ونفد، وخصوصاً أنني أراه يُقدّم كل فروض الطاعة لزوجي الطيب، ويُبدي له من الاحترام العَجَب العُجاب، ويستشير في أمراضه في كل مرة تقع عينه عليه، إلا أنه كان معي ومع بناتي مخلوقاً في غاية الوضاعة.

كلّما هبطتُ في المِصعد، دَخَل بِمِكنَسَتِهِ يَهْشُّ بها هنا وهناك، وكأنني كنت أحمل الزبالة وأنثرها فيه، وكلّما أردتُ الصّعود.. حامَ حولي وحول البنات، مُتَمَتِّماً بأن ثلاثة أولاد يُشكّلون قبيلة! ومع العرّبة وما إبتعته من الباغودا، فإن المِصعد لن يحتمل مثل هذا الوزن الفظيع!

كلّما جاء أحدٌ لزيارتي، إتصل بي من هاتف البناء الدّاخلي،

(1) أفندي: كلمة تركية تعني «السيد»، وتستعمل في مصر للتشريف، وفي بلاد الشام للسخرية.

صائِحًا: أَرْجُو أَنْ تُنَبِّهِي ضِيُوفَكَ أَنَّ هَذَا بِنَاءٌ مُحْتَرَمٌ وَلَيْسَ
«مُورِيرِيًّا»⁽¹⁾!! ...

مَرَّةً أَعْلَنَ تَلْفِيزِيُونٌ مَدْرِيدَ، عَنْ جَمْعِ تَبْرُعَاتٍ لِإِغَاثَةِ الَّذِينَ
تَعَرَّضُوا لِكَارِثَةِ فَيْضَانَاتٍ فِي الْمَغْرِبِ، وَبَدَأَ كُلُّ الْجِيرَانِ يَأْتُونَ
بِالْبَطَانِيَّاتِ، وَالْمَوَادِّ الْخَاصَّةِ بِرِعَايَةِ الْأَطْفَالِ وَالنِّسَاءِ، وَالْأَدْوِيَّةِ،
وَالْأَغْذِيَّةِ الْمَعْلَبَةِ، وَجِئْتُ يَوْمَهَا بِلِحَافَيْنِ، تَرَكْتُهُمَا مَعَ كَوْمَةٍ
الْمُسَاعِدَاتِ فِي مَدْخَلِ الْعِمَارَةِ.

فَصَارَتْ عَيْنَاهُ تَدُورَانِ فِي مَحْجَرَيْهِمَا، وَهُوَ يَهْمِسُ لِمَارِيَا
دُولُورِسَ، الْمَمْرُضَةَ خَالَةَ «لُورْدِسَ»: هَلْ رَأَيْتِ الْمَوْرَا؟ جَاءَتْ
بِطَّلَانِيَّتَيْنِ جَدِيدَتَيْنِ، لَوْ أَنَّ الزَّلْزَالَ ضَرَبَ أُوْبِيِيدُو⁽²⁾، لَمَا تَبَرَّعَتْ
بِكَاسِي مَاءٍ، لَكِنِ الْمَوْرُورِسُ يَحْنُونُ عَلَى بَعْضِهِمُ الْبَعْضُ!

أَسْكَنَتْهُ مَارِيَا دُولُورِسَ، وَنَهَرَتْهُ: عَيْبٌ.. قَلِيلًا مِنَ الْحَيَاءِ
فِيلِيشِيَانُو! كُلُّ الْجِيرَانِ أَتَوْا بِالْمُسَاعِدَاتِ، وَهَذِهِ الْمَوْرَا، كَانَتْ أَوَّلَ
مَنْ سَاعَدَنَا يَوْمَ انْتَحَرَتْ «كْرِيسْتِينَا»⁽³⁾ وَرَمَتْ بِنَفْسِهَا مِنَ الطَّابِقِ
الْخَامِسِ! هَذِهِ الْمَوْرَا لَمْ تَأُلْ جُهْدًا فِي مُسَاعَدَةِ أُمِّ كْرِيسْتِينَا،
وَحَمَلَتْ مَسْبَلًا غَالِيًا جَاءَتْنَا بِهِ لِنُغَطِّيَهَا، بَكَتْ مَعْنَا ذَلِكَ الْحَدِثَ

(1) موريريا morería : مُجْمَعُ سَكْنِي مَنبُذٍ لِلْمُورُوسِ فِي مَدْنِ النِّصَارَى - نَقْلَ
حَرْفِيٍّ لِّلْمَعْنَى -/ القَامُوسُ الْإِسْبَانِي «تَرْبِيَّةٌ لِّغَوِيَّةٌ - educalingo» .
وَفِي الْقَامُوسِ الْإِسْبَانِي: حَيَّ يَسْكُنُهُ الْمَوْرُوسُ وَسَطَ مَدْنِ النِّصَارَى، أَوْ
أَرْضَ يَسْكُنُهَا الْمَوْرُوسُ .
وَتَسْتَعْمَلُ بَيْنَ الْعَامَّةِ بِاللُّغَةِ الْمَعَاصِرَةِ - بِمَعْنَى «مُورِيلَانْدِيَا»، عَلَى وَزْنِ
«دِيْزِيلَانْدِيَا» .

(2) Oviedo مدينة في شمال إسبانيا، عاصمة إقليم «إمارة أستورياس»
Asturias.

(3) Cristina اسم مؤنث إسباني أصله إغريقي، ومعناه: من أتباع كريستو/
المسيح المعبود.

الرهيب، وَذَهَبْتُ إِلَى الْكَنِيسَةِ تُشَارِكُنَا أَحْزَانَنَا، وَحَضَرْتُ مَعَنَا
الصَّلَاةَ مِنْ أَجْلِ السَّلَامِ لِرَوْحِهَا.. مَاذَا دَهَاكَ؟؟

لَمْ أَرَدْ عَلَيْهِمَا حَرْفًا، صَعَدْتُ إِلَى بَيْتِي وَأَنَا فِي غَايَةِ الْقَهْرِ
وَالْحُنْقِ مِنْهُ وَمِنْ تَصَرُّفَاتِهِ مَعِي.. وَدَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يَأْخُذَهُ وَيُرِيحُنِي
مِنْهُ.

لَمَّا عَدْتُ فِي الْيَوْمِ التَّالِي، بَعْدَ أَنْ أَوْصَلْتُ الْبَنَاتِ إِلَى
الْمَدْرَسَةِ، فَوَجِئْتُ بِوَرَقَةٍ نَعْوَةٍ كَبِيرَةٍ، مُعَلَّقَةٍ عَلَى بَابِ الْمِصْعَدِ!
حَدَّقْتُ فِي الْوَرَقَةِ، مَرَّةً وَمَرَاتٍ! وَلَمْ أَسْتَوْعِبْ مَا أَقْرَأُ، لَمْ أَصَدِّقْ
عَيْنِي، بِكُلِّ بَسَاطَةٍ وَوَاقِعِيَّةٍ، لَقَدْ مَاتَ فِيلِيثْيَانُو!! مَاتَ، وَاسْتَجَابَ
اللَّهُ دُعَائِي!

لَقَدْ قَتَلْتُ الرَّجُلَ بِدُعَائِي!!

بَعْدَ مُرَاحَةٍ سَاعَاتٍ بَيْنَ الشُّعُورِ بِالذَّنْبِ، وَالدَّهْشَةِ،
وَالْتَعَجُّبِ، وَالصَّدْمَةِ.. إِنْتَابَتْنِي حَالَةٌ خَاصَّةٌ! إِذْ ظَنَنْتُ فِي نَفْسِي
الْبَرَكَةَ وَالْوِلَايَةَ! اسْتَجَمَعْتُ قَوَايِ الْعَقْلِيَّةِ، وَرَأَيْتُ أَنْ أَنْتَهِيَ الْفُرْصَةَ
الْإِسْتِثْنَائِيَّةَ، فَرَحْتُ أَدْعُو عَلَى مُعَلِّمَةِ ابْنَتِي الَّتِي كَانَتْ حِينَئِذٍ فِي
الْصَّفِّ الْأَوَّلِ الْإِبْتِدَائِيِّ، وَكَانَتْ تَسُومُنَا سُوءَ الْفَهْمِ وَالْمُعَامَلَةِ،
وَقِلَّةِ الذُّوقِ، وَدَعَوْتُ عَلَى بَقَالٍ فِي سُوقِ سَاحَةِ «فُون سَاغْرَادَا»،
وَقَدْ بَاعَنِي جُبْنًا أَصَابَهُ الْعَفْنُ، ظَنًّا مِنْهُ أَنَّي أَعْجَبْتُ غِيَّةً! كَمَا دَعَوْتُ
عَلَى مَوْظِفِ الْإِسْتِقْبَالِ فِي قِسْمِ أَمْرَاضِ الْقَلْبِ، الَّذِي يُذِيقُنِي
مُرَّ «الْإِسْتِقْبَالِ»، كُلَّمَا قَصَدْتُ عِيَادَةَ الدَّكْتُورِ «دِلْ الْكَاسْتِيو»،
يَصْرُخُ وَيَعْلُو صَوْتَهُ، وَيُكَلِّمُنِي بِالْإِشَارَاتِ، ظَنًّا مِنْهُ أَنَّي لَا أَفْهَمُ
الْإِسْبَانِيَّةَ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ رَأَيْتُ أَنْطِقَ بِهَا وَأَعْقِلُ. فَقُلْتُ أَدْعُو
عَلَيْهِ، وَأُرَاتِحُ مِنْ نَصْفِ عِبَادَةِ زِيَارَةِ «طَيْبِ الْقَلْبِ»! فَنَفِي التَّعَامُلِ
مَعَ «دِلْ الْكَاسْتِيو» وَحْدَهُ مَا يَكْفِي مِنَ الْإِزْعَاجِ، وَارْتِفَاعِ الضَّغْطِ،
وَاضْطِرَابَاتِ الْأَمْعَاءِ.

تَذَكَّرْتُ كَذَلِكَ سَائِقَ تَاكْسِي، عَامِلْنِي فِي غَايَةِ مِنَ الْفُظَاظَةِ،

وقلة الذوق، وسوء الأدب، وصار يوبّخُ البنية الصغيرة، التي لا يتجاوز عُمرها ثلاثة أعوام، لأنها دأست «بحذائها» مقعد السيارة - كما قال -! ودعوتُ على مُذِيعَة في القناة التلفزيونية الثانية التعليمية، خَرَجَتْ تَحَدَّثُ عن رسول الله، بأقبح الألفاظ وبما لا يليق!

ثم... جلستُ أنتظر تأثير دُعائي، الذي بدا لي أنه يُحْمَلُ على أكفِّ الملائكة، فيخترقُ السموات السبع!!!

ولكن.. ولله الحمد لم يمت أحد! لم يحدث أيّ مكروه، ولم تنزل بالمُرْعَجين صاعقة ولا مُصِيبَة، بفضل الله! ولا اشتكى أحد من رشحٍ ولا كتمٍ ولا مَعْص!

فאלلهم لك الحمدُ على أن لم تستجب لدُعائي في هاتيك الساعات، ولك الحمد على نعمة العقل!!

لم يكن هنالك بُدٌّ من خروجي من حالة «الإعتكافِ ذو النية الشريفة» و«الفتوحات المدريدية»، لأعود إلى الواقع، وأترك الدعاء على الناس وأستبدله بدعاءٍ منطقيٍّ واحد، أُرَدِّدُه وأنا أسير في طريق الحياة، أعيش وأدعُ الناس تعيش بسلام: «الله يهدينا ويهدي الإسبان ويصلح أحوال المسلمين»..

دون أن يُبارحني، ذلك الشعور بالمرارة والذنب، أن دعوتُ على بوابِ البناية.. فمات!

انتبهتُ من نشوة إختلاط المشاعر، وعُدْتُ إلى التفكير السليم:

لعلَّ بائع الجبن ذاك باعني نوعاً خاصاً من الجبن، هو في أصله يُباع مُتَعَقِّناً، على شاكلة «شنكليش»⁽¹⁾ بلادنا؟!

(1) الشنكليش: هو لبنٌ معقٌ يُجفف إلى درجة كبيرة، للاحفاظ به أكبر مدة =

لعلّي أنا التي لم أفهم مُشكلة المعلمة مع إبتني، فلقد قَصُرْتُ في تدريسها اللغة الإسبانيّة، وفي انتظامها في الذهاب إلى المدرسة، تقصيراً فادحاً أثناء السنة التحضيريّة، ظلّنا مني أنني سأعلّمها العربيّة في البيت أولاً، وأن الذهاب إلى المدرسة هو للتسلية واللّعب! ولم أفهم إلا مُتأخراً أن السنتين التّحضيريّتين قبل الصفّ الأول في إسبانيا، هما تأسيسيّتان، أساسيتان في تربية الطفل، وتوجيهه وزرع القدرة على التّعلم والانضباط في دماغه.

كنتُ خائفة أن تُضيع لُغتها الأمّ، ما كنت أعرف في هاتيك الأيام، أن الطفل يُجيد اللّغة التي تُحدّثه بها أمّه، مهما تعلّم من لغات لاحقات، لم أفهم أن الأطفال في إسبانيا يدخلون المدرسة والصفّ الأول الإبتدائيّ، وقد أتقنوا الكتابة والقراءة والفهم والتكلّم باللّغة الرسميّة، وعمليات الحساب الأساسيّة.

أذيتُ إبتنيّ من حيث أردتُ الإصلاح، وأجّجتُ أحقاد تلك المعلمة الصّارمة.

كانت إسبانيا تتقدم بِخطى هائلة مُدهشة، في مَجَالِيّ التربية والتعليم، حين كان كثيرون منا يَخْلُطون بين العمليّتين والأمرين، ونَظُنُّ على الرّغم من ذلك أننا أعلّمُ أهل الأرض جميعاً.

كُنّا في جاليتنا نعاني حالاً مُحزنة، من التّخبط بشأن تعليم أولادنا وتربيتهم، فأكبّرنا لم يتجاوز الأربعين من عمره، ومُعظم من أعرِفُهُنّ من النساء، تتراوح أعمارُهُنّ ما بين الخامسة والعشرين والثلاثين، لم يكن لهذه الجالية كبيرُ ينصح، أو يُعلّم،

= زمنية ممكنة، يُخلط بالأعشاب العطرية، كالنعنع والزعر والفلفل الأحمر والسُّمَاء وغيرها، ويؤكل بالزيت والبصل والبندورة، ويعتبر من أعلى الأطعمة غنيّ بالمواد الغذائيّة. شائع في بلاد الشام الأربعة، وشبهه الجبنة الزرقاء المتعفنة التي تُباع في فرنسا. ولا ندري من أخذ من الآخر هذا النوع من تصنيع الأجبان والألبان.

أو يُقَدِّمَ تَجَرِبَتَهُ لِلآخِرِينَ لِيَسْتَفِيدُوا مِنْهَا.. وَكَلَّمَا جَاءَتْ أُمُّ أَحَدِنَا لَزِيَارَتِهِ، صَارَتْ «أُمُّ الْجَمِيعِ»، وَبَدَأَتْ تَمَارِسُ وَظِيفَتَهَا فِي التَّوَجِّيهِ وَالْإِرْشَادِ، بِمَا رَبَّتَ عَلَيْهِ ابْنُهَا أَوْ ابْنَتُهَا قَبْلَ ثَلَاثَةِ عَقُودٍ، فِي الْوَطَنِ الْبَعِيدِ، دُونَ أَنْ يَكُونَ لَهَا تَقْوَلُهُ وَتَنْصَحُ بِهِ، أَدْنَى صِلَةٍ بِأَوْضَاعِ النَّاسِ فِي الْمَهَاجِرِ.

كَانَ الزُّوَارُ الْآتُونَ مِنْ بِلَادِنَا - وَمَا زَالُوا - أَبْعَدَ مَا يَكُونُونَ عَنْ فَهْمِ مُلَابَسَاتِ وَجُودِنَا فِي الْغَرْبِ وَإِدْرَاكِ مُشْكِلَاتِ حَيَاتِنَا فِيهِ.

نَاهِيكَ عَنِ الْمُصِيبَةِ الْكُبْرَى، الَّتِي نَتَلَبَّسُ بِهَا، وَهِيَ أَنَّ مَعْظَمَ أَفْرَادِ جَالِيَّتِنَا، يَتَصَوَّرُونَ أَنَّنَا أَفْضَلُ خَلْقِ اللَّهِ، عَلَى سَطْحِ هَذَا الْكَوْكَبِ، وَأَنْ كُونَنَا مُسْلِمِينَ - وَسُورِيِّينَ عَلَى وَجْهِ التَّخْصِيسِ - يَسْمَحُ لَنَا بِالِاسْتِعْلَاءِ عَلَى عِبَادِ اللَّهِ، حَتَّى لَوْ كُنَّا لَا نَقُومُ بِأَيِّ شَيْءٍ إِسْتِثْنَائِيٍّ خَارِجِ السِّيَاقِ! بِالضَّبْطِ، كَالرَّجُلِ الَّذِي يَعْتَقِدُ أَنَّ أَفْضَلِيَّتَهُ هِيَ فِي ذُكُورَتِهِ، مَنْ دُونَ أَنْ يَقُومَ بِشَيْءٍ مِنْ وَاجِبَاتِ الرِّجُولَةِ، وَمُقْتَضِيَّاتِ الْقَوَامَةِ، وَمَعَانِي الْمَرْوَةِ، وَكَالطَّيِّبِ الَّذِي يَعْتَقِدُ أَنَّ دِرَاسَةَ الطَّبِّ، تُخَوِّلُهُ الْخَوْصَ فِي السِّيَاسَةِ، وَفِي الْفِكْرِ، وَفِي الثَّقَافَةِ، وَفِي الْإِعْلَامِ، وَفِي الْمُجْتَمَعِ وَالْدِّينِ وَالْدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ!



مُنْذُ عَشْرَةِ أَعْوَامٍ، أَيُّ مُنْذُ قَدِمْتُ مَدْرِيدَ، لَمْ أَكُنْ «مُورَا» إِلَى الدَّرَجَةِ الَّتِي أَنَا عَلَيْهَا الْآنَ!

كَنتُ مُجْرَدَ إِنْسَانَةٍ غَرِيبَةٍ، لَا يُدْرِكُ مَنْ حَوْلِي مِنَ الْمُوَاطِنِينَ الْإِسْبَانِ السَّبَبَ الَّذِي جَاءَ بِي إِلَى بِلَادِهِمْ، وَحَتَّى قُنْفُذَ «حَيِّ السَّمْسِمِ» الزَّهْرِيِّ اللَّوْنِ، الْمُسَمَّى «إِسِينِيَّةً» - شَوْكَةَ الْقُنْفُذِ الظَّرِيفَةِ - بَطَّلَ بَرْنَامَجَ الْأَطْفَالِ الْمَشْهُورِ «إِفْتَحْ يَا سَمْسِمِ» بِطَبْعَتِهِ الْإِسْبَانِيَّةِ، - وَكَانَ نَاطِقًا بِاسْمِ الشَّعْبِ الْإِسْبَانِيِّ فِي حِينِهِ - حَتَّى هَذَا كَانَ يَتَسَاءَلُ مُسْتَهْجَنًا جِدًّا.. فِي إِحْدَى الْحَلَقَاتِ، لَدَى رُؤْيَتِهِ

أحد «العرب» في «حَيِّ السَّمْسِمِ»: ماذا يفعل عربيٌّ في حِينَا؟ ماذا يفعل عربيٌّ في إسبانيا؟ كان السؤال المطروح - في برنامج الأطفال الرئيسي في إسبانيا - بصيغَة الاستغراب القصوى! وكأنَّ الرَّجل العربيَّ الذي ظهر في الحلقة مُرتديًا ملابسَ غريبة عجيبة، قد هَبَطَ على إسبانيا من المَرِيخ مثلاً! وبالطبع فقد جاءت الإجابة: إنه صحفيٌّ!

جميع سُكَّان العَمارة التي كنت أَسْكُنُها - ماعدا الراحل فيليثيانو -، كانوا يُحيونني في وُدٍّ، ويحتفون بأولادي كلِّما هبطنا وصعدنا في «المَّصعد - المَّهبط»، يقولون عنهم إنهم كأولاد الأُجانب، قلتُ لهم: نحن أُجانب فعلاً!! قالوا: لا.. لا.. إنهم يبدون كأولاد الأُجانب القادمين من ألمانيا!

كان ذلك وسامًا يرفع المرء به رأسه.. أو على وجه الدقَّة، كان ذلك وسامًا ترفعُ به المرأة رأسها! أن يقول الإسبان عن أولادها، إنهم يُشبهون الألمان، تربية وسلوكًا واهتمامًا، فهذا يعني استثنائيةً قلَّ من ينالها! فالإسبان يُشبهوننا في موضوع إعجابهم بالألمان والأوروبيين الشماليين البيض الشقر الزُرَق العيون، كانوا يشعرون - مثلاً - تجاههم بالنقص، الذي رَمَمته إسبانيا سريعاً بقدرة شعبها الهائلة على النُّمو والعناية بنفسه، كما التَّعلُّم والانضباط، ومُحاولات اللِّحاق بالأوروبيين قلبًا وقالبًا، قُبيل سنواتِ الأزمة اللاحقات العِجاف.

سلوكُ أطفالك، طريقةَ لباسهم، نظافتُهم، انضباطُهم، أسلوبُ كلامهم، درجة استيعابهم.. ليس سوى واحد من أهمِّ بطاقات التعريف بك، أنى ذهبتَ وحيثما حلَّلتَ.

الطفل المُهذَّب المنضبط المُجتهد النّظيف، - وما لم يكن نبياً يُؤدِّبه ربّه - لا يُولَد مُهذَّباً مُنضبطاً مُجتهداً نظيفاً، وإنما يكون وراءه أبوان يُربيان ويُعلِّمان ويُنظِّفان ويضبطان، وهذا ما كان

الإسبان يدركونه تمام الإدراك، وهم يمتدحون تربية الأطفال ونظافتهم وتميز أدائهم وأناقة تصرفاتهم، أو عندما تقرر إدارة إحدى المدارس طرد طفل في الثامنة من عمره من المدرسة، تأديباً لأبويه، لأن سلوك الأطفال ليس إلا حصيلة تعب وجهد أو تضييع وإهمال الوالدين.

كان هذا الموضوع مثار نقاشٍ دائم، بين «مالِكة» المغربية التي كانت تعمل في مُختبرٍ للتّحليل الطّبيّة، و«أمّ مالِك» الطّبيبة السورية، التي كانت تَسخر من أولادِ مالِكة، لأنهم يأكلون الفواكه بالشوكة والسكين.. وكانتا على خِصام مُستمر، وقيل وقال وكأنهما في حربٍ دائبة.

قالت مالِكة: أنا أبذلُ جُهداً لتربية أبنائي على أحسن طريقة ممكنة، لكي لا يشعروا أبداً بالنقص، في هذا المُجتمع الذي يعيشون فيه.. وهذا لا يعني أنني لا أخطئ بإستمرار، وأنني قد أوذيتهم من حيث أريد أن أنفعهم.

- وهل أكلُ الفواكه بالشوكة هي الطريقة لذلك؟

- لا أدري.. إن كانت هي الطريقة أم لا، لكن واجبي أن أعلمهم آداب السلوك العام، وكنتُ سأعلمهم إياه عينه حتى لو كنتُ أسكنُ في الموزامبيق.. الأصل أن يُعَدَّ الطِفْل للحياة على أفضل ما يمكن.

- هؤلاء القوم لا يُحبوننا ولا يحترمونا، ومهما فعلت، فهذه حقيقة لن تتبدل أبداً.

- صحيح، ولكن أن لا يُحبوننا لأننا غرباء.. شيء، وأن يكرهونا لأننا قَدِرون، أو نَتَصَرَّف بطريقة غير لائقة، أو أننا غير «متمدنين» ونتصرف بعشوائية منقطعة النظير.. شيء آخر.

- أنا لن أزعج نفسي بهذه التّفاهات.

- يا أختي أنا لا أزعج نفسي بالترهات، لكن هذه هي طريقتي في تربية أبنائي.. وهي تُجديهم نفعًا في أي مجتمع يعيشون فيه، لا أحد يستطيع أن يَسبِّهَهم بأنهم قَدَرُون، أو مُهْمَلُون، أو يَتَصَرَّفُون بجشع، أو يُبَادِرُون النَّاسَ بِالضَّرْبِ، ولا يَعْرِفُونَ لُغَةَ الْحَوَارِ.. أنا أربيهم بالضبط كما ربّنتي أُمِّي، وليس لأنني أعيش في إسبانيا، وإن كان ذلك يعود عليهم بالنفع في هذا المُجْتَمَع.

- هنيئًا لكِ صَبْرُكَ، وأقولُ لَكَ.. هذا تضييعُ وقتٍ وتَفَاهَة وتَنَطُّع!

- والله يا أُمّ مالك، إن كانت تربية الأبناء، بمعنى تعليمهم قواعد السلوك الصحيحة التي تناسب العصر الذي يعيشون فيه، تضييع وقت وتفاهة، فماذا بقي لنا في هذه الحياة؟ وماذا بقي لنا من الإسلام؟

- وما علاقة الإسلام بكلّ هذا الآن؟

- نحن نُمثِّلُ هنا الإسلام رغم أنفنا.. وهذا هو الإسلام.

- وهل الإسلام يعني أن نأكل بالشوكة، وأن يتناول أطفالنا الصغار الفواكه بالشوكة؟

- أليس الإسلام دين النظافة والطهارة؟ ألا يعلمنا ألا نغضب، وأنّ الشدّيد ليس بالضّرعة؟ ثم إنهم لا يأكلون الفواكه دائِمًا بالشوكة! إنهم يأكلونها بأيديهم إن لم تكن مُقشرة! والله إن هذا لأمر عَجَاب.. أنا أودِّبُ أولادي بما أعرِفُه.. لا زيادة ولا نُقصان، وما أعلِّمُهم إياه، هو الذي يرفعُهم ويكرِّمُهم في هذا المُجْتَمَع.. فما مُشكِلتُكَ؟ ولماذا يُزعِجُكَ هذا، وأنت طيبة؟؟ هل تريدِين لي أن أعلِّمُهم القذارة والرُّعونة وقلة الأدب؟؟!

- ما قلتُ هذا.. لكنك تُبالغين كثيرًا!

تدخلتُ أُمّ ياسر الفِلَسْطِينِيَّة في الحديث، وقالت لأمّ مالك:

يا أختي يا أم مالك.. لو قلنا «لا إله إلا الله» لَوَجَدْنَا من يقول لنا: إنكم تُبَالِغُونَ، فَدَعِينَا نُبَالِغْ فِيمَا نُنْظُنُّه حَسَنًا وَخَيْرًا، يكفينَا مُبَالِغَةُ الغالبية منا هنا في الإِتِّجَاهِ الْمُعَاكِسِ.. أَخْتَنَا هُنَا تَبْذُلُ جَهْدًا كَبِيرًا لتربية أولادِها، على أَحْسَنِ مَا تَظُنُّ وما تَعْرِفُ، فَلَمْ لَا نُشَجِّعُهَا وَنَتَعَلَّمَ مِنْهَا، بدلًا من أَنْ نُؤْنِبُهَا وَنَعَاقِبُهَا كَأَنَّهَا تَرْتَكِبُ جُرْمًا.

ثم اِلْتَفَتَتْ إِلَى مَالِكَةَ، وَقَالَتْ: هَاتِ عَلَّمِينَا يَا مَالِكَةَ، كَيْفَ تُقَشِّرُ الإِجَاصَةَ بِالشُّوْكَةِ وَالسَّكِينِ.. وَاللَّهِ لَقَدْ أَذْهَلَنِي أَنْ يَسْتَطِيعَ ابْنُكَ بِسِنَوَاتِهِ الثَّلَاثِ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ.

كَلَّمَا ذَهَبْتُ وَأَوْلَادِي، إِلَى «جَمْعِيَّتِنَا» لِلصَّلَاةِ فِي مَسْجِدِهَا، وَلِتَمْضِيَةِ فَتْرَةٍ مَا بَعْدَ الظُّهْرِ هُنَاكَ، بِصَحْبَةِ اللَّائِذَاتِ بِالْجَمْعِيَّةِ وَأَوْلَادِهِنَّ، وَجَدْتُ نَفْسِي وَسَطَ مَعَارِكِ الْقِيلِ وَالْقَالَ، وَخُصُوصًا مَعَ أُمِّ مَالِكِ الطَّبِيبَةِ السُّورِيَّةِ، الْمَعْتَرِضَةِ عَلَى تَقْشِيرِ الإِجَاصَةِ بِالسَّكِينِ! وَالتِّي لَا تُوجَدُ وَسِيلَةً لِلتَّفَاهُْمِ مَعَهَا، لِقُسُوتِهَا وَتَكَبُّرِهَا وَطَرِيقَتِهَا الْفَجَّةِ فِي التَّعَامُلِ مَعَ الْآخَرِينَ.

سَأَلْتُهَا مَرَّةً، عِنْدَمَا ذَكَرْتُ أَنَّهَا طَبَخَتْ «مَلْفُوفًا مَحْشِيًّا بِاللَّحْمِ وَالْأَرْزِ».. أَنْ تُعَلِّمَنِي طَرِيقَةَ طَبْخِهِ.. فَقَالَتْ بِكُلِّ جَلَافَةٍ: أَلَا تَعْرِفِينَ طَبْخَ الْمَلْفُوفِ؟ كَانَ اللَّهُ فِي عَوْنِ زَوْجِكَ الْمَسْكِينِ!

- لَا.. لِلْأَسَفِ لَا أَعْرِفُ، وَلَا يَعِينِنِي أَنْ لَا أَعْرِفُ، وَلَكِنْ أَنْ أُسْتَكْبَرَ عَلَى التَّلَعُّمِ! أَنَا أَتَعَلَّمُ الطَّبْخَ شَيْئًا فَشَيْئًا مِنَ الْجَمِيعِ، وَهَذَا الْمَوَادِ لَا تُشَبِّهُ مَوَادِ الطَّبْخِ فِي الشَّامِ.

صَحِحَتْ فِي سُخْرِيَّةٍ وَأَرْدَفَتْ: كَيْفَ لَا تُشَبِّهُ مَوَادِ الطَّبْخِ فِي الشَّامِ؟ يَعْنِي الْمَلْفُوفُ هُنَا هُوَ خَضَارٌ غَرِيبٌ طَعْمُهَا حَامِضٌ مِثْلًا!

- لَا لَيْسَ ذَلِكَ، وَلَكِنْ لَا شَكْلَهُ وَلَا طَعْمُهُ كَالْمَلْفُوفِ فِي الشَّامِ، ثُمَّ أَلَا تَرَيْنَ أَنَّ الْكُوسَا هُنَا مُخْتَلِفَةٌ حَجْمًا وَشَكْلًا وَطَعْمًا، عَنْ كُوسَا الشَّامِ الصَّغِيرَةِ اللَّطِيفَةِ، وَكَذَلِكَ الْخِيَارُ وَالْبَازَنْجَانُ.. إِنَّهَا تَنْوَعَاتُ الْفَصَائِلِ النَّبَاتِيَّةِ.

- يعني تُريدِين أن تُبرري فَشْلَكَ في الطَّبْخ، بمعلوماَتِكَ في العلوم الطبيعيَّة، هذا مضحك!

- لم أَفشل في طبخ الملفوف، لأنني لم أَتعلَّم طبخه بعد! .. لك أختي، طلبنا منك تَعَلَّم الطبخة لا أكثر ولا أَقل!

- أنت في إسبانيا منذ سبعة أعوام ولا تعرفين طبخ الملفوف!

- لا.. لا أَحسنُه، ولو كنتُ أَحسنُه ما طلبتُ منك أن تُعلِّميني!

تَدَخَّلَتْ أختُ جزائريَّة، كانت تجلس إلى جوارنا، فقالت لها مُتَأَفِّفَةً، اللَّهُمَّ إِلَيْكَ المُشْتَكى، طَلَبْتُ مِنْكَ تعليمها طبخة، فَفَتَحَتْ لها مِلَفَّ تحقيق كامل، مُعْظَمُنا تَزَوَّجنا صغيرات ولا نَعْرِفُ الطَّبْخ.

استدارتُ أُمَّ مالِك نحو حُوريَّة كَمَنْ لَدَغَهُ عقرب وقالت: ماذا تقصدين؟ هل أَنني تَزَوَّجْتُ مُتَأَخِّرَةً؟ حبيبتي أَنا كنت أدرُسُ الطبَّ وأختصَّ، ولم أَكُن مُسْتَقْبِلَةً على الزَّواج!

قالت حُوريَّة وهي تضحك مُحاوِلَةً تلطيف الجَو: لا إِلَه الا الله الحليم العليم.. هاتِ عَلِمينا طريقة طبخ المَلَفوف، خلصينا، وأَعْتَقينا لِوَجْهِ الله تعالى.

فَقالت أُمَّ مالِك: خذوا رَأْسَ المَلَفوف واسلُقُوهُ، ثم فُكُّوهُ، ولُفُّوهُ..

قلت: هي تِلْكَ المُشْكِلَة، إِنَّه هنا كبيرٌ جدًّا، لا يدخل في أَيِّ طنجرة، ولا يُمكن لا فَكُّه ولا تَرْكيُّه.. من أَجلِ هذا سألتُكِ أختي الكريمة.

قالت أُمَّ مالِك: ما دُمْتُ قَدْ سَأَلْتِني لِتَسْلي، لا لِتَعْلَمي، فدَبِري نَفْسِكَ.

ثم التَفَتْتُ إلى حُوريَّة، وراحت تَتكلَّم معها مُعَيَّرَةً مَجْرى الحديث، دون أن أَسْتفيدَ شيئًا من سؤالها عن طَبْخِ المَلَفوف «المُشْحَرَّة»، التي تعلمتها لاحقًا، وكلَّما طبختها تذكرت تلك المحادثة، فلا أدري أَأضحك أَمْ أبكي منها!

- ماذا يفعل أولادكِ أختي «حُوريّة» في المدارس الإسبانيّة؟
- يتعلّمون فيها كيف يتعلّمون.

- هذا كُفْرٌ وتَفَلُّتٌ.. ولو تلاعبتِ بالألفاظ وقلّبتِ بها لسانكِ!
- أنا لا أَقْلِبُ لِسَانِي، أنا مُخْتَصَّةٌ بِتعليمِ تجويدِ الْقُرْآنِ،
ولذلك أعرفُ استخدامَ الألفاظِ يا دكتورة.. ثم إنني أرجو ألاَّ
تَجْعَلِي الأمرَ أمرَ كُفْرٍ وإيمان، الأمرُ مُتَعَبٌ ومُنْهِكٌ لِلوَالِدَيْنِ،
ولكننا نُسَدِّدُ، ونُقَارِبُ، ونُرَاقِبُ، ونُلاحِظُ، ونُسْتَغِلُ، ثم إنَّ 99 في
المئة من أولاد المسلمين يرتادون المدارس الإسبانيّة.. وليس
أولادي وحدهم.

- مَنَاهِجُ سوريا أفضل من مَنَاهِجِ إسبانيا بمئة مرة.
- ومن أين آتي أنا هنا بمَنَاهِجِ سوريا، المُتَقَدِّمة، المُتَطَوِّرة،
الرَّائِعة؟! حتى مَنَاهِجُنَا في الجزائر جيدة ومُفيدة، ولكن ما علاقة
هذا بأوضاعنا التَّعليميّة والتَّربويّة هنا في إسبانيا؟؟ وإذا كانت
مَنَاهِجُ سوريا أفضل من مَنَاهِجِ إسبانيا التَّربويّة، فلماذا أُنْتَم في
سوريا مُتَخَلِّفون عن إسبانيا بمئة مرة على الأقل؟!!

جُنَّ جنون أمِّ مالِك وقالت:

- نحن لسنا مُتَخَلِّفين يا أخت حُوريّة، سوريا بلدٌ مُتَقَدِّمٌ،
وأحسن من إسبانيا بكثير، لكنكِ أنتِ تَشْعُرِينَ بالنقص!

- طيب إذا كان الأمر كذلك، يا ست⁽¹⁾ أمِّ مالِك، فماذا تفعلين
أنتِ هنا، ولماذا لم تَبْقِي في سوريا المُتَقَدِّمة تقدِّمًا مُذهلاً؟
- لأن زوجي يَتَخَصَّصُ هنا، وأنا اِلْتَحَقْتُ به.

(1) كلمة «ست» باللهجة العامية، وهي منحوتة من اللغة التركية، تعني
«سيدة» بالعربية، وهي تستخدم في كل لهجات بلاد الشام، ومنها جاءت
كلمة «ستي» التي ينادي بها الناس جدّاتهم.

حَشَرَت مُعْلِمَةَ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ هَيْفَاءَ السُّورِيَّةِ نَفْسَهَا فِي
الْمَحَادَثَةِ، وَهِيَ تَنْظُرُ إِلَيَّ مُتَأَسِّفَةً، خَوْفَ أَنْ يَأْخُذَ الْحَدِيثَ مَنْحَى
صِرَاعِ هُويَّاتٍ وَطَنِيَّةٍ، وَوَجَّهَتْ الْكَلَامَ لِلدَّكْتُورَةِ أُمِّ مَالِكٍ، الَّتِي
أَعْرَفَهَا مِنْذُ أَيَّامِنَا فِي الْجَامِعَةِ، وَقَالَتْ:

- وَلِمَاذَا لَمْ يَجِدْ إِخْتِصَاصًا فِي سُورِيَا أَخْتِي أُمِّ مَالِكٍ؟
وَجَاءَ إِلَى إِسْبَانِيَا، مَا دَامَتْ سُورِيَا أَفْضَلَ مِنْ إِسْبَانِيَا فِي النُّوَاحِي
التَّعْلِيمِيَّةِ، كَمَا تَقُولِينَ؟ سَبِّحَانَ اللَّهِ.. بَأَيِّ شَيْءٍ تَتَقَدَّمُ سُورِيَا عَلَى
إِسْبَانِيَا؟ بِالصَّنَاعَةِ؟ بِالزَّرَاعَةِ؟ بِالْمُتَوَجَّاتِ الْحَرْبِيَّةِ؟ بِمُسْتَوَى
الْجَامِعَاتِ؟ بِوَضْعِ الْمَرْأَةِ؟ بِوَضْعِ الْأَطْفَالِ؟ بِتَنْظِيمِ الْمُجْتَمَعِ؟
بِالدَّخْلِ الْقَوْمِيِّ؟! أُمِّ بِالْحُرِّيَّةِ وَالْدِيمُقْرَاطِيَّةِ وَحُقُوقِ الْإِنْسَانِ؟!
بَأَيِّ شَيْءٍ؟!

أَزْعَجَ أُمِّ مَالِكٍ تَدْخُلُ هَيْفَاءَ الْهُجُومِ فِي الْمَوْضُوعِ، وَإِعَادَتِهِ
إِلَى مَسَارِهِ الطَّبِيعِيِّ، قَبْلَ أَنْ يَنْقَلِبَ إِلَى حَرْبٍ جَزَائِرِيَّةٍ - سُورِيَّةٍ،
تُنْذِرُ بَشَرَّ عَظِيمٍ، وَقَالَتْ فِي اسْتِعْلَاءٍ وَثِقَةٍ مُطْلَقَةٍ:

- بِالْإِسْلَامِ!!

أَجَابَتْهَا حُورِيَّةُ الْجَزَائِرِيَّةِ:

- يَا عَزِيزَتِي.... عَنْ أَيِّ إِسْلَامٍ تَتَكَلَّمِينَ؟ إِسْلَامُ الدَّوْلَةِ؟
أُمِّ إِسْلَامُ النَّاسِ؟! الْإِسْلَامُ يَسْمُو بِأَهْلِهِ أَيْنَمَا وُجِدُوا إِنْ صَدَقُوا
وَالْتَزَمُوا، سِوَاءَ كَانَ ذَلِكَ فِي سُورِيَا أَوْ إِسْبَانِيَا أَوْ الْوَأَقِ الْوَأَقِ،
وَالْبَلَادُ لَا تَكُونُ مُتَّفَقَةً لِأَنَّ أَهْلَهَا مُسْلِمُونَ أَوْ غَيْرُ مُسْلِمِينَ، لَكِنَّا
تَتَفَوَّقُ بِالْعَدْلِ، وَتَحْيَا بِالْحُرِّيَّةِ، وَتَنْهَضُ بِمَنْحِ النَّاسِ كِرَامَتَهُمْ،
وَحُقُوقَهُمْ، وَهَذِهِ أَشْيَاءٌ غَيْرُ مَوْجُودَةٍ فِي سُورِيَا، بَيْنَ النَّاسِ، وَلَا
فِي مَا بَيْنَ الْحُكَّامِ وَالنَّاسِ.

هَرَبَتْ أُمِّ مَالِكٍ نَحْوَ الْإِهَانَةِ وَالشَّتِيمَةِ، وَهِيَ تَشْعُرُ بِأَنَّهَا
مُحَاصَرَةٌ: مُشْكِلَتُكَ أَنْ تَشْعُرَ بِالنَّقْصِ، وَتَخْضَعَنَّ لِلْإِسْبَانِ،
وَعَلَيْكَ تَجْدِيدُ إِيمَانِكَ!

رَدَّتْ حوريّة: يا أختي العزيزة الله يُكرمنا، ويُثبّتنا، ويُرينا الحقَّ حقًّا، ويرزُقنا إتباعه.. ويُخلصني من الشّعور بالنّقص، والعبودية للإسبان، أنا والأستاذة هيفاء وأمّ ساجدة، ويرزقنا إيمانًا متجددًا.. أيسُرك هذا؟!

- إذا كنت تَسخَرين مِن نصيحتي لك، فانتظري أن يَمَسَخَكَ الله، ويبتليكَ في أولادِكَ بما لا طاقة لك به!

قاطعتها هيفاء:

- لا حول ولا قوة إلا بالله على هذا المنطق، وهذا الحقد، يا أختي لا أحد هنا يَسخَر من نصيحتك، لكن كلّ أسرة في الجالية تُفكّر، وتُسدّد، وتُقارب بما يمكن، وما تستطيعه، ثم يَخْتار الناس ما يرونه مُناسبًا لأوضاعِهِم وقُدّراتِهِم، ويَجْتَهِدون لِتَغطية النقص لديهم، ونَسأل الله العافية.

عادت أم مالك لتقول، وكأنها لم تسمع حرفًا مما قيل لها:

- سَتَرون نتيجة أفعالكم هذه.. سترون البلاء عندما ينزل!

تدخلتُ وقلت: طيب يا أختي العزيزة.. ادّعي لنا الله أن يُعيننا، تمنّي لنا العافية، تَكْرَمي علينا بالمُساعدة، اجبري خاطِرنا بكلمة تُشجّع لما تَربّيه من جهود جبارة، نبذلُها للتوفيق بين الحفاظ على هُويّة الأولاد واستمرارهم في المدرسة الإسبانية.

زَوّت وجهها في غضب وعُنْجُهيّة، وقالت وهي تقوم مُنصرفّة دون سلام ولا تحيّة:

- أنتم فاسقون ولا تَسْتَحِقُّون.. وستَرون!

تَجَعَّلُك «الغربة» وأنت المزروع فيها بين بلدين، وثقافتين، ولغتين، ومجتمعين، بين الماضي الذي كُنْتَ تَظُنُّه «أمنًا»،

والحاضر الذي تراه «مُرعِباً»، تَجْعَلُكَ الغُربة مُتردِّداً، تَحْبِطُ ما بين الخوف من ارتكاب الأخطاء، والتأمل بالقيام بالصواب، حيران مُتَوَجِّساً، تبحث عن نفسك وعن صيغةٍ لِلتَّفَاهُم والتَّعَايُش مع من حَوْلِكَ من أبناء جِلْدَتِكَ، الذين يُراوِحون ما بين «الإخوة الأصدقاء» و«الإخوة - المُتَوَحِّشِينَ» و«الإخوة - الأعداء»!

تَجْعَلُكَ «الغُربة»، جُزءاً من خَلْطَةِ بشريّة، مُتَوَعّة، مُنْأَفِرَة، يختلف الناس فيها، يَتَنَاقَشُونَ، وَيَتَشَاجِرُونَ، حتى على فَهْمٍ وَالتَّزَام أبسط العادات والتقاليد، والمصطلحات والسلوكيات.

وعلى الرَّغم من أن أفراد هذه الجالية المدريدية - من الآتين من المنطقة العربية- أصبحوا أَهْلَكَ وإخوانك وغطاءك وَلِحافَكَ.. فإنك تجد نفسك في غُربةٍ - على الغُربة، وسط جَوٍّ مَوْبُوءٍ بالمُشَاحَنَاتِ التَّنَافُسيّةِ، السفسطائيّةِ، المقيّمةِ، يَفْقِدُ الناس فيه، المودّة والرحمة، والأنس ببعضهم البعض.. تَتَلَخَّصُ كُلُّ أَدَوَاتِ تَوَاصُلِهِمْ فيما بينهم، بِلُغَةٍ انتقاديّ شخصيٍّ وَقِحٍ مُتَّهَمٍ، ونقاشاتٍ تافهة حيناً، مُهَمّة حيناً آخر، لكنها ودائماً عقيمة، لا تَقِفُ عند حدود الإحترام المتبادل، ولا الأُخُوّة - المُتَوَقَّعة، ولا حتى رحمة الغُرباء بعضهم بعضاً.

الغريبُ للغريب طَوْقُ نِجاة، والغُربة - للغُرباء نَسَبٌ وانْتِمَاء، وَسَتَكْتَشِفُ لاحقاً أن طَوْقَ النِّجاة هذا، قد يَلْتَفِّ على عُنُقِكَ يُصِيْبُكَ بِالْإِخْتِنَاقِ.. يَمْنَعُكَ من القدرة على تنفس هوائٍ نقيٍّ، تملأ به رِئَتَيْكَ بعد رحلة السباحة الطويلة الشاقّة التي خُضَّتْهَا بحثاً عن حُرِّيَّتِكَ!

يا لِعَارِنَا، ونحن نَفْتَقِدُ في تعاملنا فيما بيننا، الحد الأدنى من درجات الإحترام والرّأفة، وَمَنَحٍ من يُخَالِفُنَا الرَّأْيَ، بعض هامشٍ من تَفْهَمِ آلامِهِ ومُبرِّراتِهِ.

أَغْطِ الإسبان على علاقاتِهِم البينيّة الوطيّدة، وعلى صداقاتِهِم

المُسْتَدِيمَة، وعلى صَرَاحَتِهِم المنضبطة، وعلى نقاشاتهم التي لا يمكن أن تصل دَرَجَة القطيعة دون رَجعة، وعلى خلافاتهم التي لا يَسْمَحون لها بأن تُفسد المَوَدَّة فيما بينهم.

بعد كل ما جرى بيني وبين لوردس من نقاشٍ عنيف حول تقسيم السودان المُزْمَع، ومن خلافٍ في الرأي، بدا أنه لا لقاء بعده، جاءت لزيارتي مرة أخرى، شربنا القهوة، وكنت قد دَعَوْتُ «مارتا»⁽¹⁾ المسلمة الإسبانية المتزوجة من سوري، لَتشاركنا لقاءنا، وهي شابة في عُمُرنا، كانت قد تَأَهَّلَتْ للمساعدة في المعالجة الفيزيائية، لكنها تعمل في بيتها في حياكة الملابس الصوفية الفنية، التي تبيعها أمها في الكنيسة أو في أسواق الأحد التي تُنصب في مركز مدريد، حيث تسكن أمها المدريدية أبا عن جدّ، تجمعها بابتها علاقة «إعصارية»، طالما هبَّت رياحها العاتيات، وأصابني بوابل صَبَّها، أو لَطَمَتني بعض أغصان أشجارها المُتَكسِّرة، تحملها تلك الرياح على غير هُدى.

قضينا وقتًا غنيًا، ولم يكن جميلًا بسبب وجود مارتا، حتى أنني نَدِمْتُ على دَعَوتهما معًا، فلقد عَبَّرت لها لوردس عن استغرابها الشديد، وامتعضها من إكتشافها أنها مسلمة، تتحدر من أسرة مدريدية «صافية» - كما وصفتها!! - وأما مارتا، فلقد رَدَّت عليها ردًّا شديد القسوة، إذ ذَكَرْتُها بأنها تعيش في دولة مُلْحِدة، ولا ينبغي لأحد أن يتدخَّل في قناعات أحدٍ الدينيّة.

وإنها أي مارتا، كانت قد كَفَرَتْ بأكاذيب الحُرَيَّة، ونفاق الديمقراطية، قبل أن تَكْفُر بأيّ شيء آخر في حياتها!

صَرَفنا الحديث إلى اتجاهٍ آخر، قبل أن يَنْقَلِب إلى معركةٍ مَحْمُومَة، ولئِنْ كان من شيءٍ يَمْتَاز وَيَسْرُع فيه معظم الإسبان،

(1) Marta اسم مؤنث إسباني من أصل عبري، يعني بالعربية «السيدة».

فهو إنقاذُ علاقاتِهِم الاجتماعية من الغرق، والخروج بأخفّ الأضرار المُمكنة، على الرغم من قدرتهم الفائقة في إهانة وإزعاج الآخرين، عندما يريدون!!

تحدّثنا عن «رشا»، وعن وضع المرأة المؤلم في سوريا كما في إسبانيا، وأن الألم الإنساني يجمعُ النَّاس ولا يُفرِّقُهُم، حكّت لوردس عن رَغْبَتِها في الزواج والإنجاب، لكن ألفونسو لا يريد.. - وما يفتأ يقول: إنَّهما يعيشان معاً منذ سنوات، وأنَّهما متفاهمان على كلِّ شيء فما حاجتُهُما إلى جعل الأمور رسميّة مُعقدة!

كانت لوردس تشعرُ أنَّها تتقدّم في العمر، وأنَّها في حاجةٍ إلى اختبار مشاعر الأمومة، الشيء الذي لا يفهمه الرجال - كما قالت - ثم أردفت: الأمر عندكم مُختلِف، أنتما أصغرُ سنّاً، وكلاكما أمّ، يبدو أن حبّ التملك لدى رجالكم يفوق أنانيّتهم الذكوريّة!

عندما وصلنا إلى هذه النقطة من النقاش، ووجدنا أن الأمر سيَنتهي بنا إلى مُشادةٍ أخرى، قَطَعْتُ الحديث، وقُمتُ إلى بُنياتي أساعدُهُنَّ فيما هنَّ فيه، وتشارَكنا ثلاثتنا مع الصغيرات، بناء الأبراج من تلك المُكعبات الصّغيرة المُلوّنة.. اللعبة المفضلة في بيتنا.

ما أسهل أن تهْدِم بُرجاً، بِنْيَتَه من عشرات المُكعبات الصّغيرة المُلوّنة المُختلِفة الأحجام والأشكال، وما أصعب أن تُحافظ عليه كما هو.. قطعةً فنيّةً وحيدة، في كلِّ مرّةٍ نبني فيها «بُرج المكعبات» هذا، نُساهم في تلوين الحياة، والحفاظ على مكاننا فيها، بكلِّ ما يقتضيه ذلك من الحفاظ على توازننا ونحن نُسكُن إحدى جَنَبَاتِهِ.

كانت علاقاتنا الاجتماعية، فيما بيننا في الجاليّة، تمرُّ من شقّ التنافُس، والتحاسُد، والتناجُش، والتنازُب بالألقاب، والتكبر، وفرض الرّأي على الآخرين، إلى درجة أنَّ بعضهم وأثناء جلساتنا تلك في باحة جمعيتنا - والتي كُنّا نَسْتعِض بزيارتها عن أخذ

أولادنا إلى الحقيقة.. كانوا يُوجَّهون إلى بعضهم البعض، إهاناتٍ لا تقتصر على الكلمات البذيئة، والشتائم المُذلة، بل تصل في بعض الأحيان، دَرَجة التدافع بالأيدي، والإعتداء على أطفال الآخرين بالتوبيخ والضرب أحياناً، وحتى أبلغ أنواع سوء المعاملة النفسية!

كان الإسبان مشهورين بالحسد فيما بينهم، يُدركون ذلك ويتندرون به في آدابهم وفنونهم، في محاولاتهم معالجة، لكنهم وعلى الرغم من ذلك، يعرفون كيف يُديرون خلافاتهم دون أن يخسروا أصدقاءهم..

أما نحن.. فلطالما خلفنا وراءنا «إخوة» و«أخوات» في درب الغربة المرير الطويل هذا، بسبب سوء فهم، أو سوء ظن، أو سوء تصرف ومن غير قصد، أو نية أذى.

معظمنا.. وعلى عكس كل ما يمكن أن يُتظَر منّا كأمة أخلاقية.. لا نُحسن الاعتذار، ولا نعرف الغفران، ولا نتلطّف في النقد، ولا نُحسن النصيحة، ولا نتجاوز عن زلاتِ إخواننا وأصدقائنا.. ونكره أن نعترف لهم بالتفوق والأفضلية.

دَرَبُنا مَلَأَ بِجُثُنِنا المُتَفَسِّخَة.. والغربان تنهش ذكرياتنا التي نُخلفُها على قارعتها، كلّما فقدنا أخاً أو صديقاً، ودون بصيص أملٍ - في عودةٍ أو مُصالحة.

لَكَانَ الإسبان «هُم» الذين يَرْقُبون في إخوانهم الإلّ والذمّة، ولكأنّا «نحن» الكافرون بأنعم الله علينا، في أعظم ما يمكن أن يَمْنَحَه الرُّقِّي الإنسانِي للبشريّة: الأُخوة في الله.

شيء «ما» في حياتنا يسير بطريقة خاطئة، أشياء «كثيرة» تُنبئُك أنّنا نعانِي مشكلة أخلاقية خطيرة كجالية، بل كمجتمع، فلم

تكن جاليتنا إلا عَيَّةَ صغيرة دقيقة جدًّا، عن حالِ المُجتمَع الكبير الذي ننتمي إليه، والذي نظنُّ أننا تركناه وراءنا في ذلك الوطن.

أرى نفسي في مرآة الجاليَّة، وأنفَحَصُ تقاسيم وجهِ جاليتنا في مرآة المُجتمَع الإسباني، وأنفَرَسُ في ملامح الصورة الشعاعية للمُجتمَع الإسباني في الشَّاشة المُضاءة الكاشفة للحضارة والإنسانيَّة.. تكتشِّف وأنتَ ترى نفسك في مرآة الآخرين، حجم سُمُو ورُقِّي مُجتمَعك وإنسانك، أو ارتكاسهما في مهاوي الإِسْتِبداد والفساد، بعيدًا عن روح الدِّين الحقيقيَّة، بعيدًا عن مُضي العالم بِسرعة الضَّوء، نحو آفاق عصريَّة للفكر والفلسفة وبناء المُجتمَع والنَّظرة إلى الإنسان.

هنا طُرُقٌ مُختلِفة، وسُبلٌ حديثة للتَّعايش في المُجتمَع، وأدواتٌ منظمة لِمَدِّ شبكات العلائق فيما بين البشر.

وعلى عكسِ كلِّ ما يُشاع عن الغربيين، تكتشِّف أن إسبان الثمانينيات والتسعينيات، أشدَّ إيمانًا منا بالقضاء والقدر، وأكثرَ تَمَسُّكًا وقيامًا بواجبِ صَلاتِ الرَّحِم في عائلاتهم، وأشدَّ برًّا بأمهاتهم، وأوفرَّ عطفًا وإحسانًا إلى أولادهم، بل إلى حيواناتهم ونباتاتهم.. وأندى احترامًا وحرصًا على أصدقائهم وجيرانهم ورفاقهم، منا، نحن الآتون من بلاد الشام .

مُجتمَعُنا مقارنةً بمُجتمَعِهِم، ليس بخير، طريقةُ تفكيرنا الاجتماعيَّة منكوسة، آلياتُ فهمنا للأولويَّات معكوسة، علاقتنا البينيَّة ليست بخير! وعلاقتنا مع المُجتمَع المُضيف كذلك غير منضبطة.

علينا أن «نُفرِّمَل» قليلًا، ونُكَبِّحَ جماحَ تَحَدُّرِ هذا «المَرَكَب» نحو هاوية، وأن نَقِفَ لِنُفَكِّرَ مليًّا، في أوضاعنا وأخلاقنا الفرديَّة والاجتماعيَّة.

تكتشف وسط هذه الفوضى التي تُبعثرُك، أنك أصبحت جزءاً من مجتمع هذه الجالية، والذي عليك أن تفهمه وتدمج أو تتعايش معه أو.. تصبر على ما فيه صبر أيوب!

أصبحت جزءاً من مجموعة بشرية طارئة في حياتك، غريب عنها كغريبك عن بلدك، لكنك تُدرك مكنوناتها، فأنت إليها تنتمي وبها تبقى.. تعيش مرحلة مُستحدثة في حياتك، لا تكاد تجد فيها ما يسرُّك ولا ما يرضيك، ولا تُشكّل في الخلاصة، إلا محنة طارئة كبرى في حياتك، لا تختلف كثيراً أو قليلاً عما صار وراءك في بلادك.

اجتماع كل ذلك على المرء يُصيبه بالتعب والإنهاك.

طرح الأسئلة مُتعب مُرهق، والتفكير في الإجابة أكثر إرهاقاً ومشقّة!

تلتفت إلى الورا لَتجد شيئاً تمسك به، تتعلق بأهدابه، في مواجهة مُشكلتك مع مَنْ حَوْلِكَ في غربتك، فإذا أنت أمام غابة مخيفة من الأغصان الواهية الهشة، التي ما إن تشبّث بها، حتى تحطم بين أصابعك، وتسقط على الأرض فتتكسر رُكبتك، ثم تقوم، فتمسك بأخرى فتنسحق في قبضتك، وتسقط، فتتكسر كتفك، وتعاود الكرة، مرة بعد مرة.. تسقط وتقوم وتعود للإمساك بتلك الأغصان، ثم لا تلبث أن تكتشف أنها لا شيء.. لا منطق أخلاقي، لا قواعد سليمة في التعامل، ولا قناعات إيمانية حقيقية تسمو بنا وتحول بيننا وبين الفظاظة وغلظة القلب.

الصديق، رفيق الدرب، الصاحب في الغربة، والأخ في الله.. كل منهم جزء من تاريخك على هذه الأرض، فإذا فرطت فيه وأهنته وحذلتَه وخنتَه أو خَوَّنتَه.. فقدت بعض تاريخك وبعض هويتك.

كانت هُويَّة مجتمعاتنا، تُصنَّع في بوتقة العادات والتقاليد،
والمفاهيم العقيمة التي توارثها النَّاس خلال المِئتي عام الأخيرة،
دون أن تكون لدى الحُكَّام الرَّغبة في تغيير شيء، ودون أن تكون
لدى الشعوب القدرة على الاستجابة لدَعوات التغيير.

كان «المصلحون» يقولون للناس، بأن هذا الوضع
الاجتماعي ليس من الدين في شيء، وأن كثيراً من هذه العادات
والتقاليد، التي تحكم حياتنا، لا تَمُتُ للإنسانية بِصلة، لم تكن غير
لفيفٍ من العلاقات القُماميَّة، القائمة على العَبث، عبثٌ وسذاجةٌ
إنسانية بدائية، فرضها توقفُ المُجتمَع عن النُّمو، بسبب إنشغاله
بالخلاص من الاستعمار والاستبداد، وما ترتب عنهما في حياتنا،
من فساد، وظلم، وقمع، وقهر، وتكميم للأفواه، وحرمان من
الحريات.. ليس على المستوى السياسي فحسب، بل لقد أصبح
القمع والقهر والحرمان من الحريات، مما يمارسه النَّاس، في
بيوتهم ونواديبهم، أشدَّ قسوة وإجراماً من هذا الذي يعانونه من
حكوماتهم!

كنا نعيش حالةً اجتماعية مُزريَّة، من الارتكاس الديني
والأخلاقي، ونمضي بِسرعةٍ مُخيفة نحو دمارنا، دون أن نمتلك
القدرة على لُجْم سرعة هذا الانحدار.

كان أمام الرافضين لهذه الأوضاع المخزية في تلك الفترة،
في مجتمعاتنا، أحدَ طريقين، إما الانسلاخ جملة وتفصيلاً عن
الهُويَّة، وإما الهجرة.. بحثاً عن أرضٍ يُمكنك أن تعيش فيها هُويَّتكَ
كما تريد.. أو هذا ما كنت تظنُّه على الأقل! -، لا كما يُرغمُكَ أن
تعيشه مجتمعٌ مُقبلٌ على إتيحارٍ مُعلن.

كغريبٍ مُهاجر.. حذارٍ أن يَتَحَطَّم رأسُكَ عندما تقع، وإياك
أن تُصاب جُمُجُمَتكَ بِسوء، إحرص على أن يَسَلَّمَ دِماغُكَ، حتى

تستطيع أن تُفكِّر وتختار، كيلا تَذوب وتَلاشي، وحتى تَتمكن من
بناء قناعاتك السليمة.

خُذْ من ديارِكَ التي جِئْتَ منها نور الحقِّ، وضياء الحقيقة،
وذلك القَبَس الذي يَهْدِيكَ إلى أصلِ الأشياء ومُنْتهاها، وتعلم
في بلد المَهْجَر الذي وجدتَ نفسَكَ فيه، قواعد المَنطِق، وأصول
الإنسانية، وتَنعَّم فيه برياض المَعْرِفَة، وامنح نفسك فُرصة للبناء.

النَّفَقِ.

● **بينما** نحن في السوق نتبضع في الباغوادا، يسألنا رجل يمر
إلى جانبنا:

- أنتم عراقيون؟

نُجيب: نحن من سوريا، وهي من فلسطين، وهذه من
المغرب.

- أوه.. مساكين أهل العراق، حَرَثْتُهُم الحرب! كان الربّ في
عُونِكُمْ، أنتم أهل العراق مظلومون! مرة من قِبَل صَدّام المجرم
هذا، ومرة من إيران تريد أن تُصَدِّر ثورتها للآخرين، والآن من
جهة الغزو الأمريكي الذي اضطرّكم للهرب والهجرة ودَمَّر
بلادكم.

تردُّ إحدى السُّوريّات، وكأنها تدفع عن نفسها عارَ الحرب
والغزو والهرب والهجرة، وكأننا لا نَمُتُّ بِصِلَةٍ إلى أهل العراق: يا
سيد نحن لسنا من العراق، نحن من سوريا!

فيقول الرّجل: سوريا، العراق، فلسطين، الحال من بعضه،
كلّ بلادكم في البلاء سواء، البترول البترول! لولا أن لديكم بترولاً
ما تَدَخَّل أحد في بلادكم.

كانت تلك أيامَ غَزْوِ العراق، وسقوطِ بغداد على أيدي
الأمريكان، لتسليمها إلى إيران أمام عَجْزنا وقِلّة حيلة حُكامنا،
كانت الولايات المتحدة قد بدأت عملية استبدال الإيرانيين
بالعرب، ليكونوا شُرطيها في المنطقة - على ما يبدو -، وكنا كلنا
رغم أنوفنا فيها.. عراقيون.

بينما كان العالم، يشهد أولى خطوات تَفَكُّكِ الإِتِّحادِ السوفيتيِّ، وإنهياره الرنان، كانت الولايات المتحدة، تتقدم نحونا لثُبُت من خلال سيطرتها على منطقتنا، أنها أصبحت السَّيد الوحيد الذي يُهيمن على سَير الأمور، في هذا العالم.

كُنَّا على موعدٍ، مع زمنٍ من أشدَّ أيام «العرب» المعاصرة سوءاً وسواداً على الإطلاق.. نشهد، ونعيش، كارثةً حقيقية كبرى، نرى بأم أعيننا كيف يُمَهَّد تحت سمع وبصر الجميع، لسقوط المنطقة كُلِّها في مستنقع الحروب الطائفية الرهيبة، والحروب الباردة - الساخنة، بين القوى الإقليميّة والعالمية، التي تصطرَّع عليها، ولكن بأشلائنا ودمائنا وعذاباتنا.

الساعة الآن تناهز الرابعة فجر يوم الثاني من آب/ أغسطس 1990 وأمام شاشة التلفاز، مثل ملايين العرب والعجم، واجمون نرقب، صامتون ننظر، مَصْدومون ننتظر.. لا نحير جواباً، ولا نملك حيلة.

الألم يعتصرني، الهواجس والأفكار تمزقني، «نحن» في حاجة إلى الإِتِّحاد، أن يضمَّ كلَّ منا أخاه، «نحن» في أمس الحاجة أن نتزع البترول من سيطرة الشركات الغربيّة، وأن نحفظ بثرواتنا، ونتحرر.. «نحن» في حاجة إلى الخلاص.. إلى الخروج من هذا النَّقْ الصَّخريِّ، المُظْلِم، المغبّر، المُوحش، «نحن» في مُنْعَطَفٍ مِفْصَليٍّ من حياتنا.

«نحن»؟.. عن أي «نحن» أتحدّث؟ «نحن» كأفراد وجماليات في المهجر! «نحن» كمُجتمع واحد في الوطن! «نحن» كشعوب في المنطقة! منطقتنا هذه، التي لا نعرف لها اسماً حقيقياً، ولا وصفاً دقيقاً، إلا إنها منطقتنا! اللّغة الرسميّة فيها هي العربيّة، وتمتد جغرافيّتها من المحيط إلى الخليج، وَحدة من الأراضي المُتّصلة، والأقطار المتكاملة، والشّعوب ذات الهُويّة الواحدة.

وربما، ولولا سقوط آخر دولة جامعة مانعة، كوحدة سياسية في المنطقة، لما وصلنا إلى هذه الحال من التشرذم، والإرتكاس، والسقوط المدوي، إثر ضياع الهوية؟ ربما؟! فمن يمكنه أن يدعي أنه يدري، كيف كانت الأمور ستسير لولا هزيمة الإمبراطورية العثمانية، بعد الحرب العالمية الأولى؟

«نحن»؟ من «نحن»؟ وما «هويتنا»؟

«الهوية»؟؟ أي هوية؟؟ من نحن؟؟؟ سوريون؟ فلسطينيون؟ مغاربة؟ عرب؟ كُرْد؟ أمازيغ؟ مسلمون؟ مسيحيون؟ من نحن؟ تهتريء «القومية العربية»، التي قامت على أساسها أنظمة ودول في منطقتنا، تهتريء وتتكلم يوماً بعد يوم، بفعل أعاصير حركات إحياء النزعات القومية والطائفية، في معامل الإستعمار العالمي، الذي يخطط، ويفصل، ويهندس، ونحن.. بكل غباء وتغيب، نتبع خططه، ونحشر أنفسنا في الأوكار، ندخلها، فندخلها من ورائه شبراً فشبراً، وخطوة فخطوة!

نحتاج إلى الخروج من تابوت الإستعمار، والتخلص من حالة التجميد التاريخي القسري، التي دُفعنا نحوها، فدَخلناها بكامل إرادتنا وخياراتنا، مبهورين مُستسلمين.

يجب أن نخرج.. يجب أن نتحرر..

قالت حسناء، ونحن في الحديقة، نراقب أولادنا وهم يلعبون بعد خروجهم من المدرسة، ونمضي في حواراتنا التي تبدو وكأنها لانهاية لها: الحياة في انتظارنا، وما إن يزول تأثير هذا الذي تُسمينه «التَّجَمُّد القهري - الاختياري» في وجودنا، حتى نعود إلى الحياة، نستشعر أولى نسمات الربيع تداعب جباهنا المفتقرة إلى أن تشي بالكبرياء والعزة..

- أي وربي، أنسجة رثائنا تشتاقي إلى الأوكسجين النقي، بل الأوزون الصافي، ينطلق كل فجر قبيل شروق الشمس بلحظات،

سَمِعْنَا الدَّلَّ، هل من سبيل إلى خروج من هذا الكهف المُرْعِب
الذي دخلناه، واستسلمنا فيه لنومٍ طويلٍ مهولٍ؟

- نحتاج أن نجدَ أنفسنا، نحتاج إلى بعضٍ من كرامة، وبعض
من يقظة، وإلى كلِّ الجرعات الضرورية واللازمة، من الحرِّيَّة،
حتى نتمكن من بدء السير في درب الخلاص..

وقبل ذلك.. نحن في أمسِّ الحاجة، أن نُعيد النظر في
أخلاقنا، وفي أساليب تعاملنا مع بعضنا، كما نحن في أمسِّ
الحاجة أن ننتزع البترول من سيطرة الشركات الغربية وأن نحفظ
بشرواتنا، وننحرر.. الله يخرب بيتهم وبيت البترول، وساعة
البترول!

بدونا هنالك حَالِمَتَيْنِ مجنونَتَيْنِ، تعيشان في جهنم، وهما
تتحدثان عن الجنة! تخوضان في السياسة ككل المهاجرين الآتين
من بلادنا التي كان ممنوعاً فيها على الجميع أن يتحدثوا في
السياسة!

- تبدو دَرَجَة حُمق «الرَّجل» أعلى مما كنت أظن!
- كيف تقول هذا عن صدام حسين، الذي يعتبره النَّاسُ أَسَدَ
العروبة؟!

- أي أسد وأَيَّة عُرُوبة يا رجل؟ هؤلاء الطَّغَاة القَتْلَة، من سَقَطِ

الرجال المجرمين، استولوا على مقاليد الأمور في بلادنا، أُجْراء لدى المُستعمر، الذي خَوَّلَهُم سلطات محلية مُتغولة، أطلقت أيديهم لِقَتْلنا وسَرِقَتنا وترَكِيننا.

- أي والله... وكلّ هذا مقابل قيامهم بالحفاظ على مصالحه، وبقائهم ضمن منظومته، واستكانتهم كمصاصي دماء مُروضة للقيام بالأعمال القذرة، التي لم تعد تتماشى مع إدّعاءه «الدفاع عن حقوق الإنسان»، و«حماية الحقوق»، و«ترسيخ القيم الديمقراطية» الخُلبيّة!

- لو أنّهم يسمعونك لقضيتَ فيها!! نعم يا صاحبي، هذا المستعمر يحتاج إلى من يقوم عنه بالأعمال القذرة، ذات اللونين الأحمر والأسود.. لون الدم، ولون القهر.. و«وحوشنا» اليوم، هم من هذا الفصيل!

- فليسمعونني!! أليست هذه ديمقراطيّة؟؟ أم يريدون محاسبتنا على الكلام كما هو الحال في بلادنا؟؟ وهل من خلاف على ما تصف؟ طالما كانوا «ضباعاً» علينا، ونحن العُزّل النّوم، المُحاصرون في حدود مزرعة العبودية، التي سمّوها لنا بالاستقلال!

- أي استقلال يارجل؟؟ استقلال شكلي شبحي مُزيّف! و«أُسودنا» نعامات بين أيدي أسيادهم، مَكْنُوهُمْ من رقابنا، ثم خَدَعُوهم، فأسلموا رِقَابنا ورقابهم إلى الذّبح.. قال أسود العروبة قال!!

- ألا يكفيهم أن أضاعوا الفرصة الذهبية الوحيدة المعاصرة، للنهوض بالشعوب على هامش تدفق مليارات البترول، فلم نَر منه إلا البلاءات والكوارث، وصُنِغَ كلّ شيء في حياتنا، بلون أسود لزج، قدر قابل للاشتعال في كلّ حين.

- أخي الكريم.. لقد تعاملوا معنا كعبيدهم، مواشيهم في

مزارعهم الخاصّة، رَسَم حدودها «سايكس وبيكوت»⁽¹⁾، ونحن قد رضينا أن نكون رعايا، غنماً، أرانب، بعضنا أبقاراً للحلب، وبعضنا جواميس للحرث والنّطح، وآخرون اختاروا أن يكونوا عقارب تُرعب وتلدغ وتقتل.

- يا أستاذي، كانت الخيارات كثيرة أماننا، بعد خروج المُستعمر عسكرياً، من باب فراره من مُواجهة حركات التحرر الوليدة، لكن بصيرتنا المُنهكة جعلتنا نُخلد إلى الخنوع، ونستسلم للوهن.. ونرى أن سُبُل النّجاة أماننا محدودة جداً!

كان الحوار نارياً بين هذين الشابين الضّليعين في واقع الأمّة، شَيْقاً، مؤلماً، وضع أماننا كثيراً من الحقائق، في تلك الجلسة، حول ما يجري في العراق والمنطقة، والتي دعا إليها الطلبة التّوانسة والمغاربة في جامعة الكومبليتينة في مدريد، ضمن سلسلة الندوات والمحاضرات التي إعتادوا إقامتها بين الحين والحين.. كم كان مؤسفاً، أنه لم يكن مُترجماً، ربما كان الواجب يقتضي أن تصلّ هذه الأفكار إلى الغربيين، لعلهم يُلّمون ببعض الحقائق الإستعماريّة التي كُنّا نعيشها في بلادنا، والتي دفعتنا مرغمين إلى الهجرة منها.

ما بين النوم واليقظة، أغفو وأصحو على صوت المذيعين والمذيعات يسردون أخبار ما يجري في العراق في تلك الليلة، شكٌّ عميق يضرب بعضي بعضي..

MEMBRAMIENTO DEL IMPERIO OTOMANO El Acuerdo - - - (1)

Sykes - Picot: el contexto histórico.

..Eduardo Montagut.

«تفكيك وتدمير الامبراطورية العثمانية، اتفاق سايكس وبيكوت:

المحتوى التاريخي: إعداد ادواردو متاغوت».

ملاحظة: الأسماء الأجنبية مثبتة في هذا الكتاب كما هي في الأصل باللغة الإسبانية.

التلفزيونات تعرض صورة «صدام حسين»، ينظرُ بكلّ صفاقة وتحدُّ غثٍّ، إلى ساعته في إنتظار لحظة الصُّفر! وأقول في نفسي: سَيَعْتَنِمُ الفرصة التي تبدو «مُذِلَّة»، مَنَحَتْها له الدُّول التي تُسمي نفسها بالمُجْتَمَع الدَّولي، سيستفيد من هامش «الكرامة» الصورية الذي نَقَحُوهُ به، ليحفظ له ولجيشه بعض قطرات الماء في وجوههم الكالِحات، سينتهز فرصة ذلك الوقت المُستَقَطَّ من التاريخ بين الساعة التي حُدِّدَتْ له، ودقائق الفجر، ليوقف احتلال جيشه للكويت.

لكنه لم يفعل.. ضجة وهمهمات وحركة غير عادية، أيقظتني من غفوتي على الأريكة في بيتي، ذلك اليوم في الباغودا، في مدريد، تمام السابعة فجرًا، انتهت مذعورة، كل القنوات التلفزيونية كانت تبثُ باللون الأخضر، نقلًا عن قناة «س. إن. إن» الأمريكية، لقد دخل الجيش العراقي الكويت!

دَخَلَهَا كَمَجْمُوعَاتٍ مِنَ الْقَتْلَةِ، وَالشَّرَاقِ، وَقُطَاعِ الطَّرِيقِ، دَخَلَهَا لِيَنْهَبَ، وَيَقْتُلَ، وَيُدْمِرَ، وَيُخَرِّبَ، كَأَن أَهْلَ الْكُوَيْتِ لَيْسُوا أَهْلُهُ! كَأَن رِجَالٌ وَنِسَاءُ الْكُوَيْتِ أَعْدَاؤُهُ! كَأَن بَيْنَهُ وَبَيْنَ رِفَاهِيَةِ النَّاسِ فِي الْكُوَيْتِ ثَأْرًا! كَأَن بَيْنَهُ وَبَيْنَ شَعْبِ الْكُوَيْتِ دَاحِسٌ وَالْغِبْرَاءُ!!

لَمْ يَدْخُلِ الْكُوَيْتَ لِيُسْقِطَ نِظَامَ حُكْمٍ — لَيْسَ مِنْ حَقِّهِ إِسْقَاطُهُ —، أَوْ يَمْحُو حَدُودًا تُمَزِّقُ «الْأُمَّة» — قَدْ تَرَسَّخَتْ بَعْدَ سَبْعِينَ سَنَةً بِفِعْلِ حُكَامِهَا، وَهُوَ مِنْهُمْ —، أَوْ لِيَقْرِضَ «وَحْدَةَ غَيْبِيَّة» بِسُلْطَةِ سِلَاحِ غَاشِمٍ، وَقِيَادَةِ مُجْرِمَةٍ — بَعْدَ تَمْزِيقٍ وَتَشْرِذُمٍ طَالَا وَأَزْمَنًا! — لَكِنَّهُ دَخَلَهَا لِيُدْمِرَهَا وَيَنْتَقِمَ! وَمِمَّنْ؟ مِنَ الْكُوَيْتِيِّينَ الَّذِينَ هُمْ أَصْهَارُهُ وَأَنْسَابُهُ وَجِيرَانُهُ وَإِخْوَانُهُ.

إِسْتِيعَابُ كُلِّ هَذِهِ الْحَقَائِقِ مُجْتَمِعَةً، فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ

تلك الساعات السخماوات.. كانت أقل من حجم الألم والشعور
بالفجعة.

صليتُ الفجر وأنا مُنكَمِشة على ذاتي، وهل يكون فجرٌ في
قلب هذا الليل البهيم؟

الأولاد لا يريدون تناول الفطور، واجمين أمام الشاشة
الخضراء، يراقبون الحرب «الإلكترونية»، ولا شيء غير الحرب
الإعلامية الإلكترونية.. سنوات أعمارهم، لم تترك لهم مجالاً
لفهم ما يحدث، كل ما في الأمر، أن هناك كارثة! كارثة حقيقية
تُبثُّ على الهواء مباشرة من بلاد أبيهم وأمهم.. بلادهم حتى لو
وُلِدوا في إسبانيا، وعاشوا فيها كل حياتهم! لقد تكفل الإسبان
ومنذ ولدوا أن يُذكروهم بأنهم غرباء، وبأنهم غير مقبولين
كمواطنين بين ظهرائهم، حتى لو حملوا الجنسية، وكانوا إسبانياً
أكثر من الإسبان أنفسهم.

عاشوا أعمارهم القصيرة غرباء، لكنهم وعلى الرغم من
غُربتهم، كانوا يشعرون بانتمائهم الوثيق إلى إسبانيا، لغة وثقافة
وحياة، وبانتمائهم الوثيق إلى بلاد أمهم وأبيهم، عقيدة ورسالة
وحضارة و.. آلاماً لا تكاد تُطاق.

لم تكن لديهم أي مشكلة في الانتماء، في هاتيك الأيام، على
الرغم من البُعد عن ذلك الوطن، الذي يُدعى سوريا، واجتهاد أهل
هذا الوطن الذي وُلِدوا فيه، والذي اسمه إسبانيا، ليفهموهم كل
ساعة، وبكل الوسائل الممكنة، أنهم فيه غرباء!

بكل بساطة الواقع، كانوا إسبان المولد والثقافة، عرب اللغة
وأصل الوالدين، مُسلمي الهوية والانتماء.. هذه الهوية التعددية،

في تلك الأيام المديرية الثرية إنسانياً وثقافياً، لم تكن مُشكِلة لدى الأولاد، بل كانت مَنبَع ثراء وِغنى.

إسبانيا وطنهم، والعراق بلدُهم الأصل، والمغرب بلدُهم الأصل، ولبنان بلدُهم الأصل، لم يشعر أولادي قطّ بأن سوريا وحدها هي بلد والديهم، وأن انتماءهم إليها، يفوق انتماءهم إلى أي بلد من بلاد المنطقة، كان إنقطاعنا عن سوريا، صلة وصل لنا ببقية بلاد الله وخلق الله في المنطقة، التي كانوا يُسمونها باللهجة الشامية: «تبعنا»، خاصتنا! فيها أهلنا، ونحمل بصمتها اللغوية والثقافية.

يا إله السموات والأرض.. ماذا كان يحدث هناك في أرض العرب؟ أرض البترول! ماذا كان يحدث في العراق والكويت؟ خرج أبو الأولاد وقد احمرّت عيناه من الغضب والحزن، ومن دون أن ينبس ببنت شفة، تعليقاً على هذه الأخبار المفجعة، فتح الباب وانصرف إلى عمله.

كلّ الجيران يستمعون إلى الأخبار، سكّون مريب، وأصوات نشرات الأخبار وحدها، تُشقّ ضجيج هذا السكون المرعب، وتهزّ الجدران بذبذبات أصوات المراسلين نقلاً عن ال «سي. إن. إن».

أخذت البنات ونزلت إلى المدرسة، استقبلني أول ما استقبلني وجه سالبادور⁽¹⁾ بواب العمارة الجديد، كان يستعبر على عادته، رخيص دمه في سوق الرجال، فهو نصف امرأة، يتننّى، مُثيراً عندي مشاعر الرفض والشفقة في آن واحد، يمسح دُموعه بمنديله الذي لا يُفارق، وهو يضبط إشارة المذياع على قناة «راديو 5 كلّ الأخبار» في مكتبه إلى جانب المصعد، قال لي:

(1) Salvador يلفظ بالإسبانية كما يُكتب «سالبادور» بالباء، اسم إسباني مذكر من أصل لاتيني، ومعناه «المُنقذ/ المسيح».

- آسف جداً من أجلكم، لقد احتل بلد من بلادكم بلداً آخر من بلادكم! أين يظن حكامكم أننا نعيش اليوم؟ في العصور الوسطى؟ سيتسبب هؤلاء بحرب عالمية، قلبي يتمزق من أجل أولادك المساكين، لن تستطيعوا العودة أبداً إلى بلادكم بعد اليوم. لم أستطع قول شيء، حيَّته ومضيت.

خجلت من تقييمي بالغ السوء لإنسانيته، وقلبي المتعاطف معنا، حتى سالبادور، الذي لم يصل إلى المرحلة الإعدادية من الدراسة، يفهم ويعرف أن ما يجري في بلادنا مُنافٍ لحركة التاريخ.

جيراني، في هرج ومرج، كلهم ينظرون إليّ في وجوم وألم، كلهم يتحدثون عن الحرب، كلهم لا يعرف ماذا يقول لي! كان الإسبان ملائكة رحمة عند المحن، لم أر مثل تعاطفهم الجميل ذاك مع المُمْتَحِنين.. الشيء الذي بدأ بالإنحسار «معنا» شيئاً فشيئاً، منذ بدأت وسائل الإعلام - بسبب أفعال بعضنا المؤذية. تُهيئ لهم أننا الأعداء الأشرار.

أهالي زملاء أولادي في المدرسة، تحلقوا حولي يُعزوني بالمُصاب، إنهم يعرفون أنني من الشرق الأوسط، إحداهن ضمتني إلى صدرها والدموع في عينيها، وقالت لي: لا بأس مساكين أنتم!

ما عدتُ أستطيع الاحتمال، ولا حبس دموعي، أولادي واجِمون لدى باب المدرسة، أمُّهم تبدو وسط جنازة عزيز، وسنوات أعمارهم الصغيرة لا تُسَعِفُهُمْ لِيَسْتَوِعُوا عِظَمَ ما يجري من حولهم.

شيءٌ خطير، بل خطير جداً، قد حدث، بلدٌ عربي قومي اشتراكي ثوري، يحكِّمه «حزب البعث الاشتراكي القومي الوحدوي»، إقتحم بجيشه حدود بلدٍ عربي آخر.

- الكويت قطعة من العراق، فَلِمَ كُلّ هذا الشّعور بالفجعة؟
سألت نبيلة حسناء، وكنا ثلاثتنا جارات، ولانكاد نفترق،
نأخذ أولادنا بعد انتهاء الدوام المدرسي، إلى الحديقة المجاورة،
ليلعبوا، ويتناولوا وجبة العصرونية، يجمعنا همّ الأمّة، وتقارب
المستوى الدّراسي والثقافي، وأعمارُ أطفالنا.

قالت حسناء: نعم إنها قطعة من الكويت، ولكن بالطريقة
نفسها التي نفهم فيها أن العراق قطعة من أرض «العرب» كلّها! هل
يمكن للعرب أن يصبحوا دولة واحدة بهذه الطريقة؟ هل يمكن
لأمجادنا أن تعود في أواخر القرن العشرين، بهذه الوسائل القبليّة
البدائيّة الهمجيّة المتوحشة، التي لا تمتّ للحضارة ولا للمدنيّة
ولا - للأمجاد بصلة؟

تساءلتُ: كيف زينت لنا، الأحلام البعثيّة القوميّة، رؤية
وحدة تُفرض على دُولٍ تعيش في أواخر القرن العشرين بالقوة
الغبيّة؟ بدل أن تُبنى بالعمل، والتّخطيط، والرّضى الذي يستجيب
للضرورة؟

قالت حسناء وهي شاميّة كُرديّة: الأخطر من هذا - أن تُهَلَّل
بعض شعوبنا لمثل هذا الغزو، على أنه تحقيق لأهداف الأمّة
الواحدة!! التي يُفرض على الجميع فيها أن يكونوا «عرباً» رغم
أنوفهم، كيف يُمكننا أن نُصدّق في عصرنا، أن بإمكان الأمم -
الدّول، والتّجمعات «الدوليّة الجغرافيّة» الكبرى، أن تتشكّل بفعل
رُعوّة بعض الهزّات السياسيّة والعسكريّة والاقتصاديّة هنا وهناك؟
كيف؟ ولماذا؟ أي انفصام عن الواقع نعيش؟ وأي مُستقبلٍ مُظلمٍ
ينتظر بلادنا؟

- لم يأتنا من «حزب البعث»، وحُكمه في العراق وسوريا،
إلا البلاء المُبين، ركب الحزب في البلدين مَرَكِب الطائفيّة، في

إتجاهين مُتعاكِسين رأسيًا فيما بينهما، وفيما يتعلق بأهداف هذا الحزب القومي الوحدوي، جملة وتفصيلاً!

- أي والله، ذُبِح الشيعة في العراق بِاسم البعث، وأُحْرِقَ الكُرد هناك بالكيماوي بِاسم البعث، وبِاسم البعث كذلك، اسْتُلبَت سوريا، ورُكِّعَ شعبُها، وقُتِلَ وغُيِّبَ كُلٌّ من سَوَّلَت له نفسه أن يرفع رأسه من أبنائها الأحرار كائنًا ما كان إِتِماؤُه، لكن الغالبية السُنيَّة فيها كانت - وما زالت - قد حازت نصيب «الأسد» من القَمَع والإذلال والاستلاب والتَّهميش والتَّغيب.

يا إله الأكوان - علَّقت نبيلة السوريَّة الفِلسطينيَّة -. أيَّ شيطانٍ اشتمَل على كتفيه عباءة البعث القوميِّ هذه.. ليُحدِث في بلادنا من الدَّمار والخراب، ما لا يمكننا رؤيته على حقيقته، إلا بعد عقود من الزمان.

ثم أَرَدَفَتْ: إيه إيه.. هَوْنَا عليكما، حربٌ كَكُلِّ الحروب التي تشهدها بلادنا! كُلٌّ ما يجري لا يبلغ عُشر معشار ما يجري في فلسطين، معاناتنا هناك فاقت كُلَّ معاناة، ولم نسمع أو نَرِ أحداً اهتمَّ لنا كما تفعلون الآن!!

كأنني لم أسمع هذه الملاحظة الأخيرة المُستفَزَّة جدًّا، والأمة كُلُّها من مشرقها إلى مغربها، تعيش وتعاني تداعيات ما يجري في فلسطين، وأحرارها من كل صنف وإِئتِماء موقنون ويعتبرون ويعيشون القضية الفلسطينية على أنها قضيتهم الأولى والرئيسية.

كنتُ أفكر بأنَّ تيار «البعث»، انتهى اليوم إلى واقعٍ رهيب،

جاء على العكس من كل ما أعلنه مؤسّسوه، ليُصَبَّ في خانة المُضي قُدُماً، في تحقيق كل ما كان يريده الإستعمار الغربي والشرقي، لهذه المنطقة، من ترسيخ للتقسيم، وتركيع، وتشرذم للشعوب، ورفع للحدود الوطنية، المصنوعة في مخابره الإستعماريّة، وتأجيج جميع أنواع الصّراعات، القوميّة، والدينيّة، والفكريّة .

هكذا.. قُطِع الطريق تماماً على المنطقة العربية لتستعيد هويّتها، ووحدتها، وصحّتها، وتُحافظ على وجودها.



تتفاخر البُنَيَات من حولي لدى إنصرافهن من المدرسة، يحكيّن عن إنشغال التلاميذ، والأساتذة، وهيئة الإدارة، وهيئة النظافة، في المدرسة بموضوع الحرب، وأن الجميع - الجميع تقريباً - كان متضامناً معهن، مُشفقاً على ما يمكن أن تؤول إليه الأمور في «بلادهن - باعتبارهن أجنبيات، على الرغم من أنهن قد وُلدن في إسبانيا، ولا يعرفن وطناً غيرها..

يتحدّثن ويصخبن، من حولي، وأنا كالمُغيبة، تأتيني أصواتهن القريبة المُلامسة للقلب، وكأنها صدى بعيد، تلك الجَلَبَة، كانت تُشَوِّش على الصَّمَم الذي خَلَفَهُ دُويّ الأحداث في نفسي.

أُحَدِّث نفسي كَمَن مَسَّته لوثات، مُراوِحَةً ما بين إذاعة لندن، وإذاعة «الدوتشه بيله»⁽¹⁾ الألمانية اللّتين تَبْشُران باللّغة العربيّة، والقنوات الإسبانيّة التي صار بثها وفقاً على الحرب، لعلّي أفهم

(1) القسم العربي في هيئة الإذاعة الألمانية Deutsche Welle وتلفظ بالإسبانية «دوتشه بيله» بالباء،/ رمزها - DW عربية. تأسس القسم العربي عام 1959. وتوقف بثها بالعربية عام 2011.

ما يدور في تلك الساعات الثقيلة، كان الحصول على المعلومات صعباً، ومعرفة حقيقة ما يجري مُهمّة شبه مُستحيلة.

متى سيكون لدينا وسائل إعلام عربية، تبث بالعربيّة لمصلحة النَّاس والأوطان؟

في البدء كانت «إذاعة لندن»⁽¹⁾ ذات المهنيّة العالية، والتي دأبت على دَسّ السَّم، في كلّ ما تُذيعه باللّغة العربيّة، كانت ملجأً وملاًداً اضطراريّاً للجميع، لا أدكر نفسي منذ وعيت نفسي، إلا وأنا وجميع أفراد الأسرة نستمع إلى إذاعة لندن.

إذاعة لُنْدن فضّلها علينا كبير، وامتهانها لنا كأمة مُستعمرة، أكبر.

وأي إمتهانٍ لأُمّة، أكبر من ترسيخ وضعٍ ثقافيّ - فكريّ إستعماريّ فيها، يقودها إلى الهاوية.



من أجل أن تتمكن دولة العراق، من ضم دولة الكويت إليها جغرافيّاً، وسياسيّاً، وإداريّاً، كان ينبغي أن يشعر كلّ كويتي، بأنّه جزء من وجود العراق، بماضيّه، وحاضرّه، ومستقبله.. عمليات توحيد الدّول والشعوب لا تتمّ بالألعاب البهلوانيّة على مسارح الدّم الدوليّة.

سقط في زمننا هذا، الاتّحاد السوفييتي، وتَفَكَّك بعد سبعين عاماً على قيامه على أشلاءٍ وجماجِم الأوراسيين⁽²⁾.. وسَقَطَتْ،

(1) القسم العربي في هيئة الإذاعة البريطانية BBC، تأسس عام 1922.

(2) الشعوب التي تسكن منطقة أوراسيا، وهي المنطقة المشتركة جغرافيّاً ما بين أورُُبَّا وآسيا، والتي قام الاتحاد السوفييتي على قمع وضم معظم بلدانها ما بين 1922 و 1991 بالقوة المتوحشة.

وتفككت، قبله الإمبراطورية العثمانية، عندما انتهت في أواخر عهدها، إلى البطش والمجازر، وسقطت قبلهما، وتفككت، كل الإمبراطوريات التي أصيبت بالشطط والظلم والبطش.

تلك هي النهاية التاريخية الحتمية، لكل من يحاول فرض إرادته على الشعوب بالقوة وحدها.. لكننا لا نقرأ التاريخ.

حتى تتم عملية زرع «الجغرافيا» في «التاريخ»، ينبغي لكل مواطن في هذه الجغرافيا، أن يشعر بانتمائه إلى «الجسد الواحد»، حضارياً، ثقافياً، بشرياً، عقائدياً، فكرياً، اقتصادياً، ووجودياً.. كما حدث ويحدث - اليوم - في الاتحاد الأوروبي، حيث سبقت إعلان «الوحدة الأوروبية» آلاف الخطوات الإعلامية والاقتصادية والثقافية، التي جعلت الشعوب مستعدة لمثل هذا الاندماج.

السياسات الجغرافية الحديثة، تُبنى على قواعد الأفكار والاقتصاد والمشاريع المشتركة والمصالح عابرة الحدود.. وليس بأسس الحراب الهزيلة، المُبتاعة من الأعداء بشروط الأعداء، مجنونة، مُنفّلة، من عقال الزمان والمنطق.

في مسجدنا، وفي انتظار صلاة الجمعة، كانت أحاديث النساء المغربيات، اللاتي يتجمعن كل أسبوع هناك لحضور الصلاة، واللقاء بالصدقات والمواظبات، تدور فقط، حول غزو العراق للكويت، أصواتهن تشق سكون المسجد، يحاولن تحليل وفهم ما يحدث، ولكن السيدات، كن يعشن حالة من القهر عظيمة، بسبب ما يحدث في مشرق المنطقة، وكأنه يحدث في بيوتهن وقلوبهن.. صدق مشاعر الإنتماء لهذه الأمة لدى المغاربة، بعربهم وأمازيغهم مُذهل، بر الإيمان في قلوبهم بكل أقطارهم، يجعل من هذه القلوب المُشفقة، جسراً لتواصل جناحي هذه الأمة من البشر الذين يقطنون هذه المنطقة من محيطها إلى خليجها، على الرغم

من كلّ ما يُقابل هذا السلوك النبيل من جهة كثيرٍ من الشرقيين من
عقوقٍ وإنكارٍ.

بَكَت ربيعة، وهي تحكي لِبَقِيَّةِ السيدات، كيف ناداهما الرَّجل
الذي تعمل في بيته، وكان رئيس مجلس الشَّعب الإسباني يومها،
لتشهد في التلفاز ماذا يحدث، وقالت: صرْتُ أبكي وأنتحب،
والسيد يُخَفِّف من حُزني، ويقول لي: لا عليك يا ربيعة، لقد مرَّرتنا
في بلادنا بأكثر من هذا، ثم انْصَلَحَت الأحوال، وها نحن نعيش
ديمقراطية وحرية و«بُماً»⁽¹⁾ إقتصادياً!

فأَجَبْتُه - والكلام لربيعة -: ما بغيتش داك الشي يوقع
للمسلمين يا لصاحبي.

بكت ربيعة، وبكىَتْ مع ربيعة، وانخرطَ جميع من في مسجد
النِّساء والرجال بالبكاء، عندما راح خطيب الجمعة يدعو: اللَّهُمَّ
إحِقن دماءنا، اللَّهُمَّ احْفَظْ أعراضنا، اللَّهُمَّ اكشِفْ غُمَّتْنا..

كلَّنا نُفَكِّرُ في العراق ونُحاكِم العراق، ولم يُفَكِّرْ كثيرون بما
فعلته الإيحاءات الأمريكية لكلِّ الأطراف، لِتأجيج هذه المصيبة
الكبرى في الخليج. لم يَلْتَفِتْ أحدٌ إلى حقيقة ما كان يَحْدُثُ داخل
الكويت، ربما لأننا لم نكن نَتَخَيَّلُ، أن جيشاً عربياً، يمكن أن يقوم
بإرتكابِ الفظائع في بلد عربي مُجاوِر، وأن يفعل الأفاعيل بإخوة
الأرض والعقيدة والدِّم والبتروْل! ظَنَّنا أن الأحقاد تَقْتَصِرُ على
الطبقات الحاكمة في بلادنا وحسب.

كانت تِلْكَ واحدة من حَلَقاتِ هَتِكِ الأُستار، عن الوَجْهِ
الحقيقي لِلْجِيوشِ في بلادنا، لم تكن تلك جيوشاً وطنيةً، لحماية
البلاد وشُعوبها، كانت عصابات من القَتلة المُرتزقة، أُعِدَّتْ
بإِتِّقائِيَّة دقيقة وفقط.. لحماية الأنظمة، ومصالحها، ومصالح

(1) «بُماً» أو «بوم» BOM: صوت الانفجار. بمعنى الانفجار.

المُسْتَعْمَرِينَ، الذين خَلَفُوا نَائِبَهُ عَنْهُمْ، في إدارة شُؤُونِ المنطقة،
لتدميرها!

هذه ليست جيوشًا، إنها قطعانٌ، من القتلِ، واللصوصِ،
وقطاع الطُّرُقِ، أتى بها حكامُنَا من قاعِ قيعانِ مُجتمعاتِنَا، فغَدَّوها
بأحطِّ مشاعرِ التَّذالَةِ، والتَّوحَشِ، والعُبُودِيَةِ.

ما كُنَّا نَظُنُّ أن «العرب» يمكن أن يكونوا وحوشًا مع بعضهم
بعضًا إلى هذه الدرجة! مع أننا كُنَّا نعيش بِدِماثِنَا، ولُحومِنَا، من
المحيط إلى الخليج، مَأسِينَا المحليَّة، في تعاملِ هذه الجيوشِ
وأجهزةِ «الأمن» العربيَّة، مع المُواطنينِ المَغْلُوبِينَ على أَمْرِهِمْ،
بضراوةٍ ما بَعْدَهَا ضَراوةٌ، وبِقَمْعٍ ما بَعْدَهُ قَمْعٌ، وبَقَدَارَةٍ وَخَسَّةٍ ما
بَعْدَهُمَا خَسَّةٌ وَانْحِطَاطٌ!

نحن نعيش حالة من الانْفِصَامِ الرومانسي، والخَلَلِ
الشُّعُورِي، نعرف وحشيَّةَ جيوشِنَا، وقوى الأمنِ في بلادِنَا،
وافتقارها الشديد إلى الإنسانيَّة والرَّجُولَةِ والأخلاقِ، في الوقتِ
عينه، الذي نَظُنُّ فيه، أن بعض هذه الجيوشِ يمكن أن تُؤدِّي دورًا
في اتِّجاهٍ إيجابيٍّ ما! نحلمُ به، ويُسيطر على مساحات اللّاوِعي
لدينا!

في كلِّ المنطقة العربيَّة، لا نكاد نجد إلا دولة أو دولتين فقط
تتمتعان بجيش وطني، مُتَّزِنٌ، مُستقل، يعمل حقيقة على خدمة
الشَّعبِ.

نحن شعوبٌ مسكينة، مضحوكٌ عليها، اختارت أن تكون
مُعَيَّبةً، مُهمَّشةً، مُحطَمةً.

كُنَّا حتَّى ليلةِ غزوِ العِراقِ للكويتِ مازلنا نُؤْمِنُ بالمرِوءَةِ،
والشَّهَامَةِ «العربيَّة»، كُنَّا وعلى الرِّغمِ من كراهيَّتِنَا للبعثِ،
وشعاراته، موقنين بالأُمةِ الواحدة، ذاتِ الرِّسالةِ الخالِدةِ!

قلت لأبي ساجدة: هل تُصدّق أن كثيرون يظنون بكلّ
سذاجةٍ، وصفاقيةٍ، وجهلٍ، أن الهدف من حماقة غزو العراق في
الكويت، إنما كان توحيد الأمة؟!!

تبسّم بمرارة المَفْجوع، وقال: انْكَشَفَت الآن الأَقِنعة وإنْجَلَى
بعض المستور، بدتْ الفضيحة، وسَقَطَ اللُّثام عن وُجوهنا، وسقط
القِناع عن قناعَاتنا.. وبدا جهلنا بأنفسنا عارياً، لم يعد بالإمكان
سِتْرُهُ لا بالأحلام الغبية، ولا - بالأمانى البليدة.

استِيسَادُ الجيش العراقي، على مَدَنِيَّ الكويت العُزْل، أُسْفَرَ
عن رُكُوعٍ وسُجُودِ أفراد هذا الجيش، أمام الجنود الأميركان،
وتقبيلِ ذليلٍ لأيديهم! صورة ذُلٍّ، حقيرٍ، مريرٍ، رآها العالم بأسره،
أصابَتْنا بالصَّدْمة، والشعور بالفضيحة، وارْتِجَاجٍ في المُنْح، لم يَنْجُ
منه أحد!

لكنّهم قلة قليلة جدًّا، أولئك الذين عرفوا أنهم مصابون به!
هل كُنَّا أمام مسرحية كبرى، من تلك المسرحيات التي إعتاد
الغرب إعدادها، بدمائنا، وأشلائنا، وغبائنا، لِيُمرَّر في منطقنا
ما يريد، في الوقت الذي يريد؟ هل كنا نَحْضَرُ واحدة، من أكثر
المشاهد «العربية» المُعاصرة مأسويّة وشناعة؟ هل كنا نعيش فصلاً
جديداً من فُصولِ «المؤامرات» التي لا يمنحها الحياة، والفاعليّة،
والقدرة على الإثمار، إلا مَوَاتنا، وشَلَلنا الرُّباعي، وعَجْزنا عن
الجِرائة؟؟

وَجَدَ الغربُ لِنَفْسِهِ، في غزو العراق للكويت، المُبرر
اللازم والكافي، لدُخُولِ بلادنا كَرَّةً أُخرى بِعَسْكَرِهِ، لِيُزِيحَ عميلاً

من عملائه، وَيَسْتَبْدِلُ بهُ عُمَلَاءُ آخَرِينَ، أَشَدَّ إِجْرَامًا، وَعَمَالَةً،
وَعُبودِيَّةً، عَادَتِ الْقُوَاتُ العسْكَرِيَّةُ الإِسْتِعْمَارِيَّةُ، إِلَى أَرْضِنَا،
لِتَحْمِي مَصَالِحِ المِستَعْمَرِينَ فِيهَا، وَثَرَوَاتِنَا الَّتِي نَهْبُوهَا، عَادُوا
لِيَحْمَوْهَا مِنَّا نَحْنُ أَهْلُهَا وَأَصْحَابُهَا الشَّرْعِيُّونَ! وَلِيَقُومُوا بِضَمَانِ
أَمْنِ إِسْرَائِيلَ، قَاعِدَةُ مَجْتَمَعِهِمُ الإِسْتِعْمَارِيِّ الدُّوَلِيِّ، بِشَقِيهِ الغَرِيبِ
والشَّرْقِيِّ، أَقَامَهَا هُنَاكَ، تَمَامًا فِي قَلْبِ المِنْطَقَةِ لِضَمَانِ وُجُودِهِ
وَنِظَامِهِ الإِسْتِعْمَارِيِّ الَّذِي أَسَّسَهُ فِيهَا.

إِسْمٌ جَدِيدٌ إِذَا، لَصِقَ بِنَاتِي فِي المَدْرَسَةِ، صَارَ الْأَوْلَادُ
يُنَادُونَ ابْنَتِي بِإِسْمِهَا المُسْتَحْدَثِ «صَدَامُ»! لِتَشَابُهِ جَرَسِ إِسْمِهَا
مَعَ إِسْمِهِ.. يَضْحَكُونَ مِنْهَا، يُعَيِّرُونَهَا بِأَنَّ إِسْمَهَا يُطَابِقُ إِسْمَ الرَّجُلِ
المَجْنُونِ فِي العِرَاقِ!

قَبْلَ ذَلِكَ كَانُوا يُنَادُونَ أَخْتَهَا بِالْفِلَسْطِينِيَّةِ، وَقَبْلَهُ بَعَامُ،
بِالْأَفْغَانِيَّةِ...

وَبَعْدَ ذَلِكَ.. وَبِتَوَالِي مَحَنِيهَا، وَخُرُوبِهَا، وَبَلَاءِ أَتْنِهَا، وَكَوَارِثِهَا،
كَرَّتْ عَلَى أَوْلَادِنَا أَسْمَاءُ بُلْدَانِنَا العَرَبِيَّةِ وَالْإِسْلَامِيَّةِ الْمَنْكُوبَةِ،
وَأَسْمَاءُ وَتُغُوتِ كِبَارِ «أَعْدَاءِ» الْغَرْبِ مِنْ «خَدَمِهِ» فِيهَا!
نَحْنُ «أُمَّةٌ» مُسْتَعْمَرَةٌ حَتَّى نُوَيِّ خَلَايَانَا، وَكَثِيرٌ مِنَّا لَا يَدْرِي،
أَوْ لَا يُرِيدُ أَنْ يَدْرِي.

وَمَا لَمْ نَعْتَرِفْ بِهَذَا الْوَاقِعِ.. فَلَا خَلَاصَ وَلَا - نَحْرُ.

هَكَذَا نَحْنُ فِي غُرْبَاتِنَا، كَكُلِّ الْغُرْبَاءِ فِي هَذَا الْعَالَمِ، نَدْفَعُ
وَدَائِمًا، ثَمَنًا مَنَاسِبًا، لِكُلِّ مَا يَحْدُثُ فِي بِلَادِنَا سَلْبًا أَوْ إِيْجَابًا، حَتَّى
الْمَصَائِبِ، وَالْكَوَارِثِ، وَالْبَلَاءَاتِ.. الَّتِي يَرِيدُ بَعْضُ أَهْلِ بِلَادِنَا،
أَنْ يَمْنَعَنَا شَرَفَ الْإِصْطِفَافِ مَعَهُمْ فِيهَا، وَالْبُكَاءِ عَلَى أَلَمِهَا،
وَلَا وَائِهَا، كَوْنَنَا بَعِيدًا فِي عَافِيَةٍ وَرِفَافِيَّةٍ وَوَفْرَةٍ!

كم تتطابق حكاياتُ الغرباء، في كلِّ زمان ومكان، كلُّ الذي أرجوه، ألاَّ تتحول حكايتنا الإنسانيَّة، المؤلمة، إلى ما يشبه حكاية «آل كورليونى»⁽¹⁾، الذين إنقلبوا في غربتهم ونأيهم، إلى وحوش تنهش الأجساد، وتهرق الدماء، ولا تُفكر إلا في نجاتها هي، وكأن للوحوش نجاة!

لقد رأى العالم في هذا الفيلم الهائل، كلَّ شيء، إلاَّ غربة - هذه الأسيرة الإيطالية المهاجرة، ووجودها «بعيداً - قريباً» من إيطاليا في الولايات المتحدة، في تلك الحقبة التي كان الأقوى، والأكثر توحشاً، وتغولاً فيها، هو الأبقى.

تعاطف العالم الإستعماريّ، مع «آل كورليونى»، وهم القتلة، المجرمون، المتوحشون، جعلهم جزءاً لا يتجزأ من ثقافته المعاصرة، في حين أنه يُجرّمنا، ويُقصينا، ويُعِدنا، ويُعاقبنا جماعياً، بجرائم فردية، يقوم بها بعض مجانيننا!

كنا حتى تلك الساعة، نعيش في ظلِّ إعلام غربي، مُنصف نزيه إلى درجةٍ معقولة، كنا حتى تلك الساعة نُعامل كبشرٍ مُهاجرين دُخلنا مكرهين.. يتعاطف الناس مع مآسينا، ويتفهمون بعض آلامنا.

لم تكن وسائل الإعلام الغربية، قد بدأت تُعاني من التَّحول الشَّامل، الذي شهدته بُعيد حرب العراق مباشرة، بإصطفافها جبهة واحدة وراء الولايات المتحدة الأمريكية، القُوَّة الوحيدة التي تمخضت عنها الحرب، ما بين أجنحة الإستعمار الشرقي والغربي، أواخر القرن العشرين.

(1) فيلم العراب بأجزائه الثلاثة 1972/1990 التي تحكي حكاية «آل كورليونى» خلال ثلاثة أجيال، في هجرتهم واغترابهم في الولايات المتحدة.

هنالك بدأ التّغير الكبير والخطر، في سياق بداية عصرٍ جديد في أوربا، عصر «عودة» التّعصب، والكراهية، والرفض، والشّعور بالإستعلاء على «الآخر»، عصر تحويل المهاجر الإنسان، إلى الوحش العدو! عصر رفع أسوار البغضاء النفسيّة، بين المواطن الأوروبي، والمهاجر ووطنه الذي جاء منه. بدأ الدّفع في هذا الاتجاه، رغبة في إحداث المفاصلة الكاملة بين الطرفين.. وبدأت وسائل الإعلام الغربيّة، بعمليات غسيل جماعية رهيبة للعقول.

أصبح الغرب السياسيّ الإستعماريّ الرسميّ، في حاجة ماسّة، إلى تجيش الغرب الاجتماعيّ الإنسانيّ الشّعبي، لخدمة عودة الغزو الإستعماريّ العسكريّ المكشوف، للمنطقة العربيّة المجاورة! ولكن وعلى الرّغم من كلّ هذا التّجيش الإعلامي ضد العرب والمسلمين، والذي أتى أكله، في صياغة الرأي الأوروبي العامّ لاحقاً، فإنّ المشاعر الإنسانيّة الرفيعة، التي تربي عليها المواطن الغربيّ، خلال النّصف الثاني من القرن العشرين، بقيت على برّاءتها وطهرها، لدى شرائح واسعة من النّاس في المُجتمعات الغربيّة، لم يتغير جوهرهم الإنساني، ولم تستطع وسائل الإعلام، أن تحمّلهم على تغيير قناعاتهم الإنسانيّة الأخلاقيّة، فيما يتعلق بالنّظرة إلى «الآخر».

ما زال كثير من الإسبان، وعلى الرّغم من كلّ مخاوفهم، يتعاملون مع «المورو» بشكّل فرديّ شخصيّ، مُفضّلين أن يُحسنوا الظنّ فيه، مُتأمّلين الخير، ولو خيب آمالهم! على أن يُسيؤوا إليه، حتى لو تحقّقت فيه أسوأ ظُنُونهم!

لا يُحبّ خيار النّاس، كسر خواطر الآخرين في وقاحة

وصَلَف، مهما كانت الصُّورة المُسبقة عن هؤلاء الآخرين، في
الدَّهن الجماعي لديهم قاتمة.



طبولُ الحرب تُقرَع في العالم، وقرَعُ الإسبان الأحرار على
الطَّنَاجِر، في مظاهراتهم السَّلمية الليلية الرائعة تُعلن رفضهم
الحرب، يَهْزُ الضمائر والساحات والحدارات والشرفات.. ويرفع
ذلك الشعار، الذي يختصر بكلماته الأربع كلَّ الحكاية: «لا للنُفط
مقابل الدم»!

إِصْطَفَ الشَّعبُ الإسباني ضدَّ الحرب⁽¹⁾، وبينما كان
الإِتِّحاد الأوروبي، يُحَضِّر ليضع آخر اللَّبنات، في بنائه الإِقتصاديّ
والجغرافيّ والسياسيّ الموحَّد، الذي عَمِلَ عليه حيثُا منذ
خمسين عامًا، كان الإِتِّحاد السوفييتيّ يتهاوى مُتفكِّكًا، في حين
أن الولايات المتحدة، تتخذ من حماقة الديكتاتور العراقيّ، ذريعة
للعودة إلى المنطقة العربيّة.

صواريخ «سكود» العراقيّة تضرب أهدافًا باهتة غبية، في تل
أبيب «الإسرائيليّة»، والظهران السُّعوديّة، لِبَسَ جورج بوش حُوْدَة
الحرب، يريد أن ينتقم لكرامته الطفوليّة، بينما كان الإعداد في
البنْتاغونو - Pentágonو - ماضٍ على قدم وساق، لِارْتِكاب واحدة
من أكبر جرائم الحرب التَّاريخية على الإطلاق.

أَحْرَقَ الجيش العراقيّ، آبار النُفط في الكويت، وَجَعَ الغرب،
وحبّة فؤاده، وبُؤْبؤ عينه، وأحد أهمَّ أسباب قيام مَدَنِيَّتِهِ الحديثة
واستمرارها.

(1) حرب الخليج الثانية.. انظر الخطة الزمنية لسير أحداث الكتاب -
كرونولوجيا - / ملحق بالكتاب.

لا يعرف الجميع أن تَوَقَّفَ تَدَفَّقَ النَّفْطَ على الغرب، في تلك اللحظات، من تِلْكَ الأيام، سَيُتْرَجَمُ فورًا وبعد ساعات، بتعطُّل المصانع، والمزارع، والمطارات، والموانئ، وحرَكَةُ السَّيْرِ على الطُّرُق السريعة، وتَحَوُّلَ البلاد الغربية، إلى حالة من الفوضى العارِمة، يَتَرَاكَمُ في أرجائها صَفِيحُ السيارات العاجِزة عن السير والحرَكَة، كما سَيَنْطَفِئُ هديرُ آلاتِ تلك المصانع الجبَّارة، التي تَضُخُّ الحياة في شرايين آلاتِ الحرب والموت والدمار العالمية.

خوف الغرب على مَصَالِحِهِ مُبرر، لكن وَحْشِيَّتِهِ، وسقوطه الإنساني، لتحقيق مآربه الإِسْتِعْمارِيَّة، لا يُمكن لشيء أن يُبررهما!

بغير البترول، ستنتهي المدنية الغربية المُعاصرة إلى وضع بائس.. لا بقاء لِمَدَنِيَّة الغرب من دون هذا الذهب الأسود، الذي صُبِغَتْ بسببه منطقتنا - ومناطق أخرى تَمْتَلِكُهُ في العالم - بِلَوْنِ الدَّم.

هذه هي الحقيقة السياسية الرنانة - المُسْتَرَّة، في الرُّبْع الأخير من القرن العشرين، والتي حَمَلَتْ الغرب على العمل بجنونٍ وإجرام، للسيطرة على ما تبقى من الثروة البتروليَّة من جهة، ومن جهة أخرى لإيجاد بدائل للطاقة، يستغني بها عن الثروات الجُبلى بها أراضى «الآخرين»، والتي تُوشِكُ أن تَنفَدَ، بعد أن اِمْتَصَّتْهَا آلة الإِجْرام الغربية بِأَبْخَسِ الأثمان، و... بأبهظها!!

البحث عن حقول جديدة للبترول والغاز الطبيعي، كان محمومًا، يَسِيرُ جنبًا إلى جنب، مع صياغة جميع المكائِدِ المُمكنة، لإبقاء المنطقة حيث هي، في مُرْبَعِ تاريخها الذليل المعاصر على أبواب القرن الحادي والعشرين، شعوبٌ مغلوبة على أمرها، مَسْلُوبَةُ الإرادة، مُعَيَّبَةُ الهُويَّة، مَكْسُورَةُ الرُّكَب، غير قادرة على مُعَالَجَةِ جراحها، ولا على صِناعَةِ كُرْسِيٍّ لِلْعَجَلات، تَتِمَكَّنُ به من مُتَابَعَةِ طريقها في الحياة.

الله وحده، هو الذي يعلم الثمن، الذي سَيَرْتَب على الشعب السوري دفعه لاحقاً، لقاء دخول النظام السوري، منظومة التحالف ضدّ صدام! الله وحده، هو الذي يعرف، كم سيُكلّف المنطقة العربيّة غالياً، مُرور صواريخ التوماهوك الأمريكيّة، من الأجواء الإيرانيّة، تَسْتَعِين بتضاريس جبال زاغروس، لِشَلّ قُدْرَة العراقيين الجويّة، والتّمكّن منهم تماماً، والقضاء المُبرم على جيش صدام.

الله وحده، ثم الرّاسخون في العِلْم فقط، من يعلم الضريبة الرهيبة التي ستدفعها المنطقة، بسبب قَصْر نظر مُسْتَبدٍّ مُجرِم مثل صدام حسين، ومعه كل الذين يُصَفّقون له في الإعلام العربي الغبيّ، الذي يُوجِّعُ ويُدْعِغُ مشاعر الشعوب، بِشعارات البعث الوهميّة، التي تجعل النّاس تظنُّ حقاً أن صدام حسين، إنّما غزا الكويت لتحقيق شيء من ادّعاءات «الوحدة العربيّة»!!

بدأت الولايات المتحدة الأمريكيّة، عملية نقل قواتها إلى قواعدٍها العسكريّة، في الخليج، استِعداداً للقضاء على النظام العراقيّ بأركانِه كافّة، والانتِفاض على ذلك الجيش المليونيّ، الذي دَفَعه صدام حسين لاحتِلال الكويت، وبدأ نَقْعُ غُبار الحرب يصل أنوفنا في مدريد، يَخْتُنُّنا، يُشْعِرُنَا بالكارِثة المُقْتَرِبَة.

الشّعب الإسبانيّ كان بالغ الحساسيّة ضدّ الحروب والعُدوان على الآخرين، في سنواتِه المضيّة تلك.. كان يُعَبِّر بكلّ الوسائل الممكنة، عن رغبته في أن تَنأى بلادَه بِنَفْسِها عن «هذا» الذي يجري في الخليج «الإسلاميّ»، والذي كنا نعيشه في مدريد ساعة فساعة، وفَظاعة فَفَظاعة! أو هذا ما كُنّا نَشْعُر به ونَظُنُّه!

- «الخليج الإسلاميّ»؟ من أين أتيت بهذا الاسم؟؟

- إيران تُسميه الخليج الفارسيّ، والعرب يسمونه الخليج العربيّ، وهو بالنسبة إليكم «الخليج البتروليّ»! فأنا من عند نفسي

أُسميه «الخليج الإسلامي»، فهو خليجٌ محوطٌ بِدُولٍ إسلاميّة - من كلِّ جهاته!!

- ما هذا الاختراع الغريب؟

- وما غرابة ذلك؟

- أن تنسبي منطقة جُغرافيّة إلى دين!

- أغربَ منه، أن تشتعل الحروب، بين فرقاء يتتسبون إلى الدين نفسه بسبب تنازُعهم عليه!

- لو كانوا من الدين نفسه، لما تنازعوا عليه!

- ألم تتنازع أوربا كلَّ ستمتر من جغافيتها، في حروب ممالِكها، التي كانت تدين بالدين نفسه؟ وإذن لماذا تنسون تاريخكم، ولا تذكرون إلا فظاعات تاريخنا المعاصر؟
- الدين آخر ما يُفكر فيه زُعماءكم.

- هم ليسوا زُعماء، هم عمّلاء، وقتلة، مُستأجرون للغرب والشرق، في بلادنا.. وصحيح كلامك تمامًا، كلّهم يركبون مركب الدين، ليُهوّنوا على البشر أن يفقدوا حياتهم في الحروب، الدين يمنح الناس راحة أُخرويّة، ويُحصنهم ضدّ شعورهم بالفناء.

تمخّضت حربُ الاستنزاف الأمريكيّ على العراق، ومعها جميع أنواع الحُلفاء، وفيهم ثلاثة أرباع الدُول العربيّة، عن «عاصفة الصحراء»، والتي كان من أفضع تجلياتها، المجزرة الكاسحة، الرهيبة، التي ارتكبتها الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى - كما تُسمي نفسها - في أرتال الجيش العراقيّ العزلاء المُسحّبة من الكويت، رغم أنفها، وتحت ضغطِ الهزائم الكبيرة، التي تعرّض لها العراق وجيشه مُنذ بدء هذه الحرب⁽¹⁾.

(1) تفاصيل المجزرة التي قُتل فيها أكثر من 100.000 جندي عراقي، في

قالت لي جارتني في البناء المجاور، والتي ألتقيها يوميًا عند
الخبّاز، وهي الأستاذة في العلوم السياسيّة، والكاتبة في صحيفة
الموندو الإسبانيّة: هذه المجزرة ستُغيّر وجه العلاقات الدوليّة،
وستقلّب كلّ الموازين في منطقتكم، ولن يكون هذا لصالحكم.

زمنٌ عصيبٌ، زمن الحروب هذا الذي تداعت علينا فيه الأمم
في العراق، وأفغانستان، وفلسطين، والصومال، والبوسنة..
بدّونا أمةً مُستباحةً، وكانت آلامنا على البُعد، شديدة، وعميقة،
ومُتعدّة.

أحياناً.. تكون مُعانيّة الألم أقلّ من تخيُّله.

كانت تلك بدايةً مُعاناةٍ طويّلةٍ مريرة.. بدا وكأنها نفقٌ مُظلمٌ
طويل لا تلوح في نهايته أيّ كُوةٍ للنور.

كان زمنًا صعبًا مريرًا.. زمنًا نحيا فيه عن بُعد، آلام الجميع،
وكوارث الجميع، ومُعاناة الجميع.. دون أن يدري بنا أحد.



خمسة أسابيع، خلال حرب المائة ساعة، مجزرة أبطالها: كولن باوول -
وزير الخارجية الأمريكي -، وجورج بوش الابن - الرئيس الأمريكي -،
ارتكبتها القوات الإنكليزية والأمريكية بالجيش العراقي المنسحب
من الكويت دون أسلحة، وهي موثقة في عدة مصادر عربية وأمريكية
وإنكليزية.

موثقة كذلك في: «مدونة غار عشتار العراقية»، تحت عنوان: «الجريمة
لا تسقط بالتّقدم: أكبر مذبحه للجنود في تاريخ العالم»، نشرت بتاريخ:
6.4.2010 .

وكذلك في تقرير صادر عن منظمة «السلام الأخضر» 2010.

مَظْلُومِيَّاتٌ تَعْوِي وَضِبَاعٌ تَتَلَمَّظُ.

● بعد منتصف الليل، سَمِعَ قرعاً خفيفاً على باب بيتنا، الذي يقع في الطابق العاشر، لا شيء يُخيف، لا بدّ من أن أحد الجيران يَطْلُبُ معونةً طبيّةً، شيء طبيعي أن تُقَرَعَ أبواب الأطباء ليلاً نهاراً في أوقات غير طبيعية.

نفتح الباب، لنجد جارتنا «إنكارناثيون»⁽¹⁾ التي تسكن في الطابق التاسع، تحت بيتنا، تلجُ الدار مباشرة، دافعة زوجي نحو الداخل، وتُغلق الباب وراءها، تتحدث في همسٍ وخفية.

قالت: إذا أَرَدْتُمْ، اسْتَعِجِلُوا حمل ماتستطيعون من حاجياتكم، وحاجيات أطفالكم، دَبَرْنَا لكم سيارة إضافة إلى سيارتكم، نَحْمِلُكُمْ أنا وزوجي، إلى ضَيْعَتِنَا، على بعد ثلاث ساعات من مدريد، إذا خرجنا الآن، يمكننا أن نَصَلَ قبل طُلُوع الفجر، هيأنا لكم ملجأً هناك تحت الأرض، ولكن عليكم الإسراع، معكم ساعة فقط لننطلق!!

ذهلنا أمام هذا العرض البالغ السخاء، أَصَبْنَا بدهشةٍ عَفَدَتِ أَلْسِنَتَنَا، إلى دَرَجَةٍ أَنْ جَلَسْنَا كِلَانَا مَذْهُولَيْنِ، ونحن ننظرُ في وجه المرأة، الذي يَتَهَلَّلُ بالصدق والنبل والمواساة.

شَجَعَهَا صَمْتُنَا على المُضِيِّ في الحديث، وقد جَلَسَتْ إلى جانبي، وأحاطتني بِبِدِّها، بحنانٍ أُمٍّ، اسْتَأْنَفَتْ: لا عليكم، وَفَرْنَا لَكُمْ طعاماً، وشراباً، لِمُدَّةِ شهرٍ كاملٍ! ولكننا لا نستطيع توفير كلِّ

(1) Encarnación اسم إسباني، ومعناه بالعربية «تَجَسَّد» وهو اسمٌ ديني مشتق من الكهنوت المسيحي.

أسباب الراحة التي تُناسبكم، أنتم أسرة طيب وقد اعتدتم حياةً كريمةً، لكنّها الحرب كما تعلمون.. أرجو أن تستعجلوا جمع أغراضكم!

قال لها أبو ساجدة: «إنكارنا».. نحن عاجزون عن شكرك، ولا نجدُ كلماتٍ تُوفيك حقك علينا، ولكن ما يجري في البوسنة، لا أظنّ أن يتمدّد لتقوم الحرب في إسبانيا!

قاطعتها «إنكارنا» - اسم التّصغير لإنكارناثيون -: أنت لا تعرف شيئاً يا دكتور، أنت لا تعرف شيئاً، لا يُمكنك تصوّر الحقد على المُسلمين هنا بين النَّاس، قد لا يُبدونه لكم كثيراً، لكننا نحن الذين نرتاد الكنائس، والنّوادي، والمقاهي.. نعرف، أرجوكم.. لا تُضيّعوا الوقت، وهيا بنا.

قُلْتُ: عزيزتي «إنكارنا»، لا حاجة إلى ذلك، لا يُمكن أن تتنقّل مذابح البوسنة إلى إسبانيا، شكراً لكم، كرمُكم هذا لا يُنسى، لكنني لا أعتقد أن هذا ضروري.

أُصيب «إنكارناثيون» بالخيبة، وصارت تنقل نظراتها المَرعوبة، بيني وبين زوجي، وقالت: عندكم ثلاث بنات صغيرات، انظروا ماذا يفعل الصّرب بالبنات والبنين والنساء في البوسنة، أنا وزوجي لا نريد أن يعتدي أحدٌ عليكم، نحن أناس مُتديّنون، ونعرف أن الجميع «رعايا الربّ»، لقد عشنا حرباً مروعة، هنا في إسبانيا، كان الأخ يَغْتَصِبُ فيها زوجة أخيه، ونحن لا نريد لكم أن تكونوا ضحايا هنا، لقد بدأت الحرب في البوسنة، وستتقلّ كالنّار في الهشيم إلى جميع أنحاء أوربا، وستكونون أنتم الضحايا.. كلّ ما أستطيع قوله إننا تحت تصرّفكم، وأن كلّ شيء جاهز، لإيوائكم عندنا، في قريتنا المتواضعة.. أرجوكم فكّروا في الموضوع.

صمّنتي المرأة الكبيرة إلى صدرها وصارت تبكي، وبادتُها

البكاء والمشاعر.. وراح زوجي يُخَفِّف عنها، ووعدناها بأننا سنُفَكِّر في الموضوع، وستتخذ كل الإحتياطات المُمكنة، وإذا ظهر أي شيء يُشير إلى انتقال عدوى البوسنة إلى إسبانيا، فإنه لن يكون أمامنا من خيار، إلا جيران الطابق التاسع.. الأهل الكرام.

ذهبت «إنكارنا».. وبقينا في مجلسنا ساعة، واجمِين، صامتين...

كان الشعور بِفداحة ما نزل بإخواننا في البوسنة، يُوازي، مشاعر الخوف على أنفسنا، لكنه يفوق قُدْرَتنا على تصوُّر المجهول القادم! نعرف أنه قادم، ولا نملك أي وسيلة لدفع أذاه عنا، كانت الحال أشبه بنوع من أنواع الشلل في الإحساس والقُدرة على التصرف واتخاذ القرارات اللازمة، في مواجهة هذه النَّازلة.

هي الحربُ إذاً من جديد.. القنوات التلفزيونية الأربع الرئيسية في إسبانيا، تتحدث عن الحرب في البلقان ليلاً نهاراً، تعرضُ صور النكبة البوسنية، تُحلل هذا الحقد الذي دفع الجار إلى ذبح جاره، والصديق إلى اغتصاب زوجة وأبناء وبنات صديقه!

تحدث عن تلك القهوة، كان يشربها الجيران معاً، كل صباح، واستبدل بها القوم الدماء! ملؤوا بها فناجين قهوتهم، وكاسات خمرهم، وضحون حسائهم، وقنوات تلك السَّواقى الجميلة الدافئة، من العلاقات الإنسانية التي كانت تجمَعهم.

إنها الحرب، وإنها سيدهُ إسبانية يهودية، في الثمانين من عمرها، على كُرسي عجلات، وعلى أنفها جهاز التزويد بالأكسجين.. تقفُ أمام كل الكاميرات الإسبانية، وبكل شجاعة، ترفع صوتها لتقول للناس: «لا نريد «هولوكاوستو» جديد في أوربا ضدَّ المسلمين، كفانا ما حدث قبل خمسين عاماً ضد اليهود، أنا إحدى ضحايا تلك المحرقة، ولا أريد أن تتكرر»!

الأسواق مُقْفِرة، من النَّاس، ومن البضائع، رُفوف مَحلات
بيع الأغذية عارية، إِخْتَفَى من السُّوق، الأرز، والعدس، والبَصَل.

المُظَاهَرات تَجْتَأِحُ إسبانيا، إِحتِجَاجَاتُ القَرع على
الطَّنَاجِر⁽¹⁾ ليلاً، تَصُمُّ الأَذان، النَّاس لا يُريدون مَجازِر، النَّاس لا
يريدون الحرب.

كان الإسبان في هاتيك الأيام، يَظهرون في القنوات
الإخباريّة، في غاية التّأثر، والتّعاطف الوُجْداني، مُعَرِّبين عن
تَضَامُنِهِمْ مع كُلِّ مُسلم، يريدون المُساعدة، يريدون عَمَل أيّ شيء
يُوقِف زَحَفَ المَجزرة! كانَ رَدُّ فِعْلِهِمُ الإنسانيّ مُذهِلاً.

المسؤولون السياسيون، وصُناع الرأْي، وكبارَ أَساتِذَةِ
الجامِعات المَعروفين، من الأَطِباء النّفسانيين، والعَقليين،
والمُخْتَصِّصين، في الصّحة الإِجتماعيّة العامّة، يَعْقِدون النّدوات
الحواريّة المُتلفِزة ليلاً ونهاراً.. لِطَمَآنَةِ الشَّعب الإسبانيّ، وتَهْدِئَةِ
رُوعِهِ، وتَسْكِين مَخَافِهِ، بأن حَرَبَ البوسنة، لَنْ تَتَقَلَّ إلى إسبانيا،
وبأن تصرفات النَّاس، فيما يَتَعَلَّقُ بتخزين الأَطِعمَةِ، غير مُبررة،
وأن الغِذاء، والدّواء، والحليب مُتَوَفِّر، ولا حاجة إلى أن يقوم
النَّاس بما يقومون به، وأن المسلمين في إسبانيا في أمان، والشرطة
سَاهِرة على الأمن، والجيش الإسباني على أهبة الإِستعداد.

الذاكرة الإسبانية الجماعيّة، لا تزال تحتفظ بِمَخزُونٍ كبير،
مُرْعِب، عن تلك الحرب الأهليّة الفظيعة، التي شَهِدَتِها البلاد ما

(1) القرع على الأواني المعدنية، وإحداث الضجيج، واحدة من أهم وسائل
الاحتجاجات المدنية السلمية، عرفت أول الأمر في الجزائر، كوسيلة
فعالة لإزعاج المستعمرين الفرنسيين، ثم انتقلت من الجزائر إلى دول
أمريكا اللاتينية، ومنها عادت إلى أوروبا أثناء حرب البلقان، ومنها إلى
سوريا أيام الحرب الدموية التي شنها النظام السوري على الشعب إبان
اندلاع ثورة 2011.

بين 1936 و1939، ما بين اليمين واليسار الإسبانيين، والتي كانت إحدى تجليات نزاعات المُعسَّكرين الإستعماريين، الشرقي والغربي في الساحة الإسبانية، حرباً أهلية مريعة قتل فيها الأخ أخاه، واغتُصبت فيها الراهبات في الأديرة، من قبل الشيوعيين، ثم ذُبِح الشيوعيون بأيدي اليمينيين، وسُملت أعينهم، ودُفِنوا - في قبور جماعية، ما زال البحث جارياً عنها وعن رُفات الضحايا منذ أربعين عاماً..

هكذا يروي الإسبان ما حدث في بلادهم في ذلك التاريخ، الذي بقي ماثلاً في الذاكرة والضمائر إلى اليوم، لم يرحل على الرغم من مرور ستة عقود⁽¹⁾! ...



أيام مجازر البوسنة، عاش المسلمون في أوربا حالة من الضغط النفسي الفظيع، خصوصاً أولئك الذين لا بلاد لهم ولا أوطان يعودون إليها، كـفلسطيني الـ48، وسوري الـ80⁽²⁾! خائفين، مضطربين، نشعر آثار سكاكين الحقد الصربي في أعناقنا، نُعاني هول حروب بلادنا، وجهاً لوجه مع عدو نجعله، لم نسمع به من قبل، عدو متوحش متغول، يذبح، يغتصب، يدمر، يكذب، يستكبر، لا يبالى بعذابات البشر، لا يفقه شيئاً من قوانين الحروب

(1) الحرب الأهلية الإسبانية 1936-1939 / موقع تاريخ القرن العشرين الإلكتروني /

LA GUERRA CIVIL ESPAÑOLA 1936-1939

لمراجعة موضوع الحرب الأهلية الإسبانية:

?Stanley G. Payne. /Por qué la República? perdió la guerra

Breve historia de la Guerra Civil /Helen Graham .

Ramón Tamames. / Breve historia de la Guerra Civil española –

(2) حقوق اختراع هذا الوصف محفوظة للسيد «مأمون شيخ عثمان».

الأخلاقيّة، ويَظُنُّ فعلاً، أنّ بإمكانه بهذا القَدْر من السُّقوط
والتَّوَحُّش، أن يُحقّق إنتصاراً!

أيّ عدوّ هو هذا؟ أيّ عدوّ؟!

أيّ حِقْدٍ؟ وأيّ بَغْضاء؟ اِشْتَمَلَتْ عليها قلوبُ هؤلاء
الوُحوش من الصُّرب، الذين كانت تَدْعُمُهُمْ، وتَقِفُ مَعَهُمْ،
وتُشجِّعُهُمْ القوّة السوفييتيّة المُتَهاوِية، المُنْهارة، المُتَفَكِّكة.

كَشَفَتْ تلك الحرب، أمام أعين الجميع، كارثة البُوسنة
والهَرَسِك المُتكرّرة على مرّ القُرُون، وبدا أن الحكومات الغربيّة،
لا تُريد أن تُحرِّك ساكناً، لولا ضغطُ الشُّعوب الهائل عليها، وتبيّن
أنّ الحرب العالميّة الأولى ضدّ الإمبراطوريّة العثمانيّة، والحرب
العالميّة الثانيّة بين الإمبراطوريات النّاشئة المنتصرة، لتَقاسُم
تَرَكِّيْها.. لم تنتهيا بَعْدُ، وأنّ الأحقاد والمظلوميّات التاريخيّة
المُدّعاة.. صمّدت في وَجْهِ الزَّمَن، وأنّ المدنيّات.. لم تستطع
أنْسَنَ البَشَر بما يكفي، كي لا يُكرِّروا عَثَرَاتِ التّاريخ الفظيعة.

كان الإنفِصام المؤلِم، بين مَخاوِفنا وبين ما نَعْتَرِفُ أو نُصَرِّحُ
به.. مفزَعاً جِداً وسط كل هذه الأحداث التي كانت تعصفُ
بالجميع.

بينما نتحدّث مُنى السورويّة وأنا عن الحرب، وعن تصرفات
الإِسْبان فيها، ساقنا الحديث إلى أوضاعنا ومخاوِفنا، ففاجأتني
بالقول:

- أنا لستُ خائفة، ما فَشَرُوا⁽¹⁾.. نحن لا نخاف أحداً.

(1) في معجم اللغة العربيّة المعاصر: فَشَرَ الشَّخْصُ كَذِباً وادَّعى باطلاً: -
كان يَفْشُر وهو يروي مغامراته، - كلامه مليء بالفُشْرِ.

- يا أختي ليس الموضوع، موضوع خوف فحسب، إنها مجتمعات مُحْتَقَنَة بِكِرَاهِيَتِنَا، لا ندري ماذا يمكن أن يقع غداً.

- كلامٌ فارغ، لا أدري من أين تأتين أنتِ بهذه القِصَص، إذا أردتِ أن تكتبِي قِصَصًا، فإكتبِي قِصَصَك بعيداً عنا، ولا تخترعي أشياء غير موجودة!

- أَخْتَرَعُ؟؟ ألم تُحدِّثيني أنتِ نَفْسَك البارحة، أَنَّكَ طَبَخْتَ الحَسَاء، وَسَكَبْتِيهِ فِي المِصْفَاة، لِشِدَّةِ انْشِغَالِكَ بالأهوال التي تجري في البوسنة؟؟

- أووووف .. لا.. لا... هذه حادثة لا تَسْتَحِقُ الوُقُوف عِنْدَهَا! كنتُ في لحظة ضَعْفٍ، وانتهى الموضوع - العَمَى - كُلَّمَا حَدَّثْنَاكَ بِشَيْءٍ جَعَلْتَهُ حِكَايَةً!!

- سبحان الله.. أَيْةٌ حِكَايَةٍ؟ وَأَيْةٌ كِتَابَةٍ؟؟ إِنَّنَا نَتَحَدَّثُ فِي الشَّارِع، ولا شيء غير هذا!!

ألم تقولي، إنكم لا تنامون طِوال الليل، وأنتم تتابعون الأخبار، وأن الأولاد عِنْدَك يَكُونُون ويَتَعَرَّضُونَ للكوابيس اللَّيْلِيَّة.. أنا لا أفهم هذا الإنكار الآن وهذا السلوك!

- يا أختي نحن بخير، ونحن قوم لا نخاف، وليست لدينا أَيْة مُشْكِلَة!

في السُّوق أَلْتَقِي جَارَتِي ورفيقتي «نبيلة»، يَسْأَلُنَا اللَّحَام، كيف أنتم؟ أرجو أن تكونوا وأهْلُكُمْ بخير؟ نخبره أننا من سوريا، وأن سوريا بعيدة عن البوسنة، فيقترب منا من فوق منصة عرض

تستخدم في لغة أهل بلاد الشام، بمعنى التحدي: «لن يستطيعوا فعل شيء».

اللحم، ويَهْمِس وهو يَتَلَعُّ يَمَنَةً وَيُسِرَّة: اِنْتَبِهوا كثيرًا، اِنْتَبِهوا
جيدًا، أنتم لا تَعْرِفون كم يَكْرَهُكُمْ بعض الناس هُنا.
نَشْتري اللحم، ونَمْضِي ونحن نَشْكُر الرَّجل على تَنْبِيهِه،
تقول نبيلة:

- قسمًا بالله سأصابُ بالجنون.

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. الله يَسْتُرُ وَيَتَلَطَّفُ بنا، والله ما
أدري ما أقول.

- أصحابنا المغاربة، يُغَادِرُونَ إلى بلادِهِم، ونحن إلى أين
سنذهب؟

- نحن والفلسطينيون.. أوضاعنا مُبْكِية، لا وَطَنَ لنا يؤوينا!
حسبنا الله ونعم الوكيل فيما نزل بنا.

تمسح نبيلة دُمعة عزيزة.. وتقول: والله إنني أطبخ، وأَعْمَلُ،
وَأَتَجَوَّلُ في بيتي كالأشباح، كُلَّ ساعة، أَظن أن جيرانِي،
سَيَقْتَحِمُونَ عليَّ البيت لِأَغْتِصَابِي وابني.

- الحال من بعضه... نحن بشر، أنا لا أنام طوال الليل، أدورُ
في البيت أقرأ آية الكرسي.. أحرُسُ أولادي، الله يتلطف بنا.

- هل تعرفين ماذا فعلتُ البارحة؟ بقيَ زوجي يبحث عن
حِذَائِهِ ساعة، فلقد نَظَّفْتُ كُلَّ الأحذية مساءً قبل أن أذهب إلى
فراشي كما أفعل يوميًا، ولا أدري أين وَضَعْتُها! ولما فَتَحْتُ
البراد صباحًا لَأُخْذَ زُجَاجَةَ الحليب، وأنا أُحْضِرُ الفُطُورَ للأولاد،
وَجَدْتُ الأحذية كُلَّها في البراد!

ثم تُضيف: لقد جُنِنَّا يا أمَّ سَاجِدَةٍ، لقد أَصَابَنَا الخَبَلُ، ربي
يُثَبِّتُ علينا العقل والدِّينَ وَيَصْرِفُ عنا البلاء! ماذا فعلنا نحن حتى

ينزل بنا كل هذا البلاء؟ أنا لم أفعل شيئاً أستحق عليه كل هذه
المعاناة الفظيعة!!

نبيلة صاحبتى السورية - الفلسطينية هذه، طبيبة الأطفال،
والتي لم تُمارس المهنة في إسبانيا، «تتمتع» بقدرٍ من التكبر
والعناد، طالما جعلها لا ترى حجم الأذى الذي تلحقه بمن
حولها، نبيلة، التي تنتقد كل صغيرة وكبيرة فيمن حولها، وتعيب
عليهم ما يفعلونه، نصبت نفسها «حكماً» على أفعال الناس
ونياتهم، بشكلٍ معيبٍ قبيحٍ ومؤذٍ.. هي نفسها، التي تتساءل عما
فعلته لينزل بها مثل هذا الخوف والتوجس!

كُنّا نحمد الله أن أم مالك «المشكلجية» قد سافرت وتركت
إسبانيا، وإلا لشكلنا كليهما نقابة طبيبات مُؤذيات، وثنائياً ثقيلًا
جداً في سير حياة جاليتنا «المُبجلة»!

راحت نبيلة تنتقد كل صغيرة وكبيرة في ذلك الحفل الذي
أعدّناه للأطفال حسناء وأنا، بمناسبة عيد الفطر، وبطريقة قاسية
جداً، وتعيب على حسناء أن سمحت لابنها بالظهور في تلفزيون
مدرّيد، «يتكلّم وكأنه هو وأمه فقط من قاما بذلك النشاط، وكأنه
ليس بعملٍ جماعي» - كما قالت -!

دافعت حسناء عن نفسها وعن ابنها، وقالت لنبيلة، أنّ
الكاميرا التي جاءت تُصوّر الحفل، كانت تُصوّر كل الأطفال،
وأنها لم تكن تعرف أنهم اقتطعوا كلام ابنها، وبثّوه وحده، وأنه
ليس مُهمّاً من ظهر في التلفزيون، لكن المُهم أن المدرّيين
أخذوا فكرة عما نصّنع في حفلاتنا.

لم تقتنع نبيلة، واستمرت أياماً في مُهاذلة وتأنيب صاحبها
في حقّ وحسدٍ صاخبين، مما تسبّب لها، بما يُسمى «حادثاً
دماغياً»، بقيت - على إثره سبعة عشر يوماً في المشفى!

قلتُ لنبيلة في مُداراة شديدة - إذ لا يستقيم الحديث معها
بغير ذلك -: لا حول ولا قوة إلا بالله يا نبيلة، نحن نحسبُ أننا لم
نفعل شيئاً، لأننا لا نُحاسبُ أنفسنا.. نحن لا نُحبُّ بعضنا، ونكره
الخير لغيرنا، ونُحقد على الناجح منا، ونؤذي بعضنا بسوء الظنِّ،
وشهوة كسرِ خاطر، ونمضي في حياتنا وكأننا لم نفعل شيئاً..

قالت نبيلة، وكأنَّ عقرباً لدغتها: تحدّثني عن نفسك حبيبتي،
ولا تُجملي كل الناس في حديثك!
لم أجبها بأي شيء، فسكتت..

وددتُ لو أنها عرفت، واعترفت بما تصنع، وكيف تؤذي -
صديقاتها، من حيث تدري أو لا تدري، وخصوصاً حسناء، التي
أدخلتها المشفى، وهي لا تدري!

لم تقل شيئاً، ودعّنتني دون أن تنظر في وجهي وأنصرفت.

حسناء شابة موهبة الأحماسيس، دمثة الأخلاق، فنانة، مُبدعة
في كلّ شؤونها، كان يحلو للأخريات التّحرش بها، وتغييرها بأنها
تُبالغ في ردود أفعالها ومشاعرها، حدّ أن يحملوها أحياناً على
البكاء.

كان التّمييز في هذه الجالية كارثة على صاحبه!

أمراض القلوب، كالغيرة والآثرة والأنانية والتّكبر والحسد،
تستتر بعباءة صفيقة، لتنفجر دُملاً مُتقيحاً في أول فرصة سانحة،
دون أي شعور بالذنب!

وماذا يعني أن يخرج ابن حدّو، أو ابن طنوسيان، في مقابلة
تلفزيونية؟ المهم أن نؤدي رسالة، ليس أن «نتبروز» أو يكسر
بعضنا برواز وبللور بعض، ويعلو بعضنا على بعض، ويسحب
بعضنا البساط من تحت أقدام بعض.

هل حقاً كنّا لا نعرِف حَجْم الجرائم الأخلاقية الصّغيرة والكبيرة، التي كنّا نركبُها بحقّ بعضنا بعضاً، إلى درجة الإنكار المُطبّق، الذي يجعلُنا أصحابَ مَظْلومِيّاتٍ — فردية — تعوي في وُجودنا، كمَظْلوميّة الصّرب — الجماعيّة — التي أودت بهم إلى ذبح جيرانهم، واغتصابهم، والخوض في الدماء التي أغرقت الجميع؟!!!

ثمّ نتَجَرأ على الله، لنسأله مُستَكرِّين مُتَمَرِّدين، كلّما نزلت بنا مصيبة: ماذا فعلنا؟!!!

تحت سَمْع، ونَظَر، ومُراقَبة قوات الأمن الهولندية، وفي بثٍّ حيٍّ مباشرٍ.. تنقل إحدى القنوات الإخبارية الإسبانية، في ذلك اليوم من يونيو/ حزيران⁽¹⁾، ذلك المَوقِف الرّهيب، للجنرال «راتكو ميلاديتش»، وهو يُشرف على فصلِ النساء والأطفال، عن الرّجال والفَتيان على أبواب «سيربرينيتشا»، ويربّت على أكتاف

(1) مجزرة سيربرينيتشا: أو الإبادة الجماعية في سربرنيتسا / بالبوسنوية: Genocid u Srebrenici شهدت البوسنة والهرسك من 11 إلى 22 يوليو 1995 خلال الحرب التي دارت في البوسنة والهرسك، وتُعد أسوأ - مذبحة شهدتها أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية. حدثت المذبحة في مدينة سربرنيتسا وقُتل خلالها 8,372 من المسلمين البوشناق مُعظمهم من الرجال والشيوخ والأطفال الذين تتراوح أعمارهم ما بين 12 و 77 سنة. نفذت المذبحة وحدات من جيش جمهورية صرب البوسنة كانت تحت قيادة راتكو ملاديتش، بمشاركة وحدة العقارب شبه العسكرية الصربية. وجاء في اللي بي سي: [قبل المذبحة، أخبر قائد الوحدات الصربية راتكو ملاديتش المدنيين المدعورين بالآخافوا، ثم شرعت قواته في مذبحة لم تتوقف لعشرة أيام.

وهناك على مقربة من المشهد، كانت تقف قواتٌ لحفظ السلام خفيفة التسليح تابعة للأمم المتحدة، ولم تحرك ساكناً].
المصدر: 25 عاماً على مذبحة سربرينيتشا / BBC / 11.6.2020.

الأولاد مُتَبَسِّمًا، يُعْطِيهِمْ قِطْعَ السكاكر والشوكولا، وهو يُرْسِلُهُمْ بعيدًا عن أمهاتهم.

بعد ساعات فقط من تلك المشاهد، عَمَّتْ إسبانيا الأخبار، بأن الجنرال الصربي، قتل الثمانية آلاف ذَكَر، من البوسنيين المسلمين، الذين كان يُشرف شخصيًا، على تفريقهم عن أسرهم في «سيربرينيتشا»، في واحدة من أكبر مجازر التطهير العرقي، التي عرفت هذه البشرية المنكوبة حتى اليوم.

خرجت المظاهرات في إسبانيا، على الفور، وسهر الناس بالشموع، في الساحات الرئيسية في مدريد، يُصَلُّون، وَيَبْتَهِلون، وَيَبْكُون، ويدعون الأمم المتحدة وأوروبا للتدخل، لوقف ما يجري في البوسنة.

بالأمس أبادت الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى - كما تُسمى نفسها - مِئَتِي ألف جندي عراقي، وهم يَنْسَجِبُونَ من الكويت عزلاً، قبل عام سَحَقَتْ «روسيا يلتسين»، الشعب الشيشاني، ودَمَّرت عاصمته غروزني على رؤوس أهلها، لكن غروزني لم تكن قريبة، من حدود أوروبا كالبوسنة! واليوم، يقوم الصرب بقتل رجال البوسنة والهرسك، واغتصاب نساها وأطفالها.. والأعداد بمئات الألوف.

نحن نُقْتَلُ.. إِنَّهُمْ يَقْتُلُونَنَا.. والضباع تُحيط بنا من كل حَدَبٍ وَصَوْب، تَتَكَلَّمُ لِلْعَقِي دِمَائِنَا، وازدراء أشلائنا المُتَفَرِّقة بين قبائل مَصَّاصي الدماء المعاصرين.

لطالما نعيثُ باللائمة، على مَجَلَّة «المُجْتَمَع» الإسلامية الكويتية التي كنتُ أكتبُ فيها، لسياستها الإعلامية، في استثارة المظلوميات، والقول بأن العالم كله يكرهنا، يحاربنا، ويتحرك ضدنا، حتى أنني تركت الكتابة فيها لفترة، كانت مُطالعتها تُمرُّ ضمني، تُصَيِّبني بالقهر والإحباط والحُنى!

هل كانت مَجَلَّة «المُجْتَمَع» على حق؟ أم أننا كُنَّا صُمًّا بكمًا
عُمِّيًّا؟ لا نَسْتَوْعِبُ حِجَمَ كَرَاهِيَةِ المُسْتَعْمِرِينَ لَنَا، وَتَدَاوِيهِمْ عَلَيْنَا
كَعَقَارِبَ قَاتِلَةٍ؟!

هل كانت مظلوميّاتنا حَقِيقِيَّةٌ؟ أم أَنَّ الشُّعُورَ بِالْمَظْلُومِيَّةِ
مَرَضٌ وَهَوَانٌ وَإِهَانَةٌ وَتُرْبَةٌ خِصْبَةٌ لِتَنْمِيَةِ الْأَحْقَادِ الْإِجْرَامِيَّةِ؟؟!



كَانَ الشَّعْبُ الْإِسْبَانِي فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِحَرْبِ الْبُوسْنَةِ، وَبِسُلُوكِهِ
الْإِنْسَانِي التَّضَامِنِيِّ الرَّفِيعِ، مِنْ أُنْبَلٍ وَأَكْرَمِ الشُّعُوبِ، حَتَّى أَنْ
مَجْمُوعَةٌ مِنْ سَائِقِي سِيَارَاتِ الْأَجْرَةِ، فِي مَدِينَةِ بَرِشْلُونَةِ عَاصِمَةِ
مِقَاتِطَةِ كَاتَالُونِيَا، اتَّفَقُوا عَلَى جَعْلِ عَشْرِ رِيْعٍ مَدْخُولِهِمُ الشَّهْرِيِّ،
لِصَالِحِ ضَحَايَا حَرْبِ الْبُوسْنَةِ، وَمَعَهَا، وَمِنْ بَعْدِهَا كُوسُوفُو، مُنْذُ
انْفَجَرَتِ الْأَحْدَاثُ فِيهَا وَتَنَاقَلَتِ الْأَخْبَارُ مَآسِيَهَا.

بَدَأَتِ الْهَجَرَاتُ تَتَدَقَّقُ مِنَ الْبُوسْنَةِ عَلَى إِسْبَانِيَا، كَمَا عَلَى
عَامَةِ دُولِ أَوْرُبَا، وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَالِكَ رَفْضٌ وَلَا عُصْرِيَّةٌ وَلَا
كَرَاهِيَّةٌ، فَالشُّعُوبُ الْأُورُوبِيَّةُ كَانَتْ مُهَيَّئَةً إِعْلَامِيًّا، لِاسْتِقْبَالِ هَذِهِ
الْهَجَرَاتِ، وَكَانَ الْقَادِمُونَ.. أُوْرُوبِيِّينَ! صَحِيحٌ أَنَّهُمْ مُسْلِمُونَ،
لَكِنْهُمْ كَانُوا أُوْرُوبِيِّينَ!

شَبَابٌ وَشَابَاتٌ بُوسْنِيُونَ، مِنَ الْعِرْقِ الْأَبْيَضِ الْآرِيِّ، الَّذِي
يَشْعُرُ تَجَاهَهُ أَمْثَالُنَا وَأَمْثَالُ الشَّعْبِ الْإِسْبَانِيِّ، بِشَيْءٍ مِنَ النَّقْصِ
الْفِيزِيَائِيِّ، بَيَضٌ، شُقْرٌ، مُلَوْنُو الْأَعْيُنِ، طُوالِ الْقَامَاتِ، يَتَمَتَّعُونَ
بِمَقَايِيسِ الْجَمَالِ «الْإِعْلَامِيِّ» بِإِمْتِيَازٍ..

كَانَ الشَّعْبُ الْإِسْبَانِيُّ يَشْعُرُ بِالْإِنْبَهَارِ أَمَامَ هَذِهِ الْمَجْمُوعَةِ مِنَ
الْمُسْلِمِينَ، الَّذِينَ لَا يُشَبَّهُونَ الْبَتَّةَ أُولَئِكَ الْآتِينَ مِنَ الْجَنُوبِ!

حَتَّى دَاخِلَ عَالَمِ الْهَجْرَةِ الْمُتَوَحَّشِ، هُنَاكَ عُصْرِيَّةٌ مُتَوَحَّشَةٌ!
مُعْظَمُ الْقَادِمِينَ مِنَ الْبُوسْنَةِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَنِيُونَ، مُهَنْدَسُونَ،

مُمرضون، أطباء، تَقْنِيّون، أَساتِذَةُ جامِعات، مُوسِيقِيّون، شُعراء، كُتّاب، وأُخصائِيّون في علوم النفس أو المُجْتَمَع.. وقد حُوِّلَ مُعْظَمُهُم إلى القُرَى الإسبانيّة النَّائية، وكانت تعاني في تلك الأيام، من أزمة سكانيّة خطيرة، في تعداد سكانها، بسبب النقص الحادّ في الولادات إثر السياسات الاجتماعيّة الناجحة للإسْترَكيّين، الذين رَاهَنَ زعيمهم «فيليبه غونثالث»، على خَفْضِ عدد السُّكان مقابل رفع مستوى المعيشة، وإعادة تربية المُجْتَمَع والإنسان، سياسة آتت أَكْلُهَا، في ذلك العَقد من الزمان، لتبدأ معها خطط المعارضة المحافِظَة، بالتشجيع على زيادة النّسل، بعد أن أصبحت إسبانيا، في مَصَافِّ الدُّول الأفضل في العالم من حيث مُستوى رفاهيّة الفرد في تلك الأيام.

كان رئيس ومؤسس حزب الشَّعب المحافظ «مانويل فراغا»⁽¹⁾، يَجْهَشُ بالبكاء، وهو يَخْطُبُ في قواعد حزبه، قائلاً: يا نساء إسبانيا، إن إسبانيا بحاجتِكُنَّ.. إذا استمرَّ مُعدل الولادات على ما هو عليه، فإننا سنُصبح أقليّة في بلادنا! كان ذلك، حين كانت نسبة المهاجرين في إسبانيا لا تتجاوز 0.5٪ فقط!



لأوّل مَرَّة منذ ثلاثين عاماً، تأتي أعياد الميلاد مع رمضان، كانت تلك مناسبة فريدة في حياتنا في إسبانيا.

(1) Manuel Fraga، قانوني، أكاديمي، كاتب، ابن مهاجر إسباني في كوبا، سياسي إسباني مخضرم، كان سفير إسبانيا في إنكلترا، ثم شغل منصب وزير المعلومات والسياحة أيام الجنرال فرانكو، يُعدّ من آباء الدستور الإسباني، حيث شارك في كتابته أوائل العهد الديمقراطي 1978، مؤسس حزب الشعب المحافظ، رئيس حكومة مقاطعة غاليسيا لفترة امتدت 15 عاماً، كان من أبرز النواب في مجلس الشعب الإسباني. توفي عام 2012.

الجميع في فرح، وأنشغالٍ بِهَارِجِ الأعياد، وشُعورٍ رائعٍ
بِدَفءِ المُشاركة الإنسانية، يَمَلَأُ الجوانح، الجميع مُحْتَفُونَ
بأعيادِهِم، وأفراحِهِم، لا يَشْعُرُ الغريب بالغربة، في رَمَنِ عيدٍ،
يَتَشَارَكُ فيه الجميع أمانَ سلامٍ إجتماعي جميل.

كُنّا في جُمْلَةِ المتواصلين مع المُهاجرين البُوسنيين، وكما
فَعَلَ بعض الإسبان، بدعوة بعض الأُسَرِ البوسنية، على موائد
النايِداد، وخصوصًا في اللَّيْلَةِ العظيمة، دَعَوْنَا أُسْرَتَيْنِ بوسنيتين
على مائدة إفطارنا الرّمضانية.. تعرّفنا عليهما في السّوق، عندما
اقتربت مِنّا سيدة بوسنية، وسألَتني إِنْ كُنْتُ أُسْتَطِيعُ أَنْ أَتَرَكَ لَهَا
عُنْوَانِ مَسْجِدٍ هُنَا فِي مَدْرِيد.

كانوا، طيبة، ومُهندَسًا، وَنَجَّارًا، ومُحامية، وأربعة أطفال..
كلّهم جاؤوا من «سراخيو - سراقب» العاصِمة.. ثلاثة منهم
بوسنيون مُسْلِمُونَ، والرابع بوسني كُرْواتِيّ، لا أريدُ أَنْ أُسأَلَهم
عن أي شيء، فَالْحُزْنَ الْمُنْضِيطَ الصَّامِتَ يَفْرِضُ سَطْوَتَهُ الْبَاهِرَةَ،
وَيَفْرِضُ مَعَهَا إِحْتِرَامًا لَازِمًا..

وجوهٌ شاحِبة، اِرْتَسَمَتْ فِيهَا كُلُّ الْحكاية الرَّهيبَةِ، جَمالٌ
ساطعٍ آسِر، السَّجَائِرُ فِي أَيْدِيهِمْ لَا تُفَارِقُهُمْ، حَتَّى لَتَكَادَ تَكُونَ مَعَ
الْأَلَمِ، سِمَةً مُلاصِقَةً لِلْبُوسْنِيِّ أَيْنَمَا رَأَيْتَهُ.

إِصْطَحَبْنَاهُمْ إِلَى الْمَسْجِدِ، أَدَّتْ إِحْدَاهُنِ الصَّلَاةَ وَجَلَسَتْ
لِلدَّعَاءِ، وَطَلَبَ الْآخَرُونَ مُصَحَّفًا مُتَرَجِمًا، وَلَمْ يَكُنْ يَوْمُهَا مِنْ
مَصَاحِفِ مُتَرَجِمَةٍ إِلَى اللُّغَةِ الْإِسبَانِيَّةِ بَعْدُ - فِي مَدْرِيد، وَسَأَلُوا عَنْ
لَحْمٍ حَلَالٍ يَشْتَرُونَهُ.

صَوْتُ الْأَلَمِ السَّاكِتِ، يَنْبَعُثُ مِنْ أُرُوحِهِمْ، يَلْفُكُ، وَيَخْنُقُكُ
دُونَ كَلَامٍ، أَلَمٌ عَمِيقٌ أُنِيقُ.. أَلَمٌ لَا يُعَبِّرُ عَنْ نَفْسِهِ، بِغَيْرِ التَّعَالِي
عَلَيْهِ، وَالسَّكِينَةِ، لَكِنَّهُ لَا يُبَارِحُ.. إِنَّهُ هُنَا، يُصَاحِبُهُمْ كَهَالَةٍ مِنْ نُورٍ،
تُحِيطُ بِهِمْ، تَجْلِسُ مَعَهُمْ، تَضَعُ رِجْلًا فَوْقَ أُخْرَى، تُدَخِّنُ لِفَافَةٍ تَبِغُ

مثلهم، تَشْرَبُ «الْجِعة» التي يَحْتَسُونَهَا، وَتَشْعُرُ بِالْإِنْكَسَارِ، لَأَن
إِحْتِسَاءَ الْخَمْرِ يَكْسِرُ هَالَاتِ الثُّورِ، تَنْظُرُ مِنْ دُونِ أَنْ تَرَى، تُعَايِنُ
مُلَابَسَاتِ غُرْبَتِهَا الْجَدِيدَةَ هَذِهِ، بِكَثِيرٍ مِنَ التَّوَجُّسِ، وَالْإِزْتِيَابِ،
وَالْقَهْرِ، تَرْفَعُ رَأْسَهَا شَامِخَةً كَمَا يَفْعَلُونَ، تُشِيحُ بِبَصَرِهَا عَنِ
الْمُتَطَفِّلِينَ.. تَجُولُ بِنَظَرَاتِهَا تَسْتَجِدِي السَّمَاءَ نَوْرًا، يَمُدُّهَا بِالنُّورِ،
كَلَّمَا أَوْشَكَ نَوْرُهَا أَنْ يَخْبُو.

لَمْ يَكُنْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ، يُشَبِّهُونَ فِي شَيْءٍ مَا نَعْرِفُهُ عَنِ
الْمُهَاجِرِينَ الْجُدُدِ، الْقَادِمِينَ مِنَ الْجَنُوبِ، هَؤُلَاءِ قَوْمٌ، لَمْ يُهَاجِرُوا
طَلَبًا لِلرِّزْقِ، أَوْ لِلدِّرَاسَةِ، أَوْ لِمَعِيشَةٍ أَفْضَلَ، لَكِنْ هَجَرْتَهُمْ تُشَبِّه
هِجْرَةَ السُّورِيِّينَ، الْفَارِّينَ بِدِينِهِمْ وَبِأَعْرَاضِهِمْ مِنْ أُنْيَابِ «الْأَسَدِ
الْوَحْشِ»، الَّذِي دَمَّرَ مَدِينَةَ «حَمَاة» السُّورِيَّةَ، وَقَتَلَ ثَلَاثِينَ أَلْفًا مِنْ
أَهْلِهَا، كَمَا تُشَبِّه هِجْرَةَ الْفِلَسْطِينِيِّينَ، الَّذِينَ يُعَانُونَ فِي أَرْضِهِمْ
الْمُقَدَّسَةِ حَرْبَ إِسْتِئْصَالٍ، وَقِتْلًا مُنْظَمًا دَوَّابًا بِطِيًّا.

قَضِيَّةُ الْفِلَسْطِينِيِّينَ، أَصْبَحَتْ قَضِيَّةَ «فُولْكلُورِيَّة» ثَقَافِيَّةٍ
فِكْرِيَّةٍ!! تَتَعَلَّقُ بِالتَّيَّارَاتِ الْيَسَّارِيَّةِ عِنْدَ الْإِسْبَانِ، بِإِعْتِبَارِ الصِّهْيُونِيَّةِ
حَرَكَةِ إِمْبِرْيَالِيَّةٍ تَابِعَةٍ لِلْوَلَايَاتِ الْمُتَحِدَةِ الْأَمْرِيكِيَّةِ⁽¹⁾!! يَهْبُؤُونَ
لِنُصْرَتِهَا كَلَّمَا انْفَجَرَ الْجُرْحُ بِالدَّمِّ، بَيْنَ الْحَيْنِ وَالْحَيْنِ، أَمَّا الْقَضِيَّةُ
السُّورِيَّةُ.. فَلَقَدْ كَانَتْ قَضِيَّةَ «شَبْحِيَّة»، لَمْ يَسْمَعْ بِهَا، وَلَا يَعْرِفُهَا،
وَلَا يَعْتَرِفُ بِهَا.. وَلَا حَتَّى كَثِيرٌ مِنَ السُّورِيِّينَ أَنْفُسُهُمْ! وَلَا يَكَادُ

(1) إِنْهُمْ - مِثْلُنَا. لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ الْإِتِّحَادَ السُّوفِيَّتِي أَوَّلَ دَوْلَةٍ اعْتَرَفَتْ بِإِسْرَائِيلَ
اعْتِرَافًا قَطْعِيًّا بِتَارِيخِ 17 مَآيُو 1948. وَمِنْ ثَمَّ تَشَكَّوْا سُلُوفَاكِيا وَصَرْبِيَا
وَجُمْهُورِيَّةَ بُولْنَدَا الشَّعْبِيَّةِ. ثَمَّ الْوَلَايَاتُ الْمُتَحِدَةُ الَّتِي غَيَّرَتْ حَالَةَ اعْتِرَافِهَا
الْقَانُونِي بِإِسْرَائِيلَ لِيَصْبَحَ اعْتِرَافًا قَطْعِيًّا بَعْدَ عَقْدِ الْإِتِّخَابَاتِ الْإِسْرَائِيلِيَّةِ
الْأَوَّلَى، بِتَارِيخِ 31 يَنَآيِرَ عَامَ 1949.
المصدر: وثائق الإعتراف بدولة إسرائيل / مكتبة ومتحف هاري ترومان
الرئيس الأمريكي 33.

يعيشها بتفاصيل قُبِحَها، وفَظَاعَتِها، إلا من مَرَّت الغيلان على داره، أو قريياً منها.

لقد ذُبِحَ البُوسنيون في أرضهم وبِلادِهِم في العقد التّاسع من القرن الميلادي العشرين، كما ذُبِحَ السّوريّون في حماة في العقد الثامن منه، فاضْطَرَّتْهم السّكاكين للهجرة.. هجرة غريبة هجرتهم هذه، لا تدخُل من ثِقَبِ إبرة ما تعارف عليه النّاس في إسبانيا عن الهجرة.. فهي هجرة مُعترفٌ بها، مُرحب برجالها ونسائها وأطفالها، هجرة يتعاطف مع أصحابها العالم الحرّ! كما تتعاطف معهم العوالم غير الحرّة.

تلعبُ العُنصرية دوراً قبيحاً في التمييز بين هجرة وهجرة، وتجعل أهل البلاد المُستقبلة، يُحبون هؤلاء المُهاجرين الذين ينتمون إلى العرق الآريّ الأبيض، وإن لم يَروا فيهم غير يدِ عاملة مُتميزة، تسدّ عوزَهم البشري لِاستمرار عجلة الإقتصاد الإسباني!



دَعَوْنَاهُمْ إلى طعام الإفطار، وكان اثنان منهم صائمين، والثالث كُرواتيّ كاثوليكيّ، والرابع لم يَعتد الصّيام كما قال، لكنه واحتراماً للموقف، توقف عن التدخين في بيتنا قبل الإفطار.

في تلك الأيام، كان أحد الشباب السّوريّين قد افْتَتَحَ مَطْعَماً، في مدريد، ووسَطَ كُلِّ هذا الحيص بيص، قرر أبو الأولاد، أن يُوصي المَطْعَم ليُجلب لنا فطائر السّبانخ، والجبن و«الصفيحة»⁽¹⁾ باللّحم.

جاءت صواني الفطائر، ذات الرائحة الشهية والمنظر الرائع،

(1) وتسمى الصفيحة أو اللحم بالعجين: وهي أكلة شعبية - مشهورة في سائر بلاد المشرق العربي وتركيا، على تنوع توابعها ومايضاف إلى مكوناتها الرئيسي وهو - اللحم المفروم الذي يُمَدُّ فوق العجين ويُخبز في الأفران.

وَفَرَحْنَا بِهَا، وَخُصُوصًا أَنَا وَجَدْنَا، مَنْ يَقُومُ بِهَذَا الْعَمَلِ نِيَابَةً عَنِّي،
وَأَنَا الَّتِي مَا فَتَيْتُ أَعْيُنُ وَأَخْبِرُ فِي الْبَيْتِ - كَكُلِّ نِسَاءِ الْجَالِيَةِ - مِنْذُ
قَدِمْتُ إِلَى إِسبَانِيَا!

قُلْتُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأَخِيرًا أُعْتِقْتُ مِنَ الْعَمَلِ مَعَ الْفُرْنِ، وَلَفَحِ
حَرَارَتِهِ، كُلِّ أَسْبُوعَيْنِ يَوْمًا بِطَوْلِهِ عَلَى الْأَقْلَى.. أَوْ هَكَذَا ظَنَنْتُ!

وَوَضَعْنَا الْمَائِدَةَ، وَصَفَفْنَا الصُّحُونَ، وَالشُّوكَاتِ، وَالْكُؤُوسَ،
وَالْأَبَارِيقَ، وَمَنَادِيلَ الطَّعَامِ، حَتَّى أَنْ جَارَتِي الْإِسبَانِيَّةَ الَّتِي تَسْكُنُ
مُقَابِلَ دَارِي، قَالَتْ لِي مُعَلِّقَةً، وَهِيَ تُرَاقِبُ جَلْبَتَنَا، وَذَلِكَ الْحِفْلُ
الْمَهِيبُ، فِي بَيْتِنَا لَيْلَةَ الْمِيلَادِ: أَخِيرًا احْتَفَلْتُمْ بِالنَّايِيدَادِ.. هَكَذَا
فَلْيَكُنِ الْإِنْدِمَاجُ!

قَبْلَ مَوْعِدِ الْإِفْطَارِ بِسَاعَتَيْنِ، نَظَرْتُ ابْنِي الصَّغِيرَ بِسَنَوَاتِهِ الثَّلَاثِ
إِلَى الْمَائِدَةِ، فَأَخَذَ فُطِيرَةَ سَبَانَخَ، وَقَالَ: أَنَا صَائِمٌ يَا مَامَا، وَلَكِنْ
دَعِينِي أَكُلْ هَذِهِ الْفُطِيرَةَ، فُطِيرَةً وَاحِدَةً!

أَكَلَ الْوَلَدُ لُقْمَةً وَاحِدَةً مِنَ الْفُطِيرَةِ، وَأَسْرَعَ إِلَى الْمَغْسَلَةِ يُلْقِي
مَا أَكَلَ، وَهُوَ يَقُولُ لِي: هَذِهِ لَيْسَتْ فُطَائِرَ بِالسَبَانَخِ، يَا مَامَا، هَذِهِ
فُطَائِرُ «كََا»!!

كَلِمَةُ «كََا» بِالْإِسبَانِيَّةِ، تَعْنِي شَيْئًا مُسْتَقْدَرًا جَدًّا!

- وَمَاذَا سَنَفْعَلُ.. جِئْتُ بِالصَّبِيِّ أَسْتَجِيبُ بِهِ:

- هَلْ هِيَ مَالِحَةٌ يَا مَامَا؟

- لَا!

- هَلْ هِيَ حَامِضَةٌ؟

- لَا!

- كَيْفَ لَيْسَتْ حَامِضَةٌ؟

- لَا أَدْرِي يَا مَامَا.. هِيَ فُطَائِرُ كَاكََا!

- لا حول ولا قوة إلا بالله! وماذا يعني كاكأ؟

- يعني ليست مثل الفطائر التي تصنعينها لنا!

قلتُ له بِكُلِّ تَوَاضُعٍ: يا ابني إنني أعرف أنها ليست مثَلها، فلا شيء على وجه البسيطة يُشَبِّه فطائري!! ولكن اشرح لي بالضبط ما بها؟ ماذا يَنْقُصُها؟ فأنا صائِمة ولا أستطيع تَذَوُّقُها! وما كنتُ أعلمُ يومها أن لِلطَّبَّاحِ تَذَوُّقَ طعامِهِ وهو صائم!!

بعد ساعة من المُعالجة، وبمساعدة أختي الأكبر قليلاً، والتي «تَسَحَّرَت» عند طعام الغداء ونَوَت الصَّوم.. تبين أن الفطائر بالسَّبانخ هذه، ليس فيها نقطة ليمون واحدة! وماذا سنفعل وقد بقيت ساعة على موعد الإفطار؟؟

فطائر بالسَّبانخ ليس فيها ليمون، فضيحة، فضيحة كبرى، لا يمكن تمريرها في مطبخي!!

من حسنات أن يكونَ «زَوْجُكَ» طبيباً، أنَّكَ قد تَجِدُ في البيت، لدى الحاجة حَقْنًا طيِّبَةً!! أَيْتُ بِالْحَقْنِ، وجلستُ وأولادي، وسط الضَّحِك والمزاح واللَّعب والجدِّ، نملؤها بعصير الليمون الحامض، ثم قُمنا بِحَقْنِ السَّتينِ فطيرة سبانخ واحدة واحدة بالليمون، تلك التي كان صاحب المطعم قد جاءنا بها، وقد نَسِيَ أن يُضيفَ لِلخَلْطَةِ، الحامض الذي لا تستقيم من دونه أكلة الفطائر بالسَّبانخ هذه.

ويا «فرحة ما تَمَّتْ»، سأضطر إلى الاستمرار بالعجن والخبز، فلا شيء في غربتنا — يمكن استبداله بفطائر البيت وعجائنه!

رفع «أبو ساجدة» الأذان لِدُخُولِ وقتِ المَغْرِب، وأفطَرنا مع ضُيوفنا البوسنيين، وصَلينا معهم، ودَعَونا الله أن يرفع البلاء عن البوسنة، وفلسطين، وسوريا، وأفغانستان، والشيشان، والصومال،

والسودان، وحمّلناهم كلّ ما كان على المائدة من طعام، وتمنينا أن لو كان في استطاعتنا، أن نحمل عنهم ولو جزءًا يسيرًا، من ذلك الحمل الثقيل، الذي أرهقهم.. حربًا، وعذاباتٍ، وهجرة، وغربة.. ودّعناهم واستودعناهم الله، وأوصلهم زوجي إلى البيت، الذي منّحتُه لهم محافظة مدينة مدريد، ليكونوا فيه مدة ثلاثة أشهر، ريثما يتدبروا أمرهم.

بعد أيام اتصلوا بنا وودّعونا، كانوا ذاهبين إلى قرية في مقاطعة «غاليسيا»، شمال إسبانيا، ليعمل إثنان منهم في مزرعة لرعي الخنازير، والإثنان الآخران في النجارة.

في الأسابيع اللاحقة، تواصلوا معنا عبر الهاتف، كانت «رايقة» الطيبة، كلّما خبرتني يتهدّج صوتهما، وتختنق بالكلمات الإسبانية القليلة، التي نستطيع التفاهم عبرها، وكنت أعرف أنها تتعلّق بقشّتنا لكي لا تفرق، لكنها ما كانت تعلم، أننا لا نستطيع أن نفعل لهم شيئًا كثيرًا، كنا أعجز من أن نحمل أسرة أو أسرتين على كاهلنا.

آخر مرّة هاتفتني فيها، قالت لي إنهم يحاولون اللجوء إلى ألمانيا، ما عادوا يحتملون العمل في مزرعة الخنازير، «إنه شيء فظيع» - كما قالت -..

بعد ذلك انقطعت عنا أخبارهم.

رسخت في أرواحنا سهام ألمهم العظيم ذاك، لا تمحي آثارها، وبقيت في ذاكرتنا حُقن الحامض لفطائر السبانخ، لا تُنسى. يختلط الألم بالإبتسامة في تلك الذكرى الفريدة، ويترك في النفس جرحًا قائمًا، إخواننا أولئك، الذين جاؤوا إسبانيا هاربين من مجازر الصّرب، فلم تستطع الجاليات المسلمة هنا، مساعدتهم إلا بالقليل النادر من جهد المُقل.. اسمُ البوسنة صار جرحًا مفتوحًا، تنبّض شرايينه، بأقسى أنواع الوجع، والإحساس

بالظُّلم والقَهْر، لكن الشُّعور بالعجز كان الأشدَّ قسوة وإيلامًا من كلِّ ما يُمكن للمرء أن يتخَيَّله من معاناة.

مُعاناةُ الغُرباء، تَفوقُ معاناة المُقيمين في بلادهم وأوطانهم، فالغريب يتألَّم، يحزَن، يعيش المِحنة مضاعفةً، مُنفَعلاً، لكنه لا يستطيع أن يكون فاعلاً فيها.

يُعاني غُربته، ويعاني محنته، ويُعاني مِحَن الآخرين، الذين لا يستطيعون استيعاب ألَمه، في غُربته ومِحنته، ويريدون له أن يعيش مِحَنهم بكامل أبعادها.

حين التَّقينا بالسفير البوسنيّ في إسبانيا، كان وَجْه الرَّجل، يحكي حكاية الأَلَم، والخِذلان، والشُّعور بالعجز، أمام فظاعة ما يجري في بلاده.

قال: «هذه هي حرب الاستئصال العاشرة، التي تشهدها البوسنة، خلال القرون الثلاثة الأخيرة!»

كلَّما رفع القوم رؤوسهم من قبورهم الجماعية، واستعادوا وفقتهم في وجه التاريخ، جاءهم منجل الموت يَحْصُدُهُم، وكلَّ ذَنْبِهِم أنهم موجودون في قلب أوربا، على الحدود ما بين شَرْقِها الرُّوسيّ الاستعماريّ، وغربها الاستعماريّ مُتعدّد الجنسيات، لا أحد يُريد لهم أن يبقوا، ولا أن يعيشوا، ولا أن يكون لهم وطنٌ مُستَقِلٌّ، يريدون لهم أن يكونوا مُجرّد أقلية في بلاد الآخرين، لا تُريد أوربا الغربية ولا روسيا، بلدًا مُسلمًا ذا تاريخ يتّصل بالسلطنة العدوّة.. كما لا يُريدان للأقليات أن تحيا بِسَلام أبداً، ما دامت هذه الدُّول لا تستطيع إمتطاءها، واستخدامها، في حُرُوبها الخاصة والعامة، لِتُحقِّق بها مُرادها هنا وهناك، ثم لِتُخلَّص منها بأنجع الوسائل، التي تُتقنها: تأجيجُ الأحقاد الطائفية والقومية هنا وهناك كلَّما إقتضت الحاجة!

أوربا التي تركت «تركيا العسكرية الانقلابية الناشئة»،

واقفةً بِبابِها عُقودًا، تَسْتَجدي «حَقَّها» في الانضمام إلى الاتحاد الأوروبي.. لم تُكن لَتَقْبَل بِتَرَكَة العُثمانيين على تُخومِها، لِتُصبح دولةً فاعِلَةً في نادِها الذي أَقامَتْه على أنقاض إمبراطوريتهم العظيمة، بل وعلى نَهْجِها وصُورَتِها وسياساتِها الإمبراطورية، في حُكم أكبر عدد مُمكن من دول العالم في القارات الثلاث التي تُحيط بها.

تَظُنُّ أورُبا، كما كثيرون ممن يَمْتَلِكون القوة، خلال دورات التاريخ المتتالية - ومنهم الإمبراطورية العُثمانية نفسها -، أنه بالذَّبْح، والقتل، والبَطْش، يمكن السيطرة والبقاء والقضاء على بِذَرَة الإنسان! بذرة الإنسان التي تَنطوي على نَفْحَةٍ من رُوح الله، فهي لا تَلْبُثُ - مرة بعد مرة - أن تُنْتِش، يَمْتَدُّ جَذْرُها الصَّغير، داخِل الأرض يَتَسَبَّبُ بها، وَيَقوى ساعِدُها، فَتَرَفَع رَأْسُها بِوَرَقَتَيْنِ خَضراوَيْن، حُرَيَّة وكرامة.. تُصافِح الشَّمس بهما وتُحيا.

بِذَرَة الإنسان، التي تمنحه العزيمة على مُقاومة الذَّل والقَهْر والركوع لغير الخالق.

تَكَلَّم السفير في لقائه معنا، عن خِذلان الأصدقاء، وكَذِب المنافقين، وعَجْز الإِخْوَة، تحدث عن الحِصار، والموت الجماعي، والتَّجويع، والإِغتصاب، الذي هو أعظم من الذَّبْح والتَّجويع، وشكَّر الشَّعب الإسباني، ومُجمل الشعوب الأوروبية، على ما قَدَمَت وتُقَدِّم.

كان الإعلام - كما هو دائماً -، في بلادنا أم في أورُبا، يُؤدِّي دَوْرَهُ الشَّائِن، في توجيه السِّياقات العامَّة لِتَفكير الشُّعوب، يَدفَعُها لِلتَّعاطُف مع قضية، ويَصْرِفُها عن الوقوف مع ضحايا قَضِيَّة أُخرى.

كانت غُصَّةً في القلب، أن نرى، ونعيش، على هامِش ما يجري في البوسنة، هذه الظاهرة الإعلامية المخيفة، التي تُساقُ من خِلالها الشعوب كالقُطعان.. تُؤمن بمن يَشاءُ لها مَنْ يَقِف وراء

الإعلام، أن تُؤمن به، وتُكفّر بمن يشاء لها من يقف وراء الإعلام،
أن تُكفّر به.

تتحرك لإغاثة من يريد لها من يقف وراء الإعلام، أن تُغيّثه،
وتقف مُتفَرِّجَةً، على آلام ومُعاناة من لا يرغب أولئك الذين يقفون
وراء الإعلام، في أن يُحرّك أحد ساكنًا لإنقاذهم من العرق، ولا
حتى لاكتشاف حقيقة الحكايات، التي يظنّ الناس، أنها تجري
تحت سَمْعِهِمْ وبَصَرِهِمْ.. لكنها في واقع الأمر، تُمرّر من خلال
غِربال الإعلام، ليرى الناس ويسمعون فقط، ما يريد لهم الإعلام
أن يروه ويسمعه.

كانت حرب البوسنة، آخر حرب تُخصّ المسلمين، سمح
فيها الغرب للصحافة بأن تنقل للشعوب الحقيقة!

.الفرصة الفريدة الضائعة.

● **في** زحمة هَوَلٍ إرتداداتٍ مجازر البُوسنة والهَرسك، التي
كُنَّا نعيشها في إسبانيا، كُنْتُ قد رَكَنْتُ في كهفِ نفسي،
خبراً سورياً، كبيراً، خطيراً، هَزَّنَا عَنِيفاً كسوريين، فَضَغَطُ
تَهْيِيبِ المجزرة القريية منا، جعل ذلك الخبر في آذاننا مجرد
رَجْعِ صدى، كذلك الذي كنت أشعر به، على باب مدرسة
أولادي، يوم إقتحم الجيش العراقي الكويت.

رُؤْيَا كَارِثَةٍ كبرى، مُسْتَقْبَلَةِ الأَوْدِيَةِ، تُفْقِدُ المَرءَ القُدْرَةَ على
الإحساس بغيرها من الكوارث.

بعض الأخبار تُذهِلُكَ، لا تُفْرِحُكَ ولا تُحْزِنُكَ، تَصْدِمُكَ
، تُسَدِّدُ لك ضربة في وسط وجهك، قد تُصِيبُ أَنْفَكَ وتُهَشِّمُهُ،
ولا يَهْمُكَ تهشيم أَنْفِكَ، لأن اللكمة جاءت قوية بما فيه الكفاية،
لِتَدْعَكَ مَذْهُولاً، مُتَفَكِّراً، في أحوال الدُّنْيَا وتَقْلِبَاتِهَا..

هكذا جاءنا خبر موت ابن الأسد!

ليس ذلك الأسد، مَلِكُ الغابة، الحيوان، المنضبط، المَهِيْبُ..
لكنه هذا الضابط الطائفي، من فصيلة مصاصي الدماء، مُغْتَصِبُ
الحكم في سوريا، بتدبير من أقطاب المجتمع الاستعماري
الدولي، وخاصة من فرنسا والولايات المتحدة وروسيا،
الديكتاتور الطاغية، المجرم، الذي هَدَمَ مع أخيه، مدينة حماة،
على رؤوس أهلها، قَتَلَا عَشْرَهُمْ، وَشَرَّدَا رُبْعَهُمْ، دون أن يَرِفَّ لهما
جَفَن، أَرهبا سوريا بالقمع المتوحش، وتكميم الأفواه، وإستلاب

الحرِّيَّات، وسَحَق الكرامة، والأعراض، تحت أقدام عائلتهما وأعوانهما وجندهما.

مات «ابن الأسد» إذًا! قُتِل في حادث سيارة، وحده - كما قيل - لم يكن لأحد يد - كما قيل - في ذلك الحادث الرهيب المذهل.

كان «الأسد الوحش الأب»، يُعَدُّ ابنه هذا، ليكون خليفته في حكم سوريا، ليرثها من بعده، كأن سوريا حظيرة أغنام ورثها هو عن أبيه! لكن كيده ذهب أدراج الرياح، تدخل الفعل الإلهي - بيد القتل أم بيد من قتله -، فأزاحه من المشهد في دقة عجيبة، استجابة لدعاء آلاف الأمهات والآباء، بأن يحرق الله قلبه على ولده، كما تسبب هو، بإيقاد لهيب نيران الفراق المؤلم في قلوب السوريين، بعد أن تخطفَت قوى الأمن النخبة من شبابهم، وزجت بهم في غياهب السجون، أو دياجير المصائر غير المعروفة.

مات باسل الأسد، الفارس.. الذي أودع «فارسًا» حقيقيًا، السجن المؤبد مع التعذيب، أن سبقت فرسه فرس باسل هذا في حلبة سباق رياضي! مات الوريث قبل أبيه، ومن حيث لم يحتسب أحد، ومُنِح السوريون فرصة ذهبية فريدة، لا تُمنح للشعوب إلا نادرًا، ليغيروا أوضاعهم، ويثوروا على جلادهم، ويخلعوا عنهم ربق العبودية لآل الأسد.. لكنهم لم يفعلوا!

لم تحتاجني مشاعر الشماتة، ولم يشف موت الرجل غيظ قلبي، ولم يطفى نيران القهر فيه.. لم أشعر بغير الصدمة، والصدمة فحسب، ربما كان موضوع البوسنة، وحجم الفظائع التي ارتكبتها الصرب فيها مما لا تستطيع الأنفس استيعابه، قد أصابني بتلدد في الأحاسيس، ربما هي الدهشة من فعل الله وتصريفه الأمور، ربما هو الذهول أمام الفرصة التاريخية الاستثنائية، التي مُنحت للسوريين في تلك اللحظات، فلم يغتنموها.

كنا في دمشق، لا نتجرأ على الخروج وحدنا ليلاً، كان أهلنا يُخَوِّفوننا بِرَفَعَتِ الأسد، كان هذا الاسم يُوازِي عندنا، اسم الغول، والعنقاء، والعقرب، والصرصار معاً.. كان قد استقر في أنفسنا أن هذا المخلوق المُرعب، يَخْطِفُ النساء في شوارع دمشق، لِيَتَزَوَّجَهُنَّ ليلة واحدة ثم يُطَلِّقَهُنَّ، وإذا كانت إحداهن مُتَزَوِّجة، أُتِي بِزَوْجِها، فَأُجْبِرَ على طلاقِها، ليتزوجها هذا الوحش لليلة واحدة، ثم يُسَرِّحها، وَيَسْتَدْعِي زوجها لِيَحْمِلَها إلى الدَّار!!

كانت هذه هي إحدى وسائله في إهانة وإذلال الناس وترسيخ شعورهم بالإستعباد!

هذا ما كان يحكيه الجميع في هَمْسٍ واستفْظاعٍ وشعورٍ بالهَوْلِ والشَّعَاة!!

تَقِيَّ حريصٌ هذا «المخلوق» على ما يبدو!! ما كان يتزوج بنات الناس اللَّاتِي يَخْطِطُفُهُنَّ من الشوارع، إلا على سُنَّةِ الله ورسوله!! أو هذا ما كان يرويه الناس رُعباً وتخويفاً لِبَنَاتِهِمْ!

مدارِكُنَا الصغيرة في هاتيك الأيام، ما كانت لِتَسْتَوَعِبَ كُلَّ جوانب حقيقة الحكاية.

وإذا ما سألت - اليوم - أحداً، أو حاولت التَّنْقِيبَ ولو قليلاً في الذَّاكرة الجماعية، جاءكَ الجواب جاهزاً: ما هذا العَلَك؟ لم نسمع بمثل هذا! لا نعرف عن ماذا تتحدث؟؟!

الخوف من العار والفضيحة، أكبر بكثير عند السَّوريين، من الخوف على مُستقبل هذا الشَّعب، وسلامَتِهِ العقليَّة الجماعية.

لم تكن المصيبة أن يحدث ذلك، وينتشر بين النَّاس بالتواتر.. كانت المصيبة عند السَّوريين، أن تَحْتَفِظَ الذَّاكرة الجَمْعِيَّة به، وأن يقوم أحدهم أو إحداهن بتوثيقه، وحفظه، ونشر الفظائع التي ارْتَكَبَتْها الغيلان في محاولاتها تركيع الشَّعب.

المُهمّ أن نحتفظ لأنفسنا، عن أنفسنا، بتلك الصورة المبالغة في النقاء والطهرانية.

«الكذب على الذات»، ملهاة السوريين المأسوية بامتياز.

كان أهل دمشق - وكلّ أنحاء سوريا -، يحكّون، ويحذرون أبناءهم، يصيغون بحكاياتهم وحكيهم، ذاكرة سنوات القهر والمحنة والدم، يوشوشون بعضهم بعضاً، خوف أن تلتقط آذان الحيطان ما قالوه! لكنهم لا يقبلون أن يُردّد أبناءهم ما قالوه، ولا أن يُسجّلوا للتاريخ ما يحدث!!

بدّت الشام - وأقول بدّت - مقبرة كبيرة للذاكرة.. وبدّا للغيلان، أن أهل الشام قد استكانوا وصمّتوا..

ولقد صمّتوا في حقيقة الأمر، لكنهم في واقع الحال، لم يستكينوا ولم يسكّتوا.. كانوا يتكلّمون، وخوفاً على أبنائهم كانوا يحرّصون، لدى زرع الكلمات في ذاكرتهم الفتية، على ضبط صمت اللغة والفعل، أرادوا لزرعهم السريّ ذاك، أن يبقى مطموراً إلى حين.

تركوا لدى أبنائهم الأمانة، التي عجزوا عن القيام بها، لم يضيعوها، وإن لم يتمكّنوا من حملها بحقّها، تركوا في ضمائرنا نبأهم الموجد، وقصة شعب غفل عن حريته وكرامته، وهما أعلى ما يملكه شعب على وجه الأرض، فانتهبتهم الغيلان المتوحشة، وأوسعتهم ذلاً وهواناً.

كان الجميع يتحدثون عن ابن الأسد الثاني «ماهر»، الذي ورث وحشيّة، ورعونة، وإجرام عمّه «رفعت»، ربّي وأعدّ ليلعب مع «باسل»، دور «رفعت» نفسه مع «حافظ»! وكما يقصّون.. فقد كان مجرماً عتيداً، متوحّشاً بالوراثة، جباراً بالتربية، يحكون

أنه ولمّا يبلغ التاسعة من عمره، إِسْتَلَّ مُسَدَّسًا، فقتل به حارسه الشخصي، حين أغضبه!

سواءً صَدَقَتْ تلك الحكايات، أم كانت من ترويحٍ أَجْهَزَةِ المخابرات نفسها، لِتُشِيعَ الخوف في القلوب، أم وُلِدَتْ من بناتِ الفَرْع - والهَلَعِ الشَّعْبِيِّينَ الجَماعِيِّينَ، وإنْ عَدَمَ أيُّ فُرْصَةٍ لمعرفة الحقيقة، فلقد كان أبناء «الأسد المتوحّش» مُتَوَحِّشُونَ، لكنهم كانوا يُحاوِلون الظُّهور وكأنَّهم أكثر تَحَضُّرًا، وتَمَدُّنًا، من الجيل الأول من هذه الأسرة من القَتْلَة.. المعروف منهم، أم الذي يَتَصَدَّر المحافل، على أنه وَجْهَ النِّظام الذي يمكن «هَضْمُه»! أم ذلك الآخر الذي يعمل في الخفاء، يَنْشُرُ مُجَرَّدَ التَّلَفُّظِ بِاسْمِهِ، الرُّعب والخَوْفَ بين الناس.

لم يكن يَخْفَى من أمرهم على الشَّعب في سوريا شيء، على الرَّغم من كلِّ مُحاولاتِهِم الإخفاء.. هذا الشَّعب الذي - وفي جَحِيم مَرَضِهِ الإِسْتِكْهُولْمِي⁽¹⁾ - راح يُسَمِّي جيلًا من أولاده، بأَسْماءِ أبناءِ «ولي الأمر».. المجرم، القاتل، الوالغ، في دِماء الأحرار والأبرياء.

(1) متلازمة استوكهولم - el síndrome de estocolmo - مصطلح يطلق على الحالة النفسية التي تصيب الفرد - أو الجماعة -، عندما يتعاطف أو يتعاون مع عدوه، أو من أساء إليه بشكل من الأشكال، فيُظهر المخطوف مع المختطف علامات الولاء والتعاطف.

أُطْلِقَ على هذه الحالة اسم «متلازمة ستوكهولم» نسبة إلى حادثة حدثت في ستوكهولم في السويد حيث سطا مجموعة من اللصوص على بنك كريديتبانكين هناك عام 1973، واتخذوا بعضًا من موظفي البنك رهائن لمدة ستة أيام، خلال تلك الفترة بدأ الرهائن يرتبطون عاطفيًا مع الجناة، وقاموا بالدفاع عنهم بعد إطلاق سراحهم.

المصدر: /Understanding Stockholm síndrome/ thefreelibrary
ويكيبيديا.

أخبارُ الرئيس، وزوجته، وإخوته، وأبنائه، وأبناء خالته، وأصهاره، وأعوانه.. تَصِلُنَا ونحن في مدريد بتفاصيلها المُمَلَّة، إجرائهم، تنطُعهم، إستكبارهم، تصرفاتهم الطائفية القذرة، سرقاتهم للشعب، إستحواذهم على مُقدرات النَّاس وأموالهم، سيطرتهم المخبراتية الرهيبة على كل شيء في البلد، حتى أن النَّاس ما كانوا يستطيعون إقامة عرسٍ، ولا دَفَنَ مَيِّتٍ، دون الرجوع إلى موافقة أجهزة «نزع الأمن».

تحوَّلَت سوريا في عهد «الأسد الأب» - «الذاهية».. كما يُسميه عبيده ومُلمَّعوا صورته من المأجورين - إلى مزرعة خاصة بآل الأسد، وأسيادهم الإيرانيين والرُّوس والأمريكان! كان «دهاء» الأب الوحش، يتلخص في قدرته على ربط خيوط اللعبة الإستعمارية الدُّولية في سوريا، بحيث يُطبِّق مَخَالِبَه، ومخالب أبنائه من بعده، على سوريا ولبنان والأردن وما تبقى من فلسطين، إلى.. ما كانوا يدعونه، ويظنونه، ويُسمونه: «الأبد». يتلخَّص «دهاؤه» المزعوم، في قدرته الفائقة، على إرضاء «الأسياء» - كلِّهم، شَرِقَهم وغَرِبَهم، مقابل تمكينه وأسرته وطائفته من سوريا وثرواتها ورقاب شعبها!!

كان العمل الإستعماريّ مُتعدِّد الولاءات، الأكثر قدرة في المنطقة، على لعق كلِّ الأحذية في آنٍ واحد.. وتمويه ذلك كله بشعارات الكرامة الوطنية، والوحدة القومية، وخدمة القضية! -

وعلى الرغم من ذلك، كان الشعب السوريّ أشدَّ دهاء منه، لأنه كان مُستوعباً لِمُلابسات اللعبة وأهدافها! وإن لم يمتلك الشجاعة الكافية، لِنصرة ثواره، الذين كَشَفُوا أدقَّ تفاصيلها باكراً في الثمانينيات!

كان الشعب السوريّ مُذهلاً، يُظهر «عَدَمَ الفهم»، إِتِّقاء لِسُرور هذه الوحوش! ضباغٌ وُثعايسن وعقارب قد أحاطت

بالسوريين، حاول السوريون «ترويضها» والتعامل معها بالخدعة والمكر، راحوا يُرَقِّصُونَهَا ويُراقصونها، على أنغام تراتيل كل أنواع الموتِ المُعلنِ مِنْهُ والمُخْفِي.

لم يكن «الأسد» هو الذي يَسُوسُ السوريّين، كان السوريون هُم الذين يُسَاسُون⁽¹⁾ الأسد!

وَجَدَ الشَّعْبُ السُّورِيّ نفسه، مُضطَرّاً، لإظهار «عِشقه» وولائه لباسل الأسد، وبدأ هذا يَحُلُّ شيئاً فشيئاً، مكان أبيه الوحش الكبير، الذي بدا مُهْتَرّاً، جَسْمِيّاً ونَفْسِيّاً بفعل السرطانات التي نَهَشَتْه، لم يُعلن عنها، خوفَ شِمَاتَةِ الشَّعْبِ المُسَاسِ!! بقيت كُلُّ أمراضه ومُعانِيهِ طَيِّ السَّرِيَّةِ! قد بَلَيَّ وتَلَفَ، بفعل الدَّماءِ البريئة، التي سَفَكَهَا في سوريا والأردن ولبنان، وفي تعامله مع الشعب الفلسطيني «المُهَجَّر» في سوريا.. شأنه في ذلك، شأن كل طُغاة الأرض، منذ خلقها الله.

دِماء الأبرياء الطَّاهِرة.. دائماً، تَنْقَلِبُ في أجواف الغيلان إلى سُمٍّ، يَتَمَدَّد في شرايينهم، يُقَتِّلون بها عاجلاً أم آجلاً.

- لماذا تَسْكُتون يا أمي على كل هذا الظُّلم والهوان؟

- لأننا لانستطيع إحتمال التَّعذيب، وليس لنا طاقة على التَّخَلُّص من هؤلاء الوحوش.

- لو لم تَسْكُتوا عنهم.. ما تَغَوَّلوا عليكم بهذا الشكل.

- كفّاك عَنَتِريات.. هؤلاء معهم فرنسا وأمريكا وبريطانيا

وروسيا وإيران وإسرائيل.

(1) في معجم اللغة العربية المعاصر: سَاسَ يَسُوسُ، سُسَ، سِياسةً، فهو سَاسٌ، والمفعول مَسُوسٌ. سَاسَ النَّاسَ: حَكَمَهُم، تَوَلَّى قِيادَتَهُم وإدارة شُئُونَهُم. سَاسَ الْأُمُورَ: دَبَّرَهَا، أَدَارَهَا، قام بإصلاحها. سَاسَ الدُّوَابَّ: رَوَّضَهَا وَاَعْتَنَى بِهَا.

- ونحن معنا الله..

- وربُّنا - يا إبنِي - قال: وأَعِدُّوا، ونحنُ لا عِدَّةَ عندنا، دَعْنَا من لومِك الدَّائم.. أَلَمْ تَرَ ما فعلوه عِنْدَكُمْ في الجامعة يوم مَقْتَل ذلك الأستاذ؟! أَلَمْ يَشْنُقُوا كُلَّ الشَّباب الذين قُلْتُمْ أَنهم ثاروا؟ أين مُصْعَب ابن جيراننا؟ ما زالت أمُّه تَدُورُ في الشوارع، وتذهب إلى القصر الجمهوريَّ يومياً، تقف هناك مُتَذَلِّلَةً، لعلَّ أحدهم يَتَعَطَّفَ عليها، ويُدِّلُّها على مَصيرِ ابنها! خمسة عشر عامًا كان عُمره يوم إعتقلوه، ولماذا؟ لأنَّه كان يُصلي الصبح مع جماعة مَسجد الحي.. الله أعلم إن وَرطوه بمصيبةٍ أودت به، أم أَنهم إعتقلوه على الرَّفقة فحسب.. رحمة الله عليه حيًّا وميتًا.

- يا أُمِّي.. أنتم سَكُتُمْ وتَوَاطَأْتُمْ، وَذَهَبْتُمْ لِإِنْتِخابِ البُعْج، لم يُجْبِرْكم أحد على الذهاب، نزلْتُمْ لِإِنْتِخابِهِ بِمَحْضِ إِرَادَتِكُمْ.

- أَفَّ لَكَ وَلِلْوَمِك الدائم لنا.. لو لم نذهب لِلاِنْتِخاب لَسَرَّحونا من وظائفنا! يُمكنهم طَرْدِي من عَملي، وطَرَدَ أَيْبِكَ كذلك، أَلَا يكفينَا أَنهم أَنزلوا مَرْتَبَتَهُ من مُفَتِّش عام في المحافظة، إلى مُدير فرع في مؤسسة حقيرة؟! دَعْ عنكَ لَوْمَنَا وتَقْرِيعَنَا، سَتُصبح خلال ساعات خارج البلد، وسنستطيع أن ننام!

ثم أَضافت والدموع في عينيها: لا أعرف النوم منذ سنوات، خوفًا عليك، وعلى إِخوتِكَ.. أَسأَلُ الله أن يُوصِلَكَ المطار على خيرٍ وسلام.. اللَّهُمَّ سَتْرُكَ ولطفك ورحمتك.

- لو لَمْ تُرْغِمُونِي على المُغَادَرَةِ ما غادرت..

- يا الله كَمْ أَنْتُك عَنيد يا إبنِي، ولا تَرى الكارثة، هل تستطيع الصُّمود في وجه هؤلاء القتلة ساعة واحدة إن إعتقلوك وإغتصبوك؟ إِنهم وحوشٌ، لا يعرفون الله، ولا الرحمة، ولا الإنسانيَّة يا إبنِي.. كَفَّ عن هذا، وإسأَلُ الله العافية.

كان هذا آخر حديث، جرى بين مُؤْتَمَن وأمه، في مطار دمشق، أثناء مغادرته سوريا، في مثل الأيام التي غادرتها فيها من عام 1980، ودون عودة، ربما كانت أمه مُصيبة في مخاوفها ومُبرراتها ساعة الوداع المؤلمة تلك، ربما كان مُتهوِّراً، ولا يرى أبعد من حُلُم نَيْل الحُرِّيَّة؟ ربما طغت ثورة الشباب في العُروق على تحذير الأَلَم المُخيف؟ أم لَعَلَّه اليقين بِوَعْدِ الله، أنه لن يُغير ما بِقَومٍ حتَّى يَمْتَلِكُوا «هُم» إِرَادَةَ التَّغْيِير، ويُحَدِّثُونَهُ بِأَيْدِيهِمْ، في أَنْفُسِهِمْ، وَمَنْ وَمِنْ حَوْلِهِمْ.

مُخَطَّطٌ جَهَنَّمِيٌّ، لِاسْتِمْرَارِ اسْتِعْبَادِ السُّورِيِّينَ، مُخَطَّطٌ تَمَّ اخْتِرَاقُهُ بِمَقْتَلِ بَاسِلِ ابْنِ المَجْرَمِ الكَبِيرِ رَأْسِ النِّظَامِ، أَفْطَعُ مَا فِي هَذَا الأَمْرِ، تَمَرِيضُهُ بِصُورَةِ سِرِّيَّةٍ شَبَحِيَّةٍ عَلَى النَّاسِ، وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ.. كَانَ السُّورِيُّونَ يَعْرِفُونَ وَيُدْرِكُونَ وَيَقَاوِمُونَ بِأَسَالِيهِهِمُ الْخَاصَّةَ!

كَانَ الشَّعْبُ يُرَاقِبُ وَيَرْتَقِبُ، كَانَ يَنْظُرُ سَاكِئًا وَيَنْتَظِرُ، كَانَ يَظُنُّ أَنَّهُ وَبِهَلَاكِ الأَسَدِ الأَبِ، يُمْكِنُ أَنْ تَأْتِيَهُ فُرْصَةُ التَّحَرُّرِ، وَكَانَ النَّاسُ يَدْعُونَ فِي صَلَوَاتِهِمْ، يَحْلُمُونَ فِي نَوْمِهِمْ وَيَقْطَعُونَ بِمَوْتِهِ، وَهُمْ يَرُونَ تَمَاثِيلَ الإِبْنِ تَنْتَصِبُ فِي كُلِّ مَكَانٍ مِنَ الْخَارِطَةِ السُّورِيَّةِ، كَانُوا يَتَأَمَّلُونَ فِي مُعْجِزَةِ تَخْلُصِهِمْ، مِنْ هَذَا الْحُكْمِ الإِسْتِبْدَادِيِّ، الطَّائِفِي، الأَخْطَبُوطِيِّ، الْبَغِيضِ، لَكِنْهُمْ لَمْ يُفَكِّرُوا فِي نَوْعٍ مُخْتَلِفٍ مِنَ الْمَعْجَزَاتِ، تُتِيحُ لَهُمْ فُرْصَةَ الْخِلَاصِ الَّتِي يَنْتَظِرُونَ، فَلَمَّا أَنَّ حَدَثَ.. لَمْ يُحَرِّكْ أَحَدٌ مِنْهُمْ سَاكِئًا! جَبُنُوا عَنْ أَنْ يَقِفُوا فِي وَجْهِ دِيكَتَاتُورِ عَجُوزٍ مَرِيضٍ مُجْرَمٍ.. أَوْ أَنَّهُمْ لَمْ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمُ الْقُوَّةَ وَالْإِسْتِعْدَادَ لِلْوُقُوفِ فِي وَجْهِهِ.. كَانُوا يَنْتَظِرُونَ مِنْ «الله»، أَنْ يَقُومَ هُوَ نِيَابَةً عَنْهُمْ، وَ«مَجَانًا»، بِكُلِّ مَا كَانَ يَجِبُ عَلَيْهِمْ هُمُ الْقِيَامُ بِهِ! أَمْ.. لَعَلَّهُمْ رَحِمُوا مَرَضَ ذَلِكَ الْمُجْرَمِ

وَضَعَفَهُ وَإِنْعَادَ حِيلَتِهِ فِي مُوَاجَهَةِ إِنْتِقَامِ اللَّهِ، إِذْ نَزَلَ بِهِ - وَمَنْ يَعْرِفُ السُّورِيِّينَ، لَا يَسْتَغْرِبُ هَذَا الْخِيَارَ الْآخِرَ!!

إِسْتَحْوَذَ «الْخَوْفُ» عَلَى الْقُلُوبِ، وَتَمَكَّنَ الْوَهْنُ مِنَ الشَّعْبِ، إِلَى دَرَجَةِ الشُّعُورِ الْعَامِ الْقَاتِلِ بِالشَّلَلِ.

النَّاسُ يَعْرِفُونَ كُلَّ مَا يَجْرِي مِنْ حَوْلِهِمْ، مِمَّا يَظُنُّهُ هَؤُلَاءِ الْحُكَّامُ أَسْرَارًا، كَمَثَلِ وُجُودِ الرُّوسِ فِي شِوَاطِئِ سُورِيَا مِنْذُ حَرْبِ تَشْرِينَ «الْأَسَدِيَّةِ»! وَإِقَامَتِهِمْ قَوَاعِدَ عَسْكَرِيَّةٍ مَنِيعَةٍ هُنَاكَ، وَحَصُولِهِمْ عَلَى كُلِّ مَا يُرِيدُونَ مِنْ إِسْتِثْنَاءَاتٍ فِي الْبَحْرِ الْأَبْيَضِ الْمَتَوَسِّطِ.. مُقَابِلِ حِمَايَةِ هَذَا النِّظَامِ مِنْ شَعْبِهِ.

الْإِيرَانِيُّونَ يَتَسَلَّلُونَ إِلَى مِفَاصِلِ الدَّوْلَةِ، وَيَعْمَلُونَ حَيْثُا وَبِكُلِّ وَسِيلَةٍ مُمَكِّنَةٍ عَلَى «تَشْيِيعِ» النَّاسِ، حَتَّى أَنْ بَعْضُ الْمَسْلَسَلَاتِ التَّلْفِزِيَّةِ السُّورِيَّةِ الشَّهِيرَةِ، وَالتِّي كَانَتْ تُعْرَضُ بِإِذْنِ خَاصٍّ مِنَ النِّظَامِ، كَانَتْ تَغْمِزُ مِنْ هَذَا الْوَضْعِ، وَتَضَعُهُ أَمَامَ الْجُمْهُورِ بِطَرِيقَةٍ أَوْ بِأُخْرَى.

يَعْرِفُ السُّورِيُّونَ أَنْ فِي أَرْضِهِمْ ثِرَوَاتٍ وَبِتَرَوَلًا، لَا يَصِلُهُمْ مِنْ رَيْعِهَا أَيْ شَيْءٍ، كَانَتْ تَذْهَبُ مَبَاشَرَةً إِلَى «الْقَرْدَاخَةِ» - مَسْقَطِ رَأْسِ حَافِظِ الْوَحْشِ - حَيْثُ أَقَامَ النِّظَامُ هُنَاكَ مُسْتَعْمَرَاتٍ تُشَبِّهُ الْمُسْتَجَبَعَاتِ السُّوَيْسِرِيَّةَ، بِكُلِّ مَا تَحْوِيهِ مِنْ مَرَافِقٍ، حَوْلِ الْقَرْدَاخَةِ مِنْ قَرْيَةٍ مُعْرِقَةٍ فِي التَّخَلُّفِ مَنَسِيَّةٍ فِي جِبَالِ الْعَلَوِيِّينَ فِي السَّاحِلِ السُّورِيِّ، إِلَى مَدِينَةٍ مَشْهُورَةٍ بِاسْمِ الْقَاتِلِ صَاحِبِهَا! بِالضَّبْطِ كَمَا حَوْلَ سُورِيَا كُلِّهَا فِي الْإِتِّجَاهِ الْمُعَاكِسِ، مِنْ حَاضِرَةِ عَرَبِيَّةِ وَإِسْلَامِيَّةٍ، كَانَتْ عَاصِمَةُ دَوْلَةِ الْأُمُويِّينَ، مِنْ أَشْهُرِ وَأَقْوَى الدُّوَلِ الَّتِي عَرَفَهَا تَارِيخُ - الْعَالَمِ، إِلَى مَزْرَعَةٍ خَاصَّةٍ بِآلِ الْأَسَدِ، تُجَبَّى إِلَيْهِمْ أَمْوَالُهَا وَخَيْرَاتُهَا، وَهُمْ يُسَيِّمُونَ أَبْنَاءَهَا مُرَّ الدُّلِّ وَالْهَوَانِ.

إِشْتَرَوْا بِأَمْوَالِ السُّورِيِّينَ، إِعْلَامِيَّينَ، وَكُتَّابًا، وَمُؤَسَّسَاتٍ خَاصَّةً بِالْعِلَاقَاتِ الْعَامَّةِ لِيُسَوِّقُوا لِلنِّظَامِ، أُغْدِقَتِ الْمَلَائِينَ عَلَى

فُطعان الشيحة⁽¹⁾، الذين أُطْلِقَتْ أيديهم لقمع الشَّعب، إشتروا بمئات الملايين، ترسّاناتٍ أسلحةٍ كيماويّة، ساعدَهُم الغرب على بنائها، ولم تكن مُعدّة لقتال إسرائيل كما كان يدّعي، وإلا لما ساعده الغرب في إنشائها!.. كان هذا النّظام صديق إسرائيل، وكلبها الأمين الحارس حدودها على مدى أربعين عامًا.. -

لم يكن الشَّعب السّوريّ فقيرًا ولا محرومًا، لكنهم ما كانوا يسمّحون له، بنيل أدنى أنواع الحقوق، إلا بكثيرٍ من الدّلّ. الرُّعب والدّلّ، سلاحان فتّاكان، في مُحاولات الطُّغاة القضاء على تطلّعات الشُّعوب إلى الحُرّيّة والكرامة والإنعتاق.

دمشق، دمشق.. الغافية في حِضنِ جبل قاسيون، يحشّوه الأسديون بِكُلِّ أدواتِ الموتِ والدِّمار، مما يَعتقدون، أنه يمكن أن يُسكِتَ الشَّعب طويلاً! الآلياتُ المُجترزة العسكرية، والمدنيّة، لا تكفُّ عن الحركة ليلاً نهارًا في جوف قاسيون، وعلى سفحِهِ، حتى خشي الأهالي من انهيارات كبيرة للأبنية في منطقة «المهاجرين» على سفح الجبل، الجميع يتحدّثون عن شبكة ممّرات مُحصّنة ضدّ الأسلحة النوويّة!! تُبنى في الجبل، لتكون مأوى للرئيس وأسرته، في حال فكّرت إسرائيل في الهجوم على البلد! لم يسأل أحد، أين سيذهب الشَّعب في حال وقوع هكذا هجوم؟!

لم يتصوّر النَّاس، أن هذه التّرسانة العسكريّة والكيميائيّة، إنما كانت تُعدّ لإعلان الحرب على الشَّعب، إذا ما جُنّ وثار!



دَعَتنا إحدى البنات من صاحباتنا في الجامعة، لمشاهدة فيلم

(1) «الشيحة»: اسم الميليشيات الطائفية الإجرامية الخاصة التي أطلقها نظام الأسد لإرهاب السوريين وقمعهم، مُولّت وأعدّت ودُرِّبَت، بصورة شبحية سرّية.

«الرسالة» الشهير - الذي أخرجه مُصطفى العقاد بتمويل ليبي -
في بيت أهلها العامر، وكان الفيلم يومها ممنوعاً في جميع بلدان
المنطقة العربيّة، ولا يُمكن مُشاهدته إلا في جلسات خاصة، وفي
بيوت وُجَّهَاء القوم، وأهل صاحبتنا هذه.. كانوا من وُجَّهَاء القوم
- على ما يبدو ...

استقبلتنا لدى الباب في بهوٍ واسع، ودعّتنا إلى قاعة
«السينما» في بيتهم، صالة كبيرة مظلمة، خُصص أحد جدرانها
ليكون شاشة سينمائية، وقد أُعدَّت هنالك، مائدة لِتناول ما لذّ
وطاب من المُقَبَّلَات الشاميّة الشهيرة، والخادِمات رائحات
غاديات علينا، وقد ارتفع صوت الموسيقى في الصالة بانتظار بدء
عرض الفيلم.

جلسنا مبهورات، ومُضيفتنا وأمُّها تقومان باستعراض
قدراتهما اللّافِتة في الشّني والتّغنّج، وأخيراً في الرقص على أنغام
تلك الموسيقى..

كانت تلك المرة الأولى التي أرى فيها شيئاً من هذا القليل
في دمشق، رأيت بيوتاً حديثة كثيرة، لبعض كبار القوم وأغنيائهم،
بيوتاً لا تنتمي إلى حياتنا في دمشق، كأنها اجْتُثّت من عالم آخر،
لا البيوت تُشبه بيوت النّاس المُستورة في دمشق، ولا ناسُها
يُشبهون النّاس المُستورة فيها. رأيتُ في دمشق السبعينيات دُوراً
فارِهة، ونوافذ وستائر تعمل بالكهرباء وبالتّحكّم عن بُعد، رأيتُ
حمّامات، كأنها صالات استِقبال وتشريفات! ورأيت مطابخ،
تفوق في هندستها وفخامتها، مطبخ الأميركان في أفلامهم
الهوليووديّة، لكنني لم أر مثل هذا البيت من قبل.

رأيت أقواماً يتقلّبون في النّعم، وكأنهم لا يسكنون على بُعد
أمتارٍ فقط من أقوامٍ يعيشون كفّافاً، وآخرين يَمَرِّقون حاجةً وفقراً..

كان عَقْدُ السبعينيات في دمشق، عَقْدُ المَفارقاتِ والإِنفجاراتِ
الإِجتماعيّة، والصُّعود الإِقتصاديّ، وإِنتِهاز الفُرصِ النّادرة.

سألتُ ليلي غادة: مالِكُ لم لا تُشاركيننا.. تعالي اِرْقُصِي معنا.

- والله أنا لا أَجيد الرّقص، ولا أَحِبّه أمامَ الجُمهور!

- كم أنت مُضَحِكَة يا غادة، أيُّ جُمهورٍ هذا، نحن نَقْضي منذ
سنتين أيا منا معًا في الجامعة، تعرفيننا ونعرفك.. عن أيِّ جُمهور
تَتحدّثين.

إِنْتَهَرْتها غادة قائلة: لُطْفًا ليلي.. أنا أَتيتُ لأرى مَعَكُنَّ فيلم
«الرسالة».. وإذا وَجَدْتِ أن خيارِي في عَدَم الرّقص أمام الآخرين
مَضْحَك ومدعاة للسخريّة، فأنت وما ترين!

- وسَنَعْرِضُه فورًا.. طولي بالك... يا لطيف كم أنت جِدِيّة!

- ليس الموضوعُ موضوعَ جدٍّ أو هزلٍ.. ولكن يجب أن نعود
إلى بَيوتنا قبل أن تَتَأخّر السّاعة.

- لا مُشكّل حبيّتي أُرسلُكِ مع سائِقنا.

- لا داعي لذلك.. يُعجِبُنِي أن أَتَمَشِي، وأرجو أن نستطيع
رؤيّة الفيلم قبل أن يُؤدّن المغرب لِننصرف باكراً.

- لا عَلَيْكِ.. سَنُقَدِّم القَهوة ويبدأ العَرَض فورًا..

كان الوضع مُزعِجًا ومُريبًا، حتّى أنني نَدِمْتُ أن لَبِيت الدّعوة،
معظم البنات كُنَّ في نفس حالي، تتبادل نظراتِ الإِسْتِغراب
والتّخوّف، جالساتٍ في صَمْتٍ نَنْتَظِر أن يبدأ عَرَض الفيلم.

فجأة سألتُ رنا مُحاولَةً كَسْر جُمودِ الوقتِ الثّقيل:

- على فكرة من أين أَتَيْتُم بالفيلم إذا كان ممنوعًا؟

قالت غادة: مِن رِفْعَت!

قالت رنا في إستفهام: مَنْ رَفَعَتْ؟؟

قالت ليلي: «يُؤْبِر»⁽¹⁾ قلبي.. وَمَنْ غيرَه؟ سَيِّد الرجال
«الجتلمان» رَفَعَتْ أَخُو الرئيس!

كَأَنهَا رَمَتْ قُنْبلة وَسَطَ الجَمْع!!

صَمَتَتِ الضَّجَّةُ فِي الصَّالَةِ، وَجَمَ كُلٌّ مِنْ فِيهَا، كَانَ ذَلِكَ
الجواب كَفِيلاً بِإِتِّزَاعِ مَشَاعِرِ وَمَظَاهِرِ الْإِنْسَاءِ الْمُتَبَقِّيَةِ مِنْ وَجْهِ
الحاضرات.

مَرَّ فِي أَذْهَانِنَا، أَنَهَا يُمْكِنُ أَنْ تَقْصِدَ أَيَّ «رَفَعَتْ» عَلَى وَجْهِ
الأَرْضِ، إِلَّا هَذَا «الرَّفَعَتْ»!!

مَا كَانَ أَحَدٌ فِي دِمَشْقٍ يَلْفِظُ إِسْمَ رَفَعَتْ هَذَا، إِلَّا مُقْتَرِناً
بوصف الخنزير السَّفَاحِ! كَانَ مُجَرَّدَ التَّلْفُظِ فِي أَيِّ مَكَانٍ فِي
دِمَشْقٍ، بِإِسْمِ «رَفَعَتْ» هَذَا.. كَارِثَةٌ، فَكَيْفَ يُؤْبِر قَلْبُهَا؟؟!

قالت رنا فِي إِنْشِدَائِهِ وَإِسْتِنكَارٍ شَدِيدٍ: رَفَعَتْ الْأَسَدُ؟؟!

قالت ليلي: نَعَمْ! وَمَا بِكَ إِنْخَبَطْتَ هَكَذَا؟

تَدَخَّلْتُ وَسَأَلْتُ: رَفَعَتْ رَفَعَتْ؟؟.. صَاحِبِ سِرَايَا الدَّفَاعِ،
الْمُجْرِمِ، خَاطِفِ النِّسَاءِ؟

قالت: إِيَّاهُ.. صَلَّى عَلَى النَّبِيِّ، شَوْ مُجْرِمٍ مَا مُجْرِمٌ؟
يَسْلَمُ لِي عَلَى هَذِهِ الشُّبُوبِيَّةِ⁽²⁾ وَهَذِهِ الرَّجُولَةُ! وَلَكْ يَا رَيْتَ
يَخْطِفُنِي!.. لَعَلَّكَ تُصَدِّقَنَّ عَلَّكَ النَّاسُ؟؟

(1) كلمة من اللهجة الشامية الأنثوية الشعبية، أصلها «يقبر» أي إن صاحبتها
تمنى موتها قبل الحبيب أو العزيز، وأن يقوم بدفنها، وهي من التراث
الذي تستخدمه الأمهات والجَدات في صيغ التودد للأولاد، وَحُورَتْ مِنْ
«يقبر» إِلَى «يؤْبِر» تخفيفاً للفظ واحتفاظاً بِمعْنَى المودة.

(2) فِي معجم المعاني العربي - التركي: الشُّبُوبِ، وتطلق عَلَى الحصان، أَي
الذي يرفع يديه ويقوم عَلَى رجليه.

قالت رنا في غَضَبٍ شديد وَتَقَنُّفٍ: «رَفَعْتَ» يَسْلَمُكَ عَلَى
شُبوبِيته ورجولته؟ وَأَنْتِ بِنْتُ النَّاسِ الْكِرَامِ، تَتَمَنِينَ أَنْ يَخْطِفَكَ
وَحْشٌ قَذِرٌ مِثْلُهُ!!

قالت: لَيْتَ كُلِّ الرِّجَالِ مِثْلَ عَمُو رَفَعْتَ! شو صاير عليكِ
يا جماعة!

رَدَدَتْ رنا وهي تَتَهَيَّأُ لِلنَّهْوِضِ: عَمُو رَفَعْتَ!.. عَمُو...
رَفَعْتَ!

قامت رنا، وقُفْنَا معها ثلاثاً من البنات، تَوَجَّهْنَا نحو الباب
نَتَحَضَّرُ لِلْمَغَادِرَةِ، لَحِقَتْ بنا ليلي مُسْتَعِظَةً: قُلْنَا صَلُّوا عَلَى
النَّبِيِّ، مَا بِكُنَّ، لَا تُنَكِّدُنَّ عَلَيْنَا جَمْعَتَنَا هَذِهِ، أَذَّنَ الْمَغْرِبَ، سَنُصَلِّي
جَمَاعَةً، وَنَفْرَجُ عَلَى الْفِيلِمِ، وَسَتَذْهَبُ مَامَا مَعَكَ فِي السَّيَارَةِ
لِيُوصِلَكُنَّ السَّائِقُ إِلَى بِيوتِكُنَّ.

قالت لها رنا وهي تَتَنَفَّضُ قَهْرًا مِنْ رَأْسِهَا إِلَى أَخْمَصِ
قَدَمَيْهَا: أَبِي وَأَخِي فِي سُجُونٍ «أُسُودِك» هَؤُلَاءِ، لَا نَعْرِفُ عَنْهُمَا
شَيْئًا مِنْذِ ثَلَاثَةِ أَعْوَامٍ، وَأَنْتِ تَقُولِينَ «يُؤْبِرُ قَلْبِكَ»؟

إِنِّ بَرْتُ غَادَةً: لَا يَا حَبِيبَتِي، لَا أَسْتَطِيعُ الْإِنْتِظَارَ، قُلْتُ لَكَ، إِذَا
أَذَّنَ الْمَغْرِبَ لَا أَسْتَطِيعُ التَّأَخُّرَ عَنِ الْمَنْزِلِ.. إِسْتَأْذَنْتُ أُمِّي حَتَّى
صَلَاةِ الْمَغْرِبِ فَقَطْ، وَالْآنَ سَأَتَأَخَّرُ عَنِ الْمَوْعِدِ نِصْفَ سَاعَةٍ.

قالت ليلي مُسْتَجِدَّةً: يَا جَمَاعَةٌ أَنَا لَمْ أَقْصِدِ الْإِسَاءَةَ، أَبِي
وَعَمُو رَفَعْتَ أَصْحَابَ، وَنَحْنُ لَمْ نَرِ مِنْهُ إِلَّا الْخَيْرَ، وَلَا أَظُنُّ أَنَّ
لِعَمُو رَفَعْتَ عِلَاقَةً بِسُجْنٍ وَالِدِكَ، أَرْجُو كُنْ.. رنا أَرْجُو كُنْ...

لَمْ تَبْسُ رنا بِنْتِ شَفَةِ، تَوَجَّهْتُ نَحْوَ الْبَابِ، وَنَحْنُ مِنْ
وَرَائِهَا، التَّقَتُّ إِحْدَى الْبَنَاتِ إِلَيْهَا، وَقَالَتْ:

وَتَسْتَعْمَلُ فِي اللَّهْجَةِ الشَّامِيَةِ بِمَعْنَى الشَّبَابِ وَالنِّصَارَةِ.

- نراك في الجامعة.

تَدَلَّلْتُ ليلي علينا في سَماجَة مُقْرِفَة وقالت مُوجَّهَة الكلام
لغادة: لا تكوني حَبْلِيَّة، وتَقْلِبِين لَنَا الجِلسَة نَكْدًا.. وتَحْمِلِين
السَّلَم بِالْعَرَض!

رَدَّتْ غَاذَة مُتَعَجِّبَة مُتَسَائِلَة: حَبْلِيَّة؟ والد رنا والآلاف مثله،
في السُّجُون، لا أَحَد يَعْرِف عَنْهُمْ شَيْئًا، الْمَسْأَلَة فِيهَا دَم.. دَم يَا
لِيلِي.. دُمْنَا.

كَرَّرَتْ وَكَأَنَّهَا لَمْ تَسْمَعْ شَيْئًا: إِرْجِعُوا اللَّه يُكْرِمَكُم، لَا أُرِيدُ
أَنْ أُخَرَّبَ الْجَمْعَة، لَقَدْ قَضَيْتُ أَيَّامًا أُعِدَّ لِهَذِهِ الْجِلْسَة.. إِرْجِعُوا
أَنَا لَسْتُ مِنَ الْمُخَابِرَاتِ وَلَا أَهْلِي، وَأَنْتَن تَعْرِفَن ذَلِكَ.. كُلِّ مَا فِي
الْأَمْرِ أَنْنِي قَلْتُ رَأْيِي، وَأَسْفَة إِنْ أَزْعَجَكُنَّ، لِمَاذَا تُمَارِسْن عَلَيَّ هَذَا
الْقَمْع؟!!!

نَظَرْتُ إِلَيْهَا نَظْرَةً جَوْفَاء، وَأَنَا أَضْغَطُ زَرَّ الْمِصْعَد، وَلَمْ أَنْبَسْ
بِبَنْتِ شَفَة، وَامْتَقَعَ لَوْنُ صَاحِبَاتِي.. وَدَعَّاهَا مِنْ جَدِيدٍ، وَوَجَّوْهُنَا
كَأَنَّمَا قُدَّتْ مِنْ جَمْرٍ.

عِنْدَمَا انْفَتَحَ بَابُ الْمِصْعَد، وَلَجْنَا، بَقِينَا هُنَالِكَ صَامِتَاتِ
مُطَرِّقَاتِ الرُّؤُوسِ، نَجْوُلُ بِأَعْيُنِنَا فِي أَرْضِ الْمِصْعَد، كَأَنَّمَا قَدْ
سَقَطَ مِنَّا قُرْطٌ نَبِثَ عَنْهُ..

إِفْتَرَقْنَا لَدَى مَوْقِفِ الْبَاصِ، لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ مِنْ شَيْءٍ يُقَالُ، غَيْرِ
إِلْقَاءِ التَّحِيَّةِ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، أَرَاكُنَّ غَدًا فِي الْجَامِعَة.

لَمْ تَنْمِ أَيُّ مِنَّا فِي بَيْتِهَا تِلْكَ اللَّيْلَة، وَلَا مَا بَعْدَهَا مِنْ لَيْلٍ،
خَوْفُ الْإِعْتِقَالِ وَالتَّعْذِيبِ، كَانَ مَا قُمْنَا بِهِ عَمَلِيَّةً إِنْتِحَارِيَّةً.

أَلْتَقِطُ إِذَاعَة لُنَدَنَ بِصُعُوبَة بِالْغَة، فِي شُرْفَة بَيْتِي الَّتِي تُطَلُّ
عَلَى الْبَاغُودَا، فِي الطَّابَقِ الْعَاشِرِ، أَجْلِسُ هُنَالِكَ كُلَّمَا اسْتَطَعْتُ،

أشربُ قهوة، أقرأ وردي وتساويحي اليومية، أتسلى برؤية الناس
يكتظون عند مداخل «الباغوادا».. لا يملّون إرتياد الأسواق،
ليس لشراء حاجياتهم فحسب، بل لتمضية الوقت مع الأصدقاء،
والتسلية بمختلف الملاهي، التي إشتمل عليها هذا المُجمع..
يرتادُ الناس المجمعات التجارية الضخمة، ليشعروا أنهم يتّمنون
إلى المُجمّعات التي يعيشون فيها، وأنهم قادرون على التّواصل
مع البشر بالكلام، بالمشي، بالجلوس في المقاهي، بالنظرات
المتبادلة، نظراتُ حقْدٍ، تحرُّشٍ، كراهية، مودة، تواطؤ، تساؤل،
إستيفهام، تشارُك، تفاهُم، إستغراب، إستهجان، تأنيب، إعجاب.

يرتاد الناس المجمعات التجارية، ليشعروا بأنهم مازالوا في
هذه الحياة.. أحياء.

أبحثُ عن إذاعة لندن، تأتيني الإشارة بصعوبة شديدة، فهي
موجهة إلى الشرق الأوسط، وأنا الآن في مدريد، كنت أبحثُ عن
خبر، عن تحليل، عن أيّ شيء يُنبئ بقيام الشعب بإنتهاز الفرصة..
ولكن لا شيء.. لا شيء، سوى السكوت، والصمت، وتمشية
الحال.

قلتُ لرجاء السورّيّة جارتني في حيّ البيّار - أمّ البتّين اللّتين
كانتا في مدرسة الراهبات - ونحن نأخذُ أولادنا الصغار صباحاً
إلى المدرسة:

- ماتَ إذن «باسل الأسد»، وإرتاح الشعب من نصفِ «الإله»
هذا، الذي كان يُعدُّ للعبادة.

توقفتُ رجاء عن المشي، أُصيبت بما يُشبه الهلّع، وصارت
تتلفّت يمينه ويسرة، شفّتها السفلى ترتجف وهي تردّد: أعوذ بالله،
مالئنا وللناس، ما علاقتنا نحنُ بمن مات ومن عاش.. أنا لا علاقة
لي إطلاقاً بهكذا موضوعات، ولا أريد أن أسمع!

قلت: سبحان الله.. نحن في مدريد، وأعرفك وتعرفيني، مم أنت خائفة؟؟

فُوجئتُ بها تَنْفَجِرُ في وجهي قائلةً: أنا لا أعرفُ أحدًا، أنا لا أعرفُك.. جارتِي في الحارة؟ وماذا يعني هذا؟ زوجك طبيب وشيخ في الجمعية؟ تَشَرَّفْنَا، وما يُدرينا من أنتم؟ وماذا تريدون منا؟ لماذا تُحدثيني عن هذه الأخبار؟ الله أعلم بِكُمْ وبِنِيَّتِكُمْ!!!

تركتني مشدوهة، وهي تَنْصَرِفُ، وفي أشدِّ حالات الغضب تَمَتَّت: السلام عليكم.. يجب أن أسرع بالعودة، لقد تركتُ الطبخة على النار.. -

قلت لأبي ساجدة: هنا قريبًا في إسبانيا، وفي مُتَجَع ماريّا السَّاحِلِيّ، يُقيم المجرم «رَفَعَت»، في قَصْرِهِ الْمُحَصَّن وَحُرَّاسِهِ، مُتَحَكِّمًا بجزء من سياسة سوريا الدَّاخِلِيَّة والخارجِيَّة، يُدير من هنا وعن بُعد أوضاعِ وأحوالِ وحاضرٍ ومُستقبلِ الأقلِّيَّة الدينيَّة التي ينتمي إليها، كونها «الطائفة الكريمة الحاكمة»!! مُتَقَلِّبًا مُتَنَعِّمًا بأموال السوريين المنهوبة، تاركًا لنا ذكريات الدَّم والألم لنختنق في لُجَجِّها ما بقي لنا من حياة.. ونحن لا نملك أن نصنع شيئًا؟؟!

قال: وماذا نستطيع أن نفعل؟؟ أن نرفع ضده قضية كونه «مجرم حرب إبادة»، في مدينة إسمها حماة مثلاً؟! مَنْ الجهة التي سترفع القضية؟ وأين هُم الشهود؟ الذين يرضون بتقديم شهاداتهم اليوم، على ما حدث في حماة ولَمَّا تمضي خمسة عشر عامًا على المجزرة، التي لا يعلم ولا يعترف بها أحد إلا أهلها؟ ومن أين سنأتي بالمحامين؟ والأموال اللازمة لهكذا خطوة.. هذه خطوة يجب أن تقوم بها منظمات حقوقية، ونحن ليس لدينا مثل هذه

المنظمات، ولا من يستطيع تأسيس إحداها، الجالية هنا فقيرة في الإمكانات والكوادر.. ربما في ألمانيا أو فرنسا أو إنكلترا.

قلت: قُتِل من أهل حماة، ثلاثون ألف نسمة، بإمرة هذا الغول.. ونحن وبعد مُضي هذه السنين، لانملك الأدلة القانونية اللازمة، لانملك الإرادة، لانملك المعرفة، لانملك الاختصاص، لانملك القدرة على أن نحرك ضد الرجل شيئاً؟؟!

قال في مرارة: بل هو في إسبانيا ضيفٌ مُدَلَّل، قابع هناك في ماريبا السياحية.. إنها تفاهات السياسيين في البلدين!

استأنفتُ: عقلي لا يحتمل مثل هذه المعادلة! أليست إسبانيا بلداً ديمقراطياً؟ كيف لهم أن يتحالفوا مع ديكتاتورية إجرامية، كالتي تحكم في سوريا؟؟

قال: حكومات الغرب شريكة، في مدّ شبكة الديكتاتوريات وتثبيتها في سائر بلاد العالم، وليس في بلادنا فقط! أو تظنين أنهم قتلوا من قتلوهم في سوريا قبل عقد من الزمان، دون علم «العالم» وتغاضيه؟؟! مُتجعات إسبانيا وفرنسا ومناطقهما السياحية تعجُّ بمثل هذا السفّاح، أنجز المِهْمَة بذبح شعبه خدمة للمستعمرين، وجاء يقضي حياته «هانئاً» بعيداً عن مخاضات الدماء!!
أو أن هذا ما يظنه السفّاحون!!

ثم أردف: لا بدّ أنه يقوم هنا بمِهْمَاتٍ أشدّ فظاعة من تلك التي قام بها في سوريا، فالتعاون مع أجهزة المخابرات الدوليّة الإستعماريّة، للإحاطة بالأبرياء من المهاجرين إلى هذه البلاد، والتلاعب بمصائرهم وحياتهم وصورتهم لدى الرأي العام، أشدّ فتكاً بالبشر وحرّياتهم ووجودهم، من الذبح والتّنكيل الذي عانوه في بلادهم.

بأيّ منطِقٍ سياسي أو أخلاقيّ أو إنسانيّ، تستقبل إسبانيا - وفرنسا وبريطانيا - مُجرّم حربٍ كهذا؟ في حين أن أنس، وطريف،

وعبد القادر، وحسان، ومحمد، وغطفان، ووجيه، وأحمد، ونبيل، ومصعب.. - من أبناء جيراننا وأقاربنا وأصدقائنا... كُلُّهم ما زالوا يقبعون في سُجون «البعث»، لا أحد يعرف عنهم شيئاً، ولا يجروُ أحدٌ أن يسأل عنهم، أو أن يحاول معرفة أي شيء يخصهم.. هذا «البعث» الذي تبين لاحقاً أنه بعثٌ خاصٌّ بالأسد في سوريا، انطوى على تركيع بقية أبناء الشعب السوري، وقمعهم، وإذلالهم.

إنه «البعث» الذي كتب عنه رفعت الأسد نفسه مرةً يقول - نقلاً عن شاعر الحزب -: «آمنت بالبعث ربّاً لا شريك له، وبالعروبة ديناً ماله ثانٍ»!

يُشعِرني بالغَثَيان ونَزَع الموت، مجرد التفكير في أنني أسكن البلد نفسه الذي يسكُنُه، حتى لو كانت تفصل بيننا المسافات الشاسعة.. عاجزون عن فعل أي شيء لتقديمه إلى القضاء، لعله ينال بعض العقاب - في هذه الدنيا قبل الآخرة، عاجزون عن مجرد رفع قضية ضدّ هذا المجرم القاتل، الذي حصد في ثلاثة أيام أرواح عشرات الآلاف، وقام جنوده سائر الأيام اللاحقة بتعذيب وتشويه وإغتصاب وإذلال عشرات الآلاف كذلك، في تلك المدينة السورية الشهيدة التي تُسمى «حماة»!

كان «العالم» قد منح هؤلاء الوحوش، الضوء الأخضر ليفعلوا في حماة ما فعلوه في تلك الأيام من ربيع عام 1982.

لقد منحهم الإذن بالقضاء المُبرم - وكيفما اتفق - على تلك الانتفاضة، التي حاولت فيها فئات من السوريين فعل «شيء» من أجل التحرر والخلاص.

ـ هذا «الأخر» ـ.

● «راديو 5 كُله أخبار»، ما يفتأ منذ الصباح، يتحدّث حول إعلان الأمم المتحدة أن عامنا هذا⁽¹⁾ هو.. عام «التسامح والقبول بالآخر».

«راديو 5 كُله أخبار» هذا، ليس مجرد قناة إعلامية عادية، كان مؤسسة إعلامية، تربوية، ثقافية، فكرية، تعليمية، مذهلة، أنشأه الاشتراكيون لتأدية هذه الوظيفة بالذات، على هامش الإصطفافات السياسية، في إسبانيا المُشَقَّة على نفسها أبداً ما بين اليمين واليسار، لكنه كإنشقاقٍ نصفيّ القلب، لا يؤثر في وظيفته، بل يساعده على أدائها المُتكامِل - في الوقت الحالي على الأقل -!

كانت هذه القناة الإذاعية، تُقدِّم نشرات إخبارية على رأس الساعة، وموجزًا للأخبار كلّ نصف ساعة، ونشرات إخبارية محلية، عن كلّ مقاطعة، ومدينة، وقرية في إسبانيا، وكانت ما بين هذا وذاك، تقدم برامج متنوّعة، مُدة كلّ منها خمس دقائق أو أقل، كبرنامج «شؤون لغوية إسبانية»، الذي لا يتجاوز الدقيقتين يومياً، لتصويب وتقويم التحدّث باللّغة الإسبانية السليمة، وعرض الإضافات والاستعمالات اللّغوية الجديدة، على المستمعين لإثراء لغتهم.

كما كانت هذه القناة تُقدِّم مُقابلاتٍ مع صَفوة النخب، الثقافيّة، والفنيّة، والسياسيّة، والعلميّة.. واستعراضاً يومياً للصحافة، والكتب المطبوعة في إسبانيا، وأوروبا، والولايات

(1) عام 1995.

المتحدة، وأمريكا اللاتينية، والمحاضرات العلمية، والمهرجانات الثقافية.

مُهمٌّ وضروريٌّ ورائع كان «راديو 5».. كان كنزاً ثقافياً بالنسبة لأيِّ إنسان يَسْتَعْمَل سيارته في مدريد لأكثر من أربع ساعات يومياً، وهو يأخذ أولاده من وإلى المدرسة، ويوصلهم إلى المركز الرياضي، ثم يذهب لشراء حاجياته من السوق، ليعود فيعيد الكرة، مرة بعد مرة، كلَّ يوم.

كانت هذه القناة الإخبارية التَّثْقِيفِيَّة، هَدِيَّةً إِسْتِثْنَائِيَّة، جامعَة صوتية متنوعة المعارف، ترتادها الأُذن، فيتعلَّم المرء ويتربى ويَرْتَقِي.

ربما كان السبب الرئيسي، لقيام الأمم المتحدة بإعلانِ هذا العام، عامَ «التَّسامح والقبول بالآخر»، أن البغضاء والكراهية ورفض «الآخر»، بدأت تَتَمَدَّد من جديد في جسد أورُبا، مثل سَرطانٍ واضح الأعراض والمُلابسات، قامَ من سُباتِهِ القديم، يَسْتَشِيط تَخْرِيْباً.

لم يعد الأمر مُقْتَصِراً على اِمْتِهَانِ العَجَر والسُّود والعرب فَحَسَب، والتَّعالي عليهم، بل لقد تجاوزهم إلى كُلِّ المُهاجرين وكُلِّ الأعراب، الذين بدؤوا يتدفقون على أوربا من كل حذب وصوب، فراراً من بؤسِهِم وأنْسِدَاد أَفُقِ الحِياة في وُجُوهِهِم، ومن الحروب التي تتسبب بها وتُديرها أوربا في بلادِهِم.

قَلَّةٌ قليلةٌ جِدًّا مِنَ النُّخَبِ الأوربية، كانت تَعْتَرِفُ بخطورة الوضع، الذي بدأ يُثِيرُ التَّساوُلَات والمخاوف، وَسَطَ تَدَفُّقِ المُهاجرين على أورُبا، من العراق، والبوسنة، وكرواتيا، وأفغانستان، والشيشان، وجميع الدول الإفریقیَّة التي تشهد النزاعات والحروب هَرَباً من المجازر والأهوال، ومن المغرب،

وأمریکا اللاتينية، فرارًا من الفقر المُدقع، والفساد على كل صعيد،
واغتنامًا للهبة الاقتصادية الكبيرة التي شهدتها أوروبا.

فبينما كانت بلدان كثيرة في هذا العالم، تشهد تراجعًا،
وتفكُّكًا، ونفْسُخًا وانْهياراتٍ تَسْحَقُ في دَوْرانٍ عَجَلَتْهَا الشُّعوبُ
والإنسان وحُقوقُهُما، بدأت إسبانيا تُصِبحُ قِبْلَةَ المُهاجرين، وهي
تَشْهَدُ تَحولاتٍ كبيرةٍ مُتسارعة.. نحو الأمام وربما نحو الهاوية،
فمن يدري.

بعد عَشْرَةِ أعوامٍ على التَحاقِها بالمنظومة الإِتحادية الأوربيَّة،
لم تعد شواطئ إسبانيا، مَقْصِدَ الأثرياء والأَمْراءِ وكِبارِ السُّراقِ،
وَتُجَّارِ المخدرات والأسلحة مِنَ الرُّوسِ ومن عِصابات الشيشان
البوتينية، وَمَنْ لَفَّ لَفَّهُمُ من مُجرمي الحروب ومَجازِرِ الإبادة
والإِسْتِصالِ في مُختَلَفِ أنحاء العالم.

كانوا يقصدون مُنتَجعاتِ إسبانيا الساحلية الشهيرة عالميًّا،
ليَقْبَعُوا هناك، بعيدًا عن مُتناول أيدي الشُّعوب والعدالة، يُبْضَوْنَ
الأموال التي نهَبوها في بلادهم أو تَحَصَّلُوا عليها في ملاهي
السَّيَاحَةِ والدَّعارة الأوربيَّة..

تَحَوَّلَتِ الشَّواطئ الإِسبانيَّة من مَأوَى لأكابر المجرمين،
لِتُصْبِحَ وَجْهَةً لِمُقْتَحِمِي لُجَجِ الأَبْيَضِ المتوسط، يَرْمُونَ بأنْفُسِهِم
فيه يَنْشُدُونَ الخلاص أو الموت.

تغيّرات هائلة يشهدها العالم.. فبينما كان الإِتحاد السوفيتي
ينهار وَيَتَفَكَّكُ وَيَتَشَطَّى، وَتَشْتَعلُ الحرائق السياسيَّة والعسكريَّة
في كُلِّ رُكنٍ من أركانها المتهاوية، تَنَشَّبَ الحرب الأهلية ومجازر
التَطْهير العنصريّ الشنيعة الفظيعة في رواندا، في حين بدأت دول
العالم تَسْتَأْنِفُ واحدة إثر أخرى إِعترافها بالكيان الإسرائيلي!

مَنْ كَانَ يَتَحَيَّلُ أَنَّ الْفَاتِيكَانَ الْكَاثُولِيكِيِّ⁽¹⁾، أَوْ الصِّينَ الشَّيْوَعِيَّةَ،
تَعْتَرِفَانِ بِهَذَا الْكِيَانِ الْإِرْهَابِيِّ الْمَغْتَصَبِ لِأَرْضِ شَعْبٍ وَتَارِيخِهِ
وَحَاضِرِهِ وَمُسْتَقْبَلِهِ؟؟

بَدَأَتْ كَفَّةُ الْمِيزَانِ، تَمِيلُ بِشَكْلِ كَبِيرٍ جَدًّا لِمَصْلَحَةِ الْغَرْبِ،
مُعلنَةً بَدْءَ الْعَهْدِ الْأَمْرِيكِيِّ الْعَالَمِيِّ، وَفِي ظِلِّهِ كَانَ الْإِتِّحَادُ
الْأُورُوبِيُّ يَتَمَدَّدُ وَيُرْسَخُ أَرْكَانُهُ، يَحْفِرُ الْأَنْفَاقَ تَحْتَ الْبِحَارِ، يَعْقِدُ
الْإِتِّفَاقِيَّاتِ فَوْقَ مَنَاصِدِ الْمَصَالِحِ الْمُشْتَرَكَةِ، لِيَصِلَ مَا بَيْنَ أَجْزَائِهِ،
الَّتِي كَانَتْ حَتَّى الْأَمْسِ الْقَرِيبِ جَدًّا، أُمَمًا مُتَنَافِرَةً مُتَحَارِبَةً،
أَزْهَقَتْ أَرْوَاحَ أَكْثَرِ مِنْ أَرْبَعِينَ مِليُونِ إِنْسَانٍ مِنْ مَوَاطِنِهَا⁽²⁾،
فِي آخِرِ حَرْبٍ قَامَتْ فِيمَا بَيْنَهَا قَبْلَ خَمْسِينَ عَامًا فَقَطْ! لِيَقْتَسِمَ
الْمُنْتَصِرُونَ مَنَاطِقَ الْعَالَمِ، وَيَفْرَضُونَ نَفوذَهُمْ فِيهَا، يَسْلُبُونَ
ثُرَوَاتِهَا، وَيَحَاصِرُونَهَا بِالْإِسْتِعْمَارِ الثَّقَافِيِّ وَالْإِقْتِصَادِيِّ.

الْأَحْدَاثُ تَتَلَاخَقُ بِسُرْعَةٍ تَسْبِقُ قُدْرَةَ الْكَلِمَاتِ عَلَى تَسْجِيلِهَا!

(1) أَفَادَتْ صَحِيفَةُ «الْحَيَاةِ» الصَّادِرَةُ فِي لَنْدَنِ يَوْمَ 10.6.2012، بِأَنَّ دَوْلَةَ
الْفَاتِيكَانَ تَجَنَّبَتْ لِتَوْقِيعِ اتِّفَاقِيَّةٍ إِقْتِصَادِيَّةٍ مَعَ إِسْرَائِيلَ تَنْطَوِي مِنْ بَيْنِ أُمُورٍ
أُخْرَى عَلَى الْإِعْتِرَافِ بِالْوَضْعِ الْقَانُونِيِّ الَّتِي فَرَضَتْهُ إِسْرَائِيلُ عَلَى الْقُدْسِ.
وَنَقَلَتْ الصَّحِيفَةُ أَنَّ «الْإِتِّفَاقَ» يَتَضَمَّنُ اعْتِرَافًا بِالْوَضْعِ الْقَانُونِيِّ غَيْرِ
الشَّرْعِيِّ الَّذِي فَرَضَتْهُ إِسْرَائِيلُ، كَقُوَّةِ إِحْتِلَالٍ حَرْبِيٍّ غَدَاةِ إِحْتِلَالِهَا مَدِينَةَ
الْقُدْسِ فِي الْخَامِسِ مِنْ يُونِيُو عَامَ 1967، عَلَى الْمَنَاطِقِ وَالْكَنَائِسِ
الْمَسِيحِيَّةِ النَّابِعَةِ لِلْفَاتِيكَانِ».

وَجَاءَ فِي مَوْقِعِ الْجَزِيرَةِ نَتَ بْتَارِيخِ 3.1.2016 أَنَّ دَوْلَةَ الْفَاتِيكَانِ أَعْلَنْتْ
فِي بَيَانٍ رَسْمِيٍّ: اعْتِرَافَهَا الرَّسْمِيِّ بِدَوْلَةِ فَلسْطِينِ كَدَوْلَةٍ مُسْتَقْلِلَةٍ، تَطْبِيقًا
لِاتِّفَاقِيْنِ بَيْنَ الْجَانِبَيْنِ وَقَّعَ أَوَّلُهُمَا عَامَ 2000 وَالثَّانِي فِي 26 يُونِيُو/
حَزِيرَانَ الْمَاضِي.

(2) يَقْدَرُ بَعْضُ الْبَاحِثِينَ عَدَدَ الْقَتْلَى فِي الْحَرْبِ الْعَالَمِيَّةِ الثَّانِيَةِ بِ100 مِليُونِ
شَخْصٍ، بَيْنَهُمْ مَدَنِيُونَ وَجُنُودٌ. رَغْمَ أَنَّهُ لَا تَوْجَدُ أَرْقَامٌ رَسْمِيَّةٌ وَاضِحَةٌ/
الْخَسَائِرَ الْمَدْنِيَّةَ وَالْعَسْكَرِيَّةَ لَضَحَايَا الْحَرْبِ الْعَالَمِيَّةِ الثَّانِيَةِ/ نَاشِيُونَالِ
جِيُغْرَافِيك - النِّسْخَةُ الْإِسْبَانِيَّةُ - / 27.1.2023.

إننا نشهد ونعيش ولادة عهد عالمي جديد، كل ما فيه ومن فيه، يريد أن يتأمرَك! كل ما فيه ومن فيه.. إلا من رَحِمَ ربي!

وبينما يحفل العالم بإحياء ذكرى الملايين من ضحايا الحرب العالميّة الثّانية، بدأت أوربا أولى خطوها لاستعادة سيرتها العنصرية القديمة تجاه «الآخر»! أوربا البيضاء الموحّدة المُحتاجة إلى عدوٍّ مُشترك، بوجوده تحتفظ أوربا بتراصّ صفوفها، عدوّ يصرفها البتة عن نزاعاتها البينية، التي تواضع القوم على حلّها فقط بالحوار والسياسة والتّفاوض.

إننا نعيش عصر هيمنة، ثقافيّة، غربيّة، إستثنائيّ بامتياز، يؤذن في الحين عينه، بصورة غير مباشرة، لعودة «الإستعمار» المباشر، إلى مُستعمراته القديمة، بعد أن فشل من «أنابتهُم» عنها، في إدارة مصالِحهم فيها، وحلّ مُشكلاتها، التي أصبحت تُسبب «للّسادة المُستعمرين» القلق والمخاوف والهجرة!

لا تعني القوّة المُتجبّرة — دائماً.. — الإزدهار والرّفاهيّة والنمو - والتّمدّن في أرض أصحابها، فحسب.. لكنها وعندما تفتقر إلى البعد الأخلاقيّ والمرجعية الإنسانيّة، تصبح مع الوقت، مُرادفة للإستعلاء، والإستحواذ، والهيمنة، والطّغيان، والغزو، والعدوان على الآخرين.

هكذا كانت الأمور على مرّ التاريخ، وما زالت.

لم تمرّ حرب البوسنة والهرسك، مرور «الكِرام» على أوربا.. أرادت لها «أوربا السياسيّة»، أن تكون آخر الحروب «الحقيقيّة»، ما بين «حق» و«باطل»! كانت آخر الحروب، التي يمكن للمواطن الأوروبي، أن يعرف ما يجري فيها على وجه التّحقيق، ليصطَف مع المَظلومين والمنكوبين والمُغتَصَبَة حقوقهم!

انتقل الإعلام الغربيّ، في صمّت ودون كثير ضجة إعلامية، إلى مرحلة «الحروب الغامضة»، «البعيدة»، «التي لا تهُمّنا»،

و«التي لا يعرف عامّة النَّاس مَنْ فيها العَدُوّ، وَمَنْ الصَّدِيق»،
وتلك الحروب «التي تدور حول كلمة الإرهاب»! والتي لا يُفْهَم
المواطن الأوروبيّ العاديّ فيها، على وَجْهِ الدَّقَّة، مَنْ يَقِف فيها مَعَ
مَنْ، وَمَنْ يُحَارِب مَنْ، وما دَوْرُ بَلَدِهِ فيها، وما الهدف منها⁽¹⁾!

يَسألُنِي أحد مُديري البرامج الحواريّة، في قناتِهِ المحليّة
الصَّغيرة جدًّا، والتي كانت تُوجَّه بَثُّها في هاتيك الأيام، إلى حيٍّ
واحدٍ في مدريد، استضافني فيها بعد أن ساقته الصُّدفَة، لِلإِسْتِمَاع
إلى إحدى الجلسات الجامعيّة، التي كان يَدْعُونِي إليها بعض
الطلبة المسلمين، في جامعات مدريد، يسألُنِي وهو يُعَبِّر عن أعلى
درجات الدَّهْشَة بعد حديثه معي عن المرأة المسلمة، وعن أوضاع
المُهاجرين، وعن الإسلام:

- هل أنتِ مُتأكِّدة تمامًا، من أنَّ ما تقولينه لنا، في هذا
البرنامج صحيحٌ ودقيقٌ؟؟

- المشكلة ليست فيما أقول، المشكلة في دَرَجَة جَهْلنا
المُتبادِل بعضنا ببعض، نحن لدينا تصوّرات مُسبَّقة خاطئة تمامًا
عنكم، وأنتم لديكم صُور وتَصوِّرات سابقة، ليست مُخطئة
فحسب، بل إنها مدروسة، ومقصودة، وتتكّرس يومًا بعد يوم في
وسائل الإعلام.

- أَصْدُقُكَ القول يا سَيِّدَتِي، إنها المرّة الأولى في حياتي،
التي أَلْتَقِي فيها سيدة مُسلمة مثلك!

(1) كان هاذا مطلع القرن الواحد والعشرين، أما بعد ذلك فقد أصبح الأمر
يتلخص في كلمة واحدة: الإسلام!

قلتُ ضاحكة: وأنا أوكدُ لك يا سيّد، أنها ربما المرّة الأولى،
التي تحاورُ فيها امرأة مسلمة!

- هذا صحيح.. لقد أحدث ما تقولينه شرخاً في دماغي، إنني
أعترف أنني أعاني الآن، من «كراك - طقطقة» في رأسي، تنسف
كلّ ما كان فيه من معلومات عن الإسلام والمسلمين!

- هناك وسائل إعلام، ومؤسسات صحفية وثقافية في
إسبانيا، ولن أتحدث عن كلّ دول أوربا، مهمتها الأساسية
تشويه الحقيقة، ولن أقول تشويه الإسلام والمسلمين فقط!
نحن شعوبٌ لديها مشكلاتها وأمراضها، ما زلنا نعيش تحت
الهيمنة الاستعمارية، حتى لو ظننا وظنت الشعوب التي يستعمرنا
حكائماً، غير ذلك.. لكننا لسنا بالصورة شديدة القبح التي ترسمها
وسائل الإعلام هذه.. هناك من يريد تأجيج الصراعات بيننا، ورفع
أسوار الجهل والكراهية.

- أعذرني فيما سأقوله لك يا سيدتي، فهو قاسٍ وصعب،
ولكنني مضطرٌ لقوله:

إما أننا لا نفهم ولا نعرف شيئاً عن الإسلام والمسلمين، ولا
عن كلّ ما يجري من حولنا.. وإما أنك لا تقولين الحقيقة!

بعد عصرِ الانفتاح الثقافي الهائل في مطلع الثمانينات،
وبدء نوع من أنواع التعايش الصعب، بين المواطنين الأوربيين
والمهاجرين، بدأنا نشهد في عقد التسعينات هذا مرحلة إعلامية
جديدة، عوّمت فيها الأخبار حول الصراعات القادمة، تجري فيها
غربة كلّ ما يعلّق بالحقّ والباطل، أصبحت الأخبار تُقدّم مُموّهة،
إنتهى عصر الإعلام الحرّ المفتوح.. وبدأ عصر الاستقطاب⁽¹⁾

(1) في المعجم الوسيط: الاستقطابُ : حالة وجود قطبين متضادين كما في

الإعلاميَّ الشديد.. كلُّ شيء مباح في هذا السِّياق، الكَذِب، الغِش، الاتِّهامات الباطلة، تحوير الأخبار، وأحياناً إختراعها وتجييرها لتأجيج الخوف والكراهية ورفض هذا «الآخر العدو». الثابت الوحيد في هذه المعركة الإعلامية المُستحدثة، هو الحِفاظ على «المصلحة القوميَّة العليا»، وما عاد من المصلحة القوميَّة العليا لمن يحكمون أوربا، أن يُطلِعوا شعوبهم على حقائق الأمور، ولا على واقع ما يجري في العالم غير الأوربيِّ، وفي المنطقة العربيَّة منه على وجه التَّحديد.. إصطفاف الشعوب الأوربيَّة إلى جانب مُسلمي البوسنة، المظلومين والمذبوحين، بهذا الرِّخَم الإنسانيِّ العالي، لم يَرُقْ لأولئك الذين يُديرون السياسات الأوروبيَّة من وراء الكواليس! وإذن فكيف سيُجَيِّشون شعوبهم ضدَّ الشعوب التي يُريدون غزوها، وتدمير بلادها، ونهب ثرواتها، والتَّمكُّن من إرادتها؟! إرادتها؟!

المَسْأَلَةُ بالنسبة لأوربا مَسْأَلَةُ حياةٍ أو موت.. مَسْأَلَةُ وجود!

هكذا يَفْعَل الخوف من «الآخر».. يَدُك الحُصون من الدَّاخل، ويُدْمِرُها بأيدي أهلها أنفُسِهِم، مُتَتَهِّزاً تَخْبِطُهُمْ وهُلوسَاتِهِم، تحت سِيَّاط سُوء الظَّنِّ، وانتظار الكَوَارِث، وترقُبِ العدوان الذي يَهَيِّؤُ لهم أنه مُسْتَقْبَلٌ أَوْ دِيَّتُهُمْ!!

هكذا يَفْعَل الخوف من «الآخر»، هذا «الآخر».. الضَّعيف، المَهْزُوم، المُسْتَعْمَر، المُمَزَّقَةُ أرضُهُ، المُسَحَّوق بين أنياب الطُّغيان والتَّخَلُّف، والذي لا يَمْتَلِك قوَّةً عسكريَّة، ولا إقتصاديَّة، وليس لديه طائرات مُدْمِرة، ولا دبابات إلكترونيَّة، ولا صواريخ عابرة لِلزَّيْف والكَذِب، كُلُّ مَخْزُونِهِ مِنَ القُوَّة، قد صُرِفَ وفقط، لِحِمَايَةِ

المغناطيس (شمالي، وجنوبي)، والكهرباء (سالب وموجب).

الأنظمة المُستَبَدَّة المُجرِمة التي خَلَفَهَا المُستَعْمِرُونَ فِي كِرَاسِي
حُكْمِ بِلَادِهِ!

هذا «الآخر»، الوَاهِن، المُهَان، الذَّائِب، المَغْلُوبِ عَلَى
أَمْرِهِ، المُحَاصَر بِالْأَعْدَاءِ فِي الدَّاخلِ والخَارِجِ... - هذا «الآخر»،
المُخِيف، المُرْعِب، والذي يَتَّخِذُ القَائِمُونَ عَلَى السِّيَاسَاتِ الغَرِيبَةِ،
كُلَّ الوَسَائِلِ المُمَكِّنَةِ، لِإِبْقَائِهِ عَلَى حَالِهِ المُوَسَّفَةِ هَذِهِ، وَتَصْوِيرِهِ
عَلَى أَنَّهُ «البُعْبُع»... لِاسْتِدَامَةِ جَذْوَةِ الكِرَاهِيَةِ وَالرَّفْضِ وَالِإِحْتِقَارِ،
مُتَّقِدَةً حَيَّةً مُلْتَهَبَةً حَارِقَةً، بَيْنَهُ وَبَيْنَ شَعُوبِهَا!

«الآخر»، فِي الرُّبْعِ الْآخِرِ مِنَ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ، لَمْ يَكُنِ
الرُّوسِيّ الْإِسْتِعْمَارِيّ الْمُنَافِسَ، الصَّعْبَ، الصَّلْبَ، الْخَطِيرَ، وَلَا
الْأَلْمَانِيّ الْهَيْتَلَرِيّ، النَّازِيّ، الْمُوْغِلُ فِي الْإِنْسِلَاحِ مِنَ الْإِنْسَانِيَّةِ،
وَلَا الْعَجَرِيّ، الَّذِي تَوَدُّ أَوْرُبَا لَوْ كَانَ بِإِمَكَانِهَا تَطْهِيرَ أَرْضِهَا مِنْهُ،
إِذْ تُعْتَبَرُ تَمَسُّكُهُ بِهَوِيَّتِهِ، وَاسْتِحَالَةِ تَأْلِيفِ قَلْبِهِ وَدَمْجِهِ فِي الْمُجْتَمَعِ،
عَارًا لَا بُدَّ مِنَ التَّعَامُلِ مَعَهُ بِطَرِيقَةِ إِجْتِثَائِيَّةٍ.. لِيَبْقَى «هَنَّا» حَيْثُ
يُرِيدُونَ لَهُ أَنْ يَبْقَى - أَقْلِيَّةً -، مَحْصُورًا ضِمْنَ لَوْحَةٍ فُولْكلُورِيَّةٍ،
يَرْقُصُ وَيَتَنَطَّطُ شَخْصُهَا الْمَرْسُومِينَ بِالْأَلْوَانِ بِدِقَّةٍ مُتْنََاهِيَةٍ - عَلَى
طَرِيقَةِ الْغَنَاءِ وَالرَّقْصِ الْإِسْبَانِيّ الْعَجَرِيّ الشَّهِير⁽¹⁾ - مُشْهَدٌ يَحْصُرُ
وَجُودَهُمْ ضِمْنَ إِطَارِ اللُّوْحَةِ، الَّتِي تُعْرَضُ لِلْبَيْعِ يَوْمِيًّا فِي مَزَادَاتِ
عَوَالِمِ الْفَنِّ وَالْإِعْلَامِ وَالسِّيَاحَةِ، وَغَيْرِ السِّيَاسَةِ، وَقَذَارَةِ نِفَاقِ
إِدْعَاءَاتِ الدِّفَاعِ عَنِ الْإِنْسَانِيَّةِ!! -

«الآخر» فِي هَذِهِ الدَّوْرَةِ مِنْ دَوَرَاتِ التَّارِيخِ، أَصْبَحَ مِنْ وَجْهَةِ
النَّظَرِ الْأَوْرُوبِيَّةِ الْمُسْتَعْلِيَّةِ، هَذَا «المُسْلِمِ المُهَاجِر».. «المُورُو»،

(1) الْفِلَامْنِكُو: الْفِلَامْنِكُو هُوَ تَعْبِيرٌ فَنِّي شَهِيرٌ ذُو تَقَالِيدِ عَرِيقَةٍ وَهُوَ جُزْءٌ مِنْ
قَائِمَةِ الْيُونِسْكُو لِلتَّرَاثِ الثَّقَافِيِّ الْعَالَمِيِّ.
وَهُوَ الْأَكْثَرُ تَمَثِيلًا لِلْفُولْكلُورِ الْأَنْدَلُسِيِّ الْمَعَاصِرِ، وَأَحَدُ أَشْهُرِ أَشْكَالِ
التَّعْبِيرِ الْفَنِّي فِي إِسْبَانِيَا.

الْغَرِيبَ، الدَّخِيلَ، الْمَكْرُوهَ، الْمُحْتَقَرَّ.. «المورو» كما يُسمَّى في إسبانيا، «الثوركو» كما يُدعى في ألمانيا، «الباكي» - نسبة إلى الباكستانيين - كما يُنادى في بريطانيا.

هذا المخلوق، المهزول، المتعب، الذابل، الآتي من الجنوب، بفقره، ودلّه، وتخلّفه، لا يهتمّ بنفسه ولا بسلوكة بين الآخرين، بسُمرة بشرته أو بُنيته، بسواد عينيه الكبيرتين، المُحرّشتين، الشّريحتين، المُعبرّتان دائماً ودون استعمال اللّغة عمّا في نفسه.

بطيبة قلبه حدّ الهبل.. أحياناً، بخبثه وفهلويّته الكريهين حدّ الخديعة.. أحياناً أخرى.

المُتواضع الراجح حدّ الدّلّ، والمُعترّ بهويّته حدّ احتقار الآخرين، والشّفقة عليهم! المُتصعّر بثقافته البالية حدّ التّهريج المُضحك المُبكي!

هذا الآخر.. بكرمه، وهو الذي يقولون عنه إنّهُ يموت جوعاً! بعدَم فهمه طبيعة آداب السلوك العامة، باستعصائه على دُخول ثقب إبرة المدينة الاجتماعيّة الأوروبيّة، بتعاونه المنقطع النظير مع الآخرين، بإنخراطه المُدهش فيما لا يعنيه، «بإندماجه» المُذهل في المُجتمع المُضيف، بتلّهُفه غير المفهوم - لدى القوم - لِنَجْدَةِ المُضطرين، حتى لو كلّفه ذلك حياته، وما هو أعظم من حياته أحياناً!!

بِمَسْكِهِ غير المُستساغ بعباداته وتقاليده التي يُقدّمها على أنّها دينه، وهي ليست من الدّين! بإضطفافه المذهل في صفوف الصّلاة، ساكناً مُنضبطاً، وهو المُستعصي أبداً على السّكون والإنضباط!

بِمَوَدَّتِهِ للآخرين حتى لو كانوا من غير جنسيّته، بشفقته على

الغريب حتى لو كان مَنْ ظَلَمَهُ، يَبْرَهُ وَالِدَيْهِ الَّذِي يَبْلُغُ حَدَّ الْمَرَضِ
النَّفْسِي، بِسُوءِ مُعَامَلَتِهِ إِمْرَأَتَهُ وَأَوْلَادَهُ، دُونَ أَنْ يَشْعُرَ بِالذَّنْبِ،
بِتَمَسُّكِهِ بَوَاطِنِهِ، الَّذِي لَمْ يُوفِّرْ لَهُ أَيَّ شَيْءٍ مِنْ مُقَوِّمَاتِ الْمَوَاطِنَةِ
وَالْحَيَاةِ الْكَرِيمَةِ، بِحُزْنِهِ الَّذِي لَا يُبَارِحُهُ، بِأَفْرَاحِهِ الرَّانَةِ لَا تَعْبَأُ
فِي ضَجِيجِهَا بِأَحَدٍ، بِرَغْبَتِهِ غَيْرِ الْمُسْتَبْرَةِ فِي أَنْ يَأْخُذَ عَلَى الصَّعِيدِ
الشَّخْصِيِّ.. بَيْنَمَا نَادِرًا، مَا يُعْطَى عَلَى الصَّعِيدِ الْاجْتِمَاعِيِّ.

هذا الغريب.. الدَّخِيل، المَكْرُوه، المَرْفُوض، النَّازِح،
والمُهَاجِرْ هَرَبًا مِنْ الْأَوْضَاعِ السِّيَاسِيَّةِ وَالْاِقْتِسَادِيَّةِ أَوْ الْحُرُوبِ
الطَّاحِنَةِ فِي أَرْضِهِ، اللَّائِذُ مِنَ التَّهْمِيشِ وَالتَّضْيِيعِ فِي بِلَادِهِ..
الْبَاحِثُ عَنْ وَاحِدَةٍ مِنْ أَمْنٍ، وَشَيْءٍ مِنْ حُرِّيَّةٍ، وَمَسَاحَةٍ مِنْ كِرَامَةٍ
إِنْسَانِيَّةٍ.. الْمُتَطَلِّعُ إِلَى أَنْ يَحْيَا، بِأَيِّ طَرِيقَةٍ مُمْكِنَةٍ، إِنَّهُ يَرِيدُ أَنْ
يَعِيشَ حُرًّا، وَأَنْ يَفْرَّ مِنْ حِصَارِ الْمَوْتِ وَالِدَمِّ وَالتَّعَفُّنِ وَالْأَغْلَالِ..
حَتَّى لَوْ اضْطُرَّ إِلَى الْحَيَاةِ فِي الْمَهْجَرِ، عَلَى هَامِشِ الْمُجْتَمَعِ
وَالْمَدَنِيَّةِ وَالْحَيَاةِ.

هذا الغريب.. وَخُصُوصًا هَذَا الْقَادِمُ مِنَ الْجَزَائِرِ وَالْمَغْرِبِ،
وَالَّذِي يُشَكِّلُ لِحِمَةَ الْجَالِيَّاتِ الْمُسْلِمَةِ فِي كُلِّ دَوْلٍ جَنُوبٍ أَوْ رُبَا،
عَلَى أَعْتَابِ الْقَرْنِ الْوَاحِدِ وَالْعِشْرِينَ الْمِيلَادِيِّ، مَحْسُودٌ يُثِيرُ حُقْنَ
الْقَوْمِ وَغَيْظَهُمْ! هَذَا الْجَارُ الْقَرِيبُ جُغْرَافِيًّا، الْبَعِيدُ الْبَعِيدُ.. الَّذِي
يُصَوِّرُونَهُ بَعِيدًا، وَيُرِيدُونَ لَهُ أَنْ يَبْقَى بَعِيدًا!

بِكُلِّ مَقَاسٍ أَوْ رُبَا الْإِسْتِعْمَارِيَّةِ، مَحْسُودٌ عَلَى كُلِّ مَا هُوَ فِيهِ!
وَحَقٌّ لِلْأُورُوبِيِّينَ أَنْ يَحْسُدُوا الْمَغْرِبِيَّ الْمُهَاجِرَ! فَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ
غُرْبَتِهِ، وَفَقْرِهِ، وَوَضْعِهِ الَّذِي لَا يُعْجِبُ أَحَدًا.. يَحْسُدُهُ أَهْلُ الْبَلَدِ
الْمُضِيفِ، عَلَى وُجُودِهِ بَيْنَ ظَهْرَانِيَّتِهِمْ، وَتَمَتُّعِهِ بِخَيْرَاتِ بِلَادِهِمْ -
كَمَا يَقُولُونَ -، وَعَلَى رَأْسِهَا الْحُرِّيَّاتِ وَالْخِدْمَاتِ وَالْقَوَانِينِ الَّتِي
تَحْمِي الْإِنْسَانَ وَتَهْتَمُ بِأَذْنَى إِحْتِيَاجَاتِهِ الْبَشَرِيَّةِ.

يَحْسُدُونَهُ عَلَى قُدْرَتِهِ عَلَى الضَّحْكِ بِقَلْبٍ أَبْيَضٍ، كُلَّمَا

سنحت له الفرصة، يَحْسُدُونَهُ على قُدْرَتِهِ على التَّأَقُّلِ، يَحْسُدُونَهُ على تَشَبُّهِه بدينه حتى لو لم يكن ملتزماً به، يَحْسُدُونَهُ على هذه الطَّاقة الحيويَّة العربيَّة، التي تجعله أحياناً، أكثر إيجابيّة منهم، وهو الذي يَفْتَقِر إلى الثَّقافة والمَعْرِفَة، في حين أنهم يَغْرَقون في سَلْبِيَّتِهِمْ وتَقَنُّذِهِمْ.

يَحْسُدُونَهُ ، على عَوْدَتِهِ مع الآلاف من أبناء بلده، كأسراب السُّنُونو كلَّ عام لزيارتها وزيارة أهله فيها، مُحَمَّلاً، بما يحمله الغريب كلَّما عاد إلى وطنه.

يَحْسُدُونَهُ حَسْداً يَبْلُغ حَدَّ الْحَقْدِ والغيرة، و«ضيق العين».. كما يُقال فيمن تَضَيَّقَ نَفْسُهُ بِرُؤْيَا الآخرين راضين فَرِحَ حين سُعداء، وإن كانوا يَخْتَنِقون بِألمِ ذلِّ الغربة ولأوائها!

يחסدون المغاربة — أبناء المغرب والجزائر — على تماسك جالياتهم، وعلى تعاونهم فيما بينهم، وتكافلهم الأسري الاجتماعيّ مُنْقَطِع النظير، وعلى ثقافتهم المحليَّة المُتميِّزة التي أصبحت بَصْمَةً عالميَّة معروفة، لبأسهم الوطنيّ الذي يُميِّز كلَّ قُطْرٍ من أقطار المغرب، كُسْكُسُهُمْ وحريرتُهُمْ وشبّاكيتُهُمْ ورعائُهُمْ وبَغْرِيْرُهُمْ⁽¹⁾، عاداتهم الاجتماعيَّة الثابتة دائبة التَّحديث والتَّدوير

(1) * الكُكْسُكْسُ أو الكُكْسُكْسِي أو سيكسو: هو وجبة غذائية مغربية مشهورة وتعتبر من أرقى الوصفات في المطابخ العالمية. يصنع من سميد القمح القاسي أو الذرة ويطبخ بالبخار ويضاف إليه اللحم أو السمك والخضار والخمض، وربما أضيفت إليه المكسرات والزبيب والخوخ المجفف أو الحليب أو الزبدة والسكر الناعم حسب الأذواق والمناسبات. ويحضر الكُكْسُكْسُ بوصفاته المختلفة في كل أقطار المغرب العربي (المغرب - الجزائر - موريتانيا - تونس - ليبيا) / ويكيبيديا بتصرف.

وفي المعجم الغني - بتصرف - : كُكْسُكْسٌ (طبخ): طَعَامٌ يُحَضَّرُ مِنْ دَقِيقِ الْقَمْحِ وَالْمَاءِ فَيَصِيرُ حَبَّاتٍ دَقِيقَةً، يُنْضَجُ الْكُكْسُكَاسُ عَلَى الْبُخَارِ، وَحَدِيثاً أَصْبَحَ يُطَبَخُ فِي الْمِكْرُو أُونَدَا.

والتطويع، تمسّكهم الشديد بهويّتهم، احترامهم البالغ لها.. حتى أنهم لا يُغيّرون ولا يُبدلون طبيعة تأثيث بيوتهم على النّسق المغربي، أينما ذهبوا وحيثما نزلوا! -

شوطٌ واسعٌ، من الأخلاق الاجتماعيّة، يفصل ما بين مُعظم المغاربة ومُعظم المشاركة من المهاجرين في أوربا، شوطٌ واسع، حقيقيّ، من كرم الرّوح، والتّماسك الاجتماعيّ، والشّعور بالانتماء، والتّشبُّث بالهويّة.

تبدو المغرب، بالنسبة إليّ، وأنا الآتية من الضّفة الشّرقية للأبيض المتوسط، المُقيمة في ضِفّة الشّمالية، وعلى الرّغم من كلّ ما يُعانيه مُعظم أبناء شعبها من عَوَزٍ وافتقارٍ إلى مُقومات الحياة الكريمة، تبدو لي «جَنّة»، من حيث كونها وَطَنًا حقيقيًّا لأبنائها، على الرّغم من الاستبداد والقهر والفقر والتّخلّف، الذي تشترك فيها مع كافّة أقطار المنطقة الناطقة بالعربية.

لا ضياع للهويّة في المغرب، على الشّاكلة التي نعرفها في المشرق، وفي سوريا خاصة.. لا ضياع، ولا ذوبان في «الحقيقة الإستعماريّة»، على الرّغم من الإستعمار المُباشر، الذي يطوّق دول المغرب لُغويًّا، وسياسيًّا، وعسكريًّا، وإستراتيجيًّا، ضاربًا

كَسَكَسَتِ الطّحِينَ: فَكَلَتْهُ، أَيَّ صَيَّرَتْهُ حَبَاتٍ دَقِيقَةً. وهو يُدعى في بلاد الشام بـ «المفتول» أو «المغربية».

* الحريرة: هي الحساء الرمضاني المغربي الشهير، يُعدّ باللحم وأنواع الخضار، وبشكل أساسي من الكرفس والبقدونس والكزبرة والزنجبيل.

* الشباكية: الحلوى الرمضانية المغاربية، يُعد عجنها من الدقيق والماء والمواد العطرية والمطوية والزيت والزبدة، ويقلى بالزيت، ثم تغمس بمغلي السّكر - العسل - وترش بالسّمسم، وتشبه طريقة إعدادها سائر الحلويات الشعبيّة المعروفة في كافّة البلدان العربيّة.

* الرغائف: أنواع من المعجنات المغاربية، تعدّ بالقمح والماء والزيت، البغير: يُعدّ ويُشبه جدًّا القطائف الشاميّة.

أَسَافِينَ فيما بينها، وفي قلبِ كُلِّ منها، لإشعال حروبٍ بينية داخلية، فوق بحارٍ من الغاز الطبيعي والبترول والفوسفات وثرواتٍ أخرى، يحتاج المستعمرون إلى أن يشغلوا شعوبها بأنفسهم ونزاعاتهم البينية، كحاجتهم إلى عملاء يُعينونهم على نهبها والاستيلاء عليها.

جارتِي الإسبانية أستاذة الجامعة والكاتبة الصحفية، والتي يمكن الحوار معها لشدة لطفها ورفعة أخلاقها وعَدَمِ تَعَثُّتها، كما تفعل لوردس، التي تُغلق عقلها على مُعتقداتها الإِستِعماريّة الخبيثة، جارتِي هذه مُثَقِّفة مُطلّعة، تُدافع دفاع المُستَتمت عن القضيّة الفِلسُطينيّة، كما تُدافع دفاع المُستَتمت عن انفصال الصّحراء عن المغرب، قلتُ لها: يُثير الغُثيان والتّعجُّب، موقف إسبانيا بالذات من قضية الصحراء! إسبانيا، التي تُحارب منذ قرن، وعلى كُلِّ الجبهات المحليّة والدُوليّة، من أجل وَحْدَةِ أراضيها، تُقارع بكلِّ الوسائل الممكنة كُلِّ محاولات الانفصال فيها، سواء منها الإرهابيّة الإجراميّة في إقليم الباسك، كما المدنيّة السّلميّة في إقليم كاتالونيا، إسبانيا هذه نفسها، تقوم بالدّعم والتّشجيع، والعمل ليلاً نهاراً، لترسيخ انفصال إقليم الصّحراء عن المغرب الأم⁽¹⁾! ويقوم كبار مُثَقِّفيها اليساريين و«أحرارها»، بدأب وتصميم، بصياغة رأيٍ شعبيّ عام، يَصُبُّ في هذا الاتّجاه، وكأنّ

(1) أيدت الحكومة الاشتراكية الإسبانية في 14.3.2022، - المبادرة المغربية للحكم الذاتي في الصحراء الغربية، التي تسعى إلى وضع حدّ لهذا النزاع دون اللجوء إلى استفتاء حقّ تقرير المصير الذي تنادي به جبهة البوليساريو - التي تقول إنها تمثل سكان الصحراء الذين يناهز عددهم - 150.000 صحراويّاً فقط، من أصل 30 مليون مغربي، على أرض الصحراء التي تقدر مساحتها بنصف مساحة المملكة المغربية! ... وجاء هذا إقراراً واضحاً وتاريخياً - وإستثنائياً بحقّ المغرب في صحرائها الغربية، وذلك بعد التطورات الدولية الكبيرة على هامش غزو روسيا لأوكرانيا، وقطع إمدادات الغاز الروسي عن أوروبا.

الأمر مسألة إنسانية فحسب! وكأنه لا يتعلق بمسألة إستعماريّة
وُجوديّة!

يا لِنِفاق المُستَعْمَرين، وكَذِبِهِم الرّنان، على شُعبِهِم، وعلى
التاريخ.

أجاب، وقد أدهشها هُجومي هذا: إنها مسألة إنسانية بحته!
قلت: كيف ذلك وهي لا تُمُتُّ للإنسانية بِصلة! لم يركب
المستعمرون في هذا القرن، مَرَكَباً - كَمَرَكَبِ الإنسانية، وهم أشدّ
من يَتَتَهَكُ حقوق الإنسان في جميع أرجاء المعمورة.

سألّني في مُحاولَةٍ منها لتغيير مَجْرى الحديث الذي لم
يُعْجِبْها: ولماذا تعتقد أن المغاربة لا يُعانون تَمَزُّقاً فيما يتعلق
بمسألة الهويّة.

- لا هِجرات إلى المَغرب، تُذَوِّبُ التَّشَكِيلَةَ الإِجْتِمَاعِيَّةَ
الأساسيّة للبلد، لا طائفية، تُحْدِثُ في جَسَدِ المُجْتَمَعِ شَرخٌ
لا يُمكنُ رَدْمُهُ، وذلك على الرّغم من المحاولات المُستَمِيتَةِ
لِإِخْتِرَاقِهِ⁽¹⁾! لا شُعُور بالدُونيّة «التَّارِيخِيّة»، عن طريق تشويه

(1) اختراقات كبرى من قبل فرنسا وما تثيره من نعرات عرقية بين العرب
والأمازيغ، وروسيا ورغبتها إختراق السّوق المغربيّة وتطويق أوربا
من الجنوب، وإسرائيل ودأبها في موضوع التطبيع، وإيران وسفاراتها
ومكاتبها الثقافية التي تعمل حثيثاً على نشر التشيع السياسي في بلاد
المغرب للسيطرة عليها على نهج مافعلته في سوريا ولبنان.
راجع: الدبلوماسي الإيراني المثير للجدل «أمير موسوي» يغادر الجزائر/
صحيفة البلاد الجزائرية/ 23.9.2018.

وكان موقع الأخبار المغربي هسبريس قد قال: [دعا مسؤولون جزائريون
سابقون ونشطاء بالجزائر إلى طرد الملحق الثقافي الإيراني أمير
الموسوي، حفاظاً على المصلحة العليا والعامّة للبلاد، بعد أيام من قطع
الحكومة المغربية علاقاتها الدبلوماسية مع طهران، إذ جاء على لسان
ناطقها الرسمي، «تورطه - في تنظيم عمليات تسليح جبهة البوليساريو» =

دَووب للتاريخ العام المشترك، والمحلي المعاصر، كما هي الحال عندنا في سوريا ولبنان والعراق.

شعور المغاربة بالنقص، طارئٌ مُتأتٍ من مُعاناة الجوع والقهر الإنسانيين للمواطن في أرضه، وليس من رَفْضِهِمْ وإنْ سَلَّحَهُمْ عن هُويَّتِهِمْ، أما شعورنا - نحن الشرق أوسطيون! - بالنقص، فهو نابعٌ من عَدَمِ قُدْرَةِ النَّاسِ على التَّحَقُّقِ بكاملِ «الصورة الإستعمارية» التي يَتَمَنَّوْنَهَا، والتي إِسْتَعْبَدْنَا الإِسْتِعْمارَ من خلالِها، نَوَدُّ لو ندْخُلُ كُلَّ الجُحُورِ التي دَخَلَهَا شَبْرًا فَشَبْرًا! ثقافتنا إستعمارية، مَلابِسُنا الوَطَنِيَّةُ مَوْضِعُ خَجَلٍ وَرَفْضٍ من قِبَلِ مُجْتَمَعَاتِ المُدُنِ السُّورِيَّةِ، الأكلُ الذي نَطْبُخُهُ أَصْبَحَ مُلْحَقًا بِمِطَايِخِ المُسْتَعْمِرِينَ، حتى أن سَيِّدَاتِ البيوتِ يَتَبَارِزْنَ في التَّقَرُّ بِأَسْمَاءِ الأَكْلَاتِ والحَلَوِيَّاتِ المُسْتَوْرَدَةِ من بلاد المُسْتَعْمِرِينَ.

ونحن نراقب من خارج المشهد المغاربي، لا نكاد نلمس بين المغاربة على إختلافِ إِنْتِمَاءِ أَتَمِهِمُ الفِكْرِيَّةِ والسياسية، هذا التخلي والإنخلاع والتنازل عن الهُويَّةِ «المغاربية - الإسلامية»، بكلِّ تفاصيلِ مَلَامِحِها التاريخيَّةِ والثقافيَّةِ، بالحجمِ نفسه من الشُّقَاقِ والإنكارِ والإجحافِ، الذي نجده بين المشاركة لهُويَّاتِهِمُ الوَطَنِيَّةِ.

«الشرق أوسطيّ» - كما يُسمينا المُسْتَعْمِرُونَ -، «الشَّامِيّ» -

= وأوضحت أن «هذا الشخص مكن من كل التسهيلات اللوجستية للمسؤولين العسكريين لحزب الله من أجل التوجه إلى تندوف ولقاء مسؤولي جبهة البوليساريو».

وربط أكثر من مصدر جزائري بين الأزمة المغربية الإيرانية وبين التحركات «المشبوّهة» التي يقوم بها الملحق الثقافي ذاته منذ سنوات بالجزائر، إذ أكد الضابط الجزائري السابق نوار عبد الملك أن التوتر الجديد بين الرباط وطهران يقف وراءه المسؤول الإيراني نفسه.

المصدر: جزائريون يدعون - إلى طرد مسؤول إيراني متورط في تسليم البوليساريو/ هسبريس / 7.5.2018.

كما هو اسمنا الأصلي نسبة إلى مجموعة بلاد الشام - والسوري
خصوصاً، يَكْفُر وَيَفْجُر وينسلخ، أما المغربي فيَنْخَلِع وَيُفْلِسِف ولا
يتخلى أبداً.

السَّوْرِي لا يَتَعَلَّقُ بوطنه، يَتَطَلَّع إلى الهجرة، عِشْقاً
بِالمُسْتَعْمِر، وَتَعَلُّقاً وَالتَّحَاقُ بِرُكْبِهِ، أما المغربي فيُهاجِر، لَأنَّه على
يقين بأن الرِّزْقَ الذي يُهاجِر من أجل اسْتِجْلَالِهِ، هو رِزْقُهُ الذي
سَرَقَهُ المُسْتَعْمِرُونَ.



بعد أن تَأَخَّرَتْ عَقْدَيْنِ مِنَ الزَّمانِ عن بَقِيَّةِ بُلْدانِ أورْبَا،
بدأت «العُنْصُريَّة» تَبْلُورُ في إسبانيا، - في مُواجَهَةِ بَدْءِ سَيْلِ
الهجرات إليها من الدُّول التي انفصلت عن الإِتِّحاد السوفِيَّيَّ
المُتَفَكِّك والمُنْهَار، فَشَهِدَ بعضها نِزاعاتٍ وَمَجَازِرَ طَاحِنَةٍ،
كالشيشان والبوسنة وكرواتيا، وَوَجَدَ النَّاسُ أَنْفُسَهُمْ يَمُوتُونَ
جوعاً، في بعضها الآخر، كرومانيا، وبولندا، وليتوانيا، وأوكرانيا،
ثُمَّ تسبب غزو العراق، بِتَدَفُّقِ العِراقيين على البلدان الأوروبية من
كُلِّ الفُرْقَاء، مِمَّا جَعَلَ التَّوَجُّسَ، من انفجار النِّزاعات في أرض
المهجر سَيِّدَ الموقف.. وذلك على الرغم من أن أياً من العراقيين
أو البوسنيين أو الرومان، لم يُعْطِ القَوْمُ أيَّ مُبرر بهذا الصَّدَد.

الجهلُ بئْرٌ عميقة، والخوفُ سلاحٌ فاتِكٌ...

بل إِنَّه التَّجْهِيلُ المُمْنَهَج، والتَّخْوِيفُ المُتَعَمَّد!

جُنِّدَتْ وسائلُ الإعلام، لِتعميق هذه المشاعر، والتَّروِيجِ
لمَشْهَدٍ كارِثِيٍّ قِيَامِيٍّ قَادِمٍ، «يزحفُ فيه «الموروس»، عبر قِوَارِبِ
الموت عابرين المَضِيق، لِيَنْقَضُوا على الإسبان، المُتَحَضِّرين،
«العُزْل»، المساكين، فيَذْبَحُونَهُمْ، وَيَنْهَبُونَ بُيُوتَهُمْ ويستولون على
مُتَمَلِّكَاتِهِمْ!

كما... حدث أول مرة!!

هذا ما انتهت إليه في أذهان إسبان تسعينيات القرن العشرين،
ثمانية قرون أندلسية من الحضارة، والمدنية، والعلم، والإنسانية،
والرقي الاستثنائي الذي غير وجه أوروبا!!

تلك كانت بعض أبرز معالم الصورة.. ما بين المنجم
«راييل»، وأمثاله من المثبتين بعودة المسلمين الهمجيين
للاستيلاء على الأندلس، وكثير من صنّاع الرأي الإسبان، الذين
عملوا على تأجيج الأحقاد والكراهية، وكثير من تصرفاتنا نحن
كمهاجرين. ما بين هؤلاء وذاك وأولئك، تمت إعادة صياغة الرأي
العام الإسباني - والأوروبي عامة. ليُغلف بالكراهية والرفض،
لكل ما هو عربي أو مسلم، والكلمتان عند القوم سواء، من حيث
المعنى والمغزى.

لم يقتصر الأمر على إتلاف التاريخ، وحذفه من الذاكرة
الجماعية.. بل عمّد القوم، إلى تشويهه بالكامل، وقلب حقائقه
العريقة، الناصعات، التي عاشتها الأندلس، والتي لولاها لما قامت
لأوروبا قائمة، ولا ازدهرت فيها علوم، ولا عرف أوروبي اليوم
كيف ينظف قفاه بعد كل مرة يذهب فيها إلى «بيت الخلا»⁽¹⁾! كما
يسميه الأندلسيون، الذين علّموا أوروبا ماذا يعني بيت الخلا، فيما
علّموه لها من إنسانية وأخلاق وعلوم وآداب وقوانين!

في مؤتمر برشلونة للشراكة الأوروبية المتوسطية - الذي عُقد هذا
العام 1995 - كنت الصحفيّة «المُحبّبة» الوحيدة، في جمع من

(1) في معجم المصطلحات الفقهية: بيت الخلا: هو المكان الذي يقضي فيه الإنسان حاجته، وسُمي بذلك، لأن الإنسان يخلو بنفسه فيه - ليس معه أحد.

الصحفيين تجاوز عددهم الألفين، كنتُ أول صحفية مسلمة عربية «محجبة» تشارك في حدثٍ سياسي وإعلامي عابر للقارات كهذا، أثرتُ بحجابي إهتمام الصحفيين، أكثر من إهتمامهم بالمؤتمر نفسه، وكانوا من نخبة النخب، من مختلف وسائل الإعلام، جاؤوا من أنحاء العالم، لتغطية حدثٍ بالغ الأهمية بالنسبة إلى الغرب كهذا.

وإذا كان صحفيون وسياسيون دوليون، لا يستطيعون في أواخر القرن العشرين، تقبل صورة امرأة مسلمة محجبة واحدة بينهم، من دون التعبير بكل الوسائل الممكنة، عن صدمتهم الكبرى لرؤيتها معهم، وهم من هم ثقافة وإطلاعاً وتححرراً وإنفتاحاً، فكيف لا نُشير بهويتنا الظاهرية، كل هذا الحجم، من فضول الشعب الإسباني، الذي يشهد في ذُهل، توافد «الغرباء» على أرضه، دون أن يفهم السبب الحقيقي الكامن، وراء هذه الظاهرة، إلا ما تُزيّنه له بعض وسائل الإعلام، مما يُسمونه «عودة الغزو الإسلامي إلى إسبانيا»، لا سترداد الأندلس!!

استوقفني وفد إيران، وأنحني رئيس الوفد شخصياً، لتحيّتي، وهو يضع يده اليمنى على صدره، تعبيراً عن المودة الخالصة للمرأة التي لا يريد أن يزججها بمصافحة، وسألني والمترجم بيننا:

- من أين الأخت؟

- من سوريا..

- الله الله من سوريا، من أين من سوريا؟

- من دمشق!

- نحن فخورون بك وبحجابك، هذا شيء عظيم جداً.

- أشكرك أهلاً وسهلاً.

- هذا شيء جديد وعظيم، هذه أول مرة أرى فيها اختاً
مُحَبَّبة غير إيرانية في مُحفَلٍ كهذا.

- حان الوقت لتأخذ المرأة المُسَلِمة المُلتَزِمة فُرصَتها
ودَوْرَها.. كفى تهميشاً للمرأة المسلمة.

فاجأني بالسؤال: هل أنتِ مُتَزوجة؟!

أجبتُه: ورزقني الله بأربعة أبناء.

قال وأعضاء الوفد كافة من حوله: ما شاء الله، ما شاء الله..
نحن سعيّدون جداً بك وبوجودك في مؤتمر كهذا، هذه ظاهرة
طيبة.

إلتفتَ إلى أَحَدِهِم، فأخرج هذا بطاقةً، ودفعها إليّ، لأتواصل
مَعَهُم، سواء احتجّتُ إلى أيّ خدمة، أو لمجرد التّواصل الأخوي
والثقافي.. وأردف:

يُسعدُنَا كثيراً أن نَسْتَضيفَكَ في طهران.

قلت: شكراً لكم.. إن شاء الله يكون خيراً.

في تلك الأيام، وعلى الرّغم من خذلان إيران المؤلّم
لانتفاضتنا في سوريا في السبعينيات، كُنّا ما زلنا شُعَبِين مُسَلِمِينَ
مُتجاوِرين، في منطقتنا المَنكوبة، لا يُبدي بعضُنا لبعضِنا إلا المَوَدّة
في الله، والصّلة فيه.. كانت الأسوار المَلغومة التي تَبنيها الأَطماعُ
السّياسيّة والإستعماريّة الدّفينّة، غير مرئيّة بعدُ للجميع، وكنتُ
من الذين لا يُريدون تصديق حكاية إتّقاد نيران الطائفيّة بيننا، ولا
هُبوبَ أعاصيرها التي لا تُطفأ إلا بأنهار من الدّماء.

كنا نحنُ والإيرانيون.. لا نزال في مَنطِقِ الغُربة، والوطن،
والأُمّة.. إخوةً.. وكان الإيرانيون، وأينما إلتَقيناهُم، يُظهِرون لنا
أنواع المَوَدّة في القُربى. لم تكن قياداتهم الدّينيّة المُستَبدّة، قد

أَبَدَتْ، وعلى العَلَن، دَعَمَهَا غير المشروط، لِلْعِصَابَةِ الْأَسَدِيَّةِ
الطَائِفِيَّةِ فِي سوريَا، وَلَا مَشْرُوعَاتِهَا التَّوَسُّعِيَّةِ فِي أَرْضِنَا وَبِلَادِنَا،
لَمْ تَكُنْ قَدْ أُعْطِيتِ الْإِشَارَةَ، لِرَفْعِ الضَّغْطِ تَحْتَ الْقِدْرِ، الَّتِي كَانَتْ
تُطَبِّخُ فِيهَا، الْمُبَرَّرَاتِ الطَّائِفِيَّةِ اللَّازِمَةَ وَالكَافِيَّةَ، لِتَاجِيحِ الْأَحْقَادِ
وَالكِرَاهِيَّةِ وَالرَّفْضِ.

لَمْ أَشْعُرْ، وَلَنْ أَشْعُرَ بِالْكَرَاهِيَّةِ يَوْمًا، وَلَنْ أُرَبِّي أَوْلَادِي أَبَدًا
عَلَى الشُّعُورِ بِالْكَرَاهِيَّةِ، وَالرَّفْضِ لِلآخَرِينَ، كَانَ أَبُوهُمْ يَقُولُ: نَحْنُ
نَكْرَهُ الْأَفْعَالِ السَّيِّئَةَ، وَلَا نَكْرَهُ مُرْتَكِبِيهَا، وَلَا نُعَمِّمُ.

كَذَلِكَ رَبَّانَا جَدِّي الشَّيْخُ، أَنْ نَتَرَفَّعَ عَنِ الْبَغْضَاءِ وَالْكَرَاهِيَّةِ،
وَأَلَّا نَكُونَ وَقُودًا، لِلنِّزَاعَاتِ الدِّينِيَّةِ وَالطَّائِفِيَّةِ وَالْعِرْقِيَّةِ.

بَاكِرًا أَدْرَكْنَا، أَنَّ الطَّائِفِيَّةَ، وَالْعَنْصَرِيَّةَ، وَالْقَوْمِيَّةَ، فِي بِلَادِنَا،
لَيْسَتْ إِلَّا مُطَيَّةُ الْمُسْتَعْمَرِينَ، لِتَمْزِيقِنَا إِرَبًا إِرَبًا.

رَأَيْتُ ذَلِكَ الرَّجُلَ، الَّذِي تَبْدُو عَلَيْهِ الطَّيِّبَةُ وَالذَّمَامَةُ⁽¹⁾، فِي
غُرْفَةِ إِنْتِظَارِ الدَّوْرِ لِلدَّخُولِ إِلَى عِيَادَةِ طَبِيبَتِي، وَصَارَ يُدَقِّقُ النَّظَرَ
فِي قَلْبِي وَاضْطِرَابِ، ثُمَّ يُشِيحُ بِوَجْهِهِ حَيَاءً عَنِّي، فَلَمَّا إِطْمَأَنَّ، قَامَ
مِنْ مَكَانِهِ، وَجَلَسَ إِلَى جِوَارِي، كَمَا يَفْعَلُ مُعْظَمُ الْغُرَبَاءِ مَعَ الْغُرَبَاءِ
كُلَّمَا لِقَوْهُمْ فِي أَمْكِنَةٍ عَامَّةٍ، يَشْعُرُونَ فِيهَا بِغُرْبَةٍ شَدِيدَةٍ.

ثُمَّ .. وَبِلِسَانٍ أَعْجَمِيٍّ، وَلُغَةٍ إِسْبَانِيَّةٍ رَكِيكَةٍ، تَنَمَّ عَنْ أَنَّهُ
حَدِيثُ عَهْدٍ بِإِسْبَانِيَا، أَلْقَى التَّحِيَّةَ وَهُوَ يَضَعُ يَدَهُ عَلَى صَدْرِهِ، دَلِيلُ
الْمُودَةِ وَالْإِحْتِرَامِ، عَلَى طَرِيقَةِ الْمَشَايخِ فِي تَحِيَّةِ النِّسَاءِ.

قَالَ لِي: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ.. الْأَخْتُ مِنْ سوريَا؟

(1) فِي الْمَعْجَمِ الْغَنِيِّ الدَّمَائَةِ: حَسَنُ الْخُلُقِ وَاللُّطْفِ وَالرَّقَّةُ وَاللِّبَاقَةُ.

- نعم.. كيف عرفت؟!

- من لِبَاسِكَ ووجهك الطَّيِّب.

- شكرًا لك..

خَمَنْتُ أَنَّهُ مِنْ إِيرَانَ، بِسَبَبِ كَرَمَشْتِهِ وَجَعَلَكِيهِ⁽¹⁾ «الوطنية»
الصَّارِخَةَ!

مُتَوَاضِعُ حَدِّ الْمَسْكَنَةِ، مِسْكِينُ حَدِّ الذَّلِّ، طَيِّبُ دَرَجَةِ التَّنَزُّهِ..
لا تشعر في وجوده أنك أمام غريب، بل.. أخ، من البلد، من
الوطن...

إِسْتَطَرَدَ يَشْكُو: جِئْتُ أَخْذُ الْوَصْفَةَ، لِشِرَاءِ الدَّوَاءِ لِرُجُوعِي،
فَلَقَدْ انْتَهَى، وَلَمْ يَقْبَلِ الصَّيْدِلِي أَنْ يَبْعِنِي ثَانِيَةً دُونَ وَصْفَةٍ مُوقَّعَةٍ
مِنَ الطَّبِيبَةِ.

قلت مُتَعَاظِفَةً: عَافَاها اللهُ وَشَفَاها.

قال، وَقَدْ اِطْمَأَنَّ وَرَفَعَ الْكُلْفَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنِي كَأَنِّي ابْنَةُ خَالَتِهِ:
أُنْظُرِي إِلَى الْإِسْبَانِ مِنْ حَوْلِنَا، كَيْفَ يُزْعِجُهُمْ جَدًّا، أَنَا نَتَحَدَّثُ
فِيمَا بَيْنَنَا.

قلت: طَبِيعِي أَيُّهَا الْأَخ، إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّونَ أَنْ يَكُونَ الْغَرِيبُ
لِلْغَرِيبِ سَنَدًا، وَيَعْتَبِرُونَ أَنَّا يَنْبَغِي أَنْ نَبْقَى غُرَبَاءَ، وَلَا نَسْتَنِدَ إِلَّا
إِلَيْهِمْ فِي غُرَبَتِنَا.

(1) في موقع «متنبدى معجم الدخيل والمشهور في العربية»: ورد نص المثل الشعبي التالي (كذبٌ مُرْسَقٌ وَلَا صِدْقٌ مُجْعَلُكُ)، وفي موقع «معجم» لشرح اللهجات في المنطقة العربية: مُجْعَلُكُ، كلمة فلسطينية، هي صفة تقال عن الأقمشة والملابس عندما تكون مكرمشة وغير مكوية/ وهي تستخدم بهذا المعنى، في عامة بلاد الشام.

قاطعني قائلاً: أرجو من الله ألا يُعِزَّنَا⁽¹⁾ إلا إلى وَجْهِهِ الكريم
وكرام الناس من أمثالكم..

لم أُرَدِّ، واكتفيتُ بهزّ رأسي لأنهي المحادثة الثقيلة.
لكنه استطرد: أنا كلّما رأيت غريباً من بلادنا، كأني أَسْتَرِدُّ
روحي، وكلّما رأيت أختاً فاضلة مثلك.. كأني رأيت أمي.
أغاظني قوله، ما كنتُ أعلم أنني وأنا في الثلاثين من العمر
أبدو كأُمّه!
سكتُ، فسكتَ..

ثم عاد إلى الحديث بعد دقيقتين: والله، لا أنسى إكرام أحد
الأطباء السوريين لي ولأهل بيتي ما حييت، يومَ طلبنا الإسعاف،
فكانت نوبته، وجاء إلى بيتنا.. لهفته علينا وإكرامه لنا أبكتنا، حتى
أنه ذهب بسيارة الإسعاف، فاشترى الدواء لزوجتي وعاد به، حين
علم أنني لا أستطيع تركها مع الأطفال لآتي بالدواء، ولم يرص أن
أدفع له ثمنه! هذا على الرغم من أنه عَرَفَ أنني إيراني!
قلت: الحمد لله الناس بعضهم لبعض أيها الأخ، الله يُعافي
زوجتك ويخفف عنكم.

راح يشرح لي، بلغة إسبانية أشدّ بؤساً من لغتي، مُلابسات
مرض زوجته وهجرتهم، وأن الحياة في بلادهم صعبة وعرة.
ثم عاد فقال: أنتِ من سوريا من سوريا؟ من أين في سوريا؟
قلت: من دمشق..

صاح مسروراً: سبحان الله، من مدينة ذلك الطبيب الطيب
نفسه، هل تعرفين يا أختي.. ظلّ ثلاثة أيام يتصلُّ بنا، ليطمئنَّ

(1) في معجم لسان العرب: العَوَزُ أَنْ يُعَوِّزَكَ الشَّيْءُ وَأَنْتِ إِلَيْهِ محتاج.

عن زوجتي، وترك لي رقم هاتفه لأطلبه في أي ساعة لعيادة أم أولادي..

سكتَ قليلاً، ثم قال: يا أختي.. أنتم أناسٌ طيبون ومُتَحَضِّرون، أنتم مُسْلِمون حقاً.. لا حول ولا قوة إلا بالله، على الذين يريدون لنا أن نكرهكم ونُحاربكم.. لا حول ولا قوة إلا بالله! أثارني الفضول والغيط «السُّوري» و«الأُسري» وقد شكَّكتُ في ذلك الطبيب المُتلبِّس دور «الأم تيريزا في كلكوتة الهنديَّة»!! فسألته: ما اسم ذلك الطبيب؟ قال: للأسف لا أدري..

وراح يصفه لي بِدِقَّة مُتناهية، وأنا التي قد عرفته من قبل أن يصفه!

سألته: عيناه زرقاوان ونظارته ذهبية..

قال: هو بعينه.. الآن تذكرت، كانوا يُنادونه في مَسْجِد السُّوريين بأبي ساجدة!!

إبتسمت وقلتُ له: أنا أم ساجدة يازلمة!!

قام الرَّجل من مكانه، وأخذ يُحييني، يَضُمُّ يديه إلى صدره، وَيُنَحِّني أمام النَّاس، قائلاً: يا أمِّي تَوَسَّمتُ فيك الخير، مُنذ رأيتُك، قولي له إنني أُقبِّل يديه.

أمِّي؟! لا حول ولا قوة إلا بالله، مُصِرُّ الأخ على رُؤيتي كأُمِّه، وهو الذي يكبرني كما يبدو عليه بعشرين عاماً! لكنَّ هذا قَدَرِي على ما يبدو، فمعظم الإخوة الذين يعرفوننا في مدريد - كما في غرناطة من قبل - يَعتَبِرُونَنِي في مَقام نائبةٍ عن أُمّهاتِهِم، بسببٍ من أبي «كلكوتة»!! «أبو ساجدة»!!

أُم هي طريقتهم في ذلك الأسوار في لَبَاقَةٍ وطُهرٍ، للتعبير عن
المودة والأخوة والقرب وسط هذا التباعد والغربة والكربة...

تُدْخِلُنَا الغُربةَ في هَلُوسَاتِ الحنين، وتَجْعَلُنَا نرى في كُلِّ مَنْ
حَوْلَنَا شيئاً يُدْكِرُنَا ببعيدٍ حبيب.

تُدْخِلُنَا الغُربةَ في أَتُونٍ يَنْصَهَرُ فيه النَّاسُ، لا نِساءَ هنا ولا
رجال، لا كِبَارَ ولا صِغارَ، لا إيرانيون ولا سوريون.. كُلُّنا هنا
غُرباء.

الغُربةُ نَسَبْنَا، وعائِلَتْنَا، ووَطَنُنا البَدِيل.

تُدْخِلُنَا الغُربةَ، في مَتَاهَاتِ البَحْثِ عن الحقيقة، وتَجْعَلُنَا
نرى الحقَّ أبلج.. هذه الشُّعُوبُ ولولا سَاسَتُها المتوحِّشون، ما
كانت لتتعامل فيما بينها بالكراهية والبغضاء والتكفير والإتهامات
المُتبادلة.

تُدْخِلُنَا الغُربةَ، في مُلابَسَاتِ اكْتِشافِ جَوْهرِ هذا «الآخر»،
هذا الإنسان، وتَجْعَلُنَا نرى كُلَّ عَرَضٍ يَعْتَرِيهِ، هباءً مَشُورًا، في
مَنْظُورِ البُعْدِ، والألمِ، والوَحدَةِ، والإنسانية، والغُربة.

قالت حسناء: عَجِيبَ أَمْرِ الإسبان، وهذه القفزة التاريخية
الهائلة التي جَعَلَتْهم في القِمَّةِ؟

قلتُ لها: إِنَّهم يَتَقَدَّمُونَ بِالسُّرعةِ نَفْسَها التي تَتَقَهَّرُ فيها.

- أي والله يا أُم سَاجِدَة، إنه لَأَمْرٌ مُحْزَنٌ جِدًّا، بلادُنَا تمضي
نحو الوَراءِ، بِسُرعةِ البَرَقِ، وهذه البلادُ تسيرُ إلى الأمام بِسُرعةِ
الضُّوءِ.

- ربما يكون الأمرُ مَعكُوسًا.. فَمَنْ يَدْرِي، رَحِمَ اللهُ جَدِّي،
طالما بَنَّهني إلى رُؤيةِ يَدِ اللهِ فوق كُلِّ شيء.

- أوف.. إذا كان الأمر معكوسًا، فهذا يعني أن علينا أن نغير جميعنا النظرات، التي نضعها على أعيننا! ما نعرفه اليوم، أن القوم في إسبانيا يتقدمون وبخطوات كبيرة جدًا.

- لأنهم «يريدون»! ولأن حكاهم لا يجدون تعارضًا بين العمالة للخارج، وخدمة شعوبهم، ولأنهم هم أنفسهم، قرروا بعد هلاك فرانكو، ألا يسكتوا على الضيم، و ألا يرضوا الإهانة.

- العمالة للخارج؟؟!

- طبعًا.. أوربا كلها اليوم «عميلة» للولايات المتحدة، العمالة هنا ليست بمعنى الخيانة حبيبتني! إنها بمعنى التبعية والإعتماد والشراكة والتحالف، أن يصبح الطرفان، جسمًا واحدًا، إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى!

ضحكنا، ضحكنا كثيرًا.. ضحكنا بدل أن نبكي على أوضاع منطقتنا التي يزداد تفككها، يومًا بعد يوم، أو ليست هذه حال الطير الذي ينتفض مذبحًا، حتى ليظنه الجاهل بأمره يرقص طربًا؟

كانت بداية عصر الاستيقاظ المثائب، في المنطقة العربية، وبداية عصر الخوف الشديد، من ذلك الاستيقاظ في المنطقة الأوروبية، وكان هنالك دائمًا من يعمل بكل دأب ونشاط، للقضاء على أي مشاعر إنسانية، يمكن أن تجمع على السلام والأمن سكان شمال وجنوب الأبيض المتوسط.

هنالك من لا ينام، ليحدث هذه الهوة بين الطرفين، وليشتعل البحر الأبيض أبدًا، بنيران الحقد والكراهية والشعور بالعدوان المتبادل.

تغيرات هائلة، تضرب ضمتي هذا البحر، الذي يفصل «بيننا»، بحر الأطماع التاريخية، بحر الكراهية، بحر الحروب، بحر

الغزو، بحر الحملات الغازية المتوحشة، بحر الهجرة والفرار من الموت، بحر الموت.

كلّ نعتٍ يمكننا أن نَصِفَ به هذا البحر المتوسط بيننا، إلا بالأبيض!!

التّغييرات التي شملت طبيعة الشخصية الإسبانية المعاصرة، وعمق تفكير المُجتمع الإسباني.. كبيرة جدًّا، مُهمة ولافتة، في غرناطة قبل سنواتٍ عشرٍ فقط، كنْتُ أشعرُ بين كثير من أبناء حيّ الكارتوخا حيثُ كُنّا نَسْكُنُ، وكأنني ابنة المدينة التي هاجرت إلى قرية! طريقة تفكيرهم البسيطة، سلوكُهم العاطفيّ، صُجُبُهم الجميل، تصوّراتُهم عن العالم، وعن الأشياء والأحداث.. حيّ كامل، يَجِدُ بَغْلَيْنِ فيظُنُّ أنهما بَغْلَايَ، وأنا زوجة الطبيب، التي تَسْكُن الطّايق الرابع من دون مِصْعَد! وفقط لأنني مورا ومُحَبّبة! بدا ذلك مُضحكًا، لكنه كان يشير إلى سداجة وطيبة شديديّتين!

الآن وبعد مرور هذه السنوات العشر، لم تختلف الأمور كثيرًا، من حيث تصوّرات الناس عنا، كمُسلمين، و«كَعَرَب»، وكمُهاجرين. لكن الفرق شاسعٌ وكبير جدًّا، بين طريقة تفكير الأندلسيين قبل عشرة أعوام، والتي لم تكن عدوانية ولا استعلائية، وطريقة تفكير الأندلسيين والمُدرّدين اليوم.

تَطَوَّرَ الشَّعب الإسباني، اجتماعيًّا، وإنسانيًّا، وتربويًّا، تَطَوَّرًا مثيرًا للإعجاب والدهشة، والرغبة في المُحاكاة، تَخَلَّصَ من عاداته الاجتماعية السيئة، التي كانت تُلصقُ به نَعْتُ «المُتَخَلِّف» عن أوربا، تحرّروا من غَلَبَةِ التّفكير العاطفي، ومن الرّغبة في الضياع في زُحْمَةِ الضّجيج الذي صار مُقَنَّنا، ومُنْظَمًا، ووقفاً على ملاعب الرياضة، وحلبات مُصارعة الثيران، والسّاحات التي تُقام فيها الحفلات الموسيقية الكبيرة.. كما تَخَلَّصُوا من السّطحيّة والسّداجة، بأنضباطهم بالتّفكير الجماعيّ، المُوجّه من قبل وسائل

الإعلام، التي تَسَنَّمَت دور التَّربِيَّة والتعليم معًا، في هذه السنوات العشر، جنبًا إلى جنب مع المدارس والجامعات والمؤسسة الدينيَّة.

اِنْتَقَلَ الشَّعْب الإسباني، ما بين عَشِيَّة وضُحاهَا، وفي أَقَلِّ من عَقْدَيْن من الزمان، من شعب مُهاجِر هربًا من تَدَاعِيَات الحرب الأهليَّة المُريعَة، ثم الديكتاتوريَّة، والتَّخلف، والفقر.. إلى شعبٍ غنيٍّ مُتَمَدِّن ديمقراطيٍّ حُرٍّ يسير على طريق التَّحَضُّر، يستقبل الهِجرات التي راحت تَتَدَفَّق على إسبانيا، كما على أنحاء أوربَا، في زمنٍ طوفانٍ جديدٍ، تاركًا عُقْر دارِ الإسْتِعْمار، جُزْرَ أَمْنٍ واستِقْرارٍ وازْدِهَارٍ وَسَطِ الإعْصار العظيم الذي يَضْرِب عالَمنا اليوم.

هذه المُعْجَزَة الإسبانيَّة المُعاصِرة، بِسَلْبِيَّاتِها وإِيجابِيَّاتِها، جديرةٌ بأن يُفَكَّر المرءُ فيها، كثيرًا جدًّا.

أخطأ بعض الإسبان، وتَصَرُّفاتِهم غير الإنسانيَّة، وغير اللائقة في تعاملِهم مع اللاجئِين والمهاجرين إلى أراضِيهم، لا يجب أن نُعمِنَا عن حَسَنَاتِهم، ومِيزَاتِهم، وإنجازَاتِهم المدنيَّة والإجتماعيَّة.. كما أن أخطاءنا وزلاتنا وإرتكاساتنا كمهاجرين ولا جئِين وغُرباء، ما كان يجب أن تجعل شعبًا يمضي في طريق التَّحَضُّر والرُّقْي، كالشَّعب الإسباني، يَتَصَرَّف بهذه الطريفة غير اللائقة، مع «الآخر».. فينسِف كلَّ صِلَةٍ لهذا «الآخر»، بالحضارة والتَّاريخ والإنسانيَّة!

مع مرور الوقت، أصبحنا أنا ولوردس، رفيقتين، على الرَّغم من الخِلاف في الرأْي والرُّويَّة، وهذه إحدى أهمِّ الدُّروس النبيلة، التي يُمكنك أن تتعلَّمها من الشَّعب الإسباني، مُعْظَم الإسبان لا يَفْجُرُون في الخِصام، يحاولون الاحتفاظَ بثلاث شُعرات -

وليس بشعرة معاوية⁽¹⁾ الوحيدة فحسب! .. تُبقي على المَوَدَّة بين
النَّاس ولو ظاهريًّا، بحيث لا يقطع إسبانيّ علاقته بك بعد مُشادَّة
وِخلاف.. إلا إن كان من سَقَطِ القوم.

قلتُ لها: هذه المعجزة الإسبانية، جديرة بالتّفكير،
وبالدراسة والبحث، بل بالمُحاذاة والاستنساخ، فليس من السهل
على شعب، أن ينتقل بهذه الطريقة المذهلة، خلال عشرين عامًا،
إِنْتِقَالاً سَلَمِيًّا حضاريًّا هادئًا، من مَصاف دول العالم الثالث، ليكون
في ركب الدُّول الإِسْتِعْمارِيَّة الأكثر قُوَّة وتَقَدُّمًا، ربما تتلخص
المسألة أن إسبانيا كانت فعلاً من دُول العالم الثالث، وليس من
دُول العالَم السابع عشر بعد المائة!!.. فلَمَّا أخذت أوربا بيدها،
وجدت شعباً مُصَمِّمًا على التّقدم والتّحضّر والازدهار، مما جعلها
تنتقل إلى مَصافِّ العالم الثاني.

- قالت لوردِس: لعلك ستكتّبين عن هذا.. ولِنَرَى كيف
سَتَرُسمين صورَتنا في سُطورك! لسنا بالسَّوء الذي تُصوِّرِينَه
أحيانًا، ولا بالخير الذي نَظَنُّه في أنفُسنا دائماً.

- مُخيفة هي الكلمة.. كم هي مُخيفة؟؟

- طبعاً مُخيفة جدًّا يا صديقتي؟

- حتى لو كُتِبَت بِيدِ «مورا»!

- من يُنادونكُم بالموروس هم الجَهْلَة.

(1) [يقول العقاد: «لم يفخر معاوية بصفة كما كان يفخر بحلمه.. وكان
يفخر خاصته بدعائه (..) وكان يقول: «لو أن بني وبين الناس شعرة ما
قطعتها»، وسأله بعضهم: كيف ذلك؟ فقال: «كنت إذا شدوها أُرْخِيتها،
وإذا أرخوها شددتها»].

المصدر: حكاية شعرة معاوية بن أبي سفيان/ محمد حسين/ دار
الشروق/ 11.4.2023.

جاء الأولاد يتضحكون.. ظنّوا أننا نلعب لعبة الساحرات -
والتنانين الطيبة التي تنفث ناراً وتطير!



بعد تخلفٍ عن ركب التّقدم الأوروبيّ، بفارق أربعين عاماً
على الأقلّ، وخلال زمنٍ قياسيٍّ مُذهّل، أصبحت إسبانيا، بلداً
تتطلع إليه أعينُ الحزاني، في المنطقة العربيّة، وأمريكا اللاتينيّة،
بعد أن انقلبت الموازين، بينها وبين ابنة عمّها هذه الأخيرة، بشكلٍ
غريب مُذهّل.

منذ ثلاثين عاماً فقط، كانت تشيلي وكوبا والأرجنتين،
محطّاتٍ يهبط فيها الإسبان، هارين من الظلم، والاستبداد،
والفقر، والجوع، والذلّ. فإذا بمدير - سبّحان مغير الأحوال - ،
نُصبح نُزلاً للهائمين على وجوههم، فراراً من أقدارهم، من أبناء
هاتيك البلاد، فضلاً عن أنها صارت، وجهة المهاجرين من بلادنا
نحو أوربا، بلادنا التي دالت عليها الدّول، وعمّها الحزن، والألم،
والظلم، والاستبداد، والفساد السياسيّ، والاجتماعيّ، والدينيّ،
والياس، والإحباط، والدّمار.

الفرق بين الحالتين، أنّ الإسبان، كانوا قد استقبلوا في
هاتيك الرياض، استقبالاً الأهل والسّهل، أما المهاجرون الذين
يتدفقون اليوم من تلك البلاد إلى إسبانيا، بدعوة من أحزاب اليمين
الإسبانيّ، ليسدّوا - بهم باب الهجرة المغاربية .. فإنهم صُدّموا
بالكراهيّة والرفض، تخنقُ النظرات القاتلة وجودهم، وفرحتهم
باستنشاق هواءٍ جديد، يمنحهم فسحة من أملٍ بحياة أفضل.

المهاجرون الآتون من بلدان أمريكا اللاتينيّة، يتمتعون
بميزات نفتقر إليها، كتنظيماتهم الاجتماعيّة البالغة الدّقة والفاعليّة،
وتماسك بُنيان جالياتهم على الطريقة المغربيّة، ورقة عذبة، ولطفٍ

كبير، يتحلى به مُعْظَمُهُمْ بشكل لافت. تَجْمَعُهُمْ معنَا قناعاتُ راسخة بالْمَظْلُومِيَّةِ وَالْبُغْضِ، وَأَحْزَانُ الْبُعْدِ وَالنَّأْيِ عَنِ الْأَهْلِ وَالْأَوْطَانِ، وَالشُّعُورُ الْمَوْجِعُ بِالْغُرْبَةِ .. وَيَخْتَلِفُونَ عَنَّا بِإِنْخِمَاسِهِمْ الْفَظِيعُ الْمُعْلَنُ فِي مُسْتَنْقَعِ الْعِلَاقَاتِ الْجَنْسِيَّةِ الْمَحْمُومَةِ الَّذِي يَبْدُو لِلْمَرَاقِبِ شَهْوَانِيًّا وَفَوْضُويًّا وَمُدْمَرًّا لِلْإِنْسَانِيَّةِ الْفَرْدِ وَلِلْأُسْرَةِ...

يَجْمَعُهُمْ بِالْإِسْبَانِ، الدِّينِ، وَاللُّغَةِ، وَالثَّقَافَةِ الْعَامَّةِ، وَعِلَاقَاتِ النَّسَبِ وَالْمُصَاهَرَةِ الْمُتَمَدِّدَةِ عِبْرَ الْأَطْلَسِيِّ خِلَالِ قُرُونٍ، وَتَارِيخُ دَمَوِيٍّ عُمُرُهُ خَمْسُمِئَةٌ عَامٌ مِنْ حُرُوبِ الْإِبَادَةِ وَالْإِسْتِيطَانِ، وَنَهْبِ الثَّرَوَاتِ، أَثْنَاءَ عَهْدِ تَوْسُّعِ الْمَمْلَكَةِ الْقَشَّالِيَّةِ فِي أَوْجِ بَطْشِهَا الْوَحْشِيِّ بِالْبَشَرِ فِي كُلِّ مَكَانٍ وَصَلَتْ إِلَيْهِ، ثُمَّ .. هِجْرَةِ الْإِسْبَانِ إِلَى بِلْدَانِ أَمْرِيكََا اللَّاتِينِيَّةِ، خِلَالِ عُقُودٍ أَنْهَارٍ مَمْلَكَتِهِمُ الدَّمَوِيَّةِ تَلِكْ، وَتَمَرَّقَهَا وَدَمَارَهَا فِي زَمَنِ حُرُوبِ الْمَمَالِكِ الْأُورَبِيَّةِ الْمُتَنَاحِرَةِ، وَلَا حِقَاقَ فِي فِتْرَةِ الْحَرْبِ الْأَهْلِيَّةِ الْإِسْبَانِيَّةِ، وَالْفَقْرِ وَالْجُوعِ، وَاسْتِبْدَادِ الْعَسْكَرِ بِالْحُكْمِ فِي إِسْبَانِيَا..

وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ، فَإِنَّ السَّمَاتِ الْإِثْنِيَّةَ الْوَاضِحَةَ الَّتِي تُمَيِّزُ اللَّاتِينِيِّينَ الْمُهَاجِرِينَ فِي إِسْبَانِيَا، وَتَجْمَعُهُمْ فِي تَنْظِيمَاتٍ إِبْتِمَاعِيَّةٍ مَغْلُوقَةٍ عَلَيْهِمْ، وَتَشْكِيلِهِمْ عَصَابَاتٍ لَاتِينِيَّةٍ إِجْرَامِيَّةٍ شَبَابِيَّةٍ، تَنْتَهِجُ أَقْسَى أَنْوَاعِ الْعَنْفِ، وَسُلُوكِيَّاتِهِمُ الْجَنْسِيَّةَ الْفَاضِحَةَ، الْمَشْفُوعَةَ بِتَوَدُّدِ «يُوقِعُ الرِّجَالُ الْإِسْبَانِ فِي عَشِيقَتِهِنَّ» - كَمَا تَقُولُ النِّسَاءُ الْإِسْبَانِيَّاتُ - .. جَعَلَتْ الْمُهَاجِرِينَ مِنْ دُولِ جَنُوبِ أَمْرِيكََا اللَّاتِينِيَّةِ مَحَطَّ كَرَاهِيَّةٍ وَرَفْضٍ مِنَ الْمُجْتَمَعِ الْإِسْبَانِيِّ، الَّذِي بَدَأَ مُتَنَكِّرًا لِفَضْلِ الْقَوْمِ عَلَيْهِ، وَسَابِقَ أَيَادِيهِمُ الْبَيْضَاءِ مَعَهُ!

إِنَّهُمْ يَرِيدُونَ لِلَّاتِينِيِّ، أَنْ يَبْقَى بَعِيدًا، جَاءَ لَخِدْمَتِهِمْ، وَعَلَيْهِ أَنْ يَبْقَى فِي هَذَا الْمَقَامِ لَا يَتَجَاوَزُهُ!! أَصْبَحُوا يُعَامِلُونَ اللَّاتِينِيِّينَ، مُعَامَلَةً بِالْغَةِ السُّوءِ وَالْأَذَى، بَلْ إِنَّهَا تَفُوقُ فِي أَذَاهَا مُعَامَلَتَهُمْ لِلْمُورُوسِ أَنْفُسَهُمْ.

صار اللاتينيون في إسبانيا يُعَامَلُونَ وكأنهم عبيدٌ أَبْقَوْنَ
مُسْتَرْدُّونَ! وصارت نساؤُهُمْ في بيوت الإسبان كأنهنَّ سبايا حَرْبٍ
مُسْتَبَاحَات!!

كَلَّ مورو إرهابي غازٍ، وكلَّ لاتيني خادِمٌ مُسْتَعْبَدٌ .. بل إنَّ كلَّ
خليجيٍّ ضُنْبوراً - غافلاً يُنْقَطُ ذهباً، وكلَّ سائح إنكليزيٍّ سَكَّيرٍ،
وكلَّ ألمانيٍّ مُقيمٍ في المنتجعات الإسبانية مُعْتَصِبٌ للأطفال!!
هكذا صَنَّفَ العُرف الإسبانيُّ الشعبيُّ الحديثُ بنيَ البَشَرِ مِمَّنْ
حَمَلَتْهُم أقدارُهُم إلى إسبانيا، مهما تَعَدَّدَتْ واختَلَفَتْ أسباب
وجودِهِم في إسبانيا!

أصبح الإسبان يَكْرَهُونَ كُلَّ الغُرباءِ، وَيَعْتَبِرُونَهم جميعَهُم
مُهَدِّدِينَ لِأَمْنِ مُجْتَمَعَاتِهِمْ وطريقة حياتِهِمْ..

بدا المُجتمع الإسبانيُّ، وكأنه يَهْوِي نحو إحدى أكبر
الموبقات في تاريخ البشر: العُنْصَرِيَّة النازِيَّة الجديدة!

أطلق الإسبان على اللاتينيين في أرضِهِم، إِسْمَ
«السوداكاس»، كما مَنَحُونَا إِسْمَ «الموروس»... بالضبط، كما
فعل «العرب» من قَبْلِهِم، أَيَّامَ عِزِّهِم وَقُوَّتِهِم وَتَسَنُّمِهِم دورَتِهِم
المدنيَّة في التاريخ، مَنَحُوا الغُرباء عنهم، المهاجرين إليهم، إِسْمَ
«الأعاجم»⁽¹⁾!

«العصبِيَّة القوميَّة»، مَرَضٌ تَدُولُ به الدُّول، وَتَنَحْطُمُ معه

(1) في القاموس المحيط: العجم: خلاف العرب، أي من ليس منهم، نطق
بالعربية أم لم ينطق، ويقال للفرس خصوصاً/ وفي المعجم الوسيط:
أعجمي: من لا ينطق بالكلام الفصيح ولو كان عربياً.

الأمم، وتُذكَّ بمَعولِهِ الحضارات من داخل أسوارها التي تَحسبُها
مَنِيعة!



لم يكن عَجَبًا، أن يُسمِّي كثير من الإسبان، الآتين من جنوب
أمريكا اللاتينية، بـ«السوداكاس»⁽¹⁾، لكن العجيب واللافت للنظر
والإستَهجان، أن يقوم بعضنا بمناداتهم بهذا الاسم الشائنة دلالته!
«بَعْضُنا» من الذين يَرفضون الإِعتِراف بِتَسْمِيَتِهِمْ هُمْ أَنْفُسُهُمْ بـ
«الموروس»! وكذلك يفعل اللاتينيون أنفسهم بالمسلمين الآتين
من جنوب البحر المتوسط، ينادونهم بالموروس، ويعاملونهم
معاملة غير لائقة! يعتقدون أنهم أرفع منهم درجة عند الإسبان،
لإشتراكهم مع هؤلاء في اللغة والدين! وذلك أبعد ما يكون عن
واقع العنصرية التي تستفحل يوماً فيوماً في إسبانيا.

يبدو من المضحك المؤلم تنافس «الموروس»
و«السوداكاس» على مرتبة «العبودية المُستَحْدَثَة» للمُهاجرين
المُعْتَرين إلى إسبانيا!

لا تَقْتَصِر النظرة العُنْصَرِيَّة الإِسْتِعْلَائِيَّة لِلاَخر، على
الأوربيين، لكنها مَرَضٌ، يَشْتَرِك فيه كثيرٌ من خلق الله المُصَابِينَ
بِبُؤْسِ إنسانِيٍّ مُوجع، يَجْعَلُهُمْ يَحْتَقِرُونَ الغريب والمُهاجر والفَقير
والضَّعيف، «الآخر».. حتى لو كان من بني جِلْدَتِهِمْ، أو يَمُرُّ
بِظُرُوفٍ تُشَبِّه ظُرُوفَهُمْ.

إنَّها أبشع طريقة للتعبير عن الشُّعُور بالنقص، لِذِئَعِ «التُّهْمَة»
عنك.. «التُّهْمَة» بأنك أنت الغريب، والمُخْتَلِف، و«الآخر»!

كيف يمكن لِمُهاجِرٍ أن يَحْتَقِر مُهاجِراً مثله؟ وأن يَظُنَّ أن

(1) «جنوبي» نسبة إلى جنوب أمريكا اللاتينية sudamericanos / sur.

الإسبان يُميّزون حقاً، بين قادم من المنطقة العربية وقادم من المنطقة اللاتينية؟؟ نحن في نظر القوم كلنا سواء، إلا من رحم ربي، ممن يحمي نفسه بالعلاقات الشخصية التي تربطه مع بعض الشرائح الإجتماعية الإسبانية، من عمل أو دراسة أو مصاهرة، ومُعظم هؤلاء الأهل والأصدقاء، يُظهرون المودة، وقلوبهم تغلي بالقهر والحسد والبغضاء، وألسنتهم لا تخفي مشاعرهم هذه، تارة مُراحاً، وتارة صراحاً.

تقول أمّ مارتا لمارتا⁽¹⁾: ما هذه «القذارة» التي تعلّقينها على الجدار؟

تنظر مارتا إلى أمّها في ألم وقهر، وتقول وهي تكاد تبكي: ألم يحنّ الوقت لتتركيني، وشأني ومُعتقدي في سلام؟

تتفعر أمّها وهي تتنفّض غضباً: لا، لا أريد أن أتركك ومُعتقداتك الخرائية⁽²⁾ في سلام.. هذه القذارة تُزعجني، وكلّما جئتُ أزورك، أشعرُ أنني مُستهدّفة من قبلها!

تساءل مارتا في دهشة وضعف: مُستهدّفة من لوحة، فيها كلامٌ مقدّس، مكتوبٌ مُزيّن، هو أقرب إلى اللوحات الفنية منه إلى أنّه من القرآن!

تصيحُ أمّها: - كلامٌ مقدّس؟ خذي كلامك المقدّس هذا، واجعليه في مرحاضك! هو كلامٌ مقدّسٌ عندك، أما أنا فلا يُمكنك أن تحمِليني على تقدّيسه!

(1) Marta اسم إسباني مؤنث من أصل عبري، وتعني «السيدة».

(2) هذا الحوار منقول بحذافيره ولغته كما جرى حرفياً، وقد وردت فيه الكثير من الألفاظ والمعاني التي تخدش وتؤذي، لكنني سجلته كما هو، ليطلع القارئ على معاناة المسلمين من أهل البلاد مع بعض ذويهم، وكلّ هذه الألفاظ والمعاني مُعتادة في الاستعمال التعبيري اللغوي الإسباني المعاصر.

تَسْأَلُهَا مَارْتَا فِي مَسْكَنَةِ: وَهَلْ حَمَلْتُكَ قَطَّ عَلَى تَقْدِيرِهِ؟ أَنْتِ
مَنْ يَبْدَأُ بِالْإِهَانَاتِ وَالشَّتَائِمِ! وَلَا تَحْتَرِّمِينَ خِيَارِي وَدِينِي وَحَيَاتِي!
تَقَابِلِ الْأُمَّ مَسْكَنَةَ ابْنَتِهَا بِاسْتِثَارَةِ الشَّجَنِ: أَيِّ حَيَاةِ هَذِهِ الَّتِي
تَعِيشِينَهَا مِثْلَ الْكَلَابِ مَعَ هَذَا الْمَوْرُو، الَّذِي لَا يَعْلَمُ إِلَّا الرَّبَّ
كَيْفَ أَقْنَعُكَ لِتُصْبِحِي مَوْرًا مِثْلَهُ؟

- وَاللَّهِ يَا أُمِّي.. حَيَاتِي مَعَكُمْ قَبْلَ أَنْ أَعْرِفُهُ، هِيَ الَّتِي كَانَتْ
حَيَاةَ الْكَلَابِ، وَلَمْ أَعْرِفْ طَعْمَ الْحَيَاةِ الْحَقِيقِيَّةِ، إِلَّا بَعْدَ أَنْ تَعَرَّفْتُ
عَلَيْهِ.. ثُمَّ أَنْسَيْتِ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يُرِيدُ أَنْ أَعْتَنِيَ الْإِسْلَامَ! وَأَنْنِي ذَهَبْتُ
وَأَعْلَنْتُ إِسْلَامِي أَنَا وَحْدِي، وَلَمْ يُرِدْ أَنْ يُرَافِقَنِي، خَوْفًا مِنْكَ أَنْ
تَقُولِي هَذَا الَّذِي تَقُولِينَهُ.

- هَذَا لَا يَعْنِي أَنَّهُ لَيْسَ مَوْرُو ابْنِ كَلْبَةٍ⁽¹⁾! وَأَنْ إِبْنَتِي كَانَتْ
جَوْعَى مُتْلَهِّمَةً لِدَكَرٍ، أَيِّ ذَكَرٍ!! وَلَوْلَا ذَلِكَ مَا ذَهَبَتْ مَعَ أَوَّلِ ابْنِ
سَاقِطَةٍ مَرَّ فِي طَرِيقِهَا!!

تَقُولُ مَارْتَا مَكْسُورَةً وَهِيَ تَغُصُّ بِبِكَائِهَا: حَتَّى مَتَى سَأَحْتَمِلُ
هَذَا الْأَذَى مِنْكَ يَا أُمِّي، الْوَلَدَانِ الْآنَ صَغِيرَيْنِ وَلَا يَفْهَمَانِ مَاذَا
تَقُولِينَ، وَلَكِنْ عِنْدَمَا يَكْبُرَانِ، لَنْ أَسْمَحَ لَكَ أَبَدًا بِإِهَانَةِ دِينِي
وَزَوْجِي أَمَامَ أَوْلَادِهِ.

تَنْفَجِرُ الْأُمُّ بِنُوبَةِ غَضَبٍ جَدِيدَةٍ: مَاذَا؟ لَنْ تَسْمَحِي؟ أَنْتِ
تَعِيشِينَ فِي بَيْتِي هَذَا، الَّذِي أَجَرْتُكُمْ إِيَّاهُ، بِرُبْعِ قِيمَةِ أُجْرَتِهِ، وَأَنَا
وَأَخَوَاتِي نَصَرَفَ عَلَيْكُمْ، وَنَشْتَرِي مَلَابِسَ الْأَوْلَادِ، وَالْأَدْوِيَّةَ،
وَحَتَّى مَلَابِسَكُمْ الدَّاخِلِيَّةَ، وَالْمَنَادِيلَ الَّتِي تَنْظِفُونَ بِهَا مُؤَخَّرَاتِكُمْ..
قُولِي لِلْمَوْرُو، أَنْ يَعُودَ إِلَى بَلَدِهِ، أَوْ أَنْ يَجِدَ عَمَلًا كَرَجُلٍ، السَّيِّدِ
الْمَوْرُو لَا يُعْجِبُهُ أَنْ يَعْمَلَ فِي أَعْمَالٍ لَا تُنَاسِبُ مَقَامَهُ الْعَظِيمَ..

(1) فِي إِسْبَانِيَا تُسَبُّ الْأُمُّ وَلَيْسَ الْأَبُ.

ولا يريد أن يعمل إلا في الأعمال المُتأنفة العليّة.. عشنا ورأينا
رجال المورورس القاذورات!

قالت مارتا في قهر واستجداء: أتعرفين يا أمي.. أنا أحتملك
فقط لأن ديني يأمرني باحترامك.

أجابت الأم في غضب شديد: لم أطلب منك أن تحترميني،
ولا أريد.. أنت كافرة، تركتنا ولحققت هذا المورو القميء، الذي
يُثير القرف، ماكنت أعرف أنك ساقطة، إلى درجة أن تلحقني
بقمامة كهذه.. إنهم يأتون إلى بلادنا، يستولون على بناتنا،
وأموالنا، أي ذل ومُصيبة أكبر من هذه؟؟!

أجهشت مارتا بالبكاء، وهي تحكي عن شعورها بالعجز،
أمام تصرّفات وغضب أمها، قلتُ لها: اصبري ولا حول ولا قوة
إلا بالله.

قالت: أنا أشدّ منك شعورًا بالغربة، وأنا إسبانية في بلدي
ومع أهلي!

- لا حول ولا قوة إلا بالله يا مارتا.. لا أدري ما أقول، إلا أنّ
أمك تستغل ضعفك بين يديها، أحياناً يُغرنا الضعيف بالتممر⁽¹⁾
عليه، فنُخرج أبشع ما في أنفسنا مُبررين ذلك باستكانته.

(1) التّممر أو المقاهرة (بالإنجليزية: Bullying): يظهر أحياناً على شكل
المقارنة والمعايرة، هو شكل من أشكال الأذية الموجهة بغرض الإيذاء
النفسي، من قبل فرد أو مجموعة نحو فرد أو مجموعة أخرى غالباً ما
تكون ذات قدرات اضعف للدفاع عن نفسها. التّممر قد يكون بأشكال
مختلفة، لفظياً أو جسدياً أو حتى بالإيذاءات، أو غيرها من أساليب
الإكراه الأكثر دهاء مثل التلاعب. يمكن تعريف التّممر بطرق مختلفة
وكثيرة. بعض الولايات الأمريكية تملك قوانين ضد التّممر. عادة ما
يستخدم التّممر في إجبار الآخرين عن طريق الخوف أو التهديد. يمكن
الحد من التّممر عن طريق تعليم الأطفال المهارات الاجتماعية للتفاعل
الناجح مع العالم. مما يساعدهم على أن يكونوا أشخاصاً قادرين على
التعامل مع الناس المزعجين.

- هو هذا بالضبط، كُلِّمَا صَمْتُ عَنْ أَذَاهَا، كُلِّمَا بَالَعْتُ فِيهِ..
كَأَن ضَعْفِي يَسْتَشِيرُ جُنُونَهَا.

- أتعلمين أنني لا أعتقد أن برَّ الوالدين يَتَصَمَّنَ تَحْمُلُ كُلَّ
هذا الأذى!

- وكيف ذلك؟

- لأن ربنا قَيَّدَ كُلَّ شَيْءٍ بِعِبَارَةِ وَاحِدَةٍ: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا
إِلَّا وُسْعَهَا﴾⁽¹⁾.

صَحِحتْ مارتا وهي تقول: إذن أنت تريدين لي أن أتمرّد؟

- ليست هذه هي الكلمة الدقيقة، التي تصف ما قصده!

- وإذن؟

- ربما أريد لك أن تَتَحَرَّرِي، مِنْ نَفْسِكَ، وَضَعْفِكَ،
وَاسْتِكَانَتِكَ.. يتحول البشر أحيانا إلى وحوشٍ تبحث عن ضَحِيَّةٍ
تَغْرُزُ فِي جَسَدِهَا أُنْيَابَهَا، وَأَنَا لَا أَعْتَقِدُ أَنَّ مِنَ الْبَرِّ الْإِسْتِكَانَةَ لِلْأَذَى،
وَلَا أَقُولُهُ لِأَنَّ أَمَّاكُ إِسْبَانِيَّةٌ، وَلَكِنْ لِأَنَّهَا مُتَنَمِّرةٌ... وَكَمْ رَأَيْتُ مِنْ
أُمَّهَاتٍ مُتَنَمِّراتٍ فِي سُورِيَا وَفِي مَدْرِيْد، مِنَ السُّورِيَّاتِ وَمِنْ غَيْرِ
السُّورِيَّاتِ.

- التَّنَمُّرُ لَا عِلَاقَةَ لَهُ بِهُيُوءَةِ النَّاسِ.

- هو ذاك..

- لكنك لا تُدركين مقدار حَقْدِ أُمِّي، وَكُلِّ عَائِلَتِي، عَلَيَّ
بسبب الإسلام..

= المصدر بتصرف عن ويكيبيديا: بحث سياسات المضايقة والتمييز/
جامعة مانشستر / 2009.

تشريح النزعة التدميرية عند البشر/ إريك فروم/ 1973.

(1) آية 285/ سورة البقرة.

- كانت أمك حاقدة عليك، من قبل أن تُعَلِّني إسلامك، أليس كذلك؟

- صحيح..

- هل تعرفين ذلك الأخ الإسباني الذي أصبح يدعو نفسه «عثمان»، يأتي إلى دروس القرآن مع أمه، تجلس معه، وتستمع، وتقول: أريد أن أفهم ما الذي جعل ابني يُغير دينه.. وفي البيت تُوفِّر له كل أسباب الراحة، حرَّمت على نفسها الخمر والخنزير في وجوده، تصوم لصيامه، وتبذل كل جهدها لإكرامه.

المُشكلة في الشخص نفسه، ولا علاقة للإسلام بذلك.. أمك غاضبة منذ هجركم والدك وذهب ولا تعرفون عنه شيئاً حتى اليوم، تركها مع أربع بنات وحدها، دون مَورِد رِزقٍ، ولا مأوى، كافحت كثيراً جداً لتُخرِج أسرتها من هذا الجُبِّ.

- صحيح طبعاً، ولكن يجب ألا نكون أغبياء، فنظن أن كلَّ الإسبان، يمكن أن يكونوا مثل أم «هوغو»⁽¹⁾، وأنها لا توجد مشكلة مع الإسلام، وأن أمي غاضبة، لأنها تُعاني من المُشكلات.. - هناك حَقْدٌ، هُنالك غضبٌ مكبوت، وهناك الكثير الكثير من الكراهية.. يجب أن تتفهموا الوضع، بعد تلك الدَّعوة إلى العشاء التي أقمتها هنا في بيتك من أجلي، خرَّجت أمي من عندك، وكان أول ما قالته لي: هذه المورا السَّاقطة زوجة الطَّبيب، تتقلَّب في النِّعم، في حين أنك أنتِ تعيشين على حسابي! ألم يكن في وسعك أن تتزوجي طبيباً، بدلاً من هذا الأُجرب زوجك؟ فهَمَّت إكرامك لها، بدخاً، واستعراضاً للثَّراء، ولم تفهمه كما أردته أنتِ، إكراماً لي.

(1) Hugo اسم إسباني مذكر من أصل ألماني/ يعني الذكي اللامع سريع البديهة.

إِبْتَلَعْتُ الإِهَانَةَ الْمُبَاشِّرَةَ، وَوَأَسَيْتُهَا: كم هو مُوجَعٌ هذا
الْوَضْعُ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْكَ مَارَتَا؟ كم هو مُؤْلِمٌ؟

لَكِنَّهَا اسْتَأْنَفَتْ: أَعْلَمُ أَنَّكَ دَعَوْتَهَا، مِنْ أَجْلِ أَنْ تَطْلُعَ عَلَى
أَوْضَاعِ الْمُسْلِمِينَ، وَلَكِي تَعْرِفُ أَنَّهُمْ لَيْسُوا بِالسُّوءِ الَّذِي تَتَحَدَّثُ
عَنْهُ، وَأَنَّكَ حَضَرْتَ ذَلِكَ الْعِشَاءَ، بِكُلِّ طَاقَتِكَ عَلَى إِبْدَاعِ الْمَادِّ،
فِي مُحَاوَلَةٍ لِتَأْلِيفِ قَلْبِهَا، وَحَمَلِهَا عَلَى تَغْيِيرِ قَنَاعَاتِهَا.. وَلَكِنْ لَا
فَائِدَةَ.

قلت لها في حُزْنٍ شَدِيدٍ: «لن»!

قالت: لن⁽¹⁾..

قلتُ: وعلى الرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ، فَإِنَّا لَنْ نَكْفَ عَنْ الْمَحَاوَلَةِ..
أَنَا أَتَفْهَمُ غَضَبَهَا أَنْ غَيَّرْتَ دِينَكَ وَاتِّمَائَكَ، وَلَكِنَّهُ فِي حَقِيقَةِ الْأَمْرِ،
غَيْرُ مَفْهُومٍ مِنْ مُجْتَمَعٍ مُنْفَتِحٍ، دِيمُقْرَاطِيٍّ، يُمْلِي عَلَيْنَا لِيلاً نَهَارًا،
آيَاتِ الْحُرِّيَّةِ الشَّخْصِيَّةِ! أَعْنِي أَنْ مَفْهُومَهُمْ لِتَغْيِيرِ الدِّينِ، لَيْسَ
كَمَفْهُومِنَا عَنْهُ.

أَجَابَتْنِي: أَنْتِ مُخْطِئَةٌ تَمَامًا يَا صَدِيقَتِي.. مُخْطِئَةٌ تَمَامًا... رُبَّمَا
يَتَعَامَلُ مَجْتَمَعُنَا مَعَ هَذَا الْأَمْرِ، بِدَرَجَةٍ أَقَلَّ بِكَثِيرٍ مِنْ دَرَجَةِ الْعُنْفِ
الدِّينِيِّ الَّتِي تَتَعَامَلُ بِهَا مَجْتَمَعَاتُكُمْ، لَكِنَّهَا أَبَدًا، لَيْسَتْ بِأَقَلِّ إِثَارَةٍ
لِلسَّخَطِ وَالْغَضَبِ وَالْغَيْظِ الشَّدِيدِ، وَالشُّعُورِ بِاخْتِرَاقِ «الْآخَرِ»
لِلْمُجْتَمَعِ، وَالْإِحْسَاسِ الْمَرِيرِ بِالْهَزِيمَةِ.

(1) فِي إِشَارَةٍ إِلَى الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿وَلَنْ رَضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصْرَى حَتَّى تَنْبَغَ
مِلَّتُهُمْ﴾ سُورَةُ الْبَقَرَةِ، الْآيَةُ 120.

.. أن تموت في المحاولة.

● **كُلَّمَا** أَخَذْتُ الْأَوْلَادَ إِلَى مُجَمَّعِ «الْبَاغَوَادِ» التِّجَارِيِّ التَّرْفِيهِ، وَدَخَلْتُ هُنَاكَ سَوْقَ «الْكَامْبُو» الضَّخْمِ أَشْتَرِي حَاجِيَاتِنَا الْيَوْمِيَّةَ، كُلَّمَا اضْطَحَبْتُ أَطْفَالِي إِلَى الْحَدِيقَةِ، وَتَمَشَيْتُ مَعَهُمْ فِي حَيِّنَا «الْبِيلَارِ»، كُلَّمَا انْتَظَرْتُهُمْ أَمَامَ بَابِ الْمَدْرَسَةِ سَاعَةً انْصِرَافِهِمْ، كُلَّمَا اضْطُرْتُ لَخِدْمَاتِ الْإِسْعَافِ لِمَرْضٍ أَوْ حَادِثٍ، أَوْ إِلَى عِيَادَةِ أَحَدِ الْأَطْبَاءِ، كُلَّمَا بَكَرْتُ لِشِرَاءِ الْخُبْزِ أَوْ «التَّشُورُوسِ»⁽¹⁾ الَّذِي يُفْطِرُ عَلَيْهِ الْمَدْرِيدِيُّونَ أَيَّامَ الْأَحَدِ وَالْعُطْلِ وَالْأَعْيَادِ، كَمَا هُوَ الْفُولُ الْمُدَسَّسُ وَفَتَّةُ الْحُمُّصِ فُطُورَنَا الْمُفْضَلُ أَيَّامَ الْجُمُعَةِ، أَوْ كُلَّمَا ذَهَبْتُ مَعَهُمْ، إِلَى مَطْعَمِ «الْمَاكْدُونَالْدِ»، قَبْلَ مُقَاطَعَتِنَا لَهُ إِثْرَ انْدِلَاعِ انْتِفَاضَةِ الْحَرَمِ الْمُقَدَّسِيِّ.

كُلَّمَا اشْتَرَيْتُ كِتَابًا، وَجَلَسْتُ أَقْرُوهُ، وَأَنَا أَرَا قَبْ أَوْلَادِي وَهُمْ يَلْعَبُونَ، كُلَّمَا اعْتَدَى وَلَدٌ فِي الْمَدْرَسَةِ، عَلَى ابْنَتِي بِالسَّبَابِ لِأَنَّهَا ابْنَةُ «مُورَا».. وَشَتَمَهَا قَائِلًا: أَمَّا تَرْتَدِي الْحِجَابَ لِأَنَّ رَأْسَهَا يَأْكُلُهُ الْقُمَّلُ! أَسْأَلُ نَفْسِي لِمَاذَا؟ وَكَيْفَ؟ لِمَاذَا صَارَتْ حَيَاتِي بَيْنَ عَشِيَةِ وَضَحَاهَا، ضَرْبًا مِنَ الْعَذَابِ وَالْمُعَانَاةِ الدَّائِمَتَيْنِ، فِي هَذَا الْبَلَدِ؟ وَكَيْفَ أَصْبَحْتُ مَا بَيْنَ غَمَضَةِ عَيْنٍ وَانْتِبَاهَتِهَا، أَعْمَلُ بِصُورَةٍ

(1) Churros أكلة شعبية مدريدية - تعجن بالطحين والماء والملح وتقلي بالزيت الساخن جداً -، يتناولها الناس في فطورهم الصباحي في المقاهي والمطاعم والساحات والأمكنة الشعبية، وتؤكل طازجة ساخنة مع مشروب التشوكولاته الساخنة.

دائبة، على أنني دخيلة مُمْتَهَنَة؟! وسواءً اعترفت صُوبِجباتي، بهذا «الإحتقار»، أم لم يفعلن، فإنه حقيقة.. إنه واقع نعيشه جميعاً!

بعضنا يَعْرِفُ وَيَعْتَرِفُ، وبعضنا لا يريد أن يَعْرِفُ ولا يريد أن يَعْتَرِفَ! وَيُسَمِّونَ الاعتراف بهذا الوضع المُخْزِي «مُبَالَغَةً»! لأنهم يُريدون بالإنكار أن يدفعوا عن أنفُسِهِم الخزي والعار والشّعور بالإهانة.

ربما ظننتُ أن رأيَ أمّ مارتا فيّ، لا يعني لي الكثير! فأنا لا علاقة لي بإسلامِ ابنتها، لا من قريبٍ ولا من بعيد، ولم أعرفها إلا بعد إسلامها بسنوات، لكن أمّها تَكْرَهُني وتحسدني، و«تُعاقِبُني» لأنني صديقة ابنتها المُقَرَّبَة، تجدُ مارتا معي الأمان والطُمأنينة، وتشدُّ عَضْدَها بي كمسلمة إسبانيّة، وأجد أنا بدوري، لديها الأمان والطُمأنينة، وأشدُّ عَضْدِي بها كسورية مُضْطَرَّة للعيش في إسبانيا. كنتُ أظنُّ أنني غير عابئة، بما تصنعه أمّ مارتا، ومارتا نفسها، وما تقولانه.. ولكن وفي واقع الأمر كنتُ أكْذِبُ على نفسي! كان ذلك مؤلماً جداً!

ربما لم تكن مارتا تتمتع باللياقة الاجتماعيّة اللازمة، ورهافة الإحساس الصّروريّة، للتعامل مع أمرٍ بمثل هذا الإحراج، - فهي لا تتأخر عن إبلاغي رأيي والدتها فيّ على الدّوام، وبأفدع الأوصاف الممكنة! الشيء الذي صارَ وخلال السنوات الثلاث، التي كنا نَسْكُنُ فيها قريباً من بعضنا في الباغودا، مصدرَ ضَرَرٍ وإساءة، تَحَوَّلَتِ صُحْبَتِي معها مع مرور الأيام، إلى جلساتٍ تعذيبٍ وإهاناتٍ غير مُباشرة.. وكثيراً ما حرمتني النّوم بما نقوله، أجلسُ في فراشي، أضعُ رأسي بين يديّ، وأبكي.

ما الذي يمكن أن يحمل أمّ مارتا، على مثل هذه الكراهية والحقد؟ لعلها تشعر بالغيرة بسبب ثقة ابنتها العمياء بي؟ ولكن ما الذي يجعل مارتا تُواظب على هذه الأذية؟ لعلها أرادت أن

تُشْرِكُنِي فِي أَلَمِهَا الْكَبِيرِ، الْمَتْرَبِ عَنْ إِسَاءَةِ مُعَامَلَةِ وَالِدَتِهَا
وَإِخْوَتِهَا لَهَا.

بعض الناس لا يَشْعُرُ بِالرَّاحَةِ، إِلَّا عِنْدَمَا يَحِجُّكَ تُعَانِي دَرَجَةَ
مُعَانَاتِهِ نَفْسَهَا! بَعْضُهُمْ لَا يَرْضَى إِلَّا أَنْ يَعِيشَ جَمِيعَ مَنْ حَوْلَهُ، مِنْ
أَصْدِقَاءٍ وَرِفَاقٍ وَمَعَارِفٍ، نَفْسَ أَلَمِهِ بِحِذَافِيرِهَا، يُؤْذِيهِ أَنْ يَعِيشَ
وَحْدَهُ مَحْنَةً، وَأَنْ يَبْدُو أَنَّ مَنْ حَوْلَهُ فِي «عَافِيَةٍ»، وَلرَبَّمَا كَانُوا
غَارِقِينَ فِي مَحَنِهِمُ الْخَاصَّةِ الَّتِي تَدْعُ الْحَلِيمَ حَيْرَانًا!

لَعَلَّ مَارَتَا أَرَادَتْ أَنْ أَدْفَعَ مَعَهَا بَعْضَ «الْثَمَنِ»! ثَمَنَ شَعُورِهَا
الْقَاتِلِ بِالْغُرْبَةِ، فِي وَطَنِهَا وَيَسِّنْ أَهْلِهَا! وَكَأَنِّي لَا أَعِيشُ مَحْنَةً غُرْبَةً
قَاتِلَةً مُضَاعَفَةً، لَا وَطَنَ وَلَا أَهْلَ؟!

ولرَبَّمَا أُبْتَلِيَتْ بِدَرَجَةٍ عَالِيَةٍ، مِنْ قِلَّةِ الذَّوْقِ وَالْإِحْسَاسِ
بِالْآخِرِينَ!!؟

لَمْ أُحَدِّثْهَا عَنْ ذَلِكَ، كُنْتُ أَخْشَى أَنْ أَجْرَحَ مَشَاعِرَهَا، لَكِنْ
تَمَادِيهَا فِي إِيْذَانِي وَاسْتِمْرَارِي فِي السُّكُوتِ عَلَى الْأَذَى، تَكْفُلُ
بِتَلَاشِي عِلَاقَتِنَا الْأَخَوِيَّةِ الْمُؤَلِّمَةِ تِلْكَ، شَيْئًا فَشَيْئًا، وَمَا زَالَتْ.. لَا
تَفْهَمُ سَبَبَ إِعْرَاضِي وَابْتِعَادِي عَنْهَا!

هَنَّاكَ أَلَامٌ تَتَرْتَبُ عَنْ الْعِلَاقَاتِ الْحَمِيمَةِ مَعَ الْأَصْدِقَاءِ
وَالْإِخْوَةِ، تَفُوقُ فِي قُدْرَتِهَا عَلَى التَّدْمِيرِ، قُدْرَةَ الْمَوَدَّةِ عَلَى
الِاسْتِمْرَارِ فِي هَذِهِ الْعِلَاقَاتِ.

خَوَّرُ بَعْضُ النَّاسِ، يُخْرِجُ أَسْوَأَ مَا فِيْنَا مِنْ مَشَاعِرِ عُدْوَانِيَّةٍ،
وَتَسَامُحُ بَعْضُهُمُ الْآخِرِ الدَّائِمِ مَعَ أَخْطَاءِ الْآخِرِينَ، يُشَجِّعُهُمْ عَلَى
الِاسْتِمْرَارِ فِي الْأَذَى، مِنْ حَيْثُ يَدْرُونَ أَوْ لَا يَدْرُونَ

كَيْفَ يَرَانَا الْإِسْبَانُ؟؟ وَهَلْ يُمَكِّنُهُمْ أَنْ يَرَوْا فِي كُلِّ مَنْ غَيْرِ

هذا المُهاجر المُعتَر (1) المَغْلُوب على أمره؟؟ ماذا يَرون عندما يَنظرون إليَّ بهذا الشكل الوقح المُتَحَرِّش؟؟ هذه المُحتاجة؟ الغريبة؟ الأقل؟ الجاهلة؟ المَيِّتة جوعاً؟ المُهاجرة؟ المورا؟!

لا أستطيع أن أفهم طبيعة العدسات التي يَنظرون إلينا من خلالها، - أنا لا أرى نفسي، ولا أستطيع رؤيتها بهذه الطريقة التي يَروننا بها!! لست «مُهاجرة» بهذا المعنى المَزعوم في أذهانهم عن الهجرة والمُهاجرين، لم أترك بلدي وآتي إلى هذه البلاد طلباً لِلرِّزْق، أم أنني قد فعلتُ بطريقةٍ أو بأخرى؟! أرغمني أهلي على أن أَترك سوريا وما يجري فيها، وأن ألتحقَ بزوجي في إسبانيا، طلباً لأعظم ما في هذه الحياة، النِّجاة بِنَفْسي وعِرْضي وديني من الطُّغاة.

ماهي الهجرة إذًا؟؟ ولم أَصَبَحْتُ سُبَّةً، وتُهْمَةً، وعارًا على المُضْطَرِّين المَكْلُومين المُعذِّبين في الأرض؟!

هل تمتلك الدُّول الإِستِعماريَّة، الحقَّ في مَنع «الآخرين» من دُخول أراضيها، و«اقتحام» مُجتمعاتها؟ بعد أن اغتصبت هي أَرْضَهُم وثرواتِهِم ووجودَهُم وحرِّيَّتَهُم وكرامَتَهُم؟ لِمَ نعامل في هذه الدُّول التي تُلعِجُ بالديمقراطية والدِّفاع عن حقوقِ الإنسان، بهذا الحِقد المُبالغ بالإهانة والأذى الدَّائمين؟!

أَدْخِلْتُ رَغم أنفي، تحتَ خِيمةِ الهِجرة الواسِعة الضَّيِّقة، وأُجْبِرْتُ على أن أَصِبحَ وأعاملَ كمُهاجرة مثل كُلِّ المُهاجرين، أَحْمِلُ آمالَهُم وآلامَهُم، لأنني أنتمي إليهم، إلى وجودِهِم، أو بلا دِهِم، أو دينِهِم، أو مُعانائِهِم، أو غُرْبَتِهِم.. أو ذلك كُلِّه.

(1) في المعجم الوسيط: المُعتَر: الفقير. والمُعتَر الضَّيف الزائر. والمُعتَر المُتعرض للمعروف من غير أن يَسأل، وفي التنزيل العزيز: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَلْفَانِغَ وَالْمُعتَرَ﴾ آية 36 سورة الحج.

أصبحتُ بعد خمسة عشر عاماً، من إقامتي في إسبانيا «مهاجرة»! ماذا كنتُ قبل ذلك؟؟ وفي أي خانة كان يُمكن تصنيفي؟ لعلّي لا أختلفُ في حقيقة الأمر، كثيراً ولا قليلاً، عن ذلك الفتى «إبراهيم»! كان يتبرأ من الموروس لأنه سوريّ أبيض أشقر وُلد في إسبانيا، بينما لم أعد نفسي قطُّ مهاجرة، لأنني أرى نفسي سوريّة مثقفة متحضرة السلوك، أتيت إلى إسبانيا لأكون مع زوجي في سنوات تخصّصه!

لقد كان إبراهيم ابن أختنا ذاك الفتى الصغير، أشدّ صدقاً مع نفسه مني مع نفسي!

من الذي يُحدّد هويّتك؟ من الذي يَمْتَلِك هذا الحقّ في تأطير الآخرين، ويفرضُ عليهم انتماءاتٍ يرفضونها؟ من هذا الذي يمنح نفسه السُلطة المتعوّلة لإنشاء أقليّاتٍ منبوذة جديدة في هذا العالم المريض، يُسمّيها، يضعُ لها التّصور الذي يُوطّر حُدود وجودها.. يحدّها من الشّمال: رؤيّة الآخرين لها! ومن الجنوب: حرّيتك داخل سجنها! ومن الشّرق: تعاملك مع نفسك، ومع من ألزموا بأن يكونوا معك داخلها! ومن الغرب: محاولتك التّفاهم، مع من يظنون أنفسهم خارج حُدودها! ...

هل هو وجودي «أجنبيّة»، في إسبانيا، مع الرّوماني، والبولندي، والرّوسي، يُوجب عليّ، أن أدفع الثّمن فأعترف بأنني «مهاجرة»؟ أم أن انتمائي إلى «الأمة» نفسها التي ينتمي إليها البوسنيّ والتّركيّ والمغربيّ والفلسطينيّ والمصريّ.. هو الذي يُرغمني على دفع الثّمن؟ أم أنّهما الأمران معاً؟ فما دمت «غريباً» و«مختلفاً».. فعليك أن تدفع هذا الثّمن!

أصبحتُ «الغربةُ هويّة»..

فُرض على كلّ مهاجر أن تكون «هجرته» هي هويّته الإجباريّة الجديدة، هويّة مركّبة شائكة، متعدّدة الأبعاد، مُطبّقة

أضلاعُها علينا ولا أمل في إنْخِلاع أو خِلاص.. خصوصاً إن كنت مُسلِّماً، لأنَّك إذ ذاك ستدفع ثمن غُرَّتِكَ مرَّتين!

أنت غريب ومُهَاجِر و.. مُسلم، ثلاثيَّة تدفعُك للسَّير على درب الألام، في أي مجتمع أوروبِّي تُسَوِّقُ أقدارك للعيش فيه أواخر القرن العشرين.

«حجابي» هويَّة.. عِرْقٌ وقوميَّة ووطنيَّة، عقيدة وثقافة، وتصورات عن الإنسان والحياة والآخر.. هذا الآخر، المُخيف، المُرعب، الذي يغزو هذه القارَّة، بِفقرِه وذُلِّه، ووحدته وبُؤسِه، وتاريخه الذي يحمِّله، أثقالاً مُضاعفة على ظهره، وحاضِرِه المُحاصر بِشهوة «الإلتِهَام الإِسْعماريَّة»، وعجزِه عن الفعل، وعن التَّفكير، وعن التَّغيير.. فلا يحدُّ أمامه إلا أن يُلقِي بنفسه في لُجَّة البحر، وسيان عنده أحمَلته اللُجَّة إلى شواطئ النجاة والذلِّ، أم إلى مَوْتٍ يُريحه من مُكابدة واقِعِه المَمرير.

دَخَلْتَ تحت «جلبابي»، آهاتِ المُعذِّبين، وهوانُ المَساكين، وقَهْرُ المَغلُوبين على أمرِهِم، ومُعاناة الذين جاؤوا إلى هنا، مُجتازين المَضيق بأهوالِه، والصَّحراء بِفَجْيح قَيْطِها.

صارَ الموت، في مُحاولَةٍ بِحِثْكَ عن شيءٍ من كرامة، وشيءٍ من حُرِّيَّة، فَعَلَ تَحَدُّ واستَهْزَاءٍ بِوُجُودِكَ نفسه! فأنْ تَمُوتَ في المُحاولَةِ خيرٌ من أنْ تَمُوتَ قَرَفًا وتَعَفُّنًا!

حياتُ المُهاجِر في أورُبا - كما في كُلِّ المَهاجِر - سِلْسِلَةٌ من المَتاعِب، كِفَاحٌ مُسْتَمِرٌّ في طريق مَزورعةٍ بالأشواك، لا يُرغمُه على الإِسْتمرار في السَّير فيها، إلا غولٌ مُتَوَحِّشٌ في بلاده، فاتِحٌ فاهُ كُلِّ حين يُريد إبتِلاعه، كائنًا ما كان ذلك السبب الذي هاجر من أجله، سياسياً أم إقتصاديّاً أم إجتماعيّاً، أو البلد الذي جاء منه، فلسطين أم المغرب أم العراق أم غواتيمالا أم البيرو أم أفغانستان أم الشيشان أم سوريا.

تَصِلُ الحال بمعظمتنا إلى قَبول هذا الوضع، الذي يبدو شاذًّا مَقْلوبًا.. على الرِّغم من أنه يَسُودُ العالَمُ كُلُّهُ مُنذُ أَذْرَكَ العالَمُ نَفْسَهُ! كَلَّ الأنبياء قد تَرَكُوا أَرْضَهُمْ وَهاجَرُوا، مُعْظَمُ العابِقِرَةِ والعُلَماءُ لَمْ تُثْمِرْ أشجارُهُمْ إلّا في أَرْضِ غُربَةٍ — وَمَهْجَرٍ، دائِمًا.. كانت الهِجْرَةُ طَريقًا تُغْري الغُرباء بِسَرابِ أوطانٍ تُؤوِيهِم، ولكن.. نَدَرَ في التَّاريخ أن يَكُونَ الغَريبَ مَحْبُوبًا، والمُهَاجِرَ مَقْبُولًا مُرَحَّبًا بِهِ.. حتى لو كان نَبِيًّا.

الشُّعُورُ بِالإِهانةِ أَكْبَرُ مِنَ الإِبتِهَاجِ بِالنَّجاةِ مِنَ الغِيلانِ وَبِحُصُولِكَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ حُرِّيَّةٍ..

لا أَسْتَطِيعُ الإِسْتِسْلامَ لِهَذَا الوَضْعِ المُجْجِفِ، كُلُّ يَوْمٍ أَزْدَادُ إِنْغِماسًا فِي غُربَتِي، وَرَفْضًا لِحَيَاتِي عَلَى هَذِهِ الشَّاكِلَةِ، فِي هَذَا المُجْتَمَعِ الَّذِي ساقني قَدَري لِلعِيشِ فِيهِ بَيْنَ أَهْلِهِ، الَّذِينَ لا أَرى نَفْسِي فِي أَعْيُنِهِمْ، وَفِي كُلِّ لَحْظَةٍ، إلّا غُربِيَّةً وَدَخِيلَةً وَمُهَاجِرَةً! —

إِنَّهُمْ مَرَاتِنَا، الَّتِي نَرى فِيهَا فِدَاخَةَ مَصائِبِنَا، وَإِنَّا مَرَاتُهُم الَّتِي يَرَوْنَ فِيهَا كَذِبَ لا فِتْنَتِهِمْ، وَالوَجْهَ الآخَرَ البَشَعَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ!

تَعَبْتُ... لا يَمْضِي يَوْمٌ وَاحِدٌ، دُونَ أَنْ أَفْكَرَ فِيهِ بِطَرِيقَةٍ لِلخُرُوجِ مِنْ «جَحِيمِي» هَذَا، وَالْعَوْدَةِ إِلَى سوريَا، أَوْ إِلَى أَيِّ بَلَدٍ قَرِيبٍ مِنْهَا.. فِي الحَينِ الَّذِي كَانَتْ فِيهِ أَرْتالُ المُهَاجِرِينَ الآتِينَ مِنْ بَعْدِنَا لا تَتَوَقَّفُ! قَادِمِينَ مِنْ بُلْدانِ الخَوْفِ، وَالْحُرُوبِ، وَالْقَهَرِ، وَنَهَبِ الثَّرَوَاتِ، وَاسْتِلابِ الإرادةِ، وَاسْتِعْبادِ المَواطِنِ المَغْلُوبِ عَلَى أَمْرِهِ.. سَوَاقِ بَشَرِيَّةٍ تَتَدَقَّقُ بِإِسْئَةٍ لا تَتَوَقَّفُ...

لَيْسَ الجُوعُ قَطْعًا، أَحَدَ الأسبابِ الَّتِي تَأْتِي بِالمُهَاجِرِينَ إِلَى أَوْربَا، كَمَا يَحْلُو لِلأُورُوبِيِّينَ أَنْ يَتَوَهَّموْا! لَكِنَّهُ الجِرْمَانُ..

الجِرْمَانُ مِنْ أَنْ تَكُونَ مَخْلُوقًا ذَا حُرْمَةٍ، مُحْتَرَمًا، تُكَلِّبُ أَدْنَى حَاجَاتِكَ كإِنْسَانٍ.

لم يَكُنْ البَحْثُ عن الأمان، ولا تحصيل شيءٍ من كرامة،
ولا التَّحَقُّقُ بِهَلْوَساتِ «حُرِّيَّة» يَعْلَمُ الجميع أنها.. لن يكونَ لها أي
طَعْمٌ حَقِيقِيّ، ولا لَوْنٍ، ولا رائحةٍ، خارج أوطانِهِمْ.. لكنه الجوعُ
لحياةٍ بَشَرِيَّةٍ طَبِيعِيَّةٍ، في دولة طَبِيعِيَّةٍ، يَشْعُرُ فيها الإنسانُ بِإنسانيَّتِهِ
الطَبِيعِيَّةِ.

البَحْثُ عن سُلْطَةِ تَهْتَمَ بِكَ، تَعْطِفُ عَلَيْكَ، تُفَكِّرُ فَيْكَ، هو
الباعِثُ النَّفْسي الحَفِيّ الأول، على لائِحةِ المُوجِبات التي تَدْفَعُ
النَّاسَ إلى مُغادَرةِ البلاد التي يُعانون فيها من التَّغْيِيبِ والتَّضْيِيعِ
والإِهْمالِ.

تَغَيَّرَ وَجْهُ الهِجْرةِ السُّورِيَّةِ جُمْلَةً وَتَفْصِيلاً، وَمَقْصَداً،
وَأَسْبابُها.. يَأْتِي فَرْدٌ وَاحِدٌ، تَنْضَمُّ إِلَيْهِ زَوْجَتُهُ، وما يَلْبَثُونَ أنْ
يُصْبِحُوا أُسْرةً من سِتَّةِ أَفرادٍ، يَعْمَلُونَ على اسْتِقدامِ الجَدَّةِ،
وبعدها الجدَّ، ثم الأعمام والأخوال! عَائِلاتٌ كَامِلَةٌ بِأَجْيالِها
الثَّلاثَةِ هاجَرتْ من دِمَشقٍ وَحَمَصٍ على التَّخْصِيصِ، إلى مَدْرِدٍ،
خلال سنواتٍ قَلِيلَةٍ، فَراحين بما آتاهُم اللهُ في غُرْبَتِهِمْ، بعيداً عن
«مَزْرَعَةِ الأَسَدِ» التي انْتَهَتْ إِلَيْها سوريّا، بعيداً عن حَيَاةِ الخِرافِ،
والعُبودِيَّةِ، حَيَاةِ الذَّلِّ والعَذابِ والخَوْفِ والاسْتِعبادِ.

لم يَأْتِ بِهِمْ فَقْرٌ مُدْقِعٌ، بل انْعِدامُ الفُرْصِ، وسَدُّ الأبوابِ
في وَجُوهِهِمْ، وامْتِهاَنِهِمْ في أَرْضِهِمْ.. وَسَلَخُ هُويَّتِهِمْ، واغْتِصابِ
إنسانيَّتِهِمْ، وَعَوَزِهِمُ المُوجِعُ لِلشُّعُورِ بِالقُدْرَةِ على الحَيَاةِ كما
يُريدون.

لم يكن ما يجري فيما يتعلق بخروج النَّاسِ من دِمَشقٍ،
هِجْرةً.. كان نَزْوَحا جَماعِيًّا اِختياريًّا، إِنَّه هَجِيجٌ⁽¹⁾ شَعْبٍ يَبْحَثُ
عن خَلاصٍ.

(1) في القاموس المحيط: هَاجَجَهُ: الهَبَّوهُ التي تَدْفِنُ كُلَّ شيءٍ بالترابِ/ في =

كَلَّمَا الْتَقَيْتُ نِثَاءً، أَجِدُهَا مُبْتَهَجَةً، مُشْرِقَةً.. تُمْسِكُ بِيَدِ طِفْلِهَا
ذِي الْأَرْبَعَةِ أَعْوَامَ، وَتَحْمِلُ ابْنَتَهَا الْأَصْغَرَ، وَهِيَ تَنْتَظِرُ مَوْلَوْهَا
الرَّابِعَ.

- مَا شَاءَ اللَّهُ.. مَا شَاءَ اللَّهُ، كَانَ اللَّهُ فِي عَوْنِكَ، الْأَوْلَادُ
مَسْئُولِيَّةٌ كَبِيرَةٌ جَدًّا فِي هَذِهِ الْبِلَادِ، وَلَا أَنْصَحُكُمْ بِأَنْ تَقْعُوا فِي
الْخَطَا نَفْسَهُ الَّذِي وَقَعْنَا فِيهِ، نَحْنُ الَّذِينَ أَتَيْنَا قَبْلَكُمْ بِخَمْسَةِ عَشَرَ
عَامًا.

- عَنْ أَيِّ خَطَا تَتَحَدَّثِينَ، هَذَا أَجْمَلُ مَا فِي الْحَيَاةِ.. اللَّهُ
يَسَلِّمُهُمْ وَيَحْيِيهِمْ.

- آمِينَ آمِينَ.. لَكِنِّي أَتَحَدَّثُ عَنْ مَسْئُولِيَّاتِهِمُ الْكَبِيرَةَ جَدًّا.

قَاطَعْتَنِي: بِسْمِ اللَّهِ مَا شَاءَ اللَّهُ، أَيِّ مَسْئُولِيَّاتٍ، أَنْظِرِي حَوْلَكَ
إِلَى هَذِهِ الْأَقْمَارِ، بِسْمِ اللَّهِ مَا شَاءَ اللَّهُ، رُؤْيَا أَوْلَادِكَ تُشَجِّعُنَا عَلَى
الْإِنْجَابِ.. ثُمَّ بِسْمِ اللَّهِ مَا شَاءَ اللَّهُ، بِسْمِ اللَّهِ مَا شَاءَ اللَّهُ، إِذَا كُنْتُمْ أَنْتُمْ
تَقُولُونَ هَذَا، وَأَنْتُمْ أَسْرَةُ طَيْبٍ، فَمَاذَا نَقُولُ نَحْنُ وَزَوْجِي عَاطِلُ
عَنِ الْعَمَلِ!!

- هَذَا الَّذِي قَصَدْتُهُ! أَوْلَادِي وَكُلُّ أَوْلَادِ الْجِيلِ الْأَوَّلِ - إِذَا
كُنَّا نَعُدُّ جِيلًا أَوَّلًا - نَالُوا كَثِيرًا مِنَ الْعِنَايَةِ وَالرَّعَايَةِ، ذَلِكَ أَنْ مُعْظَمَ
الْآبَاءِ السُّورِيِّينَ كَانُوا مِنَ الْأَطْبَاءِ كَمَا تَقُولِينَ، لَمْ يَأْتُوا مُهَاجِرِينَ،
أَتَوْا لِلدِّرَاسَةِ، وَكَانَ أَهْلُهُمْ يَصْرِفُونَ عَلَيْهِمْ، وَالْأَطْفَالُ هُنَا
يَحْتَاجُونَ إِلَى الْمَالِ وَالْعِنَايَةِ وَالرَّعَايَةِ وَالْإِنْتِبَاهِ الدَّائِمِ.

- سَتِي.. يَرْزُقُنَا اللَّهُ بِهِمْ!

= معجم الأصوات: الهجيج: صوت الجيوش المستنفرة، وصوت الريح
الشديدة/ وفي معجم اللغة العربية المعاصرة والمعجم الغني: هَجَّ
الشَّخْصُ: فَرَّ إِلَى مَكَانٍ بَعِيدٍ مِنْ ظُلْمٍ وَنَحْوِهِ كَأَنَّهُ اشْتَعَلَتْ نَارُهُ.

- يا أختي ما اِخْتَلَفْنَا، ولكن إذا كان الأب عاطِلاً عن العمل،
فمن أين سيَأْكُلُون ويَتَرَبَّوْنَ.

- أَلَمْ تَعَلِّمِي أن هناك مُسَاعَدَاتٍ اِجْتِمَاعِيَّة ؟؟ والله إِنَّهُمْ
يُعْطُونَنَا كُلَّ شَيْءٍ، حتى إن «أُمَّ مَجْد» أَخَذَتْنِي مَعَهَا إِلَى مركز
العِنَايَةِ اِلِاجْتِمَاعِيَّة، لِنَجْلِبَ الحليب للاولاد.

- أُمَّ مَجْد .. أُمَّ مَجْد؟ زوجة الصيدلي؟ ! إِنَّهَا زوجة
صَيْدَلِي!!

- نعم.. ولم لا ؟ الخير مَوْجُود، هُم الْمُحْسِنُونَ، ونحن
الْمُسْتَحِقُّون!!

أَلَمْ نِي أن نكون في مَوْقِعِ الْمُتَسَوِّلِ، أَيْعَقُلُ أن نُبرر لأنفسنا
إِنْجَابَ المَزيد من الأطفال، نَتَعَيَّش على حَسَنَاتِ المَسَاعَدَاتِ
الِاجْتِمَاعِيَّة، الْمُخَصَّصَةِ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمُحْتَاجِينَ في إسبانيا؟!!

- يا أختي يا ثناء.. الأمر ليس بهذه البَسَاطَةِ، أنا أُحَدِّثُكَ عن
تَجْرِبَةٍ.. رَفَقًا بِكُمْ وبأبنائكم.

- بَلَا تَجْرِبَةٍ، بَلَا رَفَقًا.. الله يسعدك يا أُمَّ سَاحِدَةَ - يعني أنا -
نحن نأخذ على كُلِّ طفل مَوْلُود مُسَاعَدَةَ من الدَّوْلَةِ!
- كُلِّ شَهْرٍ؟

- لا حَبِيبَتِي، كُلِّ مَوْلُود!.. الله يسعدك، كأنك لا تَعِيشِينَ في
إِسبَانِيَا!

- وماذا تَفْعَل مُسَاعَدَةَ صَغِيرَةٍ كَهَذِهِ لِلطِّفْلِ في حَيَاتِهِ؟

رَنَّتْ ضِحْكَتُهَا الطَّيْبَةِ وَهِيَ تَقُولُ:

- لَكَ أُسْكُتِي، لَقَدْ أَتَيْتُ بِأُمِّي بِهَذِهِ المُسَاعَدَةِ، وبما سَيَدْفَعُونَهُ
لي عِنْدَمَا أَلِدُ الولد الرَّابِعَ سَآتِي بِأَبِي!.. قُولِي الله!!

هَلْ بَلَغْتَ الْأَحْوالِ بِنَا، هَذَا الْحَدَّ مِنْ اسْتِيسَاعَةِ الدَّلِّ
وَالصَّغَارِ؟ أَيْنَ وَصَلْنَا؟ وَأَيْنَ أَوْصَلْنَا حُكْمَ الْوَحُوشِ، خِلالَ
خَمْسَةِ عَشَرَ عَامًا بَعْدَ خُرُوجِي مِنْ بَلَدِي؟ صَارَ الشَّعْبُ السُّورِيُّ
دُونَ كِرَامَةٍ، مُتَسَوِّلاً، عَلَى أَبْوابِ مُنْظَمَاتِ الْإِغَاثَةِ فِي الْمَهَاجِرِ،
لَا يَهْمُهُ أَنْ يَمُدَّ يَدَهُ، لِيَسْخَذَ⁽¹⁾، مَا دَامَ يَسْتَطِيعُ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ تَأْمِينَ
لُقْمَةِ عَيْشِهِ، وَأَسْبَابِ اسْتِمْرَارِهِ .. دُونَ أَنْ يُفَكِّرَ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، أَوْ أَنْ
يَشْعُرَ بِالْإِهَانَةِ!

سَأَلْتُهَا فِي قَهَرٍ: أَلْهَذِهِ الدَّرَجَةُ وَصَلَتْ الْأُمُورَ فِي سُورِيَا؟
تَلَفَّتْ يُمْنَةً وَيُسْرَةً، وَسَأَلَتْنِي فِي رِيْبَةٍ شَدِيدَةٍ: عَنْ أَيِّ أُمُورٍ
تَتَحَدَّثِينَ؟

قُلْتُ: الْأُمُورَ الْمَعِيشِيَّةَ طَبْعًا...

قَالَتْ: نَحْنُ لَمْ نَكُنْ نَعِيشُ فِي سُورِيَا، لَا عَمَلٌ وَلَا كِرَامَةٌ وَلَا
حَيَاةَ.. هُنَا تُوفِّرُ لَنَا الدَّوْلَةُ كُلَّ شَيْءٍ، لَكَ «يُقْبِرُنِي سَمَاهَا» إِسْبَانِيَا،
«اللَّهُ يَخْلِيلُنَا»⁽²⁾ حُكُومَتَهَا، وَيُبَارِكُ لِأَهْلِهَا فِيمَا أَعْطَاهُمْ.. اللَّهُمَّ لَكَ
الْحَمْدُ، وَاللَّهُ يَا أُخْتِي عَائِشِينَ وَمَبْسُوطِينَ تَمَامَ التَّمَامِ، هُنَا، أُلِدْتُ فِي
أَحْسَنِ الْمُسْتَشْفَيَاتِ، أَخَذَ أَوْلَادِي إِلَى الطَّيِّبِ وَالْمُسَبِّحِ وَحَدِيقَةِ
الْحَيَوَانَاتِ، وَاتَّعَلَّمْتُ قِيَادَةَ السَّيَّارَةِ، وَأَصْبَحَ عِنْدُنَا سَيَّارَةٌ، صَحِيحٌ

(1) فِي الْمَعْجَمِ الْغَنِيِّ: شَحَذَ النَّاسَ، سَأَلَهُمْ مُلِحًّا. شَحَتَ. الشَّحَاذُ:
الْمُسَوِّلُ، الْمُسْتَغْطِي.

(2) «يُقْبِرُنِي سَمَاهَا» تَعْبِيرٌ سُورِيٌّ عَنْ مَتْنَيْ الْمَوَدَّةِ، حَدَّ أَنْ يَتَمَنَّى الْمَرْءُ
الْمَوْتَ قَبْلَ حَبِيبِهِ فَيَدْفِنُهُ ذَاكَ فِي قَبْرِه/ «اللَّهُ يَخْلِيلُنَا» بِمَعْنَى أَنْ يَبْقَى
ظِلُّهَا عَلَيْنَا.

أنها مُستعمَلة، ولكنها سيارة، وأُدْرَس اللغة الإسبانية في حصص
بعد الظُّهر في نفس مدرسة أولادي..

هناك.. لا توجد حياة، هناك لم أكن أعيش.

هكذا إذا، يَجِدُّ المهاجرون الجُدُّ طوق النَّجاة، من ضَغْطِ
إحساسِهم بمحيط الكراهية والإزْدراء، الذي نَغْرَق فيه وَيَعْرِقُون.

مقارنةً بسيطة، بين الأوضاع التي يعيشونها في بلادهم، مع
ما استطاعوا الحصول عليه في بلد المهجر، تجعلهم يَتَهَجَّجون
بوجودهم في إسبانيا، الشُّطَّار هناك يَخْبِطون وَيَتَخَبَّطون ولا
يُحْصَلون إلا الفئات، يَظَنُّون أن شَطَّارَتَهُم أَتَتْهُم بِالْمَكاسب، التي
ليست غير حقوقٍ أساسية، تُوفِّرها دُولُ الحقوق والقوانين، لكلِّ
فصائل المخلوقات الحيَّة التي تُقيم وتَتَوَاجَد على أراضيها.

بينما تَجِدُّنا - مُعْظَمُنا نحن «قُدَّامَى المهاجرين» بفارق خمسة
عشر عاماً - مُكْتَبِّين دائماً، مُكْفَهَرَة مَشاعِرنا، تجاه أي حادِث أو
حادِثٍ عُنْصُرِيٍّ مع الإسبان، ومهما كان تافهاً..

ءَأَغْبِطُهُمْ أَمْ أَحْسَدُهُمْ؟ هؤلاء الذين يستطيعون الإفلات من
قَبْضَةِ الشُّعُورِ المُوجِعِ بِالكَرَامَةِ؟

لم نَسْتَطِعْ على الرِّغم من مُرُور الأيام والأعوام، التَّأقُّلُ مع
نظرات البغضاء والرفض، وتعليقات الإسبان اللاذعة، التي لا
تَدْعُنَا نعيشُ بسلام ولا أَمْن، إنها العلاقة العاصِفة ما بين الشُّعُورِ
الْمُنْصَحْخَمِ بالكرامة، والشُّعُورِ الْقَارِضِ بِمَقْتِ الآخرين لك
وَرَفْضِهِمْ وجودك بينهم!

أين المَفَرِّ؟ خصوصاً بعدما يَدْخُلُ المهاجر ذلك السَّرْدَابُ
الْوَلَوْبِيَّ الْمُتَحَرِّكِ بِسُرْعَةٍ تدعو إلى الغثيان، كأنه في مدينةٍ لِلتَّعْذِيبِ
لا لِلْمَلَاهِي! يَلْتَفُّ على نفسه مُتَخَبِّطاً، مُتَمَدِّداً داخلَ المَتَاهَةِ، هناك

وفي نفس الآن، يُعاني أهوال الانفصال عن الجذور، وعذابات ضياع القدرة على الإبداع⁽¹⁾.

كل شيء يتفكك من بين أصابعك تفكك الماء، فأينما تتكسر الإهانة فثم شعب لا وطن يلتمه⁽²⁾ ويؤويه ويحميه.

أنت أمام خيارين.. إما أن تبدأ بالإنسلاخ البطيء الطويل المؤلم عن الوشائج التي تربطك بما خلفته وراءك، لأنك تفتقر إلى المروعة والتصميم، أو أن تعمل بفهلوية⁽³⁾ وشطارة⁽⁴⁾، فتأتي بما يُمكّنك ممن أو ممّا خلفته وراءك ليكون معك في غربتك.

هكذا، ومع الوقت.. تفقد قدرتك ورغبتك في الاستمرار في بناء الجسور، التي يُمكن لغيرك - من الإسبان أو من ربّيع⁽⁵⁾ - أن يُدّمروها في طرفة عين.

كأنما جعلتنا أقدارنا في هذا البلد عمال بناء، لا بنائين.

(1) في المعجم الرائد: أَيْنَعَ الثمر إيناعًا: أدرك ونضج وحن قطافه.

(2) في معجم اللغة العربية المعاصر: لَمْ اللهُ شَعْنَهُ: جمع ما تفرّق من أموره وأصلح من حاله / لَمْ أدواته جمعها وضمّها.

(3) في معجم اللغة العربية المعاصر - بتصرف - : الفهلويّ: كلمة فارسية. - تُستخدم في اللهجة الشامية المحلية تعني محتال، بارع، شاطر، قادر على التكيف السريع مع متغيرات المجتمع/ وتطلق كلمة «فهلوية» على اللغة الفارسية نفسها.

(4) في المعجم الرائد: شطارة: تجمع معاني كالذكاء، والدهاء، وحسن التصرف، وحسن التخلص، والخبث، والحنكة.

(5) في معجم اللغة العربية المعاصر: رَبُّعُهُ: هم أهل بيت الرجل وقومه.

-وَيَجْعَلُونَ وُجُودَكَ بَيْنَهُمْ مَوْلًى-

● **يومياً** يأتي جدِّي الشَّيْخُ في المَنام، يَسْأَلُ عَنِّي، يُحَدِّثُنِي وأنا أَجْلِسُ إلى جِوارِهِ في مَجْلِسِ صَلَاتِهِ، أَقْرَأُ في كِتَابِ «الأَحَادِيثِ الْقُدْسِيَّةِ»، وهو يَشْرَحُ وَيُفَنِّدُ، عَندَما يَقْتَرِبُ انْتِصَافُ اللَّيْلِ، يَقُومُ إلى المِذْيَاعِ، يُقَرِّبُ أُذُنَهُ مِنْهُ يَسْتَمِعُ، لِكَي لا يُزَعِجَ جَدَّتِي النَّائِمَةَ في الغُرفةِ المُجاوِرَةِ، فَجَآءَ وهو يُقَلِّبُ المَحَطَّاتِ، تَخْرُجُ أُغْنِيَّةٌ لَأَمِّ كُلْثُومٍ.. يَبْقَى جَدِّي عَلى حَالِهِ يَسْتَمِعُ مُتَأَثِّراً، بِانْتِظَارِ نَشْرَةِ الأَخْبَارِ.

أَيَجُوزُ الإِسْتِمَاعُ إلى أُمِّ كُلْثُومٍ يا جَدُّو؟ أليس الإِسْتِمَاعُ إلى الغِناءِ حَراماً؟؟

يَلْتَفِتُ إِلَيَّ وَيَقُولُ: التَّنَطُّعُ هو الحَرامُ.. أنا لَمْ أُبَحِّثْ عَن أُغْنِيَةِ أُطْرُبُ لَهَا، كَنتُ في انْتِظَارِ نَشْرَاتِ الأَخْبَارِ فَخَرَجَتِ الأُغْنِيَّةُ.. هَلْ تُرِيدِينَ أَنْ أَقْفِزَ عَن كُرْسِيِّي في مُتَنَصِّفِ اللَّيْلِ، أَصِيحُ في وَجْهِ العَالَمِ، أَنَّنِي لا أَسْتَمِعُ إلى الغِناءِ! عَجِيبٌ هَذا التَّوَجُّهُ لِلتَّنْيِيشِ في قُلُوبِ النَّاسِ وَأَفْعَالِهِمْ! هَذا التَّوَجُّهُ أَخْطَرُ بِمِائَاتِ المَرَّاتِ مِنْ اجْتِرَاحِ السَّيِّئَاتِ، فَالسَّيِّئَةُ يَمْكَنُ التَّوْبَةُ مِنْهَا وَالْإِفْلَاحُ عَنْهَا، أَمَّا هَذا فَهُوَ مَرَضٌ خَبِيثٌ، أَلْعَنَ ما فِيهِ أَنْ أَصْحَابَهُ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ عَلى حَقٍّ!

أودُّ أَنْ أُنَاقِشَهُ، أَنْ أُبَحِّثَ مَعَهُ هَذهِ المَسْأَلَةَ العَويصَةَ، الَّتِي يَبدو أَنها تُقَضِّصُ مَضَاجِعَ الأُمَّةِ المُقْتَحِمَةِ مَحَاضَاتِ الهَلَاكِ⁽¹⁾!

(1) حَدِيثٌ: «أَلَا هَلَكَ الْمُتَنَطَّعُونَ أَلَا هَلَكَ الْمُتَنَطَّعُونَ، أَلَا هَلَكَ الْمُتَنَطَّعُونَ»/ الراوي: عبد الله بن مسعود/ أخرجه مسلم.

لكنني لا أتجرأ.. سيقول لي: كفاكم ليلاً لعناق النصوص بغير علمٍ
ولا هدى.. كفاكم إهانةً للعقول باسم الإسلام.

أستيقظُ من نومي لصلاة الفجر، ولا أعرف هل كان ذلك
من تداعيات الذاكرة، أم من ملاحظات كوابيس ليالي الغربة؟!
أزقبُ حجمَ هذا السرطان ينمو في رُوحِي، يُعشعش فيها
كشجرة صبار، يعطشها، بأشواكها، بوخشتها، بنأيها، بكبرياتها،
واقفةً هكذا تحت لفح الشمس، وخذها، بعيدةً شامخة، لا تنحني،
ولا تتمكّن من الانحناء، ولا الالتواء، ولا أن تحنّ إلى شجرة
تلتفت حول بعض أغصانها.. تُعانقها، ولا أن تشتاق إليها نبتةً
مجاورة، تقترب لتمنحها ظلاً ومواساة.

أثناء زيارة إلى الدار البيضاء، عاصمة المغرب، اكتشفت.. أن
شجيرات الصبار الإفريقيّة، تطرح ثمرًا يُلَوّن المشهد بكلّ درجات
تداخل اللونين الأصفر والأخضر، وأزهاراً أرجوانيّة وزرقاء، تُنشر
بهجةً وأملًا.. يا لأزهار الصبار الإفريقيّ المدهشة!

يا لكرم الحياة إذ تمنحك أسرار سحر المعرفة ما بين الشوك
والجمال، وأنت تظن أنك مريض بالسرطان، قد فقدت القدرة على
التمتع بالحياة! وتهديك أوقاتاً عامرة بالكشوفات والحكمة، بينما
أنت تُفكر بالقفز من السفينة.

يا لتلايف الذاكرة كم تحمينا من الذوبان، والإنذار،
والضياء.. كلما قسا واقعنا وبدت الطريق مُقفرة.

تمتدُّ إليك يدُ حانية، تخرج من جُبّ الأيام الخاليات، تُذكرك
بأنك لست وحدك، ولن تكون، وأن الآلاف، بل ملايين الغرباء
يسرون معك، مسيرة حافلة بالصخب والأمل.

صوتُ جدّي لا يفارقني، صوتُ أمّي لا يفارقني، مافتنا معي
يرشدان، يعلمان، يؤنسان، يمسحان دموعه، يضحكان، يحملان
شمعة تُنير عتمة.

صَوْتَانِ أَصْرًا عَلَى الرَّحِيلِ مَعِيَ مِنْ دِمَشْقَ، وَالْبَقَاءُ مَعِيَ فِي
مَدْرِيدَ، لَا يُبَارِحَانِ، لَا فِي الْمَنَامِ وَلَا فِي الْيَقَظَةِ.

الْخَوْفُ مِنَ الضَّيَاعِ بَغِيضٌ مُرْعِبٌ، أَنْ لَا تَجِدَ الْبُوصْلَةَ،
مُخِيفٌ، مُوجِعٌ .. أَنْ تَقِفَ وَسَطَ الطَّرِيقِ، فَلَا تَسْتَطِيعَ رُؤْيَا مَا
وَرَاءَكَ، وَسَطَ الظَّلَامِ وَالْغَمَامِ، وَلَا رُؤْيَا مَا أَمَامَكَ، لِأَنَّ الْعَاصِفَةَ
شَدِيدَةَ وَالْمَطَرَ غَزِيرَ.

تَمْضِي الدَّقَائِقُ، وَالسَّاعَاتُ، وَالْأَيَّامُ، وَالْأَشْهُرُ، وَالسَّنَوَاتُ،
وَتَقِلُّ شَيْئًا فَشَيْئًا الْتِفَافَاتِ الْمَرَّةِ إِلَى الْوَرَاءِ، وَتُصْبِحُ الطَّرِيقُ نَحْوَ
الْوَطَنِ شَدِيدَةً الْوُغُورَةَ، أَوْ مَقْطُوعَةً، وَتِلْكَ الْوُجُوهُ الَّتِي تَزْدَحِمُ
أَصْوَاتُهَا فِي الذَّاكِرَةِ، تَلَاشَتْ مَلَامِحُهَا، بَقِيَ أَصْحَابُهَا فِي قَعْرِ
الْوُجْدَانِ، خَيَالَاتٍ مِنْ بَعْضِ عَذَابِ، مُقِيمِينَ فِي الْقَلْبِ، جِرَاحًا
تَنْزِفَ، وَلَكِنَّكَ وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ هَذَا النَّزِيفِ الْأَلِيمِ، لَا تُرِيدُ لِقَاءَ
مَعَهُمْ! لَقَدْ تَغَيَّرَتْ وَتَغَيَّرُوا، وَابْتَعَدْتَ وَابْتَعَدُوا، اِرْتَفَعَتْ بَيْنَكَ
وَبَيْنَهُمُ الْأَسْوَارُ، أَسْوَارُ الْحُدُودِ، وَالْمَطَارَاتِ، وَالْمَحَطَّاتِ،
وَأَسْلَاكَ الْهَاتِفِ، أَسْوَارُ الْعَادَاتِ، وَالتَّقَالِيدِ، وَتَرَكَمُ الْأَيَّامِ وَالْآلَامِ.
تُفَضِّلُ أَنْ يَبْقُوا فِي نَفْسِكَ، صُورَةٌ مُتَحَرِّكَةً جَمِيلَةً، زَاخِرَةً
بِالْحَيَاةِ وَالْحَرَكَةِ، كَهَيْئَتِهَا يَوْمَ تَرَكْتَهَا، حُبًّا وَخَنِينًا حَيًّا، كَمَا هُمْ، مِنْ
دُونِ أَنْ تَكُونَ قَدْ مَسَّتْهُمْ يَدُ الزَّمَانِ وَلَا النِّسيَانِ، عَلَى أَنْ تَلْتَقِيَ بِهِمْ
وَقَدْ تَغَيَّرَ فَيْكَ وَفِيهِمْ كُلُّ شَيْءٍ - عَلَى مَا يَبْدُو - تَصْطَلِدُ الصُّورَةُ
بِالصُّورَةِ، وَالْجُرْحُ بِالْوَاقِعِ، وَتُكْشِفُ الْأَيَّامُ عُمُقَ الْهُوَّةِ بَيْنَكَ
وَبَيْنَهُمْ.

قَلِيلُونَ جِدًّا مَنْ يَفْهَمُونَ هَذِهِ الْوَرُطَةَ⁽¹⁾ .. «وَرُطْتَنَا»، الَّتِي
كَانَ الْجَمِيعُ يُمَرِّرُونَهَا مِنْ خِلَالِ تَصَوُّرَاتِهِمْ عَنْ قَسْوَةِ قُلُوبِنَا، الَّتِي
يَقُولُونَ إِنَّهَا اكْتَسَبْنَاهَا مِنْ إِقَامَتِنَا بَيْنَ الْأُورُوبِيِّينَ! لَمْ يُعَانُوا سَقَمَ

(1) فِي الْمَعْجَمِ الْوَسِيطِ: الْوَرُطَةُ: أَرْضٌ مَنْخَفِضَةٌ لَا طَرِيقَ فِيهَا/ الْوَرُطَةُ:
الْهُوَّةُ الْغَامِضَةُ الْعَمِيقَةُ فِي الْأَرْضِ.

الإنقطاع، كانوا يترددون كعصافير السنونو ما بين المهجر والوطن، الذي اهترأت صلاتنا به إلا من خلال رسائل ذهابت غاديات، شحت بعدما أنهكتها الكلمات ونزف العاطفة، أو عبر هوائف شهرية، جعلت ذلك الوطن في رؤوسنا، مجرد أصوات تمرر أسلاكها أخبار الأهل، التي «يراقب» ما يمر فيها الجميع، أو في زيارات الأهل، التي باعدت فيما بينها الشيوخه دبّت في مفاصل الحياة.

كانت أمي تقول لي كلما هاتفتني: ليتهم يخترعون هوائف تتمكن فيها من رؤية بعضنا؟ ليتهم يخترعون شيئاً، نكبس فيه زراً فتصبحون فيه عندنا أو نصبح عندكم، ليت سوبرمان كان حقيقياً.
من لا يصاب بمصيبتك نفسها، كيف له أن يفهم حجم معاناتك وألمك؟

أنت مُدنف⁽¹⁾.. وهم يتمتعون بتلاوة ترانيم الأشواق.

تستفهم ثناء مُستغربة جداً: كيف لا تريد شيئاً من الشام؟ عمي سيأتي بعد أيام، ويمكنه أن يمر على دار أهليك، مكتوب؟ صورة؟ علبة برازق؟⁽²⁾ شيء من رائحة أمك.. ويل لي إن فعلت هذا بأمي.

أنظر إليها مكلومة وأعطها.. ليتني كنت مثلها؟ ليتني أستطيع أن أشرح لها؟ ليتها تستطيع أن تفهم مشكلتي؟ كان المراسيل يؤذوننا في أهلنا، وكانوا يجعلون من أنفسهم ولاة أمرنا في غيابنا، وكانوا قد تسبوا، بأن لا نطلب من أحد بعدها أن يعرج على دارنا في دمشق يأتينا منها بخبر.

يذهبون للإطمئنان والطمأننة، ويعودون بمشكلات لا أول لها

(1) معجم اللغة العربية المعاصر: أدنف المرض فلاناً: أضناه، أتعبه، أثقله.

(2) في المعجم الرائد: برازق: كعك رقيق بالسمسم.

ولا آخر بيننا وبين أهلنا، وبيننا وبين أطراف ثالثة لا علاقة لنا بها
ولا علاقة لها بنا.

اتَّخذ أبو ساجدة قرارًا قطعياً، بالألّا نُرسل مع مُغادرٍ إلى سوريا
أي شيء، وألّا نطلب من آتٍ منها أي شيء.

بَعْدَ أَنْ تَعِبْتُ، وَأَسْنَتُ، وَمَنَعَهَا الْمَرَضُ مِنْ زيارتنا، كما
كانت تفعل كُلَّ عامٍ مَرَّةً أو مَرَّتَيْنِ، أَصْبَحْتُ أُمِّي فِي حَيَاتِي مُجَرَّدَ
صَوْتٍ، صَوْتُ يَتَعَلَّقُ بِمَباشرَةِ بِصَمَاماتِ الْقَلْبِ، وَبَبْضِ الشرايينِ،
صَوْتُ هُوَ الرُّوحُ تَرْتَدُّ إِلَيْكَ بَيْنَ الْفِينَةِ وَالْفِينَةِ، هُوَ الْحَبِيبُ يَأْتِي
عبر الهاتفِ مَرَّةً فِي الشَّهْرِ، وَربما مَرَّةً فِي الْأُسْبُوعِ..

الآهاتُ، والذِّكْرِياتُ، وَحِكاياتِ الْأَهْلِ والجيرانِ، صارت
تُروى عبر هاتِفٍ يَلْهَثُ.

الحُبِّ، واللَّهْفَةِ، والشُّوقِ، والجِرْمانِ.. كانت تُخْتَصِرُ
جَمِيعُها فِي عِباراتٍ تَفْتَعِلُ الْقُوَّةَ وَالصَّمُودَ، الْمَرَضُ، وَالْيَأْسُ،
وَالْإِكْتِئابُ.. أَصْبَحْتُ تَصُبُّ فِي خِلافاتٍ وَدِيَّةٍ حَوْلَ أَتْفِهِ
الْأَسبابِ.

فُقْدانِ الْوَلَدِ أَيامِ الشَّيْخُوخَةِ الْقاسِيَةِ تَسْتَجِدِي الْعَطْفَ
وَالصُّحْبَةَ، لَا يَعْدِلُهُ إِلَّا فُقْدانِ الْأُمِّ فِي سَاعَاتِ الضَّعْفِ وَالْفاقَةِ
الْإِنْسَانِيَّةِ إِلَى الْحَنانِ، وَأَنْ تَأْخُذَ بِيَدِكَ، تَضُمَّكَ إِلَى صَدْرِها لِتُسَكِّنَ
فؤادَكَ: أَنْ لَا بَأْسَ عَلَيْكَ، غَدًا يَوْمَ آخِرِ جَدِيدِ.

هَذِهِ اللَّجَجُ مِنَ الْمَشايعِرِ، أَصْبَحْتُ فِي غُرْبَتِي أَشْباحًا،
تَسْتَعَصِي عَلَى ارْتِداءِ الْكَلِماتِ.

أُمِّي تَفْتَعِلُ الْقُوَّةَ، وَأَنَا أَسْتَنْسِخُ مِنْها الصَّلابةَ.. وَكثيرًا ما
نَتَشاجرُ فِي الْهاتفِ، لِأَنِّي لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَقُولَ لَها: إِنِّي أُحِبُّكَ،
وَأَفْقِدُكَ فِي حَيَاتِي، وَأَحْتَاجُ إِلَيْكَ، لَا أُرِيدُ أَنْ أَتَسَبَّبَ لَها بِالْبُكاءِ،
فأنا أَعْلَمُ أَنها لَمْ تَعُدْ تَقْوَى عَلَى السَّفَرِ، كَمَا كَانَتْ تَفْعَلُ مِنْذُ

وَصَلْتُ إِسْبَانِيَا، كَانَتْ هِيَ وَأَبِي يَتَحَمَّلَانِ مَا فَوْقَ طَاقَتِهِمَا لَزِيَارَتِنَا،
حَتَّى لَا تُفَكِّرْ نَحْنُ فِي الدَّهَابِ إِلَى سُورِيَا.. أَرْضَ الْغِيلَانِ.

- اللهُ يَرْضَى عَلَيْكَ يَا بِنْتِي لَا تَنْزِلِي إِلَى سُورِيَا.. وَمَاذَا فِي
سُورِيَا يَجْعَلُكَ تُرِيدِينَ زِيَارَتَهَا؟

- فِيهَا كُلُّ شَيْءٍ يَا أُمِّي.. كُلُّ شَيْءٍ، هُنَا لَا يَوْجَدُ أَيُّ شَيْءٍ!

تَقُولُ وَهِيَ تَغَالِبُ الدَّمْعَ:

- كَمْ هُوَ مُضْحِكٌ مَا تَقُولِينَ، النَّاسُ يَحْسُدُونَكَ عَلَى أَنَّكَ فِي
إِسْبَانِيَا، وَيَحْسُدُونَكَ أَنَّنَا نَأْتِي لَزِيَارَتِكَ وَزِيَارَةَ إِسْبَانِيَا.. هُنَا زَوْجُكَ
وَأَوْلَادُكَ، هُمْ وَطَنُكَ.

- أَرِيدُ أَنْ أَرَى حَارَتِي، أَنْ أَمْشِيَ فِي بَلَدِي، أَنْ أَزُورَ جَامِعَتِي،
أَرِيدُ أَنْ أَشْتَرِيَ «مُثَلَّجَاتٍ مِنْ بَكْدَاش»⁽¹⁾ فِي «سُوقِ الْحَمِيدِيَّة»..
أَرِيدُ أَنْ أَتَذُوقَ طَعْمَ «كَعْكَ دِمَشْقِ الْإِسْفَنْجِي» الَّذِي لَمْ أَذُقْ مِثْلَهُ
مَنْذَ غَادَرْتُ الشَّامَ، أَرِيدُ أَنْ أَكُلَّ خَوْخًا أَخْضَرَ..

- سَأَتِيكَ بِخَوْخٍ أَخْضَرَ، لَدَى عَوْدَتِي فِي الْعَامِ الْقَادِمِ إِنْ شَاءَ
اللهُ، سُورِيَا مَا عَادَتْ سُورِيَا يَا مَامَا! صَارَتْ أَرْضُ أَهْوَالٍ، أَتَوَسَّلُ
إِلَيْكَ بِاللَّهِ أَلَّا تُفَكِّرِي فِي الْعَوْدَةِ، مَا دَامَ الْوَحْشُ بَاقِيًا فِي الْحُكْمِ.

- سَبِّحَانَ اللهِ؟ أَلِهَذَا الْحَدِّ أَنْتُمْ خَائِفُونَ؟

- لَا يَا ابْنَتِي.. لَا، بَلْ لِهَذَا الْحَدِّ، «هُمْ» مُخِيفُونَ!

يُحَدِّثُنَا أَبُو سَمِيرٍ، الَّذِي كَانَ فِي زِيَارَةِ ابْنِهِ، أَثْنَاءَ زِيَارَةِ أَهْلِي
الْأَخِيرَةِ، وَكَانَ يُرَافِقُ أَبِي فِي مَدْرِيدٍ، مُدَّةَ بَقَائِهِمَا فِيهَا، يُحَدِّثُنَا فِي
قَهْرِ وَاسْتِكَاثَةِ الْجَرِيحِ، عَنْ أَصْدِقَائِهِ، جُلُثُهم مَاتُوا، وَهُوَ «لَمْ يَمُتْ»
- كَمَا كَانَ يُرَدِّدُ طَوَالَ الْوَقْتِ -، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ تَجَاوَزَ الثَّالِثَةَ

(1) محل شهير لبيع نوع خاص من المثلجات الدمشقية بالقشدة والفسق
تدعى «بوطة بكدش» تقدم في الأفراح والمناسبات.

والسبعين! قال: أريد أن أموت يا عمو⁽¹⁾، أريد أن أرتاح، أشتاق إلى أمي.. ويكي: ما عدت أحتمل هؤلاء الخنازير، إنهم يخنقوننا، يُسيطرون علينا، أصبحنا بلا كرامة يا عمي⁽²⁾.. بلا كرامة.

يَصْمَتْ قليلاً، ثُمَّ يَسْتَأْنِفُ الحديث: ابن جارتنا سُمَيَّة في الصف الخامس، يَخْتَصِمُ مع ابنِ المُدْرَسَةِ، فَتَأْخُذُهُ أمام المدرسة كُلَّهَا، وَتَضْفَعُهُ على وجهه، وَتَنْهَالُ عليه بالضرب، ثم تدوس قلبه بِكَعْبِ حِذَائِهَا، وتقول له: أَتَتَجَرَأُ أيها الكلب وترفع يدك على أسيادك؟

في اليوم التالي، تأتي إلى المدرسة في سيارة لِلْمُخَابَرَاتِ، يَنْزِلُ مِنْهَا زوجها الضابط المُخِيف.. ويقول لِسُمَيَّة، وكانت تنتظر في الإدارة: كلمة واحدة مني، وأرُميك في فرع الأَمْنِ رَمَي الكلاب الجرباء!

سُمَيَّة لم تَسْكُتْ، قالت له: هذا بلدي، وهذا ابني، وهنا قانون يحميني! وسأشكوك إلى السيد الرئيس!

فيقول لها الرجل وهو يضحك: قانونك تحْتَ حِذَائِي.. و«يَدُكَ وما تُعْطِيهِ»!!⁽³⁾

لا تَسْتَطِيعُ سُمَيَّة تغيير المدرسة، لِظُرُوفِ سَكْنِهَا، تَضْطَرُّ لِتَرْكِ ابْنِهَا بين براثن تلك الوحوش، وَتَعُودُ صَاغِرَةً مَكْسُورَةَ الخاطر إلى بيتها.

يَهْذِي أبو سمير: أريد أن أموت يا عمي، اِشْتَقْتُ لِأُمِّي، أريدُ

(1) تحوير عامي شعبي لكلمة «عمي» باللهجة الشامية، وأصلها «يا عمّاه».
(2) صيغة مخاطبة عامية، تستخدم في لهجات جميع بلاد الشام بالنداء العكسي، مؤداها منتهى التودد، كأن تقول الأم لابنها «يا أمي»، والأب «يا أبي»، والمقصود بها «يا حبة قلب أمك أو عمك».
(3) مثل شامي يعني: مُدَّ يَدُكَ بما تستطيعه وتبدله، وفعل ما بدا لك، وما في وُسْعِكَ.

أن أرى وجهها.. أدع الله أن يُفكَّ أسري من هذه الحياة، أريدُ أن أُرَحِّلَ.

لماذا تُريدُ أن تعودَ إلى وَطَنِكَ؟ أنتَ أعجزُ من أن تَقْلَعَ عَيْنَ تلكَ المُعَلِّمَةِ المُتَنَمِّرةِ، التي عَرَّزَت كَعْبَ حِذَائِهَا فِي قَلْبِ ذَلِكَ الطفلِ ذِي العَشْرَةِ أعوامٍ! ولا تَسْتَطِيعُ أن تَقْلَعَ أَعْيُنَ كُلِّ رَجَالٍ أُسْرَتِهِ، المُتَخَذِلِينَ الجُبْنَاءِ، الذين رَفَضَ أَيْأاً مِنْهُمْ، أن يُرافِقَ سُمِّيَّةَ إلى المدرسةِ، لِمْساءلةِ المُدْرِّسَةِ الطائِفِيَّةِ «المَدْعُومَةِ» عن الجريمةِ التي قَامَتَ بِهَا بِحَقِّ هَذَا الطفلِ، لأنَّهُم لو ذَهَبُوا يَعْترِضُونَ أَمَامَ الإدارةِ، لكانوا كَمَن يَرْمِي بِنَفْسِهِ إلى التَّهْلُكَةِ! فَالذَّاهِبُ - من الرِّجالِ - إلى مُهِمَّةٍ كهذه يَعْلَمُ أَنَّهُ لَنْ يَعودَ مِنْهَا إلى بَيْتِهِ وَأَهْلِهِ أَبَداً.

تركوا المُهِمَّةَ للنِّساءِ، الأُمَّ والجَدَّةَ والبِنْتُ والزَّوْجَةَ..

المَكْسُورَاتِ - المُهَانَاتِ فِي بُيُوتِهِنَّ وَمَجْتَمَعِهِنَّ، فَإِنَّهِنَّ عَلَى الهَوَانِ، أَكْثَرُ قُدْرَةٍ مِنَ الرِّجالِ عَلَى إِدارةِ وَضْعِ كَهَذَا! وَلرَبِّما - رُبَّما - أَثَّارَتِ الأُمُّ شَفَقَةً «بَعْضُ» رِجالِ الأَمْنِ، واسْتَشَارَتِ شَيْئاً مِنَ الحِياءِ لَدَى بَعْضِهِمْ، بَيْنَمَا لَا يُثِيرُ الرِّجالُ فِيهِمْ غَيْرَ مَشاغِرِ التَّحَدِّي وَشَهْوَةِ البَطْشِ.

أَنْتَ هُنَاكَ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَعْتَرِضَ عَلَى شَيْءٍ، وَلَا أَنْ تَشْكُو أَوْ تُقَاضِي أَحَداً.. لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَنْزِلَ القِصَاصَ بِمَنْ إِعْتَدَى عَلَيْكَ، وَأَنْتَ فِي الوَاقِعِ لَا تُريدُ أَنْ تُضْرَبَ أَحَداً، وَلَا أَنْ تُغْرَسَ سِكِّيناً فِي عَيْنِ أَحَدٍ، لَا تُريدُ أَنْ تُصِيحَ قَاتِلاً مُجْرِماً مِثْلَهُمْ.. لَا تَسْتَطِيعُ، وَلَا تُريدُ.

تعاليم دينك لا تَسْمَحُ لَكَ بِذَلِكَ، أَخْلَاقُكَ لَا تَسْمَحُ، وَقِنَاعَاتُكَ عَنِ التَّغْيِيرِ وَالْإِصْلَاحِ لَا تَسْمَحُ.

كُنْتَ وما زِلْتَ، ترى أننا مسؤولون كَشَعْبٍ، عن هذا الذي يجري، بالضبط كمسؤولية حافظ ورفعت المجرمين المتغوليين.. ومعهما كل الغيلان التي نَصَبْتَ نفسها في مقام «السيادة» في سوريا!

تَسْتَغْرِقُ الأيام والليالي، وأنتَ تَنَحُّتُ في نفسك تَصَوُّراً، عن فِئاعاتٍ جديدة، فيما يتعلق بذلك الوَطَنِ «المُتَبَجِّحِ»، كما تَبْحَثُ عن قواعدٍ ينبغي أن تقوم عليها علاقاتك في هذا المَهْجَرِ «التيه».. وحتى لو ظننتَ في نفسك القدرة على نسيان أولئك هناك، والتعايش مع هؤلاء هنا.. فإن الأيام كفيلة بأن تكشف لك، كَذِبَكَ على نفسك وفشلك في خديعتها.. الوَطَنُ وأهلُه يَسْتَعْفِصُونَ على النسيان، والمَهْجَرُ وأهلُه مُمْتَنِعُونَ عن الإصلاح.

شيءٌ باقٍ في أعماقك تَشَبَّهَتْ به، وَيَتَشَبَّهُ بِكَ لا يُفَارِقُكَ، يتجاوز مُحاولاتِكَ التَّخَفُّفَ من علائق الأرض والتراب والدم..

إنَّه إيمانُكَ بِمَن يُقَدِّرُ الأقدار.. وَيَضْبِطُ نظام هذا الكون، ومعه جُذورٌ ضَخْمَةٌ ثَقِيلَةٌ، تَخْتَرِقُ وُجُودَكَ، تُشَدُّكَ إلى ذلك العالم.. عالمُكَ الذي تَظُنُّ أنك خَلَقْتَهُ وراءَكَ.

تِرْكَةٌ ثَقِيلَةٌ، تجعلُ حَيَاتَكَ بِشَكْلِ «طبيعي» هنا أَمْراً شبه مستحيل، هنا.. حيث لا يَتَرَكُونَكَ بِسَلام، وكُلِّمَا بَدَأَ أَنَّ حَرْبَهُمْ عليك قد وَضَعَتْ أوزارَها، عَمَدَ بعض المُوْتورين العُنُصْرِيِّين من أهل الإعلام وصناعة الرَّأي في هذه البلاد، إلى «طاقة إخفاء الكراهية» فاستخرَجُوا منها ما يُحيي جَذْوَةَ «الخوف» من المُهاجِرِينَ - وخاصة من المسلمين والآتين من المنطقة العربية منهم على وجه التخصيص -، أو اِرْتَكَبَ بعض الحمقى والمُجرمين من بني جِلْدَتِكَ، ما يَمْنَحُ أهلَ البلاد مُبرِّراً إشهار مناجل البغضاء، تَحْصِدُ كُلَّ أَمَلٍ لَكَ بِشَيْءٍ من دَعَةٍ وراحة، تلتقطُ

فيهما أنفاسك، لَتَسْتَأْنِفَ طَرِيقَكَ فِي شَيْءٍ مِنْ سَكِينَةٍ وَشُعُورٍ
بِالْأَمْنِ..

كَأَنَّ مَجَانِسَنَا وَمَجَانِسَهُمْ مُتَّفِقُونَ مُنْضَبِّطُونَ بِدَقَّةٍ، عَلَى سَاعَةٍ
«حَقْدٍ مُدْمَرٍ»، لَا يُخْلِفُونَ مَوْعِدَهُمْ عِنْدَهَا، لِتَأْجِيجِ نِيرَانِ الْكِرَاهِيَةِ
كَلِّمَا حَبَا أَوْارُهَا.

صُنْدُوقٌ مُغْلَقٌ عَلَى ذِكْرِيَاتِكَ، دُنْيَا خَاصَّةٌ بِكَ، تَعِيشُهَا
فِي أَحْلَامِكَ، وَلَا تَرِيدُ اقْتِحَامَ ظِلِّهَا الظَّلِيلِ، تُفَضِّلُ أَنْ تَبْقَى فِي
مُخَيَّلَتِكَ وَاحِدَةً - جَمِيلَةً، عَلَى أَنْ تَكْشِفَ وَاقِعَ حَالِهَا، وَأَنَّهَا لَيْسَتْ
إِلَّا مُجَرَّدَ جُرْحٍ مُتَعَفِّنٍ يَنْزِفُ.

أَصْبَحْتَ رَغَمَ أَنْفِكَ.. «مَخْلُوقًا» يُشَبِّهِ «هُلُوكَ الْعُورِ
الْأَخْضَرِ»⁽¹⁾، الَّذِي يَنْشَقُّ عَنْهُ صَدْرُ رَجُلٍ نَبِيلٍ صَابِرٍ، بَلَغَتْ قُدْرَتُهُ
عَلَى الصَّبْرِ مَدَاهَا، فَلَا تَعْرِفُ مَتَى وَآيْنَ يُمَكِّنُكَ أَنْ تَنْفَجِرَ، أَوْ أَنْ
تَتَحَوَّلَ إِلَى عُورٍ مُخِيفٍ، أَوْ ذَيْبٍ جَرِيحٍ، أَوْ لَا شَيْءٍ! لَا شَيْءٍ، إِلَّا
الْغُرْبَةَ وَالْإِحْبَاطَ.

مَحْصُورٌ، مُحْتَبَسٌ، بَيْنَ فَكَيِّ كَمَاشَةٍ هَائِلَيْنِ، جُدُورِكَ الَّتِي لَا
تَسْتَطِيعُ الْإِنْفِكَاكَ عَنْهَا.. وَلَا تُرِيدُ، وَبِرَاعِمِ غُصْنِكَ، الَّتِي اِمْتَدَّتْ
فِي هَذَا الْمُجْتَمَعِ، وَنَمَتْ وَاسْتَطَالَتْ، أَنْتَ مَوْجُودٌ هُنَا، لَكِنَّكَ
لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَشْعُرَ بِالِانْتِمَاءِ إِلَى هَذَا الْمُجْتَمَعِ حَتَّى لَوْ أَرَدْتَ!
«أَهْلُكَ» مِنْ جُمُوعِ الْمُهَاجِرِينَ الضَّائِعِينَ الْمُضْيَعِينَ، الْمُسْتَعْصِي
مُعْظَمُهُمْ عَلَى التَّعَاشِشِ الْإِيجَابِيِّ خَوْفِ الدُّوبَانِ.. لَا يُرِيدُونَ، وَأَهْلُ

(1) هولك / Hulk: شخصية خيالية لبطل خارق القوى، يتحول من رجل
عالم خلوق، إلى غول يُدمر كل شيء في طريقه، كلما بلغ غضبه درجة لا
تتحمل. ظهرت هذه الشخصية في مجلات الرسوم القصصية التي نشرتها
شركة «مارفيل كوميكس»، أول مرة عام 1962، وهي من إبداع المصممين
Jack Kirby / Stan Lee ثم انتقلت إلى السينما والمسلسلات التلفزيونية
واللعب الإلكترونية.

هذا المُجْتَمَع «المُضِيف» الذين يُريدُونَكَ مُسْلِحاً رَاكِعاً مُنْسَاقاً،
وَبِكُلِّ بَسَاطَةٍ.. لَا يُريدُونَ، وَلَا يَسْمَحُونَ.

وعلى الرغم من أن كثيراً من الإسبان يَتَمَتَّعون بِحَسٍّ أخلاقيٍّ
إنسانيٍّ، وَيَتَعَاطَفُونَ مع «الآخر»، لكن تَضَامُنَ هذه الفِئَةِ الكبيرة،
لم يَمْنَعِ عن المُهَاجِرِينَ أنواعَ الإِمْتِهَانِ التي يُعَانُونَهَا..
أي شيء يُمكنُهُ أن يَجْعَلَكَ عُرْضَةً لِلأذى.. أي شيء..

فَالْهَدَفُ: إِشْعَارُكَ أَنَّكَ غَرِيبٌ وَمُخْتَلِفٌ وَغَيْرُ مَرْغُوبٍ فِي
وُجُودِكَ بَيْنَهُمْ.

الْهَدَفُ: أَنْ يَجْعَلُوا وُجُودَكَ بَيْنَهُمْ مُؤْلَماً، وَأَنْ لَا تُنَمَّحَ
أَيَّةُ فُرْصَةٍ لِتَطْبِيعِ عَيْشِكَ بِسَلامٍ فِي الْغَرْبِ.. الْهَدَفُ: أَنْ تُدْفَعَ
دَفْعاً لِتُصْبِحَ ذَلِكَ «الهُولُوكَ الْعُولِيَّ»، وَمَهْمَا بَلَغَتْ قُدْرَتُكَ عَلَى
الْإِنْضِبَاطِ، أَوْ أَنْ تُفَكِّرَ طَوَالَ الْوَقْتِ بِالْعُودَةِ مِنْ حَيْثُ أَتَيْتَ، حَتَّى
لَوْ كَانَتْ عَجَلَةُ الْحَيَاةِ وَالِاِقْتِصَادِ فِي الْغَرْبِ قَائِمَةً جُزْئِيًّا - أَوْ كُلِّيًّا
فِي بَعْضِ دَوْلَةٍ عَلَى عَاتِقِ الْجُهُودِ الْمُضْنِيَةِ الَّتِي يَبْذُلُهَا مُعْظَمُ
الْمُهَاجِرِينَ الْغُرَبَاءِ، وَهُمْ يَقُومُونَ بِوَاجِبَاتِهِمْ عَلَى أَكْمَلِ وَجْهِ
لِإِرْضَاؤِهِمْ مِنْ لَا يَرْضَى..

يُرِيدُونَكَ أَنْ تَعُودَ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ كُلَّ الطَّرِيقِ إِلَى وَطَنِكَ
مَسْدُودَةٌ!

وعلى عكسِ كُلِّ التَّوَقُّعَاتِ، وَبِدَلًا مِنْ أَنْ تَعْتَادَ هَذَا الْوَاقِعَ،
وَتُمَشِّيَ الْحَالَ، يَصْبِحُ تَعَايُشُكَ مَعَ هَذَا الْوَاقِعِ كُلِّ يَوْمٍ جَدِيدًا، أَكْثَرَ
صُعُوبَةً وَوُغُورَةً.. فَهُمْ لَا يَرْضُونَ عَنْكَ، حَتَّى لَوْ اتَّبَعْتَ طَرِيقَتَهُمْ
فِي الْحَيَاةِ شَبْرًا فَشَبْرًا، وَجَعَلْتَ مِنْ نَفْسِكَ نَسْخَةً مَمْسُوخَةً مَشُوهَةً
عَنْهُمْ، وَمَهْمَا فَعَلْتَ لِإِرْضَائِهِمْ، وَإِعْلَانِ إِسْلَاحِكَ عَنْ هَوَيْتِكَ،
فَسَتَبْقَى أَبَدًا بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِمْ ذَلِكَ «الْمُورُو» الْغَرِيبَ الْمَكْرُوهَ الْعَدُوَّ!

وحتى لو كنتَ دَاعِيَةً سَلامٍ وَتَعَايُشَ وَحِوَارًا! وَلَوْ بَلَغْتَ مَا

بلغت من شأو علمي أو ثقافي، فإنك ستتحول مع مرور الأيام إلى صنف جديد من الأصناف البشريّة الإجتماعيّة، التي أفرزتها مُلابسات الظُّلم في عالمنا، وخصوصاً في أوربا، التي غزت العالم عسكرياً وثقافياً، حامِلة إليه المَدنيّة الإستعماريّة المُدمِّرة، وليس المُعمِّرة! مدنية إستعمارية «شَقَّت» ومن حيث لا تحتسب، سُبلاً عِدَّة للحجّ من البلاد المُستعمَرة وفي الاتِّجاه المُعاكِس نحو مراكزها الحضاريّة، التي تراءت للبشريّة عن بُعد وكأنّها.. لآلئ منارات العلم والثقافة والمال والأمل والحرية والإنسانيّة.

أوربا.. التي تَمَلأ الدُّنيا صُراخاً، ومَظلوُميّة، وشكوى من تدفُّق موجاتِ الهجرة إليها، وتوالّد حركات «الإرهاب» ضدها، ولا تريد أن تعرف أو تعترف بأنّها هي.. أوربا نفسها، هي التي أسَّست لهذه الحركات الإرهابيّة، ودَعَمَتها بطريقة أم بأخرى، اختَرَقَت قياداتها وقواعدها، بأجهزة مُخابراتها، تُحرِّكها كما تشاء وكيف تشاء.

ومَهْمَا أنْكَرَ عُنْصُرِيَّوْها الجَوَاطُن⁽¹⁾، فهي لا تريد أن تعرف أو تعترف أنها هي الغازيّة، المُعتديّة، المُستعمَرة، الإرهابيّة، التي دَمَّرت مُستَقْبَل مُخْتَلَفِ شعوب العالم، نَهَبَتْ ثرواتِها، واستَعْبَدَتْها عن طريق الثقافة والإعلام ومؤسسات التّعليم.. فجاءها المُهاجرون من كلّ شَرُخ عميق خَلَقْتَه وراءها أثناء سياحة جُيوشها التدميريّة، خلال القرنين الأخيرين في الأرض.

من جهتها، لم يَعد أمام أوربا - بِشَقِّيها -، فيما يتعلق بتعاملِها مع مُستعمراتها السابقة، لضبط حركة الهجرة التي تُقْلِقُها، إلا طريقتين، فإما التّفاهُم على الحدود الإنسانيّة الدُّنيا المُشترَكة،

(1) في القاموس المحيط: جَوَاطُنُ: الصَّخْمُ المُخْتَالُ، والكثيرُ الكلام والجَلَبَةِ في الشَّرِّ، والجموعُ المَنوعُ، والصَّيَّاحُ، والصَّجُورُ، كالجَوَاطِنة، والعاجِزُ، والمُتَكَبِّرُ الجافي.

والتعايش المتوازن والإحترام المتبادل، وإما فرض رؤيتها على «العالم المُستعمر» بالطائرات الحربية، والصواريخ العابرة للقارات، والبوارج والغواصات النووية الغازية لِاستقلال وحرية وإرادة الشعوب..

أما من جهة «الجنوب»، فيتصدّر المشهد الغاضبون - تتحكم بتشكيلاتهم الثائرة الحانقة مراكز الإستخبارات الدولية - من عابري موجات الألم الإنساني، والتغيب القسري، والتهميش العنصري، والجهل المُرْكَب، وعذابات البشر.

ليس أمامنا، «نحن» وهؤلاء «المُستعمرين» سوى سبيل واحدة للنجاة.



اقْتَرَب موعد نهاية العام الدراسي، وبدأ الشعور بالقلق والإنقباض، يملأ صدري كما هي الحال دائماً في أول العام الدراسي وآخره. معظم أولاد الناس يدرسون ويَجْتَهِدون لينجحوا في الإمتحانات وليتمتعوا بعطلة الصيف.. إلا أولادي، فهم كما يقولون عن أنفسهم: «في عُقوبة مُستمرة» صيفاً وشتاءً!

ما إن يَفْرُغوا من إمتحانات المدرسة الإسبانية، وقبل أن تظهر النتائج النهائية، حتى نكون قد تكلّمنا مع أستاذٍ لِلْغَةِ العربية، يأتينا يومياً، نرجوه مُشَدِّدين أن يُشَدِّد على الأولاد بدوره، في دراسة العربية، لتحصيل مُستوى مقبول فيها، بالنسبة إلى أولاد مُزدوجي اللّغة يعيشون في بلد غير ناطق بالعربية.. الشيء الذي لم يتحقّق باكراً، كما كنا نتمنى، ولا بالمستوى الذي كنا نرجوه، فدراسة اللّغات تحتاج إلى أساتذة مُتَخَصِّصين حريصين مُتفرّغين، كما نحتاج إلى مُتابعة كبيرة ومثابرة طويلة الأمد من قِبل الوالدين.. فلا الأساتذة كانوا مُتَوَفِّرين بهذه المواصفات، ولا نحن إِستطعنا

المتابعة والمثابرة.. الأب مشغول بِعَمَلِهِ ونَشَاطَاتِهِ الدَّعَوِيَّةِ، والأم تَرعى البيت والأولاد الذين زادهم الله مولوداً جديداً يستهلك كلّ الوقت والجهد.

تَعْلُمُ الإسبانيّة - لغة البلد والشارع وأفلام الكرتون - بالنسبة للأولاد الذين يرتادون المَدْرَسَتَيْنِ العربيّتين في مدريد، أسهل بكثير جدّاً، من تَعْلُمِ العربيّة بالنسبة إلى الأطفال الذين يدرسون في المدارس الإسبانيّة⁽¹⁾ - وهم الغالبية العظمى من أبناء المهاجرين «العرب» في إسبانيا -، فاللّغة العربيّة الفُصحى بالنسبة إلى هؤلاء الأولاد، هي اللّغة الثالِثة، بعد «لَهْجَة» الأم، ولُغَة البَلَدِ الذي يعيشون فيه!!

اكتشفنا في غربتنا أن كلّ لهجة عربية، هي بمثابة لغة محلية خاصة بمُتحدثيها، خليط من اللغات العربية والتركية والكردية والأمازيغية، ولغات المُستعمرين الذين مرّوا على بلدان المنطقة العربية، فخلّفوا - فيها تركة ثقافية سلبية بالغة الخطورة والتدمير!

تكتظ لهجات الآتين من بلاد الشام، بالصيغ اللّغوية التركية التي لا يدرون هم أنفسهم أنها تركية، وبكثير من المفردات الفرنسية المعربة، بينما تجد لهجة أهل العراق مُخرقة من قبل اللّغة التركية والإنكليزية، وكذلك أهل فلسطين ومصر، أما في بلاد المغرب فإن اللّهجات العامية هي خليط ما بين العربية الفصحى والأمازيغية والفرنسية والإسبانية!! خليط عجيب مُوجع من بصماتٍ ثقافية استلّبت من اللغة العربية الفصحى جمالها وبهاءها وقداستها القرآنية الاستثنائية، ومع ذلك كله .. استلّبت قدرتها المُعجزة على لَمّ كلّ هذي الجموع من المحيط إلى الخليج ضمن بوتقة ثقافية لغوية واحدة، لولا القرآن ما اجتمعوا

(1) لم يكن في هاتيك الأيام من فضائيات، ولا إنترنت، ولا أي نوع من أنواع المساعدة للأبَاء في هذه المهمة.

ولا تفاهموا فيما بينهم، ولولا أنهم يؤدون عباداتهم بالعربية الفصحى، ما تعارفوا ولا تآلفوا ثقافياً، ولتمكّن المُستعمرون من تحقيق رغباتهم المُعلنة في جعل كلّ لهجة من هذه اللهجات لغة محلية! تزيد من تقطيع أوصال هذه الأمة التي تفعل بها سكاكين الأعداء الأفاعيل.

لم تكن مُدّة العطلة الصيفية، لدى أولادي، تتجاوز أسبوعاً واحداً، سبعة أيام، يَتَقَلَّبون فيها على شوكِ الغَيْظِ، تَخَوْفاً من الأستاذ الذي يُباشِر الدرس في التاسعة صباحاً، قاضياً على آمالهم في النوم إلى الضُّحى، ثم يجلس وقد قَطَّبَ وَعَبَسَ، وكأنه لا ينفع أستاذاً للعربية إن لم يَعْبَسِ وَيُقَطِّبْ!

يجلس صاحبنا محاولاً أن يَخْلَعَ عن كتفيه صِفَةً «عَمَّهُم في الله»، التي تربطه بالأولاد منذ وُلِدوا، يبدو جاداً كلّ الجِدِّ، يَتَهَدَّدُهُم بإنزال العقوبات بمن لا يسمع ولا يطيع، يبذل جُهدَه ليظهر وكأنّه غليظ القلب، لكنه لا يلبث أن يتكشّف تَفَطُّر قلبه رَافَةً عليهم، وقد حُرِّمُوا لَذَّةُ الإِسْتِمْتَاعِ بإجازاتهم الصَّيفِيَّةِ كما يَتَمَنُّون.

فهو إما «عمو الغنوشي»⁽¹⁾ زوج الخالة «الغنوشية» — كما يُسميها أولادي، وإما «عمو أَسْمَهَانو»، زوج «الخالة أَسْمَهَان»⁽²⁾!.. هذا اسمه عند أولادي، وهذا وصفه!!

كلّ صديقٍ للوالد هو عند أولادي «عمّ» بالضرورة، وكلّ صديقة للوالدة هي «خالة».. أمرٌ مفروغٌ منه! هؤلاء هم العمّات

(1) الغنوشي: اسم عائلة مغربية كبيرة معروفة.

(2) أَسْمَهَان: اسم عثماني يعني ملكة الأسماء / قاموس معاني الأسماء.

والخالات، والأعمام والأخوال، في غربتنا، حيث لا توجد أسرة مُمتدة.

يسألني أولادي طوال الوقت: لماذا لدى رفاقنا في المدرسة أجدادٌ وجَدَّاتٌ، ونحن ليس لدينا إلا الجدّ والجدة اللذين يزوراننا مرة في السنة؟؟ لماذا لدى الأولاد عمّات وخالات وأبناء عمّ وأبناء خالة، ونحن ليس لدينا أحد؟؟ لماذا يذهب كلّ الأصدقاء، في العطّل إلى قُراهم، ليَقضُوا عَطَلَتَهُمْ في الحقول والمزارع وحظائر الماشية وبين أحضان الطبيعة، مع الأهل والأقارب، يلعبون مع خنازيرهم وخرفانهم الصغيرة، يَقطفون ثمار الكرز والتّفاح من الأشجار، يُساعدون الجدّ في حلب الأبقار، ويحضرون حفلات الكنيسة والقرية.. ونحن ليس لدينا أيّ شيء؟؟!

استعصنا عن العائلة التي تجمّعها روابط الدّم، بأسرة الجالية التي تضمّها المودة في الله، أصبح لدينا خالات وأعماماً، يبدّلون - بتحفّظ كبير - للأولاد بعض ما يمكن أن يُغدّقه عليهم، عادة، الأعمام والخالات، من عطف ومحبة واهتمام، ولا يوفرون معها القليل ولا القال، ولا الإستجابات العائليّة المعتادة.

بعض الأعمام والخالات، هنا في الغرب، أقرب إلى الأولاد من الأعمام والخالات الحقيقيين في الوطن.. ولا تخلو الحال ممن يأبى أن يكون عمّاً أو خالة لأحدٍ من غير عائلته، وبعضهم كان يُمَرّر مُشكلاته الشخصيّة مع الكبار عبر أديّة الصغار وإساءة مُعاملتهم!!

تعلّق أولادي بهؤلاء الخالات والأعمام في الله، أكبر من تعلّق أيّ طفل مهاجر في إسبانيا بأعمامه وخالاته في الدّم، ممن يزورونهم كلّ عام في العطلة الصيفيّة، وكانت معاملة بعض هؤلاء الخالات والأعمام في غربتنا للأولاد، أكرم من معاملة

الإخوة والأخوات، لأولاد إخوتهم وأخواتهم في الوطن، هكذا كان الأولاد العائدون، من رحلاتهم الصيفية المعتادة، يحكون لأولادي، يُقَصُّون عليهم حكايات أُسْرِهِم الغريبة والعجيبة، في ذلك الوطن العاق.. وعلى الرّغم من أن كثيراً من الأُسَر في سوريا كانت تَبْذُل جهودًا كبيرة لِاسْتِيعاب الأولاد الآتين من المَهَاجِر.. فإن بعض هؤلاء كانوا يَهْمِسُون في أحاديثهم سرًّا، أنهم يَحْسُدُونَهُمْ على أنهم لم يستطيعوا السّفر إلى سوريا منذ وُلِدُوا! وذلك في الحين الذي كان وما زال فيه المغرب والجزائر استثناءً في طبيعة العلاقة بين أولاد المَهَاجِرِين في إسبانيا وبلدانهم العربية، فالأولاد المغاربة يَتَشَوَّقُون إلى زيارة بلادهم، بشكل مُلْفِت، على الرّغم من أن بعضهم كانوا يذهبون إلى القرى النائية، حيث لا ماء ولا كهرباء ولا خدمات، ولكن - ودائمًا - يجدون كرم الأرواح، فإن كرم الأرواح يَسُدُّ كُلَّ حَاجَةٍ وفاقة.

كُنَّا في تلك الأيام، واحدة من الأُسَرِ القليلة، التي لا يستطيع أي فردٍ منها زيارة الشّام، لا في الصيف ولا في الشتاء، ولا في فُصول الموت والعزاء، ولا في مَوَاسِم الأفراح والليالي الملاح!

نَحْضُرُ «مهرجان» الاستعدادات السنوية لسفر النّاس من حولنا، صامتين مُتَفَرِّجِينَ.. غارقين في آلامٍ وتأمّلاتٍ، يَصْغُبُ أن يَنْتَبِهَ إليها المشغول بِزَحْمَةِ إِبْتِهَاجِهِ بعودته إلى أهله وبلده، بعد تسعة أشهر طويلة، من معاناة الغربة - والبعد.. أسراب السُّنُونُو.. لا تَلْتَفِت في انْدِفَاعِ لُجَّتِهَا إلى مَنْ تَخَلَّفَ منها عن الرّحيل.



بعد درس اللّغة العربيّة يبدأ الإغتراض: «أولاد النّاس لا يدرسون صيفًا وشتاءً!» «أولاد النّاس يذهبون مع أهلهم إلى التّزهات والرحلات عندما تُغْلَقُ المدارس أبوابها!» «أولاد النّاس

لا تُرغمهم أمهاتهم على الاستيقاظ منذ الصباح الباكر أيام العطل،
وكانهم ما زالوا في المدرسة! «نريد أن نرتاح، نريد أن نلعب، وأن
نعيش أوقاتاً خاصة بنا نفعل فيها ما نشاء!!»

كانت تلك «ثورة»، بكلّ ملامسات الثورات، تفكيرٌ وتدبيرٌ،
وتصميمٌ وشجاعةٌ وثبات، واعتراضٌ واحتجاجٌ وإضرابات!!

أحياناً، أحصل ما أريد من أولادي، بطريق غير مشروعة ولا
مقبولة! أجدُّ لها مبرراً، في حرصٍ عليهم، لكنني ودائماً، أسقط
في شُرور أعمالي، - فهم يمارسون عليّ الرقابة، والتّقييم، بشكلٍ
صارمٍ ومؤلمٍ أحياناً.

قلتُ لهم: كفاكم نقاً واعتراضات.. أولاد الآخرين لا
يُطلبُ إليهم حملُ الأمانات، وبناء مستقبل الأمم، نهضت اليابان
من إصابتها النووية، وقامت ألمانيا من هزيمتها الكبرى.. وصنع
أبناؤهما معجزة.. في اليابان العطلة المدرسية، لا تتجاوز أسبوعاً
واحداً، وفي ألمانيا.. شهرٌ واحدٌ فقط! ما حكايَتُكم وحكاية
اعتراضاتكم هذه؟؟

فاجأتني ابنتي بقولها: هذا ليس عدلاً يا ماما.. أنت تبتزينا!
نحن لا نستطيع وحداً دفع ثمن تَعَفُّن الوطن وغياب الأمة!

هكذا حرفياً، وبلغّة إسبانيّة رقيقة، تُساعد الأطفال على
صياغة العبارات، بأبلغ المُصطلحات التي تصدّمك مفاجأتها
اللغوية! حتى أنني عدتُ لأتساءل عن قسوتي مع نفسي، عندما
شكّكتُ في جدوى دراسة الأولاد في المدرسة الإسبانية، التي
منَحَتْهم إلى جانب العناية المنزليّة المكثفة، هذه القدرة الاستثنائية
على التفكير بالعربيّة، والتّعبير بالإسبانيّة، بمثل هذه الاستعمالات
اللغويّة المدهشة لأطفالٍ في أعمارهم. مدهشة بالنسبة إلينا،
ولكنها أكثر من عاديّة في إسبانيا التي تَعْتَنِي عناية فائقة بلغتها،
إلى درجة تمنحها بين الحين والحين جائزة نوبل للآداب، وتُخرّج

الآلاف من الشعراء والروائيين والأدباء من كل صنف وفن، كما أنها أكثر من عادية في بلد مثل فرنسا يُقال أن عددَ الكتاب فيها يفوق أعداد القراء! ناهيك عن إنكلترا التي أصبحت لغتها وسيلة التعبير العلمي والأدبي والفني الأولى في عالم اليوم.

هذا التمكن من اللغة، يمنح الإنسان الشجاعة والقُدرة على التعبير، بكل الصراحة، والإيجاز، والبلاغة، والوعي، كهذا الذي فاق عمر إبننتي، التي تجاوزت فهمي ووعيي وإفلاس لهجتي السوروية، وضعتني أمام مسؤوليتي عن شذتي مع أولادي، وهم يعيشون محنة مضاعفة، محنة الغربة عن الوطن والدين والأهل، ومحنة مواجهة هذا الواقع الكئيب، الذي تعيشه أوطانهم وأمتهم ولغتهم وأهلهم.

محنة إلتواء موجعة، كانت هذه التي يعيشها أطفالنا في غربتنا عابرة الأجيال.

كان الوطن بالنسبة إلينا نحن «جيل النكسة»، محلّ إعزاز وفخر، فأصبح بالنسبة إلى أولادنا «جيل الغربة»، موضع ألم ومُعاناة، وخريطة من إشكاليات التاريخ والجغرافيا، وملابس العولمة والهيمنة الاستعمارية، بشقيها الغربي والشرقي.

رحمة الآباء والأمهات، كثيرًا ما تفتق عن شدة، بسبب الشعور المضني بالمسؤولية وبالخوف، لقد أتعبنا وجود أطفالنا من حيث لا ندري ولا نريد، أرهقناهم، ونزعنا السلام من أنفسهم، وكان ذلك أغلى ثمن يمكن أن ندفعه لترسيخ القناعات، وتثبيت التحقق بالهوية لدى أولادنا.

كان مصطفى يتحدث مع أبي ساجدة، قال له: إنه مؤلم جدًا، أن نحمل أبناءنا مسؤولية، عجزت عن حمل أعبائها أجيال.

فيجيبه: لعل ذلك هو مُنتهى الرحمة بهم، والإشفاق عليهم، خوفًا من أن يذوبوا في هذا المجتمع، أو ما هو أعظم من الذوبان!

- وما أعظم من الذوبان؟؟ هل يوجد أعظم من هذا؟؟

- أن يتلاشوا، أن يكون وُجودُهُم باهتًا كَعَدَمِهِ.. ألا يتركوا
بَصْمَةَ إنسانيّة، وألا يحملوا هَمَّ بلادِهِم وأُمّتِهِم، أن يكونوا أرقامًا
في هذه الجُموع، التي تُساقُ إلى الذَّبْح.. أو ما هو أعظم من الذَّبْح!
- أعظم من الذَّبْح؟؟!

- أن يُصبح المرءُ رسالة مُلتبسة، مُبهمة، تُشوّه الدين،
والحضارة، والمجموعة البشريّة التي ينتمي إليها.

لا يفتأ أبو ساجدة يُذكّر أولادَه - وكلّ ولدٍ من أبناء الجالية
- بأنهم مُسلمون إسبان، من أصلٍ سوريٍّ أو فلسطينيّ أو مغربيّ،
وأن عليهم كإسبان، إيصالُ «الرسالة» إلى المُجتمع الذي وُلدوا
فيه، وأن يكونوا كمُسلمين، جُسور خيرٍ ورحمةٍ وهُدًى، ما بين
بلادِهِم التي أتى منها والديهم، والبلد التي وُلدوا فيها، وأنهم اليوم
أولادُ الجالية، وغداً يجب أن يكونوا رجالَ الأُمّة.

حاولَ تعليمُهُم أصولَ الخطابة، والتحدّث إلى الناس، حاول
تعليمهم التّخطيط، أتاهاهم بالقواميس الموسوعيّة، منَحَ كلّ واحد
منهم قاموساً إسبانيّاً - عربيّاً ضخماً خاصّاً به.. قائلاً: أنتم أصحاب
رسالة، وعلى صاحب الرسالة، أن يُلمَّ بكلّ أدوات المعرفة.

يُحمّلنا الواجب - كآباء وأمّهات في الغربة والمهاجر -
مَسْؤُولِيّةَ منَحِ أبنائنا هذا الشُّعور المؤلم، الثّقل والجميل، بضرورة
العمل وبذلِ الجُهد، لِتُعود لنا كرامتنا وحرّيتنا.. وليكونوا بشراً
نافعين صالحين سعداء.

لا يَنفَكُ أبو ساجدة يُردّد: هذا الشُّعور المؤلم، الثّقل
الجميل، وَحْدَه.. هو الذي يُعطي حياتنا وحياتُهُم، مَعْنًى وقيمة،
وهو وحده، الذي سَيَنكشِفُ مع الأيام، عن أفراح الرُّوح.. أسرار
الرُّوح الجميلة، التي كَتَبَ عنها سيد قطب: «في كلّ مرّةٍ أعطيتُ
لقد أخذت».

لكننا.. وبكلِّ صِدْقِ الواقع، لَمْ نَكُنْ نحنُ الذين أُعطينا، إنهم
هُم!.. بِطُفُولَتِهِم، التي سَرَقَتْهَا أَلَامُ الأُمَّةِ في عصرنا هذا، وإِسْتِسلامِ
شعوبها، وتَفْسُخِ أوطانها..

أولادُنا، هُم الذين أُعْطُوا، وَمَنَحُوا، وتَعَبُوا، وجَاهَدُوا،
واجتهدوا، وعانُوا كثيراً..

هُم.. الذين يَسْتَحِقُّونَ تِلْكَ الأفراحَ ولِلسنا نحن!

كَمَنْ يَتْرُكُ وَلِيْدَهُ عَلَى قَارِعَةِ الطَّرِيقِ -

● **قُشُور** البرتقال تحترق فوق المدفأة، تنشر في البيت ذلك العطر الشتوي المميز، ونحن نلعب على السجادة، أبي يشوي الكستناء إلى جانب قُشُور البرتقال، يُبرِّدُها، يُقشِّرُها، ويُناوِلُنا الواحدة تلو الأخرى، ونحن نلُهو، ونلعب، ونتشاكس، ونكيدُ لبعضنا البعض، بينما أمي مُنْهَمِكَة، في تغليف آخر الكتب في المكتبة، بعد أسبوعين من أعمال اللَّفِّ، وتجليد الكتب، التي شارَكنا فيها جميعًا، حتى أَعَيْنَا هذه المُهمَّة السنويَّة.

تقول أمي: أنتم الآن مُنْهَكُون، لكنكم ستَشْكُرُون غداً هذه المُهمَّة، ووجود هذه المكتبة في بيتنا، كل شيء يمضي ويزول، وتبقى الكتب.. لا شيء في حياة الإنسان كالكتب، ولا شيء يبقى معه كل حياته كما يبقى ما قرأه في الكتب.

يُعلِّقُ أبي: في حياته، وبعد مماته كذلك.

يسأل أخي الصغير بسنواته السبع: وهل سنقرأ كل هذه الكتب يا بابا؟؟

يقول أبي، وهو يَقْهَقُه: لقد اِطَّلَعْتُمْ على نِصْفِها وأنتم تُجَلِّدُونَهَا، وتُعيدون تجليدها، ثم تُعيدون تجليدها كل عام.. إلى أَبَدِ الأبدِين!!

ونَضَمُّ جميعًا إلى أبي في إِعْتِرَاضِه هذا: لا نريد أن نُجَلِّدَ الكتب بعد اليوم، لا نريد.. لقد تعبنا جدًّا جدًّا.

ويقول أخي الآخر، ذو العشرة أعوام: أنا لن أَجَلِّدَ ولا حتى

كتابًا واحدًا من الآن وحتى أموت! أصلاً أنا سأموت قريباً جداً، من كثرة ما جَلَدْتُ من كتب!

أقول مُسْتَنْكِرة: وماذا جَلَدْتُ أَنْتِ؟ لم تَفْعَلِ غير أن وَضَعْتَ الشريط اللاصق لِثَبَتِ به وَرَقَ التَّجْلِيدِ.

يَنْبُرِي أَخِي الكبير بِمُعَارَضَةٍ إِعْتِرَاضَاتِنَا، وتوزيع النَّصَائِحِ، والإرشادات علينا، فهو صاحب العقل الراجح، في هذه الجَوْقَةِ، كيف لا وهو أَكْبَرُنَا، بسنوات عمره الأربع عشرة، وقد دَخَلَ معركة تجليد الكتب هذه، أكثر من عَشْرَ مرات في حياته الطويلة!

يأخذ أبي واحدًا من كَوَمَةِ الكُتُبِ، التي تنتظر المُلَصِّقَ الجديد... يُقَلِّبُهُ بين يَدَيْهِ، وهو يَضْبِطُ وَضْعَ نَظَارَتِهِ على أَنْفِهِ، ثم يقرأ «الموجز في التحليل النفسي».. وَيُعَقِّبُ: الله يخرّب بيتك يا فرويد أنت ونظرياتك.

وبينما نُنصت للنقاش، ونحن نَأْكُلُ الكَسْتَنَاءَ، تقول الوالدة:
- بَعْضُ النَّظَرِ عَمَّا نَخْتَلِفُ فيه معه، فلقد أضاف إضافات كبيرة جداً للمَعْرِفَةِ، هذا من أَهمِّ الكُتُبِ، التي ينبغي لنا جميعاً قراءتها.

يقول الوالد: لا يمكن قراءة فرويد، دون رصيدٍ راسخٍ من العِلْمِ الشَّرْعِيِّ، وإلا ضاع الشباب وهم يَقرؤونَه.
تؤكد الوالدة: لا ضياع ولا هُم يَحْزَنُونَ، قرأناه وما ضعنا.. وليس لدينا لا عِلْمٌ شرعي ولا مَعْرِفَةٌ فِقْهِيَّةً.

يقول الوالد: هذا صحيح، لكننا أَنَاسٌ بِالْغَوْنِ، عَاقِلُونَ، مُمَيِّزُونَ، إنه إضافة، لمن يريد أن يُضَيِّفَ، ولا يمكن أن يكون هو الأَصْلُ، الذي نَسْتَدُّ إِلَيْهِ في معرفتنا.

تهز الوالدة رَأْسَهَا مُوَافَقَةً، وهي تأخذ الكِتَابَ من بين يديه،

لِتَضَعَ عَلَيْهِ الْمُلْصَق، طَالِبَةً مِنَ الصَّغِيرِ أَنْ يُسَاعِدَهَا عَلَى تَثْبِيتهِ كَمَا
يَنْبَغِي، حَتَّى تَتِمَّكَنَ، مِنْ كِتَابَةِ عَنَوَانِ الْكِتَابِ، وَاسْمِ الْمُؤَلِّفِ..
وَلَوْلَا مُسَاعَدَةُ أَخِي هَذَا الدَّعْمُوصِ الْمُشَاغِبِ، فِي هَذَا الشَّأْنِ
الْعَظِيمِ لَتَكَرَّمَشَ الْمُلْصَقُ، وَفَشِلَتِ عَمَلِيَّةُ التَّجْلِيدِ، وَانْهَارَتِ
الْمَكْتَبَةُ عَلَى رُؤُوسِنَا!

تَقُولُ الْوَالِدَةُ هَذَا.. وَنَضْحُكَ جَمِيعُنَا، وَنَحْنُ نَتَقَلَّبُ عَلَى
السَّجَادَةِ لَا عَيْنَ، مُسْتَمْتِعِينَ بِهَذِهِ الْجُلُوسَةِ، بَيْنَ فَوْحِ الْكَسْتَنَاءِ،
وَالْعِطْرِ الَّذِي تَنْشُرُهُ عَمَلِيَّةُ حَرْقِ قُشُورِ الْبُرْتَقَالِ، وَتَغْرِيدِ أُخْتِي
الرَّضِيعَةِ فِي مَهْدِهَا، وَهَيْمَنَةِ اللَّوْنِ الْأَزْرَقِ الْمُرْتَبِطِ أَبَدًا فِي أَذْهَانِنَا،
بِرَائِحَةِ الْكُتُبِ الطَّيِّبَةِ النَّافِذَةِ، كَشُعَاعِ ضَوْءٍ، يَنْسَكِبُ مِنْ كُوَّةِ نَوْرِ
عَلَى حَيَاتِنَا.

لَمَّا كُنَّا صَغَارًا، كَانَ أَبِي وَفِي الْخَامِسَةِ فَجْرًا، يَوْمَ الْجُمُعَةِ..
وَكُلَّ جُمُعَةٍ، يَأْتِي بِطُسْتٍ نَحَاسِيٍّ كَبِيرٍ، قَدْ مَلَأَهُ مَاءٌ دَافِئًا، يَضَعُهُ
وَسَطَ الْغُرْفَةِ، ثُمَّ يَبْدَأُ بِإِيقَازِنَا فِي هُدُوءٍ وَصَبْرٍ:
يَا اللَّهُ يَا بَابَا..

سُتُصَلِّي الْفَجْرَ جَمَاعَةً يَا «حَبَّابِينَ»..

يَا اللَّهُ أَحَبَابِي.. يَا اللَّهُ يَا أَبْطَالَ...

قَوْمُوا قَبْلَ أَنْ أَلْعَنَ أَبَاكُمْ!

فَنَقُومُ آخِرًا قَوْمَةً وَاحِدَةً، مِنَ الْأَسِرَّةِ، وَنَعْمِسُ أَيْدِينَا وَأَرْجُلَنَا
فِي الطُّسْتِ، نُرْشِرُشُ الْمَاءَ مِنْ حَوْلِنَا، وَالْوَالِدِ مُنْهَمِكٌ، فِي دَلِكِهَا
وَاسْتِكْمَالِ شُرُوطِ الْوُضُوءِ، لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَّا، وَنَحْنُ سُعْدَاءُ مَا بَيْنَ
لَهُوَ وَوَجَلٍ، نَلْهُو بِالْمَاءِ، وَنُسْتَعِدُّ لِحَفْلَةِ الْجُمُعَةِ الصَّبَاحِيَّةِ الرَّائِعَةِ.
يَصُفُّنَا الْوَالِدُ... وَيُصَلِّي بِنَا، نَلْكَزُ بَعْضُنَا، نُغِيْظُ بَعْضُنَا بَعْضًا،
هَذَا يَهْتَرُ، وَهَذَا يَنْكُشُ أَذُنَهُ.

يُنْهِِي الْوَالِدُ الصَّلَاةَ، وَيَلْتَفِتُ إِلَيْنَا.. يَنْظُرُ إِلَيْنَا هُنَيْهَةً، ثُمَّ يَهْجِمُ عَلَيْنَا، سَتَرُونَ مَا أَنَا فَاعِلٌ بِكُمْ... نَجْرِي هَارِبِينَ إِلَى الْمَطْبَخِ، نَسْتَعِيدُ بِالْوَالِدَةِ، الَّتِي تُعَدُّ الْفُطُورَ، بِمِرْيَلَتِهَا الَّتِي تَقِي مَلَابِسَهَا الْإِتْسَاخَ، مُنْهَمَكَةً فِي قَلْبِي الْبَيْضِ، وَصَفِّ الْمَكْدُوسِ⁽¹⁾، مَعَ قِطْعِ الْبَنْدُورَةِ وَالْفَلْفَلِ الْأَخْضَرِ، وَهَنْدَسَةِ صُحُونِ الْمُقَبَّلَاتِ وَالْمُخَلَّلَاتِ، بَيْنَمَا يُغَادِرُ الْوَالِدُ مَعَ الصَّبِيِّينَ الْكَبِيرِينَ، لِإِحْضَارِ طَبَقِ صَبَاحِ الْجُمُعَةِ الْأَسَاسِيِّ.. فَتَنُ الْحُمُصِ، تَارِكِينَ لِي مُهِمَّةَ الْعِنَايَةِ بِأَخْتِي الرَّضِيعَةِ.

مَا إِنْ نَفَرَغَ مِنْ طَعَامِنَا، حَتَّى يَتَنَاوَلَ أَبِي مِنَ الْمَكْتَبَةِ، كِتَابَ «صَاحِبِ الْخِيَمَةِ الزَّرْقَاءِ»، الَّذِي طَلَبْتُ مِنْهُ أَنْ يُعِيدَ عَلَيْنَا قِرَاءَتَهُ.. نَجْلِسُ كَأَنَّ عَلَى رُؤُوسِنَا الطَّيْرَ، بَعْدَ أَنْ نَطْفَأَ الْوَالِدَةُ، وَعَطَّرَتْنَا، وَالْبَسْتَنَا، وَذَهَبَتْ تَرْفَعُ الْمَائِدَةَ وَحْدَهَا، دُونَ أَنْ يُسَاعِدَهَا مَنْ أَحَدٍ.

يَهْزُ كَيَانِي هَذَا الْكِتَابَ، أَشْعُرُ كُلَّمَا قَرَأْتُهُ أَوْ قُرِئَ عَلَيَّ أَنَّنِي سَأَبْكِي، لَا أُرِيدُ أَنْ يَطْلُعَ إِخْوَتِي عَلَى مَا يَضِجُّ فِي دَاخِلِي مِنْ مَشَاعِرَ، فَيَتَنَدَّرُونَ بِهَا! وَلَرُبَّمَا هَذَا هُوَ شَعُورُهُمْ ذَاتَهُ، وَأَنَا لَا أَدْرِي، أَغَالِبُ الدَّمْعَ، وَيَمْتَلِئُ الْقَلْبُ بِالْحُبِّ، بِالْعِشْقِ، أُمْدَّ يَدِي الصَّغِيرَةَ إِلَى خِيَمَتِهِ، أَرَاهَا فِي الْمَنَامِ، أَعِيشُ أَيَّامًا، وَأَنَا أُرِيدُ اكْتِشَافَهَا وَاكْتِشَافَهُ.

كِتَابٌ صَغِيرٌ أُنِيقُ جَدًّا، مُلَوَّنٌ يَطْغَى عَلَيْهِ اللَّوْنُ الْأَزْرَقُ السَّمَائِيُّ، لَا أَذْكَرُ اسْمَ كَاتِبِهِ، كِتَابَ عَرَفَنِي عَلَى رَبِّي، نَقَلَنِي «إِلَيْهِ» - فِي سَمَافَاتِهِ، وَجَعَلَنِي أَرَاقِبَهُ فِي كُلِّ أَمْرِي، وَجَعَلَ مَا بَيْنِي وَبَيْنَهُ

(1) المكدوس، طعامٌ رئيسي شائع في كل بلاد الشام، يؤكل في الفطور والعشاء، مع الفليفلة الخضراء والبندورة والبقدونس والبصل، يصنع من الباذنجان الصغير، الذي يُحشَى بالجوز والفلفل الأحمر والثوم، ويُملح ثم يكبس بالزيت ويُكدس للمؤونة.

أَقْوَى مِنَ الْخَوْفِ، وَأَمْتَنَ مِنَ الطَّمَعِ، وَأَعْظَمَ مِنَ الرَّجَاءِ.. إِنَّهُ
الْحُبُّ.

يا إلهي.. ماذا يُمكن لِكِتَابٍ رقيقٍ أن يفعل بِقَلْبِ طِفْلِ؟
يا إلهي.. كيف تجعلُ لِبَعْضِ عِبَادِكَ، سُلْمًا لِلتَّشْرِفِ بِالْإِتِّسَابِ
إِلَيْكَ؟ حتّى لو نَأَوْا وَأَخْطَأُوا وَضَلُّوا فِي بَعْضِ الطَّرِيقِ.

يا صَاحِبَ الْخَيْمَةِ الزَّرْقَاءِ، يا صَاحِبَ الْقُلُوبِ تُقْلِبُهَا كَيْفَ
تَشَاءُ.

فِي نَزْهَتِنَا الْمَسَائِيَّةِ فِي حَديقَةِ الْبَاغِوَادَا، مَعَ الْأَوْلَادِ، تَقُولُ لِي
حَسَنَاءُ: هَلْ عَلِمْتِ بِاتِّفَاقِ «دَايْتُون»؟

- سَمِعْتُ الْأَخْبَارَ فِي إِذَاعَةِ لَنْدُنْ، لَا أَدرِي هَلْ نَفَّرَحُ لَوْ قَفَّ
الْمَجْزَرَةُ فِي الْبُوسْنَةِ وَالْهَرَسِكْ، أَمْ نَغْضَبُ لِمَثَلِ هَذَا الْإِتِّفَاقِ
الْغَرِيبِ.

- هَلْ رَأَيْتِ الْخَرِيطَةَ؟

أَخْرَجْتُ حَسَنَاءُ صَحِيفَةَ الْبَايِسْ، وَنَشَرْتُ أَمَامِي خَارِطَةَ
إِتِّفَاقِ دَايْتُون، الَّتِي وَزَّعَتْ جُغَرَايَا الْبُوسْنَةِ وَالْهَرَسِكْ، مَا بَيْنَ
الصَّرْبِ وَالْمُسْلِمِينَ، تَوْزِيعًا يُهَيِّئُ كُلَّ الْأَسْبَابِ اللَّازِمَةِ وَالْكَافِيَةَ
لِانْفِجَارِ الْحَرْبِ بَيْنَهُمَا فِي أَيِّ لَحْظَةٍ مُمَكِّنَةٍ قَادِمَةٍ!

ثُمَّ قَالَتْ وَهِيَ تُشِيرُ إِلَى الْخَرِيطَةِ: أَرَأَيْتِ كَيْفَ جَعَلُوا مَنَفَذَ
الْبُوسْنَةِ الْوَحِيدَ عَلَى الْبَحْرِ بِأَيْدِ صَرْبِيَّةٍ، مَحْوَطًا بِأَرْضِ صَرْبِيَّةٍ،
وَمَنَفَذَ الصَّرْبِ الْبُوسْنِيِّينَ عَلَى الْبَحْرِ، مَحْوَطًا تَمَامًا بِالْأَرْضِ
الْبُوسْنِيَّةِ؟ أَرَأَيْتِ الشَّيْطَانَ عِنْدَمَا يَسْتَوْلِي عَلَى التَّفَاصِيلِ؟

قُلْتُ لَهَا: مَا دَامَ «حَامِيهَا هُوَ حَرَامِيَّهَا».. لَنْ نَعِيشَ فِي سَلَامٍ

أبدًا! وما دَامَت روسيا، تَقْتُل، وَتَذَبْحُ، وَتَقْصِفُ، وَتَدْعِمُ الصَّرْب،
ثم تَجْلِسُ تُحَرِّكُ دُمَاهَا مِنْ وَرَاءِ سِتَار.. فعلى مُسْلِمِي الْبُوسْنَةِ أَنْ
يَعْرِفُوا أَنَّ مَجْزَرَةَ تَالِيَةِ قَادِمَةٌ لَا مُحَالَةَ!

قالت: أَنَسِيَتْ دَوْرَ أَمْرِيكَ وَالْغَرْبِ؟

- تقصدين أمريكا وأوروبا؟؟ كلاهما غربٌ! - سبحان الله -
وكيف أنسى؟ هؤلاء يُشَكِّلُونَ الجناحَ الإِسْتِعْمَارِيَّ الْآخَرَ، لهذا
النَّادِي الإِسْتِعْمَارِيَّ الدَّوْلِيَّ، الَّذِي يُطَبِّقُ الْخِنَاقَ عَلَيْنَا، مِنْ كُلِّ
حَدْبٍ وَصُوبٍ!

- هذا أَمْرٌ لَا أَعْرِفُ كَيْفَ وَبِمَا أَصْنُفُهُ؟.. كُلِّ الَّذِي أَعْرِفُهُ، أَنَا
وَفِي مَخْتَلَفِ الْأَنْحَاءِ نَعِيشُ وَرُطَةً حَقِيقِيَّةً، وَرُطَةً تَارِيخِيَّةً حَقِيقِيَّةً،
اللَّهُ أَعْلَمُ مَتَى سَتَنْفَجِرُ، بِمَا فِيهَا وَمِنْ فِيهَا، لَا يُمَكِّنُ أَنْ تَبْقَى الْأُمُورُ
عَلَى هَذِهِ الْحَالِ، يَا أُمَّ سَاجِدَةَ، هَذَا مُسْتَحِيلٌ!

- الظُّلْمُ لَا يَأْتِي إِلَّا بِطُوفَانٍ مِنَ الدَّمَاءِ.. وَسَلْبُ الْأُمَمِ هُوَ يَتَّيْهَا،
وَتَارِيخُهَا، وَحُقُوقُهَا، لَا يُمْكِنُ أَنْ يَمُرَّ إِلَّا مُرُورَ اللَّثَامِ! كَانَ اللَّهُ فِي
عَوْنِ أَوْلَادِنَا، عَلَى مَا يَنْتَظِرُهُمْ فِي قَادِمِ الْأَيَّامِ.

سَكَتَتْ وَسَكَتَتْ، بَيْنَمَا كُنَّا نُعْطِي الْأَوْلَادَ وَجَبَةَ الْعَصْرُونَةِ..

بعد هُنَيْيَهَ قالت لي: كَمْ تَفَكَّرْتُ فِي هَذَا الْأَمْرِ الَّذِي طَالَمَا
حَدَّثْتَنِي عَنْهُ، نَحْنُ وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ غُرْبَتِنَا «مَحْظُوظُونَ» بِطَرِيقَةِ
أَوْ بِأُخْرَى، فِي حِينِ أَنْ أَبْنَاءَنَا يُعَانُونَ الْغُرْبَةَ - الْحَقِيقِيَّةَ، وَالتَّشْرِدَ
الثَّقَافِي الْمَوْجِعَ.

قلتُ لَهَا: لَا أَدْرِي إِنْ كَانَ تَشَرُّدًا أَمْ تَمَرُّقًا، وَلَكِنْ هَذَا هُوَ
الْحَالُ، وَرَبَّمَا كَمَا يَقُولُ أَبُو سَاجِدَةَ، إِنَّ كُلَّ مَا يَحْدُثُ مَعَ الْأَوْلَادِ
فِي غُرْبَتِهِمْ، هُوَ خَيْرٌ وَنِعْمَةٌ - يَمْنَحَانِهِمْ - ثَرَاءً وَبُعْدَ أَفَقٍ..

أُمِّي وَأَبِي جَعَلَا مِنْ حَيَاتِنَا، رَحْلَةً بَيْنَ الْكُتُبِ، نُزْهَةً بَيْنَ
الْمَعَانِي، لَمْ نَكُنْ لِنَنَامِ، دُونَ أَنْ يَقْرَأَ عَلَيْنَا أَحَدُهُمَا كِتَابًا.. كَانَا

يُعرِّفَانَا إِلَى أُمَّتِنَا، وَأَمْجَادِهَا، وَتَارِيخِهَا، وَرِجَالِهَا، وَأَحْدَاثِهَا، كُنَّا
نَنْهَلُ حَتَّى نَرْتَوِي عِزَّةً وَكَرَامَةً وَإِبَاءً.

وَأَنَا أَحَاوِلُ أَنْ أَفْعَلَ الشَّيْءَ ذَاتَهُ مَعَ أَوْلَادِي، وَإِنْ كَانَ
بِصُعُوبَةٍ شَدِيدَةٍ، فَكُلُّ مَا حَوَّلَهُمْ يُوحِي إِلَيْهِمْ بِعَكْسِ مَا يَتَعَلَّمُونَهُ
فِي الْبَيْتِ.

قَالَتْ حَسَنَاءُ: أَلَمْ يَكُنْ هَذَا حَالُنَا فِي الشَّامِ كَذَلِكَ؟؟ مُعْظَمُ
مَا كَانَ حَوْلَنَا كَانَ يُعَاكِسُ وَيُنَاقِضُ وَيَنْقُضُ مَا نَتَعَلَّمُهُ فِي بَيْوتِنَا! أَوْ
هَذَا مَا يَبْدُو لِي!

قُلْتُ: وَلَكِنَّا نَحْنُ الْجِيلُ الْأَوَّلُ - إِنْ صَحَّتْ تَسْمِيَتُنَا بِالْجِيلِ
الْأَوَّلِ - كُنَّا نَعْرِفُ الْخَسَاءَ، وَخَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ، وَصَلَاحَ الدِّينِ، وَفِي
الْمَدْرَسَةِ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، كَانَ الْجَمِيعُ يُغْنُونَ لِلْعُرُوبَةِ..
وَلِلْأُمَّةِ الْوَاحِدَةِ ذَاتِ الرِّسَالَةِ الْخَالِدَةِ، كُنَّا نَغْنِي لِحِمَاةِ الدِّيَارِ،
وَلِبِلَادِي، وَكُنَّا نُدْرُسُ ذِي قَارَ، وَعَيْنَ جَالُوتَ، وَفَتْحَ الْأَنْدَلُسِ.

صَحِجَّتْ خَسَاءُ وَقَالَتْ: هَذَا عَنْكُمْ، أَمَا نَحْنُ الْكُرْدُ،
فَانْتِمَاؤُنَا لِلْإِسْلَامِ وَحَسَبِ، أَنْتُمْ تُغْنُونَ لِعُرُوبَتِكُمْ، وَنَحْنُ
الْمُخْتَلِفُونَ أَصْحَابَ الرُّؤُوسِ الصَّخْرِيَّةِ - كَمَا يُقَالُ عَنَّا! -

قُلْتُ لَهَا: مُخْتَلِفُونَ؟؟ نَحْنُ أَنْتُمْ وَأَنْتُمْ نَحْنُ .. تَجْمَعُنَا
الْحَضَارَةُ الْوَاحِدَةُ وَاللُّغَةُ وَالتَّارِيخُ وَالْأَرْضُ، تِلْكَ الْأُمَّةُ الْوَاحِدَةُ
ذَاتِ الرِّسَالَةِ الْخَالِدَةِ، هِيَ الْأُمَّةُ الَّتِي تَجْمَعُنَا كُلُّنَا فِي هَذِهِ الْمَنْطِقَةِ،
وَرِسَالَتُهَا الْوَاحِدَةُ الْخَالِدَةُ هِيَ رِسَالَةُ الْإِسْلَامِ الَّتِي يُظَلُّ الْجَمِيعُ
بِإِنْسَانِيَّتِهِ وَأَخْلَاقِهِ.. ثُمَّ مَا أَدْرَانِي أَنَا مِنْ أَيِّ عِرْقٍ أَتَحَدَّرُ؟؟ وَإِنْ
كَنتُ تُرْكِيَّةً أَمْ بُوْشْنَاقِيَّةً، أَمْ كُرْدِيَّةً أَمْ عَرَبِيَّةً حَقًّا؟؟ دَعِي عَنْكَ هَذِهِ
فَإِنَّهَا مُتَبَتَّة!

ثُمَّ اسْتَطَرَدْتُ: أَتَعْرِفِينَ يَا حَسَنَاءُ؟ لَقَدْ كُنْتُ أَرْفَعُ الرَّأْسَ
عَالِيًّا، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ حُكْمِ الْبَعْثِ الْقَدِيرِ، وَكُلُّ مَا كَانُوا يُرِيدُونَ

تَمْرِيرِهِ عَلَيْنَا، مِنْ إِنْحِرَافٍ، وَتَشْوِيهِ لِمَعَانِي «الْأُمَّة»، وَتَغْيِيبٍ لِكُلِّ الْقَوْمِيَّاتِ فِي مِلَفِّ الْقَوْمِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ فَحَسَبٍ، فَرَضُوهَا عَلَى النَّاسِ، بِقُوَّةِ السَّلَاحِ، وَسَطْوَةِ الْإِعْلَامِ، لَكُنِنِي كُنْتُ فَخُورَةً تَمَامًا، بِنَفْسِي، وَبِإِتِّمَائِي، وَبِهَوِيَّتِي، كُنْتُ أَشْكُرُ اللَّهَ، عَلَى أَنَّي مُسْلِمَةٌ، وَسُورِيَّةٌ، وَدُمَشْقِيَّةٌ.

قالت حسناء ضاحكة: وكذلك حِمَصِيَّةٌ⁽¹⁾!

قلت وأنا أضحك كذلك: وَحِمَصِيَّةٌ يَا سَيِّدَتِي، نَضْفِي حِمَصِيٍّ.. طَبْعًا حِمَصِيَّةٌ.. لَكُنِنِي مَا إِنْتَسَبْتُ قَطُّ إِلَى آيَةِ قَوْمِيَّةٍ، وَلَنْ أَفْعَلَ.

قالت حسناء: إِنَّهُمْ يَقُومُونَ بِعَمَلِيَّةٍ تَذْوِيبٍ رَهِيَّةٍ، لِلْقَوْمِيَّاتِ فِي الْعِرَاقِ وَسُورِيَا، هَذَا الْبَعْثُ سَيُخْرِبُ دِيَارَنَا كُلَّهَا، وَيُفَجِّرُهَا عَاجِلًا أَمْ آجِلًا.. يَرِيدُونَ فَرَضَ «الْقَوْمِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ»، عَلَى النَّاسِ بِالْقُوَّةِ.

أَمَا عَنِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ فَأَنَا لَا أَرَى مَانِعًا مِنْ أَنْ تَكُونَ جَامِعَةً لَنَا، نَكْتُبُ وَنَقْرَأُ وَنَتَكَلَّمُ بِهَا إِلَى جَانِبِ لُغَاتِنَا الْقَوْمِيَّةِ، أَنَا كَرْدِيَّةٌ، وَلَسْتُ عُنْصُرِيَّةً، وَضِدَّ الْحَرَكَاتِ الْإِنْفِصَالِيَّةِ وَالْحُرُوبِ وَالنِّزَاعَاتِ.

- إِذَا كَانَ الْقَوْمُ يُعَدُّونَ الْعُدَّةَ، لِتَقْسِيمِ السُّودَانِ مِنَ الْآنَ؟ فَتَخِيلِي مَا الَّذِي يُمْكِنُ أَنْ نَشْهَدَهُ فِي الْمُنَاطِقَةِ بَعْدَ عِدَّةِ سِنَوَاتٍ؟ إِنَّ الْعَالَمَ يَطْبُخُ لَنَا قُنْبَلَةً ذَرِيَّةَ مَوْفُوتَةٍ، عَلَى حِصَى الْبَعَثِيِّينَ الطَّائِفِيِّينَ فِي الْعِرَاقِ وَسُورِيَا.. اللَّهُ يَسْتَرْنَا، وَيَسْتَرِ الْعِبَادَ مِمَّا سَتَكُونُ عَلَيْهِ الْأُمُورُ بِسَبَبِهَا لَاحِقًا.

- أُمَّةٌ عَرَبِيَّةٌ، وَبَطِيخٌ مُبَسْمَرٌ⁽²⁾، ثُمَّ خَسِرُوا الْحَرْبَ، وَضَيَّعُوا الْقُدْسَ، وَبَاعُوا الْقُنَيْطِرَةَ وَالْجَوْلَانَ، وَحَلَّتْ بِنَا النِّكْسَةُ!

(1) حِمَصِي: مِنْ مَدِينَةِ حِمَصِ السُّورِيَةِ التَّارِيخِيَّةِ الشَّهِيرَةِ.

(2) الْبَطِيخُ الْمُبَسْمَرُ: هُوَ الْبَطِيخُ الرَّدِيءُ النَّوْعِيَّةُ، تَوْجَدُ عَلَى قَشَرَتِهِ تَنْوَعَاتٌ عَلَى شَكْلِ مَسَامِيرٍ.

- هذه حكاية الحكايات! جاءت حرب حزيران، ومعها الإحباط الجماعي، والمندبة الكبرى، والنكسة.

- فَعَنْ أَيِّ فَخْرٍ تَتَحَدَّثِينَ؟ والله أنا لا أشعر بأي فخر، إلا أنني مُسلمة..

- وشاميّة!

- يا ستي وشاميّة...

- وصلاح أيوبية؟

- طبعاً.. وصلاح أيوبية!

- أُحَدِّثُكَ عَنْ أَيَّامِي الَّتِي مَضَتْ، فِي دِمَشْقَ.. هَذَا مَا كُنْتُ أَشْعُرُ بِهِ حَقًّا فِي أَوَّلِ وَعْغِي، وَأَنَا فِي الثَّانَوِيَّةِ، لَمْ نَكُنْ مُلَمِّينَ بِمَا يَجْرِي مِنْ حَوْلِنَا.

قَالَتْ حَسَنَاءُ: مَسَاكِينُ أَوْلَادُنَا، كَيْفَ يُمَكِّنُنَا أَنْ نَجْعَلَهُمْ يَشْعُرُونَ بِذَلِكَ الْفَخْرِ نَفْسَهُ، الَّذِي كُنْتَ تَشْعُرِينَ بِهِ؟؟

مَسَاكِينُ أَوْلَادُنَا فِعْلًا، أَحَادِيثُنَا مَعَهُمْ عَنِ الْأَمْجَادِ وَالتَّارِيخِ، يَجْعَلُهَا الْوَاقِعَ الْمُرَّ الَّذِي نَعِيشُهُ وَيَعِيشُونَهُ، أَمْجَادًا بَاهِتَةً، لَا يَجِدُونَ مِنْهَا أَوْ لَهَا فِي حَيَاتِهِمْ أَثَرًا، مَعْنَى «الوطن» فِي أَذْهَانِهِمْ بَاهِتٌ رَمَادِيٌّ كَيْسِبٌ، يَتَخَيَّلُونَهُ غُولًا فَاتِحًا فَاهُ لِيَتَلَعَّ أُمَّهُمُ وَأَبَاهُمُ اللَّذِينَ لَا يَسْتَطِيعَانِ زِيَارَتَهُ، وَلَا الْاقْتِرَابَ مِنْهُ، وَطَنٌ يُبْكِي وَيُصِمُّ وَيُغْمِي، الدَّاخِلُ إِلَيْهِ مَفْقُودٌ، وَالْخَارِجُ مِنْهُ مَوْلُودٌ!

بعيدٌ، غريبٌ عنهم، بتاريخه الحديث المليء بالخيانة، والعُهر السياسي، والإنقلابات العسكرية، والاستحقاقات الطائفية، والكذب، والدّواهي.. بعيدٌ بعيدٌ عنهم، كذلك عباداته وتقاليده الاجتماعية، التي لا يَعْتُرُونَ لَهَا عَلَى أَصْلٍ وَلَا فَضْلٍ، لَا فِي مَنَاطِقِ الْأُمُورِ، وَلَا فِي قَنَاعَتِهِمُ الْإِنْسَانِيَّةَ الْفَتِيَّةَ، وَلَا حَتَّى

في فهمهم للدين، الذي يجدون فيه وحده ضالتهم، وهويتهم،
وانتماءهم، وكرامتهم، وعزتهم، وشعورهم الوحيد بالانتماء،
والأمن.

تأتي ابنتي الكبيرة، وتحدثنا:

اليوم احتفل صفنا بنلسون مانديلا⁽¹⁾.. القائد الكبير، والرجل
العظيم، ماما هذا الرجل يستحق الاحترام، بعد 27 عامًا قضّاها
في السجن، مناضلاً سلمياً عنيداً، أصبح الآن أول رئيس أسود
لجمهورية جنوب إفريقيا..

ثم أردفت: هكذا أريد أن يكون نضالنا ضدّ وحوش سوريا!
قالت لها حسناء: رائع يا خالة رائع.. يعجبني حماسك
وفهمك للأمور.

بادرتها بالقول: سيرة حياة هذا الرجل، يجب أن تكون ملهمة
للكثيرين، نأخذ منها ما يناسبنا ويمكننا تعلّمه و...

قاطعتني حسناء غاضبة: قلتُ في نفسي، لا بدّ من أنها
ستعترض على شيء ما في الموضوع!

- لا أعتزّ مجّاناً يا حسناء لا تظلميني!

قالت ابنتي وهي تنظر في توجّس: أرجو ألا نقولا لي بأنّه
صهيوني!!

ضحكنا، وقلنا: لا بالطبع ليس صهيونياً.

(1) نلسون مانديلا: الزعيم الأفريقي الذي وقف في وجه نظام الفصل
العنصري، في ثبات وسلمية، وقاد من سجنه الذي استمر 27 عامًا، حركة
تحرر، انتهت بسقوط النظام العنصري، ثم انتُخب رئيساً لدولة جنوب
إفريقيا، وكان له دور كبير في بدء إجراء المصالحات الاجتماعية، ورأب
الصدع الدموي الخطير الذي خلفه ذلك النظام المتوحش في البلاد.

أردفت: لكنه كان مدعوًا من قبل الغرب فعلاً لا قولاً، وهذا ما ساعده على الصمود والتّحدي، البشر يحتاجون إلى من يدعّمهم في نضالاتهم، هذا رجل عظيم، وأنا لا أنتقص من حقّه، لكنني أريد لك يا مام⁽¹⁾ أن تَري الصورة واضحة، ومن كلّ جوانبها.. النضال السّلمي لن يُفيد إذا ما قرّر الجميع قتل المناضل، أو تركوه للوحوش تمزّقه تعذيباً، وتُحطّم كرامته الإنسانية - وإرادته.. إلا أن تكون قدرته على احتمال الألم خارقة، وأن يكون من وراءه مُستعدٌّ لحمل اللّواء، والاستمرار في نضاله السّلمي، حتى يتحقّق النصر.

إعترّضت حسناء متأففة من «تفلسفي»: لا إله إلا الله!!

قلت: محمدٌ رسول الله!

قالت: خفّفي الصّغط عن البنيّات، وحليّ⁽²⁾ عنهنّ، أصلح الله أبا ساجدة، هو سبب كلّ هذه المشقّة، هو الذي أورثكم هذه النظرة النّقديّة لكلّ شيء، إنه كشىءٌ مُنْهَكٌ مُتْعَبٌ.. أرهق الشباب من حوله وأرهقكم بهذا الأمر!

قلت: بالله عليك، هل أنا التي أتت بِقِصّة الكِفاح السّلمي هذه؟؟ صدقاً ما سمعتُ بها إلا في هذه الساعة من ابنتي، وهي تربطها بمقاومة وحوش بلادنا!!

قهقهت حسناء، حتى كادت تغصّ بالكوكا كولا التي كانت تُشرّبها.

(1) تصغير لفظة ماما تودداً.

(2) كلمة عامية تُستخدم في لهجة بلاد الشام بمعنى حِلّ عنه: «اتركه وخفّف عنه»، وهي مشتقة من الأصل العربي الفصيح: هو في حِلٍّ عن يمينه: مُتحرِّرٌ منه. وفي معجم اللغة العربية المعاصر: حال دون الشّيء: منع حدوثة.

كان أولادنا عراقيين، أيام غزو العراق، تقاسموا مع أطفال العراق، بُؤسهم وعذاباتهم.

ثم صاروا فلسطينيين، في مدريد «يرمون» مع أطفال الحجارة حجارتهُم المُقدَّسة تلك في أرضهم المُقدَّسة، يستعيدون بها بعضاً من كرامتهم، وحقوقهم المسلوبة.

ثم أصبَحوا بوسنيين، في سياق مجازر البوسنة، يَبكونها، يدفَعون ضريبة دِمائها وآلامها.

يدفعُ أولادنا في الغرب، ضريبة كل ما يجري في أوطان آبائهم وأمهاتهم، وكل ما يجري في منطقتهم المنكوبة بالإستعمار، وكل ما يجري على مُستوى الأُمَّة الأكبر.. الأُمَّة الإسلامية، لا حدود لها، لكنها مُوجودَة، دليل وجودها أننا ندفع ثمن إنتمائنا إليها، هنا في غربتنا كل حين.



أم دُعاء الفلسطينيين ما تفتأ تُردّد في كل مجلس يجمعها بالأخريات: «خربتوا ديارنا يا أهل العرب، خسرتم الحرب أمام إسرائيل في ستّة أيام، وضيعتم بقية فلسطين، الله لا يوفقهم»..

الكل يسمع ويزدرد الإهانة، ولا يحير جواباً، فهي تقول الحقيقة، وإن كانت تخلط ما بين الحكام وشعوبهم المنكوبة بهم.. وكم صدقت أم دُعاء وهي تقول: إنها تشعر أحياناً أن أهل فلسطين، كانوا وما زالوا يعيشون بخير فهم يعرفون عدوهم ويُقارعونه، بينما بقيّة شعوب المنطقة نائمون يشخرون والشُرور تُحدقُ بهم!

يستمّد الفلسطينيون كرامتهم، من استمرار جهادهم ضدّ الإسرائيليين القتلة، أما «نحن».. فمُشكَلتنا عويصةٌ مريّة.

لربما جاءت صفعة البوسنة هذه الأخيرة، من أقصى

الصَّفَعَاتِ الَّتِي تَلْقَيْنَاهَا فِي صَمْتٍ وَعَيْسَوِيَّةٍ⁽¹⁾ مُنْقَطِعَةِ النَّظِيرِ!
ولكن هل سَيَسْتَفِيقُ النَّاسُ فِي بِلَادِنَا وَمِنْطَقَتِنَا، قَبْلَ أَنْ يَصِلَ دَوْرُ
الثَّوْرِ الْمُبْرِقِ، بَعْدَ الْأَسْوَدِ وَالْأَبْيَضِ وَالْأَصْفَرِ الْفَاقِعِ لَوْنُهُ!!؟

بَدَأَ أَنَّ «النَّكْسَةَ»، وَ.. سُقُوطِ الْقُدْسِ، مَرَّتْ فِي حَيَاتِنَا كَمَا
يَفْعَلُ السَّرَطَانُ أَوَّلَ أَمْرِهِ، يَفْتِكُ بِصَمْتٍ، يَتَمَدَّدُ بِبَنَاتٍ، يُمَزَّقُ
الْأَحْشَاءَ وَيَهْرُسُ الشَّرَائِينَ، وَيَتَوَسَّعُ فِي وَقَاةٍ مُثَابِرَةٍ عَلَى حِسَابِ
الْحَيَاةِ.

تُحَدِّثُ أَوْلَادُنَا، عَنْ أُمُثَلَةٍ لَيْسَ لَهَا جَوْهَرٌ فِي حَيَاتِهِمْ،
وَعَنْ تَارِيخٍ، لَمْ يَعِيشُوا مِنْهُ إِلَّا مَا يَبْدُو وَكَأَنَّهُ سَنَوَاتُ السُّقُوطِ
وَالْإِنْجِدَارِ.. فَفِي الْمَدْرَسَةِ يُعَلِّمُونَهُمْ، أَبْجَدِيَّاتٍ يُقْرَأُ مِنْهَا تَارِيخُ
الْبَشَرِ مَقْلُوبًا وَمُقُولَبًا، مُشَوَّهًا وَمُخْتَرَلًا فِي تَارِيخِ أَوْرُبَا وَحَدَّهَا،
وَكَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنْ وُجُودٍ لِهَذَا الْعَالَمِ قَبْلَ أَوْرُبَا، وَلَنْ يَكُونَ لَهُ وُجُودٌ
بَعْدَهَا! بَعْدَ أَنْ أَعْمَلْتَ فِيهِ سَكَكِينَ إِرْهَابِيًّا، الْإِرْهَابُ الْحَقِيقِيُّ
الشَّامِلُ، أَبَا الْإِرْهَابِ كُلِّهِ!

فِي الشَّارِعِ وَالْحَدِيقَةِ وَالْمَدْرَسَةِ، يُعَانِي أَوْلَادُنَا، الرِّفْضَ
وَالْكَرَاهِيَّةَ، وَيَشْعُرُونَ بِالْاجْتِنَاثِ، وَفِي حِصَصِ الْأَخْبَارِ كُلِّ عَشِيَّةٍ،
يَسْمَعُونَ قِصَصَ مَآسٍ، وَقِصَفٍ، وَدِمَارٍ، وَإِرْهَابٍ، وَعَذَابَاتٍ،
وَانْقِلَابَاتٍ بَيَضَاءَ أَوْ حَمَرَاءَ، وَانْتِخَابَاتٍ سَوْدَاءَ، فِي بِلَادِ أُمَمَاتِهِمْ
وَأَبَائِهِمْ، وَزَوَارِقَ تَحْمِلُ الْفَارَّيْنِ، مِنْ شِمَالِ إِفْرِيقِيَا الْقَرِيبَةِ،
يُذْنَدِنُونَ بِأَغَانِي أَحْلَامِهِمْ بِالْحُرِّيَّةِ، تَحْتَ جُنْحِ الظَّلَامِ، عَلَى أَنْغَامِ
وَشَوْشَاتٍ مُوَبِّجَاتِ الْبَحْرِ الصَّافِي الرَّائِقِ الْمُتَلَأَلِي، فِي لِيَالِي
أَب/ أَوْغُسْطُسِ الصَّيْفِيَّةِ.

لَكِنْ هَذِهِ الصُّورَةُ الْأَسْرَةُ لَا تَلْبِثُ أَنْ تَنْقَلِبَ بَيْنَ عَشِيَّةٍ

(1) عَلَى طَرِيقَةِ مَا يُرَوَّى عَنْ سَيِّدِنَا عِيسَى مِنْ مَنَحِهِ خَدَهُ الْأَيْسَرَ لِمَنْ صَفَعَهُ
عَلَى خَدِهِ الْأَيْمَنِ.

وَصُحَاها، إِلَى وَلَوَلَةٍ⁽¹⁾، تَشَقُّ طَرِيقَها وَسَطَ أَهْوالِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ،
إِنْ اِسْتَأْطَ غَضَبًا، كَمَا اِعْتَادَ أَنْ يَفْعَلَ بَيْنَ الْحَيْنِ وَالْحَيْنِ.

بَيْنَ الْفَيْنَةِ وَالْفَيْنَةِ، يَزْحَفُ الْمَوْتُ، يَرْتَجِفُ بَرْدًا وَبَلَاءً، قَدْ
أَثْقَلَ غُرْبَةً، يَمُدُّ يَدَهُ الْمُخِيفَةَ، فَيَخْتَطِفُ مِنْ هَاتِيكَ الزَّوَارِقَ، كُلَّ
لَيْلَةٍ، حَاجَتَهُ مِنَ الْقَرَّابِينَ الْبَشَرِيَّةِ، يَأْخُذُهُمْ مَعَهُ، يُنْجِيهِمْ مِنَ الْغَرَقِ
فِي لُجَجِ ظُلُمَاتٍ وَجَحِيمِ الْجَنَّةِ الْأَوْرَبِيَّةِ! الَّتِي يُمَيِّمُونَ شَطْرَها،
طَلَبًا لِشَيْءٍ مِنْ حُرِّيَّةٍ، وَشَيْءٍ مِنْ كَرَامَةٍ، وَعَيْشٍ الْكَفَافِ فِي شَرَفٍ
وَأَمَانٍ.. وَلَكِنْ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ!

كَيْفَ لَهُمْ أَنْ يَعْرِفُوا الْحَقِيقَةَ مَعَ كُلِّ هَذَا الْحَجْمِ الرَّهيبِ، مِنْ
الدَّعَايَةِ وَالتَّرْوِيجِ لِأَنْمُوذَجِ الْحَيَاةِ فِي بِلَادِ الْمُسْتَعْمَرِينَ؟؟ يَبْتُ
فِي جَمِيعِ وَسَائِلِ الْإِعْلَامِ الْمَحَلِّيَّةِ وَالْعَالَمِيَّةِ، فُنُونًا وَثِقَافَةً وَأَخْبَارًا
وَبَرَامِجَ حَوَارِيَّةٍ... كَيْفَ لَهُمْ أَنْ يَعْلَمُوا مَا يَنْتَظِرُهُمْ حَقِيقَةً فِي أَرْضِ
أَنْهَارِ اللَّبْنِ وَالْعَسَلِ الَّتِي تَجْرِي فِي شَوَارِعِ أَوْرُبَا، وَالنَّقُودِ الَّتِي تُثْمِرُ
عَلَى أَغْصَانِ أَشْجَارِها؟؟!! كَيْفَ لَهُمْ أَنْ يَذَرِكُوا وَاقِعَ مُسْتَقْبَلِهِمْ
فِي أَوْرُبَا، إِنْ لَمْ يَتِمَكَّنُوا مِنْ مُجَارَاةِ الْقَوْمِ فِي أَعْلَى مَجَالَاتِ الْعِلْمِ
وَالْعَمَلِ؟؟ وَإِنْ كَانُوا مِمَّنْ يَسْتَعْصِي عَلَى الْإِنْدِمَاجِ وَالتَّعَايُشِ!؟

اِسْتِجْدَاءً، وَاسْتِخْدَاءً، وَعُبُودِيَّةَ مُصَمَّمَةٍ غَيْرِ مُعْلَنَةٍ، وَلَا يَعْتَرِفُ
بِها أَحَدٌ.

ذُلٌّ، وَهَوَانٌ، وَمَهَانَةٌ، وَرَفْضٌ، وَكَرَاهِيَّةٌ، وَحَقْدٌ، وَغَضَبٌ،
ضَيَاعٌ، وَانْخِرَاطٌ فِي الْجَمَاعَاتِ الْخَارِجَةِ عَلَى الْقَانُونِ، أَوْ
التَّزَامِ بِعَصَابَاتِ النَّشْلِ وَالْإِجْرَامِ وَالْعَيْشِ عَلَى هَامِشِ الْمُدُنِ
وَالْمُجْتَمَعَاتِ.

انْقِطَاعٌ، وَجُوعٌ إِلَى الْأَهْلِ وَالْأَرْضِ الَّتِي فَارَقُوهَا، اِضْطِهَادٌ

(1) فِي الْمَعْجَمِ الرَّائِدِ: وَلَوْلَتِ الْمَرْأَةُ: رَفَعَتْ صَوْتَهَا بِالْبُكَاءِ وَالصَّيْحَانِ. دَعَتْ
بِالْوَيْلِ.

شَبَحِيٌّ غَيْرُ مَرِيٍّ وَلَا مَسْمُوعٍ - حتى الساعة -، لأَعْرَاقِهِمْ،
وَتَرَائِبِ عِظَامِ وَجُوهِهِمْ، وَلَوْنِ بَشَرَتِهِمْ، وَشَكْلِ أَنْوْفِهِمْ،
وَلُغَاتِهِمْ، وَلَهَجَاتِهِمْ، وَطَبَقَةِ أَصْوَاتِهِمْ، وَعَادَاتِهِمْ، وَوُجُودِهِمْ،
وَبَشَرِيَّتِهِمْ، وَدِينِهِمْ .. إِنْ كَانَ «الإسلام»!

لَا تَسْتَطِيعُ أَوْرُبَا - حتى لو فَرَضْنَا أَنَّهَا تُرِيد - أَنْ تَسْتَوْعِبَ كُلَّ
هَذَا التَّنَوُّعِ الْبَشَرِيِّ، فَعِذَا أَمُرُّ لَا تَسْتَطِيعُهُ إِلَّا الْحَضَارَاتُ الْإِنْسَانِيَّةُ
الْكُبْرَى، الَّتِي تُقَدِّمُ لِلْبَشَرِ كُلِّ الْبَشَرِ صِيغًا أَخْلَاقِيَّةً حَقِيقِيَّةً، عَابِرَةً
لِلْأَعْرَاقِ وَالْأَجْنَاسِ وَالْعَقَائِدِ، يَنْصَهَرُونَ فِي بَوْتَقَتِهَا وَيُصْبِحُونَ بِهَا
سَوَاسِيَّةً فِي إِطَارِ ثَنَائِيَةِ الْحَقُوقِ وَالْوَاجِبَاتِ، وَلَيْسَ عَبِيدًا لِبَعْضِهِمْ
الْبَعْضُ!

لَا تَسْتَطِيعُ أَوْرُبَا الْيَوْمَ - حتى لو فَرَضْنَا أَنَّهَا تُرِيد - أَنْ تَحْتَوِيَ
هَذَا السَّيْلَ مِنَ الْهَجْرَاتِ الَّتِي تَتَوَافَدُ عَلَيْهَا مِنَ الْبِلَادِ الَّتِي اسْتَعْمَرَتْهَا
فَدَمَّرَتْهَا وَنَهَبَتْهَا...

عَلَيْهَا أَنْ تَبْحَثَ عَنْ صِيغَةٍ جَدِيدَةٍ لِلتَّعَامُلِ مَعَ مُسْتَعْمَرَاتِهَا
الْقَدِيمَةِ وَالَّتِي مَا زَالَتْ مُمَعِنَةً فِي اسْتِعْمَارِهَا وَتَمْزِيْقِهَا، بَيْنَمَا يَظُنُّ
أَهْلُهَا أَنَّهُمْ مُسْتَقِلُّونَ أَحْرَارًا!! عَلَى أَوْرُبَا أَنْ تَجِدَ الْحَلَّ .. رُبَّمَا
بِتَحْقِيقِ شَيْءٍ مِنَ الشُّعَارَاتِ الَّتِي تَرَفَعُهَا، وَاللَّافِتَاتِ الَّتِي تَجْعَلُجُ
بِهَا، وَالْقِيَمِ الَّتِي تَدَّعِيهَا!

كُلَّ عَشِيَّةٍ، وَبَيْنَمَا أُحَدِّثُ أَوْلَادِي، عَنْ أَمْجَادِ الْأُمَّةِ الَّتِي
يَنْتَمُونَ إِلَيْهَا، كَانَتْ عُيُونُهُمْ تَسْمُرُ، عَلَى مَشَاهِدِ جَحَافِلِ النَّازِحِينَ
الْفَارِّينَ، مِنَ الْحُرُوبِ وَالْمَجَاعَاتِ، وَقَوَافِلِ الْهَائِمِينَ عَلَى
وُجُوهِهِمْ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ بِالْكَوَارِثِ غَيْرِ الطَّبِيعِيَّةِ، مِنَ الْمُهْمَلِينَ
الْمُضْيَعِينَ، وَأَرْتَالِ الْمُهَاجِرِينَ غَيْرِ الشَّرْعِيِّينَ الْوَاقِفِينَ أَبَدًا عَلَى
أَعْتَابِ مَكَاتِبِ وَزَارَةِ الدَّاخِلِيَّةِ وَشُؤُونِ الْهَجْرَةِ وَاللَّاجِنِينَ فِي
مَدْرِيد.. لَا يُذِينَ بُوْعُودِ بَعْضِ السَّاسَةِ، لِيَنَالُوا رِضَى الْأَخْتَامِ
الرَّسْمِيَّةِ، رَجَاءً أَنْ يُصْبِحَ وَجُودُهُمْ، فِي هَذِهِ الْبِلَادِ قَانُونِيًّا.

فالشَّرْعِيَّة والقانون، يُخَفِّفَانِ مِنْ وَطْءِ الغُرْبَةِ، وَيَمْنَحَانِ
المُهَاجِرِ الشُّعُورَ الخُلِّيَّ بِأَنَّهُ صَاحِبُ «حَقٍّ»، رَغْمَ أَنْفِ كُلِّ الذِّينِ
يُرِيدُونَ تَذْكِيرَهُ كُلِّ حِينٍ، أَنَّهُ هُنَا غَرِيبٌ.



السَّيَّارَةُ تَمْضِي بِنَا نَحْوَ المَطَارِ، الصَّمْتُ سَيِّدُ المَوْقِفِ،
الأولاد في المَقْعَدِ الخَلْفِيِّ، مُتَكَوِّمُونَ بَيْنِي وَبَيْنَ أُمِّي، يُمَسِّكُونَ
يَدَهَا، يَخَافُونَ أَنْ تَتَفَلَّتَ مِنْ أَيْدِيهِمِ الصَّغِيرَةُ.. بَيْنَمَا «رَادِيو 5
كُلِّهِ أَخْبَارٌ»، يَصْخَبُ مُنْذُ خَرَجْنَا مِنَ الدَّارِ، يَتَحَدَّثُ عَنْ «اتِّفَاقِ
دَايْتُونٍ»، وَأَنَّهُ الحَلُّ الوَحِيدِ، الَّذِي تَوَصَّلَ إِلَيْهِ العَالَمُ، لِتَصْرِيفِ
المَسْأَلَةِ البُوسْنِيَّةِ.

أَبُو سَاجِدَةٍ.. يَسُبُّهُمْ وَهُوَ يَتَحَدَّثُ مَعَ أَبِي: مُجْرِمُونَ قَتَلَةٌ،
كُلُّهُمْ وَالْغُورُ فِي دِمَاءِ البُوسْنِيِّينَ، أَرْغَمُوهُمْ عَلَى تَوْقِيعِ اتِّفَاقٍ،
يُحَرِّمُهُمْ حَقِيقَةً مِنْ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ وَطَنٌ فِي وَطَنِهِمْ، حَدُودٌ
فُسُفِيسَائِيَّةٌ، تَحْصُرُهُمْ وَتُحَاصِرُهُمْ فِي أَرْضِهِمْ، الْجَزَارُونَ الَّذِينَ
ذَبَحُوهُمْ، وَاسْتَبَاحُوا حُرْمَتَهُمْ، يُحِيطُونَ بِهِمْ مِنْ كُلِّ صَوْبٍ، لَا
مَنَافِذَ بِحَرِّيَّةٍ، وَلَا حَتَّى بَرِّيَّةٍ، لَا اسْتِقْلَالَ وَلَا كَرَامَةَ.

قَالَ الوَالِدُ: هَذَا لَيْسَ اتِّفَاقًا، إِنَّهُ قُبْلَةٌ مَوْقُوتَةٌ، سَتَتَفَجَّرُ
بِالْجَمِيعِ عَاجِلًا أَمْ آجِلًا.. إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُهُ فِي سُورِيَا، حَرْبًا
شَبِيهَةً بِمَا حَدَثَ فِي البُوسْنَةِ، وَأَوْضَاعًا تَتَفَجَّرُ بِهَا المَنْطَقَةُ كُلُّهَا.

السَّيَّارَةُ تَمْضِي بِبُطْءٍ، وَسَطَ زِحَامِ حَرَكَةِ السَّيْرِ المَقْمُوتِ
فِي مَدْرِيدٍ، كَانَ الزَّحَامُ فِي مَدْرِيدٍ فِي تِلْكَ الأَيَّامِ مُمَرِّضًا، الْجَدَّةُ
تَمْسَحُ دُمُوعَهَا، بَيْنَ الحَيْنِ وَالحَيْنِ، تَضُمُّ الأولادَ وَتَشْمُهُمْ.. وَأَنَا
لَا أَشْعُرُ بِأَيِّ شَيْءٍ، كَأَنِّي شَبَحٌ ثَقِيلٌ، لَا يُمَكِّنُهُ الإِنْفِلَاتُ بِحَرِّيَّةٍ
لِيهِمْ عَلَى وَجْهِهِ فِي سَلَامٍ.. فَقَدْتُ الشُّعُورَ بِكُلِّ شَيْءٍ.

ليس لأنّ مشاعري قد تَبَلَّدت، لكنها صَدَمَة العَجْزِ المُدْقِعِ،
تُصِيبُ المَرءَ بِالشَّلَلِ.
إنَّه الشَّلَلُ..

في كُلِّ مَرَّةٍ أُودِّعُ فيها أُمِّي، وهي تَمْضِي عَائِدَةً إِلَى دِمَشَقِ،
بعد زيارتنا، أَفْقِدُ شَيْئًا مِنْ نَفْسِي، قِطْعَةً مِنْ وُجُودِي، ذَاتًا مِنْ ذَاتِي.
أُمُّكَ، ثُمَّ أُمُّكَ، ثُمَّ أُمُّكَ، حَذَارِ، ثُمَّ حَذَارِ.. فَأَيُّ أَذَى تُلْحِقُهُ
بَأُمِّكَ، سوف يَرْتَدُّ إِلَيْكَ ثلاثة أضعافه، في نَفْسِكَ، وأولادِكَ،
وحياتِكَ! التي يُحَدِّثُ فيها ثلاثة سُروخٍ، الأول في رُوحِكَ،
والثاني في قَلْبِكَ، والثالث في وُجُودِكَ كُلِّهِ، يَدْمُرُكَ مَرَّةً بعد مَرَّةٍ
إلى يوم تَلْقَاهَا في المَلَكُوتِ الأعلى.
ليست المسألة، مُجَرَّدَ واجباتٍ وطُقُوسِ البرِّ بِأُمِّكَ، أُمُّكَ..
إنَّها أَنْتَ.

دُمُّكَ الذي يَسْرِي في عُرُوقِكَ، والمُورِّثات التي تحمِلُها في
كُلِّ خلية من خلايا جَسَدِكَ، مُوسيقى صَوْتِكَ، سَيَّالَتِكَ العَصِيْبَةِ،
العَدَسَاتِ اللَّاحِظَةِ اللَّاصِقَةِ بِعَيْنَيْكَ مَدَى الحياة، حُلِيَمَاتُ التَّدْوِقِ
في لِسَانِكَ..
إنَّها أَنْتَ.

ولكن وعلى الرَّغم من ذلك، فإنَّ كُلَّ هذه الدَّمُوعِ التي تَذُرُّها
الوالدة، لا يُمكن مُقَارَنَتُهَا بِدُمُوعِ أُمِّكَ، دُمُوعِ الأبِّ، تَكْسِرُ الظَّهْرَ
وَضِلْعَيْنِ أو ثلاثة من أَضْلاعِ صَدْرِكَ.

مُمْسِكَةٌ أَنَا بِزَمَانِ الأُمُورِ! لا أريد أن أَبْكِ، لكي لا أَزِيدَ
الطَّيْنَ بِلَةً، أريدُ أنْ أَخَفَّفَ عَنْهُمَا أَلَمَ هذا الفِراقِ المُوحِشِ الكَثِيبِ،
يَنْشَبُ أُنْيَابُهُ فِي الرُّوحِ، يَنْتَزِعُهَا قِطْعَةً قِطْعَةً، في كُلِّ مَرَّةٍ كان أَبِي
يُسَمِّى فيها الأولادَ، قائلاً: لَعَلَّهَا المَرَّةُ الأَخيرة.

لا أريد أن أبكي، لا أريد لأولادي، أن يكونوا عاطفيين إلى
درجة الضعف والاستسلام، لكنني لا أستطيع، رغم أنني تفرّ
الدموع، قاتل الله الدموع، بارك الله بالدموع!

يجتازُ الوالد والوالدة، آخر حاجزٍ أمنيٍّ في المطار، باتجاه
الطائرة، بعد التنفيس والتدقيق، يقفان هناك مكسوري الخاطر،
خائري القوى، كأنهما خارجان من معركة، لا كفاءة فيها ولا
ذمم.. مهشمين، كم مرة سيفقدان إبتئهما هذه وأسرتهما؟ كم مرة
بعد سيعيشان هذه اللحظة البسعة؟ قاتل الله الغربة، قاتل الله النأي،
قاتل الله البعد والسفر.

قاتل الله الوطن.. حفظ الله الوطن!

يلوحان بأيديهما، يرسلان القبلات، الوالدة تبكي، غير عابئة
بالناس الذين يتفرجون عليها، كأنهم لا أمهات لهم، كأنها تقدم
لهم عرضاً تهرجياً لافتاً، الوالد يمسك بيدها، يريد أن ينشئها من
العرق، يتعكزان على ما بقي في إرادتهما من قوة، في شيخوختيهما
التي تضمهما وتجمعهما في آخر العمر، كما جمعتهما المودة
والمعانة والكفاح في طريق الحياة معاً أيام الشباب.. إنهما يجدان
في بعضهما السلوى، ولا سلوى ولا عزاء.

كمن يترك وليده على قارعة الطريق، نخلفهما وراءنا،
نتركهما هناك في وحدتهما، وحزنهما، وآلام فراق الغربة التي هي
أضعاف أضعاف آلام فراق الموت.

كم يبدو الموت رحيماً، إن قارناه بالآلام الغربة.

نقطع حبنا السريّ معهما من جديد، ونمضي نحو باب
الخروج، مطار مدريد الدولي، كبير طويل عريض، لا أرى الباب،
ولا أجد المخرج.. تهتز الأرض تحت قدمي، أتمسك بأبي الأولاد
وأسأله: زلزال؟

يقول لي: هيا بنا...

من جديد تَهْتَزُّ الأرضُ، بِقُوَّةٍ شديدة تحت قَدَمَيَّ، فَقَدْتُ توازُنِي، وَأَشْرَفْتُ على السُّقُوطِ، في واحدٍ من تلك الشُّقوقِ، التي تُخَلِّفُها الزَّلَازِلُ الشديدة في الأرضِ، أعودُ لِأَتَمَسَّكَ بِأَبِي ساجدةً، وأنا أَضْمُّ أولادي، من حولي في هَلَعٍ وَحِرْصٍ.

- إنه زلزال.. الأرض تَمِيدُ.

يُمَسِّكُ أبو ساجدة، بأيدينا جميعاً، ويتوجَّه نحو الباب.

يَنْفَتِحُ الباب الآلي، وَتَمْتَدُّ الطَّرِيقُ من غرناطة إلى مدريد، أمامَ ناظِرِي، ونحن نُهْرَوُلُ فيها مع أَيْمَنَ الشَّامِيِّ الذي أبى إلا أن يُرافِقَنَا لِلْمُسَاعَدَةِ، وَتَخْفِيفِ لَأَوَاءِ السَّفَرِ، وَسَيَّارَتِي التَّاكْسِي المُحْمَلَتَيْنِ بما اسْتَطَعْنَا حَمْلَهُ، مِنْ مَتَاعِنَا وبقايا مَكْتَبَتِنَا، وبعض ألعابِ الأولاد، التي اضْطُرَرْنَا إلى رَمْيِ ثلاثة أرباعِها، قبل الخروج من غرناطة.. وفي المذيع تصدَّح من «راديو 5 كل الأخبار» أغنية مايكل جاكسون: نحن العالم.. نحن الأطفال!

يسألني عُنْصُرُ الأَمْنِ، القَذِرُ، القبيح، وقد كَشَّرَ عن أنيابه بِضُحْكَةٍ صَفْراوِيَّةٍ، ما هذا الذي تحملينه معك إلى إسبانيا؟

- لَكَ يا أخي ألا ترى أنه جهازُ عَروسٍ، مَلابِسُ جديدة، ما زالت بِطَاقَاتِهَا مُعَلَّقة فيها؟

- وهذه الدَّفَاتِرُ والكُتُبُ؟

يُقَلِّبُ المَلابِسَ بيديهِ القَذِرَتَيْنِ، يُريد أن يَكْشِفَ عن هذه القَنَابِلِ، والمُتَفَجِّراتِ التي تُسَمَّى كُتُبًا!

أَخْرَجْتُ له دَفْتَرَ مادَّةِ «الوراثَةِ»، وَقَلَّبْتُ الدَّفْتَرَ أمامَ ناظِرِيه:

- أَنْظُرْ عَمِّي، إنها دَفَاتِرُ الجامِعة وكُتُبُها، أَحْمِلُها مَعِي لِأَتِمَّ

دِرَاسَتِي هناك!

صار يبتسم إبتسامة قميئة، وهو يقول: رايحة لعند جوزها،
وتريد أن تكمل دراستها.. اسمعوا هل السمعة!

أخذ الدفتر يقلبُه، وتوقف في أول صفحة منه يقرأ: ﴿يَأْتِيهَا
النَّاسُ ضَرْبَ مَثَلٍ فَأَسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ
اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا
يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾⁽¹⁾.

قال: وما هذا؟ قرآن في العلوم؟

قلت: هذه آية عن الذباب، ونحن ندرس كثيرا صغيات
الذباب في علم الوراثة.

قال له صاحبه: مشيها وخلصنا من العلاك.. ثم توجه إلي
بالأمر: امشي تحركي.

قلت: ومن سيعيد ترتيب المحفظة بعد كل هذه الفوضى..

نظر إلي العنصر الجديد، نظرة مخيفة جدا، فرحت أحاول
كبس الملابس في المحفظة الضخمة، وأنا أحاول إخفاء الدفاتر
والأوراق، التي تكومت تحتها.. فأشفق عليّ العنصر الأول، وجاء
يساعدني، وهو ما زال يبتسم إبتسامته القذرة تلك، أخذنا الملابس
محاوِلاً حشرها داخل المحفظة كيفما اتفق.

مررت المحفظة بسلام، وأصبحت بما فيها من مُسودات
وأوراق، مما لم أستطع حرقه ولا تركه في سوريا، وأمالي⁽²⁾

(1) سورة الحج، الآية 73.

(2) أمليّة، اسم مشتق من كلمة «أملى» الأستاذ الدرس، وأملى الرسالة: قالها
للسامع فكتب عنه. ﴿وَقَالُوا أَسْطِطِرُّونَ الْوَلَدِينَ﴾ أَكْتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ
بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿ سورة الفرقان 5/ معجم اللغة العربية المعاصر/ كلمة
أملية وأمالي: كانت تستعمل في جامعة دمشق، المقصود بها مجمل ما
يجمعه الطلبة من محاضرات الأساتذة، فتطبع وتوزع بينهم.

توثيقي لجرائم النظام السوري في دمشق، وأسماء بعض الشهداء من حولنا، توارخ حياتهم، ومُلابسات إستشهادهم.

أصبحنا أنا وأوراق، خارج سُلطة الدولة، خَرَجَتْ الحَقِيبَةُ نحو الطائرة، وأصبحتُ في مَأْمَن، وبقيتُ مع مَحْفَظَةِ المِلَفَّات التي أَحْمِلُهَا، أتمشى في «مطار روما الدَّولِيّ» مع ابنتي «ساجدة»، نبحثُ عن مكانٍ نتناول فيه طعام الغداء، في طريقنا من إيطاليا إلى إسبانيا، عائدتين من مؤتمر كان قد عُقدَ في الكويت .. عندما عَرَضْنَا أحدُ رجال الأمن الإيطاليين وكَلَبُ حِرَاسَتِهِ الكبير المُخيف، بدأ يُكَلِّمنا بالإيطالية، ونحن لا نفهم مما يقول شيئاً، ثم بدأ بالصُراخ في وجهنا، فقالت له ابنتي بسنوات عُمُرِها الخمس عشرة: ألا ترى أننا لا نفهم الإيطالية، هذا مَطَارٌ دولي، وعليكم الكلام بالإنكليزية.

أشارَ الرَّجُلُ إلى المحفظة التي أَحْمِلُهَا، ولما تَلَكَّأْتُ ثَوَانٍ في فَهْمٍ ما يريد، جَذَبَ المحفظة من يدي، فَوَقَعَتْ أرضاً، فُتِحَتْ، واندَلَقَ كُلُّ ما كان فيها، من أوراق، وملفات، وجوازات سفر، أنحني الرَّجُلُ فأخَذَ جَوَازِيَّ سفرنا، دَقَّقَ النَّظْرَ فيهما، وتَمَتَّمَ سَاحِراً حَانِقاً مُسْتَهْزِئاً، وبالإسبانية المُكسرة: «موراس» مع جوازات سفر إسبانية.. لِنَرِ من أين حَصَلْتُنَّ عليها!

أَخَذَ جَوَازِيَّ السَّفَرِ، ومضى قائلاً إِتْبَعَانِي...

لم أتحرك من مَكَانِي ولا ابنتي، صار يَعْوِي كَكَلَبٍ مَسْعُورٍ بالإيطالية، ونحن واقِفَتَانِ نَنْظُرُ إِلَيْهِ، وحَقِيبَتِي وأورَاقِي وأقلامِي، مَرْمِيَّةٌ على الأرض.. والنَّاسُ يَتَفَرَّجُونَ غَيْرَ مُبَالِينِ.

ذهب وحده، وعاد بعد دقائق، بزَمِيلَةٍ له تتكَلَّمُ الإسبانية، كانت أَحَقَرُ منه، وَأَشَدُّ عُصْرِيَّةً وَبَعْضَاءً.. سألتني بِكُلِّ صَفَاقَةٍ: مِنْ أَيْنَ جِئْتُمَا بهذين الجَوَازَيْنِ الإسبانيَّين؟ من أيِّ البِلَادِ أَنتُمَا؟

قلت لها: نحن نحمل الجنسية الإسبانية.

قالت: من أين أتيتما؟

قالت لها ابتني في غضبٍ شديد جدًّا، فنحن لم نر مثل هذه المعاملة في إسبانيا من قبل: أعطني اسمك واسم زميلك هذا.. إنكما لا تملكان الحق في مُعاملتنا بهذا الشكل، وفقط لأننا مُحجَّبتان! نحن نحمل الجنسية الإسبانية، وأنا مواطنة إسبانية مولودة في إسبانيا.

هزّت الشرطية الإيطالية كتفيها، وهي تبسم ابتسامة كريهة، تحدّثت إلى زميلها بالإيطالية، ثم دَفَعَت الجوازين إلينا، وانصَرَفَا وهما يُتمَتِمان بالشتائم.

صَرَخَتْ ساجدة فيهما: عودا فاجمعا ما رماه زميلك، على الأرض، ليس من حقّه أن يُوقَفنا ويُسيء مُعاملتنا وفقط بسبب لباسنا، ليس من حقّكم الإعتداء على المسافرين بهذه الصورة غير اللائقة، ليس من حقّه أن يرمي أغراضنا على الأرض.. عودا إلى هنا فاجمعا ما رميتماه.

لم يردّ الشرطيّان، وذهبا من حيث أتيا، تركانا في حالةٍ من الغضب والقهر، جعلتنا لا نستطيع تناول أيّ شيء من طعام أو شراب، خلال الساعات الأربع التالية، التي قضيناها مُنتظرتين في مطار روما.

كُنّا نَجْمَع أوراقنا وأقلامنا وأنفُسنا، وساجدة مُحْتَقَنَةً الوجه تُغالبُ دمعها، وأنا عاجزة عن مُواساتها.. عندما جاء جدّي الشّيخ، وبدأ يُلَمُّ الأوراق ويُرَتِّبها معنا في مُحفَظَتنا المرمية المُستباحة، ثم مَضَى في طريقه دون أن يَنْسَ بِنْتِ شَفَةِ، يُلَمِّم كُلَّ وَرَقَةٍ يَجِدُها في أرض المطار، يتفحص اللّغة التي كُتِبَتْ فيها، فإذا كانت باللّغة العربيّة، احْتَفَظَ بها، وإن لم تكن، جعلها في حاوية الأوراق.

نادَيْتُهُ: يا جَدُّو..

التَفَتَ إِلَيَّ، لَوَّحَ بِعُكَاظِهِ مُحَيِّيًا، وَاسْتَأْنَفَ مَا كَانَ يَقُومُ بِهِ.

قُلْتُ لَهُ: هُنَا لَا تَوْجَدُ أَوْرَاقَ مَكْتُوبٍ عَلَيْهَا بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ.

ابْتَسَمَ وَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا.. بَيْنَمَا كَانَتْ شَاشَاتُ التِّلْفِزَةِ فِي
الْمِطَارِ، تَبَثُّ مِنْ أَفْغَانِسْتَانِ مَشْهَدَ الْحَرَاقِ، الَّتِي أَشْعَلَتْهَا جَمَاعَةُ
«طَالِبَان»⁽¹⁾ فِي الْكُتُبِ وَالْأَوْرَاقِ، وَقَالَ الْمُذِيعُ: إِنَّهُمْ يَحْرِقُونَ
الثَّقَافَةَ وَالْعِلْمَ!

انْقَبَضَ صَدْرِي، وَأَحْسَسْتُ بِالِاخْتِنَاقِ، وَالْأَرْضُ لَا تَزَالُ
تَرْتَجِفُ تَحْتَ قَدَمَيَّ بِشِدَّةٍ.. لَكِنْ جَدِّي لَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيَّ، طَلَبَ إِلَيْهِ
رَجُلُ الْأَمْنِ الْإِسْبَانِي أَنْ يُرَافِقَهُ، لِيَجْتَازَ بَوَابَةَ الْإِنْذَارِ، وَكُلَّمَا مَرَّ
عَبْرَهَا أَطْلَقَتْ صَفَارَتَهَا، وَعَادَ جَدِّي مِنْ حَيْثُ اجْتَازَهَا أَوَّلَ الْأَمْرِ،
طَلَبُوا مِنْهُ أَنْ يَتْرَكَ عُكَاظَهُ جَانِبًا فَلَعَلَهَا هِيَ الَّتِي تَتَسَبَّبُ بِإِطْلَاقِ
رَنِينِ الْإِنْذَارِ، ثُمَّ مَرَّ، فَأَطْلَقَتْ صَفَارَتَهَا، خَلَعُوا عِمَامَتَهُ، أَذَانِي أَنْ
أَرَاهُ دُونَ عِمَامَتِهِ هَكَذَا، كَأَنَّنِي أَنَا الَّتِي خَلَعْتُ حِجَابِي!

(1) حركة طالبان الأفغانية، ثم الباكستانية: حركة نشأت من طلبة العلم
الشرعي في أفغانستان، على جذور الجهاد الأفغاني ضدّ الوجود
الروسي، و عام 1992م بعد سقوط الجمهورية الديمقراطية الأفغانية
المدعومة من الاتحاد السوفييتي، تردّت الأوضاع وشاع قانون الغاب
بين القوى الأفغانية المتناحرة، فولدت عام 1994م حركة طالبان الأفغانية
كحركة إسلامية سنية سياسية مسلحة تطبق مفهومها الخاص عن الشريعة
الإسلامية، واستطاعت السيطرة على أجزاء كبيرة من أفغانستان و على
العاصمة كابل في 27 أيلول/ سبتمبر 1996م. و أعلنت قيام الإمارة
الإسلامية في أفغانستان.

أما حركة طالبان باكستان فتختلف عن حركة طالبان الأفغانية، وهي طرف
أساسي في الصراع مع الحكومة المركزية الباكستانية. ومن بين ماتقوم به
هذه المجموعة المواجهة مع الجيش الباكستاني، ومحاربة قوات الناتو
في أفغانستان.

لَمَّا اسْتَمَرَ الرَّنِينَ، طَلَبُوا إِلَيْهِ أَنْ يَخْلَعَ جُبَّتَهُ..

كُنْتُ أَرْقُبُ عَنْ بُعْدٍ، وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ لَطْفِ رِجَالِ الْأَمْنِ
الْإِسْبَانِ، كُنْتُ أَتَمَزَقُ أَلْمَاً، كَيْفَ كَانَتْ تُهَانُ هَيْئَةُ الْعَالِمِ وَهَيْبَتُهُ،
نَادِيَّتُهُ مِرَارًا، لَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَسْمَعُ صَوْتِي، أَخِيرًا اجْتَازَ الْبَوَابَةَ
الْإِلِكْتَرُونِيَّةَ، رَأَيْتُهُ يَنْظُرُ نَحُونَا وَهُوَ يَرْتَدِّي مَلَابِسَهُ فِي سَكِينَةٍ
وَاسْتِسْلَامٍ، وَضَعَ عِمَّتَهُ، ثُمَّ لَوَّحَ بِعُكَّازِهِ، وَهُوَ يَمْضِي مَعَ جَمُوعِ
الْمَسَافِرِينَ.

وَنَحْنُ فِي طَرِيقِنَا خَارِجًا، كَانَتْ تَجْلِسُ فِي قَاعَةِ الْإِنْتَظَارِ
رَائِقَةُ الْبُوسْنِيَّةِ، فَلَمَّا رَأَتْنِي، قَامَتْ تُهْرُولُ نَحْوِي، تُنَادِينِي بِاسْمِي..
أَسْرَعْتُ أَنَا الْأُخْرَى نَحْوَهَا.

ضَمَمْتُهَا، وَضَمَمْتَنِي.. كَأَنَّنِي اسْتَعَدْتُ أُمِّي لِلتَّو.

بَكَتُ وَبَكَيْتُ، سَأَلْتُهَا عَنْ أَحْوَالِهِمْ..

قَالَتْ رَائِقَةُ الْبُوسْنِيَّةِ: مُنْهَكُونَ وَاللَّهِ.. مُنْهَكُونَ جَدًّا.

- أَنْتِ آتِيَّةٌ أَمْ مُغَادِرَةٌ؟

- إِنَّنِي مُغَادِرَةٌ، أَنَا عَائِدَةٌ إِلَى سَرَاييفُو.

- مُرِّي عَلَيْنَا لَدَى رُجُوعِكَ إِلَى مَدْرِيدِ.

- لَنْ أَعُودَ إِلَى مَدْرِيدِ! لَا أُرِيدُ لِأَوْلَادِي أَنْ يَنْشَأُوا لِیروني
وَزَوْجِي نَرعى الخنازیر.. أُمِّي مَرِیضَةٌ وَتُرِيدُنِي أَنْ أَكُونَ إِلَى
جَوَارِهَا.

-

- وَأَنْتِ؟ مَاذَا تَفْعَلِينَ فِي الْمَطَارِ؟

- إِنَّهَا أُمِّي كَذَلِكَ.. غَادَرْتُ لِلتَّو..

قَبَضَتْ رَائِقَةُ عَلَى يَدِي، قَالَتْ لِي: نَحْنُ بُوسْنِيُونَ بِلَا وَطَنِ،

وها نحن نعودُ إلى أرضنا رغم أنوفِهِم.. أما أنتم فلا وطن، ولا
أرض، ولا عودة.

لا وطن، ولا عودة... لَكُمْ الله.

سَأَلْتُهَا: هل تَشْعُرِينَ بِالزَّلْزَالِ؟ إنه زلزال!

لكنها لم تُجِبْنِي، ولم أَعُدْ أراها، لقد غادرت إلى سراييفو،
وربما إلى سيربرينيتشا؟!

أَرْضُ المطار تهتزّ، كل شيء يَدُور ويَهْتَزّ، وأنا أشْعُرُ بهذه
الهَزَّة الأرضيَّة القويَّة جدًّا..

لا أدري لمَ لا يَشْعُرُ بها مَنْ حَوْلِي!.. يبدو أنه لا يَشْعُرُ بها
أحدٌ غيري!

مدريد/ آذار - مارس 2016

خارطة التسلسل الزمني للأحداث

التي بُنيَ عليها الكتاب

أبرز الأحداث التي شهدتها العقد

ما بين 1985 و1995

وكذلك بعض الأحداث البالغة الأهمية

في سَيْرِ حَبْكَةِ الْمَادَّةِ

على طَرَفِي هَذَا الزَّمَنِ

CRONOLOGÍA DEL LIBRO

*** - انقلاب 1970 الذي قام به وزير الدفاع السوري في حينه «حافظ الأسد»، واستولى على أثره على الحكم، وسيطر على مفاصل الدولة كافة.

*** - 20 / 11 / 1975 موت الجنرال فرانسيסקو فرانكو — Francisco Franco - بعد أن استبد بحكم إسبانيا أربعين عامًا.

*** - 22 / 11 / 1975 تنصيب الملك خوان كارلوس الأول ده بوربون - Juan Carlos I de Borbón - ملكا دستوريًا لإسبانيا الموحدة، وذلك بعد أن أوصى به الجنرال فرانكو نفسه وريثًا له وتبناه وأشرف على إعداده كملك مستقبلي لإسبانيا، بعد إزاحة والده من «انتظار» المنصب بعد وفاة فرانكو.

*** - 3 / 7 / 1976 أدولفو سوارس - Adolfo Suárez - رئيسًا للحكومة الإسبانية، وقد بقي في هذا المنصب حتى تاريخ 25 / 2 / 1981.

*** - 22 / 2 / 1977 حادثة اغتيال محمد الفاضل عميد كلية الحقوق في حرم جامعة دمشق.

*** - 15 / 6 / 1977 - أول انتخابات ديمقراطية في إسبانيا الحديثة.

*** - 6 / 12 / 1978 إقرار تعديل الدستور الإسباني ودخوله حيز التنفيذ يوم 29 من الشهر نفسه.

*** - حادثة مدرسة المدفعية في حلب والتي قادها النقيب «إبراهيم اليوسف» 16 / 6 / 1979

*** - مجزرة سوق الأحد في حلب 13 / 7 / 1980

*** - مجزرة حي المشاركة في حلب والتي نفذها النظام صباح يوم الأضحى 11 / 8 / 1980

*** - 23 / 2 / 1981 محاولة الانقلاب الأخيرة في تاريخ إسبانيا الحديث والمعروفة برمز «23 ف» «F23».

*** - شباط - فبراير 1982 وقوع مجزرة مدينة حماة السورية التي راح ضحيتها ما بين 20.000 و 42.000 إنسان - بحسب اختلاف المصادر - على أيدي الجيش النظامي والقوات المدربة تدريباً قاسياً ووحدات من الأمن السري والقوات الخاصة التابعة لرفعت الأسد شقيق حافظ الأسد الديكتاتور العسكري الذي كان يسيطر على سوريا في تلك الفترة.

*** - 6/6/1982 الغزو الإسرائيلي للبنان وبدء القصف على المخيمات الفلسطينية، على هامش الحرب الأهلية اللبنانية، التي بدأت في 13/4/1975، وانتهت رسمياً عام 1985، لكنها لم تنته فعلياً إلا عام 2000.

*** - 6/9/1982 انعقاد القمة العربية في فاس، والاعتراف فيها بإسرائيل، وتم فيها إقرار مشروع السلام الذي تقدمت به السعودية.

*** - 16-18/9/1982 مذبحة صبرا وشاتيلا على أيدي القوات العسكرية الإسرائيلية بإمرة أرييل شارون، وقوات حزب الكتائب المسيحي اللبناني، وقوات جيش لبنان المسيحي الجنوبي، وذلك ردّاً على اغتيال الرئيس اللبناني المنتخب بشير الجميل.

*** - 17/9/1982 أول عرض للجزء الثاني من فيلم «رامبو» الشهير.

*** - 21/10/1982 جائزة نوبل للآداب/ الكاتب الكولومبي غابرييل غارثيا ماركيز.

*** - 1/12/1982 فيلييه غونثالث، المرشح الاشتراكي لرئاسة الحكومة الإسبانية، يفوز بغالبية ساحقة، ويستمر الاشتراكيون في حكم إسبانيا حتى 1996.

*** - 8/9/1983 إعلان الرئيس النميري تطبيق «الشريعة» في السودان، وبدء بوادق التقسيم فيه. - 9/7/2011 إعلان التقسيم رسمياً، وإعلان جنوب السودان دولة مستقلة..

*** 1985 منظمة الأمم المتحدة أعلنت هذا العام، العام العالمي للشباب.

*** - 7/1/1985 تجدد المفاوضات حول مباحثات نزع الأسلحة

النووية، بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي، بعد 24 عامًا من الحرب الباردة بين الكتلتين الشرقية والغربية.

*** 28/ 1/ 1985 إطلاق النشيد العالمي الشهير «نحن العالم.. نحن الأطفال»

—We are the world.... بقيادة مايكل جاكسون وآخرين، بهدف جمع التبرعات لمكافحة الجوع في إثيوبيا.

*** 11/ 2/ 1985 إعادة انتخاب «حافظ الأسد» رئيسًا لسوريا لمدة 7 سنوات أخرى بنسبة 99.99% من الأصوات.. سُميت هذه الانتخابات بانتخابات «الخوف والدم».

*** 7/ 3/ 1985 اندلاع المظاهرات في السودان احتجاجًا على الضائقة المعيشية، وقيام قوات الأمن السودانية بمواجهتها بالغاز المسيل للدموع والغاز الخانق والعصي الكهربائية والرصاص.

*** 6/ 4/ 1985 تدخل الجيش السوداني ضد نظام مايو وإعلان انتهاء الحقبة النميرية في التاسعة والنصف من صباح السبت 6 نيسان/ أبريل 1985 وذلك استباقًا لمسيرة القضاة والدبلوماسيين التي كان من المفترض أن تبدأ عند العاشرة صباحًا. وصلت طائرة النميري القادمة من واشنطن إلى مطار القاهرة في الساعة 11 صباح السبت وأخطر هناك بالتطورات الأخيرة ومكث في القاهرة.

*** 12/ 4/ 1985 ظهور أول ما يمكن اعتباره (هجومًا إرهابيًا) باسم الإسلام) خارج المنطقة، وذلك في مدريد - إسبانيا، عبر تفجير عبوة ناسفة في أحد المطاعم لمجموعة تسمى «الجهاد الإسلامي»، بمحصلة 18 قتيلًا، و82 جريحًا/ وقد أشارت كل التحقيقات - على الرغم من تعدد الجهات التي نسبت إلى نفسها المسؤولية عن القيام بهذه التفجيرات - أنها مجموعة مدعومة من حزب الله الشيعي، ودولة إيران - كما تذكر الموسوعات الإسبانية التاريخية المعاصرة، وموسوعة الويكيبيديا الإلكترونية-، والتي تضيف أن هذه المجموعة تابعة للجهة نفسها التي قامت بتفجيرات بيروت عام 1983 والتي أدت إلى مقتل 300 جندي أمريكي، وتسببت بالانسحاب الأمريكي من لبنان.

*** 26/5/1985 استئناف العراق لحرب المدن مع إيران، وقيامها بقصف ست مناطق فيها.

*** 14/6/1985 قيام «مجموعة إسلامية - بقيادة عماد مغنية» تابعة لحزب الله ومؤتمرة بأمر إيران باختطاف طائرة بوينغ 847 التابعة لشركة أمريكية.

*** 22/7/1985 تعيين ميخائيل غورباتشوف أميناً عاماً للجنة المركزية في الحزب الشيوعي السوفيتي.

*** 25/7/1985 محاولة اغتيال أمير الكويت الشيخ جابر الصباح على أيدي إرهابيين إيرانيين.

*** 4/8/1985 انتحار أحد أعضاء طاقم الطائرة الحربية الأمريكية التي قامت بتنفيذ مهمة رمي القنبلة الذرية على مدينة ناغاساكي اليابانية 9.8 عام 1945.

*** 13/9/1985 طرحت شركة «ننتندو» في الأسواق لعبة «الفيديو» الأولى التي تسمى «سوبر ماريو بروس».

*** 11/11/1985 أعلنت إسرائيل ضم مدينة «أم الفحم» الفلسطينية - إلى سلطتها الاستيطانية.

*** 20/11/1985 شركة «ميكروسوفت» تطرح في الأسواق لأول مرة في التاريخ برنامج «ويندو 1» .

*** 11/1/1986 دخول «قانون الأجانب» حيز التنفيذ في إسبانيا، وهو القانون المنظم لأوضاع الأجانب من غير دول الاتحاد الأوروبي، وإقامتهم في إسبانيا، والحقوق والواجبات المترتبة على وجودهم في إسبانيا.

*** 11/2/1986 سقوط ميناء الفاو العراقي بأيدي القوات الإيرانية، في سياق الحرب العراقية - الإيرانية، والتي سُميت حرب الخليج الأولى.

*** 16/2/1986 الطائرات الفرنسية تنفذ هجوماً على قاعدة ليبية جوية في شمال تشاد، أثناء الصراع الليبي - التشادي.

- *** - 18/2/1986 إعادة احتلال لبنان من قبل القوات الإسرائيلية.
- *** - شهر آذار/ مارس 1986.. عمليات عدائية متبادلة ما بين الولايات المتحدة الأمريكية وليبيا.
- *** - 14/4/1986 قامت 66 طائرة من طائرات سلاح الجو الأمريكي بشن غارة على ليبيا قضت فيها على كل مراكزها العسكرية الاستراتيجية، وقصفت مدناً مكتظة بالسكان، وضربت مكان إقامة الرئيس الليبي معمر القذافي، وذلك - كما قال الرئيس الأمريكي رونالد ريغان رداً على قيام ليبيا بدعم الإرهاب الموجه ضد الولايات المتحدة.
- *** - 26/4/1986 انفجار مفاعل تشرنوبيل في روسيا.
- *** - 27/8/1986 حركات احتجاج واسعة ضد النظام العنصري في دولة جنوب إفريقية، وقيام الشرطة بقمعها بوحشية.
- *** - 30/9/1986 قيام جهاز الموساد الإسرائيلي باختطاف أحد علماء الذرة الإسرائيليين من روما في إيطاليا، بسبب قيامه بفضح البرنامج الإسرائيلي النووي في الصحف العالمية.
- *** - 6/11/1986 الصحافة الأمريكية تكشف عن قيام الرئيس الأمريكي رونالد ريغان بالموافقة على تزويد إيران بالأسلحة في حربها مع العراق.
- *** - 13/11/1986 إعلان الاتحاد السوفيتي عن سحب كل صواريخه النووية ذات المدى المتوسط من عدة أماكن بينها بحر البلطيق.
- *** - 17/11/1986 قيام منظمة إرهابية فرنسية باغتيال المهندس جورج بيس.
- *** - 25/11/1986 الامم المتحدة تعلن مدينة «توليدو» الإسبانية - طليطلة- ومدينة ألكاثيرس - القصر -، ضمن مناطق إسبانيا تاريخية وطبيعية أخرى: تراثاً إنسانياً.

- *** - 1987 أعلنت منظمة الأمم المتحدة هذا العام، عامًا دوليًا لمنح المشردين بيوتًا ومأوى.

- *** — 19/2/1987 المغرب تبني سورًا سادسًا لمنع البوليساريو من الوصول إلى الشواطئ الصحراوية على المحيط الأطلسي.
- *** — 21/2/1987 دخول الجيش السوري إلى المنطقة الغربية من بيروت، بعد معارك ضارية بين الميليشيات المتحاربة هناك.
- *** — 19/4/1987 تعرض في الولايات المتحدة الأمريكية الحلقة الأولى من المسلسل العائلي الكرتوني الشهير «عائلة سيمبسون».
- *** — 1/6/1987 اغتيال رئيس الوزراء اللبناني رشيد كرامي في تفجير إرهابي.
- *** — 12/6/1987 اجتماع الرئيسين الأمريكي والسوفيتي لدى جدار برلين، في برلين عاصمة ألمانيا الموحدة.
- *** — 19/6/1987 قيام منظمة ايتا الإرهابية بتفجير في أحد أكبر المراكز التجارية في برشلونة بحصيلة 21 قتيلاً، و40 جريحاً.
- *** — 28/6/1987 القوات العراقية تقوم مرتين بضرب مدينة زرداشت الإيرانية في مقاطعة أذربيجان الغربية، بقنابل تحمل غاز الخردل.
- *** — 11/7/1987 الأمم المتحدة تعلن أن عدد سكان الأرض بلغ 5000 مليون نسمة.
- *** — 31/7/1987 قيام بعض الحجاج الإيرانيين بمظاهرات عارمة في أثناء موسم الحج، حيث قُدر عدد الحجاج المتواجدين في المشاعر المقدسة يومها 2.100.000 حاج على الأقل، وقاموا بسد الطرقات وإحراق السيارات ورفع شعارات الثورة الإيرانية وصور الخميني في شوارع مكة، وحاولوا اقتحام الحرم المكي بالسكاكين والأسلحة التي كانوا يخفونها تحت ملابس الإحرام، وقد أدت تلك الاضطرابات إلى مقتل 400 شخص من الحجاج الإيرانيين ومن بقية الحجاج ومن رجال الأمن السعوديين، وما يقارب الـ 700 جريح، بينهم 300 من الإيرانيين.
- أوردت المصادر الإسبانية هذا الخبر على النحو التالي: مقتل 400 حاج إيراني على يد الأمن السعودي خلال مصادمات مع قوى الأمن السعودية في موسم الحج الإسلامي لهذا العام.
- *** — 13/9/1987 اتفاق الفصائل الفلسطينية - المقاومة مع تنظيم أمل الشيعي المقاتل على وضع حد لحرب المخيمات.

*** - 19/10/1987 بوارج البحرية الأمريكية تقوم بتدمير قواعد بحرية بترولية إيرانية في الخليج «العربي - الفارسي».

*** - 7/11/1987 انقلاب «طبي» في تونس ضد الحبيب بورقيبة، وصعود زين العابدين بن علي رئيس وزرائه إلى سدة السلطة.

*** - 17/11/1987 أول قرار إبعاد عن فلسطين - غزة - تتخذه إسرائيل، وكان بحق الداعية الإسلامي عبد العزيز عودة

*** - 8/12/1987 اندلاع الانتفاضة الفلسطينية الأولى - انتفاضة أطفال الحجارة - - سميت بهذا الاسم لأن الحجارة كانت الأداة الرئيسية فيها، كما عُرف الصغار من رماة الحجارة بأطفال الحجارة. والانتفاضة شكل من أشكال الاحتجاج العفوي الشعبي الفلسطيني على الوضع العام المزري في المخيمات وعلى انتشار البطالة وإهانة الشعور القومي والقمع اليومي الذي تمارسه سلطات الاحتلال الإسرائيلي ضد الفلسطينيين.

- - استمر تنظيم الانتفاضة من قبل القيادة الوطنية الموحدة الفلسطينية - ومنظمة التحرير الفلسطينية - فيما بعد. بدأت الانتفاضة يوم 8 كانون الأول/ديسمبر 1987، وكان ذلك في جباليا، في قطاع غزة. ثم انتقلت إلى كل مدن وقرى ومخيمات فلسطين. يعود سبب الشرارة الأولى للانتفاضة لقيام سائق شاحنة إسرائيلي بدس مجموعة من العمال الفلسطينيين على حاجز «إريز»، الذي يفصل قطاع غزة عن بقية الأراضي الفلسطينية - منذ عام 1948. هدأت الانتفاضة في عام 1991، وتوقفت نهائياً مع توقيع اتفاقية أوسلو بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية - عام 1993.

يُقدّر أن 1300 فلسطيني قتلوا في أثناء أحداث الانتفاضة الأولى على يد الجيش الإسرائيلي، كما قتل 160 إسرائيلياً على أيدي الفلسطينيين، وبالإضافة إلى ذلك يُقدّر أن 500 فلسطيني يُزعم أنهم متعاونون مع السلطات الإسرائيلية قتلوا على أيدي فلسطينيين.

*** - 11/12/1987 هجوم إرهابي من منظمة إيتا الباسكية على قيادة القوات العسكرية في مدينة ثرغوثا في إسبانيا بمحصلة 11 قتيلاً، و88 جريحاً.

*** - 14/12/1987 إعلان الشَّيْخ الشهيد أحمد ياسين عن تأسيس حركة المقاومة الإسلامية - «حماس» في قطاع غزة، في قلب الانتفاضة الفلسطينية - الأولى. - استشهاد الشَّيْخ أحمد ياسين عام 2004 بغارة إسرائيلية، تقصده بصاروخ موجه أصابه في كرسي عجلاته وهو خارج من المسجد في صلاة الفجر..

*** - 10/2/1988 قبول إسبانيا في منظومة حلف شمال الأطلسي.
*** - 24/2/1988 منظمة إيتا الإرهابية تختطف أحد رجال الأعمال.
*** - 31/6/1988 ملك الأردن يعلن تخلي الأردن رسمياً عن الضفة الغربية المحتلة من قبل إسرائيل منذ عام 1967، للمساعدة في إنشاء الدولة الفلسطينية - المستقلة.
*** - 20/8/1988 إعلان نهاية الحرب الإيرانية - العراقية.
*** - 1/10/1988 انتخاب ميخائيل غورباتشوف بالإجماع رئيساً للمجلس السوفيتي الأعلى.
*** - 3/11/1988 حصول نجيب محفوظ على جائزة نوبل للأدب.
*** - 15/12/1988 اعتراف الأمم المتحدة بالدولة الفلسطينية .
*** - 21/12/1988 مقتل 270 شخصاً في هجوم لوكربي الذي ثبت فيه تورط مخبرات الرئيس الليبي معمر القذافي الذي قتل لاحقاً على أيدي الثوار بعد اندلاع ثورة 15 فبراير - شباط 2011 في ليبيا .

*** - 1989 يمثل هذا العام منعطفاً في تاريخ العالم بسبب الثورات التي شهدتها مختلف دول الاتحاد السوفيتي الشيوعية، مما أدى إلى تفككه وانهياره.

وتعرف هذه الحقبة بانهيار الستار الحديدي في أوربا، وسقوط جدار برلين بين الألمانيتين، اللتين كانتا تمثلان رموز الحرب الباردة بين الكتلتين الاستعماريتين الشرقية والغربية.

هذه الثورات كانت أولى إرهابات الاختفاء النهائي للاتحاد السوفيتي بعد عامين من هذا التاريخ.

*** — 6/2/1989 غادر أفغانستان 30.000 جندي روسي، تاركين العاصمة كابول تغرق في حالة من الفوضى العارمة.

*** — 15/2/1989 إعلان الاتحاد السوفيتي بشكل رسمي سحب قواته كافة من أفغانستان.

*** — 14/2/1989 أطلق «آية الله الخميني» في إيران نداء لمسلمي العالم لقتل الكاتب الهندي - الإنكليزي «سلمان رشدي».

لاحقاً قام هذا المرشد الإيراني بعرض جائزة قيمتها مليون دولار لمن يقوم بقتل الكاتب المذكور.

*** — 17/2/1989 اختتام مؤتمر القمة المغاربي الثاني في مدينة مراكش المغربية، باتفاقية دفاع مشترك، وأعلن في اليوم التالي 18/2/1989 عن ولادة «اتحاد المغرب العربي» - الذي بقي حبراً على ورق والذي وقع عليه كل من ملوك ورؤساء: المغرب والجزائر وتونس وليبيا وموريتانيا.

*** — 3/3/1989 توصل الحزب الحاكم وزعماء النقابات في السودان إلى اتفاق لوقف الحرب الأهلية التي جلدت هذا البلد خلال ستة أعوام.

*** — 19/3/1989 الاحتفال التاريخي برفع علم مصر معلناً السيادة على مدينة طابا وإثبات حق مصر في أرضها.

- - طابا مدينة مصرية تتبع محافظة جنوب سيناء وتقع على رأس خليج العقبة بين سلسلة جبال وهضاب طابا الشرقية من جهة، ومياه خليج العقبة من جهة أخرى. يبلغ عدد سكان المدينة 3000 نسمة، وتبلغ مساحتها 508.8 فدان تقريباً، وتبعد من مدينة شرم الشيخ نحو 240 كم شمالاً. تمثل المدينة قيمة تاريخية واستراتيجية كبيرة لموقعها المتميز الذي يشرف على حدود 4 دول هي مصر، السعودية، الأردن، فلسطين المحتلة، حيث تبعد من ميناء إيلات الإسرائيلي نحو 7 كم مشرقاً، وتقع في مواجهة الحدود السعودية في اتجاه مباشر لقاعدة

تبوك العسكرية، وتعد آخر النقاط العمرانية المصرية على خليج العقبة في مقابل الميناء البحري الوحيد للأردن وهو ميناء العقبة.

*** - 22/3/1989 في لبنان أكثر من 100.000 إنسان يغادرون بيروت بسبب قصف الجيش السوري العنيف وحلفائه من الدروز على العاصمة اللبنانية، في صراعهم مع الميليشيات المسيحية بقيادة الجنرال ميشيل عون.

*** - 2/4/1989 الرئيس التونسي «زين الدين بن علي» يتمكن من تجديد ولايته على البلاد لمدة خمسة أعوام أخرى، بدعم من المجلس التشريعي الذي سيطر عليه حزب التجمع الدستوري الديمقراطي بأغلبية كبيرة.

*** - 14/4/1989 إطلاق أول قمر اصطناعي وتبثته في مداره، من مجموعة الأربعة عشر قمراً التي تتكون منها منظومة «دليل طرق السير» - GPS -

*** - 15/4/1989 في الصين، شهدت ساحة «تيان آن من» - تيانان من - بدء المظاهرات الاحتجاجية في بكين، إثر وفاة النائب العام للحزب الشيوعي الصيني السابق «هو ياوبانغ»، الذي عدّ لدى فئة من الشعب الصيني متحرراً من «مس الشيوعية».

*** - 17/4/1989 معركة تحرير الفاو - معركة فاصلة في الحرب الإيرانية - العراقية.

*** - 21/4/1989 في اليابان طرحت في الأسواق أول لعبة / Game Boy / Nintendo .

*** - 2/6/1989 في إيطاليا مجموعة من علماء الأحياء، يكتشفون الآلية التي تمكن من إنتاج حيوانات معدلة وراثياً في المختبرات.

*** - 28/6/1989 سلوبودان ميلوسيفيتش رئيس الجمهورية الاشتراكية الصربية، يلقي في كوسوفو ما سُمي «خطاب غازيمستان» - Discurso de Gazimestan وذلك كان نقطة البدء في الصراعات القتالية الجسام الخطيرة التي شهدتها منطقة البلقان.

- - هذا الخطاب، ألقاه ميلوسيفتش وسط تصعيد عنصري خطير بين الصرب والألبان الكوسوفيين في مكان يسمى بهذا الاسم «غازيمستان»

أمام مليون شخص، كانوا يُحيون ذكرى معركة جرت قبل 600 عام في كوسوفو فترة القرون الوسطى الأوروبية، بين المملكة الصربية، والإمبراطورية العثمانية التي هزمتها شر هزيمة في تلك المعركة، وقد بقي الصرب يتباكون على هزيمتهم تلك ستة قرون بانتظار فرصة الانتقام من مسلمي البوسنة والهرسك وكوسوفو كونهم تركة العثمانيين في البلقان.. وكان ذلك بداية سنوات الدم والخوف التي اجتاحت المنطقة خلال الأعوام الخمسة اللاحقة بين الصرب ومختلف الشعوب والدول - الحديثة القديمة- التي نشأت «منفصلة» عن تفكك الجمهورية الاشتراكية الاتحادية اليوغسلافية السابقة.

*** — 28/6/1989 انتخاب «أكبر هاشمي رفسنجاني» رجل الدين الإيراني، رئيساً للجمهورية الإيرانية الإسلامية، بغالبية ساحقة.

*** — 30/6/1989 في السودان، «عمر حسن أحمد البشير» - المولود عام 1944. يقوم بانقلاب عسكري ويحكم سيطرته على البلاد.

- - وكان يشغل منصب رئيس حزب المؤتمر الوطني، فقام بانقلابه العسكري على الحكومة المنتخبة برئاسة الصادق المهدي، وجمع بين منصبي رئيس الحكومة ورئيس الدولة الشرفي، وبقي في منصبه عشرين عامًا لاحقة.

- - وقد وجهت إليه تهمة خطيرة خلال فترة حكمه حيث اتهمت ميليشيات مسلحة تابعة له بالمشاركة في مجازر في كل من جنوب السودان ودارفور.

*** — 8/8/1989 الرئيس العراقي يعلن وقف إطلاق النار وبدء المحادثات مع إيران لإنهاء الحرب العراقية - الإيرانية.

*** — 14/8/1989 استقالة رئيس جنوب أفريقيا «بيتر - دبل يو بوثا» Pieter W. Botha - بعد مشادة عنيفة مع «فيدريك ويليام كليرك» Frederik W. de Klerk - الذي عُين لاحقًا خلفًا له، مما وضع حدًا للصراعات العنيفة بين السود والبيض في البلد التي حكمها نظام التمييز العنصري - الأبارتهايد. منذ عام 1940.

- - عمل على إطلاق سراح «نلسون مانديلا»، وتعاوننا على نقل البلاد من حالة الحرب العنصرية إلى حالة الصلح المدني، ونالا

مشاركة جائزة نوبل للسلام تقديرًا لجهودهما الكبيرة في إحلال السلم الاجتماعي في دولة جنوب أفريقيا.

*** — 30/9/1989 اتفاق الطائف هو الاتفاق الذي شمل الأطراف المتنازعة في لبنان وذلك بوساطة سعودية في 30 أيلول/سبتمبر 1989 في مدينة الطائف وتم إقراره بقانون بتاريخ 22 تشرين الأول/أكتوبر 1989 منهيًا الحرب الأهلية اللبنانية وذلك بعد أكثر من خمسة عشر عامًا على اندلاعها.

*** — 19/10/1989 الكاتب الإسباني «كاميلو خوسه ثيلا» يمنح جائزة نوبل للآداب/ وكذلك منح الجائزة نفسها للسلام للدالاي لاما تينزن غياتسو.

*** — 23/10/1989 الإعلان عن تأسيس صحيفة الموندو الإسبانية — El Mundo del Siglo XXI والتي تحتل واحدًا من أهم المواقع الصحفية الإعلامية في إسبانيا.

*** — 29/10/1989 إعادة انتخاب «فيليه غونثالث» — Felipe González - رئيسًا للحكومة الإسبانية بغالبية مطلقة ولفترة رئاسية ثالثة.

*** — 9/11/1989 سقوط جدار برلين بعد 44 عامًا من الفصل بين الألمانيتين الشرقية والغربية.

*** — 16/12/1989 بدء الثورة في مدينة أو العاصمة بوخارست تيميشوارا، رومانيا ضد النظام الشيوعي والرئيس «نيكولا تشاوشيسكو» — Nicolae Ceaușescu، والتي انتهت بمقتله وزوجته يوم 25/12/1989.

*** — 1990 إعلان هذا العام، عامًا دوليًا لمحو الأمية.

*** — 7/2/1990 انهيار الاتحاد السوفيتي: اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي توافق على التخلي عن احتكار السلطة.

*** — 12/2/1990 إطلاق سراح الزعيم الأفريقي نيلسون مانديلا بعد 26 عامًا من السجن بداية النهاية لنظام الفصل العنصري.

*** - 26 / 2 / 1990 الاتحاد السوفيتي يوافق على سحب قواته البالغة 73.500 فرد من تشيكوسلوفاكيا.

*** - 18 / 3 / 1990 أول انتخابات في ألمانيا الشرقية.

*** - 20 / 5 / 1991 الانتخابات الرئاسية والبرلمانية الأولى التي عقدت في رومانيا بعد انتهاء الحكم الشيوعي.

*** - 22 / 5 / 1990 قادة الجمهورية العربية اليمنية وجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية يعلنون توحيد شطري اليمن تحت اسم الجمهورية اليمنية.

*** - 1 / 6 / 1990 معاهدة غورباتشوف لتدمير ووقف تصنيع وتخزين الأسلحة الكيماوية، والتي لم تكن غير حبر على ورق، فلقد بقيت روسيا - تصنع وتصدر وتخزن هذه الأسلحة إلى بلدان العالم كافة، الثالث والعربي منه بخاصة.

*** - 15 / 7 / 1990 نمور التاميل يقتلون 168 من المسلمين في كولومبو، سري لانكا.

*** - 25 / 7 / 1990 الحزب الديمقراطي الصربي يعلن سيادة الصرب في كرواتيا.

*** - 27 / 7 / 1990 بيلاروسيا تعلن سيادتها، وهي خطوة رئيسية نحو الاستقلال عن الاتحاد السوفيتي.

*** - 2 / 8 / 1990 العراق تغزو الكويت.

- - الغزو العراقي للكويت هجوم شنه الجيش العراقي على الكويت في 2 آب/ أغسطس 1990 استغرقت العملية العسكرية يومين وانتهت باستيلاء القوات العراقية على كامل الأراضي الكويتية في 4 آب/ أغسطس ثم شكّلت حكومة صورية برئاسة العقيد علاء حسين خلال 4-8 آب/ أغسطس تحت مسمى جمهورية الكويت ثم أعلنت الحكومة العراقية يوم 9 آب/ أغسطس 1990 ضم الكويت إلى العراق وإلغاء جميع السفارات الدولية في الكويت، إلى جانب إعلان الكويت المحافظة 19 للعراق وتغيير أسماء الشوارع والمنشآت ومنها تغيير اسم العاصمة الكويتية.

- - أما في الطائف بالمملكة العربية السعودية فقد تشكّلت الحكومة

الكويتية في المنفى حيث تواجد أمير الكويت الشَّيخ جابر الأحمد الصباح وولي العهد الشَّيخ سعد العبد الله الصباح وعدد كبير من الوزراء وأفراد القوات المسلحة الكويتية.

واستمر الاحتلال العراقي للكويت فترة 7 أشهر، وانتهى الاحتلال بتحرير الكويت في 26 شباط / فبراير 1991 بعد حرب الخليج الثانية.
** 8 / 8 / 1990 حكومة الكويت المؤقتة التي فرضها الغزو العراقي، تعلن الوحدة مع العراق.

** 10 / 8 / 1990 انعقاد مؤتمر القمة العربيَّة الثامن عشر الطاريء في القاهرة لمناقشة غزو العراق للكويت واحتلالها.

** 16 / 8 / 1990 الأمم المتحدة ومجلس الأمن يعلنان فرض الحظر التجاري على العراق ردًا على غزوه دولة الكويت.

** 12 / 9 / 1990 إعلان الدولتين الألمانيَّتين والدول الأربع الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي وفرنسا وبريطانيا، التوقيع على معاهدة بشأن التسوية النهائية المتعلقة بألمانيا في موسكو، مما يمهد الطريق لإعادة توحيد شطري ألمانيا.

** 3 / 10 / 1990 إعادة توحيد ألمانيا الشرقية وألمانيا الغربية ضمن دولة واحدة.

** 13 / 10 / 1990 القوات السورية تجتاح جبل لبنان وتقوم بإخراج ميشيل عون من الحكومة وتدعم وجودها على التراب اللبناني لسنوات.

** 15 / 10 / 1990 منح جائزة نوبل للسلام للزعيم السوفيتي «ميخائيل غورباتشوف» لجهوده في تخفيف توترات الحرب الباردة، وما بذله في «إصلاح» أوضاع أمته.

** 20 / 11 / 1990 تسجيل ونشر أول «صفحة ويب» / أول «موقع ويب أونلاين» في التاريخ.

- - الفيزيائي بولرمان شارك مع فريقه بتطوير أول آلية بحث، XFIND «كنت أواجه مشكلات دوماً في العثور على أشياء»، بحسب روايته. في ذلك الحين كان فريق العمل في CERN يضم 60 جنسية. بولرمان على ثقة من أنه لولا صفحات الويب، لم يكن ممكناً لشبكة الإنترنت

أن تحقق هذه المسيرة الظافرة. لكن الخطوة الأكبر والأهم كانت مع تطوير أشكال المتصفح المختلفة، مثل فايرفوكس، إكسبلورر، موزيلا، وآليات البحث مثل ألفايسا وغوغل. فقد جعلت مجتمعة الإنترنت بسيطة إلى درجة أنه بات في مقدور كل إنسان استخدامها. «إن وصول شبكة الإنترنت إلى هذه الدرجة من الاستخدام الواسع كما هي اليوم، والمدى الذي يمكن أن يتوسع إليه المضمون والتغيرات المختلفة التي حصلت، لم يكن ممكناً حتى لتيم نفسه أن يتنبأ به»، بحسب بولرمان.

<http://info.cern.ch/hypertext/WWW/TheProject.html>

— التي تضمنت معلومات عن حكاية إنشاء موقع الويب على الإنترنت. وقد كانت تلك هي لحظة ولادة عالم الويب، وكان تيم بيرنرز-لي هو المؤسس لها.

مصدر هذه المعلومة :

<https://www.deutschland.de/ar/topic/lqtsd/lbtkr-wltqny/wl-mwq-wyb-fy-llm>

*** - 29 / 11 / 1990 مجلس الأمن يأذن في القرار رقم 678 باستخدام القوة العسكرية للتدخل في الكويت إذا لم تنسحب العراق منه بحلول 15 / 1 / 1991، ويصادف اليوم نفسه الذي أصدر فيه المجلس نفسه عام 1947 قراراً يقضي بتقسيم فلسطين ما بين العرب واليهود.

*** - 1 / 12 / 1990 إنشاء أول اتصال أرضي بين المملكة المتحدة وأوروبا القارية منذ العصر الجليدي الأخير، التقاء العمال من المملكة المتحدة وفرنسا على عمق 40 متراً أسفل قاع القنال الإنكليزي.

*** - 11 / 1990 سلوبودان ميلوسيفيتش

— كان رئيس صربيا ويوغوسلافيا من الفترة بين 1989 و 2000. تخرج في جامعة بلغراد في صربيا. قاد أيضاً حزب صربيا الاشتراكي منذ تأسيسه عام 1990. خلال هجوم الناتو على يوغسلافيا، اتهم بجرائم ضد الإنسانية من طرف المحكمة الجنائية الدولية ليوغسلافيا السابقة. أدت حركة أوتبور دوراً مهماً في إسقاطه. ومثل منذ عام 2001 أمام المحكمة الدولية لجرائم الحرب في لاهاي، هلك عام 2006 في السجن بينما كان ينتظر صدور الحكم بحقه، ويقال إنه انتحر أو نُحر.

*** - 12/ 1990 عرض الجزء الثالث من فيلم العراب.

— — العراب بالإنكليزية: The Godfather هو فيلم من فئة أفلام الجريمة المنظمة الهوليدوية («اجتماعي - سياسي - إنساني» أمريكي 1972 من إخراج فرانسيس فورد كوبولا وإنتاج إلبرت رودى وسيناريو بوساطة كوبولا وماريو بوزو، مقتبس عن الرواية التي تحمل الاسم نفسه لسنة 1969. الفيلم من بطولة مارلون براندو وآل باتشينو كقادة لإحدى أقوى عائلات الجريمة في نيويورك. القصة تمتد لسنوات 1945 - 1955

— — وتتمحور حول تحول المهاجرين الإيطاليين في الولايات المتحدة، وتتمركز حول عائلة وشخص مايكل كورليونى (آل باتشينو).
— — يُعدّ العراب على نطاق واسع واحدًا من أعظم الأفلام في السينما العالمية وواحد من أكثر الأفلام تأثيرًا، خصوصًا في أفلام العصابات. الفيلم الآن مصنف في المركز الثاني كأعظم فيلم في السينما الأمريكية وراء (المواطن كين) من قبل معهد الفيلم الأمريكي. اختير الفيلم ليحفظ في السجل الوطني للفيلم National Film Registry في 1990.

*** - 12/ 1/ 1991 الكونغرس الأمريكي يصوت على قرار محاربة العراق لأجل تحرير الكويت.

*** - 13/ 1/ 1991 القوات السوفيتية تهاجم فيلنيوس عاصمة ليتوانيا لإيقاف استقلالها.

*** - 15/ 1/ 1991 انتهاء مهلة الأمم المتحدة لانسحاب القوات العراقية من الكويت وبدء حرب الخليج الثانية ضد العراق.

*** - 19/ 1/ 1991 العراق يطلق 8 صواريخ سكود ضد إسرائيل ردًا على الهجوم الدولي بقيادة الولايات المتحدة على العراق وتصيب 15 شخصًا.

*** - 22/ 1/ 1991 سقوط 3 صواريخ سكود وواحد باتريوت على رمات غان في إسرائيل تسفر عن مقتل 3 أشخاص وإصابة 96 شخصًا.

*** - 25/ 1/ 1991 مجموعة من صواريخ سكود تصيب ثكنات للجيش

الأمريكي في مدينة الظهران في المملكة العربية السعودية وتقتل 29 جندياً أمريكياً وتصيب 99 آخرين.

*** - 13 / 2 / 1991 حرب الخليج: غارتان من قبل القوات الجوية الأمريكية على ملجأ العامرية في بغداد تسفر عن مقتل نحو 400 شخص مدني منهم أطفال، والولايات المتحدة ادعت أن الرئيس العراقي صدام حسين كان موجوداً هناك.

*** - 21 / 2 / 1991 - الجيش العراقي يفجر عددًا من آبار النفط في الكويت.

*** - 26 / 2 / 1991 الرئيس العراقي صدام حسين يعلن سحب القوات العراقية من الكويت وذلك بعد أن قامت القوات العراقية بإحراق آبار النفط الكويتية.

*** - 22 / 2 / 1991 العراق يقبل بالمقترح السوفيتي لوقف إطلاق النار، والولايات المتحدة ترفض هذا المقترح لكنها تعد العراق بأنها لن تهاجم القوات العراقية التي ستسحب من الكويت في غضون 24 ساعة.

- - وقد كذبت الولايات المتحدة بهذا الشأن، وهاجمت بالتشارك مع بريطانيا الجيش العراقي الأعزل المنسحب من الكويت من دون أسلحة ولا قدرة على الدفاع عن نفسه فأبادت ما لا يقل عن 100.000 إنسان خلال 100 ساعة، بقصف مركز وحشي بجميع الأسلحة المحرمة، وقد تم تنفيذ أكبر مذبحه للجنود شهداها العالم في تاريخه ما بين يومي 25 - 27 من شهر شباط - فبراير 1991.

مصدر هذه المعلومات موقع مدونة عشتار نقلاً عن صحفيين أجنب كانوا قد رافقوا الجيش الأمريكي والبريطاني في عملياتهما تلك:

<http://ishtar-enana.blogspot.com.es/20101/04/.html>

*** - 27 / 2 / 1991 جورج بوش الأب الرئيس الأمريكي يعلن انتصاره على العراق، ويوقف إطلاق النار استجابة لقرار الأمم المتحدة المتعلق بذلك.

*** - 9 / 3 / 1991 - بدء الاحتجاجات في بلغراد عاصمة يوغوسلافيا

ضد نظام الرئيس سلوبودان ميلوشيفيتش تسفر عن مقتل شخصين بعد
ملء الدبابات للمدينة.

*** — 10 / 3 / 1991 بدء انسحاب 450 ألف من القوات الأمريكية من
الخليج العربي.

*** — 15 / 3 / 1991 بدأ الانتفاضة الشَّعبانية - في شهر شعبان في جنوب
العراق وفي كردستان العراق بعد انهيار الجيش العراقي في حرب
الخليج، والتي قمعها وقضى عليها النظام العراقي بعد شهر من انطلاقها
على الرغم من هزيمته الكبرى في الكويت، حيث قام الجيش العراقي
في 2.4.1991 بمهاجمة المناطق الكردية المتمردة وتسبب بهروب
جماعي للكُرْد إلى الجبال وإلى الدول المجاورة (إيران، تركيا)
خوفاً من الإبادة الجماعية من قبل الجيش العراقي، حيث فر أكثر من
(2500000) مليونين ونصف المليون من المواطنين وسيطر الجيش
العراقي - أو من تبقى منه بعد سحقه لدى انسحابه من الكويت على
المدن الكبرى مرة أخرى.

*** — 3 / 4 / 1991 الأمم المتحدة تناشد العراق بالتخلص من أسلحة
الدمار الشَّامل والعراق يوافق عليها في 6 نيسان/ أبريل.

*** — 5 / 4 / 1991 البوسنة والهرسك تعلن استقلالها عن يوغوسلافيا.

*** — 15 / 4 / 1991 افتتاح البنك الأوروبي لإعادة البناء والتنمية.

*** — 24 / 5 / 1991 إريتريا تُعلن استقلالها من إثيوبيا، وإثيوبيا تصبح
دولة مُغلقة بحرياً.

*** — 12 / 6 / 1991 بوريس يلتسن ينتخب رئيساً للاتحاد السوفيتي.

*** — 20 / 6 / 1991 اختيار برلين عاصمة لألمانيا الموحدة وذلك بعد
تصويت برلماني كانت نتيجته موافقة 336 مقابل 321 صوتاً معارضاً.

*** — 30 / 6 / 1991 - إلغاء سياسة - التفرقة العنصرية في جنوب أفريقيا.

*** — 1 / 7 / 1991 الإعلان عن انهيار حلف وارسو بعد لقاء الدول في
براغ.

*** — 31 / 7 / 1991 الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي يوقعان على
اتفاقية لتحديد حجم الأسلحة النووية في العالم.

*** 23/8/1991 أعلن في الاتحاد السوفيتي حل جهاز الاستخبارات السوفيتية كي جي بي بعد تورطه في انقلاب فاشل.

*** 25/8/1991 القوات اليوغسلافية مع العصابات الكرواتية تعلن الحرب على كرواتيا وتبدأ بالهجوم على مدينة فوكوفار في معركة فوكوفار.

*** 1/9/1991 الاتحاد السوفيتي يعلن عن سحب القوات السوفيتية من كوبا وينهي المعونات الاقتصادية لها.

*** 18/10/1991 الاتحاد السوفيتي يرجع علاقاته مع إسرائيل منذ أن قطعت في عام 1967 بعد حرب الستة أيام.

*** 30/10/1991 افتتاح مؤتمر مدريد 1991 لحل المشاكل بين العرب وإسرائيل/ مؤتمر سلام عقد في مدريد في إسبانيا في تشرين الثاني/ نوفمبر 1991، وشمل مفاوضات سلام ثنائية بين إسرائيل وكل من سوريا، لبنان، الأردن وفلسطين. وكانت محادثات ثنائية تجري بين أطراف النزاع العربيّة (لبنان، سوريا، الأردن، فلسطين) وإسرائيل وأخرى متعددة الأطراف تبحث المواضيع التي يتطلب حلها تعاون كل الأطراف.

*** 2/1/1992 دخول إسبانيا رسمياً وبعام قبل الموعد المحدد ضمن نطاق معاهدة حُرّيّة التنقل والعمل للمواطنين الإسبان في المجال الاتحادي الاقتصادي الأوروبي.

*** 9/1/1992 جمهورية صرب البوسنة تعلن انفصالها عن البوسنة والهرسك وسط عدم رضا من قبل البوشناق وكروات البوسنة والهرسك.

*** 12/1/1992 مجلس الأمن الأعلى يتسلم مقاليد السلطة في الجزائر بعد الفوز الساحق للإسلاميين في الجولة الأولى من الانتخابات البرلمانية في الجزائر ويلغي الانتخابات الديمقراطية ويعتقل قادة الجبهة الإسلامية - للإنقاذ.

*** 24/1/1992 الصين تعيد علاقاتها الدبلوماسية مع إسرائيل.

- *** — 29/1/1992 الهند تعلن إقامة علاقات دبلوماسية كاملة مع إسرائيل وتبدأ في تبادل السفراء مع تل أبيب.
- 31 كانون الثاني/يناير 1992 عقد أول اجتماع قمة لمجلس الأمن في المقر ويعلنون عن البدء في سياسة جديدة بعد نهاية الحرب الباردة.
- 1 شباط/فبراير 1992 الرئيس الأميركي جورج بوش الأب يلتقي الرئيس الروسي بوريس يلتسن في كامب ديفيد ويعلنان عن نهاية الحرب الباردة.
- 7 شباط/فبراير 1992 معاهدة الاتحاد الأوروبي التي تعرف أيضًا باسم اتفاقية أو معاهدة ماسترخت هي الاتفاقية المؤسسة للاتحاد الأوروبي وأهم تغيير في تاريخه منذ تأسيس المجموعة الأوروبية في نهاية الخمسينيات.
- 9 شباط/فبراير 1992 إعلان حالة الطوارئ في الجزائر بعد الأزمة السياسية في البلاد.
- 11 آذار/فبراير 1992 دولة الكويت وبريطانيا توقعان مذكرة تفاهم كويتية - بريطانية حول التعاون الدفاعي بين البلدين
- 1 آذار/مارس 1992 البوسنة والهرسك تعلن انفصالها عن يوغوسلافيا.
- 5 نيسان/أبريل 1992 بداية الحرب في البوسنة والهرسك. وبداية حصار سراييفو.
- 6 نيسان/أبريل 1992 دول المجموعة الأوروبية الـ 12 تعترف بالبوسنة والهرسك.
- 7 نيسان/أبريل 1992 الولايات المتحدة تعترف بكمالاتيا وسلوفينيا والبوسنة والهرسك، ودول السوق الأوروبية المشتركة تعترف باستقلال البوسنة والهرسك.
- 16 نيسان/أبريل 1992 الثوار الإسلاميون الأفغان يختطفون الرئيس الأفغاني محمد نجيب الله في العاصمة الأفغانية كابول.
- 17 نيسان/أبريل 1992 لجنة ترسيم الحدود الكويتية - العراقية تقر الخريطة النهائية للحدود البرية المشتركة بين البلدين.
- 25 نيسان/أبريل 1992 افتتاح القسم الكردي لراديو صوت أمريكا.

- 5 أيار/ مايو 1992 القادة الروس في القرم يُعلنون انفصال القرم عن أوكرانيا لكنهم يغيرون رأيهم في 10 أيار/ مايو.
- 16 أيار/ مايو 17 أيار/ مايو 1992 قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة تنسحب من سرايفو عاصمة البوسنة والهرسك.
- 29 حزيران/ يونيو 1992 اغتيال الرئيس الجزائري محمد بوضياف في أثناء احتفال رسمي بأحد المسارح في العاصمة وذلك بعد مدة قصيرة من توليه الرئاسة وبعد أن ظل لاجئاً في المغرب 25 سنة.
- 13 تشرين الثاني/ يوليو 1992 تسلم إسحق رابين منصب رئيس وزراء إسرائيل للمرة الثانية.
- 28 آب/ أغسطس 1992 إيران تبسط سيطرتها الكاملة على جزيرة أبو موسى بعد أن كانت تسيطر عليها جزئياً منذ عام 1971.
- *** — 31 تشرين الأول/ أكتوبر 1992 تسلم رفيق الحريري منصب رئيس وزراء لبنان لأول مرة.
- 13 تشرين الثاني/ نوفمبر 1992 المنظمة العالمية للأرصاد الجوية تُعلن انخفاضاً في طبقة الأوزون في القطب الجنوبي والقطب الشمالي.
- 992 شركة فودافون تُطلق لأول مرة خدمة رسائل إس إم إس في بريطانيا العظمى.
- 26 كانون الأول/ ديسمبر 1992 أعيد افتتاح أبراج الكويت بعد أن تعرضت في الغزو العراقي للكويت للتخريب والسلب والدمار، حيث قام وزير المالية ووزير التخطيط ناصر الروضان بافتتاح الأبراج.
- 29 كانون الأول/ ديسمبر 1992 قام تنظيم القاعدة بأول عملية هجوم بتفجير قبلتين في عدن، اليمن. الهدف الأول هو فندق موفنيك، والثاني موقف السيارات التابع لفندق جولد مور (شيراتون).
- *** — 1992 عرض فيلم «الحارس الشخصي» بالإنكليزية: The Bodyguard من إخراج ميك جاكسون[4]، وتأليف لورانس كازدان، تكمن أهميته في الموسيقى المصورة الخاصة به، والتي أصبحت

الموسيقى المصورة الأكثر مبيعاً على الإطلاق، مع أكثر من 45 مليون نسخة بيعت في جميع أنحاء العالم.

1/ 1/ 1993 الاتحاد الأوروبي يزيل القيود التجارية بين دوله معلناً بدء السوق الأوروبية الموحد.

1/ 1/ 1993 افتتاح القناة الإخبارية الأوروبية الموحدة، والتي تبث باللغات الأوروبية الخمس الرئيسية - «أورونيوز» - Euronews.

*** - 27/ 3/ 1993 بسبب حملة التشيع الجزائر تقطع علاقاتها بإيران.

*** - 16/ 4/ 1993 الحرب البوسنية: إعلان مقاطعة سربرينيتسا في البوسنة والهرسك منطقة خالية من السلاح ومحمية من الأمم المتحدة.
20/ 4/ 1993 بيل كلينتون يتولى رئاسة الولايات المتحدة الأمريكية ليكون الرئيس 42.

*** - 6/ 6/ 1993 إعادة انتخاب فيليب غونثالث رئيساً للحكومة الإسبانية.

*** - 3/ 10/ 1993 تحولت الأزمة الدستورية في روسيا إلى صدام مسلح بين أنصار السوفييت الأعلى «البرلمان» وقوات الشرطة والأمن والجيش، وتم قصف البرلمان الروسي وإخلاءه، وأعلن الرئيس يلتسن حالة الطوارئ ودخلت قوات الجيش موسكو العاصمة.

مصدر هذه المعلومة : منتدى الجيش العربي

<http://www.arabic-military.com/t21492-topic>

*** - 17/ 11/ 1993 الإعلان رسمياً عن انتهاء حكم الأقلية العنصرية البيضاء في جنوب أفريقيا Apartheid.

*** - 12/ 12/ 1993 أول انتخابات تشريعية في روسيا.

*** - 30/ 12/ 1993 إعادة العلاقات الدبلوماسية بين الفاتيكان وإسرائيل، بعد توقيع اتفاق في القدس بين الطرفين وُصف بالتاريخي.

*** - 14/ 1/ 1994 الرئيس الأميركي بيل كلينتون والرئيس الروسي

بوريس يلتسن يتفقان على تفكيك أسلحتهم النووية الموجودة خارج بلدانهم ويتضمن هذا الاتفاق الأسلحة النووية الموجودة في أوكرانيا.

*** - 21/1/1994 هلاك باسل الأسد بحادث سيارة، وهو ابن الرئيس السوري حافظ الأسد، الذي كان يستعد لوراثة الحكم عن أبيه.

*** - 22/1/1994 أكثر من مئة أستاذ جامعي ومختص في اللغة الإسبانية يجتمعون في مدينة «أويلبا» في مقاطعة أندلوثيا الإسبانية ويتفقون على دعوة حكومات بلادهم للدفاع عن اللغة والثقافة الإسبانية.

*** - 5/2/1994 جيش صرب البوسنة يقتل 68 شخصاً ويصيب 200 شخص في منطقة تسوق في عاصمة البوسنة والهرسك سرايفو. والولايات المتحدة تفرض حظراً جويّاً في أجواء البوسنة والهرسك في الثامن والعشرين من الشهر نفسه إثر هذه الحادثة.

*** - 6/4/1994 مقتل رئيس رواندا ورئيس بوروندي على الطائرة نفسها بعد إطلاق قذيفة عليها بالقرب من عاصمة رواندا كيغالي وبدء أعمال الإبادة الجماعية في رواندا.

- - يُعدّ هذا اليوم واحداً من أكثر أيام التاريخ الإنساني سواداً، إذ بدأت فيه مجازر تطهير وإبادة عرقية قتل فيها ما لا يقل عن 800.000 شخص من التوتسي بمعدل 11٪ من التوتسي الذين كانوا يعيشون في رواندا، أي 80٪ من أفراد هذه القومية، فضلاً عن النزوح القسري والطوعي لملايين الأشخاص باتجاه الدول المجاورة هرباً من وحشية أعمال الإبادة.

*** - 12/4/1994 اتفاق بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية - على نشر 9000 رجل من قوات شرطة فلسطينية في قطاع غزة وأريحا.

*** - 15/4/1994 في مراكش تم التوقيع بين الاتحاد الأوروبي و124 دولة أخرى على مراجعة وتعديل معاهدة «الجات» التجارية، التي تعيد صياغة القيود على حركة التبادل التجاري الدولية.

*** - 27/4/1994 إجراء أول انتخابات ديمقراطية حرة في جنوب أفريقيا وانتخاب نيلسون مانديلا أول رئيس ديمقراطي.

*** - 6/5/1994 اكتمال حفر نفق المانش الذي يربط بين فرنسا

وبريطانيا، بعد أعمال حفزية استمرت 7 سنوات، وقد أطلق عليه «نفق الأورو» «Eurotunnel».

*** — 6/6/1994 الاتفاق على وقف إطلاق النار في حرب يوغوسلافيا.

*** — 16/7/1994 نهاية الحرب الأهلية الرواندية.

*** — 26/10/1994 إسرائيل والأردن توقعان اتفاقية سلام لانهي سلسلة حروب بينهما كانت قد بدأت منذ سنة 1948.

*** — 3/12/1994 اليابان تطلق أول جهاز بلاي ستيشن/ شركة سوني، للبيع

*** — 14/12/1994 جائزة نوبل للثلاثي ياسر عرفات، وإسحق رابين، وسيمون بيريز.

*** — 1/1/1995 بدء وقف إطلاق النار لأربعة أشهر في البوسنة والهرسك.

- - قوات روسيا - تدخل وتسيطر على العاصمة الشيشانية غروزني.

*** — 7/1/1995 قصف وتدمير العاصمة الشيشانية غروزني من قبل الجيش الروسي وحرق القصر الرئاسي.

*** — 13/1/1995 الأمم المتحدة توجه اتهامات لـ 21 قائداً من صرب البوسنة بجرائم حرب وضد الإنسانية بحق شعب البوسنة.

*** — 14/3/1995 المصادقة في إسبانيا على منح مدينتي سبتة وميليلة صلاحيات الحكم الذاتي بعد أن كانتا ملحقتين بناحيتي ملغا وكاديث التابعتين لمقاطعة أندالوثيا.

*** — 21/3/1995 تطوير محرك البحث ياهو YAHOO

*** — 11/7/1995 القوات الصربية تقوم بمذبحة سربرنيتسا بقيادة الجنرال راتكو ملاديتشو تقتل آلاف البوسنيين الذكور في البوسنة والهرسك من الشبان والشيوخ والأطفال وذلك بينما كانوا بحماية القوات الهولندية المشاركة في قوات حفظ السلام في البوسنة والهرسك / 8000 - شهيد حصيلة المجزرة.

*** — 5/8/1995 الجيش الكرواتي يسيطر على العاصمة الصربية الكرواتية.

*** — 24/8/1995 مايكروسوفت ويندوز، تطلق ويندوز 95، —
Windows 95، ومحرك البحث إكسبلورر - Internet Explorer web navigator

*** — 5/10/1995 الولايات المتحدة تفرض وقف إطلاق النار في البوسنة.

*** — 15/10/1995 إعادة انتخاب صدام حسين، بعد إعلان العراق تخلصه من أسلحة الدمار الشامل.

*** — 22/10/1995 بيل كلينتون يفتتح الاحتفال بالذكرى الخمسين لتأسيس الأمم المتحدة بإعلان ليبيا والعراق والسودان وإيران دول داعمة للإرهاب.

*** — 4/11/1995 اغتيال إسحق رابين على يد أحد الإسرائيليين الرافضين لعملية السلام بين إسرائيل والفلسطينيين.

*** — 14/11/1995 الأطراف المعنية بحرب البوسنة توقع على اتفاق سلام.

*** — 15/11/1995 توقيع اتفاق دايتون لرسم خارطة السلام البوسنية في باريس.

*** — 15/11/1995 دول الاتحاد الأوروبي تتفق في مدريد على ولادة العملة الأوروبية الموحدة «الأورو» - EURO

*** — 16/11/1995 الولايات المتحدة توجه الاتهامات لرادافان كاراديتش وراتكو ميلاديتش بالمسؤولية عن جرائم التطهير العرقي في مذبحة سيربرينيتشا.

*** — 27 - 28/11/1995 الشراكة الأورو متوسطية أو (عملية برشلونة) أو يوروميد «EUROMED». بدأت عام 1995 من خلال مؤتمر برشلونة الأورو متوسطي والذي اقترحه إسبانيا ونظمه الاتحاد الأوروبي لتعزيز علاقاته بالبلدان المطلة على البحر المتوسط في شمال أفريقيا وغرب آسيا. كما اقترح فيه عديد السياسات من بينها الأمن والاستقرار في منطقة البحر المتوسط، تعزيز الديمقراطية والحكم الرشيد وحقوق

الإنسان. تحقيق شروط تجارية متبادلة مرضية لشركاء المنطقة. وضعت تلك الشراكة الأسس لما بات يعرف بالاتحاد من أجل المتوسط وبناء مؤسساته من دون أن يحل محل الشراكة الأورو متوسطية.

- - وقد بقي كل ما فيه حبراً على ورق، خصوصاً فيما يتعلق بحقوق الإنسان والديمقراطية، ما عدا التعاون الأمني الوثيق بين بلدان ضفتي المتوسط الشمالية والجنوبية والشرقية لقمع الشعوب وحرمانها من حقها في تقرير مصيرها.

وبدا ذلك جلياً منذ انفجرت ثورة الربيع العربي، من خلال الطريقة التي تعاملت بها بلدان أوربا مع هذه الثورات سرّاً وعلناً.

*** - 1994 - 1996 الحرب الشيشانية الأولى، والمعروفة أيضاً باسم الحرب في الشيشان، هي حرب دارت رحاها بين روسيا والشيشان بين كانون الأول/ ديسمبر 1994 وآب/ أغسطس 1996. أدت إلى استقلال فعلي.

*** - 2004 - 1996 خوسه ماريّا أثنار رئيساً للحكومة الإسبانية عن حزب الشعب المحافظ، بعد هزيمة الاشتراكيين.

*** - 1/ 11/ 1996 تأسيس وانطلاق قناة الجزيرة القطرية الفضائية، التي كانت فتحاً غير مسبوق في الإعلام العربي في حينها.

*** - 1997 بدء انتشار استعمال الهواتف المتنقلة في إسبانيا.

*** - 2000 بدء استعمال الإنترنت في إسبانيا.

مَلاحِقُ نُغُوِيَّة

- لفظ سوريا، وسوريا، وأورُبا، وأورُبا، يجوز الوجهان في كتابتهما باللغة العربيَّة/ متتدى مجمع اللغة العربيَّة على الشبكة العالمية .
- جميع الأسماء الأجنبية الواردة في الكتاب، كُتبت باللغة العربيَّة بالطريقة نفسها التي تلفظ بها في اللغة الإسبانية، وليس الإنكليزية.
- كُتبت الأعداد بأصل كتابتها العربي 1,2,3....

❖❖ شُكْر وامتنان لكلّ من المُصمِّمين الفنّانين السُّوريين:
تَمّام عَزّام، ومصطفى يَعقوب، على تَفَضُّلِهِما بالسَّماح بالإِسْتِفادة
من لَوْحَتَيْن، من تَصامِيمِهِما الخاصّة بالثُّورة السُّوريّة 2011، في
تصميم غلاف هذا الكتاب.

لَوْحَةُ الغِلاف الأماميّة للفنان تمام عزام، والتي تحكي حكاية
هِجْرَةٍ .. أَوْرَقَتْ وَأَزْهَرَتْ أَمَلًا وَجَمالًا.

ولوحة الغِلاف الخلفيّة، والتي سَمّاها المُصمِّم مُصْطَفَى
يعقوب، «عَرَقُ»، وَسَمِيَّتُها: هُويّة...

مورا في مدريد

هذا كتاب يحكي حكاية «غربة سورية» ضمن غربات متداخلة مترابكة، تمتد من دمشق مروراً بغرناطة وصولاً إلى مدريد، ما بين عامي ١٩٨٥ و ١٩٩٥ أواخر القرن العشرين، بكل ملابسات الغربة، السياسية والثقافية والفكرية والاخلاقية والاجتماعية والدينية و.. الإنسانية، من خلال «بعض» سيرة، ليست «ذاتية»، وإنما «سيرة جماعية»، لحدود تفصل فيها بين الخاص والعام، تتشابك فيها السير والشخصيات والأحداث، تراوح ما بين الواقعي والتركيبى لتنسج، من وجهة نظر الكاتبة، نأياً حياة شريحة هامة جداً من المغتربين، لم يتحدث باسمهم أو يكتب عنهم أحد. ليس هذا الصوت الأثوي الذي يقوم بالسرد بصيغة «الأنا»، إحدى شخصيتي الكتاب الرئيسيتين، ولا هذه الذاكرة الجماعية التي تستعرض الأحداث والحوارات. شخصيتا الكتاب الرئيسيتين هما: «الغربة»، كل «غربة».. و«المورا»، كل «مورا»!.

كل «مورا» تعيش في مدريد، أو في أي مدينة أوروبية كمدريد، بمعاناتها بذكرياتها بمقارناتها بواقعها، بتطلعاتها، بانتمائها، وباعتبارها «مثلة» عن كل الغرباء الآتين من ذلك الشرق القريب المجهول، أو هذا الجنوب الملائق البعيد..

أولئك الغرباء رجالاً ونساءً، المرفوضون المَعْدَبُونَ، حيث تختلط معاني لفظ «عربي» بلفظ «مسلم»، ولفظ «مهاجر» بلفظ «مُهان»، أربعة كلمات ترسم حدود هذا الوجود الجديد الذي يتمثل في دلالات كلمة - مصطلح «مورو». وجودٌ موجع، حيث يتمدد سرطان الغربة في الروح، يعيش فيها كشجرة صَبَّار، يعطشها وأشواكها كما بأزهارها الإفريقية المدهشة الزرقاء والأرجوانية. هكذا ترهر الغربة من حيث ندرى ولا ندرى.. لتصبح هوية، كذلك التي ترفضها كلمة «مورو».. هوية جديدة مركبة شائكة، متعددة الأبعاد، مغلقة أضلاعها علينا وكأنه لا أمل في انخلاع أو خلاص.

أصبحت غريبتنا في رحلة بحثنا عن الهوية.. «هوية». هوية طالما شكلت في المهجر، معضلة، غولاً يفترسنا.. نشعر به ولا نراه، نلمسه ولا نستطيع استيعاب وحشيته وقدرته على الابتلاع والتمزيق.

ولكن.. ودائماً وعلى الرغم من إطباق جدران هذا السجن المرفوعة من صخور الكراهية، وإسمنت الحقد، وقضبان العنصرية.. نجد في آخر الدرب كوة النور، تودي بنا إلى التحرر والتحليق في سماء الخلاص الزرقاء المرصعة بآلاف النجوم الذهبية والوردية تزهو في القلوب الملأى بالجمال، وفي الضمائر الإنسانية الحية.



ISBN: 978-9933-28-525-8



9 789933 285258

طريق المطار خلف مستشفى الساحل
قرب مدرسة المصطفى-بناية بدير
☎ +961 3 703 701 ☎ +961 1 556 976
daralkalam darkalam
www.alkalam.com info@alkalam.com

